جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم التاريخ

# الأثار السياسية و الاقتصادية للعلاقات المغوليّة – المسيحيّة – المماليكيّة منذ سنة 643هـ/ 1245م إلى سنة 807هـ/1405م

مذكّرة مقدمة لنيل شهادة الدكتراه في التاريخ الوسيط

قائمة أعضاء لجنة المناقشة:

| | |
|---|---|
| -أ.د. عبد العزيز بوكنة | رئيس اللجنة |
| -أ.د. أحمد شريفي | مشرفا ومقررا |
| -أ.د. قويدر بشار | عضوا |
| -أ.د. نبيلة عبد الشكور | عضوا |
| -د. سيدي موسى محمد شريف | عضوا |
| -د. فاطمة بوعمامة | عضوا |

من إعداد الطالب :
مصطفى بن حسين

تحت إشراف الأستاذ:
أ. د .أحمد شريفي.

السنة الجامعية 1436- 1437هـ/2015- 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع:

إلى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

و إلى كلّ شريف رفع راية الحق بعلم وخشية وذاد عنه.

و إلى والدي الذين سهرا على تربيتي و تعليمي حتى صرت رجلاً.

و إلى أستاذي الدكتور المحترم أحمد شريفي الذي شجعني، و علّمني من بعض ما علّمه الله، جزاه الله عنا كلّ خير، آمين...

مصطفى بن حسين.

# أهم الاختصارات

| | |
|---|---|
| A.I.B.L. | Academie des Inscriptions et Belles Lettres. |
| Ds. | Dans |
| C.M.H. | Cambridge Mideaval History. |
| C.U.P. | Cambridge University press. |
| D.A. | Documents Armeniens. |
| D.O. | Documents Orientaux. |
| H.O. | Historiens Occidentaux. |
| J.A. | Journale Asiatique. |
| P.U.F. | Presse Universitaire de France. |
| R.H.C. | Receuil des Historiens des Croisades. |
| SP. | Speculum. |

# مقدمة

## I- أهميّة الموضوع وإشكاليّته :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد ... فقد شكّل اكتساح المغول، منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، لمناطق شاسعة من آسيا وأوربا الشرقيّة مُنعطفًا ملموسا للمسار الحضاري، شرقًا وغربًا، لما أحدثه من تغيّرات جغرافيّة وسياسيّة وعقديّة، ولهول الخراب والفوضى التي كانت جيوشها البُدائيّة تُحدثُها عبر الأقاليم والدول التي سقطت في قبضتها، فالحدث إذا له أهميّته الخاصّة في تاريخ المشرق الكبير، لما له من انعكاسات بالغة التأثير على العالمين الإسلامي والمسيحي، فكان إيذانًا ببعث علاقات استراتيجيّة بين عُنصرين المغولي والصليبي، في أوربا والمشرق، وذلك في إطار الحركة الصليبيّة الرامية إلى تقويض أركان الإسلام في الشرق والغرب، كانت نتيجتُه ميلاد عصر جديد استحقّ تسميته عصر المغول.

الواضح أنّ المشرق الإسلامي تعرّض منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، و لفترة تزيد على ثلاثة قرون، لأخطار خارجيّة، بلغت من الشدّة والعنف ما كاد يلحق الضرر بالحضارة الإسلاميّة و جاءت هذه الأخطار، أوّل الأمر، من جهة الغرب المسيحي، بإقامته إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، في عمق المشرق الإسلامي، ولكن ما لبث القائد صلاح الدين الأيُّوبي أن استردّ ، بعد معركة حطّين في 25 ربيع الثاني سنة (583هـ/1187م)، بيت المقدس وسائر ما بأيدي الصليبيّين من حصون، ولم يبق، لهؤلاء الصليبيّين، سوى أنطاكية وطرابلس والساحل بين مدينتي صور ويافا، التي بقيت في اتصال دائم بغرب أوربّا.

وأثناء هذه الأحداث، كان يسود العالم المسيحي، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، أسطورة عرفت باسم : أسطورة الكاهن يوحنّا مفادُها أنّه سوف يظهر في الشرق البعيد أمير مسيحي يملكُ من السلطان والقُوّة ما يُمكنُه من مساعدة الصليبيّين ومهاجمة المسلمين من الشرق، والسيطرة على بيت المقدس، وانتظر الغرب الأوربّي، والصليبيُّون في المشرق، هذه المساعدة، ولكنّها لم تتحقّق، إلاّ أنّ بوادر هذه الأسطورة بدأت تظهر حوالي عام 616-617هـ/1219م عندما بدأ المغول في اجتياح أراضي الدولة الخوارزميّة، و وصلت هذه الأخبار إلى الصليبيّين وهم يُحاصرون مدينة دمياط المصريّة في العام نفسه، وحينئذ اعتقد الصليبيُّون

والغرب الأوربّي أنّ جنكيزخان، زعيم المغول، يُمثّلُ شخص الكاهن يوحنّا، ثُمّ توالت الأخبار عن انتصار المغول في عام 1223م بجنوب روسيا، و جومهم على جورجيا النصرانيّة، Kalkaمعركة نهر كالكا وبعدها هنغاريا سنة 1236م، ففزعت أوربّا بأسرها وكأنّ الغزوات الجرمانيّة قد عادت إليهم من جديد. وكان فريدريك الثاني، الأمبراطور الألماني، ممّن نادى، دون جدوى، سنة 1241م بحملة صليبيّة ضدّهم، ثمّ جاء دور البابويّة لتحريك العواطف ضدّ المغول وذلك في عهد البابا جريجوري التاسع، ثُمّ البابا إنوسنت الرابع، ولكن سرعان ما تغيّر عزمهم نحو العمل على تنصيرهم وتغيير وجهتهم إلى تدمير الإسلام وأهله، بالتحالف معهم، والواضح أنّ الحركة البابويّة التنصيريّة الكبرى في آسيا بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديّين ترجع إلى انعقاد مجمّع ليون Lyon الكنسي سنة 1245م، الذي ترأسه البابا الصليبي إينوسنت الرابع Innocent IV حيث ناشد ملوك أوربا لإنقاذ النصرانيّة المتهاويّة في آسيا، وخاطب ثنتان من كبريات الهيئات النصرانيّة التبشيريّة، بعين الخصوص، وهما هيئة الدومنيكان وهيئة الفرانسيسكان المتمرّستان في الميدان، فأثمر ذلك اللقاء التاريخي بإرسال فرق تترى من المبشرين والدبلوماسيين إلى المغول وغيرهم، كانت أولاها بقيادة الفرانسيسكاني يوحنّا دي بلان دل كاربين Jean de Plan Carpin الذي أرسل بمهمّة تنصير الخان المغولي وجذبه للتحالف ضد المسلمين وكذا محاولة ضمّ الكنيسة الشرقيّة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة الغربيّة، وبعده تحرّكت البعثات والإرساليّات بين الطرفين، المغولي والأوربي، ومنها مُحاولة البابويّة الرامية إلى دفع الملك الفرنسي لويس التاسع، المعروف بالقديس، وملوك وأمراء أوربا إلى العمل على مدّ جسور التحالف مع المغول، لكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل لأنّ هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم سادة العالم، ويأمرون أوربا بإعلان الخضوع الفوري لهم، مما أدّى إلى تلاشي آمال الأوربيّين في هذه المرحلة، لولا أنّ تدخُّل هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، بمبادرة ناجحة والتي تمكّن بموجبها من عقد تحالف مع المغول.

أمّا المسلمون فكانوا في غفلة عن هذه الأحداث، بسبب تفكُّك عالمهم إلى إمارات متفرّقة ومتشاحنة، أضعفت طاقاتها، الماديّة والبشريّة بشكل كبير، فضاعت من أيديهم مكاسب الوحدة التي حقّقها صلاح الدين الأيُّوبي في بلاد الشام ومصر، بجهود مُضنية، وقد ظهر عجز هذه الإمارات الإسلاميّة، إبّان هذه الظروف، بشكل واضح وملموس إذ لم تلبث أن سقطت تحت ضربات التحالُف المغولي الصليبي الأرمني، بوتيرة سريعة، إلاّ أنّ تلك القُوّة وجدت لها في منتصف ذلك القرن قاهرًا تمثّل في مماليك مصر الذين قوضهم الله سُبحانه، رحمة للبشريّة

وبُرهانًا على قُدرته، فهزموهم في معركة الفصل بعين جالوت سنة 658هـ/1260م، وغيرها، ولعلّ السبب في ذلك الإنهزام راجع لبداية انقسام دولة المغول بعد وفات جنكيزخان، وإسلام بعض حُكّامها المُهمين مثل بركة، خان القبجاق، ما جعله شوكة مُؤلمة في حلق قُوى التحالُف المغولي الصليبي ضدّ المسلمين.

لقد أدّى انهزام التحالف المغولي الصليبي، في معركة الثأر الإسلامي بعين جالوت، إلى تغيُّر موازين القُوى، مرّة أخرى، بالشرق الإسلامي كلّه بظهور قوّة المماليك المصريّة الفتيّة، ففزع لذلك المغول والصليبيّون في الشرق والغرب على السواء، لأنّ ذلك كان إيذانًا إلى سقوط جميع مكتسبات ذلك التحالف التاريخي، وزوال قواعد أوربّا الخلفيّة في الشرق والمتمثّلة في الإمارات الصليبيّة بالشام.

وعلى هذا رأى المغول، بعد تلك النقطة الحسّاسة، ضرورة السبق، هذه المرّة، بالمبادرة إلى عقد التحالفات مع المسيحيّين الأوربيّين وتجديد العهد معهم لتقويض قُوّة الإسلام، في بلاد مصر والشام، التي باتت تُشكّلُ خطرًا ماثلاً أمام التوسُّع المغولي والوجود الصليبي على السواء في منطقة الشرق، فبادر الإيلخان المغولي هولاكو بالإرسال إلى أوربا والصليبيين في الشرق يطلب المدد ضدّ المماليك، وفي موازات ذلك رأي المماليك في إسلام بعض حُكّام المغول حُلفاء لا يُستهانُ بهم لتقويض أعداء دينهم وصدّهم عن بلادهم، ومن ثَمَّ التفرُّغ كليّة لإخراج الصليبيّين منها، على أنّ هؤلاء وحلفائهم ومحرّضيهم في أوربّا، لم يُوَفّروا جهدًا لتثبيت تلك الأقدام، أو إعادة إحياء تلك الإمارات الصليبيّة فيها بعد أن انطفأ وجودهم فيها منذ سنة 1291م، ما دفع أوربّا وباباواتها إلى معاودت الاتصال بحلفائهم المغول من أجل ذلك، وتكثيف السفارات والإرساليّات التبشيريّة في أوساطهم، وكذا إنشاء مراكز تبشيريّة على الأراضي المغولية الغرض منها تنصير هؤلاء ليكونوا رأس حربتهم ضد أعدائهم، خاصّة وقد لمست البابويّة ذلك التسامح الديني بين المغول، وثنيّيهم ومسلميهم، مُستقبلا، ضف إلى ذلك مخطّطات البابويّة في أوربّا لمحاصرة سلطنة المماليك اقتصاديًا في سبيل إضعافها، ثُمّ بعث روح الحملات الصليبيّة القديمة مُجدّدًا لاسترداد بلاد الشام بأكملها.

ولقد أدّى، أيضا، التسامح الديني والسياسي، الصوريّين، الذي اشتهرت به امبراطوريّة المغول إلى توغّل الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان في آسيا للتبشير بالمسيحيّة وإقامة مراكز لهم هناك وعلى رأسهم يوحنا دي مونت كورفينو Jean de Monte Corvino، بينما كانوا من قبل ممنوعين في ظل الحكم الإسلامي، وتمّ تبادل السفراء بين كلّ أنحاء امبراطوريّة

المغول والغرب الأوربي، وظهرت قوافل التجار الإيطاليين، منهم عائلة بولو والجنوية والبيزية والبنادقة والأرجونيّة وغيرهم، في أنحاء الصين المغوليّة وإيران وغيرها، فأثّرت أيّما تأثير على صفحة المشهد السياسي والاقتصادي في المنطقة، وذلك كلُّه ما سوف نُحاول الكشف عنه.

وهكذا فإنّ هذه الدراسة تكتسي، بهذا الشكل، أهميّة مُثلى لما لها من أثر الكشف عن الأهداف المغوليّة الصليبيّة الوثنيّة التوسُعيّة الامبرياليّة، وصيرورة الأحداث المتتاليّة في منطقة الشرق خاصّة بعد بروز قوّة المماليك المصريّة الفتيّة التي هزمت المغول وأوربّا الصليبيّة في مواقع كثيرة، والتي باتت خطرًا داهمًا على مصالح الظلاميّة، شرقاً وغرباً، وعلى استقرار الإمارات الصليبيّة في قلب العالم الإسلامي في الشرق، ثُمّ أثر هذه العوامل المتجدّدة والمتداخلة على أولائك المغول البُدائيّين، واندماجهم في الأُمم والحضارات التي غزوها فأصبحوا وكأنّهم منها، مُدافعين عنها وناصرين لها، وأثر ذلك الصراع المتشابك على سلطنة المماليك خاصة والمناطق التي غزاها المغول عامّة وما جاورها، على الصعيدين السياسي والاقتصادي .

ولا شكّ أنّ هناك دوافع موضوعيّة شجّعتني على خوض غمار هذا الموضوع المتشابك الأوصال منها مستجدّت الأحداث في القرن الخامس عشر الهجري/الواحد والعشرين الميلادي الذي عاود فيه الصليبيون والمجوس، متحالفين، هجمتهم على العلم الإسلامي، وما أشبه زماننا بزمان المماليك في مصر والشام، ظف إلى ذلك نُدرة الدراسات العلميّة المغاربيّة المتخصّصة التي تُعالجُ مثل هذا البحث ممّا أدّى إلى عدم وفرتها في المكتبات الوطنيّة. وممّا حثّني أيضًا على تحقيق هذا العمل، توجُّه معظم اهتمامات الدارسين إلى الظواهر العسكريّة، التي كانت ساحة الشرق مرتعًا لنشاطها، فيما أُهمل جانب العلاقات الإسلاميّة الصليبيّة في ظلّ المعادلة الجديدة المتمثّلة في ظهور عنصر المغول، من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة.

ولا يفوتني ذكر رغبتي في الوقوف على التطوُّرات التي عاشها المشرق الإسلامي وما انجرّ عنها من تكالب الصليبيّين عليه، ومُحاولة ربطها بما يجري في الوقت الحاضر من مُستجدّات من حيث أسبابها ودوافعها ونتائجها.

ولإنجاز هذا الموضوع الذي يحملُ عنوان **"الأثار السياسية والاقتصادية للعلاقات المغوليّة - المسيحيّة – المماليكيّة منذ سنة 643هـ/ 1245م إلى سنة 807هـ/1405م"**، وضعتُ خطّة يقوم هيكلها على أساس مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة.

وقد عنونت الفصل الأوّل : " جهود المسيحيين (شرقا وغربا) في حلف المغول منذ سنة 643هـ/1245م حتى 658هـ/1260م وبروز مماليك مصر"، فحرصت فيه على توضيح

الاتصالات الحثيثة بين الصليبيّين، شرقيّين كانوا أو غربيّين، وبين المغول قصد قهر الإسلام، والسيطرة على بلاد الشام، والأهداف التنصيرية في أوساط المغول التي كانت البابوية تصبوا إليها لضمّهم إلى حضيرة المسيحيّة، فاستهلت بداية هذه الدراسة بالتنقيب حول ظروف إتصال البابويّة بالمغول، وكيفيّتها، وخاصّة أسبابها الظاهرة منها والخفيّة، ثُمّ انتقلت إلى دراسة اتصال السلطة الزمنيّة الأوربيّة بالمغول المتمثلة في شخص الملك الفرنسي لويس التاسع، وظروفها، ومُسبّباتها، ونتيجتها، وأخيرًا انتقلت إلى دراسة أهمّ علاقة صليبيّة مشرقيّة بالمغول، والمتمثّلة في اتصال ملك أرمينيا الصغرى - هيثوم الأوّل -، وعُمق تأثيرها على العالم الإسلامي الشرقي بالدرجة الأولى، ثُمّ العالم الصليبي في الشرق والغرب، لأنتقل فيما بعد إلى أهم ثمار هذه الاتصالات ألا وهي قيام الدولة الإيلخانيّة في بلاد فارس ودخول التحالف المغولي الصليبي إلى العراق وسقوط ملك بني العبّاس.

ثمّ انتقلت إلى الفصل الثاني لأبراز فيه السياسة المغوليّة الجديدة والحثيثة لاستكمال غزو جميع الشرق الاسلامي، بالمبادرة إلى طلب التحالف والعون من الصليبيين شرقا وغربا بعد الضعف الذي أصابهم إثر انقسام أمبراطوريّتهم وإسلام خان القفجاق المعادي لإيلخانية فارس المجوسيّة وظهور قوّة المماليك البحرية في مصر كقوّة إقليميّة، بل وعالميّة، وأحقيّتها رفع راية الدفاع عن الاسلام وقيام دولتهم الخالدة في النفوس بعد انتصارهم الباهر في معركة الحسم والفصل في عين جالوت الفلسطينية، والسياسة القفجاقيّة المماليكيّة في صدّ التحالف الإيلخاني الفارسي الصليبي منذ عهد هولاكو خان إلى غاية أرغون بن أبقا، فعنونته "مظاهر العلاقات المغوليّة المسيحيّة (شرقًا وغربًا) المملوكيّة منذ 658هـ/1260م حتى سقوط آخر الإمارات الصليبيّة في الشام عام 690هـ/1291م"، وفي هذا الإطار تطرّقت إلى سياسة المماليك الحكيمة في جلب المغول وتشجيعهم لاعتناق الاسلام ثمّ التحالف معهم لدحظ أطماع الصليبيين في المنطقة، وإعادة إحياء الخلافة العبّاسيّة من جديد ولكن هذه المرّة في بلاد مصر تحت رعاية مملوكيّة، في مقابل النشاط التبشيري الملتهب الذي كانت البابويّة تقوم به في أوساط المغول في الصين وفارس بصفة خاصّة، كما تطرّقت في خضم هذا الفصل إلى توظيح الروابط الوثيقة بين السياسة والاقتصاد وأنّهما لا ينفصلان فأظهرت الجهود البابويّة والصليبيّة الأوربيّة الحثيثة لحصار وعزل دولة الإسلام اقتصاديا وإضعافها، تمهيدا لهجمة جديدة، في مقابل العقود التجاريّة الهامّة التي كانت تربطها دولة المماليك مع بعض القوى الأوربيّة لكسر هذا الحصار، ثمّ أخيرا بيّنت نتيجة فشل التحالف الصليبي المغولي المتمثلة في طرد الصليبيين في سنة

1291م نهائيا من آخر معاقلهم في عكا، إلى غير رجعة، فكانت تلك أكبر فاجعة وصدمة نفسيّة أصابت المسيحيّين في العالم أجمع والبابويّة الصليبيّة في أوربّا خاصّة.

ولإبراز ردّة فعل المغول في الشرق والصليبيّين في أوربا على السوء بعد جلاء هؤلاء من بلاد الشام سنة 1291م، وكذا تغلغل الإسلام بقوّة في البيت الإيلخاني الفارسي تطرّقت في الفصل الثالث الذي عنونته بـ : " مظاهر العلاقات بين الأطراف الثلاث منذ سقوط عكا وتحكم الاسلام في خانية فارس إلى وفاة تيمورلنك" إلى دراسة مدى تشرب المغول للدين الاسلامي وتأثيره سلبا أو إيجابا في علاقتهم مع المماليك في مصر والشام من جهة والأوربيين من ناحية أخرى سياسيا واقتصاديا إلى أن زالت دولة الإيلخانيين في بلاد فارس والعراق وظهور الإجتياح المغولي الثالث للبلاد الإسلامية في آسيا والمتمثل في حروب تيمورلنك ضد معظم دول المنطقة خاصة العثمانيين والمماليك المصرية، فأبرزت فيه ردة فعل أوربا لذلك الحدث المهم ومحاولتهم استمالة تيمورلنك إلى التحالف معها سياسيا وتجاريا ومحاولة رجال البابوية النفوذ من خلاله إلى أسيا بأكملها للتبشير بالمسيحية.

وفي الخاتمة توصّلتُ إلى بعض النتائج حول الترابط الوثيق بين المجالين السياسي والتجاري وتأثيرهما على المنطقة الآسياوية بصفة عامة .

## II- أسباب اختيار الموضوع و حُدوده :

لم يكن من السهل بمكان تحديد الإطار الزماني والمكاني لهذه الدراسة وذلك راجع لعدّة أسباب، منها امتداد وتراوُح حُكم المغول باختلاف خوانينه لقُرون مديدة وتنوُّع حُكوماتهم، واكتساحها لرُقعة جُغرافيّة شاسعة، ولذلك ارتأيتُ إلى تحديد محور الدراسة ما بين سنة 643هـ/1245م وهي السنة التي ابتدأت فيها تحرُّكات أوربّا، وبخاصّة بابا روما، للاتصال بالمغول من أجل التحالُف ضدّ المسلمين، مارًا بسنة 658هـ/1260م، وهي السنة التي استعاد فيها الإسلام كرامته أمام التحالف المغولي الصليبي، في معركة عين جالوت الشهيرة، وصولاً إلى سنة 807هـ/1405م وهي السنة الي توفي فيها تيمورلنك المغولي.

أمّا سبب اختياري لهذا الإطار الزمني، فهو راجع إلى أنّه حافل بأحداث مفصليّة، وهو كما أراه اللبنة الأولى المُمهّدة لتحوُّلات هامّة على مستوى آسيا وأوربّا، كان للمغول دورًا هامًا في حُدوثها، مثل ظهور قوّة العثمانيّين وتنامي الوعي القومي الأوربّي، ورغبة مني أردت أن أبرز آثار ذلك الصراع المتشابك الأطراف في الساحتين على بلاد الشام بما أنّها أحد محاور الصراع بين الإسلام والصليب، كما قصدت من وراء هذه الدراسة وعلى الأقلّ :

1- تسليط الضوء على بعض الجوانب التاريخيّة المهمّة ووثيقة الصلة بالعلاقات بين الشرق والغرب بدخول محرّك جديد في حلبة ذلك الصراع، ألا وهو العنصر المغولي الذي ظهر فجأة ودون سابق إنذار لتتغيّر به كلّ موازن القوى في آسيا وأوربّا عامّة، وفي الشرق الاسلامي خاصّة.

2- تكتسي هذه الدراسة نظرة على ما كانت عليه التحركات الدبلوماسيّة في تلك الأزمنة الغابرة، ومختلف تيّاراتها، وأدوات التأثير والضغط لبلوغ الغاية وترجيح الموازين.

3- أردنا أن نبرهن أنّ السلاح الإيديولوجي هو أوّل حافز للنصر أو الهزيمة، وذلك ماجرى فعلاً في عين جالوت عام 658هـ/1260م، وهي نتيجة لبعض المتغيّرات الهامّة التي طرأت على الساحة المغوليّة، منها إسلام بعض أمراء المغول المؤثّرين، وبروز الصراع المغولي الداخلي حول السلطة، وغيرها.

4- انعدام وندرة الدراسات الآكاديميّة المتخصّصة لدراسة هذا الجانب الحسّاس خاصّة في بلادنا الجزائر المسلمة السنيّة.

5- أغلب الدراسات التي تناولت هذه الفترة الحرجة انصبّت على الميدان العسكري وما أحدثه المغول من دمار في الأنفس والعمران، وأغفلت دراسة العلاقة الوثيقة بين ظهور المغول وتسلّط

التشيّع ونموّ الوعي الصليبي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأسبابه وكذا أثر تلك الغارات والحروب على سياسات المنطقة ونشاطها الاقتصادي.

6- تشجيع البحث من هذه الزاوية المنعدمة تمامًا في بلاد الجزائر.

7- تُمثّل هذه الدراسة نافذة على ما يحدث في عصرنا هذا، بتشابه الأسباب والأحداث والمحرّكات والدوافع والأهداف.

8- المساهمة في البحث العلمي من هذه الزاوية الحرجة، وإثراء المكتبة المتخصّصة بهذا الموضوع الحسّاس.

## III- عرض لأهمّ مصادر هذا البحث :

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مجموعة متنوعة من المصادر، وهي تنقسم إلى قسمين بارزين : أ -المصادر الأجنبيّة، ب -المصادر العربيّة.

### أ -المصادر الأجنبيّة:

لا شكّ أنّ المصادر الأجنبيّة تحتل مكانة بارزة في هذا الموضوع، إذ أفادتني في تغطية جانب هام من العلاقات المغوليّة الصليبيّة، ويأتي في مُقدّمتها كتاب المبعوث الفرانسيسكاني **يوحنّا دي بلان دي كربين** والذي يحمل عنوان **تاريخ المغول Historia Mongolarum**(1)، وهو مبعوث البابا إنوسنت الرابع إلى المغول سنة 1246م، وكان أحد أوائل تلامذة القديس فرانسوا **St Francois d'Assise** رائد هيأة السيسترسيان الدينيّة Les Cisterciens، ولد بإيطاليا، في منطقة تدعى "بلانو -كربينو" Plano-Carpino بناحية بيروجيا Pérouse حوالي سنة1182م، تنقّل ما بين سنتي 1221م و1241م من إيطاليا و لمانيا حتّى إسبانيا لنشر المذهب الفرانسيسكاني، وحين ظهر خطر المغول على أوربّا كان هو من أوائل مبعوثي البابا إليهم لثنيهم عن مُهاجمة أوربا ومحاولة تنصيرهم، وحين عودته نصّبه البابا إنوسنت الرابع أسقفًا لمنطقة أنتفاريا Antvaria في دلماشيا Dalmatie وكانت وفاته سنة 1251م في روما أو "بيروز". وقد ساعدني كتابه في كشف مراحل وظروف سفارته إلى

---

(1) إعتمدتُ على الترجمة الفرنسيّة والإنجليزيّة منها .أنظر:
Forestetter(Michel), Voyageurs Etrangers en Russie : Textes choisis du Xe au XXe Siécle, la Table ronde, Paris, 1947 ; Charton (M. Édouard), Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855 ; Dawson, The Mongol mission, first edition, London, 1955.

المغول، والذي احتوى على وصف دقيق لأحوال المغول وبيئتهم.

ويليه في الأهميّة مُذكّرات المبعوث الملكي الفرنسي **وليم روبروك Guillaume de Rubrouck** (1)، وهو من مواليد قرية فرنسيّة قريبة من مدينة كسيلCassel، أمّا عن تاريخ ولادته فهي مجهولة عند جمهرة المؤرّخين، ولاكنّهم يقدّرون بلوغ سنّه في سنة 1253م ما بين الخمسة والثلاثين وبين الخمسة والأربعين سنة، وعلى هذا يكون قد ولد حوالي سنة 1215م أو قبل ذلك بقليل، وقد كان مسيحيًا ينتمي إلى جيل الفرانسيسكاني الثاني، غير أنّه لم يُقابل ما يسمُّونه قديسهم فرانسوا، بينما كان صديقًا للملك الفرنسي لويس التاسع، حيث انظمّ إلى حملته الصليبيّة على مصر، وشهد هزيمته أمام المماليك المصريّة، وكان سفير هذا الملك الفرنجي إلى المغول سنة 1252م، فقابل "باتو" على نهر الفولجا، ومانكوخان في العاصمة المغوليّة قوراقورم.

ترك لنا وليم روبروك كتابه، طريق السفارة إلى الشرق Itenerarium ad Partes Orientales وهو عبارة عن رسالة طويلة ذكر فيها ما شاهده في سفره والطريق التي سلكها، والحياة اليوميّة للمغول، واحتكاكه بهم، والمفاوضات التي أجراها مع المغول بُغية التحالف معهم ضد المسلمين، وعلى هذا تعتبر هذه الرسالة مصدرًا من الدرجة الأولى، بحكم أنّ صاحبها هو نفسه طرفاً في الأحداث.

وثمّة مصدر آخر له أهميّته البالغة في هذه الدراسة وهو للمبعوث البابوي **سيمون دي سانت كانتين Simon de Saint Quentin** (2)، وهو الدومنكاني الذي رافق أسكلين، المبعوث البابوي الرئيسي إلى المغول، أمّا كتابه فهو تحت عُنوان" تاريخ التتر" Historia Tartarum إلاّ أنّ أصل هذا الكتاب مفقود ولم يجد الباحث لترجمة صاحبه شيء، غير أن المؤرّخVincent de Beauvais ، المعاصر له، ذكر في مستهلّ دراسته للمغول في كتابه Speculum Histiriale أنّه اعتمد على مصدرين أساسيّين هما "يوحنّا دي بلان دي كربين"، و"سيمون دي سانت كانتين" ولهذا كان من اليسير استخراج أصل Historia Tartarum عن طريق المقارنة بكتاب Historia Mongolarum المعلوم أعلاه.

---

(1) إعتمدتُ على الترجمة الفرنسيّة و الإنجليزيّة منها .أنظر:
Guillaume de Rubruk, : Voyage dans l'Empire Mongol, traduction et commentaire de Claude et René Kapler, Payot, Paris, 1985 ;
Dawson, The Mongol mission, first edition, London, 1955.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin ,Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965.

يسرد هذا المصدر بعض أحداث بعثة أسكلين إلى الشرق، حيث قابل بايجو وهو أحد كبار أمراء المغول في بلاد فارس، ورجوعه إلى المقر البابوي بالرد المغولي وفي صحبته مبعوثان مغوليّان إلى أوربّا هما أيبك Aybeg وسرجيس (أو سركيس) Sargis، المسيحيّين النسطوريّين، لمقابة البابا في إيطاليا.

وأُشير أيضًا إلى المُؤرّخ **هيثوم Hayton(1)** الذي يُعتبر كتابه من أهمّ المصادر الأرمينيّة التي كُتبت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، حول تاريخ وجغرافية الشرق الأسياوي وعلاقته بالمغول، وهو بعنوان : زهرة تواريخ أرض الشرق (بلاد الشرق) La Flor des Estoires de la Terre d'Orient، وتكمن أهميّته في أنّ صاحبه هو إبن أخ الملك هيثوم الأوّل(1223- 1268م) ملك أرمينيا الصغرى الذي تحالف مع المغول ودخلت عساكره بغداد إلى جانب هولاكو، وكان مولده في حوالي سنة 1230م، ثُمّ قضى معظم طفولته في بلاط عمّه الملك، فسمع منه واطلع على وثائق الأحداث، أظف إلى ذلك احتمال تمثيله للأمراء الأرمن في بلاط خانات التتر، خاصّة عند غازان (أو قازان، إيلخان بلاد فارس من 1295م إلى 1304م) و الذي كان يعرفه جيّدًا، وقد أشار هيثوم Hayton أنّه كان شاهد عيان عن فترة حكم "أبقا خان" منذ توليته عرش المغول سنة 1265م، حتّى السنة التي توقّف فيها مؤلفه حول التتر أي عام 1305م. أمّا كتابه هذا فقد قُدّم للبابا كليمانت الخامس Clément V في بواتييه Poitiersشهر أوت من سنة 1307م.

يحتوي كتاب Hayton على أربعة أقسام :

يصف أوّلها أربعة عشر إمارة آسيويّة ابتداءً من الصين (Cathay, Chine) حتّى بلاد الشام وأرمينيا، أمّا ثانيها فهي ذكر مختصر لمختلف الأحداث التي مرّت بالأسر الحاكمة العربيّة منها

---

(1) أنظر : La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906.

واعتمدتُ أيضًا على النسخة الفرنسيّة المترجمة :

La Fleur des Histoires de la Terre d'Orient, ds Regnier-Bohler, Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle, Chronique et Voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

وانظر أيضًا :

بوعماما(فاطمة) : العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة 1375م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د .إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية (1414-1415هـ/1993-1994م)، غير منشورة، ص 10- 11.

والتركيّة منذ عهد الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ألى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وأمّا القسم الثالث، فهو أطولها، و هو مخصّص لتاريخ المغول منذ جنكيزخان إلى غاية بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وأخيرًا يأتي القسم الرابع وهو عبارة عن دراسة معمّقة حول الحَرْب الصليبيّة وبيت المقدس، قام بها المألّف بطلب من البابا كليمانت الخامس.

وأذكرُ أخيرًا **الكونيتابل سمباد Le Connetable Sembad** وهو أخو ملك أرمينيا الصغرى، هيثوم الأوّل، وابن البارون الكونستال قسطنطين، وُلد سنة 1208م، وكان شابًا حينما استدعاه الملك ليون الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، إلى بلاطه ليكون له عونًا في تسيير شؤون البلاد، وبعد وفاة هذا الأخير عام 1219م، انتقل الحكم إلى العائلة الروبينيّة بزواج هيثوم الأوّل من إيزابيلا، الوريثة الشرعيّة الوحيدة لليون الأوّل، وبهذا الشكل صار سمباد أكثر إحاطة بأُمور المملكة.

وقد ترأس سمباد السفارة التي بعث بها الملك الأرميني هيثوم الأوّل إلى قراقورم، عاصمة كيوك خان، عام 1246م لتهنئته وطلب التحالف ضدّ المسلمين في الشرق عامّة وقونية خاصّة، لاسترداد المدن الأرمينيّة التي اغتصبها هؤلاء، وقد ترك لنا سمباد معلومات هامّة حول هدف زيارته للخان المغولي من خلال الرسالة المؤرّخة في عام 1243م والتي بعث بها إلى هنري ملك قبرص، زوج أخته سديفنيه، وهو في طريقه إلى قراقورم، والمنشورة في :

Guillaume de Nangis, **vie de saint Louis**, Rec. Des historiens de Gaules et de la France, Academie des Inscriptions Et belles letters, Paris 1840, T. XX, p. 360.

وبقي سمباد يحتفض بمنصبه حتّى وفاته عام 1276م، كما ترك كتاب بعنوان:

Chronique du royaume de la petite Arménie

مجموع ضمن مجموعة المؤرخين الأرمنيّين:

Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, Publication de l’academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906, T.I.

ويبدأ القسم الأوّل منه من مستهلّ سنة 400 للتقويم الأرميني الموافق لسنة 952م، وهو

عبارة عن اختصار لما جاء به كل من "متى الرهاوي" و "جريجوار الراهب"، أمّا القسم الثالث فيبتدأ تأريخه من سنة 1152م، ثُمّ أضاف سمباد إلى كتابه معلومات خاصّة انتقاها إمّا من المصادر الملكيّة بمدينة سيس أو من المعلومات الخاصّة حسب الأحداث التي عاينها أو وصلته أخبارها وكلّ ذلك بحكم منصبه في مملكة أرمينيا الصغرى، وقد انتهى من تأليفه لكتابه هذا سنة 1274م، أي سنتسن قبل وفاته.

ثُمّ أكمل مؤلّف مجهول كتابه من عام 1286م إلى سنة 1331م، ولم يكتفي هذا المؤلّف المجهول بالإكمَال، بل أثراه أيضًا ببعض المعلومات التي غفل عنها سمباد، ويظهر ذلك من خلال استعماله للضمير –هو- إشارة إلى سمباد، وكذا أُسلوبه الذي طغت عليه العبارات العاميّة بعكس أُسلوب الكونيتابل سمباد(1).

## ب -المصادر العربيّة:

تكتسي المصادر العربيّة أهميّة كبيرة في دراسة موضوع هذه المذكّرة، ولا تقلُّ في الدرجة عن مثيلاتها الأجنبيّة، وخاصّة فيما يتعلّقُ بالعلاقات الثُّلاثيّة، وأعني بذلك المغوليّة والإسلام يّة والمسيحيّة، ويأتي في مُقدّمة هذه المصادر الكتاب المُسمّى **السلوك لمعرفة دول الملوك** لصاحبه مؤرّخ الديار المصريّة، وهو أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العبّاس الحسيني العبيدي تقي الدين **المقريزي** (766- 845هـ/1365-1441م)(2)، وأصله إلى حارة المقارزة، ببعلبك في أيّامه، ولد ونشأ ومات في القاهرة، اتصل بالملك الظاهر برقوق المملوكي، ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة 810هـ/1404م، ثُمّ عاد إلى مصر.

له عدّة مؤلّفات، ولعلّ أهمُّها الذي ذكرتُ آنفًا، وهو في جزئين لكُلّ جُزء منها قسمين، يشتمل على عدّة أحداث للحروب الصليبيّة، وتاريخًا للمغول منذ ظهورهم إلى معركة عين جالوت، ثُمّ ينتهي عند بعض سلاطين المماليك، إذ استهلّ مُؤَلّفه ابتداء من أحداث عام 577هـ/1182م ليتوقّف عند حوادث سنة 822هـ/1418م.

---

(1) أنظر : Sĕmpad Le Connétable, Chronique du royaume de la petite Arménie, dans R.H.C., D. A., publication A.I.B.L., Paris 1869-1906.

(2) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر،1956م، والمقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.

وقد اعتمد المقريزي على عدّة مؤرخين في كتابة السلوك منهم ابن الفرات والبرزالي والنويري وبيبرس الدوادار، وقد أورد معلومات هامّة ومفصّلة حول دخول المغول إلى بلاد الشام عند هجوم هولاكو وغازان وتيمورلنك، مع النتائج، ويصحّ القول أنّه تفرّد ببعض المعلومات التفصيليّة التي لم يقدمها غيره من المؤرخين.

والملفت للنظر أنّ العصر المملوكي امتاز بحظ وفير من كتابة السير، ومن أهمها السيرة التي كتبها عز الدين محمّد بن علي بن إبراهيم بن شدّاد (ت. 684هـ/1285م) وعنونها "تاريخ الملك الظاهر"، وهو مؤرخ وجغرافي ولد بحلب وعاش فيها حتّى كان الهجوم المغولي على المدينة سنة 658هـ/1259م فهاجر إلى مصر وانخرط في خدمة الظاهر بيبرس.

تناول تاريخ الظاهر بيبرس سيرة السلطان بيبرس البندقداري، ولم تصلنا كاملة وإنّما بين أيدينا الجزء الثاني(1) الحاوي لأخبار سنوات (670-676هـ/1262-1278م)، وقد قسّمه صاحبه إلى ثمانية وعشرين فصلا، واتبع منهج الحوليّات حسب السنين والموضوعات والأحداث بالشهور والأيام، وتناول في مؤلفه خصال السلطان بيبرس وإنجازاته وسياسته الداخليّة والخارجيّة مع الاسماعيليّة والنوبيين والأرمن والصليبيين والمغول، فتبيّن من خلالها أنّ السلطان الظاهر لم يعتمد في رسم علاقاته الخارجيّة على القوّة الضاربة فحسب، بل إنّه استعمل سلاحا لا يقل خطورة عن السلاح العسكري تمثّل بإقامة العلاقات الدبلوماسيّة مع المغول من جهة ومع الفرنج الصليبيين من جهة أخرى، وقد أفادني المجلّد من تلك الناحية أيما إفادة.

وثمّة مصدر آخر يُعدُّ من الدرجة الأولى ضمن دراسة هذا الموضوع، وهو ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل ت. 692هـ/1292م)، وهو من المؤرخين المصريين المهمين الذين اعتمدت عليهم في بعض جوانب الدراسة، فقد كان كاتبا في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولّى الظاهر بيبرس عرش الشلطنة، وقد اشترك في موقعة عين جالوت إلى جانب المظفر قطز، واستمر ابن عبد الظاهر في مركزه بديوان الإنشاء طوال فترة حكم بيبرس وأثناء حكم ابنيه، وجزء من فترة حياة قلاوون وابنه الأشرف خليل.

دوّن ابن عبد الظاهر عدّة سير، لعلّ من أهمّها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، وقد كتبها للظاهر بيبرس، و"تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" الذي كتبه

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص 18- 22

للمنصور قلاوون، وكان الدافع من كتابة سيرة الظاهر لأن بيبرس كان أوّل شخصيّة مملوكيّة أرست قواعد السلطة إثر انتصار عين جالوت، وكان أوّل من خطط لاسترداد المعاقل الإسلاميّة من يد الصليبيين فأرعبهم، كما أنّه اشتدّ في زمانه الصراع بين المسلمين والفرنجة من جهة، وبين المسلمين والمغول من جهة أخرى.

وقد ألقت "الروض" اللثام عن عصر بيبرس بشكل واضح، فلولاها ولولا سيرة ابن شداد "تاريخ الملك الظاهر" لبقيت المعلومات عن السلطان الظاهر بيبرس غير واضحة، أمّا منهج ابن عبد الظاهر في التأريخ فكان وفق طريقة الحوليّات حسب السنوات وبعناوين فرعيّة تُشير إلى طبيعة الحوادث. أمّا تشريف الأيام، فقد بدأ كتابته من أحداث سنة 680ﻫ إلى غاية وفاة قلاوون، غير أنّ محقق الكتاب استعان في تمهيد الحوادث التي سبقت 680ﻫ من ابن الفرات وذلك من سنة 678ﻫ، وكان منهج ابن عبد الظاهر في التشريف يماثل الروض، وكانت استفادتي منه تتمثّل في بعض المعاهدات المعقودة بين المماليك والصليبيين، إضافة إلى معلومات سياسيّة أخرى.

وتجدُرُ الإشارة أيضًا إلى مصدر آخر من الطراز الأوّل، له أهميّته البالغة في هذه الدراسة، وهُو المُؤَلّف المُسمّى" **جامع التواريخ** "لصاحبه فضل الله (رشيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير (عماد الدولة) ابن علي (موفق الدولة) أبو الفضل **الهمذاني** (ت. 716ﻫ/1316م(1)، اليهودي الأصل الشيعي الديانة، ومن المشتغلين بالفلسفة والطب والتاريخ، قال عنه الذهبي : "كان له رأي ودهاء ومروءة"، اتصل بإيلخان التتار "محمود غازان" وخدمه بطبّه إلى أن ولي الوزارة له، ثُمّ اتُهم باليهوديّة والإلحاد بعد موت الإيلخان "خدابنده" وأُحرقت كُتبه بعد قتله، فبقي منها "جامع التواريخ" في أربعة مجلّدات، بالعربيّة والفارسيّة. وقد استعنتُ في دراستي هذه بقسمين من كتابه ذاك، أعني "تاريخ غازان" و "تاريخ المغول في إيران"(2).

واعمدتُ كذالك على كتابين مُهمّين **لابن العبري :** غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) ابن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري، أو

---

(1) أنظر : خير الدين الزركلي :الأعلام (قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب و لمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، ط7 ، بيروت، لبنان، مايو 1986م، ج5 ، ص 152.

(2) الهمداني : جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة وترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار الثقافة للنشر، ط1، القاهرة، (1420ﻫ/2000م)، وجامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ترجمة محمّد صادق نشأة، ومحمّد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو 1960م.

Aboul-Pharajius باللاتينيّة، أو Bar-Hebræus، وهو مؤرّخ سرياني مستعرب، من نصارى اليعاقبة، ولد في ملطية (من ولاية ديار بكر)، كان قد فرّ مع أبيه إلى أنطاكية، سنة 639هـ/1243م، بسبب هجوم المغول، فتعلّم العربيّة والطب، واشتغل بالفلسفة واللاّهوت، كان أسقفًا لليعاقبة في حلب، ثُمّ ارتقى إلى رتبة" جاثليق"، أي رئيس رؤساء الكهنة السريانيّين في بلاد المشرق والعراق وفارس وما إليهما، على كرسي المشرق سنة 661هـ/1264م، وتوفّي في مراغة، بأذربيجان، سنة 685هـ/1286م، وله خمسة وثلاثين مصنّفًا في علوم مختلفة، منها "تاريخ الدول" باللغة العربيّة ويُعرف أيضا تحت عنوان "مختصر الدول"، انتهى به إلى أحداث سنة683هـ/1284م،وقد استعنتُ بطبعتين مُختلفتين منه، وآخر بعنوان "تاريخ الزمان"، جمع فيهما بعض المعلومات الهامّة عن "بني أُرتق" السلاجقة وعن المغول في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسوريا، وهاذين المُصنّفين ضمن بيبليوغرافيا هذه الدراسة(1) أيضا.

وقد أفادني كتابًا أخر لا يقلُّ أهميّة عن غيره لصاحبه بدر الدين **العيني** (ت. 855هـ/1451م)، وأصله من حلب، وكانت ولادتُه بقرية تُدعى عين طب، وسكن القاهرة، أمّا مُؤلّفه فيحمل عنوان "عقد الجمان"، وهو حسب الباحث "حاجي خليفة" في كتاب تراجمه، فإنّه يحتوي على تسع عشرة مجلّد، بينما يحتوي أحد أجزائه تلك معلومات غزيرة حول الحروب التي دارت بين سلاطين مصر والفرنجة الصليبيين بالشام ابتداء من سنة 621هـ/1224م إلى سنة 679هـ/1281م، وقد أستعنتُ به في الإطلاع على التعصُّب الصليبي الحاقد في مدينتي دمشق وحلب في الفترة التي أحكم هولاكو قبضته عليهما(2).

وأذكر في ختام هذا العرض الوجيز المؤرخ **ابن تغري بردي** أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي، الذي ولد بمصر وتوفي سنة 874هـ/1470م، وقد ألّف كتبًا كثيرة، منها "المنهل الصافي" و "البحر الزاخر"، أمّا أهمُّها وهو ما اعتمدتُ من مصنفاته في هذه الدراسة

---

(1) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1 ، بيروت،(1418هـ/1997م)، وطبعة المطبعة الكاثوليكيّة، ط1 ، بيروت، آب 1958م، وتاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة وقدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت، 1406هـ/1986م.

(2) **العيني : بدر الدين محمود**(ت. 855هـ/1451م) :
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين الماليك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتاب والوثائق القوميّة، مصر، القاهرة، 1431هـ/2010م.
- منتخبات من كتاب عقد الجمان، ضمن مجموعة المؤرخين الشرقيّين .أنظر :
Recueil des Historiens des croisades, Documents Orientaux, publication de l'academie des inscriptions et Belles Letters, Paris, 1869-1906.

وهو تحت عنوان "**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**"(1)، وقد جاء في شكل حوليات احتوت على تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي إلى غاية سنة 856هـ/1452م، يذكر فيه مؤلّفه العمليّات الحربيّة المصريّة ضدّ الفرنجة، بينما كان المنهل عبارة عن قاموس لتراجم الرجال المسلمين الفُضلاء ابتداء من سنة 650هـ/1252م إلى زمان المُصنّف، وأمّا البحر الزاخر، فهو ذات حجم ضخم يحتوي على تاريخ حُكَّام مصر ابتداء من سنة 32هـ/652م لتمتدُّ إلى غاية الثلث الأخير للقرن الأوّل الهجري.

غير أنّني واجهتُ عدّة صُعوبات أثناء إنجاز هذا البحث، وهي ميزة ترتبط بكل بحث في علم التاريخ، منها نقص بعض المصادر الهامّة على مُستوى المكتبات المحليّة والتي إن وُجدت سابقًا فإنّها تعرّضت للإتلاف والضياع، وأذكر أيضًا الترجمة التي كلّفتني مشقّة كُبرى ووقتا طويلاً، وذلك لتعريب النصوص الأجنبيّة ذات العلاقة بهذه الدراسة، وخاصّة ما تعلّق منها بالنصوص اللاتينيّة والإنجليزيّة والألمانيّة واللغة الفرنسيّة القديمة منها والحديثة، لكن وعلى الرُغم من هذه الصعوبات العلميّة فقد توصّلتُ إلى بناء هذا الموضوع العلمي المُتواضع الذي لا يخلو، دون شك، من النقائص والعيوب التي يتميّزُ بها كُل بحث علمي أكاديمي، وفي هذا الصدد، لا يفوتُني أن أعتذر لأعضاء اللجنة المُمتحنة الموقّرة، عمّا صدر فيه من أشكال هذا الخلل، وينبغي الإشارة إلى أنّ ميدان العلاقات بين الشرق والغرب، إبّان العُصور الوُسطى، ما يزال ميدانًا خصيبًا للدراسة وينتظر من يكشف عن أسراره ومكنوناته، ومن ثَمّ أتمنّى أن أكون قد وضعتُ لبنة جديدة في صرح البحث العلمي بالجزائر.

---

(1) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ.

كما لا يسعني في ختام هذه المقدّمة إلا أن أتقدّم بالشكر و لإمتنان إلى كُلّ الذين ساعدوني على إنجاز هذه الرسالة المتواضعة، وأخُصُّ منهم بالذكر الأُستاذ الدكتور المشرف "أحمد شريفي"، وكذلك عُمّال المكتبة الوطنيّة والجامعيّة الذين خدموني بإخلاص وتفان كبيرين ووفّروا لي كُلّ المُستلزمات الضروريّة لتحقيق هذه الغاية العلميّة المنشودة.

والله أسأل أن أكون قد وُفّقتُ إلى ما أصبو إليه وهو المولى "نعم المولى ونعم النصير".

مصطفى بن حُسين.

# الفصل الأوّل

**جهود المسيحيين (شرقا وغربا) في حلف المغول منذ سنة 643هـ/1245م حتى 658هـ/1260م وبروز مماليك مصر.**

I- بعثات البابا إنوسنت الرابع Innocent IV إلى المغول و مشروع التحالف :

1 - تمهيد :

2 - سفارة لورنس البرتغالي Laurent de Portugal :

3 - سفارة يوحنا دي بلان دي كاربين (Jean de Plan de Carpin ) سنة 1245م :

4 - سفارة أندرو دي لونجمو من قبل البابا إنوسنت الرابع :

5 - سفارة أسكلين اللومباردي Ascelin de Cremoni de Lombardie :

II - بعثات لويس التاسع ملك فرنسا إلى المغول ومشروع التحالف :

1 - بعثات لويس التاسع ملك فرنسا إلى المغول :

2 - سفارة أندرو دي لونجمو من قبل لويس التاسع :

3 - سفارة وليم روبروك و بارثولوميو دي كريمونا إلى المغول من قبل لويس التاسع:

4 - تعقيب على الاتصالات السياسيّة بين المغول والغرب الأوربّي :

III- بعثات مملكة أرمينية الصغرى إلى المغول ومشروع التحالف :

1 - أولى بعثات هيثوم الأوّل إلى المغول :

2 - بعثة سمباد Sembad من طرف هيثوم الأوّل إلى المغول

3 - قدوم الملك هيثوم الأوّل بنفسه على المغول :

IV- إنشاء إيلخانية المغول في بلاد فارس : الإيلخان هولاكو والبيئة النسطوريّة.

1 - المماليك في مصر :

2 - عطف هولاكو تجاه المسيحيين، ودور زوجته دوقوز خاتون :

3 - قضاء هولاكو على إسماعيليّة قلعة ألموت وقيام الإيلخانيّة في فارس :

V- قضاء هولاكو على الخلافة العباسيّة في بغداد :

1 - الخليفة المستعصم والتهديد المغولي :

2 - إجتياح المغول لبغداد وفضائعهم فيها :

3 - إعتناء المغول بالكنائس المسيحية وتدمير المساجد :

## I- بعثات البابا إنوسنت الرابع Innocent IV إلى المغول و مشروع التحالف :

### 1 - تمهيد :

تزامن اكتساح المغول لمناطق شاسعة من آسيا بتجدّد الصراع الإسلامي الصليبي، من ناحية، وباقتراب خطرهم من غرب أوربا ثانيا، خاصة بعد المذابح التي ارتكبوها بهنغاريا وروسيا، وقد أدرك البابا إنوسنت الرابع(641-652هـ/1243-1254م)، منذ أن اعتلى عرش البابوية، باعتباره أعلى سلطة دينية مسيحية في الغرب الأوربي، مدى المصائب التي تتربص بالعالم المسيحي، خاصة وقد لمس بنفسه مدى تفكك الغرب الأوربي ووطأة صراعه مع الامبراطور فريدريك الثاني(617-648هـ/1220-1250م) على السياسة الداخلية، فضلا عن عجزه عن تجهيز قوة عسكرية لمواجهة هذا الخطر، ولذالك لم يتوانى في اللجوء إلى المكر والدهاء ثمّ إلى الحنكة السياسيّة بإيفاد رسل ومبعوثين إلى المغول، عساه أن يحدّ من شراهتهم، وقد شجعه على المظي قدما في هذه الخطوة ما بلغه من رواية الأسقف الروسي "بيتر"(*) عن معتقدات المغول الوثنيّة مع وجود طيف من المسيحيّة، وحقدهم على المسلمين، ثُمّ احترامهم للسفراء، أملا في تحويل هذا الخطر ضدّ المسلمين، لتبدأ المساعي الحثيثة في أمل لعقد تحالف مسيحي- مغولي، ولأجل هذا الغرض دعا البابا يوم 3 جانفي 1244م إلى عقد مجمع كنسي يُعقدُ في مدينة ليون الفرنسيّة للنظر في المسألة المغوليّة Remedium Contra Tartaros(1)،

---

(1) أنظر: Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCXLIV, p.197, année MCCXLV, p. 198 ; Guillelmi De Nangiaco ,Chronicon, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, p. 551 ; Matthew Paris, La Grande chronique, tra. en français par A. Huillard-Breholles, Edition Paulin, Paris, 1840, T.6, p. 3, 5, 6 ; Richard(Jean), La Papauté et les Missions d'Orient au Moyen Age(XIII$^{e}$-XV$^{e}$ siecle), collection de l'école Francaise de Rome, Paris (Palais Farnése), 1977, p.70.

وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 59.

(*) يذكر لاحقًا في هذا العنصر.

وحُدّد موعد الاجتماع يوم 28 جوان سنة 1245م (1)، ويبدو أنّ المسيحيين جميعاً كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشّناعات التي ارتكبها المغول في حق أبناء عقائدهم في روسيا وبولندا، وأن يتحالفوا مع المغول من أجل تحطيم قوّة العرب والإسلام(2)، ومن أجل ذلك أعدّ البابا سفارتان دومنيكانيّتان وأخرايتان فرانسيسكانيّتان لإرسالها إلى المغول قبل الاجتماع(3)، لعلّه ينجح في تنصيرهم وبالتالي ثنيهم عن غزو أوربا(4)، وسوف نشاهد أثناء هذا البحث كيف أنّ الخان كيوك Guyuk(1246-1248م) ردّ بعنف على السفارة التي وصلته، بعد اطلاعه على رسائل ابابا، وطلب خضوع جميع الشعوب الأوربية دون قيد أو شرط(5).

وفي إشارة إلى انتشار القسيسين في تلك الفترة بالذات، وسببها، في بلاد المغول، يقول الرمزي ما يلي : " أمّا سبب انتشارهم (القسيسين)، فلا يخفى أنّ المسامين والنصارى في أمر نشر الدين على طرفي النقيض، وذلك أمر مجرّب جار من قديم الأزمان، فإنّ المسلمين عادتهم التقعد والتقاعس في أمر الدعوة وهداية العباد بنشر الدين وكأنّهم غير مأمورين بذلك، بل منهيون عمّا هنالك مع أنّه ورد في ذلك أحاديث كثيرة، بخلاف النصارى فإنّ لهم اهتماما خاصّا بنشر باطلهم ودعاء الناس إلى تضاليلهم، فأنّ دين النصرانيّة ما انتشر في أوربا وسائر البلاد إلاّ

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.II, p. 173, 174, 208 ; Howorth(Sir Henry Hayle), History of the Mongols from the 9th to the 19th centry, Longmans Green and Co., London, 1880., Part II, Division I, p. 67 ; Marshall(Baldwint w.), Missions to the East in the thirteenth and fourteenth centuries, in Setton(K.), A History of the crusades, Wisconsin University Press, 1985, T.V, p. 472.

(2) براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السّعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، مصر، 1373هـ/1954م، ص575.

(3) أنظر: Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 352-353 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 208.

وقد أرسل البابا إنوسنت الرابع خطابين إلى خان المغول (أنظر في الملاحق نص الخطابين المؤرّخين في 05 و13 من مارس1245م).

أنظر : Dawson (Christopher), The Mongol Mission, First Published by Shed and Ward LTD, London, 1955, pp. 73-76.

(4) أنظر : Richard (jean), le début des relations entre la papauté et les mongols de perse, journal asiatique, 1949, pp.292-293 ; Idem, La papauté., op.cit., p.68 ;d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 208.

(5) أنظر : Simon de Saint Quentin, Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965, livre (XXXII, 52), pp.115-117.

بكمال الإعتناء منهم وغاية الإجتهاد، وكذلك لهم من القديم إلى الآن اهتمام تام في دعوة ملوكهم ودلالة فرقهم وشعوبهم إلى الاتفاق والاتحاد، ولا يخفى ما صدر عنهم وما يصدر إلى الأن من الاهتمام في ذلك على من له أدنى إلمام بالتواريخ، خصوصًا على قصد المسلمين حتّى هيّجوا أهل الصليب قاطبة وحملوهم على محاربة المسلمين كافّة وهم في ذلك لا يسأمون من القتال والتحريض، وبينما هم في أثناء ذلك وقد عاينوا ضعفهم أمام المسلمين إذ ظهر من طرف الشرق طوفان المغل وزوبعة التتر التي خرّبت أكثر ممالك الإسلام في تلك الأقطار، فتفطنوا إلى أنّ في تنصيرهم غاية الفائدة، فتقوم هؤلاء من الشرق وهؤلاء من الغرب فيتلاشى الإسلام فيما بين هاتين الزوبعتين بالكليّة، فبادر البابا إلى سوق القسيسين إلى بلاد المغول أفواجًا أفواجا رجاء أن يتمّ لهم ما قصدوه، وإلاّ فلا أقلّ من أن يردوهم عن قصد بلادهم فإنّهم كانوا غير آمنين من ذلك، بل منزعجين منهم غاية الانزعاج ومتوقعين هجومهم في كلّ لحظة، ولذلك أمر البابا، الذي هو خايفة النصارى، القسيسين والرهبان أن يجتازوا الأنهار المتجمّدة والجبال القاحلة ليستميلوا قلوب متوحشي ملوك الصحاري، لأجل أن ترجع صواعق الإسلام وغاراته القهقرة حيث كانت تهدد دين النصرانية فكان هؤلاء السفراء القسيسون يتجشّمون المشاق ويجوبون المفاوز ويجتازون بلا سلاح أراضي عدّة أمم متوحّشة، ولم يكن مثل هذه الأسفار مقصورة على أفراد القسيسين بل كانت بابات أوربا تبعث إلى تلك البلاد فرقًا فرقًا من المتدينين ليعظوا أهلها حماية لدين النصرانية "(1).

ولم تنج أوربا من الجتياح المغولي إلاّ بموت كيوك الخان، وهو الأمر نفسه الذي حدث في فترة سلفه أوكتاي Ogodai (1229-1241م)، إلاّ أنّ الخان الجديد مونكا (أو مانكو) Mongka عاود اجتياح بولونيا وهنغاريا، فدعا البابا إنوسنت الرابع سنة 1254م إلى حملة صليبيّة للدفاع عن بلدان البلطيق، ولكنّ خضوع الروس للمغول وقطع الليثوانيين علاقتهم بالكاثوليك اللاّتين حال دون قيامها (2) .

والحقيقة أنّ البابا إنوسنت الرابع أرسل في تلك الفترة أيضًا إلى الأرمن والروس وبعض

---

(1) الرمزي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار، أورنبورغ، ط1، د.ت. ، ج1، ص 392- 394.

(2) أنظر : Richard(J.), La Papauté., op.cit., p. 68.

أمراء المسلمين في سوريا، بهدف توحيد الكنيستين الشرقيّة والغربيّة والوقاية من حملة مغوليّة جديدة(1)، فأرسل الفرانسيسكانيّان(*) لورنس البرتغالي Laurent de Portugal إلى الأرمن، ويوحنّا دي بلان دل كاربين Jean de Plan carpin إلى الروس، وكذا الدومنيكانيّان(**) أندري دي لونجومو Andre de Longjumeau الذي كلّف هو الآخر برسالة إلى بعض أمراء الشام وبعض رؤساء الكنائس الشرقيّة، أمّا أسكلين Ascelin فقد أرسل إلى المغول خاصة(2).

وليس مستغربا أن يقع اختيار البابا على سفراء من هتين الهيئتين ليُبعثوا إلى المغول، وذلك لطول خبرتها في التبشير للكاثوليكيّة في شرق أوربا وشمالها وشمال آسيا وغربها واجتهادهما في سبيل توحيد الكنائس الشرقية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية في روما، فضلا عن دورهما الكبير في الدعاية للبابويّة، إذ كان رهبان هتين الجماعتين مندوبين مخلصين للبابوية في بلاطات الملوك والنبلاء في أوربا، كما وُكّلت لهم مهمّة جمع الهبات والضرائب الكنسيّة، وقد نذر هؤلاء الرهبان حياتهم للتبشير بالدين بين "الكفرة" وأوقفوها لهذا الغرض رغم ما يتطلّب

---

(1) أنظر : Richard(J.), Les Missions chez les Mongols au XIII[e] et XIV[e] siècle, dans Histoire Universel des missions catholiques: les Missions des Origines au XVI[e] siécle, librairie Grund, Paris, 4[e] Trimestre 1956, p. 179.

(*) الفرنسيسكان أعضاء في منظّمات نصرانيَّة مختلفة تنتمي إلى الرومان الكاثوليك، أخذوا برنامج حياتهم من القديس فرانسيس، أو القديس(1181-1222م)، وهو منصّر إيطالي، أسّس عام 1209م نظام الإخوة الصغار لإصلاح الكنيسة. وينقسم نظامه إلى ما هو تربوي، و تنصيري، و اجتماعي. وفي عام 1219م صاحب الغزاة الصليبيّين إلى مصر. أنظر: الموسوعة العربيّة العامّة، مؤسّسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة 2، الرياض، 1419هـ/1999م، ج17، ص 275-276، 349.

(**) الدومنيكان، أعضاء لهيئة دينيّة كاثوليكيّة أسّسها القدّيس الإسباني دومينيك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، والاسم الرسمي للهيئة هو نظام الإخوة القساوسة، واشتهر الدومنيكان بأنّهم وُعّاظ ومُدرّسون ومنصّرون، ويوجد المقر الرئيسي للهيئة في مدينة روما. قامت بمقاومة جماعة دينيّة في جنوب فرنسا تدعى الألبجنسيّين(Cathares)، واستعان البابا بأعضائها في البعثات الخاصّة مثل الخدمات الدبلوماسيّة والدعوة المؤيّدة للصليبيّين في هذا العصر. وكان الدومنيكان من بين الأعضاء الرئيسيّين لمحاكم التفتيش على مدى قرون وهي تلك المحاكم التي أزهقت أرواحًا كثيرة بتهمة الهرطقة. كما كانوا من بين مجموعة النظام اللاّهوتي الأوّل للعرش البابوي. أنظر: الموسوعة العربيّة العامّة : المرجع السابق، ج 10، ص 535-536.

(2) الرمزي: المصدر نفسه، ج 1، ص 394.
وأنظر أيضا : Richard(J.), Les Missions., p. 179.
والمعتقد أنّ كلا من دل كربين ولورنس قد حمل رسالة أخرى إلى الكنائس الشرقيّة .
أنظر : Jacques Boudet, Chronologie Universelle d'Histoire, Paris, collection in extenso, aout 1997, p.485 ; Bernard de Vaulx, Les Missions: leurs histoires des origines à Benoit XV(1914), Paris XIV, 1960, p. 34.

ذلك من عبور آلاف الأميال في الغابات والأحراش والقفار بدون مؤن أو عتاد، دون خوف من موت مُتيقن بسبب الجوع والعطش أو الحيوانات المفترسة أو بسيوف المغول، ولهذا فإنّ إنوسنت الرابع لم بجد حوله خيرًا منهم للتبشير بالدين المسيحي بين المغول ولجمع المعلومات عنهم(1).

أمّا الرسالتان، فإحداهما مؤرّخة في يوم (4 شوّال 642هـ/05 مارس 1245م)، وتضمنت شروحا حول الديانة المسيحيّة، ودعوة للمغول باعتناق المسيحيّة، فيما كانت الثانية مؤرّخة في يوم 13 مارس 1245م، وتضمنت دهشة وتعجّب البابا لهذا الهجوم ضدّ المسيحيّين المُسَالمين(2)، وتهديدًا بالغضب الإلهي، وأخيرًا اقترح فكرة السلام بين الطرفين(3). ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أنّ البابا إنوسنت الرابع قد اكتسب بهمّته تلك شهرة سياسيّة، وبدا واضحًا أنّ النصارى بعامّتهم كانوا على استعداد للتغاضي عن الأعمال الوحشيّة التي ارتكبها المغول ضدّ النصارى في روسيا وبولندا، وأن ينقادوا لهؤلاء ولو مؤقت مقابل تحطيم قوّة المسلمين(4).

---

(1) أنظر : Rachewiltz(Igor de), Papal Envoys to the Great Khans, London, 1970, pp. 85- 86.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., p. 21 note 1; Setton (Kenneth M.), A History of the crusades, éd. Marshall W. Baldwin, Philadelphia, 1975, T.III, p. 519.

وقد كان المؤرّخ الفرنسي المستشرق "بيليوت" Pelliot يظنُّ أنّ كلّ رؤساء البعثات البابويّة إلى المغول كانوا يحملون نموذجًا للرسالتين معًا، وهو بلا شك صحيح بالنسبة ليوحنّا دي بلان دل كاربين Plan Carpin، كما يمكن أن يكون الأمر ذاته لآسكلين Ascelin، ولكن رواية هذا الأخير (أنظر: St Quentin, op.cit., XXXII, 40. , p.94. )، لأحداث بعثته وعلى غرار ردّ بايجو، لا تُشير إلاّ للرسالة المعنونة Cum non Solum والتي كان الغرض منها أمر المغول بالكف عن المذابح في أوساط المسيحيين وتدعوهم لاعتناق الكاثوليكيّة، ومن جهة أخرى وعلاوة على الرسالتين السالفتي الذكر، هناك رسالة ثالثة كان على كلّ البعثات البابويّة حمْلُهَا وهي معنونة Cum Sinus Super المؤرّخة في (25 مارس 1245م) موجّهة إلى رؤساء الكنائس الشرقيّة تدعوهم إلى الإتحاد مع روما، وقد توجّه آسكلين Ascelin إلى تبريز Tabriz ببلاد فارس لإيصالها إلى الأسقف "ربان عطا" Siméon Rabban-ata(أنظر: St Quentin, op.cit., XXX, 70. , p.30. ). أمّا Longjumeau فقد حمل هذه الرسالة إلى عدّة رؤساء الكنائس ومن بينهم Siméon Rabban-ata الذي استقبله بحفاوة، ثمّ توجّه صوب فرقة عسكريّة مغوليّة مرابطة في Tabriz ليُسلّم الرسائل البابويّة، لأنّه كان مرسولاً إلى ملك المغول، وهناك تعرّف على نسطوري موظّف لدى المغول، تجدّد لقاؤه به فيما بعد في قبرص سنة 1248م كمبعوث مغولي إلى لويس التاسع، وكانت رحلة "لونجمو" عبر حلب والموصل. أنظر: Simon de Saint Quentin, op.cit., p. 21 note1; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté",Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1924, p. 249-252, et 1931, pp. 20- 22.

(3) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 2), pp.21-22 ; Richard (j), La papauté., op.cit., p.70 ; Dawson (Christopher), op. cit., pp. 73-76.

(4) أنظر : Browne(Edward Granville.), A Literary History of Persia, Adelphi terrace, London, 1906, p. 441.

وحدث سنة 1244م أن لجأ أحد رؤساء الأساقفة الروس، ويدعى بيتر، إلى البابا إنوسنت الرابع طالبا منه المساعدة العسكرية ضدّ المغول الذين طردوه من أسقفيته ومن بلاده أيضًا، وحطموا الكنائس والأديرة في إقليمه. وإثر ذلك حصل البابا على معلومات وافرة عن المغول من هذا المطران الروسي Archevêque، ومنها، طبقًا لرواية متى الباريسي Matthew Paris، أنّ التتر يعتقدون بوجود حاكم واحد فقط للعالم هو خليفة جنكيزخان، وأنهم يعتقدون أيضا أنّ الرب وابنه في السماء وأنّ جنكيزخان في لأرض، وأنّهم يرفعون أيديهم كل صباح ناحية السماء ليعبدوا خالقهم وأنّهم يتخذون من يوحنا المعمدان قدوة لهم، وأنهم يبتهجون كذلك عند رؤية كل قمر جديد. كما أنهم يستقبلون السفراء بكل لطف ويُيسّرون مهمتهم ويعيدونهم سالمين(1).

كان هذا التقرير على درجة كبيرة من الأهميّة لإنسنت الرابع في تقرير سياسته نحو المغول، وقيل أنّه وضعه أمام مجمع ليون المسكوني في العام التالي، وذلك أنّ البابا وجد في أقوال المطران الروسي عن معتقدات المغول شيئا شبيها بالمسيحية الكاثوليكيّة خاصّة في الاعتقاد "بالأب والإبن" في السماء وأنّ البابا على الأرض، وكذلك رفع الأيدي إلى السماء، وتبجيل يوحنا المعمدان، ولهذا اعتقد أنّ هؤلاء القوم أقرب إلى المسيحية، وأنّه يمكنه تحويلهم إلى للدين المسيحي لأنّ في اعتناقهم ديانة مشتركة مع الغرب الأوربي إنقاذًا لأوربا من أخطارهم المتوقّعة. وقد شجعته شهادة المطران الروسي عن احترام المغول للسفراء وتسهيل مهمتهم على التفكير في إنفاذ مبعوثين من قبله لقادة المغول(2).

**2 - سفارة لورنس البرتغالي Laurent de Portugal :**

استمر حكم توراكينا خاتون للمغول من سنة 1241م إلى سنة 1246م، ثُمّ حكم كيوك(1246-1249م) من بعدها، وفي هذه السنوات السبع لم يدخل المغول بلدا جديدا إلاّ فيما

---

(1) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 3, 5, 6 ;
John of Plano Carpini, History of The Mongols, in Dawson(C.), The Mongol Mission, sheed and ward, London and New York, 1955, p. 43, 44.
وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 55.

(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 55-56.

ندر، وعندما رأى الصليبيون في غرب أوربا النهج غير التوسعي عند كيوك خان تجددت آمالهم في التعاون مع المغول ضد المسلمين وقرر البابا انوسنت الرابع إرسال سفارة إلى منغوليا يرأسُها الراهب الفرنسيسكاني لورنس البرتغالي Laurence de Portugal، فانطلق هذا الأخير سنة 642هـ/1245م باتجاه الشرق، عبر أرمينيا الصغرى، يصاحبهُ الراهبان، الإنجليزي يوحنّا دي ستانفورد Jean de Stanford، وأبرهام دي لارد Abraham de Larde، ولكنّ رحلته انتهت عند مدينة أياس(Ayas)(*)Lajazzo(1)، لأنّ البابا غيّر رأيه واستدعاه إليه، ثم سلّم الرسالة إلى الدومينكانيان أسكلين دي كريموني Ascelin de Cremoni وأندرو دي لونجمو André de Longjumeau (2)، ومن المحتمل أنّ البابا غيّر مسار هذه البعثة إلى الشرق اللاتيني لتُؤدي رسالة أُخرى إلى أُمراء المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى تحثّهم على اعتناق النصرانيّة، وإقناع رجال الدين النساطرة واليعاقبة والإغريق لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكيّة في روما(3)، ومهما يكن فإنّ مجمل ما حمل لورنس البرتغالي من خطاب إلى الخان المغولي كان دعوة إلى اعتناق المسيحيّة(4).

لم تحقّق هذه البعثة أهدافها السياسيّة لأنّ الرسالة لم تصل إلى أيّ حاكم من حكّام المغول، ولم تنجح في توحيد الكنائس، وعاد لورنس في نفس السنة من حيث أتى ليقابل البابا(5)، ويبقى

---

(1) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit. , p. 21 note 1 ; Chardin(P. Pacifique), Les Missions Franciscaines en Chine, Éd. Auguste Picard, Paris 1915, p. 12; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 209 ; Marshall(Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 466.

(2) إنّ بعثتي أسكلين و لونجمو كانتا محل دراسة بول بيليو Paul Pelliot (المغول و البابويّة) وهي الآن كاملة من خلال الفصلين" على خطى يحنا أف بلان دي كاربين " و"وليم روبروك " "En marge de Jean du Plan Carpin " et de " Guillaume de Rubruck"

أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit. , pp. 21-22; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1924, pp. 288-290 ; Richard (j), La papauté., op.cit., p.71.

(3) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص60.

(4) أنظر : Denis Sinor, the Mongols and western europe, in Setton (Kenneth M.), A History., T.III, p. 522.

(5) أنظر : Richard (j) , La papauté., op.cit., p. 70.

(*) أياس(Ayas أو Lajazzo أو Laïas)، هو ميناء بقيليقيا Cilicie في أرمينيا الصغرى على خليج الإسكندريّة (golf d'Alexandrette)، لعبت هذه المدينة دورًا تجاريًا هامًا أثناء الحروب الصليبيّة بحُكم كونها تابعة لملوك أرمينيا الصغرى، فكانت مُتنفّسًا للتجارة الأوربيّة بعيدة عن البيزنطيّين وعن المسلمين. أنظر: Marco-Polo, La Description du monde, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1ere edition, Paris, 1955, p. 343.

الغموض مخيّما حول سبب رجوع السفير أدراجه، فالمعلومات عن سبب رجوع لورنس دون إيصال الرسائل غير متوفرة لدينا، إذ أنّ المصادر بقيت صامتة حول الموضوع، وحسب ظنّنا أنّ مخاطر السفر في ظلّ انعدام الأمن أرغمت المبعوث بالتوقّف عند هذا الحدّ، ما جعل البابا يقرّر رجوعه، أو أنّ البابا قرّر إرسال من هو في ظنّه أصلح منه لتلك المهمّة.

**3 - سفارة يوحنا دي بلان دي كاربين (Jean de Plan de Carpin) سنة 1245م :**

حمل يوحنّا دي بيان دي كاربين الخطاب الثاني للبابا إلي المغول، المُؤرّخ في 12شوّال/13 مارس 1245م، أي بعد حوالي أُسبوع من تاريخ الخطاب الأوّل الذي حمله لورنس البرتغالي(1)، ولا شكّ أنّ تلك الوتيرة السريعة في إرسال السفراء تنبع عن حرص البابا المفرط وسعيه الحثيث إلى الاتصال بالمغول في أقرب مدة زمنية ممكنة، علاوة على اجتهاده في اختيار يوحنا لأداء هذه المهمّة نظراً لرصيده الهائل في الرّهبنة، ودوره الهام في نشر أفكار الكاثوليكيّة في ألمانيا و بوهيميا، والمجر، والنرويج، والدنمارك، واللّورين، وإسبانيا حيثُ حقّق نجاحًا هامًا وباهرًا هناك(2).

وفي مضمون هذه الرسالة كشف البابا، بصفته المسئول الأوّل عن المسيحيّة وحامي حماها منذ زمن بعيد، عن دهشته من الاعتداء المغولي السافر والمذابح التي اقترفوها ضدّ

---

(1) الرمزي: المصدر نفسه، ج 1، ص 394.
وأنظر : Gregory G. Guzman, The Encyclopediste Vincent of Beauvais and his Mongol extracts from John Of Plano Carpini and Simon of Saint-Quentin, in Speculum(a journal of medieval studies) , the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, April 1974, p. 295.
و للتفصيل عن تزامن هاتين السفارتين، أنظر:
Gregory G. Guzman, Simon of Saint-Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju, in Speculum(a journal of medieval studies), the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, 1971, pp. 234-240.
كان مضمون هذه الرسالة يُبرزُ دهشة البابا أمام هذا الاعتداء المغولي السافر ضدّ المسيحيين، وتوعّدهم بالعقاب الإلاهي، ثم عرض عليهم السلام المسيحي المغولي. أنظر :
Jean de Plan de Carpin, Histoire des Mongols, Traduction de M. Édouard charton, Voyageurs anciens et modern, Paris, 1855, T.II, p.227; Dawson (Christopher), op. cit., pp.75-76 ; Simon de Saint Quentin, op.cit., p. 21 note 1 ; Richard (j), La papauté., p.70.
(2) أنظر : Dawson (Christopher), op. cit., p. 2 ; D'Ohsson(C), op.cit., T.II, p. 475 note 1.

الدول الكاثوليكيّة، فتوعّدهم بالعقاب الإلهي، كما دعا قادة المغول إلى اعتناق المسيحيّة وإلى العمل سويًا على إحلال السلام مع الأطراف المسيحيّة الأوربيّة، كما تضمّنت الرسالة رغبته في تحويل المغول إلى قُوّة ترمي إلى غزو المسلمين وقهر شوكتهم، في هذه المرحلة التي ما زال لهيب الحرب الصليبيّة مُشتعل في نفوس المسيحيّين، وبهذا كان البابا يسعى إلى كبح جماحهم وإيقاف توسُّعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها البابويّة للتفرُّغ لمُحاربة المُسلمين، وجمع المعلومات عن أهداف المغول المستقبليّة بعد استيفائها من قادتهم شخصيًا أو عن طريق رئيس البعثة(1)، ولعلّ ذالك أبلغ دليل على ما كانت البابويّة تخطّط له لمحاصرة بلاد الإسلام، ولو على حساب بني عقيدتها، ولم يكن مهما أن ترفع الاحتلال والظلم عن نصارى أوربا وروسيا(2).

غادر بلان دي كاربين وأصحابه مدينة ليون الفرنسية، حيث مقرّ البابا المؤقت، يوم 17 ذي القعدة/16 أفريل 1245م، فاجتازوا بوهيميا Bohéme، وبولونيا Pologne، وروسيا، وفي منطقة سيليسيا Silésie البولونيّة، التحق بهم المترجم الفرنسيسكاني، بنوا البولونيBenoit de Pologne(3)، ثُمّ اجتمعت البعثة بأساقفة روسيا وقرأ عليهم دل كاربين رسائل البابا، الذي حضّهم فيها بالرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، وبعد ذلك اتجّهت البعثة إلى كييف، العاصمة الرُوسيّة(4).

قرّر بلان دي كاربين، خلال هذا الشّوط من رحلته، أنّ الاتصال بالمغول ومُحاولة

---

(1) أنظر : John of Plano Carpini, op. cit., 1955, p. 3, 53, 54.

(2) أنظر: Jean de Plan Carpin, op.cit., p. 227 ; Dawson (Christopher), op. cit., pp. 73-76.

لمزيد من التفاصيل عن مضمون هاتين الرسالتين إرجع إلى ركن الملاحق من هذا البحث.

(3) أنظر: Jean du Plan de Carpin, Histoire des Mongoles, dans Forstetter(Michel), Voyageurs étrangers en Russie : textes choisis du X$^{e}$ au XX$^{e}$ siècle, Paris, la Table Ronde, 1947, p. 7; Richard (J.), La Papauté., p. 70 ; Chardin(P.P.), op. cit., p. 12; Howorth(Sir Henry Hayle), op.cit., Part II, Division I, p. 68 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 209-210.

كان عُمُر دي كاربين في تلك الآونة قد بلغ الستين عامًا، لكن ذلك لم يمنعه عن تحمُّل مشاق السفر البعيد في تلك الضروف القاسية التي لا يتحمّلُها حتّى الشباب، ولعلّ كلّ ذالك راجع إلى نمط الحياة الصارمة التي عاشها في أحظان الكنيسة، وحقده الصليبي تجاه المسلمين وعزمه على الإتصال بالمغول من أجل تحقيق مآربه مهما كلّفه ذالك.

أنظر: Guillaume de Rubruk, Voyage dans l'Empire Mongol, traduction et commentaire de Claude et René Kappler, Payot, Paris, 1985, p. 46.

(4) أنظر: Jean du Plan de Carpin, op. cit., pp. 7-8; Jacques Boudet, op.cit., p. 486 ; Richard(j), La Papauté., p. 71.

تنصيرهم والتفاوُض معهم في إمكانيّة التحالُف ضدّ المسلمين، أهمّ من الإطالة في مفاوضة الروس للإنضمام إلى الحضيرة الكاثوليكيّة، لذا توجّه لملاقاة الفلول الأولى لجيش المغول قرب كييف، والتي كانت تحت قيادة باطو Batu (1).

ولم يكن، في هذه المرحلة، بين يدي يوحنا دي بلان دي كاربين أو أحدًا من صحبته شيأً من الهدايا ليقدّموها للمغول، ذلك أنّهم كانوا أصلا يعيشون على ما يُقدّم لهم من صدقات في سفرهم ذاك، فجهّزهُم الدوق الروسي "كونراد" وزوجته، وأسقف "لانسيسك" أو (لانتيسي) l’évéque de Lencisc وبعض نبلاء بولونيا les nobles de Pologne ببعض التحف لتقديمها للمغول وذلك له دلالته على عزم الصليبيّين وتضافر الأيدي من أجل تحقيق أهدافهم المسطّرة التي تمثّلت في ظرورة الوصول إلى بلاط المغول للتفاهُم معهم على الصداقة وخُطّة التحالُف(2).

اتجهت البعثة إلى مدينة كييف التي وصلتها يوم 13 فبراير 1246م، ثُمّ وصلت إلى معسكر مغولي، في منطقة سيرا- أوردو Sira-orda الواقعة أسفل نهر الفولجا، الذي يبعد عن سراي، مركز المغول و مقرّ باطو على نهر الفولجا، بمسيرة نصف يوم، في 22 جوان 1246م، ومن هذه اللّحظة أخذت البعثة تنتقل من معسكر إلى آخر حتىّ قرّر باطو إرسالها إلى منغوليا(3).

وحينما وصلت البعثة إلى منغوليا وجدت وضعًا سياسيًا مُتغيّرًا، إذ أنّ الخان الأعظم أوكتاي Ogodai (1229-1241م) كان قد مات وتولّت زوجته توراكينا خاتون(1241-1246م) الوصاية على العرش، فانشغلت هذه الأخيرة بمشاكل السياسة الداخليّة عن البعثة التي، استنادًا إلى القوانين المغوليّة، ظلّت تنتظر حوالي ستّة أسابيع حتى يتمّ تتويج الخان الجديد كيوك

---

(1) أنظر: Richard(j), Les Missions., p. 179; d’Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 209-210 ; Chardin(P.P.), op.cit., p. 12.

(2) أنظر: d’Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 209-210.

(3) أنظر: Jean du Plan de Carpin, op. cit., pp. 8-10 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 46 ; d’Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 214-216; Richard(j), La Papauté., p. 71.

Guyuk(1246-1249م)، الذي استقبلها يوم 24 جويلية1246م (1).

كانت توراكينا خاتون قد هيّأت الظروف لنجاح خطّتها المتمثلة في تنصيب ابنها كيوك خانا على المغول، وتأكّدت من أنّها أضحت تملك الضمانات الكافية، دعت إلى عقد اجتماع للقوريلتاي، فأرسلت السُفراء إلى كبار الشخصيّات المغوليّة في جميع الأطراف والأمصار لتبلغهم بحضور الجلسة، كما وجّهت الدعوة إلى ملوك وأُمراء النواحي الخاضعين للحُكم المغولي، فتواترت الوُفود من الشرق والغرب إلى العاصمة المغوليّة، باستثناء باطو الذي اعتذر بسبب المرض وأرسل إخوته بدلاً عنه، ولعلّه علم بما تُخطّط له هذه السيّدة مما لا يتوافق مع توجُّهاته، كما وصل عدد من الملوك والأُمراء الأجانب وكذلك مندوبون عن الدول الأُخرى في الشرق والغرب، ثمّ انعقد القوريلتاي في خيمة ذهبيّة خاصّة أُعدّت لهذه الغاية على ضفاف إحدى البحيرات في غربي منغوليا، وتمّ انتخاب كيوك خانًا أعظم بالاجماع كما هو متوقّع، فأُجلس على العرش وتلقّى من الحاضرين يمين الولاء والخضوع(2).

لم يكن الخان الجديد جاهلا بأمور السياسة ولذالك بادر في أجراء التغييرات اللازكة في الهيكل الإداري، فقد عزل موظّفي العهد السابق وعيّن بدلاً عنهم موظّفين يثق بهم، وأعاد الاعتبار لكبار الموظّفين الذين عُزلوا في عهد أبيه، فعيّن إيلجيكتاي، فاتح هراة واليًا على إيران مكان بايجو، وكلّفه بالاستيلاء على ما تبقّى من الممالك الاسلاميّة، وجعل له السلطة العليا والإشراف على ممالك الكرج والموصل وديار بكر، ونصّب محمود يلواج حاكمًا على ممالك الخطا، والصين الشماليّة، وعهد إلى سوبوتاي بمهمّة فتح الصين الجنوبيّة، وولّى الأمير مسعود

---

(1) أنظر : Jean de Plan Carpin, op.cit., pp. 226-234;
Simon de Saint Quentin, op.cit., livre( XXXII, 32), pp. 90-92 ;
Gregory G. Guzman, Simon of Saint-Quentin and., op. cit., p. 295 ;
d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 195, 197, 207, 208.
وانظر أيضا : الرمزي : المصدر نفسه، ج 1، ص 380، 381، 394.
وإظافة إلى "دل كاربين" ومن معه، حظر الكورلتاي عدّة شخصيّات إسلاميّة منها، "الشاه مسعود" حاكم التركيستان، وركن الدين السلجوقي صاحب قونيا Roum، وأخ أمير حلب، ومبعوثي الخليفة العبّاسي، ومبعوثي الإسماعيليّة في "ألموت"، ومبعوثي أمراء الموصل وفارس وكرمان، كلّهم قادمين بهدايا ثمينة.
أنظر: d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 196, 197, 207, 208.
وكرمان، مدينة بين غزنة وبلاد الهند وهي من أعمال غزنة. أنظر : البكري الأندلسي (ت487ه) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حقّقه وضبطه مصطفى السّقا، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، بيروت (1403ه/1983م)، م2، ص 1125 ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1399ه/1979م، ج4، ص 455.

(2) أنظر : Roux(Jean-Paul), Histoire de l'Empire Mongol, librairie Arthem Fayard, Paris, 1993, pp. 5-7, 9-10.

بك حاكمًا على تركستان وبلاد ما وراء النهر، وعيّن الأمير أرغون واليًا على خرسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وطرف الهند، وقلّد السلطان السلجوقي ركن الدين قلج أرسلان الرابع سلطنة سلاجقة الروم لأنّه حضر حفل تنصيبه، وعزل أخاه السلطان عزّ الدين كيكاوس الثاني، وقرّر أن يقتسم الحكم في بلاد الكرج الأميران داود نارين و داود لاجا، وأعاد جينقاي النسطوري الكرايتي إلى منصبه السابق كمستشار للإمبراطوريّة وقلّده منصب الوزارة، وقرّب مُربّيه الأمير قداق النصراني، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على توجُّهاته من واقع العطف على النصارى، وحضي الأمير الأرميني هيثوم بامتيازات عديدة، فقد عدّه كيوك تابعًا له، فمنحه وثائق تضمن إعفاء بلاده وأديرته وكُل النصارى من الضرائب(1)، ونتيجة لهذا الميل نحو النصرانيّة، وجد الأطبّاء النصارى الطريق ممهّدًا للإشراف على الشؤون الطبيّة في قراقورم، كما حفل بلاط كيوك ومعسكره بالأساقفة والكهنة والرهبان، وشاعت بعض التقاليد النصرانيّة في الأوساط المغوليّة(2).

لاحظت بعثة البابا إنوسنت الرابع التي حضرت القورلتاي أنّ الخان الجديد كان مُحاطًا في بلاطه بمجموعة من المسيحيين النساطرة، ويبدو أنّ المبعوثان يوحنا وبونوَا نجحا أثناء إقامتهما في منغوليا التأثير على وزيرين من وزراء كيوك، فاعتنقا المسيحيّة وأثّرا بدورهما على ذلك الخان، ولذلك تردّدت فيما بعد أخبار تفيد عزم كيوك على بناء كنيسة صغيرة في قراقورم، ما جعل البعثة تترقّب تحوله الوشيك إلى المسيحية، خاصة وأنّ المعلومات التي تحصّل عليها يوحنا دي بلان دي كاربين تفيد أنّ كيوك خان يستخدم كثيرًا من المسيحيين في الوظائف الهامّة، وأنّ هداياه لهم عبارة عن متعلقات مسيحيّة، وقد سجّل كاربيني بنفسه أنّ الكاثوليك كانوا على الدوام إلى جانب كيوك في بلاطه أنّه كان يحتفظ "بجوقة للتراتيل المسيحيّة في كنيسة صغيرة une Chapel " بجوار خيمته الرئيسية، وأنّهم يرتلون نُسُكهم على الطريقة الإغريقية، وأنّ كثيرًا من المغول يستمعون لهاذه التراتيل، وأنّه كان يُموّل رجال الدين الكاثوليك، كما أنّ

---

(1) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة : جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، تعريب فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1983م، ص183-188 ؛ ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الملطي المعروف بابن العبري. ت. 689ه) : تاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة و قدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت، (1406ه/1986م)، ص 291 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205ه/820م-1343ه/1925م)، نقله عن الفارسيّة محمّد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م، ص 408، 418.

(2) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 291.

الكاثوليك الذين هم من أقاربه كانوا يؤمنون أنّه سينتصر، إلاّ أنّه اتضح عاجلاً ويقينًا أنّ الخان غيرُ راغب في استبدال عقيدة أجداده بغيرها، وإن أظهر تعاطفا نحو المسيحيّة وأهلها(1)، وإن دل ذلك على أمر فهو أن عقائد المغول قد أخذت في التغير في تلك المرحلة بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبيا في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين المغول والصليبيين(2)، وبهذا تكون سفارة " بلان دي كاربين" أوّل ما يتّصل بالمغول في عقر دارهم(*) من قبل البابا إنوسنت الرابع.

وقد ذكر الرمزي أنّ " كيوك خان كان قد مال إلى النصارى والعطف عليهم بإضلال أتابكه قداق خان، الذي تنصر، وكان في بلاده المغل من القسيسين والرهابين والمطارنة ما لا يحصى فاعتنمت هؤلاء الشياطين ذلك وأظهروا وساويس كثيرة في إذلال الاسلام والمسلمين وإهانة الدين المبين وهموا باستيصال شائفة المسلمين، ولكن كان بين بلاد أوربا ومملكة كيوك خان حائل كبير وهو مملكة باتو وكان المذكور يحب المسلمين فالتجأ إليه المسلمون واستعانوا به، وأغرى القسيسون أيضًا كيوك خان وحسّنوا له الاستيلاء على بلاد باتو خان بينما جاهره هذا الأخير بالمعصية، فعزم كيوك على غزوه وقصده بستمائة ألف فارس، وجمع باتو أيضًا عساكره، حتى إذا لم يبقى بينهما إلاّ مسافة عشرة ايّام أو ثماني مراحل، مات كيوك خان فجأة، ذكر ذلك المؤرخ فضل الله العمري، فكفى الله المؤمنين القتال ونجّى المسلمين من شرّه وشرّ هؤلاء القسيسين وكلاء الدجال وكان ذلك في تاسع ربيع الآخر سنة 637هـ أو بعدها "(3).

استقبل كيوك السفارة الصليبية بحفاوة، مُراعة لكثرة النصارى في البلاط المغولي، ولكن عندما قرأ رسالة البابا، التي كتبت بلهجة عنيفة(**)، وجد أنّه بالإضافة إلى طلبه توحيد العمل

---

(1) أنظر : John of Plano Carpini, op. cit., p. 68; Jean de Plan de Carpin, Histoire des Mongols, dans M. Édouard Charton, Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855, p.238; Richard(j), La Papauté., pp. 75-76.

وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص65.

(2) أنظر: Gregory G. Guzman, Simon of Saint-Quentin and., op. cit., p. 295 note 37.

(*) المعروف أنّ يوحنا دي بلان دي كاربين هو الوحيد الذي اتصل بأحد خانات المغول العظام، وهو كيوك Guyuk، من بين رسل البابا إنوسنت الرابع.

أنظر : Bernard de Vaulx, Les Missions., p.34.

(3) أنظر : الرمزي : المصدر السابق، ج1، ص 390- 391.

(**)انتقد تصرفات المغول بحق النصارى في شرق أوربا، وحثّهم على الاقلاع عن هذه الاعتداءات والتكفير عن الخطايا =

العسكري ضد المسلمين، يدعوه إلى اعتناق المسيحية، فاعتبر خان المغول ذلك تعديا من البابا، إذ كيف يطلب من خان المغول أن يُغير مُعتقده، لذلك أمر أن يوضع أعضاء البعثة في مكان اشبه بالسجن حيث حرموا من الطعام والشراب لولا أن قدّم لهم أحد الروس، الذين كانوا يعملون في خدمة المغول، الطعام خفية، ثمّ ردّ كيوك السفارة الصليبية إلى البابا. و جاء الرد المغولي مُحبطًا للآمال، فقد طلب الخان من البابا وملوك الغرب الأوربّي أن يحضروا بأنفسهم إلى قراقورم ليقدموا له فروض الولاء و الطاعة، و يركعوا أمامه و يُؤدوا له الجزية عن رعاياهم، وفقط بعد ذلك يبدأ التعاون، طبعًا بالمفهوم المغولي، ورفض دعوة البابا الدخول في النصرانيّة بفعل أنّه لم يفهم ممارسة الشعائر النصرانيّة. و يُؤكّدُ كيوك بأنّ تدمير الممالك النصرانيّة، وبالتأكيد الإسلاميّة أيضًا، قد تمّ بأمر من الرب الذي أبلغه إلى جنكيزخان، وأنّه يُنفّذ مشيئته في إخضاع العالم لخُلفائه. وتُوضّحُ هذه اللهجة اعتناق المغول لفكرة السيادة العالميّة وأنّهم مبعوثون من قبل السماء لحُكم العالم بأجمعه، ولهذا عدّ الشعوب الأوربيّة التي دمّروها شُعوبًا مُتمرّدة على حُكم السماء، ومن ثَمّ استحقّت القتل والتدمير بواسطة المغول(1)، ويبدو أنّ الخان أبدى نيّته في إرسال مبعوثيه الخواص مصطحبة السفارة البابوية إلى أوربا، إلاّ أنّ يوحنّا كاربين امتنع لأسباب استراتيجة لإبعاد الجواسيس المغول عن أوربا، وفضّل نقل رسالة الخان، السابق ترجمتها، بنفسه(2).

---

= السابقة، وكرّر طلبه بحسن معاملة السفراء والتباحث معهم في المسائل التي تخصّ السلام بين الطرفين، وأنّه على المغول إبلاغه، كتابة، بالأسباب التي دفعتهم إلى تدمير الشعوب المسيحيّة الأخرى وإحاطته بنواياهم المستقبليّة. ولا شكّ أنّ هذا الأسلوب في التعامل مع قوّة المغول الرهيبة، تعتبر عثرة في الدبلوماسية البابويّة التي ألقت بمرسوليها، بقصد أو بغير قصد، إلى المشنقة وتأجيج سخط الآلة الحربية المغولية على أوربا بأكملها.

أنظر : John of Plano Carpini, op. cit., pp. 73-75.

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة الدكتور الباز العريني، دار الثّقافة، بيروت، لبنان، (1417هـ/1997م)، ج3، ق2، ص 446 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 63، 65-66.

وانظر أيضًا : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre (XXXII, 51.), pp. (114-115) note 2 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II,pp. 219-220 note 1.

(2) ولا غرو أنّ المبعوث البابوي رفض اصطحاب سفراء للمغول معه إلى الغرب الأوربي رغم طلب المغول ذلك، وفي تبريره لهذا الامتناع احتجّ يوحنا دي بلان دي كاربين بعدّة أسباب حكيمة هي في قوله :

أوّلا : "خشينا أن يروا ، أي سفراء المغول، الخلافات والحروب المنتشرة بيننا وهذا يشجّعهم على مهاجمتنا"،

ثانيًا : "خشينا أن يكون الهدف الحقيقي للمغول من إرسال السفراء هو التجسس على الغرب"،

ثالثًا : "أنّ جموع الأوربيّين كانوا وقتذاك في حالة غليان من جرّاء تدمير المغول لعشرات المدن والكنائس والأديرة وذبح عشرات الآلاف من السكان بلا رحمة أو تفرقة"، ولهذا خاف يوحنا أن تُقدم الجموع الغاضبة على قتل أو أسر سفراء المغول، خاصّة وأنّ من عادة الخانات هو الانتقام بالقتل والذبح والغزو والامتناع من عقد أيّ سلام مع من يأسر أو يقتل سفراءهم. أنظر : John of Plano Carpini, op. cit., p. 68; Jean de Plan de Carpin, op. cit., T.II, p. 238.

وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 66، 67.

ولكنّ بلان دي كاربين لا يخبرنا عن ظروف تسليم الرسالة إلى الخان المغولي، ولا عن محتوى المحادثة أو ما آلت إليه في موضوع إمكانيّة تحوّل المغول إلى المسيحيّة، خاصة وأنّ الفرنسيسكاني لم يتحدّث إلى الخان إلاّ لوقت وجيز جدا، ولم يخبره عن هدف بعثته إلاّ كتابياّ، إلاّ أنّ ردّ الخان كيوك بأسلوب عنيف ومحبط على خطاب البابا، " أنتم تقولون أنه إن تلقّيت التعميد، سيكون خيراّ، فطلبكم هذا غير مفهوم "، بمعنى أنّه مرفوضا تمامًا، مؤشرا واضح المعالم عن اطلاعه عليه، ولكنه يبدو ظاهرا حسب ما ذهب إليه المستشرق الفرنسي ريشارد Richard (j) أنّ هذا الرد كان من نسيج شخص آخر، إلاّ أنّه إقرارا فعلي بالإطّلاع، حتّى ولو كان الرد على غير ما يأمل البابا في روما(1).

وعلى هذا فإنّه يبدو أنّ كلّ محاولات البابا لثني المغول عن اجتياح أوربّا والتحالف معهم ضدّ المسلمين قد باءت بالفشل الذريع، وأنّ دكّ المغول لأبواب روما قد بات وشيكًا. وبعد يومين من هذا اللقاء كان دَوْرُ أُمّ الخان كيوك، لتستمع للبعثة، لكنّها رفضت هي الأخرى اعتناق الديانة المسيحيّة، ثُمّ سرّحتها بالهدايا في شهر نوفمبر من السنة نفسها بعدما قضت شهرًا بأكمله في بلاط خان المغول(2).

وبالرغم من ذلك إلاّ أنّ بعثة يوحنّا دي بيان دي كاربين تعدّ من أشهر وأهم البعثات البابويّة للمغول، ذلك أنّها أوّل بعثة أوربيّة تصل إلى قراقورم عاصمة المغول، وأوّل فرصة حقيقيّة أتيحت للإحتكاك المباشر وتبادُل المعلومات، بصورة علنيّة ومكتوبة، بين المغول وأوربّا، أظف إلى ذلك دقّة وغزارة المعلومات التي دوّنها يوحنّا في تقريره الذي قدّمه للبابا عن حياة المغول ونظمهم الاجتماعيّة والعسكريّة ومُعتقداتهم الدينيّة وأُسلوب حُكمهم للبلدان التي احتلُّوها، بالإضافة إلى معلومات تاريخيّة و جُغرافيّة لم تكن معروفة في أوربّا من قبل عن مناطق وسط آسيا وشرقها، وأخيرًا تعتبر فرصة حضور يوحنّا ورفاقه حفل تنصيب كيوك خانًا على المغول واجتماعهم مع كبار قادة المغول، حيثُ تحدّثوا معهم لأوّل مرّة واستمعوا إليهم، ونقلوا للغرب الأوربّي ما سمعوه وشاهدوه (3).

---

(1) أنظر : Jean de Plan de Carpin, op.cit., p. 237 ; Richard (j), La papauté., p. 73.
وانظر أيضا : أربري: تراث الفرس، ترجمة محمّد كفافي، وأحمد الساداني، والسيّد يعقوب بكر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر 1959م، ص436 ؛ براون: المرجع السابق، ص 574 ؛ الرمزي: المصدر نفسه، ج1، ص394.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 219-220.

(3) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 60.

شعر يوحنا دي بيان دي كاربين بأن لا جدوى من البقاء أكثر في قراقورم، فعادت البعثة من نفس الطريق الذي سلكته أوّل مرّة، وفي 09 ماي 1247م وصلت إلى معسكر الخان باطو(*)، على نهر الفولجا، ومنه إلى مدينة كييف، و وصل إلى مدينة ليون في سنة645هـ/1247م، و هو يحمل ردّ كيوك إلى البابا، و الذي يتضمّن عبارات تَنُمّ عن استعلاء، مثل : "بقوّة الرب، امبراطور البشر" و"الرب في السماء و كيوك على الأرض، ختم امبراطور كلّ البشر"، و من ثمّ يُفسّر المبعوث البابوي رفض المغول إبرام أي سلام مع أي شعب احتكوا به إلاّ بعد خُضوعه التام لهم باعتقادهم أنّهم سادة البشر.

استقبل البابا إنوسنت الرّبع اعضاء البعثة بحفاوة بالغة، وضيّفها عنده مدّة ثلاثة أشهر، وذلك بسبب المعلومات غير المسبوقة التي قُدّمت له عن المغول من خلال تقرير السفير، و من ثَمّ أوفد البابا يوحنّا دي بيان دي كاربين إلى الملك الفرنسي لويس التاسع لإبلاغه بنتائج سفارته، بالإضافة إلى بعض المهام الأُخرى المتعلّقة بالحملة الصليبيّة التي كانت ستُقلع من فرنسا، ثُمّ عُيّن يوحنّا رئيساً لأساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعة على ساحل دلماشيا، وبالطبع رفض البابا وملوك أوربا الغربية طلب الخان كيوك. وبذلك فشلت السفارة الصليبية في تحقيق أهدافها جزئيا حيث لم يسلّم المغول برغبات البابا، كما لم يشر الخان كيوك في ردّه إلى أيّ ارتباط مع البابويّة أو بأي قوة صليبية أخرى بروابط الصداقة.

وبناء على ما تقدّم، يتبيّن أنّ المبعوث البابوي تيقّن، وبذلك يحذّر البابا، بأنّ الدور سيحل على الغرب الأوربي، لأنّ الخان السابق كان ينوي إخضاعه لولا وفاته مسمومًا، ولهذا فهو يناشد البابا وملوك الغرب بتوحيد الكلمة وحشد الجيوش لقتال المغول، لأنّهم لو بادروا بغزو أوربا فإنّ كل حاكم سيشغل بالدفاع عن بلاده ولن يستطيع مساعدة الآخرين، ولو حدث ذلك فإنّهم لن يصمدوا أمام غزوهم الجارف.

وبالرغم من الفشل الذريع لتلك البعثات البابويّة والتهديد المغولي الصريح، إلاّ أنّ البابا لم

---

(*) طلب المبعوثان من "باتو" ردّه الشخصي للبابا إنوسنت الرابع، فردّ أنّه لا يزيد عن ردّ الخان"كيوك" شيأ.
أنظر: John of Plano Carpini, op. cit., p. 69;
Jean de Plan de Carpin, op. cit,, T.II, p.239;
d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 220.

يكُن ليُثنيه ذلك عن أهدافه وطموحاته، فقرّر المُعاودة وهذه المرّة ببعثة الدومينيكاني أسكلين Ascelin(1).

**4 - سفارة أندرو دي لونجمو من قبل البابا إنوسنت الرابع :**

قرّر البابا إنوسنت الرابع، عام 643هـ/1245م، الاتصال ببعض البلدان الشرقيّة، فكلّف البعثة الدومنيكانية الأولى، برآسة أندرو دي لونجمو، بحمل رسالة لتسليمها لقادة المغول في إيران وآسيا الصغرى، ولبعض أُمراء المسلمين في بلاد الشام والعراق وإيران، تدعوهم إلى اعتناق المعتقد المسيحي على المذهب الكاثوليكي، وكذلك إبلاغ رسائله رؤساء الكنائس الشّرقيّة، الأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة، تدعوهم للانضواء تحت لواء البابويّة، فاجتاز سورية المسلمة ثمّ منطقة الموصل ليصل إلى تبريز التي هي من أشهر مدن أذربيجان، وكان المغول قد مروا بها لمّا خرّبوا البلاد في سنة 618هـ ولاكنّها نجت من أيديهم صُلحًا(2)، فزار الصّالح إسماعيل، صاحب بعلبك، ثمّ المنصور، صاحب حمص، اللذان كان لهما علاقات طيّبة بالصّليبيّين في تلك الآونة، إلاّ أنّ المنصور انزعج من أي تحالف محتمل بين المغول والصّليبيّين، فكتب إلى البابا يوم 09 شعبان 643هـ/30 ديسمبر 1245م ينصحُهه بعدم الاتصال بالمغول(3)، أمّا لونجمو فقد اجتهد في حثّ رؤساء الكنائس الشرقيّة على الوحدة، ورُغم أنّ مُهمّته لم تكن للإتصال بالمغول خاصّة والاطّلاع على نيّاتهم، إلاّ أنّه اجتهد في الحصول على معلومات قيّمة عن خُططهم(4) .

---

(1) أنظر : John of Plano Carpini, op. cit., pp. 45, 46, 69-72; Richard (j), les Missions., p.179; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 220-221, 221 note 1; Gregory G. Guzman, The Encyclopediste., pp. 295-296 ; Sanders(J.T.), The History of the Mongol conquests, Cambridge University Press, London, 1871, p. 91, 94, 188 ; Runciman (Steven), A History of crusades, First pub., Cambridge University Press, London, 1951, T.III, p.232.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص 446-447.

هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 66، 67.

و قد ذكر "بيليوت" Pélliot أنّ أصل "أسكلين" هو منطقة لومبارد Lombarde .

أنظر: Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40.), p. 94 note 4.

(2) أنظر : Richard (j), La Papauté., p.71, 72.

وانظر أيضًا : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 13 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 67، 68.

أنظر: Guillaume de Rubruk,, op.cit., p. 52, 53.

(3) أنظر : Denis Sinor, op. cit., pp. 520- 521.

(4) أنظر : Richard(j), les Missions, op.cit. p.179.

واصل أندرو رحلته، وفي ضواحي مدينة تبريز التقى بطليعة جيش مغولي تابعة لبايجو، القائد المغولي العام في غربي أسيا، فقام بتسليم الخطاب البابوي لقائدها، في الوقت الذي فشل فيه عن مُقابلة القائد العام، وأغلب الظنّ أنّ الرسالة لم تصل إلى بايجو أو إلى الخان الكبير في قراقورم، كما تقابل فيها مع راهب نسطوري يُدعى سيمون رابان عطا Simeron Rabban-ata كان هو أسقف النساطرة في تبريز، فزوّده هذا الأخير بمعلومات عن خُطط المغول لغزو العالم(1)، وهو الذي كان مُقرّبًا من الخان العظيم أوكتاي Ogodai بن جنكيزخان(1229-1241م)، فكان له دورًا هامًا في رعاية شؤون المسيحّيين الذين يعيشون في ظل الحكم المغولي(2)، أمّا كيوك خان فقد أعطى هذا الأسقف كلّ الصلحيّات لإعادة تشييد وبناء الكنائس التي دُمّرت وأعطى الحُريّة للمسيحيّين في ممارسة شعائرهم ما يدل على الثقة والمكانة التي كان يحضى بها هذا الرجل في ظلّ الحكم المغولي للبلاد(3)، وتعرّف أيضًا على راهب نسطوري آخر اسمه داود، سوف يكون له دورًا هام في سفارة لويس التاسع إلى المغول(4).

وحينما حان الرحيل، حمّل ربان عطا زميله أندرو دي لونجمو خطابًا إلى البابا يحثه فيه على إبرام معاهدة سلميّة مع الإمبراطور فريدريك الثاني(617-648هـ/1220-1250م) حتى تتوحّد أوربّا لمواجهة المغول والمسلمين معًا(5). وهكذا كان أقصى ما وصلت إليه هذه السفارة هي تبريز، وقد ساعد لونجمو إتقانه اللُّغتين العربيّة والفارسيّة.

عاد أندرو إلى أوربّا في النصف الأول من عام645هـ/1247م ليقابل البابا في مدينة ليون الفرنسيّة، ومعه كل هذه التقارير عن عصيان هذا الخان لكنيسة الربّ المزعومة، ووقوفه ضدّ الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة وضدّ الممالك المسيحيّة ودول الغرب الأوربي، في حين لم يكن لأندرو أف لونجمو ليتعدّ مدينة تبريز، لأنّ رُسل البابا كانوا يسلّمون رسائلهم إلى قوّاد

---

(1) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 52; Denis Sinor, op. cit., p. 519- 520.
وانظر أيضًا : عمران محمود سعيد : المغول والأوربيّون والصليبيّون وقضيّة القدس، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص 314، 315.
وقد ذكر "Richard jean" أنّ لونجمو وأسكلين دي كريموني Ascelin de Cremoni حملا الرسالة نفسها إلى النسطوري سيمون ربان عطا Simeron Rabban-ata دون أن يدريا ذلك.
أنظر : Richard(j), La papauté., op.cit., p. 71.
(2) أنظر : Denis Sinor, op. cit., p. 521.
(3) أنظر: Simon de Saint Quentin, op.cit., pp. 30-31 note 3.
(4) أنظر : Guillaume de Rubruk, op. cit., Article XXIX, pp. 177-189.
(5) أنظر : Denis Sinor, op. cit., p. 521.

الفيالق المغوليّة الأولى التي يصادفونها، وذلك راجع ربّما لجهلهم بالتنظيم السياسي المغولي أو لعجزهم في الوصول إلى العاصمة المغوليّة لظروف قاهرة(1) .

**5 - سفارة أسكلين اللومباردي Ascelin de Cremoni de Lombardie :**

رأى البابا إنوسنت الرابع، سنة 1245م، أنّه من الضروري إرسال سفارة خاصّة إلى بايجو، قائد القوات المغولية المرابطة في مدينة تبريز بمنطقة فارس، إذ لمس فيه البابا حُبًا لعداوة المسلمين والتوسع من جديد في أراضيهم، فأرسل إليه أسكلين وهو أحد رجال الدين الدومنيكان، وفي صحبته(*) رجل اسمه سيمون دي سانت كانتين Simon de Saint Quentin، صاحب كتاب "تاريخ التتار" Histoire des Tartares .

ترأس الراهب أسكلين اللومباردي بعثة من جماعة الرهبان الدومنيكان الثانية إلى الشرق، وقد غادرت هذه البعثة مدينة ليون الفرنسية في مارس أو أبريل عام 1245م، ومثل بعثة أندري لونجيمو التالية ولورنس البرتغالي السابقة، أرسلت إلى منطقة الشرق الأدنى، وذلك لخشية البابا أن يفشل لورنس وأندري في الوصول إلى المغول من الشمال فيستطيع أسلين، رُبّما، توصيل خطابات البابا لقادة المغول من طريق آخر أقلّ خطرًا. وقد استطاع المغول في هذه الفترة إخضاع مملكتي جورجيا وأرمينيا الصغرى المسيحيتين، الأولى بحدّ السيف والثانية طواعيّة واختيارًا. ولهذا خشي البابا من أن يكتسح المغول أملاك الصليبيين ومواقهم في الأرض المقدّسة، ولهذا أرسل هاتين البعثتين منفصلتين للتفاهم مع الغزاة، وكذلك لتوحيد الكنائس الشرقية تحت لواء البابوية، وجمع معلومات عن نية المغول وأهدافهم في غرب آسيا، كما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك حثّ المغول على اعتناق المسيحية الكاثوليكية والتكفير عن ذنوبهم والكف عن قتل السكان المسيحيين أو تدمير أملاكهم والدعوة إلى حسن معاملتهم، فسلك أسكلين الطريق الجنوبي عبر قبرص و بلاد الإسلام، حيث مرّ بسورية ليخترق تركيا ثم أرمينيا،

---

(1) أنظر : Richard (j), La papauté., op.cit., p.71.

(*) يبدو أنّ أسكلين اللومباردي خرج بمفرده من مدينة ليون، ثُمّ التحق به اربعة من الرهبان الدومنيكان من مختلف الأديرة التي كان يمر بها في بعثته تلك وكأنّ الأمر مُخطّط له مسبّقا، حتّى أصبحت البعثة تتألّف من خمسة أفراد أهمهم أسكلين نفسه، وسيمون دي سانت كانتين صاحب كتاب تاريخ التتار، وجيوسكارد دي كريمونا، وكان هذا الأخير من أعضاء الدومنيكان في تفليس عاصمة جورجيا المسيحيّة ويُجيد لغات تلك المنطقة ويعرف عادات سكانها وتقاليدهم وعن طريقه حصل السفراء على معلومات تاريخيّة هامّة دوّنها سيمون دي سانت كانتين في تقريره عن غزو المغول لآسيا الصغرى.
أنظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 69.

فوصل إلى تفليس Tiflisعاصمة جورجيا في الشّمال(1)، وهُناك انضمّ إليه راهب دومنيكاني آخر يدعى جيوسكارد دي كريمونا Guiscard de Cremona، واستمرّت الرحلة لستّة أسابيع حتى وصلت البعثة إلى معسكر المغول بقيادة بايجوBaiju في بلاد فارس يوم 25 مايو1247م، فسلّم هذا الأخير رسالة البابا، وفقًا لتعليمات هذا الأخير بتسليمها إلى أوّل قائد مغولي يُقابله أسكلين(2). استقبل بايجو أفراد البعثة بالترحاب، ثُمّ سألهم عن نية الصليبيين في الهجوم على الشام ومصر(*)، إذ توقع أن هجوم الصليبيين عليها سوف يشغل المسلمين في هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية في بغداد، وبذلك تسهل مهمته في اقتحامها(3). ويبدو من تواتر الأحداث أنّ بايجو اعتبر نفسه غير مؤهلاً لاتخاذ القرار الاستراتيجي الخطير المتمثّل في التعاون مع أوربّا، بينما كان كيوك لا يزال على نهجه في عدم التوسع وأيضا رفض التعاون مع البابا وملوك أوربّا إلا بعد خضوعهم له، فقرّر بايجو صرف تلك السفارة إلى الخان كيوك في قراقورم.

ويرى المستشرق الفرنسي "بول بيليو Paul pelliot" أنّ رفض أسكلين الانقياد لطقوس وأوامر المغول أثار حاشية بايجو غضبا وانزعاجا، فقرّر هذا الأخير إرساله إلى الخان الكبير في العاصمة قراقورم المغوليّة، وذلك ما فعله الأمير المغولي باتو Batu، من قبل، مع بلان دي كاربين(4)، ويبدو أنّ الاجتماع بين بايجو وأعضاء السفارة كان عاصفًا، مُجدّدا، بسبب رفض البعثة البابويّة الامتثال لاقتراح بايجو بالتوجه إلى قراقورم، وطلبهم من هذا الأخير اعتناق المسيحيّة، فقد صرح له أسكلين أنه "إن تحول إلى المسيحية فسيركع له هو وجميع

---

(1) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXI, 95), p.56, livre(XXXII, 29), p. 86; Marco-Polo, op. cit., p. 357; Richard (j), La Papauté., p.71.
وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص68.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40.), p. 95, 95 note1; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 221; Richard (j), les Missions., p.179.
وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 68، 69.

(*) كان الملك الفرنسي لويس التاسع يجهز في تلك الأوقات لحملة صليبية على مصر، والتي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة، وكان يجمع جيوشه في جزيرة قبرص.
أنظر : Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI$^{e}$, Librairie Larousse, 1968, T.6, p. 861.

(3) Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 41), pp. 97-98.

(4) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 46), p.104 note 1 ; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1924, p. 309, 310 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 227, 228.

الرهبان المسيحيين ويقبلون قدميه"، ما أثار غضبه، مرّة أخرى، باعتباره تعديا صارخا وخطيرًا على مقامه وعظمته باشتراط المسيحيّة عليه(1)، وهكذا كان لرفض أعضاء السفارة الانحناء بالركوع له إضافة إلى إعراضهم عن حمل الهدايا إليه، كما هي عادة السفراء، مزيدا من التعقيد لمهمّتهم، فتعرّضوا على إثرها لأنكر النعوت من الألقاب، وقد عزم بايجو قتلهم لولا وصول الأمير المغولي الجيكتاي (الجيجيداي) Eljigidei، مبعوث الخان الأعظم في قراقورم، الذي علم بوصول السفارة البابويّة، فأمر بايجو بإطلاق سراحها(2)، وجدّد بايجو الأمر المغولي للبابا بالخضوع، بإرساله رسالتين يحملهما أسكلين تتظمن إحداها أمر للبابا إنوسنت الرابع بالمثول بنفسه أمام سيّد العالم في منغوليا، وفي الثانية سخط على البابا للغطرسة التي أبداها سفراءه أمامه ورفضهم الركوع له وقولهم أنّ البابا أعلى مقاما من الخان الأعظم في قراقورم(*)، وعلى هذا المشهد بدا واضحا في الأفق أنّ مهمّة السفارة البابويّة آلت إلى فشل ذريع (3).

---

(1) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 42-45), pp. 98-104, livre(XXXII, 46.), pp. 104-105, 104 note 1; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", 1924, p. 309, 310; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 225,227, 228 ; Richard (j.), La Papauté., p. 73.

وانظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص69.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 223, 224, 225.

وانظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص69.

(*) كان المغول يعتبرون الخان الأعظم إبن السماء ويعتقدون ذلك اعتقادا راسخا، وبالتالي كان الركوع له ولجميع أمرائه إلزامي على البشر أيًا كانوا، ومن خالف قُتل، ويفسّر سانت كانتين تصرّف السفارة على أنّ الدومنيكان أرادوا أن يُبرهنوا لنصارى الشّرق الحاضرين في البلاط بكثرة، استقلاليّة كنيسة روما عن سيطرة المغول، أمّا بالنسبة للهدايا فإنّ المغول كانوا يطلبونها من جميع السفراء والتجار الأجانب كنوع من الإتاوة أو الجزية يفرضها السيد على من دونه، وذلك ما طلب أيضا، من قبل، من كل من بلان دي كاربين وروبروك، فكانوا كلّما استقبلهم أمير مغولي سلّموه هداياه، حتى إذا ما صاروا أمام الخان العظيم، ونفد ما عندهم، لم يجدوا ما يقدّموه له.

أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40, 41, 42-45), p. 95 note 3, 97 note 1, 98-104.

(3) أنظر : Simon de Saint Quentin, op. cit., pp.113-117 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 229-231, 231 note 1 ; Richard (j), les Missions., p.179.

وانظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص69.

وقد ذكر بيليوت Paul Pelliot أنّ التشابه واضح ولافة للانتباه بين رسالة الخان "كيوك " إلى البابا، التي حملها "بلان دي كربين"، ورسالة الأمير المغولي "بايجو" إلى البابا ويحملها "أسكلين"، قائلا : "لقد أجاب بايجو على سؤال واحد فقط كان قد طرحه البابا وهو :"لمذا هذه الجرائم التي يرتكبها المغول ؟"، ذاكرًا قانون جنكيزخان الآمر بظرورة خظوع جميع العالم للمغول أو الموت.

أنظر: Simon de Saint Quentin, op. cit., livre(XXXII, 51), p. 114 note 2 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 229.

ويذكر متى الباريزي أنّ رسالتى بايجو قد ترجمت ثلاث مرات أثناء طريقها إلى البابا إنوسنت الرابع، وهي التي بين أيدينا باللغة اللاتينيّة.

أنظر : Matthew Paris, op. cit., T.6, p. 432; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", 1924, p. 316.

كان بايجو قد أمر بترجمة(*) رسالة البابا تلك، من اللاتينية إلى الفارسيّة ثم إلى اللغة المغوليّة، قبل أن يُرسلها إلى الخان في قراقورم، فجاء الرد عليها عنيفًا من العاصمة المغوليّة، يأمُر البابا بالمثول بنفسه أمام الخان الأعظم في قراقورم، وملوك وشعوب أوربّا بالخضوع للمغول(1)، وبذلك تأكّد فشل تلك البعثة البابويّة فشلاً ذريعًا مثل سابقاتها.

وقبل يومين من مغادرة مبعوثي البابا الدومنيكانيّان لمعسكر بايجو ببلاد فارس، قدم عليه الملك الناصر يوسف خال صاحب حلب، وبدر الدين لؤلؤ(1233-1259م) أخو سلطان الموصل، قادمين من بلاط الخان كيوك، وقدّما له هدايا نفسيّة، ويرى المستشرق المؤرخ الفرنسي بيليوت Pelliot، أنّ البعثة الدومينيكيّة غادرت معسكر بايجو في يوم 25 جويليا 1247م وبذلك يستحيل وصولها إلى عكا قبل يوم 22 سبتمبر 1247م، ولم يكن بوسعها الوصول إلى أوربّا قبل صيف سنة 1248م(2)، ومهما يكن من أمر فإنّ أسكلين ورفاقه قد وصلوا إلى البابا سنة 646هـ/1248م بعد غياب ثلاثة أعوام وسبعة أشهر تقريبًا(3)، وفي صُحبتهما موفديْن مغوليّين من قبل بايجو يحملان الرد المغولي، هما أيبك Aybeg وسرجيس (أو سركيس) Sargis المسيحيّين(**)، يُعتقدُ أنّ الأوّل تُركي و الثاني نسطوري، ورُبّما كلّفهما بايجو بالتجسُّس على الغرب، قدما خصّيصًا لمقابلة البابا في ليون الفرنسية(4).

---

(*) قضى أسكلين شهورًا في مدينة سيزيان Sisian الأرمينية ينتظر رجوع الردّ على رسالة البابا من منغوليا، وقد أشار المستشرق المؤرخ الفرنسي Richard Jean إلى أنّ مدّة إقامة البعثة عند بايجو امتدُّت من 24 ماي 1247م إلى غاية 25 جويليا 1247م.

أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre( XXXII, 52.), pp. 109-110 note 1, 115-117, 115 Note 1; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 229; Richard (j), La Papauté., p. 71.

(1) الرزمي: المصدر نفسه، ج 1، ص 394- 395.

وأنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre( XXXII, 44.), p. 101 note 1.

(2) أنظر : Ibid, livre( XXXII, 50.), pp.111-112, 112 note(1et2).

(3) أنظر : Ibid, livre( XXXII, 50.), p. 113 note 2.

(**) أيبك وسرجيس (أو سركيس) هما مبعوثا بايجو، وصلا إلى البابا إنوسنت الرابع في صيف (646هـ/1248م)، وتسلّما ردًا منه إلى المغول في(04شعبان 646هـ/22 نوفمبر 1248م)، وقد ذكر بايجو أسماءهما ضمن الرسالة التي أردفها أسكلين إلى البابا وأنّها حُرّرت في Sitiens يوم (20 جويليا 1247م).

أنظر: Ibid, livre( XXXII, 51.),p. 115. Note 1; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 230.

(4) أنظر : Matthew Paris, op.cit., 1840, T. 6, pp. 432.

وانظر أيضًا: هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص69، 70.

ويذكر المؤرّخ فاسيلييف(.Vasilieve(A.A نقلاً عن متيو باريسMathieu Paris، أنّ الكثير من الناس كانوا يضنُّون في ذلك الوقت، أنّ الرسالة المغوليّة إلى البابا تضمنت عرضًا للتحالف ظدّ يوحنّا فاتاتزي (باتاسيوم) Jean Vatatzes (Battacium) حليف فريدريك الثاني، وخصميْ البابا إنوسنت الرابع.

أنظر: Vasilieve(A.A.), Histoire de l'empire Byzantin, Traduction du Russe par P. Brodin et A. Bourguina, Édition Picard, Paris, 1932, T.II, p. 207.

والواقع أنّ مُخطّطات البابا إنوسنت الرابع قد فشلت، وفقد هذا ثقته بالمغول، وفي إقامة تحالف معهم أو الارتباط معهم برباط الصداقة على الأقل، إذ لم يَبْدُ في الأُفق السياسي بوادر قيام تحالُف مغولي-نصراني مُوجّه ضدّ المسلمين، كما أنّ المغول لم يتحوّلوا إلى النصرانيّة، ولم يوقفوا هجماتهم على النصارى، والنجاح الوحيد لهذه البعثات ينحصرُ في التقارير والمعلومات التي حملها الرُهبان إلى الغرب الأوربّي عن أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعيّة وعقائدهم ونظمهم، إلى جانب المعلومات التاريخيّة والجغرافيّة عن المناطق التي زاروها والطرق التي ارتادوها، وكان لهذه المعلومات أثرها المباشر في فتح طرق التجارة أمام تُجّار المدن الإيطاليّة، وبعثات تبشيرية أخرى فيما بعد(1).

ولكن يبدو أنّ رُغم فشل تلك السفارة، إلاّ أنّها سجّلت، ولأوّل مرّة، قدوم رسولين مغوليّين مسيحيّين على البابا، جعل هذا الأخير يتفاءل خيرًا لوجود نواة مسيحيّة بين المغول يُمكن الاعتمادُ عليها عند اللُّزوم.

أمّا سفارة بايجو المرافقة لأسكلين، فقد وصلت إلى البابا في سبتمبر أو أكتوبر من سنة 646هـ/ 1248م، ويذكرها متى الباريزي في حوادث ذلك العام بقوله "أنّ مبعوثين تتاريّين قد حضرا من قبل أميرها إلى البابا"، وأنّ "البابويّة أحاطت السفارة المغولية بالكتمان الشديد"، "وأنّ الرسائل التي حملتها قد ترجمت من لغة غير معروفة". وبغض النظر عن تأويلات متى الباريزي لغرض هذه السفارة، فإنّ البابا قد تقابل مع سفيري بايجو وعقد معهما عدة اجتماعات ليعرف مدى استعداد المغول لاعتناق المسيحيّة، وبعد ذلك سمح لهما بالعودة، بعد أن زوّدهما بالرسائل والهدايا للقادة المغول، ومنح البابا هدايا من الذهب والفضة لشخصي السفيرين طبقًا لرواية متى الباريزي(2).

لم تترك ردود هذه البعثات للبابويّة أدنى شك في عداوة المغول، ثمّ جاء جواب البابا إلى الخان بايجو في خطاب مؤرّخ في يوم 22 نوفمبر 1248م، حمله المبعوثان المغوليّان أيبك وسركيس، اللّذان قدما مع السفارة، وتظمّنت هذه الرسالة شرح البابا، للمغول، العقيدة المسيحيّة، وطالبهم بوقف تهديدهم لأوربّا والبابويّة وعلاوة على ذلك وإلى جانب حمل الرسالة وشرحها

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص69، 70.
(2) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T. 6, pp. 432-433.
وانظر أيضًا: هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 70.

للمغول، كان على الدومنيكان والفرنسيسكان جمع المعلومات عن نوايا المغول وطريقة قتالهم، ولذا نجد Simon de Saint Quentin ملخّص تقرير أسكلين، يعطينا معلومات عن المغول وتركيا وجورجيا، وأرمينيا، وكذلك فعل "بلان دي كربين" الذي ترك لنا تاريخه للمغول Historia Mongolorum الذي يحمل مشاهداته ومَا عايشهُ مع المغول(1)، وعلى هذا النحو ضاعت فرصة البابويّة في إقامة تحالف وصداقة مع المغول، إذ أخفقت بعثات الكنيسة في مسعاها لكسب المغول، لأنّ المغول لا يعرفون معنًا لكلمة صديق أو حليف إلاّ إذا قُرنت بمفهوم التبعيّة لهم.

كانت رسائل إنوسنت الرابع إلى بايجو وزملائه تماثل في المضمون، تقريبًا، تلك التي حملها يوحنا دي بلان دي كاربين إلى الخاقان المغولي قبل ذلك بثلاثة أعوام، فقد أبلغ بحسن استقباله لسفرائهم، ثمّ ذكر أنّ من واجبات منصبه السامي، الذي منحته السماء، أن يُحقق الوحدة بين كلّ البشر أمام الرب لتخليص أرواحهم من الذنوب قبل الموت، أي أنّ بابا أوربا يعتبر نفسه مفوض السماء الوحيد على الأرض، ولهذا، على حدّ قول البابا، فهو قد أرسل المبعوثين ليشرحوا مبادئ العقيدة لهم، ومضى يقول أنّ استمرار العناد المغولي جعله يشعر بالقلق والألم معًا، ومن ثَمّ فهو يعاود حثّهم على اعتناق المسيحية لأنّهم بذلك سوف يتوقّفون عن سفك الدماء خاصّة ضدّ المسيحيّين لأنّ هذا "عمل عدائي ضدّ الرب"(2)

وهكذا فشلت البعثات البابويّة في عهد البابا إنوسنت الرابع من تحقيق أهدافها السياسيّة والدينيّة المرجوّة، لأنّ الجانبين كانا على طرفي نقيض، فكلاهما كان يدّعي السموّ على الجانب الآخر والسيادة على العالم، وكلاهما ادعّى أنّه ممثّل السماء على الأرض، وأنّ قراراته لها صفة القداسة، كما أنّ المغول لم يكونوا حتّى ذلك الوقت في حاجة إلى التعاون مع الغرب الأوربي أوالتفاوض أو التحالف معهم، فانتصاراتهم كانت كاسحة، وجيوشهم لا يقف أمامها أحد، وأمر خاقانهم نافذ على الجميع، وكانت إمباطوريّتهم لا تزال متماسكة ولم يطلها التقسيم بعدُ إلى عدّة أقاليم متنازعة.

وفعلا كانت الردود التي تسلّمها إنوسنت الرابع من المغول تأمره بالمثول بين أيديهم

---

(1) أنظر : Jean de Plan de Carpin, op.cit., p. 125 ; Richard(j), La papauté., p. 71.
(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 70.

والاعتراف بالتباعيّة وتقديم الطاعة والجزية لهم، بينما كانت رسائله إليهم تحثهم إلي اعتناق المسيحيّة والكف عن المجازر بين المسيحيّين، وبطبيعة الحال لم يكن يهمّ البابويّة غيرهم بغضّ النظر عن المصالح الزمنيّة التي كانت في كلّ زمان تتطلّع إليها.

لقد كانت السفارة المغوليّة التي قدمت إلى ليون الفرنسيّة برفقة أسكلين اللومباردي الأولى من نوعها إلى الغرب، ولكن البابويّة لم تجد ما يشجّعها على الاستمرار في إرسال السفراء إلى المغول، ربّما، خوفًا على حياتهم، وذلك أنّ أعضاء بعثة أسكلين نفسها كان مقرّرًا لهم الإعدام في قراقورم المغوليّة، ولكن ذلك كلّه لا يعني أنّ البابويّ غضّت الطرف عن ما يحدث، لتتجدّد الاتصالات معهم فيما بعد بواسطة ملوك أوربا وغيرها، ومهما يكن من أمر، فأنّه يمكن اعتبار هذه البعثات البابويّة بمثابة أوّل الأساس للاتّصالات السياسيّة والتجاريّة والدينيّة بين المغول والغرب الأوربّي في الأعوام المائة التالية.

**II - بعثات لويس التاسع ملك فرنسا إلى المغول ومشروع التحالف :**

فزعت أوربا بإسرها وفرنسا خاصة، منذ عام 1236م إلى سنة 1241م، للهجوم المغولي الكاسح على هنغاريا، وقد تلقى الملك الفرنسي آنذاك رسالة من أحد فرسان المعبد (التمبلار) chevalier du temple وكان اسمه بونس دي أوبون Ponce De Aubon يخبره بفضائع المغول ويحرضه على قتالهم(1)، ثمّ فُجع الغرب الأوربّي مرّة أخرى، في علم 642هـ/1244م، بفُقدان الصليبيّين لبيت المقدس مرّة أُخرى، وذلك على يد فلول الخوارزميّين الفارّة من آسيا الوسطى باتجاه بلاد الشام، أمام الطوفان المغولي، إذ هاجم عشرة آلاف منهم مدينة دمشق، ثُمّ اندفعوا نحو بيت المقدس، فاستعادوها و طردوا الصليبيّين منها، ثُمّ اكتسحوا غزّة بالتعاون مع جيش أيّوبي قدم من مصر(2).

---

(1) أنظر: Chronique Anonyme des Rois de France finissant en M. CC. LXXXVI, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XXI, pp. 81-82.

(2) أنظر: Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCXLIV, pp.197-198 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 346-347.

وانظر أيضًا : محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، 2000م، ص 303 ؛ ارنست باركر : الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1386هـ/1967م، ص 119، 120.

و حدث في ذلك العام، 642هـ/1244م، أن مرض لويس التاسع ملك فرنسا، واشتدّ عليه المرض حتّى أشرف على الهلاك، فنذر إن هو شُفي أن يحمل الصليب ويذهب إلى الشرق على رأس حملة صليبيّة لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وفعلاً شُفي الملك الفرنسي من مرضه فقرّر الوفاء بنذره(1).

ويبدو أنّ خسارة بيت المقدس شكّلت تهديدًا لمصالح وسلامة العالم النصراني الغربي، وبمجرّد أن بادر إخوة لويس التاسع، الثلاثة، ومعظم نبلاء فرنسا إلى حمل صليب، حتّى انتعشت آمال الغرب الأوربّي مرّة أُخرى وساد الشعور بأنّه لا يُمكن للحملة الصليبيّة السابعة المتوجّهة إلى مصر أن تفشل، بينما أراد لويس التاسع أن يعود بالفكر الصليبي إلى مبادئه الجوهريّة التي قامت عليها الحملة الصليبية الأولى، وعلى أساسها لن يكون هناك أيُّ تفاهم مع المسلمين، وستكون الحملة على القدر نفسه من التديُّن، بيد أنّه كان مُستعدًا مع ذلك للنظر في مبادرة سياسيّة أُخرى تجاه المغول الذين كانوا يُهدّدون المسلمين من الشرق، لتأثّره المُفترض باقتراح الراهب يوحنّا دي بيان دي كاربين للاتّصال بالمغول ومواصلة مشروع البابا إنوسنت الرابع(2).

وبالرغم من فشل بعثات البابا إنوسنت الرابع، وعرض يوحنّا دي بلان دي كاربين القاتم عن سفارته، إلاّ أنّ أخباراً مفادها وجود نواة للنصرانيّة بين المغول، وتحوّل الخان الأعظم وبعض أمرائهم إلي المسيحيّة(3)، ربما جعلت البابا يتصل بملك فرنسا لويس التاسع يحثه على معاودة الاتصال بالمغول فأرسل إليه في هذا الشأن أندري دى لونجيمو والمندوب البابوي Eudes de Château-roux (Odon de Châteauroux) اللذان كانا معه فعلا في حملته الصليبية(4).

---

(1) أنظر : Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCXLIV, p.197; Chronique Anonyme des Rois de France., op. cit., p. 82, 82 note 6 ; Joinville, Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en français moderne Par M. Natalis de Wailly, Paris, 1882, p. 47; Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 18-19 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 344-345.

(2) أنظر : Joinville, op.cit., pp. 47-48 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 352-353; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 236.

(3) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 499-500; Bernard de Vaulx, op.cit., p.34.

(4) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 236; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 22; Denis Sinor, op. cit., p. 522.

**1 - بعثات لويس التاسع ملك فرنسا إلى المغول :**

كان أوّل رد فعل مغولي، إيجابي، تجاه الغرب الأوربّي، كما يصفه المؤرخون الأوربيون، مُرتبطًا بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر (646-648هـ/1248-1250م)، إذ أنّه بعد خروج الجيش الفرنسي تحت إمرة لويس التاسع من مدينة مرسيليا، التي كانت تابعة في تلك الآونة لأخيه شارل دي أنجو Charls D'Anjou، بحرًا عن طريق ميناء "أيق- مورت Aigues-Mortes"، بجنوب فرنسا، باتجاه قبرص في يوم 25 أوت 1248م، في إطار الحملة الصّليبيّة، المعروفة بالسّابعة، إلى مصر(1)، وأثناء وجود مبعوثي بايجو عند البابا إنوسنت الرّابع، كان الجيجيداي Algigidai، نائب الخان العظيم في الموصل التابعة لحكم المغول في إيران آنذاك، قد سلّم رسالة إلى رسولين نسطوريّين من مسيحيّي الموصل، يُدعيان مرقص وداود Marc et David، ليحملاها بأسرع ما يُمكن إلى ملك فرنسا الذي كان سينزل في قبرص(*)، فوصله المبعوثان وهو في نيقوسيا القبرصيّة في شعبان 646هـ/20 ديسمبر1248م، وقد تضمّنت رسالتهما كلامًا يُثير الدهشة، إذ يقول جوانفيل، الذي كان مرافقًا للحملة الصليبية السابعة ومؤرخها، أنّه "بينما كان الملك مقيمًا في قبرص أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسولين من قبله يحملان إليه رسائل طيّبة كريمة وكان من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك في غزو الأراضي المقدّسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين"(2).

---

(1) أنظر : Joinville, op.cit., p. 54 ; Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 411, 413, 414, 415 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 356-357; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCXLIV, pp.201-202; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 53; Cahen(Claude), Saint Louis et L'Islam, dans J.A., Paris, 1970, T. CCLVII, p. 5; Roux(Jean-Paul), op. cit., p. 316.
وانظر: محمّد مختار باشا: كتاب التوفيقات الإلهاميّة في مقارنة التواريخ الهجريّة بالسنين الإفرنكيّة والقبطيّة، دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمّد عمارة، المؤسّسة العربيّة للدراسات و النّشر، القاهرة،الطبعة الأولى (1400هـ/1980م)، ص 679.

(*) سبق لأندرو دي لونجمو أثناء بعثته سنة 1245م من قبل البابا إنوسنت الرابع إلى مغول بلاد فارس La Perse، أن قابل "داود" النسطوري في تبريز، وكان ضمن حاشية "الجيجيداي"، وأمّا مرقص فسيُقابله روبروك، سفير لويس التاسع إلى المغول، فيما بعد في قبرص عند لويس التاسع، ويسافر معهما إلى بلاط "سرتق" Sartach في سراي على نهر الفولجا La Volga.
أنظر: Guillaume(de R.), op.cit., p. 118, 223 Note 11 ; Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, p. 359.

(2)أنظر : Joinville, op. cit., pp.56-57 ; Guillaume de Tyr, Continuation de Guillaume de Tyr, de 1229 à 1261, dite du Manuscrit de Rothelin, Rec. Hist. Crois., Hist. Occidentaux, Paris, 1869-1906, chapitre XLIV,p. 569; Matthew Paris, op.cit., T.6, pp. 432-433, 499 note2, 500-501; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 358-359; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 53; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 236; Richard (j), La papauté., p. 73.=

ويبدو في هذه المرحلة، من العلاقات المغولية الصليبية، أنّ المغول كانوا هم السبّاقين في الاتصال بالملك لويس التاسع، فكان ذلك تحوّلا كبيرا لموقف المغول، أُبلغ به البابا. وقد اهتم المغول في سنة 1247م، حين كان أسكلين في مدينة سيزيان، بحركة جيش ملك فرنسا، فسألوه عن ما إذا كان في نيّة الملك مهاجمة سوريا. ولا شكّ أنّهم كانوا ينوون التحالف مع الفرنجة الصليبيّين لتطويق المسلمين، حسب أقوال المؤرّخ بيليُوت Pelliot(Paul)، نقلا عن جروسي(1)، ولا يُستبعد أن تكون لهذه البعثة أهداف خفية غير واضحة، إلاّ أنّ ظاهرها يوحي لأوّل وهلة إحداث ضربة مشتركة ضدّ المسلمين، ولذا لم يغفل الجيجيداي عن إخبار الملك الفرنسي بخضوع بعض الإمارات في تركيا وحلب للمغول، لأنّه كان متخوفا من هجوم لويس التاسع على سلطان تركيا وحلب والخلافة العبّاسيّة التي كانت كلها ضمن مخطّطات المغول التوسُّعيّة(2).

ومن عجائب الحنكة السياسة المغوليّة، وعلى غير عادة المغول، خرجت الرسالة، في هذه المرّة، من مألوف الأمر بالخضوع، فقد حرص الجيجيداي على إخبار الملك بأنّه أعْفى كلّ الرّهبان من الضرائب مقابل صلواتهم ودعواتهم، وبأنّه مهتم بإعادة بناء الكنائس والسماح للمسيحيّين بدق الناقوس في بلاد المسلمين(3)، وانتشرت الإشاعات في أوربا بأنّ الجيجيداي،

---

= يذكر متى الباريزي أنّ السفيران المغوليّان لقيا الملك الفرنسي في دمياط وهذا خطأ ارتكبه المؤرّخ لأن اللقاء كان فعلا في قبرص كما ذكره جوانفيل المصاحب لحملة لويس التاسع على مصر، والموجود مع ملكه حين قدوم رسل المغول عليه.
ارجع إلى : Joinville, op. cit., pp. 56-57 ; Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 500.
وانظر أيضًا: هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص72،71.

(1) أنظر: Joinville, op.cit., pp. 56-57,198; Simon de Saint Quentin, op. cit., pp. 97-98 ; Runciman(S), A History of crusades, pp. 259-260 ; Grousset(René), Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem, Paris, 1936, T. III, p.520 ; Lemerle(Paul), Saint Louis et Byzance, dans J.A., Paris, 1970, T. CCLVII, p. 15.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., pp. 98. note 1 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 53-54; Richard (J.), Sur les pas de Plan Carpin et de Rubruck: La Lettre de Saint Louis à Sartaq, dans Journal des savants, Académie des inscriptions et belles lettres, Paris (Ed. Klincksséck), janvier-mars 1977, p. 59.

(3) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 566, 568 ; Roux(Jean-Paul), op. cit., p. 316; Richard(j), La papauté., p. 74.
ومن الممكن أن يكون لونجمو قد ساهم كمترجم بين لويس التاسع والمبعوثين المغوليّين، وأمّا بالنسبة لتلك الرسالة التي تفاءل بها الملك واستحسن من خلالها نيّة المغول تجاه المسيحيّين، فإنّ المؤرخين الأوربيّين يتساءلون إن لم تكن من نسيج المبعوثين المغوليّين، أو على الأقل ترجمتهما التي غيّرت نوعًا ما من حقيقتها، إذ جاء فيها "...لا نرجو إلاّ ما فيه مصلحة المسيحيّة ومُساندة قُوّات الملوك المسيحيّين، بإذن الله، وأسأل الله أن ينصر جيوش ملوك النصرانيّة ضدّ أعداء الصليب (أي المسلمين).
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 53 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, p. 358, 359; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 236 ; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 22.

وكذلك الخان الأعظم كيوك وبعض رجال المغول البارزين، على الديانة المسيحيّة، وأنّهم متحمّسين للدخول في حلف مع ملك فرنسا ومساعدة الصليبيّين لاستعادة الأراضي المقدّسة، وأنّ من خططهم غزو بغداد، في حين يهاجم ملك فرنسا سلطان مصر لمنع الأيّوبيّين سواء في مصر أو في الشام من مساعدة الخليفة العبّاسي(1)، ويبدو واضحا من رسالة الجيجيداي، إن كانت حقيقة من جهته، أنّها تطرّقت إلى الإغراء الديني، لأنّها أوحت بانتشار واسع للمسيحيّة بين المغول، وأنّ نيّة المغول حسنة نحو المسيحيّين، وفي حالة ثبوت ذلك فإنّه لا بُدّ أنّ الجيجيداي كان يصبُو ألى تحقيق عدّة أهداف هامّة، فقد ذكر المؤرخ "بيليوت" في هذا الصدد أنّ سيمون دي سانت كانتين نقل من خلال سفارته مع أسكلين إلى بايجو ما يلي : " إنّ المغول كانوا يُخطّطون ويتشاورون فيما بينهم على إمكانيّة نشر الأكاذيب الموحية للمسيحيّين بتحوّلهم إلى المسيحيّة، أو أيّ حيلة أُخرى ماكرة، لمنع الفرنجة من دخول تركيا وحلب"، ويُضيف بيليوت أنّه "من المحتمل جدًا أنّ الجيجيداي كان يُخطّط منذ سنة 1248م للهجوم على الخلافة في بغداد، وعلى هذا كان من الضروري إشغال الفرنجة في مصر لمنع سلطانها من إنجاد الخليفة، وفي نفس الوقت إبقاء الفرنجة بعيدين عن آسيا الصغرى وبلاد المشرق، المعترفة بسلطة المغول، بينما لم يتوقّع المغول أن يُقدّم لهم الفرنجة ولاءهم لاحقًا"، وفي نفس الوقت كانت الحكمة تقتضي على المغول التجسس على القوّة الفرنسيّة الفتيّة القادمة بإرسال مبعوثين لهذا الغرض ونشر الأكاذيب المتعلّقة بتنصّر الخان كيوك لكسب ثقة الملك الفرنسي لويس التاسع ومن معه(2)، هذا غير أنّه إن ثبُت صلاح نيّة الجيجيداي من غير تورية فذلك إذًا يُعدُّ تحوُّلاً جذريًا في موقف المغول، لكن ثَمّة شُكوكًا كثيرة تحوم حول حقيقة إرسال هذين الرسوليّن بكتاب من قبَل أيّ قائد مغولي في آسيا(3)، وذلك من عدّة جوانب منها، أنّ السفيرين النسطوريين، داوود ومرقص، من رعايا بايجو الروس وليسا من جنس المغول، فكيف يأمن المغول تأمين التفاوض

---

(1) أنظر: Matthew Paris, op.cit., T.6, p. 499-501 ; Joinville, op. cit., pp. 56-57 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX,pp. 358-359, 362-363 ; Guillaume de Tyr, op.cit., p. 570 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 520 ; Denis sinor, The Mongols and western Europe, in Setton (Kenneth M.), A History., 1975, V. III, pp. 522-523.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre (XXXII, 41), pp. 97-98 ; Guillaume de Tyr, op.cit., p. 570 ; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 36 ; Roux(Jean-Paul),op. cit., p. 317.

(3) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص71- 74.

السليم مع الغرب الأوربي من خلال من له دراية، ولو بسيطة، بخططهم للاستيلاء علي العالم، مثل ما أخبر به بلانو كربيني من قبل، ثمّ إنّ مظمون الخطاب الذي حملاه إلى لويس التاسع في قبرص، ديسمبر سنة 1248م، وأورده متى الباريزي في حوليّاته(1)، يختلف تمامًا عن خطابات الخان الأعظم كيوك من خلال بلانو كربيني وتلك التي أرسلها بايجو ومعه الجيجيداي إلى البابا إنوسنت الرابع، والمتظمنة أمر مثوله على رأس ملوك الغرب الأوربي لتقديم الولاء للمغول، فلا يُعقل أن يتغيّر الموقف المغولي تمامًا بهذا الشكل، من الغطرسة والجبروت إلى اللين واللطف، في مدة ستة أشهر، ومن جهة أخرى فإنّ فحْوَى ما أورده متى الباريزي يختلف تمامًا عن المقتطفات التي أوردها جوانفيل في الرسالة المقصودة، إذ أنّ النص الذي نشره المؤرخ الإنجايزي يتعلّق بكيفيّة معاملة التتار للمسيحيين والدعوة لعدم التفرقة بين مذاهبهم، وليس بها إلاّ التمني بنصرة المسيحيّة "فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب" ولكن جوانفيل يقول صراحة "أنّ من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك (لويس) في غزو الأرضي المقدّسة وتخليص بيت المقدس من المسلمين"، وبالرغم من أنّه يفترض في جوانفيل أن يكون أكثر ثقة وموضوعيّة من متى الباريسي، بحكم معاينته الحدث، إلاّ أنّ واقع الأمر يدحض ذلك تمامًا لعدّة عوامل منها :

أنّ المندوب البابوي في حملة لويس التاسع، Eudes de Château-roux، أرسل نسخة من هذه الرسالة(*)، من قبرص، إلى البابا إنوسنت الرابع، ومن ثمّ نقل المؤرّخ الإنجليزي هذه الرسالة وتلك الأخبار فورًا في حوليّته المؤرّخة في سنة 1249م (2). ولكن جوانفيل كتب مذكّراته في الفترة بين (1305م - 1309م)، بطلب من الملكة جان دي نافار Jeanne de

(1) أنظر: Matthew Paris, op.cit., T.6, pp. 567-569.

(*) يخاطب المُرسل الملك الفرنسي بكلّ الودّ والاحترام ويصفه بأنّه "الملك العظيم ... سيف العالم، نصير الملّة المسيحيّة "، ويدع الرب " لنصرة المسيحيّة فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب " ويمضي المُرسل في سرد ما فعله للمسيحيين في إقليمه من عدم التعرض لهم وإعادة بناء كنائسهم وإعفائهم من الضرائب، ويبلّغ الملك الفرنسي بأنّ المبعوثين "مرقص وداوود" سوف يخبرانه شفاهة بهذه الأخبار الطيّبة بالتفصيل.

أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, Addition XII, pp. 565-567.

وأنظر نص الرسالة في الملاحق من هذا البحث.

(2) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, pp. 491, 499-500; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, p. 360, 361.

ذكر المبعوث البابوي في رسالته للبابا، أنّ رسالة الجيجيداي إلى لويس التاسع كانت مكتوبة باللغة الفارسية ولكن الأحرف كانت عربيّة.

أنظر : Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 22.

Navarre(*)، حينما كان في العقد التاسع من عمره، أي بعد قرابة خمس وخمسين عامًا من أوّل مصاحبته للويس التاسع في حملاته على مصر والشام، ولا يخفى على أحد أنّ جوانفيل استقى معلوماته من ما شاهده وما سمعه من غيره أو قرأه من كتب معاصريه أمثال غليوم دي نانجي Guillaume de Nangis وتاريخ لويس التاسع لمؤلفه قوفروي دي بوليو" Gœffroy de Beaulieu"، وأنّه لم يؤلف في حياته إلاّ مذكراته هذه وكتيّبا آخر في الصلاح والإيمان المسيحي تحت عنوان "كريدو Credo" في عشرين صفحة(1)، فربّما خانته ذاكرته لتقدم سنّه، في تسجيل وقائع هذه السفارة المغوليّة مثلما كان في مواضع أخرى من مذكراته إذ أنه ذكر، مثلا، أنّ سقوط بغداد في يد المغول كان في أثناء تواجد الملك الفرنسي لويس التاسع في بلاد الشام(1250-1254م)، في حين أنّ ذلك كان بعد أربعة أعوام من رحيله بقوّاته من الشرق، وهو نفس الخطأ الموجود في حوليات غليوم دي نانجي(2). ولعلّ السبب نفسه أدّى بالمؤرخ الفرنسي للخلط بين العديد من سفارات مغول فارس التي ذهبت مرارًا إلى فرنسا بدءا من العقد السابع من القرن الثالث عشر الميلادي حتّى العقد الأوّل من القرن الرابع عشر الميلادي لعرض التحالف مع الملوك الأوربيين ومنهم ملك فرنسا ضدّ المماليك نظير مساعدة المغول "للفرنجة" في تخليص بيت المقدس من المسلمين وبين سفارتهم إلى لويس التاسع في قبرص عام 1248م.

ومهما يكن من أمر، فإنه من المرجّح أن يكون كاتب هذه الرسالة هو جاثليق (أو بطريق) النساطرة في تبريز، وليس "القائد المغولي في أسيا الصغرى" مثل ما ذكر متى الباريزي، أو"ملك التتار العظيم" عند جوانفيل، وأنّه أرسل بها هذين المبعوثين على أنّها من قبل المغول، لأنّ العبارة التي وردت في نهاية هذه الرسالة وترجمتها : "وبعد ذلك فإنّه طبقا لناموس المسيح فإنّه لا يوجد هناك أيّة فروق بين المسيحيين اللاتين والإغريق والأرمن والنساطرة واليعاقبة وغيرهم ممن يبجّلون الصليب لأنّهم جميعًا في درجة واحدة في نظرنا، ومن ثم فنحن نطلب من الملك لويس التاسع العظيم ألا يضع تمييزا بينهم، بل تكون رحمته دائمة فوق كل

---

(*) جان دي نافار Jeanne 1ere de Navarre (1271-1305م)، ملكة منطقة نافار بشمال إسبانيا (1274-1305م)، وهي ملكة فرنسة (1285-1305م) على إثر زواجها بفيليب الجميل Philippe IV Le Bel ملك فرنسة.

(1) أنظر: Joinville, op. cit., pp. VI-VII, X; Antonin Debidour, Les Chroniqueurs (Villehardouin- Joinville), Paris, 1892, 1ere partie, pp. 157, 184-185.

(2) أنظر: Joinville, op. cit., p. 246; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCLIV, p. 211; Antonin Debidour, op. cit., pp. 177, note 1, 192-196.

المسيحيين..."(1)، تدعو كما هو ظاهر إلى توحيد صفّ المسيحيّين قاطبة، ولا يُعقل أن يصدر ذلك من من وضع نصب عينيه غزو العالم، فكيف له أن يرجو قوّة شوكة أعدائه، أمّا النساطرة فهم وحدهم من كان يعاني من هذه التفرقة منذ الحكم على زعيمهم نسطور بالهرطقة في مجمع أفسوس سنة 431م (*). وكان بين هذا البطريق والبابا إنوسنت الرابع رسائل متبادلة عن طريق مبعوثي الرهبان الدومنيكان : أندري لونجيمو، وأسلين اللومباردي قبل ذلك بعدة شهور. ومن ذلك فربّما أرسل البطريق سفارة من قبله إلى البابا وأنّ هذه السفارة، حين علمت بوجود لويس التاسع وقوّاته في قبرص، عرّجت على هذه الجزيرة، وقامت بتسليم الرسالة للملك الفرنسي، و أضافا إليها الكثير من المبالغات، خاصّة وأنّ نص الرسالة يوضّح أنهما سيبلغا المرسل إليه شفاهة ب " أخبار طيّبة " كما أنّه لو حدث ذلك فعلا لكان إنجازًا لهم يباهون به الغرب الكاثوليكي الذي ينظر إليهم على أنّهم منشقين وهراطقة، حتّى أنّ وليم روبروك، الراهب الفرنسيسكاني ومبعوث لويس التاسع إلى قادة المغول في روسيا وقراقورم (1253-1255م) ذكر أنّ النساطرة "تعوّدوا المبالغة في الحقائق بعشرة أمثالها وأنهم هم الذين نشروا الإشاعات بأنّ سرتق ومنكوخان وكيوك خان كانوا على المسيحيّة، لا لشيء إلاّ لكونهم يُحسنون للمسيحيّين أكثر من الشعوب الأخرى، والحقيقة أنّهم لم يكونوا مسيحيّين... وكان هؤلاء النساطرة يختلقون الدعايات العظيمة من لا شيء"، ويتابع روبروك في تحامله ضدّ النساطرة فيقول " إنّهم كانوا شديدي الجهل، وإنّهم لم يستطيعوا حتّى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانيّة... " كما يرميهم هذا المبعوث بشرب الخمر والفسق والجشع، ثمّ يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين موازنة ليست في مصلحتهم البتة(2).

---

(1) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.6, pp.500, 567-569.

(*) نسبة إلى نسطور، أسقف مدينة القسطنطينيّة، عاش في القرن الخامس الميلادي. جاء بمقولة مفادُها أنّ للمسيح عليه السلام طبيعتين إلاهيّة و بشريّة، وفي سنة 431م عُقد مجمع كنسي بمديمة أفسوس Ephese في آسيا الصُغرى انتهى بإدانتها، ولا يعترف مذهب نسطوريُوس بالسيّدة مريم العذراء أُمًا للمسيح عليه السلام بوصفه إلهًا، وقد عرفت نظريّته انتشارًا ملحوضًا في الجزيرة العربيّة وسوريا وفلسطين ومصر، وأمّا في الصين شهد لها بالوجود منذ سنة 638م، كما عرفت رواجًا في أوساط طبقات المغول الحاكمة. ولمزيد من التفاصيل إرجع إلى :
القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1334هـ/1915م، ج13، ص 280 ؛ الشهرستاني : أبي الفتح محمّد عبد الكريم ابن أبي بكر(479-548هـ) : الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص225 ؛ الموسوعة العربيّة العامّة : المرجع السابق، ج25، ص332.

(2) أنظر : William of Rubruck, The journey, in Dawson(C.), The Mongol Mission, sheed and ward, London and New York, 1955, p.122 ; Guillaume de Rubruk, op. cit., p. 123, 152 ; Grousset(R.), l’Empire des Steppes: Attiya, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, Paris (16, Boulevard St Germain), 1939, p. 473.
وانظر أيضًا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص73.

ومهما يكُن من أمر في حقيقة الراسل أو مضمون الرسالة، فإنّ لويس التاسع رأى، بهذا الشكل، أنه فعلا لم ينقطع الأمل في إمكانية التحالف مع المغول ضد المسلمين واستغلال القضيّة المغوليّة لمصلحة الصليبيّين، فرحّب بالسّفارة المغوليّة بحفاوة وأبدى استعداده للتحالُف، والراجح أنّ الملك سلّم نفسه للأمر الواقع، ولم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك نظرًا لما عاينه من تفكك وتنازع للقوى الأوربية وما لا بدّ قد اطلع عليه من قوّة الأيوبيين، كما أنّه لم يكن ليتجرّء فيرفض عون المغول المسيطرين على الأرض، وقرّر إرسال سفارة صليبية من قبرص لمرافقة السفارة المغوليّة عند عودتها يرأسها أندرو دي لونجمو André de Longjumeau(1)، وفيما بعد سفارة أخرى من قيسرية يرأسها وليم روبروك Guillaume de Rubrouck(2)، لمواصلة المساعي التي بدأها البابا إنوسنت الرّابع، أملا في اعتناق المغول للمسيحيّة والتحالف معهم ضدّ المسلمين، إلاّ أنّ المغزى الحقيقي هو أنّ كلا الجانبين حاول استغلال الآخر لمصلحته.

## 2 - سفارة أندرو دي لونجمو من قبل لويس التاسع :

استقبل لويس التاسع سفيرا الجيجيداي بحفاوة، ثمّ أعدّ بعثة دومينيكانيّة لمرافقتهما أثناء عودتها، قصد الاتصال بقادة المغول، فكان على رأسها أندرو دي لونجمو(*)، الخبير بأمور الشرق(**)، وأخوه وليم المُلم باللّغة العربيّة، وأحد رجال الدين من مدينة عكّا يدعى ثيودلف Theodulf(***)، وظابطين من جيش الملك، فطال غيابها لمدّة عامين إلى أن رجعت، إلى

---

(1) أنظر : Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, pp. 358-359; Joinville, op.cit., p. 57; Richard (j), les Missions., p. 180.

(2) أنظر : Richard(j.), les Missions., p. 180.

(*) كان أندرو دي لونجمو، يرى ظرورة تنصير المغول والمسلمين على السواء.
أنظر : Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p.88 ; Bernard de Vaulx,op.cit., p.34 ; Marshall(Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 477.

(**) قد ذكرنا من ذي قبل بعثة أندرو دي لونجمو، الأولى، وكانت سنة 1245م من قبل البابا إنوسنت الرابع إلى مغول بلاد فارس La Perse

(***) يذكر روبروك أنّ أحد رهبان مدينة عكّا، كان قد سبقه إلى قراقورم بسنة كاملة، وكان اسمه هو ثيودل أو ثيودلف Théodule (Theodulf)، ويكنّى ريمون Raymond، غادر قبرص متزامنا مع مغادرة لونجمو لها، ثمّ انظم إليه لأغراض شخصيّة، وبعدها تخلّف في بلاد فارس حتّى رجع لونجمو من قراقورم مارًا بها، فتركها ثيودل إلى قوراقورم التي وصلها سنة 1253م، وادّعى عند منكوخان أنّه كان في خدمة أُسقف صالح يُرافق الملك لويس اسمه "أودون" Odon، وأنّ الله أرسل إلي هذا الأسقف برسائل مكتوبة بالذهب وأمره بحملها إلى عظيم المغول، لأنّ هذا الأخير قُدّرَ له أن يكون سيّد العالم، فعليه أن يُقنع المسيحيّين بالصلح مع منكوخان. وهكذا جعل ثيودل نفسه مبعوث السماء إلى المغول، وذكر للخان أنّ المسلمين يتموقعون بينه وبين المُلك، وأنّهم عقبة أمام الصلح المغولي- الفرنجي، ولو فُتحت الطريق لأرسل الفرنج سُفراءهم، ولتمّ الصلح(هذه الدعاية و الأكذوبة مثل تلك التي كانت اثناء الحملة الصليبيّة الأولى مع بطرس الناسك)، فطلب منه الخان أن يكون سفيره إلى ذلك الملك، فقبل واصطحب معه جاسوسًا مغولي إلاّ أنّ طريق ثيودلف توقّفت في نيقية عند الإمبراطور الإغريقي البيزنطي (empereur grec de Byzance) يوحنّا الثالث فاتاتزاس Jean III Vatatzés =

الملك، من قراقورم(1).

جهّز الملك هذه السّفارة، وزوّدها برسائل وهدايا ثمينة إلى المغول، منها خيمة من قماش بلون قرمزي على شكل كنيسة صغيرة مطرّزة بصور مُقتطفات من حياة المسيح، وبعض الأشياء اللازمة لإقامة القدّاس، بالإضافة إلى تماثيل صُنعت من الحجارة وصور أُخرى متعلّقة بالمعتقد المسيحي، بهدف تعريفهم وإبهارهم بالديانة النصرانيّة(2)، ثُمّ غادرت البعثة رُفقة سُفراء المغول مدينة نيقوسيا القبرصيّة، يوم 27 جانفي سنة 1249م، إلى مدينة أنطاكية الصليبيّة، ومنها إلى الموصل، ثمّ إلى تبريز حيث معسكر الجيجيداي في الفترة أفريل- ماي1249م، إلاّ أنّ هذه السفارة فوجئت بخبر وفاة الخان الأعظم كيوك (1246-1248م) في قراقورم منذ مارس-أفريل 1248م، بينما لم يُعقّب هذا الأخير إلا ثلاثة أولادا صغارا لا يصلحون للحكم في هذا السن المبكّرر، فتولت أرملته "أوغول قاميش" Oghul Qaimish الوصاية على الامبراطوريّة ابتداءا من سنة 1248م لمدة ثلاث سنوات، ونتيجة لتغير الموقف السياسي في العاصمة المغوليّة رأى الجيجيداي أنّه من الحكمة ألاّ يتصرّف من تلقاء نفسه مع السفارة الفرنسيّة، وأنّه من الأفضل توجيهها إلى قراقورم حيثُ الوصيّة على العرش المغولي، لأنّ الصراع على السلطة لاختيار خليفة للخان الأعظم كان على أشُدّه، فكان على السفارة الفرنسية

= الذي تفطّن لمكره فألقى به في السجن، أمّا المبعوث المغولي فقد مات في نيقية من مرض فرجع أصحابه إلى الخان وأخبروه بالأحداث. وإن دلّت هذه الرواية على شيء، فهو مدى الحقد الصليبيّين للمسلمين و حرصهم على تأليب المغول عليهم ولو بالأباطيل العظام، وأمثال ذلك كثير، وللمزيد إرجع إلى:

Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 37, 43, 57-58, 160, 168-171, 181, 187,199-200.

وقد ذكر المؤرّخ هيثوم Hayton، أنّ منكوخان وجميع عائلته وكبار بلاطه تحوّلوا إلى المسيحيّة، وأنّ تعميدهم تمّ على يد أسقف أرميني قدم مع الملك هيثوم الذي لم يصل إلى بلاط منكوخان إلاّ في سبتمبر1254م، أي بعد مُغادرة روبروك لمنكوخان. والحقيقة أنّ قضيّة تحوُّل منكوخان إلى المسيحيّة لا ترتكز على أيّ أساس حسب ما ذكرت المؤرّخة Christiane Deluz .

أنظر: Hayton, La Fleur des Histoires de la terre d'orient, traduction de Christiane Deluz, dans : Regnier-Bohler, Croisades et Pèlerinages, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte (XII^e- XVI^e) Siècle, édition Robert Laffont, S.A., Paris 1997, chapitre XVIII,p. 837, et note1; Guillaume de Rubruk, op. cit., p. 171 note 19.

يدُلُّ ظاهر هذه النصوص على تردّد كثيف للمسيحيّين على بلاط المغول، ما يُعبّرُ عن رغبة العالم المسيحي لعقد الإتصال بالمغول بأيّ شكل كان لتنصيرهم حتّى ولو كان على حسابه وحساب شعوبه ونشر الحقد بينهم تجاه المسلمين.

(1) أنظر : Joinville, op. cit., p. 57; Guillaume de Tyr, op.cit., pp. 570-571; Marshall Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 477 ; Denis Sinor, op. cit., pp. 522- 523 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 54; Hambis (Louis), Saint Louis et les Mongols, dans J.A., T.CCLVII, Paris 1970, p.30.

(2) أنظر : Joinville, op. cit., p. 57 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 54; Matthew Paris, op.cit., 1840, T.6, p. 501 ; Bernard de Vaulx, op.cit.,p. 34, note 1.

أن تُواصل الرحلة إلى قراقورم(1).

كان مركز الوصيّة، في البلاط المغولي، ضعيفا، لذلك استقبلت البعثة الفرنسية بحفاوة، ثمّ اعتذرت عن عدم إمكانية المساعدة في حملة لويس الصليبية، في مثل تلك الظروف، لكونها مشغولة بالمشاكل الضخمة التي طرأت في مملكة المغول نتيجة موت زوجها، بالإضافة إلى أن عامة قواد المغول لم يكونوا راضين على حكم امرأة للدولة المغولية العظيمة، والتي تعتمد في الأساس الأول على البطش والإجرام والقوة بعيد عن ما تعرف به النساء عامّة من ضعف، فكانت الأوضاع غير مستقرة تماما في منغوليا، إلاّ أنّها استغلّت تلك السفارة لتقوية موقفها، حيث استدعت مُمثّلين عن الأُمراء المغول وأتباعهم من الآسيويّين ليُشاهدوا ما عدّتهُ رمزًا لولاء وخضوع الملك الفرنسي، وعبّرت عن ذلك بقولها : "أيها السادة لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمسا عطفنا للدخول في طاعتنا، وهاكم الجزية التي أنفذها إلينا فانظروها، فإذا لم تستسلموا لنا فإننا مرسلون في طلبه للقضاء عليكم" (2).

ويبدو أنّ هناك تظاربا، للآراء، بين الباحثين حول ظروف استقبال هذه البعثة في البلاط المغولي، إذ ظلّ المؤرّخون، ولفترة طويلة، يرتكزون على جملة للمؤرّخ جوانفيل Joinville، لإثبات الإستقبال السيّئ، لقوله : "...واعلموا أنّ الملك ندم كثيرًا لإرساله"، يعني لونجمو،..."، إلاّ أنّ عدم رضى الملك لا يُؤكّد بالضرورة ذلك الاتّجاه، فقد ذكر المؤرّخ المستشرق بيليوت نقلاً عن الباحث برنارد جي Bernard Gui أنّ أوغول قاميش وابنها، أكرما السفراء وقدّما لهم الهدايا، أمّا روبروك فيكتب إلى ملكه "... إنّ قاميش تُرسل إليكم قطعًا من القماش وهدايا مصحوبة برسائل"، وعلى هذا تكون بعثة لويس التاسع قد استقبلت في البلاط المغولي بشكل طبيعي نسبيًا، إلاّ أنّ الهدف المرجو منها لم يُكتب له التحقيق بعد، فبالإظافة إلى ضياع فرصة عقد علاقات تحالف، كانت رسالة "قاميش" منسوجة بطريقة جعلت ملك فرنسة ينزعج ويندم

---

(1) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 55 ; Grousset (R.), Histoire de croisades., p. 521.
ويبدو أنّ مهمّة هذه البعثة كانت مزدوجة، إذ كان عليها تسليم الرسائل إلى الجيجيداي في فارس، وإلى كيوك في قراقورم، ويبدو أيضا أنّه لا أثر مكتوب عن طريق وظروف السفارة، إلاّ ما أورده بعض المؤرخين بإيجاز أمثال Joinville، وMathiew Paris, Chronica majora (éd. Luart, VI, pp. 112-116). ولم يكُن الجيجيداي ليتحمُّل مسؤوليّة اتخاذ قرار الردّ إلى ملك فرنسا، فقرّر إرسال السفارة إلى الوصيّة، التي استقبلتها في قوراقورم. إلاّ أنّ المؤرخين لا يعلمون على وجه التحديد متى وصلت البعثة إلى قوراقورم، وربّما كان ذلك في بداية 1250م : الفترة التي تمّ فيها انتخاب مونكو خان، ولكن قبل حُكمه الفعلي يوم 01 جويليا 1251م.
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 55.

(2) أنظر : Joinville, op. cit., p.206.

على إقدامه بهذه الخطوة، ويحتار بشأن حقيقة الرسالة الأولى التي حملها إليه كلاً من "مرقص" و"داود" بينما هو في قبرص، والحقيقة أنّ أثر هذه البعثة المغوليّة كان عميقًا في نفس الملك ومن معه، خاصة بعد الذي نشره "داود" بينهم من أنباء تُفيد أنّ الخان العظيم "كيوك"، وأمّه كذالك، كانا على دين المسيحيّة، وهو الخبر نفسه الذي كتبه سمباد Sembad، أخُ هيثوم ملك أرمينيا الصغرى، فكان إرسال لونجمو بمثابة ردّة فعل لهذه المُسبّقات، وقد صاحبه داود حتى بلاط كيوك، إلاّ أنّ إصرار أوغول قاميش، الوصيّة على العرش، على خضوع أوربّا للمغول، يقود إلى الإعتقاد بكذب "داود"، لولا أنّ رسالة الجيجيداي هذه إلى لويس التاسع كانت خالية من العبارات المعتادة بالخضوع حسب ما احتجّ به المؤرّخ Richard Jean(1).

ومهما يكن من أمر فإنّه يبدو أنّ تلك السفارة لم تُحقّق نتيجة محمودة في موضوع التحالُف بين لويس التاسع والمغول، لأنّ الرد الذي حمله أندرو دي لونجمو لم يختلف عن الردود المغوليّة السابقة إلى البابا، إذ ممّا جاء فيه : "... لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا... لذلك ننصحك أن تبعث إلينا عاما بهد عام شيئا من ذهبك وفضتك ... فإن لم تفعل هذا دمّرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع غيرك من الملوك..."، وكان طبيعيًا إزاء هذا الرد المحبط، كما يقول جوانفيل، أن يندم لويس التاسع "أشدّ الندم على إرساله رسلا" إلى المغول(2).

غادرت هذه السفارة بلاد المغول بعد وقت وجيز مُردَفة بسفارة مغوليّة، كانت مُهمّتها الإستخبار والتجسُّس، إلى قيساريّة ببلاد الشّام حيث يُوجدُ الملك لويس التّاسع، وفي خضمّ تلك الأحداث كان لويس التاسع قد عزم على شنّ حملته، دون انتظار الرد المغول، فجازو فعلا من قبرص إلى مصر، واحتلّ دمياط في سنة (1249-1250م)، ثمّ توّجه إلى داخل مصر عبر نهر النيل في اتجاه القاهرة، إلاّ أنّ الجيش المصري أنزل به هزيمة نكراء في الفترة (1250-1251م)، في معركة المنصورة أوّلاً ثم فارسكور لاحقًا، كما أنّه أُسر أخر مرّة، ليدفع فيما بعد فدية ضخمة ويُسلّم مدينة ديمياط إلى أهلها الشرعيين مقابل سراحه، ويغادر إلى الشّام، منكسر

---

(1) أنظر: Joinville, op.cit., p.206; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p.72 note1; Richard(j), La papauté., p. 74; Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 55-56,223 note 11.

(2) أنظر : Joinville, op. cit., p.206 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 56 ; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 75.

الجانب جارًا أذياله، ثمّ إلى قيساريّة Césarée(1)، وبفشل الحملة الصليبية السابعة هذه، ازداد حقد الصليبيين تجاه الإسلام والمسلمين وتأُكدت ضرورة التعاون مع المغول لحرب المسلمين.

ويبدو أنّ الملك الفرنسي لويس التاسع لم يعتبر من هزيمته ضدّ المماليك البحريّة، فقد عاهد بالأيمان المغلّظة ألاّ يعود إلى غزو المسلمين، لكنّه ونجده يرمي بكلّ ذلك عرض الحائط وينقض يمينه باستعداداته في سنة (669هـ/1270م) لغزو الدولة الحفصيّة بالمغرب الاسلامي (تونس) ليكمل طريقه برا نحو مصر، فأرسل الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260- 1277م) رسولا إلى فرنسا يحذر ملكها من عاقبة مشروعه، وعندما نزل الصليبيون الفرنسيون في تونس أرسل بيبرس رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بعزمه على إرسال نجدة على وجه السرعة للتصدي للغزاة، وباشر باتخاذ إجراءات التنفيذ، فحفر الآبار في الصحراء الغربيّة لتزويد فرقه التي ستتوجّه إلى تونس، بالماء، لكن وصول أخبار أخرى من تونس بفشل الحملة وموت لويس التاسع فيها، أوقفت كافّة الاستعدادات المتّخذة(2).

استقبل الملك الفرنسي سفارة أندرو دي لونجمو، المُرتدّة، في شهر ذي الحجّة 648هـ/ أبريل1251م وهو لا يزال في مدينة قيساريّة، ولمّا قرأ الرسالة الموجّهة إليه وجد فيها أنّ الوصيّة على عرش المغول اعتبرت هدايا الملك جزيةً، وأنّ الملك تابعٌ لأسياده المغول، وأنّ عليه أن يستمرّ في إرسالها إليها سنويًا، فصُدم الملك لويس التاسع مرّة ثانية نتيجة ذلك الردّ السلبي، بعد صدمته الأولى إثر هزيمته النّكراء أمام المسلمين(3)، وعلى أثر ذلك راودت الملك الفرنسي شكوكا جديّة حول المبعوثان المغوليّان اللّذان كانا أساس تلك الطموحات الباهرة : هل كان "داوود" و"مرقص" مُضلّلان؟، لقد استعمل روبروك في أواخر تقريره إلى الملك، لفظ :"داوود الذي جرّك إلى الخطأ"، إشارة إلى أنّ السفير المغولي كان السبب الرئيسي لتلك

---

(1) أنظر : Matthew Paris, op.cit., T.7, pp. 89, 96-99 ; Guillaume de Tyr, op.cit., chapitre LXVIII, p. 619, chapitre LXX, p. 624 ; Joinville, op.cit., p.128, 158 ; Eracles, l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer, in R.H.C., H.O., publication de A.I.B.L., Paris 1869-1906, chapitre I, p. 438 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 57.
وانظر أيضا : السيوطي: حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكرالعربي، القاهرة، 1998م، ج2، ص30.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م، أحداث سنة 669هـ، ج2، ص 69 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص 373- 374.

(3) أنظر: Joinville, op. cit., pp. 206, 128-130 ; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCL, p. 206, 207; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, p. 376, 377, 378, 379 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 55-56 ;Grousset, Histoire des croisades., p. 521.
وانظر أيضا : نسيم، جوزيف : لويس التاسع في الشرق الأوسط، القاهرة، 1956م، ص 250-253.

المغالطة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني بالضرورة أنّ المرسول المغولي كان مُحتالاً، أمّا رسالة "منكوخان" التي حملها روبروك فيما بعد إلى الملك، والتي جاء فيها: "لقد جاءكم رجل اسمه داوود بصفة سفير مغولي، إلاّ أنّه كان كذّابًا"، ليست كافية هي الأخرى لتقرير مكر داوود، لأنّ منكوخان الذي كان ينتمي إلى فرع مُنافس لفرع "كيوك خان"، قام بإعدام الجيجيداي أثناء شتاء (649هـ/1251-1252م)، ثُمّ أعدم في صيف (650هـ/1252م) "أوغول قاميش" وكلّ من ينتمي إلى العائلة الإمبراطوريّة، وكلّ من كان في صفّ كيوك خان، أو كان بمقدوره تعكير حُكم منكوخان، وعلى هذا فإنّ تكذيب منكوخان لداوود، إنّما هو راجع، ربّما، إلى كونه أحد رجال الجيجيداي، وهذا الأخير كان من حزب أوغول قاميش، ثُمّ إنّ الرسالة التي سلّمها داوود إلى الملك كانت خالية من الصيغة الآمرة بالخضوع، وذلك ما لم يستصغه منكوخان(1).

ومهما يكن من أمر، فإنّ كلا الطرفين كان يسعى للاستفادة من الآخر واستغلاله، لذا لم ييأس الملك لويس التاسع في مسعاه خاصّة وأنّ القوّة المغوليّة، الضاربة، لا يُستغنى عنها في حرب الأيّوبيين، ولعلّ إشاعة تحوّل الأمير المغولي سارتاق Sartaq في بلاد القفجاق إلى المسيحيّة، هو الذي شجّعه لمعاودة سفارة أخرى إليهم(2).

**3 - سفارة وليم روبروك و بارثولوميو دي كريمونا إلى المغول من قبل لويس التاسع:**

الحقيقة أنّ لويس التاسع امتنع عن الردّ على الرسالة المغولية، المخيّبة لآماله وآمال البابويّة الصليبيّة، تجنُّبًا لفشل ذريع آخر، إلاّ أنّه قرّر إرسال، هذه المرّة، بعثة دينيّة شجّعه عليها أندرو دي لونجمو من أجل مُؤازرة الأسرى المسيحيّين الذين كانوا في قبظة المغول في منطقة طلاس Talas بالقوقاز، كما شجّعته على ذلك أخبار التعاطُف المغولي تجاه المسيحيّة(3).

أما في منغوليا، فقد اجتمع القورلتاي سنة 1251م، وقرر اختيار خانا جديدا للمغول، فكان منكوخان بن تلوي بن جنكيزخان (1251-1259م)، وكان هذا التنصيب بداية تحول كبير في سياسة المغول، وبداية تغير جذري في المناطق المحيطة بهم، فقد كانت سياسته توسعية وشبيهة بسياسة جدّه جنكيزخان، وسياسة أوكتاي الذي فتح جزء كبيرا من أوربا في عهده، ومن ثم بدأ

---

(1) أنظر: Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 73.

(2) أنظر : Grousset (René),Histoire des croisades., p. 522 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 283; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II,Division I, p.81.

(3) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 57 ; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXI.

منكوخان يفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين، وللأسف الشديد، فإن أمراء المسلمين، وإن كانوا قد انتصروا في موقعة المنصورة بمصر سنة 1250م، إلا أنهم لم يزالوا مفترقين ومشغولين بالفتن والحروب الداخلية، ومن ذلك الحرب التي دارت رحاها بين الجيش المصري بقيادة عز الدين أيبك والجيش الشامي الذي أرسله الأيوبي الناصر يوسف أمير حلب، وذلك في منطقة تُسمى العباسية شرق مدينة الزقازيق المصرية، في أيامنا هذه، بينما كانت الحملات الصليبية لا تتوقف، والمغول على أبواب الخلافة العباسية(1).

وفي هذه الأونة كان الملك الفرنسي لويس التاسع لا يزال متواجدًا بقوّاته في بلاد الشام حين بلغته أخبارًا، عن طريق النصارى الشرقيّين وبخاصّة الأرمن، مفادها أنّ سارتك بن باطو، الأمير المغولي ببلاد القفجاق، قد تنصّر وأنّ عددًا من قادة المغول أبدوا استعدادهم لاعتناق الديانة النصرانيّة، وأنّهم بحاجة إلى رُهبان يُعلّمونهم أصول العقيدة المسيحيّة، وأنّ هؤلاء يحسنون مُعاملة رجال الدين النصارى، وأنّ كثيرًا من الأسرى النصارى، من أصل أوربّي، متواجدون في وسط آسيا وبحاجة إلى رجال دين لإقامة شرائعهم الدينيّة. فدفعت هذه الأنباء الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروك للتطوُّع لهذه المُهمّة، بمبادرة شخصيّة منه، فاستأذن مقدّم الفرنسيسكان في الأراضي المقدّسة والملك لويس التاسع في الذهاب إلى مغول روسيا لمقابلة سارتاك من أجل التبشير بينهم، والبحث عن الأسرى الأوربيّين في إطار بعثة دينّة(2)، بينما كان الملك الفرنسي آنذاك مُتلهّفًا لإعادة فتح باب المفاوضات مع قادة المغول، في شمالي آسيا وشرقي أوربّا، ليُعوّض عن فشله مع مغول وسط آسيا وشرقها، فبارك رحلة روبروك وزوّده بهدايا ورسائل إلى قادتهم، وطلب منه أن يُوافيه بأدقّ التفاصيل عمّا يُشاهدُه ويسمعه عن حياة المغول قصد التعرُّف عن نواياهم تجاه الغرب الأوربّي، والبحث في إمكانيّة تحويلهم إلى النصرانيّة(3).

---

(1) ابن عماد الحنبلي :أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي(1031- 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجاريّة، بيروت، دون تاريخ، ج 5، ص 244-169.

وانظر أيضا : Grousset (R), Histoire des croisades. , p. 523.

(2) أنظر : Guillaume de Rubruk, op. cit., p. 17, 106; d'Ohsson(C.),op. cit., T.II, p. 283 ; Dawson (Christopher), op. cit., pp.XXI-XXII ; Richard(Jean), La Papauté., p.79; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit.,Part II, Division I, p. 81.

وانظر أيضًا: هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص74-75.

(3) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص76.

وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 283 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.81.

ولا يخفى على أحد أنّ لويس التاسع كان يكن حقدا كبيرا تجاه المسلمين وخاصّة بعد هزيمته أمامهم، من ثلاث سنوات، في موقعة المنصورة، فلم ييأس من إمكانية التعاون مع المغول، من أجل الإنتقام، فقرر سنة 1252م إرسال بعثة ثانية إلى القائد المغولي، سارتاك، ببلاد القفجاق(1)، مكوّنة من الفرنسيسكاني وليم روبروك(2)، والدومنيكاني بارثولوميو دي كريمونا Bartholomew de Cremona (3)، وزوّدهما برسالة لتسلم إليه(4).

والحقيقة أنّه كان قد انتشرت في تلك الآونة، بين مسيحيّي المشرق، أنباء تنصّر سرتق ، وبينما يذكر المستشرق الفرنسي Richard (j) أنّ لويس التاسع لم يرسل روبروك إلى المغول إلاّ لتهنئةالأمير المغولي سرتق Sartaq، إلاّ أنّ أحداث تحطُّم جيش الملك لويس في المنصورة، وسجنه من (04 ذو القعدة 647هـ/08 فبراير 1250م) إلى غاية (28 محرّم 648هـ/ 02 مايو 1250م)، وتسليم Damiette للأيّوبيّين، ورغم ذلك عكوفه على تجهيز وتحصين يافا Jaffa وصيدا Sidon وقيصريّة Césarée في بلاد الشام مدّة أربعة سنوات، ما هي إلاّ إشارة لنيّته في تجديد الحرب، و يبدو أنّ الضعف الذي أصاب جيشه أرغمه في معاودة السعي إلى حلف المغول، ولذا كانت إرساليّة روبروك مرّة ثانية(5).

غادر وليم روبروك مدينة قيسريّة رفقة الملك لويس، في ربيع 1252م، باتجاه مدينة عكّا Acre مقرّ الملك، ومنها انطلقت السفارة، في أواخر650هـ/أوائل1253م، قاصدة القسطنطينيّة، وحين وصلتها استقرّت فيها لبعض الوقت، حتّ أوائل شهر ماي 1253م، للراحة والتزوّد

---

(1) أنظر: Richard(Jean), La Papauté., p.78; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 283; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.81.

(2) أنظر : Dawson (Christopher), op. cit., pp.XXI ; Richard(J.), Les missions., p.180 ; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, p. 283 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.81.

وانظر أيضًا : الرمزي : المصدر نفسه، ج 1، ص 395.

(3) أنظر : Dawson, the Mongol mission, op.cit., pp.XXI ; Grousset(R.), Histoire des croisades., p.522; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 283, 284 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.81.

وانظر أيضًا : الرمزي: المصدر نفسه، ج 1، ص 395.

(4) أنظر: Richard(j), Sur les pas., op.cit., p. 55; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 283 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.85; Guillaume de Rubruk, op.cit., Article IX , p.106.

(5) أنظر : Joinville, op.cit., p. 128, 158 ; Eracles, op.cit., chapitre II, pp. 440-441 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., pp. 483-492 ; Richard(J.), Les missions., p.180 ; Jacques Boudet, op.cit., pp. 486-490 ; Michaud, Histoire des croisades, cinquième édition, Paris, 1838, T. IV, p. 323, 416.

بالمؤن وجمع معلومات إضافيّة عن المغول المسيطرين على روسيا(1)، وهناك قابل روبروك فارساً قدم منذ أيّام قليلة من رحلة إلى منغوليا، واسمه بودوان دي هينوت Le Chevalier Baudouin de Hainaut(*)، فجالسه وسمع منه ما يعينه في مهمّته عند المغول، هذا وتسلّم روبروك من الإمبراطور البيزنطي بودوان الثاني Baudouin II (1240-1261م) رسائل مكتوبة بالإغريقيّة وموجّهة إلى سكاكاتاي Scacatai، القائد المغولي في شبه جزيرة القرم، كان مضمونها طلب رخصة عبور تسمح لروبروك مواصلة سفره، في حين أشاع روبروك، أثناء تواجده في القسطنطينيّة، بأنّه سفير الملك لويس التاسع إلي سرتق، أخذًا بنصيحة بعض تجّارها لتسهيل وصوله إليه، وهو الذي كان من قبل يحتاط ويتحاشى التصريح بذلك(2)، وإن كانت مهمّته الحقيقيّة هي هذه بعد التبشير في أوساط المغول.

أبحرت السفارة، من القسطنطينية، يوم 07 ماي 1253م عبر البحر الأسود لتصل إلى مدينة سولدايا أو سوداك Soudac يوم 21 ماي 1253م(3)، وهي مركز تجاري هام في القرم Cremée ويلتقي فيها أقوام من مُختلف المشارب والديانات دون استثناء(4)، ثمّ استأنف وليم روبرك سفره من مدينة سولدايا يوم 1 جوان 1253م، بينما بلغ عدد المشاركين في تلك السفرة، ابتداء من هذه النقطة، خمسة أشخاص هم : وليم روبروك ورفيقه بارثولوميو دي كريمونا، ورجل دين "le clerc" اسمه جوسي Gosset، ومترجما يُدعى هومودي Homodei، وعبد اشتراه وليم روبروك في القسطنطينيّة بالمال الذي تصدّق به عليه الملك الفرنسي، اسمه نيكولا Nicola، فوصلت السفارة إلى مخيّم سكاكاتاي يوم 5 جوان 1253م، ليضيف إليهم هذا القائد،

---

(1) أنظر: William Rubruck, The Journey, pp. 89 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 83; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXII ; Grousset(R.), Histoire des croisades., p. 522; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 284; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.81, 85.

وانظر أيضًا: عمران، سعيد محمود: المغول وأوربّا، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1997م، ص231- 232.

(*) بودوان دي هينوت، الذي قابله روبروك وسمع منه أخبار المغول، هو فارس الإمبراطور بودوان الثاني، تزوّج سنة (638هـ/ 1240م) أميرة من الكومان comane، ويُعتقدُ أنّه وصل إلى قوراقورم أثناء أسفاره في أنحاء آسيا الوسطى. أنظر : Guillaume de Rubruk,, op.cit, p. 118 note 4 et p. 183.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 106, 108, 183; Richard(j), Sur les pas., pp.55-56 ; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXII ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.82.

(3) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.83, 86; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II,p. 284 ; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXII ; Grousset(R), Histoire descroisades., p. 522 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II,Division I, p. 81.

(4) أنظر: Dawson (Christopher), op. cit., pp.117-119.

ثلاثة رجال من المغول، كانت مهمّة اثنان منهما قيادة عربات النقل الستة والاعتناء بالثيران، التي تجرّها، والأحصنة، بينما كان الثالث دليلا إلى مقر القائد سرتك، وبهذا يكون العدد الإجمالي هو ثمانية أشخاص(1)، وعلى هذا يكون سكاكاتاي (أو سكاتاتاي) (Scatatay) Scacatai، أوّل قائد مغولي يلتقي به روبروك، فعرض عليه تعاليم المسحيّة، إلاّ أنّ سكاكاتاي اكتفى بهزّ رأسه دون التلفّظ بأيّة كلمة، ما جعل روبروك يحتار من ذاك التصرُّف الغير مفهوم، خاصّة وأنّ ذلك القائد المغولي هو الذي طلب بنفسه سماع ما كان يُريد مبعوث الملك لويس قوله لسرتق، ثُمّ إنّ روبروك لاحظ أنّ مغول هذه المناطق كانوا يُعاملون المسلمين ( les Sarrasins) أفضل من الروس الذين كانوا مسيحيّي المعتقد، لأنّ أولائك كانوا يدفعون لهم الأموال أفضل من هؤلاء، يعني المسيحيين، الفقراء(2)، والمهم أنّ روبروك سلّم رسائل الإمبراطور إلى سكاكاتاي في اليوم نفسه، فأرسلها هذا الأخير مباشرة ودون انتظار إلى سولدايا Soldaia(*) لترجمتها، ثمّ استأنف الفريق سيره يوم 9 جوان 1253 ليصل، بعد رحلة لمدّة شهرين في جنوب روسيا، إلى مدينة سراي(**)،مقر سرتق في الجهة السفلى لنهر الفولجا La basse Volga، يوم 31 جويلية 1253م بعد عناء وقسوة السير في أرض خالية، والنّوم في الخلاء أو تحت العربات(3)، وحاملة رسائل مغلقة موجّهة إلى سرتق(4).

اجتمع وليم روبروك بسرتق بن باطو، في معسكره بين نهري الدون والفولجا في جُمادى

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op. cit., pp. 24, 73, 87-88, 113; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXII.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 42 ,109.

(*) سولدايا Soldaia (أو Soldanie أو Soudak)، هي مدينة في شبه جزيرة القرم، على البحر الأسود، غرب مدينة Caffa احتلّها المغول أوّل مرّة سنة 1223م، ثُمّ ثانية سنة 1239م.

أنظر : Marco-Polo, op. cit., p. 340.

وقد بقي روبروك عند القائد سكاكاتاي من 5 جوان 1253م إلى 9 جوان 1253م، في انتظار وصول ترجمة رسالة الامبراطور البيزنطي بودوان الثاني من سولدايا.

أنظر: Guillaume de Rubruk, op. cit., p. 109.

(**) سراي Saray، هي عاصمة مغول القبيلة الذهبيّة، أسّسها الخان باتو حوالي سنة 1250م، و هي واقعة أسفل الفولجا قرب ستالينجراد الحاليّة Stalingrade، وقد ازدهرت هذه المدينة فعليًا في عهد "بركة خان" و خُلفائه، إلى أن دمّرها "تيمورلنج" Tamerlan سنة(798-799هـ/1395-1396م).

أنظر: Marco-Polo, op. cit., p. 341.

(3) أنظر: William Rubruck, The Journey, pp.117, 119-122 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p.73, 107, 108, 111, 116, 120 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 522 ; Dawson (Christopher),op. cit., p. XXII ; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, p. 284 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p. 81, 84, 85.

(4) أنظر: Richard (j), Sur les pas., p.56.

الآخرة 651هـ/01 أوت 1253م، فقدّم له خطاب الملك، مرفوقًا بترجماته إلى العربية والسريانية والتركية، المعدّة سلفًا قبل مغادرته عكا، ثمّ طلب السماح له بالبقاء في بلاد المغول للتّبشير بالمسيحيّة. وأثناء هذا اللقاء الهام لاحظ روبروك، بين الحظور، عددا من الرهبان الأرمن الملمين باللغتين التركية والعربية إظافة إلى السفير النسطوري مرقص Marc(*) المتقن للغات الترجمة الثلاث المذكورة آنفا(1). ويبدو أنّ سرتق، وبعد اطلاعه على مضمون الرسالة، شعر أنّه غير مؤهّل لمعالجة بعض مضامينها أو اتخاذ قرار بشأنها قبل عرضها على والده باطو، فأرسل في اليوم التالي خادمه، الراهب النسطور كوباك Coiac، إلى وليم يقول له " أنّ الملك الفرنسي كتب عبارات ثناء لسيده سارتاك ولكن خطابه يحتوي على مسائل صعبة لا يجرؤ على أن يفصل فيها بدون استشارة والده باطو، ومن ثم يجب عليكم أن ترحلوا إلى والده"، وهكذا قرّر الأمير المغولي توجيه البعثة إلى أبيه باطو بن جنكيزخان (1227-1256م) المقيم بسراي في الجهة الشرقيّة لنهر الفولجا(2)، في إشارة واضحة لرفض سارتاك السماح لوليم روبروك ورفاقه البقاء في إقليمه للتبشير بالمسيحيّة، فتأكد يقينا أنّ " سارتاك وكيوك خان ومنكو خان(1251-1259م) لا يعتنقون المسيحيّة بل هم فقط يعطيان احترامًا كبيرًا للمسيحيّين"(3).

غادرت البعثة مقر سرتق يوم 3 أوت 1253م لتصل إلى باطو خان يوم 7 أوت 1253م، وهو القائد المغولي الثالث الذي لقيه روبروك، والمؤسس الفعلي لخانيّة مغول القبيلة الذهبيّة وعاصمتها سراي في الحوض الأدنى لنهر الفولجا، فركع أمامه طبقًا للعادة المغوليّة، حتّى لا يتكرّر معه ما حدث مع آسكلين اللومباردي من قبل، وخاطب باتو خان قائلا "سيّدي ندعوا الرب الذي يملك كل شيء، والذي أعطاكم كل هذه الأشياء الدنياويّة، أن يُعطيكم بعدها خيرات

---

(*) الذي أُرسل مع داوود من طرف الجيجيداي إلى لويس سنة 1248م.

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., Article XV, p. 74, 118, 120 ; William Rubruck, The Journey, p. 119 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 522 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 285 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op., cit., Part II, Division I, p.81, 85.

(2) أنظر: William Rubruck, The Journey, pp.119-120 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., 1985, pp.120-121 ; Grousset(R), Histoire des croisades., pp. 522-523 ; Richard(j), Sur les pas., p. 55 ; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, p. 285 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p. 83, 85.

(3) أنظر: William Rubruck, The Journey, p.122, 129; Guillaume de Rubruk, op.cit., p.123; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, p. 285.

السماء، التي من دونها لا تعني الأولى شيء"، ثمّ تابع يقول : " واعلموا أنّكم لن تنالوا مغفرة وخيرات السماء إن لم تكونوا مسيحيِّين، لأنّ الرب يقول بأنّ الذي آمن وتحصل على التعميد سوف ينال الخلاص، والذي لم يؤمن يعذب "، حتّى أنّ القادة المغول في حضرة باطو خان ذهلوا واستشاطوا غضبًا لتلك الجرءة واللهجة الغير وديّة "فأخذوا يسفقون بأيديهم ويسخرون من أعضاء البعثة"، بينما اكتفى باطو بإظهار ابتسامة خفيفة فحسب. ولتوظيح حرج الموقف للملك الفرنسي، يعبر روبروك عن ذلك المشهد فيقول أنّ المترجم "ارتعدت فرائصه وحبست أنفاسه، ولكنني شجّعته على ألاّ يخاف". ثُمّ سأله باطو عن اسمه واسم من معه، واسم مَلكه، وعن من يُحاربون، لأنّه علم أنّ لويس التاسع خرج من بلاده على رأس جيش، فكان ردُّه أنّ ذلك لحرب المسلمين الذين دنّسوا بيت الرب في فلسطين(1). ويبدو أنّ باطو لم يستطع، بدوره، أن يفصل في الأمر بمُفرده، فقرر إرسال أعضاء البعثة الفرانسيسكانية إلى قراقورم، عاصمة الخان الأعظم منكو Mongka (1251-1259م) الذي أطاح بالوصية على العرش، المسمّاة أوغول قاميش، ولذلك وجّه إليهم يوم 14 سبتمبر 1253م من يقودهم إلى هناك(2).

ومهما يكن من أمر فإنّ السفارة غادرت مخيم باطو يوم 15 سبتمبر 1253م، عبر منافذ جبال الأورال، ونهر إيلي، مكوّنة من وليم روبروك ومترجمه هومودي ودليلا مغولي عيّنه لهما باطو ليوصلهما إلى منكوخان، في حين رجع مرافقيه الآخرين إلى سرتق بأمر من باطو خان، وكانت الحكومة المغوليّة هي التي تولّت الإنفاق عليهم في سفرهم، على امتداد الطريق التجاري الكبير، وهيّأت لهم أسباب الراحة والأمن، إلى أن وصلوا إلى معسكر الخان الأعظم منكو الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من قراقورم، وذلك في يوم 27 ديسمبر

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 74, 131 ; William Rubruck, The Journey, p.128; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, pp. 286-289.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 133-134 ; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, p. 289 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.86 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 523.

أعدم "منكوخان" الجيجيداي سنة (649هـ/1251م)، و"أوغول قاميش" سنة (650هـ/1252م)، ثمّ انتهت وحدة الإمبراطوريّة المغوليّة بموت منكوخان، واندلاع الصّراع بين إيلخاناتها، ولعلّ ذلك ما أعطى نفسًا جديداً للبلاد المتاخمة لحدودهم، نعني بذلك توقُّف المغول عند أبواب فيينّا الأوربيّة، ومصر والشام الإسلاميّة.

أنظر: Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté",Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, p. 73 ; Richard (j), Sur les pas., p.56.

1253م، ثمّ مثل روبروك وزميله بين يدي منكوخان، لأوّل مرّة، يوم 04 جانفي1254م(1).

ويبدو أنّ روبروك كان يجهل سبب إرساله إلى قراقورم، ولم يكتشف المستور إلاّ بعد شوط من طريقه إليها، وذلك أنّ باطو خان، وبعد اطلاعه على ترجمة الأرمن، الزائفة، للرّسائل والنابعة عن كره وعداوة شديدين للمسلمين، ظنّ أنّ لويس التاسع يطلب من سرتق حلفًا عسكريًا مباشرا ضدّ المسلمين، ويؤكد ذلك قول أحد عمّال باطو، المكلّفين بالكتابة، لروبروك: "إنّ رسائل باطو التي يحملها إلى منكوخان، تنُصُّ على أنّكم طلبتم من سرتق جيشًا ومعونة لحرب المسلمين، وقد استغربتُ كثيرًا لذلك وانزعجت، لأنّني كُنتُ أعرف ما احتوته رسائلكم حقيقة، فقد طلبتم منه صداقَةَ كلّ المسيحيّين، وتعظيم الصليب، وأن يكون عدُوًا لكلّ أعداء الصليب"(2)، ما جعل روبروك يعزم على تكذيبها فور وصوله، لأنّه كان حريصا على عدم التصريح أمام المغول بأنّه فعلا سفير الملك الفرنسي لويس التاسع، لولا أنه أُخبر في قراقورم يوم 30 ماي 1254م "أنّ تلك الرّسائل ضاعت، وأنّ منكو نسي ما كان مدوّنا فيها ويطلب من روبروك أن يحظر ليُسمعه شخصيا عن محتواها، فاطمأنّ هذا الأخير لذلك الخبر وجعل يُصرّح أنّ الملك لويس أرسل إليه احتراماته للخان الأعظم، ويخبركم بفضائلنا، أي روبروك وزميله بارثولوميو، ويطلب منكم السماح لنا بالبقاء في بلدكم"(3).

وعلى أيّة حال فإنّ الحقيقة الماثلة، من خلال كلام عامل باطو، أنّ رسالة الملك لويس إلى سرتق كانت قد طلب التحالف فعلاً، وإلاّ فلا معنى لطلبه بمعادات أعداء الصليب، ويعني بذلك الإسلام وأهله، وطلب مدد الجيش المغولي لحربهم، ثُمّ إنّ إشاعات تحوُّل سرتق وأبيه باطو إلى النصرانيّة، بعثت في نفس الملك آمالاً، خاصّة بعد هزيمته أمام جيش مصر، فحلُم بحملة صليبيّة من نوع خاص يقودها المغول في شخص سرتق وأبيه باطو.

والواقع أنّ هناك تظاربا في الأراء حول حقيقة مهمّة الفرانسيسكاني روبروك، فهل كان

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 74, 75, 132, 133-134, 157, 161, 163; Dawson (Christopher), op. cit., pp.123-125, 130-131,154-155 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 523 ; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.II, pp. 290-291; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.86.

وانظر أيضا: ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص 510-511.

(2) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 157 ; William of Rubruck, The journey, p.149; Richard (j), Sur les pas., pp. 56-57 note 16.

(3) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p.106, 207; William of Rubruck, The journey, p.189-190; Richard (j.), Sur les pas., p.57, 59.

مبعوثا رسميا من الملك الفرنسي لقادة المغول أم أنّ بعثته كانت مبادرة منه باعتباره راهبا فرانسيسكانيا من واجباته ومسئولياته للتبشير بالمسيحية بين من لا يدينون بها، فأمّا المؤرخ الفرنسي بول بيليوة، كما ذكر المؤرّخ ريدشارد جون Richard (j)، فيرى أنّ مهمّته كانت حمل رسالة لويس التاسع إلى أحد أمراء المغول، وهو سرتق، الذي كان يعتقد أنّه تحوّل إلى المسيحيّة، وبالرغم من أنّ بيليوت لم يذكر حُججه إلاّ أنّه بعد الرجوع إلى تقرير وليم روبروك الموجه إلى لويس التاسع، يمكن كشف الغموض بوضوح، وذلك أنّ وليم روبروك نفسه كان فرنسيا ومن رعايا الملك الفرنسي، وأنّ هذا الأخير أرسل معه أحد الفرنسيين بهدايا إلى قادة المغول وزوّده بخطاب إلى سارتاك وذلك ما يُؤكّد الطابع الديبلوماسي للبعثة، ولذلك كان ردّ الخان المغولي بدوره برسالة إلى لويس التاسع يحملها وليم روبروك نفسه، كما كتب هذا الأخير تقريرا طويلا، إلى مليكه، يذكر فيه كل ما صادفه وشاهده أوسمعه عن المغول، وكلّ ذلك يؤيّد الطابع الرسمي لهذه البعثة، بينما ذهب آخرون أمثال البروفيسور Chrysologus Pr. Schollmeyer، حسب ما ذكر المؤرّخ ريدشارد جون Richard (j)، إلى أنّ مهمّته كانت إنشاء مركزا للبعثات والإرساليّات التبشيريّة على أرض المغول، ولهذا الغرض أخذ معه مكتبة وكنيسة مصغّرة، اضطرّ لتركها أثناء سفره الشّاق، أمّا الرسائل التي كان يحملها فلم تكن إلاّ توصيات يحملها أيُّ مبعوث ليُستقبل كما هو أهل، ولعلّ حجّة هذا الأخير موجودة هي الأخرى في تقرير روبروك إلى مليكه، وهيّ أنّ وليم روبروك صرّح عدّة مرات وفي عدّة مناسبات في تقريره، وأمام القادة المغول أنفسهم، أنّه ليس مبعوثا من قبل الملك الفرنسي ولكنه قدم إليهم بصفته راهبا في مهمّة دينيّة شخصيّة، بينما كان أيسر له أن يقول بأنّه مبعوث ملك فرنسا فيرعى بمزيد من التقدير والتبجيل، ولهذا واجه قسوة وجفاء كونه لا يمثل أحدا من ذوي النفوذ والقرار السياسي وأنّه، حسب روايته، كان يتنقّل في قصورهم حافي القدمين عاري الرأس في ملابس الرهبان الرثة(1)، لأنّه لا يمثل إلاّ نفسه فقط باعتباره أحد الفرنسيسكان الذين تدرّبوا على حياة التقشّف وشظف العيش، ثم إنّ خطاب لويس التاسع إلى سارتاك، كما يروي

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 86, 88, 89, 121,130; William of Rubruck, The journey, pp. 91-92, 93, 120, 127, 128; Aziz Surayal Atiya, The Crusade in the later Middle ages, p. 243; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXI, XXII; Richard (j), Sur les pas., p. 55.
وانظر أيضا : عادل هلال : المرجع السابق، ص75.

وليم نفسه، كان فقط لتهيئته لاعتناق الدين المسيحي، ودعوة لحسن معاملة المسيحيين وحسن استقبال روبروك ورفاقه والسماح لهم بالبقاء بين ظهراني المغول للتبشير بالعقيدة المسيحيّة، وختامًا ذكر وليم روبروك في نهاية تقريره، أنّه وصل إلى طرابلس في 15 أوت 1255م، وأنّ مقدم هيئة الفرنسيسكان بالأراضي المقدّسة رفض السماح له بالذهاب إلى فرنسا، وطلب منه أن يكتب ما يريده إلى الملك كي يرسله مقدم الفرنسيسكان مع أحد الرهبان لفرنسا، ومن ثم فإنّ وليم يعتذر للملك الفرنسي عن عدم مقابلته بل ويقول له : "وإنّني أرجوك أن تكتب إلى الرئيس (يعني رئيس دير الفرنسيسكان بالأراضي المقدّسة) وتطلب منه أن يأذن لي بأن أحضر إليك، وبعد مقابلتك سوف أعود مرّة ثانية للأراضي المقدّسة بعد وقت قصير". وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّه ذهب فعلا إلى المغول بصفة عضو فرنسيسكاني مبشّر وليس سفيرا من قبل ملك فرنسا، لأنّه لو كان سفيرا لما كان في حاجة للذهاب إلى الأراضي المقدّسة، بعد رحيل لويس التاسع عنها، لاستأذان رئيسه للذهاب إلى فرنسا، ولما كان بحاجة إلى تدخّل الملك الفرنسي بنفسه لدى رئيسه كي يلتمس منه الإذن لوليم روبروك بالذهاب إليه في فرنسا، والحقيقة الماثلة أمام الباحث والمرجّح عنده، أنّ كلا الطرفين محقٌّ من جانبه، ذلك أنّ المغزى الحقيقي من كلّ هذه التحركات والاتصالات سواء كانت مباشرة أو غيرذلك، هو صرف المغول عن المسيحيّين إلى كسر شوكة المسلمين، وواضح أنّ هناك رغبة حثيثة من طرف الملك الفرنسي، من خلال ما مرّ بنا من أحداث، في إعادة فتح باب المفاوضات مع قادة المغول في شمال آسيا وشرق أوربا لعلّه يفلح فيما فشل فيه سابقا وسابقيه مع قادة المغول في وسط آسيا وشرقها. ولهذا فإنّه شجّع رحلة وليم روبروك وباركها وزوّدها بالهدايا والرسائل والمؤن، وطلب منه أن يكتب له عن كلّ كبيرة وصغيرة يراها أو يسمع عنها عند أو عن المغول كي يعرف نواياهم تجاه الغرب الأوربي وإمكانيّة تحويلهم إلى المسيحيّة، خاصّة بعد الأنباء التي وصلته عن تنصر سرتاك وحسن معاملة المغول للمسيحيين بين ظهرانيهم(1).

ولو جمعنا من مقال روبروك كلّ ما يُشير إلى تغلغُل المسيحيّة في منغوليا للاحضنا مفارقات كبيرة، إذ أنّ روبروك وجد صُعوبة في تقيّيم الوضع، لأنّ ذلك التوغُّل لم يكن على نفس الدرجة

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 86, 88, 89, 121,130, 131, 207, 208, 225, 226, 243, 244; William of Rubruck, The journey, pp. 91-92, 93, 120, 127, 128, 190,204, 205, 218, 219; Aziz Surayal Atiya, The Crusade in the later Middle ages, p. 243; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXI, XXII; Richard (j), Sur les pas., p. 55.

وانظر أيضا : عادل هلال : المرجع السابق، ص 76.

في مختلف مناطق الإمبراطوريّة الشاسعة، تلك الشساعة التي سبّبت لاحقاً انقسامها بين خانات روسيا والتركستان التي اعتنقت الإسلام مُبكّرًا، لأنّ بركة خان (Berca(=Berké اعتنقه سنة(650هـ/1252م)، وخانات فارس أمثال هولاكوخان، الذين بقوا ولمدّة طويلة مُساندين للبوذيّة وللمسيحيّة، قبل أن يتحوّلوا نهائيًا إلى الإسلام ابتداء من سنة(695هـ/1295م) على عهد غازان خان، وخانات منغوليا والصين، أمثال قوبلاي خان Qoubilai Khan، الذين كانوا على البوذيّة، وقد كان هذا الإختلاف في الديانة سببًا لصراعات عديدة بين الجنكيزخانيّين، ومرجعها أساسًا إلى التحالفات السياسيّة، ولا يزال الباحثين إلى أيّامنا هذه متردّدين حول ديانة "سرتق"، هل كان حقًا على النصرانيّة التي شجّعت لويس التاسع وروبروك لإقرار تلك البعثة؟، أمّا المؤرّخ "جروسي" Grousset فيذهب إلى أنّه كان نسطوريا، فيقول :"إنّ المصادر الأرمينيّة (كيراكوس Kirakos)، والسريانيّة (بن العبري Bar Hebraeus)، والإسلاميّة (Djoūzdjāni et Djouveinî) متّفقة في هذا الموضوع"، بينما يرى آخرون عكس ذلك، مثل ما هو حال روبروك نفسه الذي ذكر أنّ النساطرة هم الذين " نشروا الإشاعات بأنّ سرتق ومنكوخان وكيوك خان كانوا على المسيحيّة، لا لشيء إلاّ لكونهم يُحسنون للمسيحيّين أكثر من الشعوب الأخرى، والحقيقة أنّهم لم يكونوا مسيحيّين"، "وكان هؤلاء النساطرة يختلقون الدعايات العظيمة من لا شيء"، إلاّ أنّه مؤكّدٌ على أنّ أهمّ مُستشاريه كان نسطوريًا، وكان اسمه (Coiac)، حسب ما ذكره روبروك، وأنّ سرتق كان مُطّلعًا بما فيه الكفاية عن الديانة المسيحيّة ليسأل روبروك إن كان الكتاب المقدّس (la Bible) لدى المسيحيين والذي عرضه في تلك المقابلة، يحتوي على الإنجيل، وهل التمثال على صليبه هو المسيح (لأنّ الأرمن والنساطرة، الموجودين في بلاطه بكثرة، لا يضعون التمثال مُسمّرًا على صلبانهم، ويعتبرون ذلك عارًا)، وقبل مُغادرة روبروك لسرتق تلقّى تحذيرًا مفادُه :"لا تذكر أنّ سيّدنا مسيحي، إنّه ليس مسيحي بل Moal (أي مغولي)"، فعلّق روبروك عليه بقوله :"إنّ المغول كانوا يعتبرون المسيحيّة لقبٌ لشعب مُعيَّن، وأنّ تكبُّر المغول المُفرط جعلهم يرفضون تسميتهم بالمسيحيّين ولو كان لهم بعض الإعتراف بالمسيح "، وعلى هذا فإنّ لفظ مسيحي يعني عند المغول "الفرنج Franc"، أي خاضعين إمّا لملك فرنسة، وإمّا للبابا(1).

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 40, 41, 42, 118, 120,122, 123, 125, 179; William of Rubruck, The journey, pp.117, 119, 121-122, 123-124, 166; Grousset(R.), l'Empire des Steppes., p. 473.

ومهما يكن من أمر فإنّ روبروك خَلُص إلى أنّ القائد سرتق، سواءً كان مسيحيًا أو غير ذلك، فإنّ ميله وعطفه كانا مُوجّهان لمن يُقدّم له هدايا أكثر.

قابل روبروك منكو خان أوّل مرّة يوم 4 جانفي 1254م فأبلغه بأنّ سبب قدومه إلى بلاده هو سماعه إشاعة اعتناق سارتاك للمسيحيّة، وأنّه حضر لمقابلته حاملا رسالة من الملك الفرنسي، إلا أنّ سارتاك أرسله إلى والده باتو خان الذي أرسله بدوره ورفاقه إلى قراقورم. شرح وليم للخان الأعظم بأنّ من واجباته "تعليم الناس أن يعيشوا وفقا لشريعة الرب ... وأنت رجل قد أعطاك الرب ممالك شاسعة على الأرض، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا في بلادك كي نقوم بخدمة شؤون الرب نيابة عنك وعن زوجتك وأولادك. نحن لا نملك ذهبًا ولا فضّة ولا معادن ثمينة لنقدّمها هديّة لك، ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك ..."(1)، وأجابه الخاقان بنغمة متعالية أنّ ممالكه تنتشر في كلّ مكان مثل أشعّة الشمس(*) وأنّه ليس بحاجة إلى الذهب والفضّة(2).

بدأت اللقاءات والمفاوضات للتعاون بين الطرفين منذ 4 جانفي 1254م واستمرّت إلى غاية 31 ماي 1254م(**)، وبالرغم من أنّ روبروك ألفى الحُكومة المغولية قد عزمت فعلاً على مُهاجمة الأقاليم الغربيّة للدولة الإسلاميّة، وأنّها على استعداد لمناقشة ما يصحُّ اتخاذُه من إجراء مُشترك، إلا أنّه اعترض التعاون بين الطرفين عقبة لم يتيسّر التغلُّب عليها، ذلك أنّ منكوخان الذي كان رجلا صريحا للغاية، لم يكن دبلوماسيا محضًا لإبرام معاهدات أو عقد

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.164; William Rubruck, The Journey, p.155; Richard(Jean), La Papauté., p.80.

(*) عندما اعتلى منكوخان عرش الامبراطوريّة المغوليّة التزم بما اتفق به مع باطو من اقتسام السلطة، فحلّت السلطة المُزدوجة محلّ السلطة الفرديّة التي انفرد بها جنكيزخان. و قد صرّح أمام السفير الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروك بقوله : " كما أنّ الشمس تنشر شعاعها على كُلّ مكان، كذلك يمتدُّ سُلطاني وسُلطان باطو على جميع الأطراف، وعلى هذا فلا نحتاج إلى الذهب ولا إلى الفضّة ". هذا يعني بوضوح أنه يعتبر المغول سادة العالم بأجمعه وأنّ الخلق كلهم في قبضته. أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 165; William of Rubruck, The journey, p.155.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.165; William Rubruck, The Journey, p.155.

(**) قابل روبروك الخان مانكو ست مرات، فكانت الأولى يوم 4 جانفي 1254م، والثانية يوم 7 فبراير 1254م، والثالثة يوم17 فبراير 1254م، والرابعة يوم 1 مارس 1254م، وكلها في معسكر مانكو الذي يقع على بعد بضعة أميال جنوب قراقورم، ثمّ انطلق مع منكو خان يوم 29 مارس 1254م باتجاه العاصمة المغولية التي دخلها يوم 5 أبريل 1254م، وكانت المقابلة الخامسة يوم 6 أبريل 1254م في قراقورم، ثمّ يغادر مانكو قراقورم يوم 7 أفريل 1254م، بينما يبقى روبروك فيها، ثمّ يلحق روبروك بمانكو يوم 17 ماي 1254م، وأخيرا كانت السادسة والأخيرة يوم 31 ماي 1254م خارج قراقورم.
أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.75, 161, 163, 176, 177, 181,182, 187, 188, 192, 193-194, 201, 212-213.

أحلاف، وكان يجهل السياسة الغربيّة، بل كان رجلا بسيطا واضحا، مباشرا في كلامه محدودا في رغباته ولا يقبل أن يُشاركه أحد في زعامة العالم، فقد قال منكو في بداية مفاوضاته أنه لا يقبل أن يكون في العالم سيد سواه، وإنه لا يعرف كلمة "صديق"، وإنما يعرف كلمة "تابع"، فأصدقاؤه هم من يتبعونه ويُعلنون الولاء والطاعة له، أما أعداؤه فهم الذين يُحاربونه، وهؤلاء ليس بينه وبينهم مفاوضات إنما لهم السيف والإبادة، وعلى هذا المنوال كانت رسالته التي سلمت إلى روبروك يوم 7 جوان 1254م ليسلمها إلى الملك الفرنسي(1).

كان منكوخان يميل إلى البوذيّة، تمامًا مثل أسلافه الجنكيزخانيّين، على أنّه كان للنصارى النساطرة أقوى نفوذ ديني، إذ حباهم منكو بعطف خاص تخليدًا لذكرى والدته بعد وفاتها، وهي التي ظلّت وفيّة لعقيدتها، و كانت الإمبراطورة كوتوكتاي وكثيرات من زوجاته الأُخريات على المذهب النسطوري، أمّا خيمته فكانت مليئة بالكهنة النساطرة الأتراك، كما وجد روبروك في بلاط المغول عدّة ممثّلين للعالم المسيحي مثل سفراء إمبراطور نيقيا(*) يوحنّا الثالث فاتاتزاس Jean III Vatatzés، ومسيحي من دمشق مبعوث من قبَل أحد الملوك الأيُّوبيّين، وراهب أرميني اسمه سارج Serge قدمَ من فلسطين، وخادمة من مدينة ماتزMetz اسمها باكيت(Paquette (ou Pascha كانت في خدمة إحدى نساء الخان الأعظم النسطوريّات، وصانع مجوهرات باريسي Parisien اسمه غليوم بوشير Guillaum Boucher وهو الذي كان ابنه ترجمان روبروك الخاص عند المغول ومن المقرّبين عند منكوخان(2)، وبينما زعم البوذيُّون أنّ الخان اعترف بتفوُّق البوذيّة على كافّة الأديان، إلاّ أنّه في حديثه إلى الراهب روبروك قال : "ليست الديانات إلاّ كالأصابع الخمسة ليد واحدة، فكما تخرج الأصابع الخمسة من الكف، البوذيّة هي الكف، وجميع العقائد الأُخرى بمثابة الأصابع"(265)، ثمّ أعفى منكو رجال الدين، من مُختلف الأديان، من الضرائب باستثناء حاخامات اليهود، واستخدم في ديوانه

---

(2) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.75, 221, 222-225 ; Roux(J.P.), op.cit.. p. 335.
وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص511.
وانظر نص رسالة منكوخان الموجهة إلى لويس التاسع، في الملاحق.

(*) أصبحت نيقيا منذ احتلال الصليبيّين للقسطنطينيّة عاصمة للإمبراطور الإغريقي.
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.160, note 6.

(3) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 38, 160, 166; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 523; William of Rubruck, The journey, pp. 184-186; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 267; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part I, pp.188- 191.

(4) أنظر : William of Rubruck, The journey, p. 182.

موظفين من مختلف الأديان والشعوب، وكانت القرارات والأوامر تُوجَّهُ لأهل كلّ قُطر باللغة المحليّة وبالكتابة المستعملة لديهم وفقًا للنماذج التي كانت تصدر في عهود ملوكهم السابقين(1).

وفي سياق ذكر روبروك للخان منكوخان وبلاطه يقول أنّه " كان مترجم منكوخان الشخصي مسيحيًا على المذهب النسطوري، وكذلك كانت زوجته المفضّلة المتوفّاة التي صار لابنتها مكانة هامّة في البلاط من بعدها، أمّا زوجتُه المُفظّلة "كوتوتا" Cotota فهي على المسيحيّة، فقد كانت تدخل إلى الكنيسة صُحبة ابنها الأكبر ونساء أُخريات، وآخرين من أبنائها، وكلُّهم خاشعين، أمّا منكوخان فكان يدخلها فيُؤتى بالكتاب المقدّس، و يسأل عن معاني التصاوير، وفي يوم الأحد التالي تأتي ابنة الزوجة المسيحيّة المتوفّاة إلى الكنيسة، وينحني أكبر أبناء منكوخان أمام الصليب ويُكرمه، وكان له معلما اسمه داود وهو راهب نسطوري ، وكان الكثير من المغول يُحبُّون adorent الصليب و لو لم يُعمّدوا، كان معظم نساء الخان الكبير ينحنون أمام الصليب أيضا، بينما كانت كوتوتا تصوم أثناء الأسبوع المسيحي المقدّس..."، وعندما اشتدّ مرض زوجة الخان الثانية، كوتا Cota، حاول روبروك مُداواتها بقراءة التعويذات المسيحيّة عليها. "... أمّا "أريق بوقا" أو "إريك بوكا" Arabuccha، أصغر إخوة منكوخان، فقد كانت أمُّه مسيحيّة، وكان له اطلاع على الإنجيل، إذ تربّى وتعلّم على يدي "غليوم" Guillaume - راهب وصديق روبروك-، فكان يُظهر نوايا حسنة تجاه المسيحيّة وكان يُحيّي روبروك ومن معه بإشارة الصليب، وأثناء الجدال الذي وقع بين مُسلمين من حاشيته و بين راهب إسمه "سرجيس" Sergius، تدخّل "أريق بوقا" قائلاً : "لا تتكلّموا بهذه الكيفيّة لأنّنا نعلم أنّ المسيح هو الله"، (تعالى الله عمّا يُشركون)، ويذكرُ روبروك سبب هذا التدخُّل أنّ مُسلمَيْن رفيعيْن في بلاط الخان كانا مُصاحبيْن لإريك بوكا أثناء زيارته له، فسبّهُما سرجيس في حضرته، وسبّ النبيّ محمّد صلّى الله عليه و سلّم، أنْ نعتهم بالكلاب، قال : "فأخذ المُسلمين في شتم المسيح عيسى عليه السلام"، ولا أدري كيف يُمكن لمسلم أيّ كان ومهما حدث أن يسُبّ رسولاً من رُسُل الله، إلاّ أن يكون ذالك من دجل روبروك الصليبي الحاقد، وعلى هذا عرّض بعض المسلمين لسرجيس في طريقه بالمُشاجرة و السخريّة. و مهما يكن فإنّ الصراع

---

(1) الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ص219، 220.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 264- 265; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part I, p.188.

والأحقاد كانت على أشدّها في البلاط المغولي بين المسيحيّين و المسلمين، ما جلب انتباه البلاط، فأُمر روبروك و من معه بالجلوس مع السفراء الآخرين بعدما كان المعهود التفريق بينهم، ولعلّ ذلك راجع لسياسة المغول الحكيمة في تعميق الشقاق بين أنصار الديانتان، وأخيرًا فأنّ "بولقاي" Bolgay، أحد كبار مستشاري منكوخان، كان نسطوريًا و صديقًا لغليوم Guillaume (صديق روبروك)، ثُمّ إنّ المغول كانوا يلجؤون في بعض الأحيان إلى الكهنة المسيحيّين بصفة خاصّة وقبل غيرهم لأداء المناسك والصلوات والدعاء الجماعي للخان وأسرته وأملاكه وماشيتهم، ورغم كلّ ذلك نجد روبروك يتأسّف لتعاطف الخان مع الإعتقاد البوذي، وأنّه لا ينحاز إلى أيّ من الديانات الثلاثة (المسيحيّة، والإسلام، والبوذيّة)، ونجد هذا التوافق بين المسيحيّة والبوذيّة فيما بعد عند أخيه هولاكو المرسل إلى بلاد فارس، ولو أنّ هذا الأخير كان ميّالاً إلى البوذيّة أكثر، بالرغم أنّه ظهر للمسيحيّين أنّه "المُنتقم للمسيحيّة المضطهدة"(1).

رافق روبروك البلاط المغولي إلى قراقورم فدخلها رفقة منكو خان يوم 05 أفريل 1254م، ثُمّ توجّه إلى الكنيسة النسطوريّة، وأدّى فيها الصّلوات. كما قابل عددًا كبيرًا من المسيحيّين من بلدان شتّى مثل المجر، وألمانيا، وروسيا، وجورجيا، وأرمينيا، وحضر تعميد ستّين شخصًا(2).

شاهد وليم روبروك أثناء تواجده في العاصمة المغولية وبالقرب من القصر الإمبراطوري، منزلا نصب فوقه صليب، يرجّح أن يكون كنيسة صغيرة، بها مجموعة من الإيقونات الثمينة، ولقي راهب أرميني نصحه بإبلاغ الخاقان بأنّ اعتناقه للمسيحيّة يجعل كلّ العالم خاضعا لسلطانه، وأنّ الفرنج والبابا نفسه سيكونون تابعين له، فردّ وليم أنّ سعادته في اعتناقه المسيحيّة وأنّها مهمّته التي وكّل بها، ويعد بأنّ يكون البابا والفرنج أصدقاءه وإخوته في الدين ولكنه من غير الممكن أن يكونوا له أفصالا أو تابعين يقدمون له الجزية مثل بقيّة الشعوب(3).

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., Article XXIX, pp. 42-44, 177-179, 203.
ولو صحّت رواية روبروك هذه، فإنّ بلاط المغول بهذا الشكل يكون قد صار على خُطى المسيحيّة، وإلاّ فإنّها مُجرّد دعاية.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.192, 197 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., pp. 523-524.

(3) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.159-160; William Rubruck, The Journey, pp.150-151.

وممّا تناول وليم في تقريره، تفصيلا لأوضاع المسيحيين في عاصمة المغول والمناظرات بين ممثلي الأديان المختلفة تحت إشراف الخاقان(1)، بصورة توحي بأنّ المغول لم يكونوا متعصّبين لديانة بعينها.

والمهم أنّ منكوخان سمح للرهبان بالبقاء في عاصمته عدّة شهور، فمكث روبروك خمسة أشهر في البلاط المغولي، لاحظ فيها احتراما واضحا تجاه المسيحيّين علاوة على ترؤُّسه ومشاركته بنفسه في مناظرة، في البلاط، بين علماء النصارى والمسلمين والبوذيّين، وكان ذلك يوم 30 مايو 1254م، حيث دار فيها جدالا محموما حول مسائل في الألوهيّة ومنبع الشرّ(2)، هذا وكان جُلّ اهتمام روبروك في قراقورم منصَبًا في تقصي أحوال المسيحيّين الفرنسيّين والمجريّين والإنجليز، وكذا التيّار الجيورجي والأرميني والروسي والإغريقي، المحُرومين تمامًا من شعائرهم الدينيّة، ثمّ صبّ جامّ غضبه على النساطرة الذين منعوهم من التعميد في كنائسهم النسطوريّة(3). وأخيرا أرسل الخاقان في يوم 30 مايو 1254م يخبرهم أنّهم قضوا عدّة شهور في بلاده وعليهم الرجوع إلى بلادهم وسألهم عمّا إذا كانوا يرغبون في اصطحاب سفراء للمغول معهم إلى أوربا، ولكن الرهبان أجابوه بالنفي المهذّب بدعوى عدم ضمان سلامتهم(4).

ويهمنا هنا أن نذكر أنّ الخطاب الذي أرسله الخاقان إلى الملك الفرنسي لويس التاسع، مع وليم روبروك، وأورده الأخير كاملا في تقريره، لا يختلف في لهجته المتعاليّة عن خطابات كيوك خان وزوجته للبابويّة ولويس التاسع قبل ذلك بعدّة أعوام، فيبدأ الخاقان المغولي رسالته بقوله "هذا مرسوم الرب الخالد، يوجد في السماء رب واحد خالد، ويوجد في الأرض سيّد واحد هو جنكيز خان ابن الرب"، ويمضي الخاقان قائلا أنّ العالم سيكون في سلام وأمان في حالة واحدة فقط هي خضوعه من مطلع شروق الشمس إلى موضع غروبها تحت إمرة الخاقان

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.205-212; William Rubruck, The Journey, pp.191-194.

(2) أنظر: d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 305; Grousset (R.), Histoire des croisades. , p.524.

(3) هذا ما يدلُّ على شدّة التنافس بين مختلف الديانات و الشعائر في بلاط المغول في قراقورم.
أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p.37, 194; Richard(J), Les missions., op.cit., p. 180.

(4) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.165-166, 208, 214; William Rubruck, The Journey, p.190.

المغولي "سيّد العالم" وأنّه على الملك الفرنسي أن يسرع بتقديم الطاعة والولاء وإرسال الرسل والجزية، وحذّر مانكوخان لويس التاسع من الاعتقاد بأنّ بلاده بعيدة وأنّ جباله مانعة وأنّ بحاره واسعة، لأنه لن يفلت من قبضة المغول(1).

ولهذا السبب فإنّ وليم روبروك ينصح ملك فرنسا بعدم إرسال رهبان إلى التتار، ولكن من الأفضل، على حدّ قوله، إرسال أسقفًا بصحبة عدة مترجمين أكفّاء للرد، فقط، على حماقات التتار وبذاءاتهم التي أرسلوها إلى البابا وإلى الملك الفرنسي عدّة مرّات(2).

وهكذا فشلت أيضًا بعثة وليم روبروك في جذب قادة المغول إلى اعتناق المسيحيّة أو حتّى البقاء بين المغول للتبشير بهذه الديانة، أو في تحقيق أيّ درجة من درجات التقترب بين الغرب الأوربي من ناحية وبين المغول، السادة الجدد للعالم كما كانوا يعتقدون، من ناحية أخرى.

علم روبروك في قراقورم أنّ منكوخان كان يعتبر القوى الإسلاميّة أهم أعدائه، وبالرغم من حضور سفراء كل من الخليفة العبّاسي وسلطان الهند والسلطان السلجوقي في قونيا، إلاّ أنّ الخان العظيم كان يهيّئُ أخاه هولاكوخان لإرساله إلى إيران والعراق لتدمير قوّة الحشّاشين الإسماعيليّة، وقوّة الخليفة العبّاسي(3).

لم يشر منكوخان في رسالته التي سلّمها إلى روبروك ليحملها إلى لويس التاسع، لأيّ تحالف ضدّ عدوّهم المشترك، المتمثّل في مسلمي بغداد وسورية، لأنّ روبروك كان قد التزم بجمع المعلومات والتّبشير بالمسيحيّة، فقط، ورفض طرح المشاكل السياسيّة حسب ما أشار إليه

---

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.224-225; William Rubruck, The Journey, pp.202-204; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, pp. 306-309.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp.245-246; William Rubruck, The Journey, p.220.
كان عدد الردود المغوليّة على الرسائل الأوربيّة ثلاثا، فكانت المرّة الأولى من طرف كيوك إلى البابا إينوسنت الرابع عن طريق دل كربين، والثانية من طرف الجهيداي إلى لويس التاسع بواسطة داوود، والثالثة من طرف مانكو خان إلى لويس التاسع بواسطة روبروك.
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 246 note 10.

(3) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p.221; Grousset(R.), Histoire des croisades., p. 524.
ويذكر روبروك أنّ للخان منكو، ثمانية إخوة، وأنّه أرسل أحد أشقّائه الثلاثة، فدخل بلاد فارس، وأمر الآخر بالتوجُّه إلى بلاد الإسماعيليّة لقتلهم جميعًا، وأنّ أغلب الظنّ أنّه سيدخل بلاد سلاجقة الروم، ومنها يهجم على بغداد Baldach (Baghdad)وعلى فاتاتزاس (Vatatzés) Vastace (إمبراطور نيقيا Nicée يوحنّا الثالث Jean III)، وأرسل آخرًا إلى بلاد الصين Catay ضدّ الذين لم يخضعوا له بعد.
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., Article XXXII, pp. 201-202.
و الشاهد أنّ الذي دخل بلاد فارس ثُمّ أرسله منكو إلى بلاد الإسماعيليّة هو هولاكو، ولم تكن مُهمّته تدمير تلك الطائفة فحسب، لكن القضاء على خليفة بغداد، وغزو بلاد الشام، أمّا الاسماعيليّة فقد هُزمت سنة( 654هـ/1256م)، وسقطت بغداد يوم 10 فبراير (656هـ/ 1258م)، و أمّا الذي أُرسل إلى الصين فهو "قوبلاي" Qoubilaï، الذي استكمل غزو الصين سنة(678هـ/1279م).
أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 201 note 6, 202 note7 et note8 ; Grousset(R.), l'Empire des Steppes., pp. 350-355, 426-430 .

المؤرّخ المستشرق جروسي(1)، إلاّ أنّه اعترف بحسن نيّته رغم رفضه لبقاء روبروك في منغوليا للتبشير بالمسيحيّة ومؤازرة السُّجناء الألمان، وقد كان أندرو أف لونجمو قد علم بوجود هؤلاء السجناء الألمان العبيد لدى الأمير المغولي بوري Buri في منغوليا، والذين نُقلوا بعد موت سيّدهم إلى الشرق لاستخراج الذهب وصناعة السلاح، ثمّ إنّ روبروك كان ينتظر قدوم ملك أرمينيا الصغرى هيثوم الأوّل للقائه في قراقورم، لكنّ هذا الأخير كان قد وصل منغوليا، متأخّرا، شهرين بعد مغادرة أوندرو لها، حسب المؤرخ بيليوت Pelliot، كما أنّه كان قد سمع باحتمال قدوم راهب من منطقة منجميّة محاذية لجبال تالكي Talki في منطقة "بولاة" (Bolod بالمغوليّة) Bolac ou Bolat، جنوب بُحيرة سيرامنور Sairam-nor بمنغوليا، والتي كان يعمل بها عدداً من هؤلاء الأسرى المسيحيّين، فكان روبروك يرتقبه، إلاّ أنّ أخباره انقطعت كذالك، وكان ذلك كلّه من بين أسبب بقائه في قراقورم خمسة أشهر، أي من شهر جانفي إلى ماي، وبعدها لم يأذن له منكوخان بالمكوث إلاّ شهرين، وعلى هذا يكون خروج روبروك من بلاط منكوخان يوم 8 جويليا 1254م، حسب بيليوت أيضا(2)، والحقيقة أنّ روبروك لايُبرَّءُ من محاولته فرض التحالف مع المغول ضدّ المسلمين بطرائقه الملتوية تلك، ذلك أنّ محاولته البقاء في قراقورم إلى جانب منكوخان للتبشير بالنصرانيّة، ومناظراته لعلماء المسلمين، ما هي إلاّ نوع من الاستدراج إلى مواقع الحرب الصليبيّة، فلا يُعقلُ أن يغفل ذلك المحارب المحنّك والمرسول من طرف ملك فرنسا الصليبي عن إغاثة إخوانه وملكه المتعثّر في بلاد الشّام، والبابويّة التي ما يئست في مسعاها لذلك، وأطماع الصليبيّة العالميّة في خيرات الشرق الاسلامي خاصّة.

ومع أنّ منكوخان استقبل سفير لويس التاسع باحترام، وأكرم وفادته، وسمح له مناظرة العلماء البوذيّين والمسلمين في حريّة تامّة، إلاّ أنّه لم يسلّمهُ جواباً مقنعًا في مسألة التّحالف، بل طالب لويس وملوك أوربّا بالخضوع له، ففي رسالته إلى لويس التاسع يوضّح منكوخان أنّه لا تحالف بين المغول والفرنجة حتى يُقرّ الملك بتباعيّته للخان(3)، ذلك وواقع الأمر الواضح، أنّ

---

(1) أنظر : Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 525.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk,, op.cit., Article XXXIII, p. 204 ; Richard (j.), Sur les pas., p.58 note 20 ; Guillaume de Rubruk, op.cit., p.140 note 5, p. 227 note 1 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p. 87.

(3) حافظ حمدي: الدولة الخوارزميّة والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م، ص 248.

وانظر أيضا : Richard (j), Sur les pas., p.59, note 23.

سياسة منكوخان، ومن قبله، كانت تفرض على أصدقاء الإمبراطوريّة المغوليّة أن يكونوا أتباعًا خاضعين له، أمّا أعداؤه فينبغي استئصالهم أو إخضاعهم، وكل ما استطاع روبروك هو أن حصل على وعد بمساعدة كبيرة على شرط تقديم أوربّا فروض الطاعة والولاء لسيّد العالم.

ومهما يكن من أمر، فقد غادر روبروك مخيم الخان مانكو المؤقة يوم 8 جويليا 1245م متجها إلى العاصمة قراقورم، ليغادرها يوم 10 جويليا 1254م عائدً من حيث أتى، بعد أن أدرك، كما أدرك غيرُه من السفراء من قبله، أنّ ملوك الشرق لا يفهمون تقاليد السياسة الغربيّة أو مبادئها(1)، حاملاً معه رسالة منكو خان إلى لويس التاسع، والتي كانت تتوافق في مضمونها مع الرسائل التي أرسلها كيوك وزوجته للبابويّة ولويس التاسع من قبل، ليصل إلى باطو في روسيا يوم 16 سبتمبر1254م، ثمّ قطع القوقاز ليصل إلى بايجو يوم 17 نوفمبر 1254م، وبعدها دخل أرمينيا الكبرى، فالتقى في مدينة "آني" بخمسة دومينيكانيّين، أربعة منهم قدموا من فرنسة بينما التحق بهم الخامس حين مرُوا بسوريا، وكانوا يحملون رسائل من طرف البابا إلى "سرتق" و"منكوخان" والأمير المغولي "بوري"Büri، مُماثلة لرسالة روبروك من قبل الملك لويس التاسع، وكان مضمونها طلب السماح بالمكوث في بلاد المغول والتبشير بالمسيحيّة وغير ذالك، والحقيقة أنّ هؤلاء الدومينيكان كانوا مهتمّين أكثر بمصير الأسرى الألمان الذين أعلن عنهم لونجمو، ومن أجل ذلك كانت تلك الرسالة البابويّة الثالثة. ولمّا سمعوا من روبروك قصّته مع المغول توجّهوا إلى مدينة "تفليس" لمشاورة إخوانهم في الموضوع، ثُمّ انقطعت أخبارهم، أمّا "بوري"، فقد سبق أن قتله "باتو" بداية سنة 1252م ولذلك يستحيل أن تكون هذه السفارة قد اتصلت به، ثمّ واصل أوندرو طريقه إلى الأناضول وقبرص وأنطاكية ثمّ وصل طرابلس الشرق يوم 15أوت 1255م (2)، حتّى انتهى به المطاف إلى مدينة عكّا، بَيدَ أنّ لويس التاسع كان قد غادر سورية انطلاقًا من عكّا يوم 25 أفريل1254م عائدًا إلى فرنسا على إثر وفاة

(1) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 75, 227, 227 note 1; William of Rubruck, The journey, pp. 205- 206; Grousset(R.), Histoire des croisades., p. 525 ; Richard(J), Les missions., p. 180.

و انظر أيضًا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص511.

(2) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 240-241, 243, et notes 16, 17 ; William of Rubruck, The journey, p. 218 ; Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1931, pp. 78-82.

أمّا المؤرخان Kappler (C. et R.)، فيريان أنّ رجوع روبروك إلى معسكر باطو كان يوم 15سبتمبر1254م، أي سنة كاملة، يومٌ بيوم، من مُغادرته له. ويذكُران نقلاً عن بيليوت( Pelliot, Notes sur l’Histoire de la Horde d’Or, Paris, Adrien- Maisonneuve, 1949, œuvres postumes, T. II, p. 2)، أنّه رُبّما غادر منكوخان يوم 08 جويليا 1254م)، وقوراقورم يوميْن من بعد على الأقلّ، وعلى هذا يكُون سفره من قوراقورم إلى الفولجا قد استغرق =

والدته بلانش Blanche، فأرسل إليه روبروك تقريره مُرفقًا برسالة الخان منكو(1)، وبالطبع رفض ملك فرنسا أن يتحالف مع المغول على أساس شروط منكوخان، ومن ثم فشلت المفاوضات الأولى بين المغول وصليبيي غرب أوربا، غير أنّ الأنباء التي حملها روبروك عن استعداد المغول لاجتياح العراق وإسقاط الخلافة العبّاسيّة جاءت مُشجّعة للصليبيّين الذين رأوا في ذلك فُرصة للانتقام من المسلمين واسترداد بيت المقدس، وعلى الرغم من أنّ مشروع الهجوم على الخلافة العباسية في بغداد لم يُنفذ إلاّ في عام 656هـ/1258م، غير أنّه أظهر المغول في صورة الحُلفاء الطبيعيّين للصليبيّين ضدّ عدو مشترك واحد متمثّل في الخلافة الإسلاميّة ومن والاها(2).

إنّ تحالفًا من هذا النوع في سنة 1251م، يعني تغيُّرًا جوهريًا في سياسة المغول، والحقيقة أنّ المغول كانوا متخوّفين من هجوم لويس التاسع على سلطان الترك أي سلاجقة الروم، وحلب، والخليفة العبّاسي، الذين كانوا ضمن الخطط المغوليّة، لذا قرّر الجيجيداي الاتصال بالملك الفرنسي لمعرفة نواياه، دون التحالف معه، وأخيرًا لم تكن للمغول في تلك الآونة سياسة موافقة للاّتين ولا للكاثوليك(3)، ولم يكن بمقدور سرتق أو باطو اتخاذ قرارا يتجاوز صلاحياتهما، بإمكانه تغيير السياسة المغوليّة.

وبعد رجوع روبروك من سفارته كتب مذكّراته لفائدة ملك فرنسة وسمّاها : Itenerarium ad Partes Orientales، احتوت في آخرها على معلومات استخباراتيّة حول أوضاع المسلمين وحروبهم فيما بينهم، خاصّة في بلاد الترك السلاجقة، ونصائح لإرسال المبشّرين إلى بلاد المغول، وكذا تفاصيل عن الطريق المفترض سلوكه في حالة ما تهيّأت ظروف حملة صليبيّة على القدس، وهكذا وصلت بعثات البابا وملك فرنسا إلى طريق مسدود لا

---

= شهرين وخمسة أيّام(من 10 جويليا إلى 15سبتمبر)، بينما يذكر روبروك مُدّة شهرين وعشرة أيّام. والحقيقة أنّ هؤلاء المؤرّخين اختلفوا وتناقضوا حتّى مع أنفسهم في بعض هذه التواريخ، فعلى سبيل المثال، يذكر Richard(J), la papauté. , p.78.، أنّ روبروك غادر بلاط سرتق في أواخر جويليا 1254م راجعًا من سفارته ، بينما يذكر في Richard(J), Les missions. , p. 180. مثل ما ذكر جروسي (histoire des croisades, p. 525.)، أنّه غادر قراقورم في 18 أوت 1254م، وإن دلّ ذلك على شيء فرُبّما يكون الخطأ في حساباتهم التي هي غالبًا ما تكون تقديريّة، خاصّة وأنّ روبروك نفسه يذكر أنّه أثناء رجوعه التقى بسرتق متّجهًا إلى منكوخان أواخر شهر أوت 1254م، فلاحظ التناقض.

أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 227, 228, 229 et p. 227 note 1.

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 309; Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 525.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 134-234.

(3) أنظر : Richard (j), Sur les pas., p.59, note 23.

مسلك له، رُغم كلّ تلك الجهود المضنية، وتبيّن فشل مشروع التحالف المغولي المسيحي الذي أُجهض في رحمه لضعف الرُأية الصحيحة من كلا الطرفين، ولو كُتب لذلك التخالُف أن يتحقّق لكانت النتائج وخيمة على الطرف الإسلامي، وعلى أثر هذا الإخفاق رُدّ عددًا من الرّهبان على أعقابهم، كانوا قد تسلّموا من الملك لويس رسائل للتبشير في أرض المغول، ورُغم ذلك الفشل، إلاّ أنّ الغرب المسيحي تمكّن بفضل تلك الإرساليّات اكتشاف جالية مسيحيّة في آسيا الوسطى وفي عُقر دار المغول، لم تكن في حُسبانها، ستكون بعد وقت وجيز هي الحربة التي تدُكُّ قلب الأُمة المسلمة(1).

**4 - تعقيب على الاتصالات السياسيّة بين المغول والغرب الأوربّي :**

قد يبدو الحديث عن السفارات المتبادلة بين المغول والنصارى في الغرب الأوربّي، لأوّل وهلة، مُنعشًا لآمال الغربيّين لاستقطاب المغول من الناحيتين السياسيّة والدينيّة، والتحالُف معهم لضرب المسلمين في الشرق الأدنى، وهو الهدف الأسمى، فأخيرًا اهتدى الأوربيُّون إلى عدو جديد للإسلام والمسلمين غريب كليًا عن الديانات السماويّة الثلاث، "وكان المبعوثون الدومينيكان والفرنسيسكان متأثّرون جدًا بما شاهدوه في المجتمع المغولي، وبدوا قادرين على وصف ذلك الشعب الغريب بموضوعيّة، غير أنّ هذا السعي الجديد إلى الاتصال بالغير إنّما نشأ في الحقيقة عن الضرورات الماسة للحرب الصليبيّة على الإسلام، ففي زمن الحملة الصليبيّة السابعة، كان المغول يقتربون شيئًا فشيئًا من الأقاليم الإسلامية في غربي آسيا، وكان المسلمون قد شاهدوا وعانوا مما فعله الأتراك الخوارزميُّون، أثناء فرارهم أمام المغول، وباقتراب المغول من الشرق وصليبيّي لويس التاسع من الغرب، شعر المسلمون بأنّهم وقعوا بين فكّي الكمّاشة، وكانت مبادرة لويس التاسع التبشيريّة جُزءًا من حربه الشعواء على الإسلام، ومن شدّة ابتهاج لويس التاسع والبابا باستنباط طريقة للتخلُّص من الإسلام، فَاتهما الإدراك بأنّ المغول أشدّ خطرًا على العالم النصراني مما كان المسلمين في أيّ وقت مضى، وقد كان جُنون الارتياب الغربي من التجذُّر العميق في النفوس بحيث أنّ اكتشاف وجود عرق أشدّ شراسة وضراوة من المسلمين الشرقيّين، لم يُبدّل شيئًا من تخيُّلات الغرب حول الإسلام التي يبدو أنّ الأوربيّين كانوا بحاجة إليها كثقل عاطفي موازن لنظرتهم هم إلى أنفسهم"(2).

(1) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., pp. 244-246; Richard (j), Sur les pas., p.60, note 25.

(2) أرمسترونغ، كارين : الحرب المقدّسة (الحملات الصليبيّة و أثرُها على العالم اليوم)، تعريب سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م، ص 521.

### III- بعثات مملكة أرمينية الصغرى إلى المغول ومشروع التحالف :

تعتبر مملكة أرمينيا الصغرى من أهم الإمارات الصليبيّة التي نسجت أقوى عُرى الموالات للمغول بفضل ملكها هيثوم الأوّل Hethoum I (1226-1269م)، وهوأحد أبناء قسطنطين Constantin من عائلة الروبينيان Les Roupeniens، وقد وصل إلى عرش أرمينيا الصغرى بالزواج من زابيل Zabel (أو إيزابيل Isabel) بنت الملك الأرميني السابق ليون الثاني Leon II الذي لم يكن له ذريّة غيرها، فكان تتويجه ملكً سنة 1224م ثمّ اعتزل لصالح ابنه ليون الثالث Leon III سنة 1269م ليصبح راهبًا تحت اسم مكار Makar، وقد تحالف هيثوم الأوّل مع كثير من أُمراء الفرنج بمُصاهرتهم، إذ تزوّجت أختهُ ستيفاني من هنري الأوّل ملك قبرص، وتزوّجت أُخته ماريا من يُوحنّا أبلين كونت يافا، كما أنّ بناته تزوّجن من أُمراء من اللاّتين، فزُوّجت سبيل لبوهيموند السادس أمير أنطاكية، بينما كانت إيفيميا ليوليان كونت صيدا، وماريا لجاي أبلين ابن بلدوين صنجيل قبرص، أمّا ريتا فزُوّجت لأرمني كان يتولّي أمر حصن سارونتيكار، ويبدو أنّ سلاجقة قونيا، وفي خضم توسّعاتهم، قد تمكّنوا من الاستيلاء على مناطق شاسعة من الجهة الغربيّة لمملكة أرمينيا الصغرى، فبدأ هيثوم الأوّل ملك أرمينيا الصغرى في استرجاعها منهم تدريجيا، ولكنّ سلاطين المماليك ظهروا كأقوى الخصوم لأرمينيا الجديدة بعد انتصاراتهم على الصليبيّين(1). أمّا المغول فكانوا يظهرون عداء كبيرا للمسلمين أكثر من عدائهم للمسيحيّين(2).

وحينما لمس المسيحيّون، في آسيا، سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاءهم بصفة خاصّة، حاولوا التقرّب منهم واجتذابهم إلى صفوفهم للاستحواذ على بيت المقدس، خاصّة، وبلاد الشّام، عامّة، من أيدي المسلمين، وكانت مملكة الأرمن بقليقية تُدرك خطر الزحف المغولي، إذ عاينت هزيمة الجيش السّلجوقي في أرمينيا سنة 1243م، هذا الجيش الذي كان بقيادة السلطان غيّاث الدين كيخسرو، وكانت عساكره تظمّ اليونانيّين والفرنج والكرج والأرمن

---

(1) أنظر : Guiragos de Kantzag, Histoire d'Arménie, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, octobre 1833, T.XII, p.273, note 1 ; Sirarpie(Der Nersessian), The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton (Kenneth M.), A History., 1969, T. II, p. 652 note 37 ; Pasdermadjian (H.), Histoire d'Armenie des origines jusqu'au traité de Lausanne, Paris, 1964 (Deuxiéme Edition revue), p. 214.

و انظر أيضًا : السيّد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت 1981م، ص 198 هامش 1.

(2) أنظر : Alem (Jean-Pierre), L'Armenie, ed. Que Sais-je, numéro 851, Paris, 1959, p. 34.

والعرب، فالتقى الجيشان بنواحي أرزنكان، وهي بلدة من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم وخَلاط قريبا من أرزن الروم، بموضع يسمّى كوساذاع(1)، ولهذا سعى الملك هيثوم الأوّل إلى كسب ودّ المغول، فأرسل إلى القائد المغولي باطو كتابا يفيض بالولاء والاحترام سنة 1244م (2).

وإذا كان نصارى غرب أوربا وملوكهم يرفضون التعاون مع منكوخان على أساس التبعية فهناك من الملوك الآخرين من يقبل بذلك، ويعتبره نوعا من الواقع. لقد فكر هيثوم ملك في التحالف مع المغول على أساس التبعية كما يُريد منكوخان، وكان يعلم جيّدا قوة المغول، لأنّ بلاده قد دُمرت من قبل على أيديهم في عهد جنكيزخان ثم في عهد أوكتاي. كما هو متيقّن أن دولته ضعيفة لا ترقى إلى مستوى دولة المغول، ويعلم أيضا أنه محصور بين قوات المغول من جهة، وقوات المسلمين من جهة أخرى، وكان العداء قديما جدا بينه وبين المسلمين، وهو يتحرق شوقا لغزو بلاد الإسلام وإسقاط الخلافة العباسية، وإن لم يقبل الآن بالتبعية للمغول فسيُرغم عليها غدا، وساعتها سيفقد ملكه بلا ثمن، وكل هذا دفع هيثوم للاتصال بالمغول ثم ذهب بنفسه لمقابلة منكوخان في قراقورم عاصمة المغول(3).

**1 - أولى بعثات هيثوم الأوّل إلى المغول :**

لاحظ هيثوم الأوّل أنّ المغول تغلّبوا على سلطان سلاجقة الروم، وأنّهم يقتربون نحوه شيئًا فشيئًا، فقرّر الخضوع لإرادتهم وقوّتهم، وأرسل إليهم في بداية ربيع عام 1244م سفراء محمّلين بالهدايا، فلمّا وصل رسل هيثوم الأوّل إلى الأمير الأرمينيا، جلال، في حصن خاتشين ببلاد أرتساخ Artsakh(*)،قدّمهم هذا الأخير إلى بايجو نويان Batchou noyan(4) وإلى إياثينا

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 150 ؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (1418هـ/1997م)، ص 220.

وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 206; Deguigne, Histoire générale des Turcs, des Mongols, et des autresTartares occidentaux, Paris, 1756-1758, T.II, p.246.

(2) رنسيمان (ستيفن): المرجع السابق، ج3، ص507-508.

(3) أظر : Pasdermadjian(H.), op.cit., p. 214 ; Alem (Jean-Pierre), op.cit., p. 34.

(*) أرتساخ Artsakh هي البلاد التي يُسمّيها المسلمون حاليًا بالكرباخ Karabakh ، أو البستان الأسود jardin noir ، وهو الاسم الذي يُناسب الجهة الجبليّة لهذه البلاد شمال الأراكس L'Araxes، أمّا خاتشين Khatchen فهي حصن مبني وسط هذه الجبال.

أنظر : Tchamtchen, Histoire Arménienne, Traduction Dulaurier, dans J.A., T.XII, Paris, septembre 1833, p. 206.

(4) باجو Batchou أو بايجو نويان Batchou noyan من قبيلة ييسوت Yisout،وهو قائد لعشرة آلاف رجل، أُرسل إلى بلاد الفرس مع تشارمقان Tcharmaghan، و بعد موته خلفه هذا الأخير.

أنظر : Tchamtchen, op.cit., p.205, note 1.

Ailthina أو Elthina زوجة تشارمقان Tcharmaghan، وإلى القوّاد الآخرين، فطلب المغول من الرسل، آمرين إيّاهم، أن يُسلّموا أوّلاً أم وزوجة وبنت سلطان قونيا(*)، قبل أيّ تفاوض، فرجع هؤلاء الرسل بهذه الرسالة مصحوبين بسفراء مغول(1).

ولمّا علم هيثوم الأوّل بالخبر حزن كثيرًا، واضطرّ إلى تنفيذ الأمر، فسلّم الطلب مصحوبة بهدايا كثيرة للبعثة المغوليّة والأمير المغولي، وأردفها بسفارة أخرى استقبلها بايجو نويان بحفاوة ثمّ أبرم التحالف مع هيثوم الأوّل، وسلّم وثيقة العهد إلى البعثة التي قضت عنده فترة الشتاء ثمّ أرسلها في الربيع الثاني إلى هيثوم(2).

**2 - <u>بعثة سمباد Sembad من طرف هيثوم الأوّل إلى المغول</u> :**

تفطّن هيثوم الأوّل ملك أرمينيا لما غفل عنه روبروك، وعلم أهميّة التدخُّل المغولي في الصراع بين المسلمين والمسيحيّين، فقبل بالدخول في ولاء المغول وطاعتهم للظفر بحمايتهم، وهمّ بالسفر بنفسه إليهم، ولكنّ أهل الرأي من حاشيته نصحوه بالتريُّث، فقرّر في أواخر سنة 1247م إرسال أخاه سمباد إلى منغوليا حاملاً معه الهدايا الثمينة إلى الخان كيوك في العاصمة المغولية قراقورم(3)، لحضور القوريلتاي(**) الذي قرّر انتخاب كيوك خانًا عظيمًا للمغول، والتي حضرها فعلا(4).

---

(*) Roum أو Rum (Sultanat de Qoniya ou Iconium ) في الأناضول السلجوقي.

أنظر : Grousset(R.), Histoire des croisades., pp. 518-519.

(1) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 206.

(2) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 207.

(3) أنظر : Guiragos de Kantzag, l'Histoire D'Arménie, traduction Dulaurier, dans J. A., Paris, (Avril-Mais) 1858, p.463 et Idem, octobre 1833, p. 273 ; Sĕmpad le Connétable, Chronique du royaume de la petite Arménie, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 651 ; Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835 ; Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, T. I, pp. 395-396 ; Grekov(B.) et Iakoubovski(A.), la Horde D'Or : la domination tatare au XIII[e] et au XIV[e] siécles de la mer jaune à la mer noire, traduit du russe par François thuret, Payot, Paris, 1939, p. 131; Grousset(R.), Histoire des croisades., pp. 526-527; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 207, 311 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.88; Sirarpie(Der Nersessian), op. cit., p. 652.

(**) القورلتاي : في الاصطلاح المغولي عبارة عن مجلس عظيم حافل يضمّ جميع الأمراء وأركان الدولة، وينعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة إمبراطورًا أعظم على جميع المغول.
أنظر: رشيد الدين الهمذاني: المصدر السابق، ج1، ص234، حاشية1.

(4) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ص 508.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.88.

استُقبل سمباد في قراقورم بحفاوة، وناقش كل القضايا التي أُرسل من أجلها(1)، ولمّا علم الخان منه استعداد هيثوم ليكون تابعًا له، وعد بمساعدة الأرمن لاسترداد ما انتزعه السلاجقة المسلمون من مدُن(2)، وسلّمه وثيقة إلى الملك هيثوم تضمن له الحماية والصداقة(3).

لقد ترك لنا سمباد معلومات هامّة حول هدف زيارته للخان المغولي من خلال الرسالة التي بعثها، في العام الموالي، من سمرقند، وهو في طريقه إلى قراقورم(*)، إلى صهره هنري الأوّل Henri I ملك قبرص، زوج أخته ستيفاني Stephanie، وهو في طريقه إلى قراقورم، وهي مؤرّخة في عام 1243م (والمفروض أن تكون في 1248م)، يُبيّن له فيها أهميّة الجالية النسطوريّة في بلاط إمبراطورية المغول، فورد في رسالته العبارة التالية: " لقد وجدنا الكثير من المسيحيّين في بلاد الشرق، والكثير من الكنائس العالية والجميلة... جاء مسيحيّي الشرق إلى الخان كيوك (1247-1249م) فاستقبلهم بحفاوة، وأعطاهم الأمان، ثُمّ أمر أن لا يُؤذى المسيحيّون أينما كانوا، سواء بالقول أو الفعل..."(4).

مكث سمباد أربعة سنوات في منغوليا(5)، ثمّ رجع إلى أرمينيا حاملا تقاليد من الخان الكبير يكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها، غير أنّ موت كيوك خان أوقف كل إجراء مباشر(6)،

---

(1) أنظر : Hayton, La Flor des Estoires., chapitre XVI, pp. 163-164; Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

(2) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ص 508.
وانظر أيضا : Sirarpie(Der Nersessian), op. cit., p. 652.

(3) أنظر : Grousset(R), Histoire des croisades., pp. 526-527.

(*) صرّح سمباد في حولياته أنّ أخاه أرسله إلى ملاقاة الخان كيوك بداية من سنة 1248م، وعلى هذا فلا بدّ للرسالة التي بعثها إلى صهره هنري الأول أن تكون مؤرّخة في 7 فبراير سنة 1248م، وليس سنة 1243م كما هو في حوليات مؤرخي الغال وفرنسا Receil des historiens des Gaules et de la France.
أنظر : Sĕmpad le Connétable, Chronique du royaume., T. I, p. 651, 651 note1; Receil des historiens des Gaules et de la France, T. XX, pp. 360-363.

(4) أنظر : Guillaume de Nangis, vie de saint Louis, T. XX, pp. 360 et suivant ; Sĕmpad Le Connétable, Chronique., T.I, Note preliminaries, p. 606 ; Receil des historiens des Gaules et de la France, T. XX, pp. 360-363 ; Richard (j), La papauté., p. 76 ; Grousset(R), Histoire des croisades., pp. 526-527.

(5) أنظر : Hayton, La Flor des Estoires., chapitre XVI, pp. 163-164; Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.
أمّا المؤرّخ "جروسي" فيُؤكّد أنّ سفر سمباد كان من (645هـ/1247م) إلى(648هـ/1250م).
أنظر: Grousset(R), Histoire des croisades., p. 527, note 1.

(6) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ص 508.

وفي طريق رجوعه اتصل سمباد بالقائد المغولي بايجو نويان Batchou noyan وسلّمه أمر الخان كيوك، فلم يكن في وسعه إلاّ تلبية رغبته ثمّ أرسله مكرّمًا(1).

وبعد وفاة كيوك خان خلفه على العرش ابنه منكو خان، الذي توثّقت علاقته بسمباد بعد أن أهداه هذا الأخير جوهرة ثمينة، وعلى إثرها صار سمباد من المقرّبين لدى الخان العظيم، ثمّ قفل سمباد راجعا من البلاط المغولي سنة 1251م(**)، برسالة ليُقدّمها إلى بايجو نويان من أجل تسليم مناطق في بلاد سيوني لسمباد(2). وقد تمكّن الأرمن في شخص سمباد في صقل علاقة طيّبة ومتينة مع المغول تؤكّدها رواية المؤرّخ الأرميني أوربيليان Orbelian مفادها أنّه حدث أن أمر أرغون Araghoun، نائب منكوخان على بلاد فارس، عُماله عام 1254م بالقيام بجرد كلّ أراضي البلاد التي يحكمها، وقد طلب منه فانتهز أمراء بلاد جورجيا الفرصة وطلبوا من أولائك العمال الموافقة على قتل سمباد معللين ذلك بنهبه لبعض الأراضي، إلاّ أنّ طلبهم قوبل بالرفض، ورغم ذلك تمكّنوا على الاستيلاء على مجموعة من القُري التابعة لسمباد، وتخريب الباقي، مما جعل هذا الأخير يقدُم سنة 1256م على صديقه الحان منكو ليعرض شكواه، فوجد هناك القائد أرغون مصفّدا في الأغلال ومهدّدا بالإعدام، لتآمر بعض نوابه عليه، فاستطاع سمباد ان يشفع له، مما جعل العلاقة تتوطّد أكثر بينهما(3). وهكذا يبدو من تسلسل الأحداث أنّ سمباد قد نجح إلى حد كبير في مهمّته بتليين الجانب المغولي تجاه أرمينيا الصغرى، وتمتين الثقة بين الطرفين بتأكيد الولاء المطلق ودون شرط لتلك القوّة العالميّة الجديدة.

**3 - قدوم الملك هيثوم الأوّل بنفسه على المغول :**

لمّا علم الملك الأرميني هيثوم الأوّل أنّ المغول اقتربوا جدًا من بلاده، وسمع من أخيه سمباد ما جرى من أحداث في بلاد المغول(4)، قرّر سنة 1252م إبرام اتّفاق مع الخان الجديد،

---

(1) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p.208.

(**) يذكر المؤرخ سيرار بي Sirarpie(Der Nersessian) سنة 1250م عوض 1251م.

أنظر : Sirarpie(Der Nersessian), The Kingdom., p. 652.

(2) أنظر : Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik), Histoire des Orpélians, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, chapitre VII, T. II, pp. 129-139 ; Tchamtchen, op.cit., p. 212.

(3) أنظر : Orbêlian, op.cit., chapitre VIII, T. II, pp.141-145, 283 note 5.

(4) أنظر : Hayton, La Flor des Estoires., chapitre XVI, pp. 163-164 ; Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

وأرسل إلى باطو، أمير شمال أرمينيا، رسالة كُلّف بحملها كاهنا اسمه باسيل Basil، يُبيّنُ له فيها استعداده لإقامة علاقات طيّبة مبنيّة على حُسن الجوار والتفاهم، فوافقه على ذلك وطلب منه القدوم إليه، إلاّ أنّ هيثوم تردّد طويلاً قبل الامتثال لطلبه، ولمّا علم أنّ المغول وصلوا إلى أرمينيا وجورجيا، وأنّهم يضطهدون هذه البلاد، قرّر أخيرا التوجُّه إلى خان المغول في العاصمة قراقورم المغوليّة، وترك مملكته تحت إدارة أبيه قسطنطين Constantin وابنه لوفان Levan (1).

أسرع الملك هيثوم إلى قراقورم، في نفس السنة التي عاد فيها وليم روبروك، رسول لويس التاسع منها، أي سنة 1254م(*)، ليعرض ولاءه وصداقته، فخرج من قيليقيا (أو كيليكيا) سنة 702هـ/(17 كانون الثاني 1253م –أو 17 كانون الثاني 1254م) متوجها إلى الشرق برفقة عدد من الرجال، ومُتخفيًا خوفًا من غدر جيرانه الأتراك السلاجقة الذين كانوا تحت حُكم السلطان علاء الدين(2).

وبعدما اجتاز هيثوم الأوّل بلاد قونيا، قابل القائد المغولي، بايجو نويان Batchou، الذي هزم سلطان سلاجقة الترك غيّاث الدين كيخسرو سنة 1243م(3)، فعرّف بنفسه وصارحه بالذهاب لمقابلة خان المغول، فزوّده بحُرَّاس يُرافقونه(4)، ثمّ اجتاز القوقاز عن طريق دربند

---

(1) أنظر : Vahram D'Edesse, Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie, dans R.H.C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 519 ; Ttchamtchean, op. cit., pp. 212-213 ; Hayton, La Flor des Estoires., chapitre XVI, pp. 163-164 ; Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 99; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.88.

(*) يذكر المؤرخ سيراربي Sirarpie(Der Nersessian) سنة 1253م عوض 1254م.

أنظر : Sirarpie(Der Nersessian), The Kingdom., T. II, p. 652.

(2) أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274., Avril-Mais, 1858, p.464 ; Eracles, op.cit., li trentequatriesmes livres, chapitre I, p. 441; Receil des historiens des Gaules et de la France, T. XX, p. 212 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 310, 311; Howorth(Sir Henry Hayle),op, cit., Part II, Division I, p.88.

أمّا علاء الدين فهو ابن كيكباد Kaikobad سلطان أتراك سلاجقة قونيا Roum (Qoniya) أو آسيا الصغرى، وقد اعتلى العرش منذ (616هـ/1219م)إلى (634هـ/1236م).

أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274, note 2.

(3) أنظر : Hayton, Loc. Cit. ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 100 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.88 ; Grousset(R), Histoire des croisades., p.527.

(4) أنظر : Hayton, Loc. Cit.

Derbend ومرّ بالفولجا السفلى La Basse Volga أين اتصل بباطو وابنه سرتق Sartaq(1)، ثمّ اتخذ الخط الذي مرّ به روبروك قبل ذلك بشهور عبر الألتاي، ليصل إلى بلاط منكو خان قرب قراقورم(2).

قدّم هيثوم نفسه للخان منكو على أنّه تابعًا له، إذ علم بفشل بعثة وليم روبروك من قبله بسبب عثرته في القول بتهديده منكو بالعذاب الأخروي، ثمّ قدّم له الهدايا فصُرّ الخان وأقام له حفل استقبال رسمي في يوم 13 سبتمبر 1254م، ومنحه وثيقة تكفل السلامة لشخصه ومملكته، وجرت معاملته ككبير مستشاري الخان المسيحيّين في كلّ ما يتعلّق بأمور غرب آسيا، ووعده بإعفاء الكنائس والأديرة المسيحيّة من الضرائب(3)، فقد ذكر المؤرّخ كيراكوس Guiragos de Kantzag أنّ منكو خان أعطى الملك هيثوم الأوّل وثيقة مختومة بخاتمه، تأمر المغول بعدم التعرُّض للملك الأرميني وممتلكاته، كما سلّمه وثيقة أخرى تحرّر جميع الكنائس من قيود المغول(4).

وبعد بضعة أيّام قدَّم الملك هيثوم سبعة مطالب للخان هي :

1- أن يتحوّل الخان منكو وكل من معه إلى المسيحيّة، و أن يُعَمَّدَ كافّتهم،

2- أن يكون السلم الدّائم بين المغول و المسيحيّين،

---

(1) أنظر : Vartan Le Grand, Histoire universelle, traduction Dulaurier, dans J.A., (octobre-novembre) 1860, T. XVI, p. 289 ; Hayton, Loc. Cit ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 311, T.III,p. 101 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.88.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 311 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.89 ; Grousset(R), Histoire des croisades., p. 527.

ويشرح القاموس الصيني أنّ التتار هو الاسم العام لجميع برابرة الشمال (أي المغول) فاللّفظ مغول Mongol et Mogoul يُترجم تاتا أو تتار Tata ou tatar في بداية القرن الخامس عشر الميلادي تحت أسرة مينغ Dynastie Ming . ويُشير الصينيُّون إلى أنّ أمّة المغول كانت تنقسم في زمان جنكيزخان إلى أربعة فروع كبيرة، فهؤلاء المغول ينحدرون من الموهو Moho، والتايقوت Taidjigot ou Taidjot، والكريت Krait و التتار Tatar، و لكي يميّز الصينيّون بين هذا الأخير والتتار الذين قدموا في القرن الثامن الميلادي ليستقرُّوا في جبال يين شان Yin Chan، والذين أعطوا هذا الاسم لجميع المغول، فقد أعطوهم اسم تاتا Tata، وسمُّوا قبيلة التتار بلفظ آخر، ولا يختلف مؤرّخو المسلمين عن الصينيّين في ذالك، حيث اعتادوا على تسمية مغول جنكيزخان بالتتار، وشهادة أبو الفدا واضحة في هذا الشأن حينما يتحدّث عن قراقورم Karakorum ou Kara-Koum، أوّل عاصمة لخلفاء جنكيزخان : "معناه الرمل الأسود بالتركيّة، قال بن سعيد: وقراقورم كانت قاعدة التتر وفي جهاتها بلاد المغل وفي خالصة التتر ومنها خاناتهم. " وهكذا فإنّ هذا المقطع يبرهن على أنّ اسم مغول جنكيزخان كان : التتار.

أنظر: Klaproth, Rapport sur les ouvrages du Professeur Hyacinthe Bitchonrinski, Relatifs à l'Histoire des Mongols, dans J.A., Paris,juillet 1830, pp. 30-32.

(3) أنظر : Guillaume de Rubruk, op.cit., p.131 note 12 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 312 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.89.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ص 513.

(4) أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 279.

3- أن يكون الرهبان المسيحيُّون وكلّ كنائسهم الموجودة على الأراضي التي احتلّها المغول أو يستوْلونَ عليها مستقبلا، حرّة وآمنة،

4- أن يقدّم الخان للمسيحيّين العوْن اللاّزم ، لتحرير الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين، ويسلّمها للمسيحيّين،

5- أن يُصدر الخان أمره بتدمير بغداد، وقتل الخليفة العبّاسي حامي العقيدة الخاطئة التي جاء بها محمّد"،

6- أن يأمر المغول القريبين من أرمينيا، بتقديم العون اللازم للملك هيثوم متى طلب منهم ذلك،

7- أن تُردّ كلّ الأراضي الأرمينيّة التي انتزعها المغول من المسلمين، إلى الملك هيثوم الأوّل، وأن يترك المغول للملك هيثوم إدارة الأراضي التي يُمكنه انتزاعها من المسلمين(1).

وبعد ما سمع منكوخان طلبات الملك هيثوم، جمع بلاطه واستدعى ملك أرمينيا، وأمام حاشيته وأمرائه كان جوابه :

"بما أنّ ملك أرمينيا جاء إلينا بمحض إرادته من تلك الأرض البعيدة حتى مملكتنا فإنه أجدر بنا أن نحقّق كلّ رغباته"(2).

ويبدو في هذه المرحلة من السياسة المغوليّة الخارجيّة أن الخان منكو قد بدأ يتعلم طرق السياسة و الاعتماد على المظاهر واختيار الكلمات المنمقة، فقد أقام احتفالا كبيرا واستقبالا رسميا مُهيبا لهيثوم الذي قدم نفسه على أنه من رعايا منكوخان، وعامله، ظاهرا، كملك لا كتابع، وإن كانت كل بنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد وتابع، لا ملك و ملك آخر، ثم بدأ منكوخان يُعطي وعودا كبيرة و هدايا عظيمة لهذا الملك، وهو يشتري بذلك ولاءه وذمّته وتبعيته، وذلك كله لا لشيء إلا لخطط استراتيجية تتمثل أوّلا في استفادة منكوخان من ملك أرمينيا في حرب المسلمين، فقد خبُر الأرمن بلاد الإسلام وطباعهم منذ فترة طويلة، وبذلك تكون المعلومات التي يحملها الأرمن إلى المغول سيكون لها أبلغ الأثر في حرب المسلمين،

---

(1) أنظر : Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), pp. 835-836 ; Idem, op.cit.( dans R.H.C.), T. II, chapitre XVI, pp. 164-165.

(2) أنظر : Dardel(Jean), Chronique D'Arménie, dans R. H. C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. II, Chapitre XIV, pp. 11-12; Vahram D'Edesse, op.cit., p. 519; Hayton, op.cit. (traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836 ; Idem, op.cit. (dans R.H.C.), T. II, chapitre XVII, pp. 165-166.

وهو تماما ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية القوية المتحالفة مع إنجليترا وفرنسا الضعيفتين، فقط للاستفادة من خبرتهما في أراضي المسلمين، وفي أرض العراق خاصّة، وثانيا سيكون للتعاون المغولي مع الأرمن عاملا نفسيا خطيرا على المسلمين، لأن كلمة التحالف لها وقعا خاصا في نفوس الناس، وذلك ما فعلته أمريكا تماما بتحالفها مع أوربا في حرب العراق، وأخيرا فقد تُسند أخطر المهام للقوات الأرمينية في مواجهة المسلمين، و بذلك تكون الخسائر الكبرى في جانب الأرمن وليس في جانب المغول، وهكذا تكون المفاوضات بين الطرفين مُربحة تماما للمغول، وهي في الحقيقة بين سيد يملك كل شيء وبين تابع لا يملك إلا لقب باهر مثل "كبير مستشاري ملك المغول لشؤون غرب آسيا" أو "الملك الصديق" أو غيرها، وفرصة العيش إلى جوار المغول في ذل وهوان ولو إلى حين. وانظر ردّ منكوخان على طلبات هيثوم الأوّل، الترجمة الفرنسيّة في المُلحق، أمّا عن أنباء تعميد منكوخان، وانتشارها في أرمينيا وبلاد المشرق، فتبقى مجرّد إشاعات دون أساس.

ومهما يكن من أمر فإنّ جهود هيثوم الأوّل، خلال المدّة التي قضاها في قراقورم، كانت منصبّة كليّة إلى إقناع الخان للقيام بحملة مشتركة ضدّ المسلمين، وألحّ في طلبه حتى وافق الخان على الفكرة، فكلّف أخاه هولاكوخان(1256-1265م) بن تولي بن جنكيزخان بغزو بغداد(*)، كما أنّه تعهّد بإعادة بيت المقدس إلى المسيحيّين إذا ما تعاونوا فعلاً مع المغول تعاونًا كاملاً(1)، ثمّ رجع هيثوم الأوّل إلى بلاده مبتهجًا، وهو طبيعي جدا أن يُسرّ بما أحرزه من نجاح في بلاد الخان من وعود، ولكن من السذاجة بمكان الثقة العمياء بالمغول، وقد قيل إذا رأيت أنياب الليث بارزة فلا تظننّ أنّ الليث يبتسم، فللمغول سياستهم تجاه المغلوبين، إذ أنّهم وإن جعلوا للمسيحيّة منزلة متقدّمة أمام معظم الديانات الأخرى، فبالمقابل لم يقصدوا استمرار الإمارات المسيحيّة المستقلّة، وإنّما انطوائها تحت الإمبراطوريّة المغوليّة.

وهكذا عاد ملك أرمينيا "هيثوم الأول" مُنتشيا بمهارته، فخورا بعلاقته مع خان المغول، مُعظَما في شعبه، لأنه استطاع بسياسته التي يُسمونها حكيمة أن يُجنب مملكته وشعبه ويلات

---

(*) الحقيقة أنّ قرار الهجوم على بغداد و تكليف هولاكو بالمهمّة كان في حسابات المغول واتُّخذ قبل قدوم الملك هيثوم بأمد، وقد تطرّقنا إليه في بحثنا هذا في مُستهلّ الحديث عن سفارة روبروك.

(1) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ص 513.

الحروب، فقد غادر هيثوم الأوّل قراقورم في يوم 01 نوفمبر 1254م، ثم وصل قيليقيا في جويليا 1255م (1).

وكان من رغبات منكوخان أيضا أن يعقد تحالفات مع أُمراء الممالك الصليبية في الشام، مثل مملكة أنطاكيا وطرابلس وعكا، وذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام فلا يُدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت، ولتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم خان المغول طلب التحالف مع تبيعه الجديد ملك أرمينيا الصغرى، والذي بدأ فعلا يقوم بدوره كسفير للمغولي في هذه المنطقة، فمكث في أرمينيا الكبرى عند عودته، مُدة طويلة، استقبل فيها العديد من الأمراء المحليّين والأساقفة ورؤساء الأديرة، وحاول ضمّهم إلى فكرة التحالف مع المغول، ولزيادة التشجيع، فإن ملك المغول وعد الأُمراء الصليبيين في الشام بأن يُعطيهم بيت المقدس هدية لهم في حال اتفاقهم معه، والمعلوم أنّ بيت المقدس كان قد حُرر مرة ثانية على يد الملك الصالح أيوب سنة 643هـ/1247 بعد أن أهداه أُمراء الشام الأيوبيون إلى الصليبيين سنة 626هـ/ 1229م، وهكذا وعد مَنْ لا يملك بإعطاء مَنْ لا يستحق، لكن هيثوم الأول لم يُفلح إلاّ مع بوهيموند السادس Bohemond VI (1251-1268م) الذي هو في الوقت نفسه أميرا لأنطاكية وكونتا لطرابلس وزوجا لسبيل ابنت هيثوم الأول(2)، ويبدو أنّ الأمراء الصليبيين لم يستحسنوا اقتراحات الملك الأرميني، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن المغول لا عهد لهم، وقد يبيعونهم أو يُضحون بهم بمقابل أو بغيره، ولأن موقع صليبيي الشام في قلب العالم الإسلامي يُشكلُ تهديدا مضاعفا عليهم، من قبل المسلمين، في حالة انظمامهم لمثل هذا التحالف، و من ثم لم يتحمس هؤلاء للتحالف المعلن مع المغول، وإن كانوا لم يرفضوا الأمر صراحة، واختاروا أن يبقوا على الحياد بصورة مؤقتة إلى أن ترجح إحدى الكفتين، المغولية أو الإسلامية.

وعلى هذا فإنّ الملك هيثوم الأوّل هو أوّل ملك مسيحي يصل إلى بلاط المغول في قراقورم من تلقاء نفسه، وكان بهذا التصرُّف يبتغي التحالف معهم للسيطرة على الأراضي المقدّسة وانتزاعها من المسلمين.

---

(1) أنظر : Saint-Martin (J.), op. cit. , T. I, p. 396; Grousset (R.), Histoire des croisades., p.529 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p.89.

(2) أنظر : Sirarpie(Der Nersessian), op. cit., pp. 652- 653.

وقد قام هيثوم بزيارات متعدّدة إلى بلاط المغول، وعرض ثمّ قدّم مساعداته العسكريّة لهم في آسيا الصغرى وبلاد الشام، واسترجع من خلالها بعض القلاع التي كان سلاجقة الروم قد استولوا عليها، وهي القلاع التي كانت تابعة للأمير الأرميني كوخ فاسيل Kogh Vasil(1)، كما تغلّب هيثوم على سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى قلج أرسلان(657-666هـ/ 1258-1267م)، وعلى التُركمان الذين استقرّوا على حدود قيليقيا عام(658هـ/1259م) وقَتل قائدهم قرمان Karaman، وخلاصة الحديث أنّ سفارة هيثوم إلى المغول أحدثت تغييرًا إيجابيًا لصالح المسيحيّين والصليبيّين معًا من خلال هذا التحالف، لم تحرزها أيّ بعثة بابويّة أو صليبيّة أُخرى، وهذا التحالف بالذات سوف يستمرُّ لمدّة ثلاثة أرباع القرن، ويؤكّد المؤرّخ هايتون Hayton في مُؤلّفه "La Flor des Estoires de la terre d'Orient" (أنظر الملحق)، أنّ الخان منكو Mongka كان جدُّ متعاطفًا تجاه الكاثوليك، وربّما يرجع ذلك السلوك إلى أنّ جزءًا لا بأس به من ذويه وحاشيته كان على المعتقد النسطوري، وأنّه منح امتيازات لرجال الدين وكنائسهم وأنّه جعل أرمينيا وشعبها تحت حمايته، كما كلّف أخاه هولاكو بتدمير بغداد وخليفتها، الذي هو ألدّ أعدائه، ووعد بإرجاع الأرض المقدّسة إلى المسيحيّين(2)، أمّا وعد منكوخان في شأن العراق والخليفة العبّاسي فقد بدأ تحقيقه بعد سنة على إثر حملة هولاكو على آسيا التي نتج عنها تدمير بغداد سنة(657هـ/1258م)، ثُمّ الهجوم على حلب ودمشق، والوصول إلى أبواب مصر في عام(659هـ/1260)(3)، وحينما غزا هولاكو بلاد الشام، جاءه بطريق أرمينيا ليُباركه، فعبّر له هولاكو عن تقديره له، وقد شارك هيثوم الأوّل في هذه الحملات وكان له الدور العظيم في حماية المسيحيّين(4).

ومن جانب آخر نستخلص من هذه المرحلة، أنّ كلاًّ من الطرفين، المغولي والصليبي، كان حريصًا على استغلال الآخر لمصلحته الشخصيّة، وما سفارة المغول إلاّ استعدادٌ دبلوماسيٌّ أرادوا من خلاله استكمال استعدادهم الحربي لتوسيع رقعة أملاكهم على حساب بغداد عاصمة

---

(1) أنظر : Sirarpie(Der Nersessian), The Kingdom., p. 653 ; Runciman, A History of crusades, pp. 195-197.

(2) أنظر: Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836-837, et dans R.H.C., D.A., T. II, chapitre (XVII-XVIII), pp.165-168 ; Grousset(R), Histoire des croisades., pp. 527-528.

(3) أنظر : Grousset (R), Histoire des croisades., p. 529.

(4) أنظر : Vartan, op.cit., p.293 ; Saint-Martin (J.), op.cit., T. I, p.396.

الخلافة العبّاسيّة، الشيء الذي أكّد اجتياحهم لها، ثُمّ الزحف على باقي العالم الإسلامي. وفي المقابل كانت أوربّا بباباواتها و ملوكها وكذا القوى الصليبيّة الأخرى تهدف إلى جعل المغول قوّة المسيحيّة بالشرق لتطويق المسلمين من الشرق والغرب خدمة للمشروع الصليبي.

## IV- إنشاء إيلخانية المغول في بلاد فارس : الإيلخان هولاكو والبيئة النسطوريّة.

### 1 - المماليك في مصر :

بينما كانت الفوضى تنخر من قُوى الإمارات الفرنجية في الشام بسبب التطاحن والتنازع الأخوي القائم بين كل من بارونات عكّا Acre وبارونات صور Tyr، والداوية Templiers والإسبيتاريّة Hospitaliers، والبنادقة Vénitiens والجنويّة Génois لاحت في الأفق فرصة التحالف مع المغول للانتقام من الإسلام(1)، وعلى بعد آلاف الأميال كانت مصر تشهد ولادة دولة جديدة قويّة، يحكمها العبيد، عرفت في التاريخ باسم دولة المماليك، ففي 24 ذي القعدة 657هـ/12 نوفمبر 1259م تمكّن أحد قوّاد المماليك، وكان اسمه قطز، من الجلوس على عرش السلطنة فشرع في تهيأت الظروف لمجابهة خطر المغول على بلاد الشام ومصر(2).

### 2 - عطف هولاكو تجاه المسيحييّن، ودور زوجته دوقوز خاتون :

أرسل مانكو خان أخاه هولاكو إلى آسيا الوسطى ووصّاه قائلا :"إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه، في الكليات والجزئيات، وخصّ من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدّة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أمّا من يعصيك، فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به. وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرّب القلاع والحصون. فإذا فرغت من هذه المهمّة، فتوجّه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد، الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرّض له مطلقا. أمّا إذا تكبّر وعصى، فألحقه بالآخرن من الهالكين. كذلك يجب أن تجعل رائدك في جميع الأمور، العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال

---

(1) أنظر : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 562.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 507.
وانظر أيضا : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 563.

يقظا عاقلا..."(1)، فكان هذا البرنامج مناسبا تماما لتطلعات الأمراء المسيحيين في الشرق أمثال ملك أرمينيا الصغرى هيثوم الأوّل وأمير أنطاكية بوهيموند السادس الذان قبلا بالتبعيّة للمغول، لينعما بحماية حلفائهم المغول(2). وأخيرا أمره قائلا " وشاور دوقوز خلتون في جميع القضايا والشئون " وهي زوجة هولاكو العظمى، من قبيلة الكرايت المسيحيّة النسطوريّة، فكانت تعنل دائما على مؤازرة المسيحيين، وفي عهدها قوي حال تلك الطائفة، وكان هولاكوخان يرعاهم ويعزهم إرضاء لها، وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقيمون الكنائس في جميع الممالك كما أقيمت كنيسة في معسكر دوقوز خاتون ودقوا فيه الناقوس(3)، ويذكر رجل الدين والمؤرخ الأرميني فارتان Vartan أنّ مغول إيران كانوا يحملون معهم كنيسة أينما ارتحلوا هي عبارة عن خيمة من قماش، وكان النساك يقام كل يوم، كما وجدت فيها مدارس للأطفال يدرسون فيها بكل حريّة، وكانت الوفود المسيحية تأتي من كل صوب باختلاف لغاتها لطلب السلام مع المغول فيحصلون عليه فيعيشون بينهم مرتاحين ثمّ يرجعون إلى بلدانهم بالهدايا(4).

ثمّ إنّ "توكيتي خاتون"، وهي قريبة دوقوز خاتون وضريرتها أيضا، كانت كذلك وفيّة للمسيحيّة النسطوريّة، إلاّ أنّ دوقوز، فضلا عن مودتها تجاه المسيحيين، كانت تتبع سياسة منهجيّة وطموحة " إذ كانت تأمل في أن ترى المسيحيّة أكثر إشراقا، وكل ما أنجز كان بفضلها هي ... وكانت جد عطوفة تجاه جميع المسيحيين مهما كانت جنسياتهم، وكذالك كان هولاكو " على قول فارتان Vartan (5).

ولا أدلّ على عطف هولاكو تجاه المسيحيّن من ما ذكره فارتان Vartan في حولياته بقوله أنّ هولاكو استدعاه هو وزملائه فحضروا أمامه في جويليا سنة 1264م، وهو الشهر الذي يقام فيه القورلتاي، وقد حضر ذلك المجلس عدد من السلاطين والأمراء بالهدايا، من بينهم هيثوم

---

(1) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة : جامع التواريخ، تاريخ المغول الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د.ت.، ج1، م2، ص 236-237.

(2) أنظر : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, pp. 563-564.

(3) الهمذاني، المصدر نفسه، ج1، م2، ص 220.

وانظر أيضا : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 564.

(4) أنظر : Vartan, J.A., Octobre- Novembre 1860, p. 290; Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 564.

(5) أنظر : Vartan, op.cit., p. 290, 309; Grousset(René), Histoire des croisades., p. 564.

ملك أرمينيا الصغرى وبوهيموند السادس أمير أنطاكية وداود ملك جيورجيا وعددا من سلاطين الأتابك قادمين من بلاد فارس. لقد أعفى هولاكو كلا من فارتان وزملائن المسيحيين من الركوع أمامه ثم توجه إليه بقوله "لقد استدعيتك لأتعرّف إليك ولتدعو لي من كلّ قلبك ... وحينها بأت تلك الطوائف المسيحية بتراتيلها وأدعيتها في حضرة هولاكو الذي تأثر بذلك وشعر بنشوة فقال أنّ كل هذه البركات والدعوات دليل واضح على أنّ الله في صفّي"(1)

لم يكن هولاكو مسيحيا بل بوذيا ولكن حاشيته كانت تظم الكثير من النساطرة ويكفي أن نذكر أنّ أمّه سورقاكتاني خاتون Sorgaqtani كانت نسطوريّة أيضا وكانت لها تأثيرها الخاص على عطفه هذا نحو المسيخيين، ولا شكّ أنّ انعدام البوذيّة في بلاد إيران وكثرة المسيحيين فيها من نساطرة ويعلقبة وأرمن وجيورجيين ألجأه إلي نصرة من هم على ملّة أمّه وزوجته، ما جعل الهوّة أكثر عمقا بينه وبين بني عمومته من مغول القفجاق الروسي والمغول الجغتائيين في التركستان الذين كان ميولهم لنصرة الإسلام(2).

**3 - قضاء هولاكو على إسماعيليّة قلعة ألموت وقيام الإيلخانيّة في فارس :**

لم تستطع أي قوة إسلاميّة، قبل قدوم هولاكو بجيوشه إلى المنطقة، أن تستأصل الطائفة الإسماعيلية الرهيبة من سوريا وإيران، وقد حاول سلاجقة إيران، وكانوا في أوجّ قوتهم تحت السلطان ملك شاه، القضاء عليها ولكن دون فائدة. كانت قاعدة هذه الطائفة هي قلعة ألموت شمال قزوين، وكان خلفاء سيّدهم حسن الصباح يتحدون العالم تحت طائلة الاغتيال، ويأخذون الجزية أو الفدية من جميع معاصريهم من الأمراء. وعند قدوم هولاكو بنفسه كان على رأس تلك الطائفة ركن الدين خورشاه الذي استسلم له يوم الأول من ذي القعدة 654هـ/20 ديسمبر 1256م ثم جاء إلى هولاكو فقبّل الأرض بين يديه، "وصفوة القول أنّ خورشاه أنزل جميع ما يتعلق به ... وأهدي إلى هولاكو جميع الخزائن والدفائن الموروثة والمكتسبة"، وفي 26 ذي القعدة القعدة 654هـ سقطت قلعة ألموت في يد المغول وهي قلعة حصينة منيعة بين قزوين وبحر الخزر على قمة جبل في مازندران بإيران، وبعدها بفنرة أرسل هولاكو بخورشاه إلى منكوخان الذي أمر

(1) أنظر : Vartan, op.cit., pp. 300- 301; Grousset(René), Histoire des croisades., pp. 565- 566.

(2) أنظر : Vartan, op.cit., p. 302; Grousset(René), op. cit., p. 566.

بقتله قبل أن يصل إليه على ما رجّحه أحد رجالات هولاكو وهو المؤرخ رشيد الدين الهمذاني(1)، ولكن لايستبعد إطلاقا أن يكون هولاكو نفسه من أمر بالتخلص منه كما هو فاعل فيما بعد بالخليفة العباسي في بغداد، وهكذا أحكم هولاكو سيطرته على جميع متلكات الاسماعيلي وصرف عن جيوشه خطر هذه الطائفة، وتأسست من تلك اللحظة النوات الأولى للدولة الإيلخانيّة في إيران.

## V- **قضاء هولاكو على الخلافة العباسيّة في بغداد :**

### 1 - **الخليفة المستعصم والتهديد المغولي :**

بعد سقوط سيد الطائف الشيعية الإسماعيلية الرهيبة، حان دور الخليفة، السابع والثلاثون، السني المستعصم (1242-1258م) في بغداد، وقد اتفق المؤرخون على أنّ هذا الخليفة كان ضعيفا، فبينما كان سالفيه، منذ مائة سنة، استكثروا من الجند لاتقاء شر الأعداء الإسماعيليّة والخوارزمية خاصة وغيرهم، لجأ المستعصم إلى الدعة وتخفيض من معنويات وعدد الجيوش العباسية، في حين كان جيوش الأعداء المغول تتجمع في الشمال الشرقي استعدادا للانقضاض على بغداد، بينما خفض الخليفة عدد الفرسان من مائة وعشرين ألف إلى أقل من عشرين ألف(2)، وكانت الفتنة بين السنة والشيعة في الكرخ البغدادي على أشدها ما زاد من هشاشة النظام وضعف الدولة مثلما كان الحال بين السلاجقة والعبيديين والذي مهد طريق الصليبيين إلى الشام(3).

### 2 - **إجتياح المغول لبغداد وفضائعهم فيها :**

بدأ زحف المغول بقيادة هولاكو ابتداء من شهر نوفمبر 1257م فاجتاحوا نهر جيحون في طريقهم صوب بغداد ووقفوا أمام أسوارها الشرقيّة في 18 جانفي 1258م، لقد كانت خطة هولاكو محكمة بحيث زحفت ثلاثة جيوش مغوليّة نحو العصمة فكان أولاها بقيادة باجو Baiju

---

(1) الهمذاني، المصدر نفسه، ج1، م2، ص 250- 255، 256 هامش1، 258 ؛
ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 515- 516.
وانظر أيضا : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, pp. 567-568.

(2) أبو الفداء(إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، ت732هـ) : المختصر في أخبار البشر، دار المعارف، القاهرة، 1999م، ج3، ص233؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 518.
وانظر أيضا : Grousset(R.), op. cit., T. III, p. 568.

(3) أنظر : Grousset(R.), op. cit., T. III, p. 569.

القادم من طريق الموصل بعد عبوره نهر دجلة وسار أزاء الشاطئ الغربي للنهر ليحصر بغداد من الخلف بينما كان الجيش الثاني بقيادة النصراني على المذهب النسطوري والمسمّى كيتبوغا Kitbuqa يتقدّم بخطوات ثابتة على الجناح الشمالي فدخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة، وأخيرا نزل هولاكو بالجيش الثالث من همدان عن طريق كيرمانشاه وحلوان، ثمّ ما لبثوا أن أقاموا جسرا من القوارب على نهر دجلة فعبروا عليه إلى جانب الغربي للنهر وبذلك تمكّنوا من الاحاطة بالمدينة من كلّ جانب، واشتدّت هجمات المغول على الأسوار خاصّة الأسوار الشرقيّة وأحسّ الخليفة العبّاسي المستعصم بخطورة الوضع فأرسل إلى هولاكو سفارة تضمّ البطريق النسطوري ماكيكا Makika حيث أنّ زوجة هولاكو وتدعى دوقوز خاتون Doquz Khatun كانت مسيحيّة نسطوريّة المذهب، وفي هذه الخطوة الجريئة ربّما فكّر الخليفة في آخر ما توصّلت إليه عصارة تفكيره استمالة شفقة الزوجة النسطوريّة، ولكن هولاكو لم يستجب للصلح وعادت السفارة، دون أن تلتقي بالقائد هولاكو، واشتدّت هجمات المغول على المدينة حتّى دخلوها في العاشر من فبراير 1258م فاستسلم الخليفة العبّاسي وقادة الجيش وكبار رجال الدولة فتمّ قتلهم جميعا عدا الخليفة(1) الذي ظلّ خمس أيّام حتّى دخل هولاكو المدينة، وبعد أن علم هولاكو بأماكن الكنوز أمر بقتل الخليفة، وفي تلك الأثناء ظلّت المذابح في جميع أنحاء المدينة، وتعرّض للقتل على السواء أولائك الذين بادروا إلى التسليم وأولئك الذين مضوا في القتال ولم يرحم المغول شيخا طاعنا في السن أو امرأة حامل أو طفل أعزل وعثر أحد المغول في شارع جانبي على أربعين طفلا حديثي الولادة وقد ماتت أمهاتهم فأجهز عليهم، أمّا عساكر الكرج الذين كانوا أوّل من اقتحم الأسوار فاشتهروا بشدّتهم وقسوتهم في التدمير، حتّى أنّه يقال أنّ حوالي ثمانين ألفا من سكّان بغداد قد هلكوا خلال أربعين يوما، ولم يبقى على قيد الحياة سوى القليل الذي أصبح رقيقا، أمّا الجالية المسيحيّة فقد لجأت إلى الكنائس ولم تصب بسوء طبقا لتعليمات دوقوز خاتون، وفي نهاية شهر مارس اضطرّ هولاكو لسحب القوّات المغوليّة من بغداد حتّى لا تتعرّض للوباء من جرّاء رائحة الجثث المتعفّنة، بعد أن حمل معه ما جمعه

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، تعريب محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج1، ص 281، 288 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج3، ص233 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 519، 520 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 322- 323.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 571-572.

الخلفاء العبّاسيون من كنوز وعاد إلى همدان منها إلى أذربيجان، لقد كان ما حدث في بغداد صدمة مروّعة للعالم الاسلامي لما كان للخلافة العبّاسيّة من مكانة أدبيّة وروحيّة في نفوس المسلمين، أمّا المسيحيّين في كلّ آسيا فقد ابتهجوا لانتصار المغول وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهلّلوا لهولاكو وزوجته النسطوريّة واعتبروهما أدوات الله في الانتقام من أعداء المسيحيين (1)، ولعلّ كلمات المؤرّخ الأرميني كيراكوس Guiragos أكثر تعبيرا للحقد الصليبي إذ يقول " ... لقد أنشأت هذه المدينة، بغداد، منذ خمس مائة وخمسة سنون، وحافضت كل تلك المدّة على الامبراطوريّة بكلّ شراهة، فقد ابتلعت العالم كلّه، وعند سقوطها في أيدي المغول فإنّها أعادت كلّ ما أخذته ونهبته، وعوقبت بسبب الدماء التي أسالتها، والجرائم التي ارتكبتها..."(2).

**3 - إعتناء المغول بالكنائس المسيحية وتدمير المساجد :**

يذكر المؤرخ كيراكوس Guiragos أنّه بعد دخول المغول إلى بغداد فإنّ زوجة هولاكو النسطوريّة المسماة دوقوز خاتون استدعت كل المسيحيّين بمختلف أطيافهم المتواجدين في المدينة وطلبت من زوجها حمايتهم، فأمر هولاكو بعدم التعرّض لهم أو لممتلكاتهم(3)، وعلى هذا الأساس لجأ جميع من وجد في بغداد من مسيحيين إلى الكنائس بأمر من البطريق النسطوري ماكيكا ولم يطالهم أذى المغول المنتصرين الذين احترموا كنائسهم ولم تتعرّض للتدمير(4)، ويذكر المؤرخ الأرميني هيثوم أنّ دوقوز أعادت بناء وترميم كلّ الكنائس المسيحيّة وأمرت بتدمير مساجد المسلمين واستعبدت المسلمين حتى لم يتجرّأ أحد منهم بالظهور(5)، أمّا البطريق ماكيكا فقد أهداه هولاكو أحد قصور الخليفة(6).

---

(1) الهمذاني: المصدر السابق، مجلد 2، ج1، ص 292، 293، 294 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج3، ص233 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 520، 521 ، 522 ؛ محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 323.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 572.

(2) أنظر : Guiragos de Kantzag, Histoire d'Arménie, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, Avril-Mais, 1858, p. 492.

(3) أنظر : Guiragos de Kantzag, op. cit., Avril-Mais, 1858, p. 202, 493; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 270.

(4)أنظر : Vartan Le Grand, op. cit., T.II, p. 291.

(5) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXVI, p. 847; Idem, La Flor des Estoires., pp. 169- 170.

(6) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 270.

# الفصل الثاني

## مظاهر العلاقات المغوليّة المسيحيّة (شرقًا وغربًا) المملوكيّة منذ 658هـ/1260م حتى سقوط آخر الإمارات الصليبيّة في الشام عام 690هـ/1291م

I- الأوضاع في عهد إيلخانيّة هولاكو
1- تحركات هولاكو(651-756هـ/1253-1265م) للتحالف مع الصليبيين تمهيدا لاحتلال الشام
أ- غزو هولاكو لحلب ودمشق سنة 1260م وسياسته تجاه الإفرنج في أنطاكية Antioche
ب- إستعلاء العنصر المسيحي في دمشق إبان الحكم المغولي
ج- الكماشة الإفرنجية – المغولية لسحق الإسلام في سوريا
د- هجوم يوليان الصيدوي Julien de Sidon على المواقع المغوليّة
هـ- السلطان قطز، هجوم المماليك المضاد على المغول
و- تحالف فرنج عكا مع المماليك ضد المغول
ز- إنكسار المغول في عين جالوت ونهاية كتبغا
ح- نتيجة الإنكسار المغولي على وضعيّة الفرنج في سوريا
2- سياسة الدولة الجديدة في ظل حكم بيبرس البندقداري
أ- من إنجازات بيبرس : إلغاء الإقطاعية الأيوبيّة واستبدالها بدولة وجيش موحّد.
ب- فكرة إعادة إحياء الخلافة العباسيّة
ج- الروابط التجاريّة بين المماليك المصرية زمن الظاهر بيبرس، والقوى الأوربيّة
د- أولى حملات الظاهر بيبرس على أنطاكية
هـ- اعتلاء بركة عرش خانيّة القبيلة الذهبيّة
و- إسلام بركة خان وبداية التحوّل الديني لمغول القبيلة الذهبيّة إلى الإسلام
ز- علاقة المماليك بقبيلة القفجاق الذهبيّة على أثر إسلام بركة
ح- شلل التمدُّد المغولي في بلاد الإسلام بعد تحالف بركة خان مع بيبرس ضد هولاكو
ط- علاقة السلطان الظاهر بيبرس بالبيزنطيين
3- علاقة هولاكو(651-756هـ/1253-1265م) بأوربا وبيزنطة
أ- محاولة التحالف بين هولاكو والنصارى بعد هزيمة عين جالوت
ب- محاولة التحالف بين هولاكو وبيزنطة عن طريق التناسب
ج- رد فعل البابوية من خطر السلطان بيبرس على عكا
د- موت هولاكو
II- الأوضاع في عهد إيلخانيّة أبقا بن هولاكو
1- اعتلاء أبقا بن هولاكو(663-680هـ/1265-1282م) عرش الإيلخانيّة
2- خطورة المماليك المصرية وتهديدهم لاستقرار المغول في المنطقة
3- سياسة منكو تيمور بن طغان خان القفجاق زمن الظاهر بيبرس
4- علاقة منكو تيمور السياسية والتجارية تجاه أوربا شرقا وغربا
5- اتصالات أباقا بالقوى الصليبيّة
6- الحنكة السياسية البيزنطية في تأمين حدودها
7- مُداراة الملك المنصور قلاوون (678-689هـ/1279-1290م) للقوى الصليبية
III- الأوضاع في عهد إيلخانيّة تكودار خان بن هولاكو
1- اعتلاء تكودار(681-683هـ/1282-1284م) عرش الإيلخانية
2- بداية تحوّل إيلخانيّة إيران إلى الإسلام ومحاولة تحالف الإيلخان أحمد تكودار مع السلطان المملوكي
3- علاقة المماليك زمن السلطان قلاوون بمغول القفجاق
4- الصراع بين أحمد تكودار وأرغون، ومقتل الأوّل

IV- الأوضاع في عهد إيلخانيّة أرغون ابن أبقا(683-690هـ/1284-1291م) وجهوده مع البابويّة لحصار المماليك.

1- اعتلاء أرغون(683-690هـ/1284-1291م) بن أباقا عرش الإيلخانيّة وعدائه للإسلام والمسلمين

2- استبعاد سعد الدولة اليهودي للمسلمين من الوظائف الحكوميّة

3- جرءة سعد الدولة اليهودي على مقدّسات المسلمين

4- دور سعد الدولة في سياسة أرغون الخارجيّة ضدّ المسلمين

5- علاقة أرغون خان (1283-1291م) بالصليبيين وأباطرة أوربّا

أ- سفارة أرغون خان الأولى عام 684هـ/1285م، لعرض التحالف العسكري

ب- سفارة أرغون خان الثانية برئاسة القس النسطوري «رابان صاوما » عام(686هـ/1287- 1288م)

ج- سقوط اللاذقية سنة 1287م، وطرابلس سنة 1289م

د- سفارة أرغون خان الثالثة برئاسة بوسكاريل جيزولف Buscarel de Gisolf إلى أوربا وباباها عام (1289- 1290م)

هـ- مشروع آخر لتحالف فرنجي - أرميني – مغولي

6- جهد البابوية في نشر الكاثوليكية بين المغول وغيرهم

أ- بعثة يوحنا دي مونت كورفينو John of Monte Corvino الفرنسيسكاني إلى المغول عام 688هـ/1289م، وجهوده لتنصير الصين المغولية

ب- جهد الدومنيكان في نشر الكاوليكية ببلاد فارس

7- آخر أيّام الصليبيين بالمشرق الإسلامي

8- حملة صليبيّة شعبية سنة 1290م، محاربون من شمال إيطاليا

9- وفاة السلطان قلاوون سنة 1290م وقيام الأشرف خليل

10- الدفاع عن عكا سنة 690هـ/1291م

11- سفارة أرغون خان الرابعة برئاسة بوسكاريل جيزولف Buscarel de Gisolf مرّة ثانية إلى أوربا وباباها عام(1290 – 1291م)

12- الطرق التجارية الخاضعة للمغول في ظل المنافسة المماليكية

13- استراتيجية الحصار الاقتصادي الأوربي على دولة المماليك المصريّة

## I- الأوضاع في عهد إيلخانيّة هولاكو :

### 1- تحركات هولاكو(651-756هـ/1253-1265م) للتحالف مع الصليبيين تمهيدا لاحتلال الشام :

لم يكتف هولاكو بتحالفه مع هيثوم ملك أرمينية، وبوهمند السادس أمير أنطاكية، بل أراد التحالف مع كلّ الصليبيين، وأرسل رسالة إلى الصليبيين في غرب آسيا جاء فيها : "لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرنا وقد جئنا بقواتنا وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبوديّة ومن الضرائب التي فرضها عليهم المسلمون، ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم فلا يتعدّى عليهم ولا على تجارتهم، ونحن نصرّح بأننا سنعيد بناء جميع الكنائس التي خرّبها المسلمون"(1)، وبعد أن تحالف المغول مع المسيحيين بدأ تحرّك الجيش المغولي من أذربيجان إلى بلاد الشام في رمضان سنة 657هـ/1259م.

والحقيقة أنّه كان أكثر من نصف جيش هولاكو يتألّف من الأتراك، الذين اجتذبتهم منطقة إيران، بعدما استقرّت مجموعة كبيرة منهم في سهوب موغان الرعويّة شمال تبريز، وأصبحت مدينتا تبريز ومراغة عاصمتي الاقليم الجديد الذي استقرّ فيه الإيخان، ومن ثَمّ أصبحتا المركزين الرئيسيّين للتجارة، وأصبح هؤلاء الأتراك وقود وركيزة حروب مغول إيران، أمّا المسيحيّن في ظلّ حكم المغول في إيران فقد شعروا الآن بالحماية والحريّة المطلقة، وقد توقّع النساطرة الحصول على مغانم خاصّة، وذلك لأنّ قسمًا عظيمًا من القادمين الجدد من آسية الوسطى كانوا يتعاطفون معهم، سيّما، وأنّ زوجة الإيلخان هولاكو، دوقوز خاتون، كانت مسيحيّة على المذهب النسطوري(2)، هذا وكان الإيلخان غالبًا ما يشترك في الأعياد المسيحيّة بنفسه، ويحضر القُدّاس، وقد أجاز بناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي، وأوقف الأوقاف لمصلحة الكنائس، كما فضّل المسيحيّين على المسلمين في المعاملة، وقد تمتّعت الطوائف المسيحيّة الأخرى وهي السريان واليعاقبة والأرمن، وإلى حد ما الأورثوذُكس في جورجيا، بعطف الحكّام المغول أيضًا فتضاعفت أحجام وأعداد أبرشيّاتهم، وزاد نفوذهم وتعاظم وأصبح لهم الحق في السير في مواكبهم، وأن يُرمّموا كنائسهم وأديرتهم ويوسّعوها، بينما لم يكن

---

(1) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 441 حاشية 1.

(2) برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1402هـ/1982م، ص 57.

المسلمون يُجاز لهم مثل هذه الأعمال، رغم أنّ هولاكو كان بوذيا مجوسيا ولم يكن يعتنق العقيدة النصرانيّة(1).

**أ- غزو هولاكو لحلب ودمشق سنة 1260م وسياسته تجاه الإفرنج في أنطاكية Antioche:**

بعد الفراغ من بغداد وجّه هولاكو اهتمامه إلى بلاد الشام، فهاجم ميافرقين في مطلع 1260م وأنزل القتل بالمسلمين واستحيى المسيحيين، ذالك أنّ صاحبها الأمير الأيوبي الكامل محمّد رفض التسليم وصلب القسيس اليعقوبي الذي أرسله إليه هولاكو مبعوثا، ثمّ تقدّم المغول إلى مدينة سروج فنهبوها، ومضوا إلى حلب فاقتحموها في ذي الحجّة 657هـ/24 جانفي 1260م فأعملوا فيها النهب والقتل كمثيلاتها، وبعد أن حصل هولاكو على كنوزها عهد بالمدينة إلى الأشرف، أمير حمص السابق، بولايتها نظرا لولائه للمغول(2)، ثمّ اتجه هولاكو إلى أنطاكية فالتحق به كل من ملك أرمينيا وصهره بوهموند، فكافأ الأوّل بشيئ من الغنائم وأمر أمراء السلاجقة بردّ ما تحت أيديهم في قيليقية إلى هيثوم الأوّل، وأعاد هولاكو إلى أنطاكية بعض المدن والحصون التابعة لها كمكافأة لبوهمند، وكانت في يدي المسلمين منذ صلاح الدين الأيوبي، ومنها اللاذقيّة، بشرط أن يحلّ البطريق اليوناني يوثيميوس Euthyme في أنطاكية مكان البطريق اللاتيني، ويبدو أنّ العلاقة كانت وديّة بين هولاكو والامبراطور اليوناني في نيقية ما دفعه إلى تمتين الوجود اليوناني في المنطقة(3)، ولعلّها مكر سياسي كان هولاكو يتعمّده لمعرفته بالعداوة بين اليونان واللاتين. وفعلا استنكر اللاتين فعلة بوهمند هذه لما لحق بالكنيسة في أنطاكيّة من ذلّ، أمّا البنادقة فقد كانوا أحرص القوم على مصالحهم التجاريّة ولم يكن يهمّها من أمور المذاهب الإيديولوجيّة أو النوازل السياسيّة إلاّ ما يذرّ عليها من نفع مادي،

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 58.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج1، ص306، 307 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 524، 525-526 ؛ محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 323، 324.

وانظر أيضا : Philippe de Navarre et Gerard de Montreal, Chronique du Templier de Tyr (1241-1309), dans : les Géstes des Chiprois publié par Gaston Raynaud(Société de l'Orient Latin), Genéve, 1887, p. 161; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 307.

(3) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 526- 527.

وانظر أيضا : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 161, 162; Delaborde (Francois, H.), Lettre des Chretiens de Terre Sainte á Charles d'Anjou(22 Avril 1260), Revue de l'Orient Latin, vol. II, Paris, 1894, p. 213; Hayton, La Flor desEstoires., p. 171; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III,p. 584, 586.

فقد أضحى نفوذها متغلّبا في المنطقة وبخاصّة في مملك بيت المقدس اللاتينيّة، وكانت تبادلاتها التجاريّة مع مصر، عدوّة المغول والغرب على السواء، طيّبة ومستمرّة، إذ توقّفت مصلحتهم على التجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تجتاز الطريق الجنوبي إلى الخليج العربي أو إلى البحر الأحمر، لذلك راقب البنادقة طريق القوافل المغوليّة التي تجتاز آسيا الوسطى إلى البحر الأسود، حيث أخذ أعداؤهم ومنافسيهم الجنويون يوطّدون سلطانهم بعد تحالفهم مع اليونانيين، فأنفذت حكومة عكا (بيت المقدس) رسالة مؤرّخة في 22 أبريل 1260م، وصلت شهر ماي من السنة نفسها، إلى شارل كونت أنجو، شقيق ملك فرنسا لويس التاسع، تتناول وصف أخطار الزحف المغولي، وتلتمس منه التدخّل، والمعروف أنّ لشارل أنجو أطماعا في البحر المتوسّط إذ أخذ يدبّر المؤامرات للوصول إلى عرش صقليّة(1).

ولمّا سمع وجهاء حماة ودمشق باقتراب العدوّ آثروا التسليم، أرسلوا سفارة في شهر فبراير 1260م إلى هولاكو لتسليمه مفاتيح المدن ومعها نحورهم ورقاب رعاياهم، أمّا السلطان الناصر يوسف الأيوبي فقد فضّل الفرار والنجاة بجلده عساه يطول به العمر، فسار إليها القائد المغولي كتبغا، المسيحي على المذهب النسطوري، ودخل دمشق في مطلع شهر مارس 1260م ومعه ملك أرمينيا هيثوم الأوّل (1226- 1269م) وصهره بوهيموند السادس (1251- 1268م) حاكم أنطاكيّة الصليبيّة، ثمّ تابع المغول استيلائهم على باقي الشام حتى وصلوا إلى غزّة المجاهدة، فأملت الطوائف المسيحيّة والإمارات الصليبيّة في زوال الإسلام من تلك البقاع، أمّا السلطان الفار الخائن للأمانة فقد قبض عليه المغول في ‘خر المطاف وقتلوه(2).

وفيما يتعلّق بالرسالة التي أرسلها وجهاء عكا (بيت المقدس) إلى شارل كونت أنجو المؤرّخة في 22 أبريل 1260م، فإنّها تذكر أنّه لمّا دخل هولاكو أنطاكيّة، ورغم أنّ حاكمها بوهمند السادس من حلفائه، فإنّه لم يمنع المغول أن يتصرّفوا فيها كما جرت عاداتهم بالنهب

---

(1) أنظر : Delaborde (Francois, H.), op. cit., pp. 211- 215; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 584.

(2) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 487 ؛ الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج1، ص 307، 308 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 528 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 324، 325.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 311- 312, 348- 349.

وسفك الدماء، ثمّ أمروا بوهمند بإعادة تنصيب البطريق اليوناني يوثيميوس Euthyme، منبوذ الكنيسة اللاتينيّة، بدل البطريق اللاتيني، ويبدو صراحة أنّ المغول فضّلوا الكنيسة اليونانيّة عن اللاتينيّة، وذلك ربّما راجع لعلاقة البطريق اليوناني الطيّبة بالامبراطوريّة البيزنطيّة وإيلخانيّة إيران على السواء، وهو من سيكلّف فيما بعد، وذلك سنة 1265م، بمرافقة ماريا Marie بنت الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس، غير الشرعيّة، إلى تبريز، وكان هذا الأخير مضطرا لمصاهرتهم ليضمن جانبهم، وقبل أن يستعيد ميخائيل الإمبراطوريّة وأثناء إقامته بالمنفى في مدينة نيقية، عقد حلفًا مع هولاكو أقوى شخصيّة في المنطقة بعد جنكيزخان، وعندما وصلت الفتاة إلى البلاط المغوليّة ألفت خطيبها هولاكو قد توفي، فبادرت بالزواج من ابنه أباقا، وريث الإيلخانيّة، وقد عُرفت السيّدة الجديدة باسم ديسبينا خاتون، واشتهرت بالتعصُّب الديني، لهذا وجد فيها النصارى حاميًا جديدًا لهم بعد أن فقدوا دوقوز خاتون(1).

**ب- <u>إستعلاء العنصر المسيحي في دمشق إبان الحكم المغولي</u> :**

ابتهج المسيحيون في دمشق السوريّة لدخول المغول إليها، واعتبروا ذلك انتقاما على حكم الإسلام فيها لستة قرون مضت متتالية، فسنحت لهم تلك الفرصة للانتقام من المسلمين، فتجرّؤوا على المسلمين واستطالوا بتردُّد التتر إلى كنائسهم، واستصدر بعضهم من هولاكو فرمانا يتضمّن الوصيّة بهم والاعتناء بأمرهم ودخلوا به من باب ثوما، وصلبانهم مرتفعة، وهم يُنادون بارتفاع دينهم وفناء دين الإسلام فنظّموا مواكب عامّة، وكانوا يُنشدون فيها الأناشيد، وقالوا جهرًا " ظهر الدين الصحيح دين المسيح"، ويُجبرون المسلمين على أن يقفوا احترامًا لصلبانهم، ومن يمتنع منهم كان يتعرّض للسبّ والإهانة، وبلغ بهم التحدّي أقصاه، فدقُّوا النواقيس، وتظاهروا بالخمر في رمضان، ورشُّوه على جدران المساجد وأبوابها وثياب المسلمين في الطُّرقات، ولم يستثنوا حتّى الجامع الأموي، وأكلوا لحم الخنزير فيها، وإذا أمر بوهمند السادس المسيحيين بجل المزبلة في مسجد كانوا يفعلونها في عشرة منها، وصاروا يمرُّون في الشوارع إلى كنيسة مريم، وكانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانيّة المسيحيّة، ولا يعدلُها عندهم سوى

---

(1) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص334.

و أنظر أيضًا : Delaborde (Francois, H.), op. cit., p. 213, 214 ; Rey(E.), Les Dignitaires de la Principautè d’Antioche, Revue de l’Orient Latin, Tome VIII, Paris, 1900- 1901, pp. 148 - 149 ; d’Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 417- 418; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, pp. 206- 210; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 584.

كنيسة القيامة ببيت المقدس، وخطُبُوا في الثناء على دينهم، فضجر المسلمون من ذلك، ورفعوا شكواهم إلى كيتوبوقا الذي يذكرُه Guiragos بأنَّه من قبيلة النايمان التتريّة التي اعتنقت المسيحية منذ قرون، وهو نائب هولاكو، فلم يحفل بهم، بل أهانهم، وضرب بعضهم، وأخذتهُ موجة من الخيلاء والكبر فجعل يزور الكنائس ويُعظّمُ رجالها على اختلاف مذاهبهم، أمّا بوهموند السادس فقد ساهم بشكل جاد بمشاركة بوهموند السادس في تحويل عدّة مساجد إلى كنائس وتقام فيها القدّاس، (1).

**ج- الكماشة الإفرنجية – المغولية لسحق الإسلام في سوريا :**

إذا نظرنا إلى الخارطة السياسيّة لسوريا الإفرنجيّة في تلك الفترة العصيبة التي تكالب عليها التحالف المغولي المسيحي، نجد أنّ مواقع القوى المغوليّة والصليبيّة تشكل كمّاشة تزداد استحكاما حول بيت المقدس، هدف الصليبيين والبابويّة، فأمّا كتبغا المغولي فقد استحكم باسم سيّده هولاكو في Edesse وحلب وحماه وحمص ودمشق ونابلس وغزّا، بينما كان هيثوم ملك أرمينيا يملك قيليقيا، وصهره بوهمند السادس حاكما على أنطاكية وطرابلس الشرق بالإضافة إلى بعض القلاع الهامّة في الجبال التابعة لبعض الهيئات الدينيّة العسكريّة مثل المرقب والكرك Le Krak des Chevaliers، فيما كانت أخت بوهمند السادس وصيّة على مملكتي قبرص، وبيت المقدس التي في يد المسلمين لكنها لم تخرج تماما عن سيطرة الصليبيين لأنّ بعض القلاع الساحليّة التابعة في بيروت وعكا ويافا وصور لا تزال في أيديهم(2). وبهذا يكون للمغول للصليبيين موطأ قدم راسخة في مناطق حسّاسة حول بيت المقدس بينما وجد المسلمون أنفسهم

---

(1) الذهبي: كتاب دول الإسلام، تحقيق فهيم محمّد شلتوت ومحمّد مصطفى ابراهيم، نشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1408هـ/1988م، ج2، ص 162- 163 ؛ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، مصر، الجيزة، 1419هـ/1998م، ج17، أحداث سنة 658هـ، ص 397- 398 ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج5، ص 291 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ،، ج7، ص80-81 ؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره وعلّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1956م، ج1، ق2، ص425، وص425 (حاشية 2 وحاشية 5) ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ج1، ص 517.
وانظر أيضًا : Guiragos de Kantzag, Histoire d'Arménie, tra. Dulaurier, J.A., Paris, Avril-Mai 1858, p. 498 ; Géstes des Chiprois, op. cit., pp. 161- 162; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 325; Grousset(R.), L'Empire du levant, Académie française, Payot, Paris, 1946, p. 272 ; Grousset(René), Histoire des croisades, T. III, p. 589.

(2) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 590.

بهذا الشكل في موضع بين فكي كمّاشة لا يُحسدون عليه.

**د- هجوم يوليان الصيدوى Julien de Sidon على المواقع المغوليّة :**

كان يبدو للوهلة الأولى أنّ كلّ الظروف مواتية تماما لحلف مغولي إفرنجي شامل، حتّى حدث، بسبب بعض البارونات الإفرنج، ما لم يكن في الحسبان، علّق عليه المؤرّخ الأرمني هيثوم بقوله :"وبينما كان كيتبغا يجتهد لاسترداد الأراضي المقدّسة ظهر الشيطان ليزرع الشقاق بينه وبين المسيحيين في المنطقة"، ويقصد بالشيطان شخصيّة يوليان الصيدوي Julien de Sidon، سيّد صيدا والشقيف، ومع أنّ عقلاء الفرنج أظهروا الاستعداد لتجنب إثارة المغول إلاّ أنه لم يكن في استطاعتهم أن يضبطوا مثيري الفتن عندهم، وكان يوليان الصيدوي أحدهم ومعروف بالعبث والجنون والحماقة، وقد رأى هذا الأخير أنّ ما حدث من حروب بين المغول والمسلمين فرصة سُنحت له ليجني بعض المكاسب فأغار على سهل البقاع نهبا وقتلا بين المسلمين الذين كانوا أصلا يدفعون الجزية للمغول، فأرسل كتبغا فرقة صغيرة بقيادة ابن أخته لإنزال العقاب بالفرنج المعتدين، لكنّ هؤلاء كمنوا لهم وقتلوهم، فاستشاط كتبغا غضبا وأرسل جيشا خرّب صيدا، ولم ينقذ بعض السكان الذين لجؤوا إلى قلعة على البحر إلاّ سفينتين جنويّتين قدمتا من مدينة صور يقودها فرنسيشينو جريمالدي Franceschino Grimaldi، وما حدث بعد فترة قصيرة من السنة نفسها، 1260م، من إغارة فرنج عكا، بقيادة كل من سيد بيروت يوحنا الثاني Jean II d'Ibelin-Beyrouth ويوحنا الجبلي Jean de Gibelet مرشال مملكة بيت المقدس وداوية عكا وصفد وعتليت وشقيف وقسم كبير من فرسان عكا، على موقع للتركمان من جهة طبريّة بالجليل، فهزموا وتركوا بعض قوادهم أسرى بين يدي التركمان، لقيت أيضا من المغول استنكارا وردّة فعل عنيفة(1)، أظهرت مدى الصدع العظيم بين الفرنج والمغول.

ويبدو أنّ كل ذلك العناء والجهد الذي بذله الملك الأرميني وصهره الفرنجي لتوطيد وتمتين

---

(1) أنظر : Géstes des Chiprois, op. cit., pp. 162- 164; Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXIV, p. 840; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 594- 597.
وانظر أيضا : ستيفن ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 529- 530.

العلاقة بين المغول والمسيحيين في سوريا، بمختلف أطيافهم، ذهبت سُدا في مهب الريح بسبب غباء بارونات الافرنج أمثال يوليان الصيدوي باعتراف المؤرخ هيتوم في قوله :"لم يعد كتبغا ولا خلفاؤه من المغول يثقون في مسيحيي سوريا"(1)، وبالفعل انقلب السحر على الساحر وبدأ يلوح في الأفق طفيف أمل يرجوه المسلمون في المنطقة، وما هي إلاّ صبابة أيّام حتّى جاء المماليك المصريّة بالفتح في عين جالوت.

**هـ- <u>السلطان قطز، هجوم المماليك المضاد على المغول</u> :**

كان هولاكو قد أرسل سفارة إلى مصر في مطلع عام 1260م، حين انصرف من الشام، يأمر فيها السلطان قطز بالخضوع وتقديم الطاعة قائلا في رسالته الوقحة المليئة بالترهيب والوعيد :"إنّ الله تعالى رفع شأن جنكيزخان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرّد علينا، ويعصي أمرنا، يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به، وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع. أما صيت جيشنا الذي لا حصر له، فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار. فإذا كنم مطيعا كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية، وأقدم بنفسك، واطلب الشحنة، وإلاّ فكن مستعدا للقتال"، ولكنّ السلطان رفض وأمر بقتل رسل المغول الواحد والأربعون، ثمّ أمر قوّاد الجيش بالتجهيز والاستعداد لجهاد المغول في بلاد الشام، وفي هذه المرحلة تغيّرت الأحوال داخل الامبراطوريّة المغوليّة ونشبت الحرب الأهليّة في منغوليا واضطرّ هولاكو لسحب عدد كبير من قوات المغول من الشام وإرسالها إلى منغوليا وتبقى معه عدد قليل، أمّا قطز فقد وضع على مقدّمة جيشه بيبرس البندقداري فتقدّم هذا إلى غزّا بفلسطين حيث كان يعسكر جيش مغولي صغير وتمكّنت القوّة المملوكيّة من سحقه، وفي هذه الأثناء كان كتبغا في بعلبك، عندما سمع بالأخبار المزعجة، فسار صوب بيبرس، بينما ثار المسلمون في دمشق على المغول بمجرّد سماع النبأ السار، في حين كان قطز يقود بقيّة جيشه بالتجاه بلاد الشام(2).

---

(1) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXIV, p. 840; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 598.

(2) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 599, 600.
وانظر أيضا : الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج1، ص 310، 313 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 514،515 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 533 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 325.

**و- تحالف فرنج عكا مع المماليك ضد المغول :**

كانت الخطة المملوكيّة تقضي بمهاجمة المغول من الشمال، وتطلّب الأمر عبور المستعمرات الصليبيّة، فقد قرّر السلطان المملوكي قطز السير على الساحل الفلسطيني ثمّ المضي إلى داخل البلاد، إلى أقصى الشمال لتهديد مواصلات كتبغا، لهذا ذهبت سفارة مملوكيّة إلى عكا للاتفاق مع القيادة الصليبيّة هناك في شأن عبور الجيش المملوكي خلالها وإمداده بالمؤن اللازمة وتقديم المساعة العسكريّة، فقبلت القيادة الصليبيّة بأمر الواقع دون تقديم المساعدة العسكريّة، ولعلّ قبول هؤلاء يرجع لانعدام ثقة الصليبيين بالمغول خاصة بعد ما حدث مع يوليان الصيدوي، وكان البارونات يحسون بالمرارة تجاه المغول لما أقدموا عليه منذ زمن قريب من نهب صيدا، وتفضيلهم الانحياز للمسلمين لما اعتادوه منهم من سماحة ورحمة وحكمة وحضارة، وعلى ذلك تقدّمت القوات المملوكيّة بكلّ عزم وثقة وعسكرت في مروج مدينة عكا عدّة أيام في ظل علاقة وديّة مع الصليبيين، ويذكر المستشرق الفرنسي جروجي هذا الاتفاق بين الطرفية بعنوان : "الحلف المجنون : اتفاق فرنجة عكا مع المماليك ضدّ المغول"، فيقول أنّه "بمجرّد وصول أنباء تقدم الجيش المملوكي حتّى هجم مسلمو دمشق على المسيحيين فيها فنهبوا بيوتهم وخرّبوا كنيسة مريم السريانية، وقبل أن تأتي أخبار انتصار المماليك على المغول بدأ الإسلام السوري ينتقم من أفعال ومنكرات الفرنج فيها... أمّا مملكة عكا الصليبيّة فقد كانت بعيدة عن فهم المخاطر المحدقة، بها وبالمسيحيّة في المنطقة، جرّاء تصرفها هذا مع المماليك... فقد سمحوا لقواتهم بالعبول خلال أراضيهم للإسراع في محاصرة المغول واختيار موقع المعركة ... لقد وصل عمى بصيرة فرنج عكا درجة أن بلغ بالسلطان قطز أن طلب منهم الإنظمام إلى جيشه لحرب المغول ... وأمّا من الناحية التجاريّة فقد اتفق تجار عكا مع المماليك لشراء كلّ ما يغتنمه السلطان من خيل المغول بثمن بخس، ولكنّ في النهاية لم يفي المنتصون بوعدهم فكانت خسارة أخرى تلحق بتجار عكا"(1)

---

(1) أنظر : Géstes des Chiprois, op. cit., pp. 164- 165; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 600- 603.

وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 244، 245 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 516 ؛ ستيفن ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 533، 534، 535؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 325، 326.

### ز- إنكسار المغول في عين جالوت ونهاية كتبغا :

بادر كتبغا بتحريك قواته فعبرت نهر الأردن، ولمّا علم السلطان قطز بذلك وأنّه نفذ إلى الجليل الشرقي، تحرّكت قواته الإسلاميّة صوب الجنوب الشرقي مجتازة الناصرة فوصل يوم 2 سبتمبر 1260م إلى عين جالوت، وفي يوم الجمعة، 3 سبتمبر 1260م/25 رمضان 658هـ، أخفى قطز جيشه الرئيسي في التلال ولم يظهر سوى المقدّمة بقيادة بيبرس البندقداري، وهجمت القوات المغوليّة على المقدّمة فاستدرجتها هذه إلى التلال فوقعت في الكمين الذي أعدّه السلطان قطز، ودارت معركة رهيبة انتهت بهزيمة القوات المغولية ووقوع كتبغا أسيرا في أيدي المماليك المصريّة، وحمل مقيّدا بالاغلال إلى السلطان الذي أمر بقطع رقبته بعدما دخل دمشق، وهكذا أنقذ انتصار المماليك دين الاسلام وجعلت منهم القوّة الأساسيّة الضاربة في الشرق لمدّة قرنين من الزمان، ولعل هذا الانتصار كان أيضا أحد الأسباب البعيدة التي دفع من بقي من المغول في غرب آسيا الصغرى إلى اعتناق الاسلام حبا فيه وفي مبادئه، وبداية لزوال الإمارات الصليبيّة في الشام، وبعد خمسة أيّام من معركة عين جالوت دخل السلطان قطز مدينة دمشق وبدأ في تنظيم قوّاته لاسترداد حلب التي دخلها بعد عدّة أسابيع، أمّا هولاكو الذي فزع لهذه الهزائم فقد حاول استرداد حلب في ديسمبر عام 1260م لكنّه فشل واضطرّ للانسحاب بعد أربعين يوما بعد أن أقام مذبحة للمسلمين خارج المدينة، ثمّ لقي المغول هزيمة أخرى عند مدينة حمص ففتح الله على المسلمين بالنصر، وولّى المغول هاربين منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم الكثير، وتبع ذلك هزيمة أخرى للمغول عند مدينة حماه، وانتهى الأمر برحيل المغول عن بلاد الشام(1).

### ح- نتيجة الإنكسار المغولي على وضعيّة الفرنج في سوريا :

كان فرنجة الممالك الصليبية في الشام، حتّى سنة 1259م، وبخاصة مملكة عكا الصليبيّة، ينعمون بنوع من الأمن في ظلّ الانقسامات والنزاعات داخل ما تبقى من البيت الأيوبي ومنافسة المماليك له في مصر والشام، لكن بعد انكسار المغول في عين جالوت

---

(1) أنظر : Guiragos de Kantzag, Histoire d’Arménie, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, juin 1858, p. 498; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III,pp. 603- 605.
وانظر أيضا : الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج1، ص 313- 316 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 516 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 245- 247؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 536، 537 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 326- 327.

جنى فرنجة الشام النتائج مبكرا، فقد اضطربت خارطة الشرق ومال ميزان القوى باتجاه المماليك المصريّة، بعد أن عجّل هذا الانهزام من تدمير المغول للسلطنة الأيوبيّة في الشام انتقاما لموت كتبغا المغولي، وبذلك تمكّن المماليك المصرية من ظمّ ممتلكات الأيوبيين بالشام إليها وقضت نهائيا على انقسام المسلمين وتنازعهم في هاتين المنطقتين الحساستين وبهذا الشكل يكون فرنجة عكا قد شاركوا من حيث يدرون أو لا يدرون في تعجيل الالتحام الاسلامي حول قضيّة تخليص الأراضي الإسلامية المحتلّة في الشام، وأصبح المماليك المصرية تتهدد الصليبيين في كل حين ومن كلّ جانب(1).

**2- <u>سياسة الدولة الجديدة في ظل حكم بيبرس البندقداري</u> :**

**أ- <u>من إنجازات بيبرس</u> : <u>إلغاء الإقطاعية الأيوبيّة واستبدالها بدولة وجيش موحّد</u>.**

لم تدم مدّة حكم السلطان المملوكي قطز إلاّ حوالي عاما واحدا، ذلك أنّه بعد نصر عين جالوت وما أحرزه المماليك من تقدم سياسي وعسكري قرّر السلطان المذكور العودة إلى مصر ولكنّ بيبرس قتله في الطريق ثمّ تربّع على عرش مصر وتلقّب باسمه الملك الظاهر بيبرس البندقداري، في حين تلقب أميرا مملوكيا آخر سلطانا على الشام وكان اسمه سنجر الحلبي، فاغتنم المغول انقسام المماليك على أنفسهم، فاجتمع منهم ستة آلاف فارس فتوجّهوا إلى البيرة، للانتقام لمقتل قائدهم كتبغا في عين جالوت، وهاجموا حامية حلب فاستولوا عليها أواخر نوفمبر 1260م وقتلوا عددا كبيرا من سكانها، ثمّ توجهوا إلى حماة وحمص فبرز إليهم الملكان الأيوبيّان، الملك الأشرف موسى شيركوه صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماة واجتمع إليهما قدر ألف وأربعمائة فارس، فأفنوهم قتلا وأسرا ووردت البشارة إلى مصر وحملت رؤوس المغول القتلى إلي دمشق، وذلك سنة 659هـ/1260م، أمّا هولاكو فقد كان مشغولا حينها بجبهة أخرى في حربه ضدّ بركة خان القفجاق فلم يكن من الممكن إرسال تعزيزات مغولية تأديبيّة إلى بلاد الشام(2)، ثمّ تمكّنت قوّات بيبرس من هزم الأمير سنجر الحلبي فأحضر يوم 16 صفر659هـ/1261م مقيّدا إلى مصر، فأصبح الظاهر بيبرس سلطانا

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 605- 606.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 520-522، 525-526 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج3، ص250 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 327.
وانظر أيضا : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 609; d’Ohsson(C.), op. cit., T.III, p.360.

على مصر والشام معا(1).

ولتوطيد أركان حكمه وإظفائه بصبغة الشرعيّة، اهتدت عبقريّة السلطان الظاهر بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسيّة على أرض مصر في شخص أبي القاسم أحمد(*) حفيد الخليفة الناصر لدين الله، وذلك سنة 659هـ/1262م، ومن بعده كان الأمير أبو العباس أحمد بن أبي بكر على بن أبي بكر بن أحمد بن المسترشد بالله العباسي ولُقب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وذلك سنة 661هـ(2)، وأمّا بقايا الأيوبيين في بلاد الشام فقد حرص بيبرس على عزلهم تدريجيا والاستيلاء على أملاكهم بعد موتهم، فصفت له بلاد الشام(3).

**ب- فكرة إعادة إحياء الخلافة العباسيّة :**

لم يكن من السهل بمكان أن تتقبّلة الأمة الاسلاميّة أن يحكمها العبيد المتمثل في المماليك المصريّة، ومن هذا المنطلق كان لزاما على الحكام الجدد للمنطقة أن يظفوا على ملكهم صبغة شرعيّة تمكّنهم من كسب رضى الشعب، ويبدو أنّ الظاهر بيبرس قد شعر بذلك منذ أن تسلّم الحكم، والحقيقة أنّ العالم الإسلامي شعر بفراغ كبير في منصب القيادة الروحي بعد سقوط العباسيين، وقد حاول بعض حكام الإمارات الاسلاميّة إعادة إحياء الخلافة العبّاسية ليظهروا بمظهر الحامي لمقام الخلافة وليكسبوا مقاما سياسيا رفيعا، وكان أوّل من فكّر في ذلك الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق وحلب في محاولته لاستقطاب أحد أبناء البيت العباسي، لكنّ ذلك لم يتحقق وقضى المغول على الناصر يوسف، أمّا المظفر قطز فقد علم حين قدم دمشق، بعد معركة عين جالوت، بوجود أمير عبّاسي فيها يُدعى أبا العبّاس أحمد، فأمر بإرساله إلى مصر، ويذكر السيوطي أنّ قطز بايعه فعلا وهو في دمشق، لكنّ حادثة اغتيال هذا الأخير حالت دون

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص526.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 609.
(*) أحمد (المستنصر) بن محمد الظاهر بن الناصر المستضيء، أبو القاسم العبّاس أول الخلفاء العباسيين بمصر. دخلها بعد ثلاث سنين من انقراض عباسية العراق، فأثبت نسبه في مجلس الملك الظاهر بيبرس البندقداري أمام جمع من العلماء وأركان الدولة، فسر به الظاهر ووجد فيه قوة جديدة لملكه فجمع الناس وأعلن فيهم الأمر وبايعه بالخلافة، ولقّبه بالمستنصر، ولم تطل مدة أبي القاسم (المستنصر) فإنّ الظاهر سيّره في جيش إلى العراق لاسترداد بغداد من أيدي المغول فزحف وحاربهم فانهزم جيشه، وفقد. أنظر : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص528 هامش1.
(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص528- 530، 547.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 609, 610.
(3) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 550-553.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 610.

تحقيق أهدافه، التي كُتب لها التحقيق على يدي الظاهر بيبرس، فأصبحت بذلك دولته أكثر مهابة في الأوساط الإسلاميّة بفضل ذلك الدعم الروحي، ونظروا إليها كحامية للخلافة وللحرمين الشريفين وللاسلام والمسلمين، علاوة على أنّ إعادة إقامة الخلافة المسلمة السنيّة قد قضى تماما على أحلام طائفة الشيعة في إعادة إحياء الدولة العُبيديّة(1).

استدعى بيبرس في عام (659هـ/1261م) الأمير أبا العبّاس أحمد الذي كان قطز قد بايعه في دمشق، إلى القاهرة، لكنّه لم يحضر، وبالموازاة وصل في ذلك الوقت أميرا عباسي آخر هو أبو القاسم أحمد، فارا من وجه المغول، فوصل إلى القاهرة في 8 رجب 659هـ فاستقبله الظاهر بيبرس وأعيان الدولة والقضاة(2)، وفي يوم الاثنين 13 رحب 659هـ بويع على الخلافة، وألبس هذا الأخير الظاهر بيبرس خلعة السلطنة، وبذلك أضحى الملك الظاهر بيبرس سلطانا شرعيا(3)، ثمّ كتب السلطان بيبرس إلى سائر الملوك والأمراء والنواب خارج مصر ليأخذوا البيعة للخليفة الجديد الملقّب بالمستنصر بالله، وأمرهم بالدعاء له على المنابر قبله وأن تُنقش السكة باسميهما(4).

ولكنّ الخليفة الجديد توفي في بلدة هيت، وهي على شاطئ الفرات بين الرحبة وبغداد، في حملته ضدّ المغول لاسترجاع بغداد، وعلى أثر ذلك اضطرّ بيبرس استدعاء الأمير أبي العبّاس أحمد مرّة ثانية لمبايعته على الخلافة، وكما حصل للخليفة المستنصر، فقد جرت احتفالات التنصب في القاهرة في المحرّم 661هـ/نوفمبر 1262م، وتلقّب بـ "الحاكم بأمر الله"، وفي المقابل حصل بيبرس منه على تقليد بالسلطنة، ولقّبه بـ "قسيم أمير المؤمنين"(5). وهكذا تمكّن

---

(1) السيوطي : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، 1989م، ص530- 531 ؛ محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923هـ/1250- 1517م)، دار النفائس، القاهرة، 1418هـ/1998م، ص92- 94.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 528، 529.

(3) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، بيروت، (1419هـ/1998م)، ج42، أحداث سنة 659هـ، ص 60 -61 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص 99- 100 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 530.

(4) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 659هـ، ص 61 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 100- 101؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 530.

(5) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 659هـ، ص 68، 78 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 87، 141- 142 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 537، 541، 547.

السلطان الظاهر بيبرس من إعادة إحياء الخلافة العبّاسية في القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة 656هـ/1258م، فأكسبته صفة الشرعيّة بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه في الداخل والخارج، وأحاط بيبرس عرش من يأتي بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة وساعد ذلك على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التي قد يُثيرها أمراء المماليك في حكم بيبرس وكتم الأحقاد التي تغلي في صدورهم(1).

**ج- الروابط التجاريّة بين المماليك المصرية زمن الظاهر بيبرس، والقوى الأوربيّة :**

كانت مصر منذ القدم محلّ أنظار وأطماع القوى والأساطيل التجاريّة لموقعها على مفترق الطرق التجارية القادمة من الهند ومن الصين ومن اليمن والحجاز، وحتّى من جهة بعض بلدان القوقاز، وقد اجتبذت موانئ مصر، بفضل حاصلات مصر الزراعيّة ومنتجاتها الصناعيّة والتكاليف والرسوم الزهيدة على البضائع التي تعبر من خلالها، أهتمام الجمهوريات التجاريّة الغربيّة مثل البندقية وجنوة وبيزا، ناهيك عن الأرباح الحاصلة من توريد هذه الجمهوريّة لبعض السلع الأوربيّة الضروريّة إليها مثل الخشب والحديد، إلاّ أنّ هذه التعاملات لم تكن بالأمر الهيّن أمام العداء المصري للتواجد الصليبي بالشام، وتطرح أكثر من سؤال عن مدى إخلاص هذه القوى التجارية لبني عقيدتهم في الشام إذا ما ذكرنا أنّ الخشب والحديد الأوربي يستعمل في مصر لضرب الإمارات الصليبيّة، ولهذا كان التاجر الأوربي المتعامل مع مصر يوصف بأنّه فاجر، في حين تعرّض بعض حكام المماليك الذين يتعاونون مع التجار الغربيين للانتقاد من قبل جماعات المتعصبين، بيد أنّ أرباح ومنافع الطرفين، الجسيمة، كانت تبدّدُ كلّ العقبات(2)، وشجّع كلا الطرفين الصلات التجاريّة القائمة على المصالح المشتركة، فكانت تلك التبادلات لا تكاد تنقطع بين المماليك المصريّة وبعض الإمارات الأوربيّة، خاصة الواقعة منها في حوض البحر الأبيض المتوسّط، وكانت في مقدمتها جزيرة صقلية التي كانت مرتبطة اقتصاديا بمصر منذ العصر الأيوبي وتمتعوا بالتخفيضات الجمركيّة في الموانئ المصريّة(3).

---

(1) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحريّة، مكتبة النهضة المصريّة، ط 2، القاهرة، 1967م، ص 48.

(2) هايد (ف.) : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيأة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1991م، ج2، ص 34- 35.

وانظر أيضا : Heyd(W.), Histoire du commerce du Levant au Moyen-Âge, Paris, 1885, T. I, pp. 378, 380, 384- 386.

(3) هايد (ف.) : المرجع السابق، ج2، ص 42.

وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. I, pp. 391- 392.

ويبدو أنّ بحّارة مسّينا قد استفادوا من هذه الظروف بنوع خاص، وهذا أمر طبيعي نظرا لموقع هذه المدينة على طريق مصر مباشرة، واستمرّت هذه العلاقات الطيّبة في عهد دولة المماليك البحريّة، إذ حرص مانفريد هوهنشتاوفن ابن فريدريك الثاني، ملك صقلية الذي كان في المرحلة الحاسمة لحروبه مع البابوية وحليفها شارل الانجوي في ذلك الوقت، على صداقة السلطان بيبرس، كما حرص هذا الأخير على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليين، وقد جمعت الطرفن مصلحة مشتركة وهي العداء للصليبيين في بلاد الشام ومغول فارس، وتشير المراجع إلى تبادل الهدايا بين مانفريد وبيبرس، إذ أرسل هذا الأخير في عام (660هـ/1261م) وفدا برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقليّة، وحمّله هديّة جليلة منها بعض الزرافات، وبعض أسرى عين جالوت من النغول، وقد ردّ مانفرد بسقارة مشابهة تحمل الهدايا للسلطان(1)، واستمرّت تلك العلاقة الطيّبة بين الطرفين في عهد البيت الأنجوي في صقلية عام 664هـ/1266م، وقد أرسل شارل الأنجوي Charles d'Anjou هدية إلى السلطان بيبرس وكتابا على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : "بأنّ مخدومه أمر أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا في بلاده، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه"، ويبدو أنّ الهدف من وراء إرسال هذا الكتاب هو عقد معاهدة تجاريّة بين دولة المماليك البحريّة وصقليّة(2).

ولم تكن إيطاليا لتتأخر، رغم العداء القائم بين المماليك وبين البابويّة، عن عقد الاتفاقيات التجاريّة مع مصر لحماية مصالحها، فقد ربطت كل من البندقية وجنوة وبيزا علاقاتها التجاريّة بدولة المماليك البحريّة، وكانت البندقية تضاعف رحلاتها التجاريّة إلى مصر في حين كانت تملك، منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، فندقين بالاسكندريّة يستخدمان كمسكن ومخزن للبضائع، ويُشرف على شؤونهما ديوان الحكومة المصريّة، وكان لهم كنيسة تُدعى كنيسة القديس ميشيل Saint Michel des Venitiens، فيما كانت للبيزويّة كنيسة القديس نيكولاس S[t] Nicolas، وللجنوية كنيسة القديسة مريم S[t] Marie، ولراحتهم سمح لهؤلاء التجار بتشييد

---

(1) طقوش محمد سهيل : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس (648- 923هـ/1250- 1517م)، ط 1، بيروت، لبنان، 1418هـ/1998م، ص 148.
وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. I, p. 409.

(2) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص 201 ؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح : العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربيّة، القاهرة، ط1، 1965م، ص 266- 267.
وانظر أيضا : Richard Jean, The Mongols and the Franks, Journal of Asian History, Harrassowitz Verlag, V. 3, no.1(1969), p. 54.

مخبزة في فنادقهم يصنعون فيها خبزهم الخاص، كما كانت لهم حمّامات، وأجيز لهم جلب كميّة قليلة من الخمر المحرّم إلى فنادقهم فقط، وكان لكلّ جمهوريّة من هذه الثلاثة قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرعى مصالحها(1).

وأمّا إذا ما تطرّقنا إلى الإمارات الصليبيّة في الأندلس المفقود، فلا بدّ من الاشارة إلى أنّها كانت حريصة كل الحرص في الحفاض على علاقات وديّة مع دولة المماليك، في مصر والشام، لتأمين عدم وصول نجدات من قِبَلها إلى المسلمين في الأندلس، مثلما كان الحال مع دولة المرابطين في موقعة الزلاقة وما بعدها، ولهذا السبب سلك ملوكها طريع الموادعة والمسالمة مع دولة المماليك وتُبُودلت الهدايا، وسعى التجار بين الإقليمين، إلاّ أنّ الصادرات من المتاجر الأرجونيّة كانت مقيّدة بالحظر البابوي على السلع التي يمكنها تشكيل خطر على المصالح الصليبيّة أينما كانت ومنها مواد بنا السفن والسلاح كالخشب والحديد، وكانت هذه التجارة مضوعا لإنذار رسمي وجّهه البابا جريجوري العاشر Gregoire X في عام670هـ/1271م إلى بورجوازيي ناربون الفرنسية Narbonne، ثمّ في عام 671هـ/1272م إلى بورجوازيي مونبيلييه Monpelier الفرنسية، الاتي كانت لهنّ علاقات تجاريّة مع مصر، وأصدر جيمس الأول ملك أرجون في عام 673هـ/1274م، مرسوما يحظر فيه تصدير المعادن والخشب والأسلحة والمواد الغذائيّة إلى مصر، كما ربطت مصر بإنجلترا علاقات تجاريّة عن طريق ناربون وبوردو(2).

### د- **أولى حملات الظاهر بيبرس على أنطاكية :**

بعد استيلاء بيبرس على أجزاء هامّة من بلاد الشام، التفت إلى عدوّه بوهيموند السادس Bohemond VI أمير أنطاكية، حليف المغول في المنطقة، فهاجم ابتداء من أكتوبر- نوفمبر 1261م أراضي أنطاكية فغنم ورجع إلى مصر، وفي شعبان 660هـ/صيف 1262م سيّر إلى أنطاكية الأمير شمس الدين سنجر الرومي فأغار عليها، يُسانده في ذلك الملك المنصور الثاني صاحب حماه والملك الأشرف موسى صاحب حمص، وهما من بقايا الأيوبيين، فأحرق الميناء بما فيه من المراكب الراسية، ثم حاصر منطقة السويداء الأنطاكية واستولى عليها وقتل وأسر

---

(1) هايد (ف.) : المرجع السابق، ج2، ص 72- 76.
وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. I, p. 411, 412, T. II, pp. 431, 433, 434, 435,436.
(2) وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit.,T. I, p. 422, T. II, pp. 441- 460.

وعاد، فوصل إلى القاهرة يوم الخميس لليلة بقيت من شهر رمضان وصحبته من الأسرى نحو مائتين وخمسين أسيرا، ويبدو أنّ أنطاكية لم تكن لتنجو إلاّ بعد تدخّل هيثوم الأوّل ملك أرمينيا الصغرى(*)، فيذكر كتاب أعمال القبارصة Les Géstes des Chiprois أنّ الملك الأرميني توجّه بنفسه إلى أقرب قوّة مغوليّة، جهة قونية Qoniya، فجلبها إلى أنطاكية، وأمام الوضع الجديد فضّل الجيش المملوكي ترك الحصار والرجوع إلى بلاده(1).

**هـ اعتلاء بركة عرش خانيّة القبيلة الذهبيّة :**

كان جنكيز خان قد قسّم امبراطوريّته، قبل موته، بين أربعة من أولاده، هم جوجي، وجغتاي، وأوكتاي، وتولوي، فكان نصيب جوجي، الذي هو أكبرهم، بلاد القفجاق الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبيّة لبحر قزوين، وعرفت هذه الإيلخانيّة بالقبيلة الذهبيّة نسبة للون الذهبي لخيام معسكراتهم(2)، ولكنّ جوجي توفي في حياة أبيه، فعيّن جنكيز خان، مكانه، حفيده باطو بن جوجي،ثمّ توفي باطو في أوائل عام 654هـ/1256م، بعد أن حكم مُدّة تقرب من ثلاثين عامًا، وكان من المتوقّع أن يخلفه ابنه صرتق، بدليل أنّه عهد إليه، قبل وفاته بقليل، بإدارة الشؤون العامّة عنه، و تفرّق هو للعيش على ضفاف نهر الفولغا حيث أمضى بقيّة حياته، وكان باطو قد أرسل ابنه صرتق، في عام 653هـ/1255م، إلى قراقورم لحضور اجتماع القوريلتاي، وقد علم وهو في الطريق بوفاة والده، فتابع طريقه إلى العاصمة المغوليّة، فاجتمع بمنكو الذي عيّنه خلفًا له، غير أنّه لم يُوفّق في الجلوس على عرش والده، فقد توفي أثناء عودته، ويبدو أنّ عمّه بركة هو الذي أرسل من قتله في الطريق متذرّعًا بأن منكو أمره بذلك (3)، والواقع أنّه بعد وفاة باطو أضحى أخوه بركة الوريث الشرعي، وفقًا للقانون المغولي، كما أنّ التقاليد في الشرق لا تسمح للأبناء بوراثة آبائهم في السلطة إلاّ بعد وفاة كافّة الأشقّاء، أمّا تعيين صرتق بهذا الشكل

---

(*) لم ينسى المغول فضل هيثوم الأوّل ملك أرمينيا الصغرى عليهم بعد أن آوى بقايا الجيش كتبغا المغولي المنهزم في عين جالوت سنة 1260م.

أنظر : Vartan, J.A., Octobre- Novembre 1860, p.294; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 611.

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 543.

وانظر أيضا : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 167; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 611.

(2)أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 2.

(3) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص279 ؛ الرمزي : المصدر السابق، ج1، ص 403- 404.

وانظر أيضًا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 336; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, pp. 92- 93.

فهي على غير هذه القاعدة، ومهما يكن من أمر فقد عيّن منكو، في آخر المطاف، بركة خانًا على مغول القبيلة الذهبيّة فور وفاة صرتق، ولم يلبث الدين الاسلامي أن انتشر بين مغول القفجاق خاصّة بعد اعتناق بركة خان له، الأمر الذي نتج عنه أمرين، أولاها ازدياد التقارب بين مغول القفجاق والقوي الاسلاميّة في المشرق وبخاصّة دولة المماليك البحريّة في مصر، وثانيهما، ازدياد العداء بين مغول القفجاق وبقيّة طوائف المغول الوثنيين، خاصّة مغول فارس.

**و- إسلام بركة خان وبداية التحوّل الديني لمغول القبيلة الذهبيّة إلى الإسلام :**

كان تحوّل مغول بلاد القفجاق إلى الاسلام آليا وتدريجيا بتعيين بركة خانًا على القبيلة الذهبيّة، وذلك بفضل حسن تدبيره تأثيره، وهو الذي اعتنق هذا الدين قبل أن يتولّى عرش القبيلة الذهبيّة، وأوّل من اعتنق الاسلام من أسرة جنكيزخان(1)، ففي رواية أنّ أخاه باطو أرسله إلى قراقورم لحضول حفل تنصيب منكو على عرش الامبراطوريّة المغوليّة، والمعروف أنّ منكو هذا قد تمّ تنصيبُه في عام 639هـ/1251م، وبعد أن حضر احتفال التنصيب عاد إلى بلاده، ومرّ، وهو في طريقه، بمدينة بخارى، فاجتمع بالشيخ شمس الدين الباخرزي، أحد مريدي الشيخ نجم الدين كبرا، وأسلم على يديه(2)، فكان من نتيجة إسلام بركة واعتلائه عرش خانيّة القبيلة الذهبيّة أن بدأت هذه الخانيّة تأخذ شكلها ووضعها كدولة إسلاميّة، وبخاصّة بعد أن بنى لها عاصمة إسلاميّة هي سراي الجديدة، التي سُمّيت فيما بعد باسم سراي بركة والتي كانت مُجاورة لسراي القديمة التي بناها أخوه باطو، وتقع المدينتان على الضفّة الشرقيّة لنهر الفولجا قرب بحر قزوين، ورُبّما كانت المدينتان مدينة واحدة، بدأ باطو في بنائها وأكمل بركة هذا البناء(3).

والواقع أنّ بركة بذل جُهدًا كبيرًا في الدفاع عن الإسلام ونشر الثقافة الإسلاميّة بين قومه من المغول والترك، فتتحدّثُ المصادر أنّه لم يمر عن تسلطنه إلا القليل حتّى أظهر عداوته لابن عمّه هولاكو، إيلخان فارس، الذي كاد يقضي على الإسلام كدين في أراضي إيلخانيّته، وجرت بينهما المقاتلة والمحاربة الشديدة وسارت تلك العداوة منهما إلى أعقتبهما بحيث لم يحصل بين

---

(1) ابن عربشاه، أبو العبّاس شهاب الدين أحمد : عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986م، ص135 ؛ الرمزي : المصدر السابق، ج1، ص 407.

(2) القلقشندي : المصدر السابق ، ج4، ص474 ؛ الرمزي : المصدر السابق، ج1، ص 408.
وانظر أيضًا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p. 105.

(3) ابن عربشاه، المصدر السابق، ص 139.
وانظر أيضا : Barthold(W.), Histoire des Turcs d'Asie centrale, traduction de Mme M. Donskis, librairie d'Amerique et d'Orient, Paris, 1945, p. 132. 133, 133 note 1.

هذين الشعبين وفاق حتّى اقطعت ذريّة هولاكو بموت إيلخان فارس أبي سعيد سنة 733هـ في عصر أوزبك سلطان مغول القفجاق، كما كرّس حياته لنشر الإسلام بين قومه من المغول في بلاد القفجاق أو بين الشعوب الأُخرى الخاضعة لسلطانه، فأسلمت زوجته ججك خاتون واتخذت لها مسجدًا متنقّلاً من الخيم تنصبه حيث نزلت لتؤدّي الصلاة في وقتها، كما اعتنق عساكره الإسلام، وكان الفارس يحمل معه سجّادة للصلاة حتّى إذا حان وقتها أدّاها، وامتنعوا عن تعاطي المسكرات، وأخذ بركة يستقدم العلماء والفقهاء ويبني المدارس والمساجد لنشر الثقافة الإسلاميّة بين شعبه، ولذلك وصفه المؤرّخون بـ "أعظم ملوك التتار"، ونُسبت إليه بلاد القفجاق، فصارت تُعرفُ بعد وفاته باسم دشت بركة، بدلاً من دشت القفجاق، كما سُمّي مغول القفجاق، بعد وفاته بحوالي قرن، باسم تتار بركة(1)، لكنّ الإسلام لم يتجذّر في البيئة المغوليّة إلاّ بعد وفاته بنصف قرن من الزمان، وقد ساعد انتشار الإسلام على دمج المغول والأتراك بصورة نهائيّة، فيما كان العنصر المغولي كان أضعف تأثيرًا، فكانت اللغة التركيّة هي الغالبة في السجلاّت والسكة وليست المغوليّة، وحصل امتزاج بين الطبقة الحاكمة المغوليّة وبين القبائل التركيّة سواء الأصليّة في سهل القفجاق أو التي جلبها المغول معهم ليُكوّن الأُمّة المغوليّة الحديثة، ويشمل هذا بلغار الفولجا، وأعدادًا كبيرة من قبائل الفولجا الفنلنديّة، سرعان ما بدأت هذه العناصر في التأثير على النمط "الفيزيولوجي" لتركيبة الأُمّة التتاريّة الناشئة(2).

**ز- علاقة المماليك بقبيلة القفجاق الذهبيّة على أثر إسلام بركة :**

سعى بيبرس إلى الاستفادة من الوضع الناشئ الجديد في القبيلة الذهبيّة، بالتحالف الضروري مع بركة خان لمواجهة العدو المشترك المتمثّل في هولاكو وأسرته، فما إن علم بيبرس باعتناق بركة خان للاسلام حتّى كتب إليه "يُغريه بقتال هولاكو ويُرغّبه في ذلك"، "ويستميله ويخثه على الجهاد"(3)، ثمّ أخذ يُكرم وفود مغول القفجاق الوافدين إليه، فقد وصله

---

(1) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 17، أحداث سنة 660هـ، ص439، 448 ؛ الرمزي : المصدر السابق، ج1، ص 411- 412، 414، 416.
وانظر أيضًا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, p. 125.
(2) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص96.
(3) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 661هـ، ص 549 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 139.

في أوّل الأمر جماعة من جند بركة خان "مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف ... وكانوا نجدة عند هولاكو فلمّا وقع بينه وبين بركة الخلاف كتب إليهم هذا الأخير بالحضور إليه، وإن لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصريّة ... وكانوا فوق المائتي فارس"، فأكرمهم السلطان وأطاب لهم المقام، ثمّ رأى السلطان بيبرس أنّه من مصلحة الأمّة إنفاذ رسل إلى بركة خان فسيّر الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كشربك ومعهما نفران من التتار الوافدين وكتب على أيديهم الكتب بأحوال الاسلام ومبايعة الخليفة بعد ثبوت نسبته للرسول صلّى الله عليه وسلّم، فكان مسيرهم في المحرّم من عام 661هـ، وقد وصل في عام (661هـ/1263م) رسل بركة خان إلى مصر ردا على هذا الوفد، يحملون رسالة إلى الظاهر بيبرس جاء فيها : "فليعلم السلطان أنّني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصّبا لدين الاسلام، لأنّه باغي، والباغي كافر بالله ورسوله..."(1)، ويعرض عليه إرسال قوّة عسكريّة إلى معابر الفرات لقطع الطريق على هولاكو.

وردّ بيبرس على رسالة بركة خان برسالة طويلة في سبعين ورقة بغداديّة جمع فيها "من الترغيب في الجهاد، والاستماتة، والإغراء، والتعاظم عليه، وإظهار الميل إليه، ووصف كثرة جنود الديار المصريّة، وما هي عليه..."، وأمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للخليفة العبّاسي، المُقام في مصر، وللسلطان على منابر مكّة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة، وحمّل رسله الهدايا(2).

استقبل رسل بيبرس في بلاط بركة خان بحفاوة، وذكروا لدى عودتهم مدى اتساع انتشار الاسلام بين مغول القفجاق بحيث أنّ لكلّ أمير وأميرة في البلاط إمام ومؤذّن خاصا، وأنّ الأطفال يُحفّظون القرآن في المدارس، وأثمرت هذه العلاقات الطيّبة بعقد معاهدة بين الطرفين موجّهة ضدّ العدوّ المشترك، وقد استفاد منها بيبرس بأمرين، أولاهما أنّه أمّن استمرار تدفّق

(1) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م، ج30، سنة661هـ، ص 55- 56 ؛ العيني (بدر الدين محمود) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتاب والوثائق القوميّة، مصر، القاهرة، 1431هـ/2010م، ج1، أحداث سنة 661هـ، ص 361 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 544 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 137- 138، 139- 140.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 384- 385.
(2) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 171- 172.

المماليك من بلاد القفجاق ليزيد من عدد جنوده، وثانيها إلهاء هولاكو بقتال بركة خان على حدود القوقاز وصرفه عن التفكير في توجيه حملات إلى بلاد الشام ليثأر لهزيمة جيشه في عين جالوت، ويبدو أنّ دائرة التحالف لم تقف عند هذا الحدّ، بل سرعان ما انضمّ الامبراطور البيزنطي الأشكري ميخائيل الثامن باليولوغوس إلى هذا التحالف الذي أضحى بعد ذلك رباعيّا بانضمام عز الدين كيكاوس أحد سلاطين سلاجقة الروم في الأناضول، والذي سبق أن حرمه من بلاده ما جرى من تحالف بين المغول وشقيقه قلج أرسلان الرابع، وقد أمل بركة خان أن يكسب نفوذا في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في بلاد الشام، وللحيلولة دون وصول إيلخانات فارس إلى البحر والاتصال بدول غربي أوربا(1)، وبذلك، ضمن بيبرس حلفاء أقوياء ليحمي ظهره من ناحية مغول فارس، وأضحى باستطاعته أن يواجه الصليبيين في بلاد الشام وهو مطمئن.

**ح- شلل التمدُّد المغولي في بلاد الإسلام بعد تحالف بركة خان مع بيبرس ضد هولاكو :**

صُدم هولاكو بشدّة بعد الهزائم المتكرّرة التي منيت بها جيوشه، خاصّة في عين جالوت وحمص، ولم يكن ذلك ليتحقق إلا بسبب الانقسام الذي حدث في الامبراطورية المغوليّة بعد موت منكوخان، فقد استأثر هولاكو بإيلخانية فارس، ومثله فعل قوبلاي بالصين، وأخذ كايدو، حفيد أوكتاي خان، بلاد ما وراء النهر، وكان عدوا لدودا لقوبلاي خان، وحازت أسرة جغتاي التركستان، وأخيرا كان القفجاق من نصيب بركة خان المسلم، وبينما كان هولاكو تحت تأثير زوجته المسيحية النسطورية دوقوز خاتون حاميا للمسيحية، لم يألو بركة خان أيضا جهدا في نصرة الإسلام وكانت انتصارات هولاكو على المسلمين تثير اشمأزازه واستنكاره خاصة بعد أن أقدم على إعدام الخليفة العباسي(2)، وعلى هذا لم يكن مفاجأ أن يولد على أثره تحالفا بين بركة والمماليك المصرية ضد مغول فارس، فقد بدأت الاتصالات بين الطرفين بتبادل الرسائل والسفارات منذ الفترة 1262-1263م، وفي الفترة نفسها اندلعت الحرب بين بركة خان

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 661هـ، ص 549 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 170- 171.

(2) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 612.

وانظر أيضا : الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب محمد صادق نشأت و فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج1، ص 332.

وهولاكو تمخظت بانهزام الأخير(1)، ويبدو أنّ أسلمت روسيا المغوليّة، المعروفة بالقفجاق، والتركستان لاحقا، وظهور قوّة فتية متمثلة في المماليك البحرية في مصر والشام، كانت كافية لإحراج سياسة إيلخانيّة إيران الفتيّة التوسعيّة، التي بقيت وحدها وفيّة للنساطرة ومعادية للإسلام، بما أنّها أصبحت بهذا الشكل محاصرة من عدة جهات فلم يعد من السهل لهولاكو أو لخلفائه فيما بعد إعداد حملات صليبيّة مغوليّة مُشتركة جادّة باتجاه حلب وحمص أو إمداد الأرمن والفرنج دون أن تكون مخاطرة التعرض لهجوم بركة خان من جهة القفجاق أو مغول التركستان من جهة خرسان، وهكذا أصبحت الحملة الصليبيّة المغوليّة مشلولة تماما، وقد أثارت هذه الوضعيّة الكارثيّة بالنسبة لمملكة أرمينيا الصغرى والفرنج على السواء حفيظة المؤرخ الأرمني هيثوم الذي يذكر أنّ سطوة السلطان المملوكي بيبرس كانت شديدة إبان حكم أبقا خان، خليفة هولاكو، على الإيلخانيّة، فقد تحالف السلطان مع بركة خان القفجاق واتفقى على مهاجمة الإيخانيّة سويا إذا ما تجرّء أبقا في الاعتداء على مصر أو الشام، وقد تسبب هذا الحلف في فقدان الصليبيين لأنطاكية وعدّة أراض أخرى(2).

**طـ <u>علاقة السلطان الظاهر بيبرس بالبيزنطيين</u> :**

لم يكتفي بيبرس بمحالفة مغول القفجاق ضدّ أعدائه المغول الإيلخانيين فحسب، بل ذهب إلى كسب ودّ المسيحيين البيزنطيّن أيضا ضدّ عدوّهما المشترك المتمثّل في الصليبيين شرقا وغربا، وقد أثبت السلطان الظاهر بهذه الحركة أنّه على قدر كبير من الحنكة والمهارة السياسيّة في استقطاب الحلفاء، ذلك أنّه بعث الأمير كشربك، وهو رجل تركي كان جمدار خوارزم شاه، له معرفة بالبلاد والألسنة، والفقيه مجد الدين الروذراودي، بصحبة نفرين من مغول بركة خان، الذين قدموا مصر فارين من هولاكو بأمر من بركة خان، فجهّزهم السلطان وأركبهم في الطرائد وزوّدهم بمؤنة شهور كثيرة، إلى الامبراطور البيزنطي في طريقهم إلى بلاد القفجاق، فأجريت المفاوضات مع العاهل البيزنطي الامبراطور ميخائيل الثامن نتج عنها اتفاقية بترك

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 380- 381 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 613.

وانظر أيضا : الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب محمد صادق نشأت و فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج1، ص 333- 335 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 544.

(2) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXVII, p. 842; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 613, 614.

المضائق مفتوحة أمام التجارة المملوكيّة مع القفجاق لتتمّ الصلة بين مصر وجنوبي روسيا عن طريق البحر، وهي خطّة استدعتها ظروف قاهرة، هي أنّ احتلال هولاكو للعراق وقسما كبيرا من آسيا قد فصل الاتصال المباشر بين مغول القفجاق جنوبي روسيا والمماليك البحريّة، وهي الطريق التي كانت تمرّ من خلالها التجارة، وخاصّة الرقيق منها، الضروريّة لتموين الجيش المملوكي بالرجال(1).

وفي السنوات العشر (660- 671هـ/1262-1272م) تبادل السلطان الظاهر بيبرس والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن الوفود السياسيّة، ووافق هذا الأخير في عام (660هـ/1262م) على مرور المماليك المنتقلين من روسيا إلى مصر، في المضائق، مقابل إقامة بطريق أوثوذكسي في الاسكندريّة، وإرسال بيبرس بطريرقا من الملكانيين (النصارى الملكية) إلى القسطنطينيّة ليرعى شؤون الطائفة الملكانيّة فيها(2)، وما كان من السلطان إلاّ أن استجاب لذلك، فأرسل الرشيد الكمال، وهو أحد رجال المذهب الملكاني بصحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي، ولمّا وصلوا إليه أكرمهم، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبيّة الرابعة، والذي شرع الامبراطور بتجديده، وكان هذا المسجد قد بني في سنة ست وتسعين عندما وقع العداء مع الروم في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأنّ بانيه هو مسلمة بن عبد الملك(3)، وقد أسهم السلطان في بناء المسجد المذكور، فأرسل إليه الحصر العبداني، والقناديل المذهّبة، والسطور المرقومة، والمباخر، والسجادات، والعود، والعنبر، والمسك، وماء الورد، وعاد الأمير أقوش من القسطنطينيّة يحمل هدايا الامبراطور البيزنطي إلى السلطان بيبرس البندقداري(4).

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج1، ص 549 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 139- 140.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 543 ؛ رستم أسد : الروم وسياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، المكتبة البولسية، ط 2، لبنان، 1988م، ج2، ص 216.

(3) العيني (بدر الدين محمود) : عقد الجمان، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 332، هامش 2 ص 332 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 129؛ المقريزي: المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 543.

(4) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 129 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 543 ؛ العيني (بدر الدين محمود) : عقد الجمان، ج1، أحداث سنة 660هـ، ص 332.

وانتهز الامبراطور البيزنطي فرصة مرور بعض المماليك بالقسطنطينيّة في عام (661هـ/1263م)، فطلب من السلطان أن يقنع خان القفجاق بالتزام الحياد تجاه الأوضاع المتدهورة في البلقان، والواضح أنّ ميخائيل الثامن كان بحاجة إلى دعم المماليك في مصر ليواجه أعداءه في الغرب الأوربي ومن أجل ذلك لم يشأ إغضاب السلطان، وقد حدث في عام (662هـ/1264م) أن عرقل الامبراطور مرور رسل السلطان أثناء عبورهم لبلاده في طريقهم إلى خان القبيلة الذهبيّة حتّى هلك أكثر ما معهم من الحيوانات، فغضب الظاهر بيبرس لذلك وجمع البطارقة والأساقفة وأشهدهم على مخالفة الامبراطور للأيمان والعقود بين الطرفين، فقد سألهم عمن خالف الأيمان وما كتب به الأشكري(الامبراطور البيزنطي) فأجابوا بأنّه يستحق أن يُحرم من دينه، فأخذ السلطان خطوطهم بذلك وأخرج لهم حينئذ نسخ أيمان الأشكري، وقال "إنّه قد نكث بإمساك رسلي، ومال إلى جهة هولاكو، ثمّ جهّز له الراهب الفيلسوف اليوناني ومعه قسيس وأسقف بحرمانه من دينه، وكتب له كتابا أغلض فيه، وكتب السلطان أيضا إلى بركة خان كتابا وسيّره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودي المتوجّه إلى بركة بالهدايا، ويبدو أنّ هذا الامبراطور استدرك خطأه حينما وصله التوبيخ العنيف فأطلق سراح الرسل، وسمح لهم بالسفر إلى بلاط بركة خان، وبعث في الوقت نفسه الهدايا إلى مصر ليسترضي السلطان بيبرس(1).

**3- <u>علاقة هولاكو(651-756هـ/1253-1265م) بأوربا وبيزنطة</u> :**

تُعتبر معركة عين جالوت، ببلاد الشام، سنة 658هـ/1260م والتي انهزم فيها جيش المغول وحلفائه من الصليبيين أمام جيش المماليك المصرية، الحدث المفصلي بين مرحلتين : مرحلة الاكتساح المغولي، الشبه كامل، لبلاد الإسلام، ومرحلة التقهقر والصدمات التي بدأت تتوالى على المغول والصليبيّين، على السّواء، لذا كان من الظروري على هذان الطرفان إعادة النظر في سياساتهما، عامّة، والشروع في تكريس التحالف بينهما، خاصة، لأهداف مشتركة علّهم يسترجعون قواهم لمواجهة قوّة الإسلام، الفتية والمتجدّد، المتمثّل في دولة المماليك في مصر والشام.

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 662هـ، ص 10 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 139- 140.

**أ- محاولة التحالف بين هولاكو والنصارى بعد هزيمة عين جالوت :**

أجمع معظم المؤرخون على أن أوضح سبب لبدأ اتصال هولاكو باللاتين هو حاجته الماسّة للتعاون معهم، وكان ذلك بعد الهزيمة التي منيت بها قواته في موقعة عين جالوت سنة 658هـ/1260م أمام جيش المماليك المصرية، بالإضافة إلى دخوله في صراع مسلح مع مغول روسيا ابتداءا من عام 1261م إذ مني جيشه بخسائر فادحة أمام مغول القبيلة الذهبيّة في عام 659هـ/1261م، والتي قدرت بمقتل أكثر من ثلاثين ألف جندي، وقد مرّ بنا أنّ الغرب الأوربي قد سبق له إرسال عدة سفارات إلى المغول، في الفترة (1245-1254م)، لغرض التحالف ضد المسلمين ولكنها باءت جمعيها بالفشل، فيما وصلت هولاكو عدة نداءات للنجدة من طرف الصليبين في عكا، أثناء غزوه لبلاد الشام، فأبدى هولاكو اهتمامًا للتحاف مع النصارى الغربيّين والشرقيّين، فاتصل بملك أرمينيا وبملك جورجيا وبالصليبيين في المنطقة، يحثهم على الاستعداد للمسير ضدّ مماليك مصر، بينما كانت قوات مغولية من فرع مغول القفجاق تغزو شرق أوروبا، وفي المقابل وصلت إلى الغرب الأوربّي نداءات عدّة من الصليبيّين في عكا أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام، تحثُّ البابويّة وملوك أوربّا الغربيّة على التعاون مع الإيلخان المغولي(1)، إلا أنّ اللاتين لم يثقوا في مراسلات هولاكو ولم يعطوها، هذه المرّة، الأهميّة اللازمة من واقع تجاربهم السابقة في محاولة استدراج المغول للتحالف والتي ذهبت جميعها أدراج الرياح، هذا إذا افترضنا أن الغرب الأوروبي كان لديه القوّة والقيادة الموحّدة التي تجعله يرحب بالتحالف مع مغول فارس سواء بعمليات حربية ضد مغول روسيا في شمال أوربا أو بعمليات عسكرية مباشرة ضد المماليك أو عن طريق الكيانات الصليبية في شرق البحر المتوسط، وذلك أنّ صراع البابوية مع الامبراطور فريدريك، والنزاعات الأوربية الداخلية كانت قد أنهكت كاهلها واستنفذت كلّ قواها (2).

---

(1) الهمذاني (ت.719هـ/1318م) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول)، نقله إلى اللغة العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م، ج1، ص 113، 314، 332- 335؛ المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص544.
وانظر أيضا : Richard Jean, The Mongols and the Franks, pp. 52-53; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West, History Today, XXIII, 8, 1973, pp.556-557; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p. 68, 69; Hayton, La Fleur des Histoires., p. 840, 841; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 338-339, 377; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit.,Part III, p. 168-169, 197.

(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 106.

ويتضح من خلال التقرير الذي قرأه مبعوثو أبغا خان بن هولاكو (1265-1282م) أمام مجمع ليون الرابع عشر عام 1274م، أنه أثناء وجود هولاكو في بلاد الشام سنة 1260م أرسل بطريرك مملكة بيت المقدس في عكا سفارة إلى هولاكو، بأمر من البابا أوربان الرابع (1261-1264م)، للاطلاع على حقيقة الأوضاع في بلاد الشرق والتأكّد من نوايا هولاكو تجاه الصليبيّين في المنطقة، برئاسة الراهب الإنجليزي الدومينيكاني داوود الأشبي David of Ashby , D'Achby ، فحدثه عن عقيدة الدين المسيحي وعن قداسة البابوية، أملا في أن يتنصّر، وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يُدعون بالإفرنج، إلا أنّ هولاكو احتجز المبعوث البابوي في تبريز لاستخدامه في بلاطه، فاستغلّ داود تواجده في إيران للتبشير بالمسيحيّة بين المغول وغيرهم حتى أرسله أبغا بن هولاكو بعد ذلك على رأس بعثة مغولية للغرب الأوربي في عام1274م (1).

ويبدو أنّه لمّا أرسل هولاكو سفارة من قبله، عام 660هـ/1262م، تحمل رسائل إلى البابا أليكساندر الرابع (1254- 1261م) Alexandre IV وإلى ملوك الغرب الأوروبي(2)، قبض عليها مانفريد هوهنشتاوفن، ملك صقلية الذي كان في تلك الفترة في شقاق مع البابوية وحليفها شارل الانجوي، وصادر الوثائق التي كانت معها(3)، وكان حنا المجري (جون الهنغاري) John the Hungarian ضمن أفراد هذه السفارة وقد تمكّن في الهروب من سجّانيه والوصول إلى البابا أوربان الرابع (1261-1264م)، الذي كان قد خلف سالفه على عرش البابويّة، فحكى له مقتطفات من الخطابات المفقودة وهدف السفارة المغولية(4)، والواقع أنّ هولاكو كرّر في رسائله تلك توجهات المغول بالسيادة العالميّة، وأنّ على كلّ شخص، بمن فيهم البابا وملك فرنسا، الخضوع لإمارة المغول (5).

---

(1) أنظر : Richard Jean, The Mongols and the Franks, p. 53; Richard (jean), le debut des relations., p. 291.

(2) أنظر : Paul Meyvaert, An unknown Letter of Hulagu, IL-khan, of Persia to king Louis IX of France, Viator, XI, 1980, pp. 245-249; Baronii(caesaris cardinal), Annales ecclesiastici, italie, 1870, T.XXII, p. 59- 60, no. 29-32.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 107.

(3) أنظر : Richard (Jean), The Mongols and the Franks, p. 53, note 32.

(4) أنظر : Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West, History Today, 1973, p.556; Richard (Jean), The Mongols and the Franks, p. 53; Richard (jean), le début des relations., p. 291, 292.

(5) أنظر : Richard (Jean), The Mongols and the Franks, pp. 53.

وفيما عثر الباحث باول ميفارت Paul Meyvaert على خطاب هولاكو المرسل مع هذه السفارة إلى الملك الفرنسي لويس التاسع، إلا أنه لا وجود لدليل قطعي على اطلاع الأخير عليه، وكان هولاكو يكرر فيه نغمة أسلافه القديمة عن الرسالة السماوية التي تلقاها جنكيز خان بالسيادة العالمية، وانه يجب على كل أمراء العالم، بما فيهم لويس التاسع، الخضوع لإمرة وقوانين المغول، ويأمر الملك الفرنسي "إقناع القوات اللاتينية في سوريا بأن تستعد على طول السواحل وأن تستخدم السفن الحربية ضد المماليك المصريّة والشاميّة، حتى إذا ما هاجم المغول عدوهم المشترك فإنّ المسلمين لا يجدون مكانا يتراجعون إليه، وبذلك يمكن تدميرهم"، ولم ينس هولاكو أن يحذر الملك الفرنسي بأنه إذا لم تأته هذه المساعدة فإن مصيره سيكون مثل هؤلاء الكفرة العصاه، يعني المسلمين، وفي محاولة من الإيلخان المغولي لاستمالة الملك الفرنسي لقبول اقتراحه فإنه يذكر له حبه للمسيحيين في إيلخانيته وإعفائه للكنائس وكذا رجال الدين المسيحيين من الضرائب، وأنه قد أمر بأن تُسلّم مدينة بيت المقدس للبابوية عن طريق جون الهنغاري حامل هذه الرسالة بعد استردادها من المسلمين(1)، ويبدو أنّ هناك خطابات أخرى أرسلها الإيلخان هولاكو إلى القوى المسيحيّة الأخرى في الغرب الأوروبي، ونظرا لضياعها فلا نستطيع الجزم على تشابه محتواها بالتي أرسلت إلى العاهل الفرنسي ولو كانت تلك سنّة الأباطرة المغول قاطبة، ومهما يكن من أمر فقد كان لوصول جون الهنغاري للمقر البابوي، وإحاطته علما بمحتويات الرسائل المفقودة، تأثيره على قيام البابا أوربان الرابع بكتابة رسالة، غير محددة التاريخ ولا تحمل اسم المرسل، إلى هولاكو في ذلك العام أي سنة 1262م، وقد أورد كل من الباحثين دوهسون d'Ohsson(C.) والإنجليزي هنري هوارث Howorth(H.) الترجمة الانجليزية في كتابيهما لهذه الرسالة ولكنهما أخطئى في تاريخها وفي اسم المُرسل، فبينما ذكر الأوّل سنة 660هـ/1260م، زعم الثاني أنّها سنة 1261م، وأنّ الراسل هو البابا الكسندر الرابع (1254-1263م)، ولكنّ المعلومة تم تصحيحها بعد اكتشاف الباحث "مايفارت Meyvaert" لخطاب هولاكو على النحو الذي أعلاه(2)، وقد احتوت الرسالة على مباركة

---

(1) أنظر : Baronii(caesaris cardinal), op. cit., p. 59, no. 29; Paul Meyvaert, An unknown., pp. 240-249.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 107، 108.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 410; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 210; Michaud, Histoire des croisades, Paris, 1856, T. III, Livre XVII, p. 242, et note 2; Paul Meyvaert, An unknown., pp. 245-249.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 108.

وتهنئة البابا لهولاكو على استيلائه على بغداد وقتله للخليفة العباسي وكذا تعابير الفرح والسرور والرضا لما سمعه من جون الهنغاري عن رغبة هولاكو، المزعومة، في اعتناق المعتقد المسيحي على المذهب الكاثوليكي، ونيّته في التعميد، ويحثه لاعتناق المسيحيّة لما في ذلك من فائدة دنيويّة من واقع تأييد الرب له ومنحه القوّة للوقوف في وجه المسلمين، وفائدة أخرويّة تضمن له المجد الخالد في الآخرة، والعجب لسفاهة القوم أنّه إذا كان الرب سيمنح لهولاكو القوّة وينصره على أعدائه باعتناقه المسيحيّة فلماذا إذًا لم ينصر البابويّة وملوك أوربّا الصليبيين في صراعهم ضدّ المسلمين وهم أهل المعتقد المسيحي ؟، ويبلغه بأنه وكل رعاياه اللذين سيقتفون أثره سوف ينالون المثوبة في الآخرة إذا ما نالوا المعمودية فعلا، وهكذا ذهب البابا الصليبي بوقاحته ودهائه الهدّام يُمنيه ويخرّضه بقوله أنه لو عمد فعلا فإنه سيرى "كيف ستزيد قوتك في حربك على الكفرة، يعني المسلمين، لو أن الجنود المسيحيين يساعدونك علانية وبكل قواتهم بفضل معونة الرب، ومن ثم فإنك ستزيد قوتك في الدنيا وبالتأكيد سوف تضمن المجد الخالد في الآخرة ..."، ويمضي البابا بأنه نظرا لأن جون الهنغاري لم يقدم الأدلة الدامغة على حقيقة نية هولاكو بالتنصر والتحالف مع الغرب نظرا لمصادرة مانفرد، ملك صقلية وهو ابن فريدريك الثاني، للخطابات التي معه فإنه، أي أوربان الرابع، لا يمكنه الشروع في تهيئة الأجواء الأوربيّة لخوض حرب صليبيّة مشتركة مع المغول ضدّ المماليك المصريّة دون التأكّد من صحّة الأخبار التي وصلته، ولذلك أرسل لبطريرك مملكة بيت المقدس، الذي هو ممثل البابا في الشرق اللاتيني، للتأكد من جديّة المعلومات الواردة (1)، وحينما وصل رد البابا إلى هولاكو وجد هذا الأخير منشغلا بالاستعداد للرد على هزيمته من خانيّة بركة القفجاقيّة في روسيا، فلم يلقى البابا أيّ تعقيب منه خاصّة وأنّ هولاكو لم يلبث طويلا بعد ذلك حتّى هلك حزنا وكمدا في ربيع الآخر سنة 663هـ/1265م بوذيا مجوسيا بقول رشيد الدين الهمذاني أنه بنى في آخر حياته معابد للأصنام في مدينة خوى (2)، ومن ثم فان خطاباته السابقة للغرب الأوربي عن نيّته التنصر على المذهب الكاثوليكي لم تكن إلا طعما للغرب الأوربي الذي كان يحلم

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 410- 412; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 210; Michaud, Histoire des croisades, Paris, 1856, T. III, Livre XVII, p. 242, et note 2; Paul Meyvaert, An unknown., pp. 245-249.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 108.

(2) الهمذاني (ت.719هـ/1318م) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول)، نقله إلى اللغة العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م، ج1، ص 335، 337 ،340- 341 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 109.

بتنصر قادة المغول لجرهم للتحالف معهم ضد المسلمين.

**ب- محاولة التحالف بين هولاكو وبيزنطة عن طريق التناسب :**

وفيما يخص الجانب البيزنطي فقد رأى هولاكو في التحالف مع هؤلاء النصارى الأرثوذكس الشرقيّين، وسيلة تُمكّنه من إحكام قبضته على السلاجقة في الاناضول، وعاملاً مساعدًا في حربه مع المماليك، فقد كان الموضع الجغرافي لمغول فارس زمن هولاكو خان يجعل الإيلخانيّة بين فكّي كمّاشة المماليك المصريّة والشاميّة غربا والقبيلة الذهبيّة شرقا، ففكّر هولاكو أنّه من الأنسب إيجاد حليف مثل بيزنطة لإحكام قبضته في المنطقة، وتوافقت مصلحة امبراطور القسطنطينيّة، ميخائيل الثامن باليولوغوس، لاكتساب صداقة المغول وتعزيز النفوذ النصراني في البلاط المغولي، فانطلقت المباحثات من أجل ذلك بين الطرفين، واعتقد أنّ التقارب الأسري بين تبريز والقسطنطينيّة خطوة تمهيديّة للوصول إلى هذا التحالف، لذلك أجرى هولاكو مباحثات مع الامبراطور من أجل اختيار فتاة من الأسرة الحاكمة ليتزوج بها، واستقرّ الأمر على مشروع زواج هولاكو من ابنت غير شرعيّة للامبراطور تدعى ماريا، فرافقها البطريرك يوثيميوس إلى تبريز، وعندما وصلت إلى البلاط المغوليّة ألفت هولاكو قد مات، فبادرت بالزواج من ابنه أباقا، وقد عُرفت من ذلك الوقت باسم ديسبينا خاتون، واشتهرت بالتعصُّب الديني والحميّة المسيحيّة، ووجد فيها النصارى حاميًا وناصرا جديدًا لهم في إيلخانيّة بلاد فارس بعد أن فقدوا زوجة هولاكو المسيحيّة السابقة دوقوز خاتون(1).

**ج- رد فعل البابوية من خطر السلطان بيبرس على عكا :**

وفي ظلّ التفكك والتنازع الصليبي الداخلي في بلاد الشام وانشغال مغول فارس بمشكلاتهم الداخليّة وصراعهم ضدّ خانيّة القفجاق، كان السلطان الظاهر بيبرس يخطو خطوات حثيثة لاسترجاع الاراضي الإسلاميّة من يدي الصليبيين المغتصبين، وقد وصلت، في سنة 1263م إلى أوربا، أخبار وقوف الظاهر بيبرس، في الرابع عشر من شهر أبريل (14 أبريل)، أمام أبواب عكا على رأس ثلاثين ألف مجاهد ونهبه لباديتها، وتهديمه لدير في مدينة بيت لحم، فما كان من البابا أوربان الرابع (1261- 1264م) إلاّ أن كتب، في 13 ديسمبر 1263م، إلى الملك

---

(1) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص334.

وأنظر أيضًا : Abel-Remusat(J.), Mémoire sur les relations politiques des Princes Chretiens, et particulierement des Rois de France, avec les Empereurs Mongols, in Memoires de l'Istitut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, VII, Paris, 1824, p. 79 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.II, p. 417- 418; Howorth (Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Division I, pp. 206- 210.

الفرنسي لويس التاسع يستغيثه ويستحثه على إنجاد الصليبيين في فلسطين، وفي رسالته يذكر له مصائب تلك البلاد، بأنّه لمّا دخل المغول بلاد الشام أوضعوا السيف في المسلمين les Sarrasins، ثمّ حلّت العقوبة على أولائك المغول لأنّهم أساؤوا معاملة الصليبيين، يعني بذالك هزيمة عين جالوت، فكانت تلك بداية لفاجعة المسيحيين في الشرق إذ أنّ السلطان المملوكي في مصر وهو الظاهر بيبرس استولى على الناصريّة وهدّم كنيسة في مرتفع مدينة الخليل الفلسطينيّة Mont-Thabor ثمّ توجّه إلى عكّا يُهدّد فيها الصليبيين، وأخيرا مضى البابا في رسالته يحث المسيحيين جميعا إلى حملة صليبيّة ضدّ المماليك المصريّة(1)، ولم يكتفي البابا بإرسال الرسائل والخطب الرنّانة المشحونة بالكراهيّة والعداء لكلّ ما هو مسلم وتحريضه لإعادة غزو بلادهم، بل تعدّاها إلى محاولة التجسيد العملي، ذلك أنّه قدم في تلك الآونة إلى أوربا راهبا فرانسيسكانيا اسمه غليوم الطرابلسي Guillaume de Tripoli، وهو من سيكون فيما بعد أسقفا في بيت لحم الفلسطينيّة، فعرض على وجهاء أوربا الوضع الكارثي المتهالك للصليبيين في بلاد الشام، وطلب منهم النجدة، فما كان من البابا إلاّ أن أمر برفع نسبة الضريبة على دخل الكنائس في فرنسا لمدّة خمس سنوات لتمويل الحملة الصليبيّة، إلاّ أنّ الأساقفة رفضوا ذالك الإجراء، واعترض رؤساء الأساقفة في كل من مدينة رامس Reims وسانس Sens وبروج Bourges عن ذلك القرار البابوي واعتبروه اجحافا واختلاسا، أوجب توبيخ البابا لهم، وقد كتب البابا أيضا إلى أصقف صيدا، الذي كان موجودا في فرنسا في تلك الآونة، وإلى أساقفة إنجلترا واسكتلندا والدنمارك يحضهم ويأمرهم بالدعاية للحرب الصليبيّة في الشرق وتجهيز الأموال والرجال لها(2)، ولكن يبدو أنّ كلّ تلك الجهود التي بذلها البابا أوربان الرابع لتحقيق الحملة ذهبت سدا وذلك لأنّه لم يلبث طويلا حتّى مات في سنة 1264م دون تجسيدها، بينما لم يُوفّق من همّته إلاّ في عقد مجمّع بسيط في باريز الفرنسيّة سنة 1264م لإذكاء مشروع الحملة الصليبيّة إلى الشام، وبعدها أرسل إلى مرتزقته الصليبيين في الشام يمنّيهم ويطمئنهم بأنّهم لن تتأخّر عنهم النجدة والإمدادات، وناشدهم بإنهاء خلافاتهم الداخليّة، وأرسل رسائل تهنئة إلى الأمراء الأوربيين الذين تعهّدوا بالمسير في الحملة(3)، ولكن هيهات إذ لم يتحقق منه شيء.

---

(1) أنظر : Baronii(caesaris cardinal), op. cit., , pp. 93- 94, no. 1-7 ; Michaud, bibliographie des croisades, Paris, Libraire Palais royal, 1822, T. II, pp. 89-90.

(2) أنظر : Baronii(caesaris cardinal), op. cit., p. 95, no. 9-11; Michaud, bibliographie., T. II, p. 90.

(3) أنظر : Michaud, bibliographie., T. II, pp. 90- 91.

**د- موت هولاكو :**

كان قد حدث في غرّة ربيع الأول من عام 661هـ/1262م أن هُزم جيش هولاكو مقابل بركة خان القفجاق، فأثّرذالك على صحّته أيّما ضرر، وفي يوم من شهر ربيع الأول سنة 663هـ/1264-1265م خرج للصيد واللهو والترفيه عن نفسه فشُغل بذلك عدة أيام حتى اعترته نوبة صرع شعر على أثرها بالتعب وثقل جسده، فلزم الفراش ولم ينفعه طبيب ولا دواء، فمات عند نهر جغاتو، جنوبي بحيرة أرومية يوم الأحد 19 ربيع الآخر 663هـ/8 جانفي 1265م وهو ابن ثامنة وأربعين سنة (1).

وأمّا فيما يخص ورثة الإيلخانيّة فقد خلّف هولاكو أربعة عشر ولدًا وسبع بنات، أشهرهم أبقا، وهو الابن الأكبر وخليفته على العرش، وتكودار وهو الابن السابع وأوّل من اعتنق الإسلام من أولاده، وعمد هولاكو قبل وفاته إلى توزيع المناصب على أولاده وأمرائه المخلصين، فاختار ابنه أباقا واليًا على العراق وخراسان ومازندران، وولّى ابنه يشموت أرّان وأذربيجان، وعيّن الأمير أنكيانو على فارس، وأعطى الجزيرة لأحد أمرائه، ونصّب معين الدين بروانه، وزير سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، واليًا على بلاد الروم، نظرًا لما أظهره من الإخلاص والطاعة للمغول، وعهد بحكم بغداد إلى المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني، واستوزر ثلاثة من المسلمين هم : سيف الدين بتيكجي الخوارزمي، وهو أوّل وزير مسلم، وأعقبه شمس الدين محمد الجويني، أخا عطا ملك، في منصب صاحب الديوان للبلاد كلها، وأطلق يده في حل الأمور وعقدها، وكان نصير الدين الطوسي يشارك في مقام الوزارة والاستشارة(2).

## II- الأوضاع في عهد إيلخانيّة أبقا بن هولاكو:

### 1- اعتلاء أبقا بن هولاكو(663-680هـ/1265-1282م) عرش الإيلخانيّة :

عندما توفي هولاكو كان أباقا في مشتى مازندران في جنوبي بحر قزوين، فاستدعاه الأمراء على الفور ليخلف والده بوصفه الابن الأكبر، وعندما وصل العاصمة تبريز في 19 جمادى الأولى 663هـ/1 فيفري1265م بايعه الأمراء، ثمّ وصل الفرمان من قبل الخان الأعظم

---

(1) الهمذاني (رشيد الدين فضل الله) : جامع التواريخ، تاريخ هولاكو، تعريب محمّد صادق نشأت ومحمّد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصيّاد، راجعه وقدم له يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م، ج1، م2، ص 335، 340، 341 ؛ ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2003م، ص253.

(2) محمد سهيل طقوش : تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، ط 1، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، ص 202، 203.

قوبيلاي بتوليته في 3 رمضان/19 جوان(1)، فشرع أباقا، بعد ذلك، في توزيع الإقطاعات وتعيين حكام الولايات، فعيّن أخاه يشموت والياً على دربند و شروان ووادي موقان وألاتاغ، وعهد بقيادة الجيوش المغولية في بلاد الروم والشام على اثنين من أشهر قادته أحدهما يدعى سمغار، وثبّت شيرامون بن جرماغون حاكمًا على بلاد الكرج، وعهد بشؤون العراق إلى سونجاق نوين، ولكن هذا الأمير أناب عنه المؤرخ عطا ملك الجويني في حكم بغداد وكل العراق العربي، والمعروف أنّه كان قد تولّى هذا المنصب في عهد هولاكو، وعهد إلى شمس الدين محمّد الجويني بمنصب الوزارة، و كان هو الآخر قد تقلّد هذا المنصب في عهد هولاكو، وأُطلق عليه صاحب الديوان(2)، أمّا الخواجة بهاء الدين محمّد ابن صاحب الديوان، فكان يُزاول عمله في أصفهان وقسم من العراق العجمي، وولّى اثنين من الأمراء المحليّين على خراسان، وعهد بكرمان إلى تركان خاتون، وإيران إلى آبشب خاتون، وعيّن على هراة وغور وغرجستان الأمير شمس الدين كرت، وأدار الأتابكة في لورستان ويزد الشؤون العامّة، في حين حكم الأمراء الأيوبيون مناطق الجزيرة(3).

ويبدو أنّ أبقا ورث أيضا العداوة التي كانت بين هولاكو وبركة خان القفجاق الذي كانت له علاقات طيبة مع القاهرة والدول الأخرى التي لها علاقات سياسيّة مع المماليك، ومن بينها مملكة هوهنشتاوفن في صقليّة، ومملكة كاتالونيا في إسبانيا التي تربطها أوصال الصداقة العائليّة مع صقليّة، وبفعل النزاع السياسي الذي كان سائدًا آنذاك في إيطاليا حيث كانت عائلة هوهنشتاوفن معادية للبابا وللملك الفرنسي اللذين كانا يعملان معًا في المحافظة على ما بقي من إمارات صليبيّة في الشرق الأدنى، وكانت الدولتان الصليبيّتان اللتان بقيتا في الشرق، وهما طرابلس وعكّا، تعتمدان اعتمادًا كليًا على تأييد البابويّة والدولة الفرنسيّة، وتُشكّلان شوكة في خاصرة الدولة المملوكيّة بمصر والشام، وهكذا أضحى الصليبيُّون وحُماتهم الفرنسيّون الأصدقاء الطبيعيّون للإيلخان في فارس كونهم مشتركين في عدائهم لمصر(4)، وقد تسلّم البابا أوربان الرابع في سنة 1265م رسائل استغاثة من فلسطين تخبره باستيلاء الظاهر بيبرس على قلعة أرسوف بعد أن فتح قيصريّة، وأنّه قُتل تسعين من الفرسان الإسبيتاريّة بينما أسر كلّ من

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، ج2، ص 9- 11.
(2) الهمذاني: المصدر نفسه، ج2، ص 11، 12 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 444.
(3) الهمذاني: المصدر نفسه، ج2، ص 12، 13.
(4) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص61.

كان يحتمي بالقلعة وأخذوا إلى مصر وعددهم نحو الألف نفس، وفي نشوة النصر استمرّ السلطان المملوكي في حصار وإسقاط عددا آخر من القلاع الصليبيّة، وألقى الرعب في مدينة عكّا، ففزع البابا لهذه الأخبار وأخذ يرسل إلى ملوك وأباطرة أوربّا يستغيثهم ويستنفرهم من أجل توجيه حملة صليبيّة إلى الشرق، من بينهم الملك الفرنسي لويس التاسع وثيبو ملك نافار Navarre وأوتوكار Ottocare ملك بوهيميا وألفونس كونت بواتييه comte de Poitiers وعددا من الدوقات وأمراء كل من ألمانيا وبولونيا، وبعث إلى أنحاء أوربا بالدعات الفرنسيسكان والدومنيكان لتحريض الشباب المسيحيين في فرنسا وألمانيا وبولونيا والدنمارك للحرب الصليبيّة المقدّسة، وردّ برسالة مؤرّخة من مدينة بيروس Pérouse الإيطاليّة بتاريخ 8 أوت 1265م، إلى بطريق بيت المقدس وإلى رئيس الأساقفة ورئيسهم في فلسطين، وإلى هيئتي الداوية والاسبيتاريّة وغيرها، برسالة تعزية ومحاولة رفع معنويّاتهم بإخبارهم بقرب قدوم النجدة من فرنسا، بينما بعث برسالة أخرى مؤرخة في 7 أوت 1265م إلى ملك أرمينيا يناشده بنجدة الصليبيين في الشرق(1).

**2- خطورة المماليك المصرية وتهديدهم لاستقرار المغول في المنطقة :**

يُعدّ عهد أباقا خان مرحلة محوريّة، لها أهميّتها الخاصّة، في تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب والشرق الأوربّيّين والإمارات الصليبية في الشام، بحكم ازدياد حاجة هذه الأطراف للتعاون ضدّ عدوهم المشترك المتمثل في المسلمين عامّة والمماليك المصرية خاصة، أمّا في الديار المصريّة فكان الظاهر بيبرس هو السلطان المعاصر لأباقا، وقد شرع بسلسلة من الإصلاحات الداخلية ووطّدة علاقات دبلوماسية خارجية لتطويق منافسيه من الصليبين والأرمن والمغول، فبنا جيشا قويا استطاع به كسر أو تحييد أعدائه من القوى الصليبية، في صراعه مع مغول فارس، وهم مملكة الأرمن وإمارة إنطاكية الصليبية اللتين تحالفتا مع المغول ضد المسلمين سنة 1260م وقبلها، ولما صارت أوضاع الصليبيين في الشرق تزداد سوءا نتيجة هذه التطورات، وبينما كانت البابوية وعروش الغرب الأوروبي من جهة أخرى منشغلة بمشاكلها السياسية والإقليمية عن نجدة الصليبين، رأى هؤلاء أنّ الحاجة ملحّة للتحالف مع مغول فارس ضد المماليك لحفظ ما تبقى لهم من أملاك في المنطقة، وفي سلسلة من الظربات التي وجهها

---

(1) أنظر : Michaud, bibliographie., T. II, pp. 91- 92.

بيبرس ضدّ إمارات الساحل الصليبي تمكن جيش المماليك في الفترة (663-664هـ/1265-1266م) استرجاع مناطق مهمة مثل قيساريه وحيفا وعثليث وأرسوف وصفد من الصليبيين وكذا بعض القلاع التي كانت بأيدي فرسان الداوية مثل صفد لما لها من أهميّة في التحكم في مرتفعات الجليل، وكان فرسان الداوية يتولّون قلعتها بوفرة من الفرسان فكانت معقلا لهم، فسارعت القوى الصليبية الأخرى إلى إبرام معاهدات مع السلطان الظاهر تلتزم فيها بعدم التعدي على المسلمين أو مساعدة أحد ضدهم(1)، وبعدها أرسل السلطان بيبرس تجريدة أغارت على أملاك بوهيموند السادس في طرابلس لشغل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفه ملك أرمينيا الصغرى الذي كانت أرضيه تتعرض في تلك الفترة المتزامنة إي يوم 24 أوت (1266م/ذي القعدة 664هـ) لغزو من قوات المماليك منتهزة انشغال إيلخانية فارس على حدودهم الشرقية، فهزم الأرمن ودخل جيشه مدينة إياس وأذنة وطرطوس ونهبوها ثمّ واصل طريقه إلى العاصمة الأرمنية سيس فدخلها ونهبها ودمرت قلاعهم وحصونهم وقتل أحد أبناء هيثوم الأول في حين أسر ثان له اسمه ليفون، ثم اصطحب الجيش المملوكي عددا كبيرا من الأسرى، بلغ عددهم الأربعين ألفا، وحمل الغنائم عند رجوعه إلى الديار، وفي خريف العام نفسه هاجم الجيش المملوكي أنطاكية، ولكن قادته اكتفوا بالنهب، ويقال أنّ الأمير بوهمند بذل لهم الرشاوي فتخلوا عن مهاجمة المدينة، وحينما وصلت تلك الأخبار إلى مسامع البابا كليمنت الرابع Clement IV (663-667هـ/1265- 1268م) بعث بعدّة رسائل بين شهري أكتوبر ونوفمبر من سنة 1266م إلى البنادقة يحثهم على تجهيز الأسطول الصليبي، وإلى ممثّليه في صقلية وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإلى أساقفة كل من اللوكسونبورج Luxembourg ودوقيّة جوليي Juliers بغرب ألمانيا، يأمرهم بالدعاية للحرب الصليبيّة ضدّ المماليك المصريّة، في حين استمرّ السلطان بيبرس في غزواته لاسترداد أرض الإسلام، فهاجم مدينة عكا في شهر

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص19، 20، 21، 33-35 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 232-233، 234، 235- 239، 254- 255 ؛ محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، ص 327- 328.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 420; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 225; Stevenson(W.B.), The Crusaders in the East (A brief History of the wars of Islam with the Latins in Syria during the twelfth and thirteenth century), Cambridge, University press, London, 1907, pp. 339-340.

ماي من العام التالي، 1267م، واكتفى بتخريب ما حول المدينة من قرى(1)، ثمّ لم يرجع جيش المماليك المصريّة إلى مداهمة أنطاكية إلاّ في الرابع عشر من مايو سنة 1268م بينما كان أميرها بوهمند غائبا في مدينة طرابلس، ففتحت أنطاكيّة واستردّت إلى بيت الإسلام يوم 18 مايو 1268م بعد حصار وقتال وكانت أغنى مدن الإمارات الصليبيّة، وكان سقوطها صدمة كبيرة للعالم الصليبي بخاصة والعالم الأوربي بعامة، وتحولت طرق التجارة عنها إلى مدينة إياس ففقدت أهميتها التجارية، وانتقل مقر الكنيسة اليعقوبية والأورثودكسية إلى دمشق(2). وهكذا ظهرت للعيان عبقريّة السلطان المجاهد الظاهر بيبرس في تحركاته السريعة والخاطفة والممنهجة في تقويض وكسر أعدائه المغول بضرب حلفائه من الصليبيين والأرمن والكرج ليعلموا أنّه لا مفرّ من العقاب وأنّه ليس بمقدور المغول الإيفاء بوعودهم في حماية رعاياهم وحلفائهم.

### 3- سياسة منكو تيمور بن طغان خان القفجاق زمن الظاهر بيبرس :

توفي بركة خان في شهر ربيع الثاني 665هـ/ جانفي 1267م وهو لم يزل يحارب أباقا، إيلخان فارس، وترك ابنين وأحفاد لم يخلفه أحد منهم على العرش(3)، ولكن لم يكن لذلك الحدث الجلل أن يمنع استمرار الاتصالات الطيّبة بين خانيته وبين المماليك المصرية، فلم تنقطع علاقات حسن الجوار والتحالف الاستراتيجي بين السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، ونظيرته خانية القبيلة الذهبية في القفجاق، حتّى بعد وفات الخان بركة، فقد بادر السلطان المملوكي في سنة 666هـ/1267م بإرسال التعازي إلى الخان الجديد منكو تيمور بن طغان بن باطو (665-679هـ/1267- 1280م) يُعزّيه في عمّه بركة خان، ويحُثّه على حرب آباقا بن هولاكو وتوحيد

---

(1) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 498، 499 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 269، 271 ؛ محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، ص 328.
وانظر أيضا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXVIII, p. 842; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 421-422; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 225; Michaud, bibliographie., T. II, p. 92.

(2) محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، ص 329.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، مصر، الجيزة، 1419هـ/1998م، ج17، أحداث سنة 665هـ، ص 471.

الجهود لمواجهة أخطار مغول إيران(1)، وبالمقابل قدمت على السلطان في عام 667هـ/ 1269م، وهو في دمشق، رسل منكو تيمور والإمبراطور البيزنطي وأباقا وملك أرمينيا وبعض أمراء العرب للتباحث بشأن العلاقات الثنائيّة فاستقبلهم بحفاوة دلّت على ثبوت السياسة القديمة(2)، ورغم أنّ منكو تيمور لم يكن مسلما إلاّ أنّ سياسته لم تعادي الاسلام أو المسلمين أو تعرقل انتشار عقيدتهم، فأثمرت هذه السياسة في اعتناق بعض أمراء المغول الدين الإسلامي وكان من بينهم الأمير بيسو نوغاي، قريب الخان بركة وهو أكبر مقدمي جيوشه، الذي بادر بإرسال رسالة إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة 669هـ/1271م يخبره فيها باعتناقه الاسلام وأنه وقومه مخلصون للسلطان المملوكي ويأتمرون بأمره، وهو طوع بنانه، فأجابه السلطان بالشكر والثناء عليه، الأمر الذي يدل على أنّ التحول إلى الاسلام كان ظاهرة مستمرّة، بينما تقهقرت المسيحية النسطورية إلى الوراء وخسرت كل نفوذها في بلاد القفجاق عامة وفي بلاط الخان خاصة بعد إسلام بركة خان، رغم أنّ العمل التبشيري كان مكثفا ومضاعفا في المنطقة وبخاصة في بلاد القرم وحوض نهر الفولجا لأنّ بركة خان، اتسانا بالحرية العقدية التي عرف بها المغول، سمح للرهبان الفرنسيسكان وتجار جنوة بالظهور في بلاده منذ سنة 656هـ/1258م، وسمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية في مدن كفا وآزوف وسراي، واستخدم الأساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطة(3)، وعلى هذا فإنّه واضح للعيان أنّ مغول القفجاق كانوا واعين ومدركين أهميّة سياسة التسامح الديني وفتح الأبواب على مصراعيها للإرساليات التبشيرية والتجار الأجانب نظرا لأنّ التجارة كانت تمثل العمود الفقري لاقتصاد بلادهم.

وورث منكو تيمور العداوة التقليديّة مع الإيلخانيّين في إيران، فأرسل حملة عسكريّة لمهاجمة المناطق الحدوديّة في الدربند، ومن جهته، جهّز أباقا حملة عسكريّة للتصدّي لقوّات منكو تيمور، كما بنى سدًا في الدربند يُدعى سيبا لحماية الحدود، ثُمّ تفاهم الطرفان لعقد الصلح،

---

(1) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص411 ؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص47.

(2) العيني، بدر الدين محمود : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين الماليك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتاب والوثائق القوميّة، مصر، القاهرة، 1431هـ/2010م، ج2، ص39-44.

وانظر أيضًا : D'Ohsson(C.), op. cit., T. III, p. 426.

(3) أنظر : Sanders(J.T.), The History of the Mongol conquests, Cambridge University Press, London, 1871, pp. 158- 170.

وانظر أيضا : المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، أحداث سنة 669هـ، ص69 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص371- 373؛ الرمزي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار، أورنبورغ، ط1، د.ت. ، ج1، ص 462- 463 ؛ رجب عبد الحليم محمّد : انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربيّة، القاهرة، د. ت.، ص 116، 118.

وتحسّنت العلاقات بينهما، ذلك أنّ أباقا إيلخان فارس شعر بعجزه عن انتهاج سياسة الحرب مع جيرانه، فساد السلام بين الطرفين، حتّى أنّ منكو تيمور أرسل رسلا إلى أباقا في عام (669ه/1270-1271م) وحمّله أنواعا من التحف والهدايا مهنّأ أباقا لانتصاره على براق أمير المغول الجغتائيين في بلاد ما وراء النهر، وأرسل إليه هديّة من الطيور الباز والشن والسنقر والشاهين، فأمر أباقا خان بإكراه الرسل، ثمّ أذل لهم بالانصراف وحمّلهم بالهدايا إلة منكو تيمور(1).

ولكن يبدو أنّ الهدنة بين الطرفين لم تدم طويلا، فقد تجدّدت العلاقة العدائيّة بين الدولتين في أواخر عهد أباقا، ولذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه علاقة مغول القبيلة الذهبيّة بالمماليك الذين راحوا يُحرّضونهم على حرب أباقا، فضلاً عن استمرار انتشار الإسلام بين هؤلاء المغول، وتأثير ذلك في ترجيح الميل إلى المسلمين، ما أدّى إلى هذه الأحداث التي ذكرها رسل مغول القبيلة الذهبيّة أمام قلاوون في عام 679ه/1280م، وقد أفادوا بأنّ "أولاد أخي بركة خان طلعوا على التتر وأخذوا بيوتهم وكسروهم مرّتين، وأنّهم معهم في أتعس الأحوال"(2).

**4- علاقة منكو تيمور السياسية والتجارية تجاه أوربا شرقا وغربا :**

حافظ منكو تيمور على السياسة التقليديّة لمغول القبيلة الذهبيّة تجاه أوربّا شرقا وغربا، فأمّا الإمارات الروسية الخاضعة لمغول القفجاق فإنّ هؤلاء آنفوا التدخل في شؤونهم الداخلية إلاّ ما ندر، ما دامت تدفع لهم الجزية المقررة، إلاّ أنّه بعد وفات بركة خان واجه خلفاؤه مشكلة جديدة، وهي تنظيم مجال النفوذ الأوربّي الذي كانت تعتمد عليه دولة القبيلة الذهبيّة اقتصاديًا، ذلك أنّه وقع في سنة 657ه/1259م أن قام القائد المغولي بيسو نوغاي بتوغّل مفاجئ في الأراضي الروسية حتّى وصل إلى غاليسيا، فأحدث رعبا بين الأمراء الروس ورغم ذلك لم يتمكن المغول من تشديد قبضتهم على مناطق شاسعة من القوقاز، الأمر الذي أتاح للأُمراء الروس الالتفات إلى إصلاح أوضاعهم السياسية وإدارة شؤونهم حسب أهوائهم، فيما كان منكو

---

(1) الهمذاني : جامع التواريخ، تاريخ المغول الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو، تعريب فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د.ت.، مجلد 2، جزء 2، ص56.

وانظر أيضا : Howorth, History of the Mongols, Prt. II, Division I, p.133 ; D'Ohsson(C.), Histoire des Mogols depuis Tchinguiz Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Amsterdam, 1834-1836, T. III, p. 456.

(2) اليونيني، موسى بن محمّد البعلبكي : ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف الإسلاميّة، الهند، 1954-1961م، ج2، ص 472.

تيمور يُركّز على استغلال الأُمراء الروس ماديًا من خلال تعيين جُباة للضرائب، والاستفادة من نزاعاتهم الداخليّة لتأمين مصالح بلاده في السيطرة، كما أجبرهم على التعاون العسكري في حملاته ضدّ الثائرين، من ذلك ما حدث في عام 675هـ/1276م عندما أمر الخان المغولي منكو تيمور هؤلاء المساعدة المادية والعسكريّة ضد قبائل الأوست أو الياسيس الجبليّين بالقوقاز Yasses du Caucase، فاستولوا في 14 رمضان 676هـ/8 فبراير 1278م على مدينة ديدياكوف Dédiacof، وهي مدينة الساسيس في داغستان Daghestan، وتعاون الطرفان أيضا في الهجوم على بولندا Poland في عام 678هـ/1279م إثر وفاة ملكها بوليسلاس Boléslas، وقد اجتاحت قُوّات مغوليّة روسيّة مشتركة مُقاطعتي لوبلن Lublin وساندومير Sendomir، وهاجمت غوسليك Goslic، القريبة من ساندومير، في شوّال 678هـ/3 فبراير 1280م، وعادت محمّلة بالغنائم، ويبدو أنّ الروس تمكّنوا في هذه المرحلة الجديدة، من الحكم المغولي، من إيجاد نوعا من الحكم الذاتي بعيدا عن التأثيرات المغولية وقد نجحوا في ذلك لعدّة أسباب منها استمرار المغول في انتهاج سياسة عدم التدخل في شؤون الإمارات الداخليّة، على الرغم من أنّهم كانوا يعزلون الأُمراء الذين كانوا يتأخّرون عن دفع الجزية، أو الذين يفتعلون المشكلات  بسبب التوسع على حساب أمراء آخرين، وعلاوة على ذلك فإنّ المغول لم يكونوا يتدخّلون في شؤون الحياة الدينيّة لشعوب القوقاز، الأمر الذي أتاح للكنيسة الأورثوذكسيّة أن تُثبّت أقدامها وتُوحّد الروس، فأصبح مطران مدينة كييف رمزًا للوحدة الروسيّة إلاّ أنّه بقي لأسباب سياسية مواليا ومخلصا بكل دقة لخانات القبيلة الذهبية، فشكّلت الكنيسة، بذلك، العامل القادر على المحافظة على التقاليد الروسيّة التي شكّلت بدورها نواة النهضة الروسيّة في المستقبل، وأخيرا وضع التوسُّع المغولي، باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، حدًا لمحاولات التوسع الروسي في تلك الأنحاء التي كان يطمح إليها الروس منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديّين، فصرفوا على أثرها أنظارهم للتوسُّع باتجاه المناطق السهليّة الواقعة في الشمال والشمال الشرقي التي شكّلت جُزءًا من دولة القياصرة في المستقبل(1).

---

(1) برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1402هـ/1982م، ص91- 92.

و انظر أيضًا : Karamazin(Nicolay Mikhailovich), Histoire de l'Empire de Russie, traduction de MM. St. -Thomas et Gauffret, Paris, 1819, T. IV, p.157;   Von Hammer,  Golden Horde, Pesth, 1840, pp. 257- 258;   Howorth, History of the Mongols, Prt. II, Division I, p. 130- 131;  Gossipe(R.), History of  Russia, Glasgow and London, 1880, p. 44, 46-47.

أمّا أوربا الشرقية فقد كانت تشكّل مجالاً حيويًا لدولة مغول القبيلة الذهبيّة، ولذلك تدخّل منكو تيمور في النزاع الذي نشب بين بلغاريا والقسطنطينيّة بعد عام 658هـ/1260م، فأرسل جيشًا أغار على الأراضي البيزنطيّة، للضغط على الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Paleologus (1261-1286م)، ثُمّ اتفق الطرفان على التعاون المشترك لمواجهة ضغط الصرب وإخماد الحركات الوطنيّة التي بدأت بالظهور في بلغاريا، وقد ساعدت العلاقات الحسنة مع القسطنطينيّة على تطويق الإيلخانات في آسيا الصغرى، وكان الحلف الذي عقده منكو تيمور مع المغول الجغتائيّين في بلاد ما وراء النهر، موجّهًا أيضًا ضدّ الإيلخانات، غير أنّ الهجمات الجغتائيّة على خراسان لم تُؤدّي إلى نتيجة إيجابيّة(1).

و كانت العلاقات مع أوربّا الغربيّة توازي العلاقات بين أوربّا الغربيّة وإيلخانية فارس، وذلك بفضل التُجّار الجنويين، وابتداء من عام 665هـ/1267م أضحى لتُجّار جنوة المقام الأوّل في البلاط المغولي، فانتهزوا هذه الفرصة ومنعوا تجار البندقيّة من تأسيس مراكز تجاريّة هناك، وهكذا تحوّل الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة القرم إلى منطقة نفوذ تجاري للجنويّين، وقد ظهرت المصانع الجنويّة في كفّا بشكل متتابع وسريع، وتمتّع القنصل الجنوي بنفوذ لا يقلُّ عن نفوذ الخان المغولي في القرم، ومارس نوعًا من الاستقلال القضائي نظيرا لما تمتعت به السلطات المغولية، وظلّت العلاقات المتبادلة بين مغول القبيلة الذهبية وجنوة طيبة حتى عام 1308م، أثناء حكم طقطاي بن منكو تيمور (690-712هـ/1291-1313م)، عندما نشأت أزمة حادة أدّت إلى حرق ميناء كافا وما جاوره واحتلال المغول لها مؤقتا، وقد كانت التجارة مع الجنويين بالنسبة لسراي لا تقل أهمية عن العلاقات التجارية مع مصر، وكانت المواد المستوردة هي الأنسجة بأنواعها والأواني الفضية والجواهر، بينما كانت الصادرات تتألف من الفراء والسمك والقمح والحبوب، وهذه كانت تشحن إلى القسطنطينية ومصر وإيطاليا، ومن ثمّ إلى أجزاء أوربا الغربية(2).

**5- اتصالات أباقا بالقوى الصليبيّة :**

اضطر أباقا خان بفعل استمرار خطر المماليك المصرية والشاميّة في الغرب، وخطر مغول القبيلة الذهبيّة القفجاقية الروسية في الشمال، وخطر مغول التركستان الجغتائيين في

---

(1) العيني، بدر الدين محمود : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ج2، ص62-63.
(2) برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص96- 97.

الشرق الذين تفجّر معهم النزاع ابتداء من سنة 666هـ/1268م، والمحاصر في تلك الجهات إلى مواصلة نهج والده هولاكو خان في التقرب من النصارى شرقا وغربا، فتحالف مع الأرمن في قيليقيا، وتزوج أميرة بيزنطية اسمها ماريا هي بنت الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Paleologus (1261-1286م)، فبدت معالم الارتباط شديدة البُنية بينه وبين البابويّة وملوك أوروبّا الغربيّة لبناء تعاون متين لظرب قوة المسلمين المستمدّة من مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى، فأجرى اتصالات مع البابويّة وملوك الغرب الأوروبّي من خلال البعثات الدبلوماسيّة من أجل ذلك المقصد(1).

وبعد إلحاح من طرف أبقا خان راسل هيثوم الأول كلا من البابا وملوك أوروبا طالبا الغوث العاجل(2)، وكذلك فعل أبقا حين أرسل سفارته، في نهاية عام 1266م، إلى الغرب الأوربي لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك، فقد وصلت، في بداية 665هـ/نهاية 1266م، إلى البابا كليمنت الرابع Clement IV (663-667هـ/1265- 1268م) رسالة من أبقا كُتبت باللغة المغوليّة الأويغوريّة يطلب مساعدة عسكريّة أوروبيّة ضدّ المماليك المصرية، فردّ البابا ملتمسًا من أباقا أن يُكاتبه باللغة اللاتينيّة حتّى يستطيع فهم محتواها، ويبدو أنّ رسالة أبقا المذكورة مفقُودة آنيا، ولم يُعلم محتواها إلاّ من خلال ردّ البابا عليها في عام 666هـ/1267م بالإضافة إلى رسالة أبقا الثانية مع سفارته التالية في العام التالي، أي سنة 1268م(*)، إلى البابا والغرب الأوربي، باستنتاج أهم النقاط الواردة في الخطاب الأول للإيلخان، إذ يتضمن هذا الخطاب تهنئة للبابوية على انتصارها في موقعة Benevento (22 فبراير 1266م) على مانفريد بن الامبراطور فردريك الثاني ويطلب أبقا كذلك من البابا إرسال جيوش الغرب الأوربي، بالتعاون مع قوات (صهره) ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Palaeologus (1261-1286م)، إلى الشام لصحق قوات الكفرة (يعني المسلمين) بين المغول شرقا والقوات الأوربية غربا، ويستفسر أبقا خان من البابا عن الطريق الذي ستسير فيه هذه القوات وعن موعد وصولها إلى الشرق، والراجح أنّ سفير أبقا، في البعثة الأولى، هو الذي

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 277- 278.

(2) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXI, p. 844.

(*) كان إسم حامل رسالة أبقا الثانية هو سليمان أركون Salomon Arkaun وهو تحريف للأصل المغولي إيرك أون "erke'ün" والذي يعني راهب نسطوري.

أنظر : Denise Aigle, De la « Non-Négociation » a l'alliance inaboutie reflexions sur la diplomatie entre les Mongols et l'Occident Latin, in Oriente Moderno, Nuova serie, Nr. 2, 2008, p. 407 note 58.

شرح للبابا محتواها وأفهمه بأن الإيلخان المغولي اعتنق الديانة النصرانيّة فعلاً، وذلك لكسب ثقة الغرب الأوروبّي لمشروع التحالف، بدليل أنّ البابا في ردّه على الرسالة، شكر الرب على اعتناق أبقا الديانة النصرانيّة، وأعلمه أنّ ملوك فرنسا ونافار وكثيرًا من النبلاء وعددًا لا يُحصى من الجنود يستعدون للذهاب إلى الأراضي المقدّسة ليهاجموا أعداء النصرانية، وطلب منه أن يستمرّ في خططه ومشروعه(1).

وقد شكّك المؤرخ دوهسون d'Ohsson(C.) حقيقة مظمون رسالة أبقا الأولى التي كان على أساسها مظمون رد البابا كليمنت الرابع، وذلك لعدّة قرائن، أولاها أنّه لم تبين رسالة البابا إلى أبقا ما النصيحة التي اقترحها أبقا وصهره ميخائيل الثامن باليولوجس لأمراء أوربا عن الطريق الذي يجب على جيوشهم سلوكه للوصول إلى بيت المقدس، وثانيا أنّه من غير الممكن أن يكون أبقا قد أبدى نيّة لاعتناق المسيحيّة، ثمّ إنّه مستبعد جدا أن يكون قد هنّأ البابا على انتصار شارلس الأنجوي Charles d'Anjou على مانفريد بن الامبراطور فردريك الثاني سنة 1266م، وأخيرا فإنّه لا يُتصوّر أنّ أبقا علم عن المسار الذي اعتزمت الجيوش الأوربيّة سلوكه إلى فلسطين، وكل ذلك يمكن التحقق منه من خلال الرسالة التي وصلت أبقا خان من إدوارد الأوّل Edouard I المؤرخة في 26 جانفي 1275م، التي أوردها d'Ohsson(C.) بتاريخ 1274م سَهْوًا، ومظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الثالث (1277-1280م) المؤرّخة في 1 أفريل 1278م إلى أبقا خان ويحملها كل من: Gerhard de Prato, Antoine de Parme, Jean de Ste Agathe, André de Florence, Mathieu d'Aretio (2).

ويبدو فيما نرى أنّ ما قرأ على مسامع البابا سنة 1267م من رسالة أبقا خان المزعومة يمكن أن يكون معظمه من نسيج وتأثير حاملي الرسالة الذين كانوا أصلا تابعين للكنيسة الشرقيّة وللامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Palaeologus الذي

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 540-542; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 278- 279; Paul Meyvaert, An unknown., p. 250; Boyle, The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 556.

ذكر المؤرخ الأرميني هيثوم أنّ الإيلخان أبقا لم يزل على البوذية ولم يتحوّل إلى المسيحيّة قط.

أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXVII, p. 841.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 542- 549; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 279; Lockhart(L.), The relations between Edward I and Edward II of England and the Mongol Il-Khans of Persia, British Institute of Persian Studies, England, 1968, Vol. 6, p. 24, note 12; Yule(Sir Henry), Cathay and the Way Thither, London ,1914, Vol. III, p. 5 note 1.

كان هو الآخر في حاجة ماسّة للإمدادات الغربيّة ضدّ أعدائه المماليك المصريّة التي كانت تهدد حدوده.

كان ردّ البابا كليمنت الرابع على إلحاح أبقا بخطاب مؤرخ في عام 666هـ/1267م من مدينة Viterbe الإيطالية، يحمله مبعوثه جيمس ألاريك دي بيربينيان James Alaric of Perpignan، في غاية التريّث والحذر ومما جاء فيه : "وأنتم قد كتبتم أنكم تنوون الانضمام لصهركم، أي الإمبراطور البيزنطي، لمساعدة اللاتين، في الشرق، ونحن سوف نفعل ما في وسعنا لمساعدتكم ولكننا لا نستطيع القول، حتى نستفسر من هؤلاء أنفسهم أيّ الطرق سوف يسير فيها شعبنا، إلى الأراضي المقدسة،..."، وأعلمه أنه سيشاور ملوك وأمراء أوربا في الموضوع ثمّ يخبره على ما استقرّ عليه العزم عن طريق مبعوث موثوق فيه، وطلب كليمنت الرابع من الإيلخان المغولي أن يستمر في خططه ومشروعه هذا وأن يعتقد في الرب مانح النصر والحياة، "والذي بيده الملكوت وقلوب الملوك، ويرفع منهم من يشاء و يذل من يشاء بغير حساب"(1).

وفي حركة سياسيّة ودهاء تحريضي لحملة صليبيّة جديدة في الشرق، كتب البابا كليمنت الرابع، في 3 ماي 1267م، إلى أحد ممثليه في إنجلترا وهو الكاردينال أوتوبون Ottobon يأمره بالدعاية لحملة صليبيّة جديدة في الشرق، ويخبره بأنّ الملك الفرنسي لويس التاسع قد حمل الصليب وعزم على المسير في حملة صليبيّة إلى بلاد الشام، وأنّ البابا هنّأه على ذلك، ولرفع هِمَمِ الفرنسيين كتب ذات البابا، في ذات السنة، إلى ممثّله الكاردينال سيمون Simon يخبره بأنّه قرّر تخصيص كلّ الفوائد على الضرائب التي حصلت عليها البابويّة مدّة ثلاث سنوات لفائدة تلك الحملة، وعلى أثره يبدو أنّ كلا من ملك نافار(1239- 1270م) Roi de Navarre، زوج إيزبيلا (1242- 1271م) ابنة لويس التاسع، وألفونس كونت بواتيي Poitiers وتولوز Toulouse أخو لويس التاسع، اقتنعا بذلك فحذوا خذو هذا الأخير، كما أرسل كليمنت الرابع في شهر جويليا من سنة 1267م خطابا لبطريارك بيت المقدس في عكا

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 540-54 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 278-279 ; Boyle, The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, pp. 556- 557 ; Denis senor, The Mongols and the western Europe, in Setton (Kenneth M.), A History., 1975, V. III, p. 530.

يأمره بالاستعداد والتحريض لحملة صليبيّة ومساعدة ملك أرمينيا الصغرى وأمير أنطاكية حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك، وأرسل أيضا وعدا بالمساعدة لهثيوم الأول من قوات لويس التاسع عندما تصل للشرق، وأرسل البابا كذلك للإمبراطور البيزنطي ميكيل باليولوجس(1224- 1282م) Michel Paléologue يحثه على العودة لحظيرة كنيسة روما الكاثوليكيّة والمشاركة مع صهره، الإيلخان المغولي، في مساعدة الصليبيين، وأخيرا فإنه أرسل إلى جيمي الأول ملك أراجون وإلى لويس التاسع يُشجعهما في الإسراع بإعداد قواتهما(1).

وفور اطلاع أبقا على مضمون رسالة البابا كليمنت الرابع، بادر بإرسال بعثة أخرى إلى الغرب الأوروبّي حملت رسالة مؤرّخة من أذربيجان في يوم 22 ذي القعدة 666هـ/3 أوت 1268م يُعلمه بسوء موقف حلفاء مغول إيران في الشرق الأدنى، والمعروف أنّه قبل ذلك بعامين، أي يوم 24 أوت 1266م، حطّم المماليك أرمينيا الصغرى في قيليقيا في إطار خطّة الظاهر بيبرس لإخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية، وقتل ابن الملك هيثوم الأوّل وأسر إبنه الثاني ليفون Léon، أمّا في أوربّا فقد كان الملك لويس التاسع في سنة 1268م يستكمل الاستعدادات العسكريّة لحملة جديدة على الشام واتخذ البابا كليمنت الرابع على عاتقه مهمّة توفير السفن لنقل تلك الجيوش، فطلب من البنادقة القيام بتلك المهمّة ومساندة الحملة بقوّتهم البحريّة، لكنّ هؤلاء رفضوا الاشتراك في ذلك خوفا من انتقام المماليك منهم أو أن تتظرّر تجارتهم المثمرة في مصر، فما كان من البابا، أمام تلك الانتكاسة، إلاّ أنّ وجّه طلبه إلى الجنويّة وإلى الأمراء الصليبيين في إنجلترا وإلى ملوك إسبانيا، فكانت نتيجة تلك الحركة أن التحق ألفونسو ملك البرتغال، بالملك الفرنسي، مقابل المساعدات البابويّة ورفعها عن البرتغال الضريبة المستحقّة على الدخل، وفي تلك الأثناء كان الظاهر بيبرس في يوم 20 جمادى الثانية 1268م يستولي على يافا فخرّب حصنها المنيع، وكانت سياسة بيبرس تقوم على الاستفادة من نزاعات الصليبيين الداخليّة، وبعد مناورات كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية فوجئ الصليبيون بالقوات المصريّة والشاميّة تحاصر إمارة أنطاكية من كل جهة في أول شهر

---

(1) أنظر : Baronii(caesaris cardinal), Annales ecclesiastici, italie, 1870, T.XXII, pp. 189- 218, no. 5- 85 ; Michaud, bibliographie.,T. II, pp. 92- 93.

رمضان 666هـ/1268م ففاوض السلطان الفرنج داخلها في ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون فاضطر إلى الزحف عليها فاستولى عليها ودمّرها وأحرقها ولم يتمكن أحدا من نجدتها، سواء من الأرمن أو المغول أو الصليبيين، بينما كان بوهيموند السادس مقيما في مدينته الثانية، طرابلس الشرق، وطبقا لرواية ابن عبد الظاهر كان بأنطاكية "فوق المئة ألف نفر، حسب ما عدّه نائب التتار"(1)، ومعظمهم إما قتل أو أسر، ولما فرغ الناس من نهب أنطاكية رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة ... فأحضر الناس من الأموال والمصاغ والأمتعة شيئا كثيرا... وحصل المماليك على غنائم لا تحصى حتى "طال الوزن، فقسمت النقود بالطاسات والشربات، و لم يبق غلام مسلم إلا له غلام صليبي وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال وبيع الصبي باثني عشر درهما، والجارية بخمسة دراهم... ثمّ ركب السلطان إلى قلعة إنطاكية وأحرقها وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها، وأقيمت الأسواق ظاهرها فقصدها التجار من كلّ جهة"(2). وهكذا استولى بيبرس على المدينة التي ظلّت رهينة في قبضة الصليبيين أكثر من مائة وخمسين عاما، فكان ذلك من أكبر الانتصارات التي حققها المسلمون على الصليبيين منذ أيّام حطين واسترداد بيت المقدس إلى حصن الإسلام.

وكان من نتائج سقوط أنطاكية في يد المماليك المصرية، أن عقد أباقا خان النية بتوجيه حملة عسكرية إلى بلاد الشام، فيما وصلته أنباء استعدادات الملك الفرنسي لويس التاسع العسكريّة للتوجه ثانية إلى بلاد مصر والشام، وقد حدث في سنة 1269م أن اتجهت حملة صليبيّة بحرا بأمر من ملك أرجون جيمس الأوّل(610-666هـ/1213-1267م) لإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام لكنها ارتدت على أعقابها بعد تصدي السلطان بيبرس لها، أمّا لويس التاسع فقد طلب من إيدوارد الأول Edouard I، ابن الملك الإنجليزي هنري الثالث Henri III، بالانظمام إلى حملته، فكان له ذلك، وقرّر ملك أرجون جيمس الأوّل الانظمام هو الآخر إليه

---

(1) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 308 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص48- 50.
وأنظر أيضا : Paul Meyvaert, An unknown., p. 250; Boyle, The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 557; Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXVII, p. 841; Michaud, bibliographie.,T. II, p. 93; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 459; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 242.
(2) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، 1396هـ/1976م، ص 323، 324.

للكرّة مرّة أخرى، بينما أصاب بوهمند السادس، ملك طرابلس، من الذعر ما جعله يعقد هدنة مع المماليك مدتها عشر سنوات، إلاّ أنّ كلّ تلك الاستعدادات والتحركات لم تغني الصليبيين في شيئ وذلك أنّه استسلم في الـ 12 جوان سنة 1271م حصن مونتفورت الذي كان تابعا لفرسان التيتون، للسلطان بيبرس، وبسقوط هذا الحصن لم يعد للصليبيين حصنا داخل بلاد الشام(1).

أمّا هيثوم ملك أرمينيا لم يزل يسأل في إطلاق ولده ليفون، من الظاهر بيبرس البندقداري، وما زالت رسله تتردد ويعرض في فدائه الأثمان الفادحة من أموال وقلاع، ولكن الأخير كان يتماطل في إنفاذه منذ 664هـ إلى غاية 666هـ، أي إلى ما بعد استرجاع المسلمين لأنطاكية بشهر، لضمان حياد قوات الأرمن وحلفائهم المغول عن نجدة إمارة بوهيموند السادس، وبعد أن تحقق للسلطان كل مراده وتسليم هيثوم للأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذي كان أسيرا لدى المغول، وردّه القلاع التي أخذها من مملكة حلب وهي بَهَسْنا ودَرْبَسّاك Tarpessach ومَرْزَبان، أطلق سراح ولي عهده فأخذه إلى أبقا خان لتوليه على أرمينيا الصغرى، ثمّ اعتزل هيثوم بقية حياته كراهب في أحد الأديرة واتخذ إسم مكير Macaire ليتوفى في 11 محرم669هـ/1270م (2). وهكذا أصاب التحالف المغولي-الأرميني-الصليبي وهنًا بعد أن لم تبقى الصليبيّين حدودا مشتركة مع الأرمن أو مع مغول فارس.

ومهما يكن من أمر فإنّ أبقا خان كان يصبو، من تكثيف الاتصالات بينه وبين الغرب الأوربي، إلى تجسيد سريع للتحالف ضدّ المماليك المصرية، خاصة وقد صار الوضع مُلحا بعد كلّ تلك الانتكاسات التي أضرّت بذيول الصليبيين في الشرق، وسقوط أنطاكية في يد الظاهر بيبرس، بدليل أنّه دخل في تفاصيل مشروع التحالف المشترك، وأبلغ البابا في رسالته أنّه سيرسل أخاه إيجاي Ejei على رأس قوّة كبيرة إلى بلاد الشام، وأنّ جيش البابا الذي أخبره عنه المبعوث البابوي تحت قيادة ملك فرنسا، وجيش ملك أرجون في إسبانيا، سوف يُهاجمان المماليك من الناحية الأُخرى لحصار وتدمير عدوّهما المشترك، ولم ينس الإيلخان المغولي من

---

(1) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 330.
وانظر أيضا : Michaud, bibliographie.,T. II, p. 93.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص51، 69 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 227 - 229 ؛
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 498، 500.
وانظر أيضا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXVII, p. 842; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 423-425; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 226, 227, 228.

قبيل تحفيز الغرب الأوروبي للاستجابة له أن يشير لانتصاراته على أعدائه في الداخل والخارج وحبه للمسيحيين وحمايته لكنائسهم(1).

وعندما وصلت سفارة أباقا إلى روما، في عام 667هـ/1269م، وجدت أن كليمنت الرابع قد توفي، فواصلت طريقها بحرا إلى جيمس الأول ملك أراجون وبقيّة ممالك أوروبّا الغربيّة، وكانت أنباء سقوط أنطاكية قد وصلت إلى مسامع الأمراء والملوك الغربيّين، وكانت استعدادات لويس التاسع وعددا من أمراء الغرب لحملة صليبية جديدة لنجدة الصليبيين في الشرق في مراحلها النهائية، فاستعدوا لإرسال حملة صليبيّة جديدة لنجدة الصليبيّين في الشرق. وعلى أساس الأنباء التي بعثها أباقا بجهوزيّة جيشه لغزو بلاد الشام فور ظهور الجيوش الأوروبيّة على سواحلها، فإنّ جيمس الأوّل ملك أراجون بادر بتجهيز وقيادة أسطول إلى الشرق، لكن بفعل تحطّم معظمه أمام سواحل فرنسا، إثر هبوب عاصفة قويّة، عاد هذا الأخير إلى بلاده، بينما تابع ولديه المشروع على رأس قوّة صغيرة، إلى عكّا، فقد اعتقدا في إمكانيّتهما هزيمة المماليك، ولكن نبلاء عكا نصحوهما بالعدول عن ذلك لما رأوه من هزالة تلك الفرقة، وبعد غارة على قرية مسلمة رجعا من حيث أتيا(2).

ومن الناحية الأخرى، لم تتوقف قوات السلطان بيبرس عن الإغارة على القلاع الصليبية بها حتى ولو كان البحر يفصل بينه وبينها، فقد أرسل سفنه لغزو قبرص نفسها في شوال عام 669هـ/بين 13 ماي و4 جوان 1270م، إذ اغتنم بيبرس فرصة غياب ملك قبرص، هوج الثالث Hugue III، عنها في عكا ليحاول الاستيلاء على قبرص فأرسل سبعة عشر شينيا لذلك الغرض ولكن الريح حطمت أكثر من أحد عشر منها قرب الجزيرة وتفطن لهم العدو فأسر زُهاء ألف وثمانمائة نفس من تلك القوة هناك ورجع الباقي إلى السلطان بيبرس(3).

---

(1) أنظر : Richard (Jean), The Mongols and the Franks, p. 53 note 33 ; Paul Meyvaert, An unknown., pp. 250- 251 ; Boyle (J.A.), The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 557.

(2) أنظر : Boyle (J.A.), op. cit., pp. 556-557.

(3) الأصل في مشروع غزو قبرص أنه بلغ السلطان، وهو مخيم على حصن الأكراد، أنّ صاحب جزيرة قبرص ركب بجيشه إلى عكا نجدة لأهلها، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا من ستة عشر شينيا لأخذ جزيرة قبرص في غيبة صاحبها.

أنظر : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1992م، ج7، سنة 669هـ، ص139 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 669هـ، ص 71 ؛ النويري : المصدر السابق، ج30، أحداث سنة699هـ، ص 115.

وانظر أيضا : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 198, 199; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 658.

ومن جهة أخرى انحرفت حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس(*) ضدّ الحفصيّين الذين لم يكن بينهم وبين أوربّا الغربيّة أيّة علاقات عدائيّة مباشرة صريحة ولكنّ يبدو أنّ الحقد المسيحي الصليبي على الإسلام والمسلمين هو الذي كان دوما يحرّك نزوات هؤلاء، وكان الأمير إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث، ملك إنجلترا، قد قاد نحو ألف من قواته والتحق بحملة لويس التاسع، وعندما وصل إلى قرطاج في ربيع الأول 669هـ/10 نوفمبر 1270م وجد الملك الفرنسي قد توفي من شهرين ونيّف، أي يوم 25 أوت 1270م، فتابع طريقه إلى الشرق، إيفاء بندره ونذر والده الذي قطعاه للبابوية بالتوجه إلى الشرق في حملة صليبيّة(**)، والواقع أنّ إنجلترا وحدها كانت آنذاك على علم بمزايا الاتحاد مع الإيلخانيين، وعندما وصل إلى عكا يوم 9 ماي سنة 1271م/670هـ أرسل إلى أبقا، ثلاثة من رفاقه هم ريجينالد روسيل Reginald

---

(*) يبدو أنّ الملك الفرنسي انقاد لرأي بعض الأمراء الصليبيين فيما يخص خط سير الحملة على مصر، فعوض أن تسير مباشرة إلى مبتغاها حُوّل الجيش للهجوم على الدولة الحفصية بتونس، تماما كما حدث للحملة الصليبيّة الرابعة حينما حوّلت إلى القسطنطينيّة، وكان من بين من أشار للويس التاسع بذلك أخاه شارل الأنجوي، ملك صقلية حينئذ، الذي أراد تأديب الملك الحفصي، أبا عبد الله محمد المستنصر، الذي امتنع من دفع الجزية لصقلية منذ خمسة سنوات، وكان ثراء هذا القطر المسلم يستهوي أطماع الصليبيين ومنهم الملك الفرنسي لويس التاسع نفسه الذي كان يطمع أيضا في تمويل حملته على مصر والشام بما يمكنه تحصيله بعد غزو تونس. والمهم أن الملك الفرنسي ومعظم قواته ماتوا بالطاعون بعد نزلوهم لقرطاجة، ومن ثم رجع أولاده بجثمانه وبفلول جيوشهم من حيث أتوا يجرون عار الهزيمة.

أنظر : Lecoy A. De la marche, La France sous Saint Louis et sous Philippe le Hardi, Paris, 1803, p. 38 ; Silvestre de Sacy(M. Le Baron), Mémoire sur le traité fait entre Philippe-Le Hardi et le Roi de Tunis en 1270, Paris, 1825, p. 4, 5, 11; Strayer(J.),The Crusades of Louis IX, in Setton (Kenneth M.), A History., 1969, T. II, pp. 513–516.

أمّا أسطول الملك الفرنسي فقد كان مكوّنا من سفن جنويّة بينما رفضت البندقية إشراك سفنها في تلك الحملة على مصر أو على تونس، ذلك أنّهم كانوا يمتلكون متاجر وتجارة وامتيازات واسعة في مصر، فخافوا إن هم شاركوا في تلك الحملة أن يحجز سلطان مصر كل ممتلكاتهم في الموانئ المصريّة، فقدّروا أنّ تجارتهم مع مصر أثمن من تلك الحملة الصليبيّة.

أنظر : Saint-Marc(M. de), Abrégé chronologique de l'Histoire Generale d'Italie (depuis l’an 1220 jusqu’à 1314), Paris, 1770, T. 6, p. 442.

(**) ولعلّ قدوم هذه الحملة إلى الشرق يرجع إلى سقوط أنطاكية، لأنّ ملك إنجلترا هنري الثالث كان قد وعد مرات عديدة بقيادة حملة صليبية إلى الشرق، ولكنه لم يف بوعده حتى هذه المرحلة فقد كبر سنه وأصبح لا يتحمل قيادة مثل هذه الحملة، لكنه شجع وأقنع ابنه إدوارد الأول على قيادتها إلى الشرق فاعتمد هذا على النبلاء الانجليز الذين وعدوا بحمل الصليب والتوجه إلى الأراضي المقدسة، ومع سقوط أنطاكيّة سنة 1268م بدأت الدعوة داخل إنجلترا للحملة، لكن إدوارد الأول لم يتمكن من جمع سوى ألف رجل فأيقن أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا بهذه القوة المحدودة، ففكر في التوجه إلى تونس للحاق بحملة الملك لويس التاسع ومن تونس يكون التوجه إلى الشرق، المهم أنّه لمّا وصل إدوارد الأول إلى عكا لحق به هيو الثالث ملك قبرص (1267- 1284م) وبوهمند السادس أمير طرابلس(1251-1275م) ثمّ لحقت به بعض القوات التي وفدت من إنجلترا، والواقع أنّ إدوارد الأوّل لم يكن له دراية كافية بالشرق اللاتيني وأحواله لذلك صدم عندما علم أنّ العمل الرئيسي للبنادقة والجنوية هو التجارة مع المسلمين وأنّ المحكمة العليا الصليبية في عكا قد وافقت على مثل هذه الأعمال، ولمّا كانت التجارة تنصب في توريد البنادقة والجنوية الخشب والحديد اللازم لبناء السفن فقد أدرك مدى الخطورة الناتجة عن هذه التجارة، أمّا القوات القبرصية فقد خاب أمله فيها لأنّ الاقطاعيين في قبرص رفضوا القتال في بلاد الشام وأعلنوا أنّهم غير ملزمين بمثل هذه الأعمال وأنّهم مسؤولين عن الدفاع عن جزيرة قبرص فقط، فالتفد إدوارد الأول للاستعانة بالمغول في قتال المماليك المصريّة.

أنظر : محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية 1095- 1292م، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، 2000 م، ص 330، 331.

Rossel وجودفروا دي فوس Godefroi de Waus وجان دي باركير Jean de Parker للحصول على المساعدة والتعاون ضد المماليك المصرية والشامية، فطلب منه إرسال جيوشه التي وعد بها الأوروبيّين، أمّا المقريزي فيقدّر هذه القوة في رابع شوال سنة 669هـ/مايو 1271م بقوله :"إذ ورد عليه (أي سلطان المماليك الظاهر بيبرس البندقداري) الخبر بأنّ ملك الإنكتار وصل إلى عكا في أواخر رمضان، بثلاثمائة فارس وثماني بطس وشواني ومراكب تكملة ثلاثين مركبا، غير ما سبقه صحبة أستاداره"، وبفعل انهماك أبقا في الحرب على الحدود الشرقيّة لبلاده فقد أمر قائده صمغار Samagar في الأناضول لغزو بلاد الشام بالتنسيق مع الصليبيّين الذين كان الخان قد أبلغهم بذلك وعلى رأسهم الأمير الإنجليزي في يوم 4 سبتمبر 1271م، فتقدّم المغول نحو حلب بعشرة آلاف فارس واستولى عليها، ثُمّ زحف نحو البقاع، قبل أن ينسحب فجأة حاملا الكثير من الغنائم فور وصول القوات المملوكيّة بقيادة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، فقد أحست القوات المغوليّة باستعدادات بيبرس وأنّ قواتهم لا تكفي لمواجهة القوات المملوكيّة، أمّا قوّات إدوارد الأوّل فقد تشجعت بتحركات المغول واعتقدت أنّ هؤلاء سيواصلون الزحف، فاستعدّت للهجوم إلاّ أنها لم تفعل أكثر من القيام بغارة مشتركة مع الإسبتارية والداوية وفرسان عكا على قرية وحصن قاقون، بفلسطين قرب الرملة بين عكا وصفد، أوائل جويليا 1271م، ثم رجعت الفرقة الصليبية بما نهبته (1)، وأخيرًا يئس، إدوارد الأوّل، بفعل الهزائم المتكررة وفداحة الخسائر في الأرواح بين صفوف الإنجليز، وهزالة عدد الجنود المتحالفين من المغول والصليبيّين في مقابل جنود أعدائهم المسلمين، فما كان منه إلاّ أن

---

(1) أنظر : Joinville, op. cit., pp. 304- 306, 307, 311 ; Matthew Paris, op.cit., T. 9, p. 166, 167 note 1, note 3, 171; Strayer(J.), op. cit., pp. 513–516 ; Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, T. XX, p. 461 ; Gestes des Chiprois, op. cit., p. 199, 200 ; Eracles, op.cit., p. 461 ; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCLXX (1270), p. 239; Sinor(Denis), op. cit., p. 531; Sinor(Denis), The Mongols in the west, in Journal of Asian History, Vol. 33, No. 1, 1999, p. 27; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 24; Saint-Marc(M. de), op. cit., T. 6, p. 440; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 459-460, 461; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 242, 243; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 659, 660, 661, 693; Boyle (J.A.), The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 557, 558 ; Paviot(Jacques), England and the Mongols (c. 1260-1330), Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3, November 2000, p. 309, 310.

وانظر أيضا : المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص69، 70، 77 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، أحداث سنة 670هـ، ص 140- 141 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 332،331.

أصغى لاقتراح شارل الأنجوي، الملك الإسمي لمملكة بيت المقدس الصليبية، ولأمراء عكا بعقد هدنة، فوافق الظاهر بيبرس على ذلك فعقدت الاتفاقية، بمروج قيسارية، مدتها عشرة أعوام وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ابتداءا من الحادي عشر رمضان، أو إثنان وعشرون رمضان عند النويري، سنة 670هـ/ أوائل أبريل 1272م(*)، ثمّ سارعت بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس، لعلهم يحافظون على ما تبقى للصليبيين في الشام من موطئ قدم، ليعود إلى إنكليترا في يوم 24 سبتمبر 1272م الموافق لأواخر صفر 671هـ يجرّ الهزيمة والخيبة(1).

كان الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل أكثر جديّة ووُضوحًا من غيره من ملوك أوربا في تعامله مع المغول، وتعتبر حركته تلك أوّل تحالف بين المغول والغرب الأوربي، ورُغم عودة إدوارد الأوّل إلى إنجلترا ليتولّى العرش بعد وفاة أبيه هنري الثالث(609-671هـ/1216-1272م) إلاّ أنّه لم ينسى أحلامه في تجديد التحالف مع أبقا ومع خليفته أرغون(683-690هـ/1284-1291م) لذلك كلّف أحد فُرسانه الإنجليز، وهو جوزيف دي كانسي Josef de Cancy، لإمداده بالتقارير حول المغول والأرض المقدّسة(2)، ويبدو أنّ البابا الجديد جريجوري العاشر (1271-1276م) Gregoire X لم يكن بريئا من تحمّس الملك الانجليزي الجديد لتوجيه حملة صليبيّة جديدة إلى الشرق، ذلك أنّ البابا أرسل إليه، في يوم 2 أبريل 1272م، يحثه على نجدة بيت المقدس، كما أرسل أيضا، لنفس الغرض، أحد رؤساء الأساقفة

---

(*) أدرك إدوارد ضعف وهزالة قوّاته وتيقن أنّه من غير الممكن الاعتماد على الصليبيين المحليين أو على المغول فرجع إلى بلاده على أمل العودة بحملة صليبيّة أكبر في الوقة المناسب، أمّا بيبرس فكان يرى أنّ عقد الهدنة فرصة للتفرغ لحرب المغول بينما لم يبقى للصليبيين في الشام سوى طرابلس والمنطقة الممتدّة من عكا إلى صيدا بالإضافة إلى بيروت وصور وقلعة المرقب.

أنظر : محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 332.

(1) ابن شداد (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد) (684هـ/1285م) : تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، المعهد الالماني للأبحاث الشرقية، بيروت، لبنان، 1430هـ/2009م، ص 33 ؛ النويري : المصدر السابق، ج30، ص 142 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص77، 78 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، أحداث سنة 671هـ، ص 142.

وانظر أيضا : Stevenson(W.B.), op. cit., p. 345 ; Runciman Steven, "The Crusader States 1243-1291", in Setton (Kenneth M.), A History., 1969, vol. II, pp.582-583 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 662, 663.

(2) عمران محمود سعيد : المغول والأوربيّون والصليبيّون وقضيّة القدس، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص 349.

وانظر أيضًا : Reinaud (M.), Lettre de Joseph de Cancy : Chevalier de l'Ordre de Saint-Jean-de-Jerusalem, à Edouard I[er], Roi d'Angleterre, contenant la relation de la bataille d'Emesse et des événements qui se sont passés dans la Terre-Sainte vers la fin de l'année 1281, Bulletin de la Société de l'histoire de France, T. I, No. 2, 1834, p. 2.

إلى بعض أمراء أوربا وإلى الملك الفرنسي فيليب الثالث (1270-1285م) - Philippe - le - Hardi الذي تحمّس كثيرا لانتزاع بيت المقدس من أيد المماليك، أمّا الجنويّة الذين كانوا لا يتحرّجون من المتاجرة مع المماليك، رغم الحضر البابوي، فقد أرسل إليهم ذات البابا، في التاريخ أعلاه، توبيخا وإنذارا لمخالفاتهم، وذكر لهم أنّ هؤلاء الذين يتاجرون معهم، أي المسلمون، يعذّبون السجناء المسيحيين وخاصة النساء منهم والأطفال، في حركة ماكرة لاستعطافهم وإحياء الروح الصليبيّة في نفوسهم(1).

ويبدو أنّ السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري كان، في خضمّ هذه الأحداث ورغم هشاشة الموقف، مشغولا أيضا بالأخطار قبالة ظهره، فقد كانت الأحداث تتسارع في الجبهة الجنوبيّة لمصر ما ينذر بخطر قادم من قِبَل مسيحيي بلاد النوبة، وهي مملكة مسيحيّة قابعة على الحدود الجنوبيّة لمصر وعاصمتها مدينة دنقلة التي تقع في أعالي النيل وكانت تدين بالطاعة لسلطان مصر وتؤدي له الجزية السنويّة، ولم يكن ملوك النوبة هذه يقلّون إخلاصا لمعتقدهم وتهديدا للمسلمين، من أمثالهم الصليبيين شرقا وغربا، وكثيرا ما اعتدوا على المماليك المصريّة بإغارتهم على أسوان المصريّة وامتناعهم عن دفع الجزية المقرّرة، وانتهز داود، ملك النوبة، فرصة انهماك بيبرس بحروبه ضدّ الصليبيين والمغول والأرمن، فهاجم جنوبي مصر في سنة (671هـ/1272م)، فنهب ناحية أسوان وأسر جماعة من سكانها، كما هاجم ميناء عيذاب على شاطئ البحر الأحمر، بهدف تهديد التجارة المملوكيّة في البحر الأحمر وقطع طرق الحج، فجُردت حملة من أسوان على رأسها والي قوص المصريّة حتّى قارب دنقلة فقتل وأسر ثمّ عاد، ولم يكن بيبرس في هذه المرحلة على استعداد للتركيز على الجنوب بفعل انشغاله بالصليبيين والمغول، لكنه حدث في رجب من سنة (674هـ/1275م) أن قدم مصرَ، الملك المعزول مشكند، وهو ابن أخت ملك النوبة السابق، متظلما من ابن أخيه المغتصب للعرش داود ملك النوبة، فاغتنم بيبرس الفرصة السانحة فأرسل حملة بقيادة الأميرين شمس الدين أقسنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم فهزما داود وأسراه، وأعيد مشكند إلى حكم البلاد والولاء لمصر ودفع الجزية لها وهو صاغر(2).

---

(1) انظر : Michaud, bibliographie.,T. II, p. 95.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 671هـ، ص 83، أحداث سنة 674هـ ، ص 94- 95 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 416 ؛ طقوش محمد سهيل : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس (648- 923هـ/1250- 1517م)، ط 1، بيروت، لبنان، 1418هـ/1998م، ص 113، 115.

أمّا أبقا فقد شعر بخطر المهادنة التي كانت بين المماليك والفرنج، عليه، بالإضافة إلى ما كان من تحالف بن المماليك ومغول القفجاق الذي أوقع أباقا بين فكّي الكمّاشة الشماليّة المتمثلة بخانيّة القبيلة الذهبيّة والجنوبيّة المتمثلة في دولة المماليك، فأرسل في شهر شوال من سنة 670هـ/ مايو1271م بواسطة الأمير المغولي صمغر نوين إلى الظاهر بيبرس يطلب الصلح، فبعث السلطان الأمير مبارز الدين الطوري والأمير فخر الدين أياز المقرّي الحاجب مع رسله يحملون الهداية إليه وإلى غيره، فأكرمهما الإيلخان وأعادهما من غير اتفاق، بعد ما اطلع على شرط السلم، ذلك أنّ بيبرس اشترط عليه رد كل ما بيده من بلاد المسلمين(*)، وكثّف المغول من غاراتهم على بلاد الشام مثل ما حدث في مستهل مُحرّم سنة 671هـ/جويليا- أوت1272م، ولمّا قدمت رسل أبغا والروم من شهر صفر 671هـ/أوت 1272م على السلطان لطلب الصلح مرّة أخرى لم يُحتفل بهم(1)، وكان السلطان يواضب على إرسال قواته للإغارة على ما تبقى من قلاع للصليبيين بالشام، فقد أرسل في سنة 1271م سفنه لغزو جزيرة قبرص التي كانت قاعدة الصليبيين في الخلف ومنطلق حملاتهم على الساحل الشامي والإنزال فيه وملاذا ومفرا آمنا لهم إذا ما أصابتهم الهزيمة، ولكن الحملة تحطمت قرب الجزيرة وأسرت قواته هناك، وبعد أن تيقّن السلطان بزوال خطر إدوارد الأوّل واضمحلال تهديدات الملك الفرنسي لويس التاسع بموته أطلق يد المماليك في المنطقة، فقام بيبرس بهجوم، شهر جمادى الأولى 671هـ/نوفمبر- ديسمبر 1272م، على ممتلكات أبقا شرقي نهر الفرات، وعبر السلطان هذا النهر سباحة، بنفسه وفرسه مع قواده وخيولهم وعليهم وعلى جيادهم الحديد، لتأديب أبغا على حملته التي أرسلها إلى بلاد الشام فترة وجود إدوارد بها، فقتل وأسر منهم ثمّ رجع بالغنائم(2).

---

(*) في النويري وابن تغري بردي تأكيد لهذه النتيجة التي وصلت إليها المفاوضات، بينما أغفل المقريزي أي إشارة إلى ذلك.
أنظر : النويري : المصدر السابق، ج30، ص 126 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، سنة 671هـ، ص 142 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص 78.

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص 34- 35 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 669هـ، ص71، سنة 670هـ، ص 78، 81 ؛ النويري : المصدر السابق، ج30، ص 126 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق ، ج7، أحداث سنة 671هـ، ص 142.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 461-462; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 244.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص 55- 56 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص 82 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، سنة 671هـ، ص 143 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 405-408.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 463; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 244.

وبعد كل تلك الهزائم المتتالية التي لحقت بالصليبيين في الشرق وانكسار الجيش الفرنسي في تونس واندلاع الصراع بين هوج الثالث Hugue III ملك قبرص وبيت المقدس وبين الداوية من جهة، وبين بوهموند السابع Bohémond VII ملك طرابلس الشرق وبين الداوية من ناحية أخرى، كان من المستحيل صمود ما تبقى من الإمارات الصليبيّة في الشرق أمام زحف المماليك المصريّة، في حين فترت الروح الصليبيّة لدى ملوك أوربا تجاه الشرق، بعد موت لويس التاسع، إلاّ ما ندر أمثال ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى وإدوارد الأوّل ملك إنجليترا، اللذان استمرّا في الاتصال بأبقا من أجل تحالف ضدّ المسلمين في الشرق، فارتأت البابويّة الممثلة في شخصيّة البابا جريجوري العاشر(669-675هـ/1271-1276م) إلى عقد مجمع مسكوني في مدينة ليون Lyon الفرنسيّة، في الفترة ما بين ماي- جويليا 1274م(*)، والذي بُدء بالتحظير له منذ سنة 1272م، لبحث كيفية حماية الكيان الصليبي في الشرق من خطر المسلمين وإرسال حملة صليبيّة على عجل لإنقاذه، خاصّة وأنّ البابا الجديد كان أعرف الصليبيين الأوربيين بالوضع الصليبي في الشرق بحكم أنّه كان بطريركا لمملكة بيت المقدس في عكا من قيل وكان عضوا في حملة الأمير إنجليترا إدوارد الأوّل، فاستغلّ أبقا عقد المؤتمر وأرسل بعثة، مكونة من ستة عشر عضوا من بينهم مغول وعددا من الرهبان الشرقيين ومترجمين أحدهما دومنيكاني اسمه داود الأشبي David d’Ashby والثاني فرنجي اسمه ريشارد Richard، لحضوره، وقد أعدّ تقريرًا يتعلّق بموقف الإيلخانيّين حتّى يطلع عليه أعضاء المؤتمر، وفعلاً قدّم البابا سفراء أبقا خان للحاضرين في نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع في يوم 6 أو 7 جويليا 1274م/673هـ قُرئت رسالته أمام المؤتمرين باللغة اللاتينية، وتضمّنت ضرورة توطيد أواصر الصداقة بين المغول والنصارى، والعمل على نشر النصرانيّة ومحاربة المسلمين، ومما جاء فيها : " لهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبقا خان يريد التحالف، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين للكنيسة

(*) امتدّ المجمّع من 7 ماي 1274م إلى 17 جويليا 1274م، قسّم إلى ستة جلسات : (7 ماي / 18 ماي /4 جوان / 6 جويليا / 16 جويليا / 17 جويليا).
أنظر : Setton (K.), The Papacy and The Levant, (1204- 1571), London, 1976, Vol. I, p. 112, 113.

الرومانية (*)" (1).

ويبدو أنّ البعثة المغوليّة لم تكتفي بنقل رسائل الخان إلى أباطرة أوربّا فحسب، بل تفانت في التعبير عن استعدادها التام في المضيّ قدما لتنفيذ ما يستلزم لإقناع البابا وملوك أوربا بجديّة النوايا المغوليّة والاستعجال في إرسال حملة صليبيّة إلى الشرق، فقد ذكرت بعض الروايات الغربيّة أنّه أثناء تواجد السفارة المغوليّة في أوربا طلب ثلاثة مغول من أعظائها من البابا جريجوار العاشر(1271-1276م) Gregoire X أن يتمّ تعميدهم على المذهب الكاثوليكي، وسط ترحيب واستحسان ممثلي كنائس غرب أوروبا، فعيّن لدلك الدومنيكاني بيار التارنتيزي Pierre de Tarentaise، كاردينال أوستيا Ostia وهو أيضا البابا المستقبلي الملقب إنوسنت الخامس Innocent V، وقام بتعميدهم(2)، أمام المجمع في جلسته الخامسة يوم 16 جويليا 1274م، ثمّ سلّمهم البابا جريجوار العاشر رسائل إلى الخان أبقا مؤرّخة في 13 مارس

---

(*) الصيغة اللاتينيّة لتلك الجملة كالتالي :

"Notum igitur facimus omnibus qui sub sol sunt, quod potentissimus rex noster Abagachan, confederacionem habere uolens et pacem firmam cum omnibus christianis sacrosancte ecclesie romane subiectis, nos nuncios suos sollempnes".

أنظر : Roberg (Burkhard), op. cit., p. 300.

وانظر نص الرسالة مترجمة إلى العربيّة عند : هلال عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، الملحق الثاني، ص 277-282.

(1) أنظر : Primat (Le Moine), Chronique de prima, traduction de Jean De Vignay, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. 23, chapitre LXIII, p. 91; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCLXXIV, pp. 244- 245; Roberg (Burkhard), "Die Tartaren auf dem 2 Konzil von Lyon 1274", Annuarium Historiae Conciliorum, V, 1973, Helft 2, pp. 298- 301 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., p. 86, 87 ; Boyle (J.A.), The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 558 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 692, 693 ; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 112, 113, 115; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 539, 544; Michaud, bibliographie.,T. II, p. 95; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 280 ; Schein (Sylvia), «Gesta Dei per Mongolos 1300. The Genesis of a non-event», The English Historical Review, October 1979, Vol. 94, No. 373, p. 809 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 24; Denise(Aigle), De la «Non-Négociation»., p.419; Denise(Aigle), The letters of Elgidei, Hulegu, and Abaqa : Mongol Overtures or Christian Ventriloquism?, Inner Asia, Brill, England, 2005, No. 2, Vol. 7, p.152;

وانظر أيضا : أرنولد (سير توماس):الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة)، ترجمه إلى العربيّة وعلّق عليه حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصريّة، ط2، القاهرة ،1957م، ص 260.

(2) أنظر : Roberg (Burkhard), op. cit., p. 299- 300; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 116; Primat (Le Moine), op. cit., T. XXIII, p. 91; Denise(Aigle), De la =

1275م، أي تسعة أشهر بعد انعقاد المجمع المسكوني، وتشير المؤرخة سيفيا شين Sylvia Schein، إلى أنه، على أثر هذه المستجدّات، سرت إشاعة في الغرب الأوروبي مفادها أنّ أبقا خان قد تنصر هو الآخر، وذلك لقرينتين هامّتين هي تعميد سفرائه من طرف البابا في أوربا وكذا تزوج أبقا من ابنة الامبراطور البيزنطي المسيحيّة الأميرة مريّا Maria(1). ولا شكّ أنّ لهذه الحركة السياسيّة البابويّة العبقريّة مفعولها في نفوس من تراخت أو انطفأت تماما نزعتهم الصليبيّة تجاه الشرق، وربّما كان البابا يرى أنّ في نشر إشاعة تنصر إيلخان المغول بين الأوربيين كفيل لجلب الدعم الضروري وتحريك الضمائر لحملة صليبيّة جديدة توجّه مرّة أخرى إلى ديار المسلمين في الشرق.

ومهما يكن فإنّه بعد انتهاء جلسات المؤتمر ذهب سفراء المغول إلى العواصم الكبرى في غرب أوربا للاتصال بأباطرتها، وقد نشر المؤرخ هنري هوارث Henry Howorth خطاب إدوارد الأول إلى أبغا خان المؤرخ في 26 جانفي عام 1275م، في حين أخطأ دوسون d'Ohsson(C.) بذكره في سنة 1274م، من مدينة Beaulieu بمقاطعة هامبشير الإنجليزية، وفيه يبلغ الملك الإنجليزي الإيلخان أباقا أنه قد تلقى خطابه عن طريق سفيره ديفيد الأشبي، فجاء فيه : " وقد علمنا منه مقدار الحب الذي تحملونه للدين المسيحي ومدى التصميم الذي قررتموه لتخليص المسيحيين والأراضي المقدسة من أعداء المسيحية، وهذا جميل كبير لنا ونحن نشكركم عليه، ونحن ندعو لجلالتكم لتنفيذ هذا المشروع المقدس، ولكننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نبلغكم بأية أنباء مؤكدة عن موعد وصولنا للأراضي المقدسة ولا عن سير القوات المسيحية الأخرى، لأنّ البابا لم يقرر شيئا بعد فيما يتعلق بهذا الأمر، ولكننا سوف نخطركم بأي جديد في هذا الشأن بمجرد اطلاعنا عليه، ونحن نوصيكم خيرا بمسألتي الأراضي

---

= «Non-Négociation» à l'Alliance inaboutie reflexions sur la diplomatie entre les Mongols et l'Occident Latin, oriente Moderno, 2008, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, p.419; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 693; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 544; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 87 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 280.

(1) أنظر : Roberg (Burkhard), op. cit., p. 809 ; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 116; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 544; Abel-Remusat(J.), Mémoire., p. 87 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 280.

المقدسة وبكل المسيحيين المتواجدين في الشرق"(1).

كان على سفراء المغول أن يعرجوا، في طريق عودتهم للشرق، على روما، فاستلموا هناك رسالة البابا جريجوار العاشر(1271-1276م) Gregoire X إلى الإيلخان أبقا، المؤرخة في 13 مارس عام 1275م، وقد أشار البابا فيها إلى الوعد الذي تلقاه من مبعوث الإيلخان بأنّ سيده سيعتنق الدين المسيحي، وتضمّنت أيضا وعدًا بإبلاغ الإيلخان بما يصله من معلومات من أمراء أوربا حول الحملة الصليبيّة التي يجري إعدادها في أوربا للانضمام لقوات المغول في الشرق ضد المسلمين، ويبلغه أيضا أنّ " الكرسي البابوي يكرّس الوقت والجهد معا ليس فقط لمصير أرض المسيح، ولكن أيضا لسعادة الملك الفارسي والشعب الذي يحكمه"(2).

ويبدو أنّه رغم الجهود المضنية التي بذلها جريجوري العاشر (1271-1276م) Gregoire X لتهيئة المناخ المناسب في أوروبا لتوجيه حملة صليبية جديدة إلى الشرق، إلاّ أنّ آماله لم يكتب لها التجسيد الفعلي، إذ لم تكن الوعود التي تلقاها من أمرائها إلاّ مجرد تمنيات لم تكن أبدا لتتحقق، ذلك أنّ كل شخص منهم كان مستعدًا، نظريًا على الأقل، للتحدّث عن تفاصيل الحملة الصليبيّة إلاّ أنّه لم يتقدّم أحد بعروض عن المساعدة العمليّة التي تُعدُّ ضرورة القيام بها، لانهماك هؤلاء بمشكلاتهم الداخليّة والإقليميّة، لقد حضر المجمع عدد كبير من أساقفة الشرق، يتصدّرهم بولس سينجي، أسقف طرابلس، كما حضره وليم بوجيه، الذي تمّ اختياره منذ زمن قريب مقدّما للداوية، غير أنّ الدعوات الملحّة التي جرى إرسالها إلى ملوك العالم المسيحي لم تلق إلاّ الإغفال والإهمال، إذ رفض فيليب الثالث ملك فرنسا أن يشهد المجمع، بل أنّ إدوارد الأوّل ملك انجلترا الذي عوّل عليه البابا جريجوري العاشر بصفة خاصّة اعتذر بمشاغله في بلاده، ولم يظهر في المجمع من الملوك إلاّ جيمس الأوّل ملك أرجون الذي سئم أخيرا من طول جلسات المجمع فولّى راجعا إلى بلده، أمّا المندوبون القادمون من قبل الامبراطور البيزنطي، ميخائيل، فقد وعدوا بأن تخضع كنيسة القسطنطينيّة لروما، نظرا لتخوّف ميخائيل من أطماع شارل كونت أنجو، غير أنّ ذلك لم يكن إلاّ وعدا لم يكن من المستطاع تحقيقه، ولم يدر رعايا

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 543-544; Boyle (J.A.), The Il-Khans of Persia and the Christian west, History today, 1973, p. 558 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 24, note12; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 86 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 280.

(2) أنظر : Roberg (Burkhard), op. cit., p. 294; Setton (K.), The Papacy., Vol. I, p. 116.

الامبراطور عنه شيئا (1)، ثمّ مات جريجوري العاشر في 10 جانفي 1276م، وبموته خمدت الحماسة الصليبية التي أذكاها هذا الأخير، ولم تتوجه الحملة الصليبيّة إلى الشرق(2).

وبينما كان الغرب الأوربيي غير آبه لاقتراحات أبقا للتحالف وغير مكترث لما حلّ ببقية الإمارات الصليبيّة في الشرق، كانت قوات المماليك توجّه ضربة أخرى لأرمينيا الصغرى في مارس- أفريل عام 1275م، فقد اجتاح بيبرس قيليقيا فنهب مناطق واسعة في ماميسترا Mamistra وسيس Sis وأدنا Adana وتارس Tarse ولياس Layas، دون أية مقاومة تذكر من ملكها ليون الثالث(1270- 1289م)، وذلك لأنّ هذا الأخير قطع الهدايا المقررة عليه، وخالف شروط الهدنة من أنّه لا يجدّدُ بناء، ولا يحصّن قلعة، وصار لا يطالع بخبر صحيح، كما تقرر معه بمُقتضى الأيْمان وكان يحرّض أبقا لحرب المسلمين وأخذ بيت المقدس من أيديهم وتدمير قوة المماليك المصريّة، وأنّه جعل جنوده يتنكرون بزيّ التتار إذ يُلبسهم السراقوجات ثمّ يُخيف ويُغيرُ بها على تجارة وقوافل المسلمين ويدّعي أنّهم عساكر الإيلخان، وحصلت أذيّة للتجار من جهة منطقة كينوك فكتب السلطان إلى صاحب سيس في ذلك فلم يُفد فيه المكاتبة فجرّد السلطان إميره حسام الدين العين تابي، مقدّم عسكر حلب، إلى كينوك فوصلها ثالث محرّم 672هـ فدخل الأرمن إلى القلعة، وقاتلهم المسلمون وأخذوا القلعة وقتلوا الرجال التي بها وسبوا الحريم وأتمّ العسكر إغارته إلى أطراف طرطوس ونهبوا وسبوا، وتضوّر صاحب سيس من ذلك، وفي سنة 673هـ قصد السلطان مدينة سيس الأرمنيّة فغزاها وأحرقها وسوّى بالأرض كنائسهم وغنم ما لا يُحصى من المال والدواب وهدّم قصور التكفور، ذالك أنّ صاحبها كان يُحرّش المغول على المسلمين ويلّل المسلمين في أعينهم، ومما اعتمده السلطان أنّ تركمانا تجّارا وصلوا من الروم ومعهم خيل وبغال فطلع عليهم أهل كينوك فقالوا لهم هذه الخيل للسلطان فقاتلوهم(3)، وهكذا غدت مملكة الأرمن فريسة سهلة للمماليك بعيدة عن أي مساعدة حلفائهم الإيلخانيين، ولم يكتفي بيبرس ذلك بل انتقل إلى الهجوم على حليف آخر لمغول فارس

---

(1) أنظر : Setton (K.), The Papacy., Vol. I, p. 128.
وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص584-585.

(2) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص586.
وانظر أيضا : Setton (K.), The Papacy., Vol. I, p. 121.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 675هـ، ص 101 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 417، 432- 435.
وانظر أيضا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXIX, p. 843; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 694; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 471-472; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 248.

وهم سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بالحماية المغولية، وبفضل التعاون والدسيسة من وزير السلاجقة الملقب البروانة استطاعت قوات المماليك تمزيق الجيش المغولي في الأناضول عند إبلستين (أو آبلستان أو الأُبلُستين)(*) في 13 من ذي القعدة 675هـ/ 18- 19 أبريل 1277م، وفي 23 أبريل 1277م احتلّ قيصريّة Césarée وأعلن نفسه وريث سلاطين السلاجقة، وبعد عودة بيبرس إلى بلاد الشام، حضر أبقا بقواته إلى مكان الواقعة، وبكى وتأسّف عندما شاهد قتلى التتار مكدسين، ثمّ أثخن فيمن لقي من المسلمين وسلاجقة الروم قتلا ونهبا، ولم يقتل أحدا من النصارى، لمّا رأى قلّة أعداد موتى المماليك والسلاجقة إلى جانب جنوده في تلك الموقعة التي تعمّد فيها بيبرس دفن معظم شهدائه وموتى السلاجقة بينما ترك بعظهم حيلة منه لإغاضة أبقا خان إذا ما شاهد فذاحة خسائره أمام المماليك(1).

وتكرّرت السفارات بين الجانبين المغولي والنصراني الأوروبّي، في عام 675هـ/1277م على أثر تلك الضربة التي وجّهها بيبرس لكلّ من أرمينيا الصغرى سلاجقة الروم، لكن دون إحراز أيّ تقدُّم ملموس (2).

وبعد طول انتظار الإيلخان المغولي لقدوم الحملة الأوربيّة الصليبيّة، ولكثرة خسائر المغول وحلفائهم الصليبيين في الشرق والتهديدات المملوكية المتلاحقة قرّر كل من أبقا وليون الثالث ملك أرمينيا إرسال سفارة أخرى عاجلة إلى البابوية وملوك أوربا، مكوّنة من جيورجيين اثنين هما الأخوين جاك ويوحنا فاسالي Jacque et Jean Vassali، فوصلى سنة 1276م إلى بلاط الملك شارل الأنجوي Charles d’Anjou، (ملك صقلية، وبيت المقدس منذ سنة 1277م، وهو أيضا عم ملك فرنسا)، في مدينة نابل Naples الإيطاليّة، ثمّ استقبلهما البابا يوحنا الواحد العشرون (1276-1277م) Jean XXI، ليتوجّها فيما بعد إلى ملك فرنسا فيليب الثالث Philippe- le- Hardi وملك إنجلترا إدوارد الأوّل Edouard I[er]، وفي رسالته أعاد أبقا

---

(*) هي مدينة ببلاد الروم قريبة من أفسوس (أو أبْسُس مدينة أصحاب الكهف).
أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج1، ص75؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص 97، حاشية 1.

(1) الهمذاني (ت.719هـ/1318م) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول)، نقله إلى اللغة العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م، ج2، ص 62 ،63 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 675هـ، ص99، 101 ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 453- 471 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص16- 17 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 447.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 694; d’Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 482, 483; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 253, 254.

(2) أنظر : Boyle (J.A.), The Il-Khans of Persia and the Christian west, p. 558.

تعاهداته لهؤلاء على وعوده السابقة بالانضمام لقواتهم فور وصولها للشرق وتمويلهم بما يلزمهم، ولكن فيليب الثالث ملك فرنسا (1270-1285م) لم يفعل أكثر من حسن استقباله للسفراء المغول ووداعهم، بل وتروي حولية فرنسية معاصرة، هي لغليوم دي نانجي، أن الباريسيين اعتقدوا أنّ هؤلاء المغول جواسيس وليسوا سفراء(1)، ويبدو حسب ما ذكره المؤرخ الفرنسي ريموزا Remusat أنّ سفراء المغول كانوا يحملون تلك الرسالة أينما حلوا وارتحلوا ولا يتركونها عند أحد من أباطرة الغرب الأوربي وهذا يوحي وبلا شكّ أنّ مضمون خطاب أبقا كان هو نفسه إلى جميع أباطرة أوربا(2)، ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أنّ رسالة أبقا المذكورة مفُقودة ولم يُعلم محتواها إلاّ من خلال ردّ بابا آخر، هو نيكولا الثالث، عليها في 1 أفريل 1278م(*)، وأثناء تجوّل سفراء المغول في فرنسا وإنجلترا كان البابا يوحنا الواحد والعشرون قد مات ونصّب مكانه، بعد أشهر عديدة، بابا جديد لقّب نيكولا الثالث (1277- 1280م)، ولم يرجع الإخوة فاسالي إلى نابل الإيطاليّة إلاّ أواخر 1277م وردّ البابا الجديد، نيكولا الثالث، على سفارة المغول في أوائل شهر أبريل سنة 1278م ببعثة فرنسيسكانيّة يرأسها جيرار دي براتو Gérard de Prato يصحبه كل من أونتوان دي بارم Antoine de Parme ويوحنا دي سانت أجاث Jean de S^te^ Agathe وأندري الفلورنسي André de Florence وماتيو الأريتيوي Mathieu d'Aretio، يعتذر فيها البابا لأبقا عن التأخير الحاصل للرد، وكان من مهام تلك البعثة أيضا التبشير بالدين المسيحي بين مغول فارس وتعميد أبقا نفسه وكذلك قوبيلاي خان الصين، أمّا الملك شارل الأنجوي فقد أعدّ مبعوثيه الخواص برفقة أسقف اسمه بطرس

---

(1) أنظر : Guillelmi De Nangiaco, listoire du roy Phelippe fils de monseigneur saint Loys, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, p. 511 ; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, année MCCLXXVI, pp. 247- 248 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 545; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 280- 281; Tanase(Thomas), Une Lettre Latine inédite de l'Ilkhan Abaqa au Pape Nicolas III : Croisade ou Mission ?, oriente Moderno, 2008, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, p. 337; Langlois charles-Victor et Kohler charles, Lettres Inedites concernant les croisades (1275- 1307), Bibliotheque de l'ecole des Chartes, Tome 52, 1891, p. 48, 56; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 88, 89, 90 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, pp. 24- 25.

(2) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 90.

(*)نص رسالة نيكولا الثالث إلى أبقا مترجم إلى الفرنسية عند : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 546-548.

الأودنسي Pierre d'Odense إلى أبقا فغادروا مدينة نابل في شهر أوت 1278م(1)، وعلى هذا الأساس فإنّه واضح والبارز للعيان أنّ ضرورة التبشير بين المغول وتعميدهم والتمكن من تنصير الإيلخان المغولي، كان الرأي المُلح لقادة أوروبا عموما، قبل التفكير في أيّ تحالف معه، ولا شكّ أنّ ذلك الموقف كان لإخفاء ميولاتهم الحقيقية، إذ كانوا يخشون أن يورّطهم الخان المغولي في حملة صليبية جديدة هم في قرارة أنفسهم لا يريدونها.

ويبدو أنّ كلّ تلك المصائب التي لحقت بالحملات الصليبيّة القريبة العهد والتي بذلت فيها البابويّة وأوربا ومجتمعاتها النفس والنفيس، جعلت ملوكها وأمرائها يشكُّون في نجاعتها، ما جعل تلك الروح الصليبيّة القديمة تخمد شيئا فشيأ في تلك الفترة، ولم يعد لها مناصرا، ولذلك لم يعد الملك الفرنسي فيليب الثالث مستعدا حقيقة لمغامرة صليبيّة في الشرق وتبديد الأموال من أجل أفق صعب المنال، وأما ما كان يعد به، هذا الأخير، كلا من البابا والمغول من استعداد، ويُمنّيهم به، فلم يكن يهمه من ورائه إلا استقرار وضعه السياسي بالمحافظة على علاقة طيّبة بالبابوية، ولم يكن يهمّه مصير ما تبقى من الصليبيين في الشرق، ولا بدّ أنّ موقفه هذا كان ناجما عن تجارب هزائم والده لويس التاسع المتكررة، في مصر وتونس، التي تركت انطباعا سيّئا في نفوس المسيحيين عامّة والفرنسيين خاصة، بل وأثرت تأثيرا خطيرا على الاقتصاد الفرنسي خاصة إذا ما عرفنا أن حملة لويس التاسع في الشرق العربي (1248-1254م) تكلفت ما يعادل مجموع دخل فرنسا، حينئذ، لمدة ستة أعوام، فضلا عن أنّ تورط فرنسا في حرب مع مملكة قشتالة على وراثة العرش كبدتها خسائر فادحة أبعدتها عن الاهتمام بالكيان الصليبي، ونفس الرد تقريبا سمعه سفراء المغول من الملك الانجليزي عام 1277م عندما طلبوا مساعدته "ضد الكفرة أعداء الصليب"، يعني المسلمين(2).

---

(1) أنظر : Tanase(Thomas), op. cit., pp. 337- 338; Cordier (Henry), Les Voyages en Asie au XVIe siecle du bien heureux frére Odoric de Pordenone religieux de Saint-François, Paris, 1891, p. XVII; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, p. 546-548; Richard(jean), La Papauté., op.cit., p. 85; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 281; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 93.

كان البابا يوحنا الواحد والعشرون Jean XXI هو من قرّر إرسال هذه السفارة إلى أبقا خان، وكانت مكونة من خمسة مبعوثين من الفرانسيسكان، هم : جيرهالد دي براتو Gerhard de Prato، وأونتوان دي بارةAntoine de Parme ، وجان دي سانت أقات Jean de Ste Agathe، وأندري دي فلارانس André de Florence، وماتيو دي أريتيو Mathieu d'Aretio، مبعوثين إلى أبقا خان إيران وإلى الخان الأعظم قوبيلاي في منغوليا والصين.

أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XVII ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 546 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 93.

(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 116، 117.

والحقيقة أنّ هذه السفارات، على تعدُّدها واستمرار وتيرتها، لم تحقق الغاية المنشودة لكلا الطرفين، بفعل انهماك الملوك الأوروبيّين والبابويّة بمشكلاتهم الداخليّة، وتراجع حماس الأوروبيّين للحروب الصليبيّة بعد الانتكاسات الكبيرة التي مُني بها الصليبيُّون في الشرق بحيث فقدوا الأمل في إعادة إحياء الممالك الصليبيّة المندثرة، بالإضافة إلى اعتقادهم بأنّ التحالف مع المغول لم يعد مطلوبًا في هذه الآونة، ومن جهته فإنّ أباقا انهمك في الحروب المستمرّة على جبهاته الثلاث في الغرب والشمال والشرق بحيث لم تُتح له التقاط أنفاسه على الرغم من حماسه الشديد لقيام مثل هذا التحالف، وهكذا فشلت خطة قيام هجوم إيلخاني- نصراني مشترك على شمالي بلاد الشام، في حين كان عامل المفاجأة، الضروري، لمثل هذا الهجوم، مفقودًا بسبب الصلات التي كان يشوبها الخلل بين الطرفين، ومع ذلك فقد أدّت هذه التحالفات الهشّة، على الأقل، إلى توثيق عرى الصداقة بين تبريز وأوروبّا، وزادت من تعرُّف الأوروبيّين على دور الشرق الأدنى، إذ أنّ أوربّا انتهزت هذه الفرصة لزيادة النشاط التبشيري عن طريق البعثات التبشيريّة التي حرصت على تكثيف نشاطها في المجتمعات النصرانيّة الشرقيّة المخالفة للعقيدة البابويّة أكثر مما فعلته في المجتمع المغولي، ما نتج ظهور أديرة أخرى في منطقة ما بين النهرين والقوقاز في ذلك الوقت(1).

وعندما وصلت جهود أبقا من أجل التعاون العسكري مع الغرب إلى باب مسدود، قرر أنّ الإلتفات إلى القُوى الصليبيّة المحلية في غرب آسيا والاعتماد عليها في مواجهة حكّام المماليك، خاصة بعد وفاة "الظاهر بيبرس" وتمرد "سنقر الأشقر" على المنصور قلاوون (1279-1290م) واستقلاله ببلاد الشام ومراسلاته لقادة مغول فارس، ولهذا أرسل أبقا مبعوثا إلى عكا في أكتوبر عام 1280م لطلب التحالف مع الصليبيين عندما تتقدم جيوشه في العام التالي ضد المماليك(2)، ولم يتأخر الأرمن والجورجانيين عن الانضمام لقواته ضد المماليك(3)، بينما اختارت معظم القوى الصليبية الأخرى الحياد والمهادنة لعلمهم بضعف قدرة المغول في

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص61، 62.

(2) أنظر : Paviot(Jacques), op. cit., p. 312.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 117.

(3) أنظر: Reinaud (M.), Lettre de Joseph de Cancy., p. 2, 4.

وانظر أيضا : محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 333.

حمايتهم خاصّة وأنّها حديثة عهد بما كان من غزو مملوكي لكل من مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية، فسارع مقدم بيت الإسبتار وسائر الإسبتاريّة بعكا إلى تقرير هدنة مع السلطان قلاوون ابتداء من يوم السبت 12 محرم 680هـ/ مايو 1281م مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وتقرّرت الهدنة أيضا مع ممتلك طرابلس الشام لمدة عشر سنين أوّلها 17 ربيع الأوّل680هـ/ جويليا 1281م(1).

ومن المشاكل الكبيرة التي اعترضت السلطان قلاوون الصدام المسلح بينه وبين المغول وحلفائهم من ناحية أخرى ودارت رحاه في حمص شهر أكتوبرعام 1281م/رجب 680هـ، فالمصادر العربية أشارت إلى أن جيش المغول بقيادة مانكوتمر، شقيق أبقا خان، كان مكونا من "خمسين ألفا من المغول وثلاثين ألفا من الكرج(*) والروم والأرمن والفرنجة (ونخص بالذكر قوات الاسبتارية في حصن المرقب) وأنّه قد قفز إليه مملوك الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق ودله عن عورات المسلمين"(2)، وذلك دون أية تفاصيل أخرى عن دور "الفرنجة" أو عددهم في هذه المعركة، أمّا رشيد الدين الهمذاني فلم يشر لاشتراك الفرنجة مع المغول في هذه المعركة(3)، بينما أشار ابن العبري إلى أن المغول قد اخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره مع خمسة ألاف من كرج(4)، دون الإشارة لوجود "الفرنجة" مع المغول، والمهم أنّ المعركة العنيفة أسفرت عن انسحاب المغول إلى شرق الفرات الذي أصبح الحد الفاصل بين الحدود الشمالية للدولة المملوكيّة والحدود الغربية للمغول(5).

أمّا "جوزيف ذي كانسي" Sir Joseph de Cancy، وهو أحد فرسان هيئة الاسبتارية في حصن المرقب، فيذكر معركة حمص الهامّة في تقريره الذي أرسله إلى الملك الانجليزي في مايو عام 1282م، أي بعد معركة حمص بسبعة أشهر تقريبا، يصف فيه معركة حمص، كشاهد

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 680هـ، ص 139.

(*) الكرج : جيل من النصارى كانوا يسكنون في جبال القبق، وهو إشارة الى سكان جورجيا المسيحية وفي إقليم القوقاز الآن، وخضعت لحكم المغول منذ عام 1226م، و كان ملكها هو ديمتري الثاني (1269– 1288م).
أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، المجلد 4، ص 446 ؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ/1985م، ص 211، 211 حاشية 10.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 680هـ، ص 145؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص23؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 333.
وانظر أيضا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXII, p. 844.

(3) الهمذاني (ت.719هـ/1318م) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول)، نقله إلى اللغة العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م، ج2، ص83، 84.

(4) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 504.

(5) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 334.

عيان، وأحوال الشرق اللاتيني والمماليك وقت كتابة هذا الخطاب، والأطراف المشاركة، فيقول" أنه بناء على إلحاح ملك أرمينيا الصغرى، الذي كان متواجدا بالمعركة، فإنّ اسبتارية حصن المرقب قد أرسلوا إليه مائتين من الفرسان والمشاة للانضمام لقواته(1).

وفي سنة 684هـ/1285م قرر السلطان قلاوون الانتقام من الاسبتاريّة الذين دأبوا على التحالف مع المغول ومهاجمة المسلمين، فنازل قلعة المرقب في أوائل ربيع الأوّل، وهي حصنهم، وحاصرها ثمانية وثلاثين يوما فرماها بالمجانيق حتى أخذها من الفرنج عنوة يوم الجمعة 19 ربيع الأول 684هـ/مايو 1285م، فقد طلب أهلها الأمان فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء العمارة سالمة، وأخرج من فيها إلى طرابلس الشرق تأديبا لهم على اشتراكهم مع المغول ضد المسلمين في أكتوبر عام 1281م(2)، ومما لا شكّ فيه أنّ ضياع هذا الحصن البالغ المناعة من أيدي الصليبيين كان خسارة كبيرة فزع لها كل الصليبيين وخاصة من كان في مدينة عكا.

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الجولة بانتصار المماليك وأن المنهزمين من المغول وحلفائهم ولّوا الأدبار، وأن قوات المسلمين تعقبتهم حتى شرقي نهر الفرات وحدود أرمينيا الصغرى، وأن القوات المنسحبة خسرت أثناء الفرار أكثر مما خسرته في ميدان القتال(3)، أمّا أبقا خان فقد كان قد توفي في 20 ذي الحجّة 680هـ/أوّل أبريل 1282م بسبب إفراطه في الشراب وحزنه على هزيمة جيشه بقيادة أخيه منكو تيمور في بلاد الشام في موقعة حمص، وكان أبقا قد تولّى مسؤوليّة الحكم سبع عشرة سنة، وهي أطول مدّة حكمها إيلخانا في هذه الدولة، وقد ساعدته هذه المدّة الطويلة على تحقيق الاستقرار إلى حد ما على الرغم من كثرة مشكلاته الداخليّة والخارجيّة التي لم تدع له إلاّ فرصًا قليلة للراحة(4). وتولى بعده شقيقه الآخر أحمد تكودار منصب الإيلخانية (1282-1284م) ونظرا لاعتناقه، وكثير من قواده، الإسلام، فانه حاول التقارب مع دولة المماليك المصرية وإنهاء حالة الحرب بين البلدين ليتفرغ لمشاكله الداخلية الناجمة عن تمرد ابن أخيه أرغون عليه ولكن مصرعه على يد الأخير أغلق باب

---

(1) أنظر: Reinaud (M.), Lettre de Joseph de Cancy., pp. 3- 10.

(2) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 7، ص 267- 268، 267حاشية1 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 30 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 684هـ، ص 189.

(3) أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 30.

(4) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص 85 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 680هـ، ص 155 ؛ ابن الفوطي، المصدر السابق، ص289.

الحوار مع المماليك إلى حين(1)، إذ أنّ ظهور دولة المماليك على هذه الصورة كان قد أزعج المغول أكثر مما أزعج الصليبيين فبادر الإيلخان أرغون بالكتابة إلى الصليبيين في الشام وإلى الغرب الأوربي لإعداد قوّاتهم ويبلغهم بأنّه سيتوجه إلى الشام في مطلع عام 1291م ليصل إلى القدس في فبراير من العام نفسه، ولكن تلك المراسلات أخذت وقتا طويلا دون فائدة كانت نتيجتها رجوع بلاد الشام بأكملها إلى البيت الإسلامي(2).

**6- الحنكة السياسية البيزنطية في تأمين حدودها :**

قد ذكرنا من قبل أنّه اقتضت الأحوال السياسيّة المغوليّة الإلخانية والبيزنطيّة المتعثرتان إلى عقد سفقة المصاهرة لتأمين الجانب، فنتج عن ذلك ارتباط أباقا خان بابنة الامبراطور، ولا شكّ أنّ ازدياد الصراع بين بيزنطة والقبيلة الذهبيّة كان سببا طبيعيا آخر لربط علاقات الصداقة تلك مع إيلخانية فارس، فقد حدث في عام 654هـ/1256م أن تقدّم بركة خان القفجاق وحُلفاؤه البلغار فهاجموا الحدود الشماليّة البيزنطيّة، وكانت تلك القوّات المغوليّة تحت قيادة الأمير المغولي القفجاقي نوجاي Noghay (ت. حوالي 699هـ/1299م)، وبينما كان هذا الأخير، لعدّة سنوات، هو الحاكم الفعلي للأقاليم الروسيّة الجنوبيّة ومنطقة الحُدود مع بيزنطة، اضطر الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس، إلى تزويجه في حوالي سنة 672هـ/1273م ببنته الغير الشرعيّة الثانية، وكان اسمها يوفروسين Euphrosyne(3)، وعلى ذلك يكون الإمبراطور البيزنطي قد ارتبط بالمُصاهرة مع إيلخانات فارس، ومع خانات القبيلة الذهبيّة، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت بيزنطة شر خطر المنافسة المغوليّة، وفي نهاية عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس تمّ إقرار العلاقات الوديّة مع السلطان المملوكي قلاوون، وربط الطريق البحري عبر البوسفور بين القبيلة الذهبيّة ومصر، فكان نتيجة ذلك تدفُّق التجارة عبر الأراضي البيزنطيّة، ومزيدًا من الاتصالات الدبلوماسيّة بين المماليك المصريّة والقبيلة الذهبيّة.

والواضح أنّ العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والمماليك المصرية قد استمرت في النماء من الحسن إلى الأحسن في عهد السلطان قلاوون، فقد بادر هذا الأخير، في رمضان

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد2، ج2، ص 91-92، 100، 121 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 681هـ، ص 157-158.

(2) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 335.

(3) أنظر : Ostrogorsky(Georges), Histoire de l’état Byzantin, Payot, Paris, 1977, p. 408.

680هـ، فور اعتلائه العرش إلى إرسال الأمير ناصر الدين الجزري على رأس سفارة نظم بطريق الأقباط حنا السابع، برسالة تحوي يمين حلفه إلى الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن، ردا على رسالته التي وصلته في آخر محرم سنة 680هـ، لتأكيد استمرار العلاقات السياسية الوديّة بين الطرفين، وأجاب الأخير بحرصه على استمرار الصداقة بين الدولتين، ويظهر استعداده لتسهيل سبل السفر لرسله والتجارة التي تمر عبر أراضيه، وطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بها، فأرسل إليه السلطان من حلّفه على ذلك اليمين، ولمّا اعتلى أندرونيقوس الثاني (1282- 1328م) العرش البيزنطي أرسل إلى السلطان قلاوون هدية تشتمل على حمل من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط، في مبادرة تؤكّد استمرار سياسة الود والعلاقات الطيّبة بين الطرفين، فسُرّ السلطان قلاوون بها وغمر الرسل بالهدايا قبل تسريحهم إلى بلادهم(1).

وهكذا أمن قلاوون الجهة البيزنطية للتفرغ للأعداء الصليبيين في الشام والمغول المتحالفين معهم.

**7- مُداراة الملك المنصور قلاوون (678-689هـ/1279-1290م) للقوى الصليبية :**

لم تكن أرمينيا الصغرى، بحكم عقيدتها النصرانية وتحالفها الظاهر للعيان والمستمر مع المغول والقوى الصليبية المحلية ضد المماليك المصرية، في مأمن من انتقام هذه الأخيرة، وقد اتسمت العلاقات بين الأرمن والملك المنصور قلاوون بالتأرجح بين الصدام العسكري حينا وبين الهدوء تارة أخرى حسب تطور علاقاتهما بالصليبيين وبالمغول في المنطقة(2).

وظلت مملكة أرمينيا الصغرى خاضعة للمماليك طيلة حكم المنصور قلاوون إلاّ أنّ الأرمن كانوا لا يتورّعون في استغلال الفرص، فيتجرّؤون ويبادرون بمهاجمة المناطق الحدودية عندما ينهمك المماليك في الحرب مع الصليبيين أو المغول، ويساعدون هؤلاء وأولائك في حربهم لهم، ويحاولون التخلص من التبعية المملوكية والتوقف عن دفع الجزية لهم، لذلك اشتد ضغط المماليك على الأرمن، والحقيقة أنّهم كانوا على حق في ارتيابهم بهم، فضلا عن حسدهم لهم على الثروة التي كانت تجتاز بلادهم بالطرق التجارية التي تصل إلى البحر الأبيض عند مرفأ

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 54 ؛ المقريزي : السلوك، ج 2، ص154.
(2) عاشور سعيد عبد الفتّاح : الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 9، القاهرة، 2010م، ج 2، ص 374.

إياس(1).

وحدث أن هاجم الملك الأرميني ليون الثاني (1270- 1289م) مدينة حلب، وأحرق مسجدها، فأمر نائب حلب بالتوجه إلى بلاد الأرمن كرد على هذه الغارة الأرمينية، وفعلا هاجمت القوات المملوكية في عام 682هـ/1283م ميناء إياس الأرميني، وأنزلت الهزيمة بالأرمن، كما اشتبكت معهم عند باب الاسكندرونة الواقع على خمسة وأربعين ميلا من أنطاكية، وعادت محمّلة بالغنائم(2).

ونتيجة لاشتداد الضغط على الأرمن، مال ليون الثاني إلى المهادنة، فراسل السلطان من أجل الصلح بوساطة مقدم الداوية، نتج عنه عقد هدنة بين الدولتين، وأهم ما جاء فيها :

أن يقدم ملك الأرمن جزية سنوية للسلطان مقدارها ألف ألف درهم (1000000 درهم) قطيعة من دراهم وأصناف مفصلة منها خمسمائة ألف درهم حجر فضي، وخمسون رأسا من الخيل والجياد والبغال الجيدة، وعشرة آلاف تطبيقة وهي لحدو الخيل لوح من الحديد أو النحاس به مسمار، وهدايا وأقمشة. وأن يطلق ملك الأرمن سراح كافة الأسرى المسلمين الذين في حوزته، فيما يطلق ملك الأرمن سراح التجار المسلمين المحتجزين عنده مع أموالهم وبضائعهم، وإذا مات أحد التجار يُطلقُ أسيرا مسلما بدلا منه، وتستمر الهدنة بشروطها قواعدها المحررة إلى انقضاء مدتها ولا تُنقص بموت أحد ملوك الجهتين، ولا بعزل نائب أو وال وتولية غيرهم، ولا بدخول رجل غريب ولا بيد غالبة من المغول ولا من غيرهم، وتستمر هذه الهدنة مدة عشرة أعوام وعشر ساعات اعتبارا من (شهر ربيع الآخر عام 684هـ/جوان عام 1285م)(3).

أمّا بالنسبة للاسبتارية، فقد استأذن الأمير بالبان الطباخي، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، وكان نائب السلطنة بحصن الأكراد، في الإغارة على المرقب، القلعة، لما كان قد اعتمده أهلها من الفساد عند وصول المغول إلى حلب، فأذن له السلطان قلاوون، فحاصرهم بلبان، ولكنّ الفرنج استطاعوا دفعه عن الحصن في فبراير 1281م/679هـ، إذ نزل الفرنج من

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص 752.
(2) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق، ص 30- 32 ؛ المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 682هـ ، ص 174.
وانظر أيضا : Jacques de Morgan, Histoire du peuple Arménien depuis les temps les plus reculés de ses annales jusqu'á nos jours, Paris, 1919, pp. 208- 209.
(3) ابن عبد الظاهر : المصدر نفسه، ص 92- 103.
وانظر أيضا : Jacques de Morgan, op. cit., p. 209.

المرقب فقتلوا وأسروا من المسلمين جماعة(1).

وعندما أدرك السلطان قلاوون أنه في حاجة إلى تقوية جبهته، لجأ إلى محاولة فصل الصليبيين بالشام عن المغول في العراق وفارس، فأحرز نصرا دبلوماسيا كبيرا عندما عقد في أوائل شهر ماي سنة 1281م/680هـ صلحا لمدة عشر سنوات مع الداوية والاسبتارية أوّلها يوم السبت ثاني عشر من شهر محرم 680هـ، فضلا عن بوهمند السابع أمير طرابلس أوّلها سابع عشر من شهر ربيع الأول 680هـ، وتوجه الأمير فخر الدين أياز المقري الحاجب لتحليف الفرنج ومقدم الإسبتار على ذلك، فحلّفهم(2)، والجدير بالذكر في هذا المقام أنّ حكومة عكا اختارت في تلك الآونة أن تقف على الحياد بين قلاوون وبين خصمه سنقر الأشقر المملوكي، الذي انشق عنه، بل لجأت إلى تحذير السلطان حتى يحترز على نفسه من مؤامرة دبّرها بعض أمراء المماليك الظاهرية الذين اتصلوا بالصليبيين في عكا وطلبوا منهم ألا يُصالحوا السلطان، وبفضل ذلك التحذير تمكّن السلطان قلاوون من القضاء على المؤامرة في الوقت المناسب(3)، وهكذا لجأ الصليبيون في الشام إلى مسالمة السلطان قلاوون، في الوقت الذي كان أبقا خان مغول فارس يعد العدة لحملة جديدة كبرى ضد المماليك.

ذلك أنّ أبقا خرج بنفسه إلى الشام على رأس جيش من المغول من إقليم الجزيرة في سبتمبر سنة 680هـ/1281م، ومرّ في طريقه بالرحبة، في حين أتى أخوه منكوتيمور، منكوتمر، من كبادوقيا عن طريق عينتاب وانضمّ إليهما ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى(4)، وقد قدر أبو الفدا جيش منكو تيمور بخمسين ألف مقاتل، فضلا عن ثلاثين ألفا من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم فيكون المجموع ثمانين ألفا(5)، ثمّ كان أن زحف الجيش المغولي على وادي نهر العاصي، فوصل أمام حمص، حيث كان جيش المماليك مرابطا تحت قيادة السلطان قلاوون، وفي موقعة حمص التي دارت بين الفريقين في 30 أكتوبر سنة 1281م حلت الهزيمة بالمغول وهلك منهم خلق كثير، فولوا مدبرين عبر الفرات(6)، أمّا ليو

(1) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج 4، حوادث سنة 679هـ، ص 22.
(2) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 680هـ، ص 139.
(3) المصدر نفسه، أحداث سنة 680هـ، ص 140- 141 ؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج2، ص 373.
(4) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ج2، م2، ص 83؛ المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 680هـ، ص 145.
(5) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج 4، حوادث سنة 680هـ، ص 23؛ المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 680هـ، ص 145، 146.
(6) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ج2، م2، ص 83 ؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر : تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين وسعيد عبد الفتّاح عاشور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ج1، ص 62 وما بعدها ؛ المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 680هـ ، ص 147- 148.

الثاني ملك أرمينية الصغرى فقد انسحب عائدا إلى بلاده وإن كان قد وقع في الطريق في كمين أعدّه له التركمان والأكراد، فخرج إليه الأمير شجاع الدين السيناني فقاتل فرقة من الجيش الأرميني المنهزم المتوجه إلى بغراس الأرمينية، وكان عددها ألف وخمسمائة فارس فيهم أكابر أصحاب سيس وأقاربهم، فأسرهم عن آخرهم، بحيث لم يفلت منهم إلاّ دون العشرين، وتوجهت فرقة أخرى من الأرمن الهاربة إلى سلمية وكانوا نحو أربعة آلاف فأخذ عليهم نواب الرحبة الطرقات والمعابر فساروا في البرية فماتوا عطشا وجوعا، ولم يسلم منهم إلاّ نحو ستمائة فارس، فخرج إليهم أهل الرحبة فقتلوا أكثرهم، وأحضروا عددا منهم إلى الرحبة ضربت أعناقهم بها(1).

وعلى الرغم من حرص الصليبيين في الشام في تلك الفترة على مهادنة السلطان قلاوون والمحافضة على الصلح المعقود بين الطرفين، حتّى أنّ سان سفرينو San Severino (Saint-Sevrin) نائب شارل الأنجوي في عكا خرج بنفسه لاستقبال السلطان قلاوون أثناء عودة الأخير من حمص إلى مصر في شعبان 680هـ/نوفمبر سنة 1281م وقدّم له الهدايا الثمينة(2)، على الرغم من ذلك فإنه سرعان ما ثبت أنّ قلاوون لم يعقد الصلح السابق مع الصليبيين إلاّ تحت تأثير الخوف من تهديد المغول، ولم يكد يمضى على الصلح أربع سنوات حتّ شرع قلاوون في مهاجمة الاسبتارية في حصن المرقب في ربيع سنة 1285م/684هـ، واستولى على الحصن فعلا في أواخر شهر ماي من العام نفسه(3)، وكان الاستيلاء على حصن المرقب خطوة كبرى في تقويض أركان الصليبيين بالشام، نظرا لمناعة ذلك الحصن حتآ وصفه أبو المحاسن بأنّه من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة، وهو كبير جدا(4)، كما وصفه أبو الفدا بأنّه في غاية العلو والحصانة، لذلك اعتبر المسلمون اليوم الذي استولوا فيه على حصن المرقب يوما مشهودا أخذ فيه الثأر من بيت الاسبتارية ومحية آية الليل بآية النهار...(5).

وهكذا بدأت الخطوات النهائية للاجهاز تماما على الصليبيين في الشام، بعد ان انحلّت

---

(1) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 680هـ، ص 150.
(2) أنظر : Grousset, op. cit., T. III, p. 701 ; Reinaud (M.), Lettre de Joseph de Cancy., p. 7.
(3) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 684هـ، ص 189 ؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج2، ص 374.
(4) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1292م، ج 7، أحداث سنة 684هـ، ص 269.
(5) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج 4، حوادث سنة 684هـ، ص 30.

أوضاعهم، وتخلّى عنهم الغرب الأوربي وأضاعوا من أيديهم فرصة محالفة مغول فارس. والواقع أنّ الفرصة كانت لا تزال سانحة أمام الغرب الأوربي من ناحية، والصليبيين بالشام من ناحية أخرى لمحالفة المغول وإنشاء جبهة مشتركة تحمي على الأقل البقية الباقية للصليبيين بالشام، رغم أنّ أبقا خان مغول فارس، والحليف الحميم للصليبيين توفي في 20 ذي الحجة 680هـ/أوّل أبريل 1282م(1)، إلاّ أنّ أخاه تكودار الذي خلفه في الحكم قلب سياسته رأسا على عقب فأعلن اعتناق الاسلام وتسمى باسم أحمد، واتخذ لنفسه لقب سلطان، وأرسل إلى قلاوون في شهر أوت سنة 1282م يخبره بأنّه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف، وأمر بتجهيز الحجاج، وسأل اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب(2).

وهكذا بدى للعيان أنّ ذلك الحلم الأوربي في تحالف مع المغول بدأ يتبدّد، خاصّة وأنّ بعض الدول الأوربيّة أخذت تراسل المماليك لأغراضها الشخصية والتجارية مثلما فعلت قشتالة، إذ تبودلت الهدايا بين مصر وبين صاحب قشتالة الإسبانية ألفونسو العاشر الذي أرسل سنة 681هـ/1282م إلى السلطان قلاوون رسوله الفرس الحكيم مايشتر فلبّ الاسبنيولي ورفيقا له، ومعهما هدية من خيل وبغال كثيرة وغير ذلك، فحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهما في العطاء، وأبرم مع قشتالة اتفاقية دفاعية، ثمّ أعادهما مشمولين بالإحسان(3).

## III- الأوضاع في عهد إيلخانيّة تكودار خان بن هولاكو :

### 1- اعتلاء تكودار(681-683هـ/1282-1284م) عرش الإيلخانية :

اجتمع أمراء المغول في مدينة ألاتاغ، شمال أذربيجان، بعد وفاة أبقا، لاختيار إيلخانا جديدا، في ظلّ تيّارات متعارضة وانقسامات حادّة، سببها تحديد من هو أهل لولاية عرش الإيلخانيّة، فهناك من الأمراء من رأى أنّ أرغون بن أبقا هو الوريث الشرعي لأبيه، وهم المؤيدين لسياسة أبقا، بينما رأى الطرف الثاني، وهم كبار الأمراء، بضرورة التمسُّك بنصوص اليسا التي تمنح أكبر أفراد الأسرة الحق في تولي العرش، وينطبق ذلك على الأمير تكودار أكبر أبناء هولاكو في ذلك الوقت، وأخيرا مالت أولغاي خاتون، زوجة أبقا، إلى ترشيح ابنها منكو

(1) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ج2، م2، ص 85.
(2) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ج2، م2، ص 92 ؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر : تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين وسعيد عبد الفتّاح عاشور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ج1، ص 72.
(3) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 682هـ، ص 157؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 681هـ، ص 217.

تيمور، غير أنّ هذا الأخير سرعان ما توفي كمدًا على أثر هزيمته أمام المماليك في معركة حمص، ثمّ رأى المجتمعون ضرورة الإسراع في اختيار إيلخانا جديدا منعًا للخلاف، فأجمعوا على اختيار تكودار إيلخانًا يوم 26 محرّم 681هـ/6 أيّار(ماي) 1282م(1)، غير أنّ هذا الاختيار لم يُرضي أرغون بن أبقا الذي رأى أنّه أحقّ من عمّه بالسلطة ما أدّى إلى تحوّل المعارضة، فيما بعد، إلى عداء ومواجهة عسكريّة، وشرع تكودار بعد انتخابه في توزيع الاقطاعات وحكومات الولايات، فعهد بحكومة خراسان ومازندران والعراق العجمي وأرّان وأذربيجان إلى شمس الدين محمّد الجويني، وكلّفه بالاشتراك مع سلاطين السلاجقة في حكم بلاد الروم، وولّى ابنه هارون على ديار بكر والموصل وإربل، وأقرّ عطا ملك الجويني على حكم العراق وبغداد(2).

**2- <u>بداية تحوّل إيلخانيّة إيران إلى الإسلام ومحاولة تحالف الإيلخان أحمد تكودار مع السلطان المملوكي :</u>**

كان بركة خان (1256-1267م) أول من أسلم من أمراء المغول، وكان رئيسا للقبيلة الذهبيّة في روسيا بين سنتي 1256م و 1267م، وقد قيل في سبب إسلامه أنه التقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخاري ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن الإسلام فشرحاه له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له، وقيل أن بركه اعتنق الإسلام من طفولته ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند، ومهما يكن من أمر، فان كل جيشه تقريبا قد اعتنق الإسلام وأنه جرت العادة بأن كل فارس يحمل سجادة للصلاة، وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقه وعلماء الكلام وكانت المناظرات الدينية تشغل أكثر مجالسه مع العلماء، وكان سنيا شديد التمسك بدينه(3).

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص 90- 92 ؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر : تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين وسعيد عبد الفتّاح عاشور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ج1، ص72 ؛ أبو الفداء : المختصر، ج4، ص 24- 25 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 449.
(2) الصيّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1980م، ج1، ص124.
(3) أرنولد، المرجع السابق، ص 258- 259.

وكانت إيلخانيّة إيران، آنذاك، تضمّ أقاليم وممالك إسلاميّة كثيرة، باستثناء أرمينيا والكرج، وكان معظم سكانها يدينون بالإسلام، فتعرّض هؤلاء إلى الاضطهاد في عهد هولاكو وبخاصّة بعد سقوط بغداد، ولكن بعد أن هدأت موجة الاحتلال والتدمير وسفك الدماء وانتهاك الحرمات في هذه المناطق، وبدأت الصلات التي كانت تربط الإيلخانات بالخانات في قراقورم تضعف وتتلاشى تدريجيًا، أخذ مغول إيران يرتبطون بالمقابل بهذه الأرض التي توارثوا حكمها، فأقاموا فيها وامتزجوا بسكانها الأصليين، وأضحوا جزءًا من شعوبها، فكان لذلك أثره الكبير في تشرُّب هؤلاء الثقافة والحضارة الإسلاميّة السائدة في إيران آنذاك، وانتهى بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام(1)، فاستعاد المسلمون اعتبارهم وظهر ذلك واضحًا عندما اعتنق تكودار الدين الإسلامي، فهو أوّل إيلخان مسلم حكم الإيلخانيّة وتسمّى باسم أحمد تكودار أو أحمد سلطان(2).

كان تكودار أحمد (1282-1284م)، الذي اعتلى العرش بعد أباقا، أوّل إيلخانات مغول فارس الذين اعتنقوا الإسلام، وقد شبّ أوّلا وعُمّد على المسيحيّة، لكنّه بعد اختلاطه بالمسلمين ورأى من نبل صفاتهم وقدر وعظمة دينهم وحقيقته أخذ يميل شيئا فشيئا إلى الاسلام فاتصل بالأمراء والرجال المسلمين، ثمّ أعلن إسلامه وتسمّى بأحمد خان، وراسل المماليك المصريّة وأمراء الشام وعلماء بغداد وكبارهم يخبرهم بإعلان إسلامه وبداية عهده على المودّة والحب، ويحدثنا، أيضا، بذلك كاتب مسيحي من معاصريه وهو المؤرخ الأرميني هيتون قائلا :" تعمّد في صباه وتسمى باسم نيقولا ولكنه دان بالاسلام عند ما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلف بهم وأصبح مسلما دنيئا، ولما ارتدّ عن المسيحيّة، رغب في أن يُسمى محمّد خان، وبذل قصاراه في تحويل كافّة التتار إلى دين محمّد وعقائده، ولمّا أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنّما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف، حتّى إنّ عددا كبيرا من التتار دخل في عهده عقيدة المسلمين"، ورُغم كلّ ما بذله الغرب الأوربي من جهد فإنّه ليس هناك حقيقة تاريخيّة تقول أنّ واحدًا من حُكّام المغول في إيران قد اعتنق المسيحيّة عدا الخان أحمد تكودار في صباه، ويذكر المؤرخ المستشرق ريموزا Abel-Remusat(J.) أنّ أحمد

(1) عبد الحليم، محمّد رجب : انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربيّة، القاهرة، د. ت.، ص 177.
(2) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 681هـ، ص218-222.
ويُذكرُ أنّ تكودار اعتنق الإسلام وهو صبي، بتأثير شيخ صوفي يُدعى كمال الدين عبد الرحمان الرافعي.
أنظر : ابن الفوطي، المصدر السابق، ص298.

تكودار كان بعيدا عن مواصلة درب أخيه أبقا في علاقاته بالبابوية وملوك الغرب الأوربي، وبعث بنبأ إسلامه إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر في ذلك الكتاب، الذي يحمل تاريخ منتصف جمادى الأولى سنة 681هـ/أوت 1282م، ويحمله أحد رعايا الإيلخان وهو الشيخ المتقن قطب الدين محمد الشيرازي، محاولا التحالف معه، ولم يتأخّر جواب السلطان بالتهنئة على الإسلام واحترام حُسن الجوار والثقة بينه وبين الإيلخان وكُتبت الرسالة في يوم 1 رمضان 681هـ/3 ديسمبر 1282م(1).

والحقيقة أنّ الاسلام قد تسلل إلى مغول إيران ببطء واتخذ سنوات طويلة منذ دخول المغول إلى إقليم خوارزم عام 1219م، على عكس من القبيلة الذهبيّة التي عاشت في جنوب روسيا منذ الثلاثينات وعمّها الاسلام في الستينيّات في حركة سريعة شملت معظم المغول هناك في وقت قصير، وعلى أيّة حال فإنّ أحمد تكودار ما لبث أن قتله الأُمراء بعد أن اعتنق الاسلام بوقت قصير وبعد أن حكم البلاد حوالي عامين(1282-1284م).

كان المغول يشكلون أقليّة وسط الشعوب المسلمة التي قهروها، ولكي لا ينفر منهم المسلمون في إيران وغيرها من البلاد الإسلاميّة اهتدى أحمد تكودار وأسرع، فور اعتلائه العرش، إلى اتخاذ كافّة الإجراءات التي تُثبت صدق إسلامه، من ذلك أنّه أرسل رسالة إلى العلماء في بغداد يُعلن فيها نفسه حاميًا للدين الإسلامي، وتابعًا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وأخذ بنشر الإسلام وأجبر جماعة من اليهود والمسيحيين على اعتناقه وخرّب كنائس تبريز وبدّلها إلى مساجد، وأمر ببناء المساجد والمدارس الإسلامية في كلّ مكان وإقامة الشعائر الدينيّة كما كانت عليه زمن الخلفاء، وقطع وظائف الأطباء النصارى واليهود وأخذ ينفقها على تجهيز قوافل الحجاج واهتمّ بالأوقاف على الأماكن المقدّسة بالحجاز، واعترف بأنّ النصر دائمًا للإسلام، وأنّ رسالة محمّد حق، وأنّ هناك إلهًا واحد، وأمر بأن يصرف ربع الأوقاف في مصارفه الأصليّة، واتخذ الترتيبات اللازمة لرعاية

---

(1) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXIV, p. 846 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, pp. 94- 96 ; Sykes (Sir Lieut. Col. Percy M.), A History of Persia, London, 1915, Volume II, p. 185.

وانظر أيضا : القلقشندي : المصدر السابق ، الجزء 7، ص 237- 242، الجزء 8، ص 65- 68 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 680هـ، ص 158 هامش 1، سنة 681هـ، ص 160- 162 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 506- 518 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 25 ؛ أرنولد، المرجع السابق، ص 260- 261 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 449.

قوافل الحج إلى مكة، وأرسل المؤن إلى أهلها، كما كان يقضي جزءًا من يومه مع المشايخ والفقهاء يستمع لدروسهم، وسعى إلى الوفاق مع المماليك حقنا لدماء المسلمين وتبودلت بينهما الرسائل تفيض إيمانا واسلاما وشكرا لله على هداية أحمد إلى الصراط المستقيم، وسأل اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب، وفي كتابه إلى قلاوون سلطان المماليك المصريّة أنّه وضع الحراس في الطرق كي يستطيع التجار أن يتنقلوا بحرية تامة بين البلدين، وأنّه ظفر بجاسوس وعادة مثله أن يُقتل إلاّ أنّه أعاده إلى الأبواب السلطانيّة، وقال أنّه لا حاجة إلى جواسيس ولا غيرهم بعد الاتفاق واجتماع الكلمة، وبالغ في استجلاب السلطان، وفي رسالة تلك مؤرخة في جمادى الأولى 681هـ/أوت 1282م يخبره فيها أيضا بإسلامه وإخلاصه لمبادئه، وأظهر حرصه على حقن دماء أهله، وحفظ أراضيه، ويبيّن فيها أنّه أرسل بعض المشايخ لدعوة المغول إلى الاسلام، وأنّه أمر ببناء المساجد والمشاهد والمدارس والربط التي كان قد أصابها الدمار والخراب، كما أمر برعاية أوقاف المسلمين وبتجهيز الحجيج وتأمين سبلهم وحماية قوافلهم، ثمّ ختم رسالته بالتماس إلى السلطان المملوكي يطلب فيه محالفته والصلح معه حتّى تعمر البلاد وتخمد الفتنة وتغمد السيوف، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان(1)، وردّ السلطان المنصور قلاوون على رسالة تكودار في رمضان سنة 681هـ/ديسمبر 1282م فهنّأه على الإسلام وذهاب الأحقاد وزوال الجفاء والعداء بين البلدين، وأعلن استعداده للتعاون معه لخدمة الاسلام، وتيسير سبل التجارة، وحماية التجار(2).

ويبدو أنّ أحمد تكودار كان حريصا على أسلمة إيلخانيّة فارس، ذلك أنّه لم يألو جهدا في تشجيع المغول بالهبات وألقاب الشرف وتأليف قلوبهم بُغية إسلامهم، وفعلا أسلم على يديه الكثير منهم، وقرّب إليه علماء الدين ومشاهير الأعلام من المسلمين، وأعاد بناء

---

(1) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، أحداث681هـ، ص262 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 681هـ، ص 158، 158 هامش 1 ؛ الالقلقشندي، صبح الأعشى، الجزء 8، ص 65- 68 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 506- 510؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 450 حاشية 1 ؛ أرنولد، المرجع السابق، ص 261- 262.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 553-554; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 286-287.

(2) القلقشندي : المصدر السابق، الجزء 7، ص 237- 242 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 681هـ، ص160- 162؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 510- 518.

دور العلم والمساجد التي خرّبت قبله، وبناء أخرى جديدة، ثمّ أعاد تنظيم الأوقاف وخصّص لها عمال مباشرين، وأنفق على الأماكن المقدّسة بالحجاز واهتمّ بتجهيز قوافل الحجاج(1).

وأرسل أحمد تكودار وفدا آخر سنة 683هـ/1284م برسالة أخرى إلى السلطان المنصور قلاوون، مكتوبة باللغة العربيّة يستحث فيها السلطان المملوكي على عقد معاهدة الصلح بينهما(2)، وقد نتج عن هذه العلاقات الطيّبة أن استقرّ السلام بين المماليك ومغول فارس زمن أحمد تكودار مما يدل على صدقه في طلب الصلح وخدمة الإسلام والسلام(3).

**3- <u>علاقة المماليك زمن السلطان قلاوون بمغول القفجاق</u> :**

استمرّت العلاقات بين دولة المماليك المصرية ومغول القفجاق على وتيرتها الطيّبة ونشطت واتسمت بالتقارب وتبادل الرسل والهدايا في عهد السلطان قلاوون كما تركها السلطان بيبرس البندقداري، فعندما اعتلى قلاوون الألفي عرش السلطنة المملوكيّة، في عام 678هـ/1279م، بادر في ربيع الأوّل 679هـ/تموز 1280م بإرسال مبعوثين إلى منكو تيمور، هما شمس الدين سنقر الغتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي، وحمّلهما رسالة إلى الخان وهدايا له ولبعض الأُمراء والخواتين، هي عبارة عن ستة عشر تعبية من الأقمشة الفاخرة والحلل الزاهرة والتحف الثمينة والقسي والجواشن والخود، كل على مقداره، وعندما وصلا إلى سراي كان منكو تيمور قد تُوفي وخلفه تدان منكو، فسلّماه الهدايا(4)، وفي شهر جمادى الثانية سنة 682هـ/سبتمبر 1283م وصلت إلى القاهرة سفارة من خان القفجاق تدان منكو (679-686هـ/1280-1287م) لإبلاغ السلطان بأنّه أسلم وجلس على التخت وأقام شرائع الاسلام، وعلى أثرها تراجع النشاط التبشيري النصراني في بلاده بشكل ملحوظ، ويطلب نعتا يسمى به من أسماء المسلمين وعلمًا من الخليفة العباسي في مصر، وعلمًا من السلطان، ليركب بذلك ويقابل أعداء الدين، فاهتم السلطان قلاوون بأمر أولائك الرسل، وأرسلهم إلى مكة وجهّزهم بما يحتاجون إليه لتأدية فريضة الحج، وبعد عودتهم من بلاد الحجاز أجابهم إلى ما طلب الخان

---

(1) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص450.
(2) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 431- 432.
(3) عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 183.
(4) المقريزي: السلوك، ج2، ص134.

القفجاقي تدان منكو وأحسن إليهم، فعادوا إلى بلادهم مبهورين مطمئنين(1)، وحرصا من السلطان المملوكي قلاوون على نشر الاسلام وتثبيت دعائمه في بلاد القفجاق، أرسل المساعدات المادية من أجل مسجد هناك، وهي عبارة عن هدية سنية إلى الخان المغولي تدان منكو ومبلغ ألفي ديناربرسم عمارة جامع القرم، وأمر أن تكتب عليه ألقاب السلطان وجهّز حجّارا لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ(2).

**4- <u>الصراع بين أحمد تكودار وأرغون، ومقتل الأوّل :</u>**

كان لأعمال أحمد تكودار أثرا طيّبا في نفوس المسلمين، إلاّ أنّها من جانب آخر أثارت عليه رجال البلاط المغولي الذين وجدوا فيما انتهجه مخالفا للقوانين والأعراف المغوليّة، فذهبوا يتآمرون لإزاحتح عن العرش، ومن جهة أخرى وجد هذا التيار أنّ العلاقة بين الإيلخان أحمد تكودار وأرغون اتسمت بالتوتر، ذلك أنّ أرغون كان يطمع في استرداد عرش والده الذي حرمه منه عمه أحمد تكودار عندما أسرع باعتلاء العرش من دون أن ينتظر حضوره من خارج تبريز(3)، كما أنّ الإيلخان اتخذ إجراءات ضدّ أرغون لتعسُّفه وظلمه الذي أوقعه على سكان خراسان الذين كان أميرًا عليهم، واعتدائه بالقتل على وجيه الدين زنكي بن عز الدين طاهر الذي كان يشرف على الشؤون الماليّة والإداريّة في منطقة خراسان، واستيلائه على الأموال العامّة(4).

وعلاوة على ذلك كان أخي أحمد تكودار المدعو قونغرتاي يتآمر سرًا مع أرغون لقتله والاستيلاء على الحكم، ولمّا فشا خبر هذه المؤامرة أمر أحمد بقتل اخيه ما أثار غضب أولاده وجعلهم يُصمّمون على الثأر لأبيهم، كما أثار ذلك أرغون، فصمّم هو الآخر على الثأر لعمّه، ولهذا اشتدّت كراهيته له، وأشاع بأنّ أحمد تكودار خرج على قوانين أجداده(5)، وبهذا الشكل أضحى أحمد تكودار، في نظر العامّة، هو الرجل الخارج على نظم المغول وتقاليدهم، أمّا

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 46 ؛ المقريزي: السلوك، ج2، أحداث سنة 682ه، ص174- 175.

(2) المقريزي: السلوك، ج2، أحداث سنة 686ه، ص 200.

(3) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص 91، 92، 93 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 449.

(4) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص300.

(5) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص346 ؛ الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص 101، 102 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص451.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 300.

أرغون فهو المحافظ على رسوم المغول، وآدابهم، ولا بد من أن يزول أحدهم ليبقى الآخر، ويفرض سياسته وتعاليمه على رعايا الدولة الإيلخانيّة، ويبو أنّ المماليك بقيت حذرة من حكم أحمد تكودار الغير مستقر الذي لم يثمر على تعاون حقيقي بين الدولتين، لكنه بالمقابل ساد الهدوء جبهات القتال بينهما، ولم يذكر المؤرخون حصول أي صدام في ذلك العهد.

وحشد أحمد تكودار جيشًا جرّارًا بلغ أكثر من مائة ألف جندي من خيرة المغول والمسلمين والأرمن والكرج(1). وكان الخواجه شمس الدين محمّد الجويني في طليعة الأشخاص الذين يحرصون على انتصار الإيلخان على خصمه نظرًا لارتباط مصيره بهذا الانتصار بفعل العداء المستحكم بينه وبين أرغون وأتباعه، لذلك لم يدّخر وسعًا في بذل النصح له وإعداد جيوشه إعدادًا تامًا(2)، ومن جهته استعدّ أرغون استعدادًا كافيًا على الرغم من تفوُّق خصمه في العدّة والعدد، وأرسل أحمد قائد جيشه علي ناق – ايناق – على رأس خمسة عشر ألف جندي للاقتصاد من أرغون والقبض عليه، وعندما وصل إلى الري وقزوين، وهما من الأماكن التي تدخل ضمن دائرة نفوذه، شرع جنده في الإغارة على تلك الأماكن، فأسرع أرغون للتصدي له، وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند قرية آق خواجه من نواحي قزوين، يوم الخميس 16 صفر 683هـ/4 أيّار(ماي) 1284م، دارت الدائرة فيها على أرغون، ففرّ من أرض المعركة في جو الهزيمة القاتم(3).

ويبدو أنّ علي ناق اغترّ بانتصاره على الرغم من أنّه لم يحقق هدفه بالقبض على أرغون، فأهمل احتياطات الدفاع والسلامة العامّة وانهمك في الطعام والشراب والسكر، ما أعطى خصمه فرصة طيّبة لمفاجأته، ففرّ مع أتباعه عائدًا إلى أذربيجان(4). وأُخبر أحمد تكودار بذلك الخبر السيّء، فحشد هذا جيشًا جرّارًا بلغ تعداده مائة وعشرين ألف جندي وخرج على رأسه قاصدًا خراسان للقضاء على خصمه، وعندما علم أرغون بذلك فرّ إلى قلعة كلات في خراسان واحتمى بها، وتفرّق عنه معظم أتباعه والتحقوا بالإيلخان(5)، فبعد ذلك راسله الإيلخان يدعوه إلى طاعته ووعده بتعيينه حاكمًا على خراسان، فاستسلم للأسر، وسأل الخوانين في إطلاق أرغون وإقراره على خراسان فلم يجب إلى ذلك، أمّا علي ناق فقد نصح الإيلخان

---

(1) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص347.
(2) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص451.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص105.
(4) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص300، 301.
(5) المصدر نفسه، ص301.

بالإجهاز عليه لكنّ الأخير رفض بحجّة أنّه، أي أرغون، لا يملك جندًا ولا مالاً، فماذا عساه أن يفعل(1)، فكان هذا الرفض خطأ فادحًا دفع الإيلخان حياته ثمنًا له.

وكانت خواطر المغول قد تغيّرت على أحمد بسبب إسلامه، وحدث في غضون ذلك أن غادر أحمد تكودار خراسان وترك مهمة حراسة أرغون لعلي ناق والقائد بوقا، وحاك هذا الأخير مؤامرة مع بعض الأمراء لعزل أحمد تكودار وتنصيب أرغون مكانه بحجة أنه يعمل على توطيد دعائم الإسلام بتأثير من صاحب الديوان، ويُقوّض أسس الدولة المغوليّة التي أسسها جنكيزخان ويقضي عليها، فأقام حفلاً كبيرًا للهو والشراب، وقدّم مزيدًا من الشراب لعلي ناق ومعاونيه فثملوا وغابوا عن الوعي، فقتلهم وحرّر أرغون، وذلك في 18 ربيع الآخر 683هـ/4 جويليا 1284م، وبهذا "أضحى أرغون الذي كان محبوسًا في الليل ملكًا للعالم في الصباح"(2).

وعندما وصل أحمد تكودار الخبر، فرّ قاصدًا أذربيجان وهو ينوي الالتجاء إلى بركة خان القفجاق، لكنّ جنود أرغوم تعقّبوه وقبضوا عليه، ثمّ حملوه إلى أرغون الذي سلّمه بدوره إلى أبناء قونغرتاي للأخذ بثأر أبيهم، فقتلوه يوم الخميس 26 جمادى الأولى 683هـ/10 أوت 1284م(3). وعلى هذا الشكل لقي أحمد تكودار مصيره غير المتوقع، والواضح أنّ نهايتة كانت نتيجة أخطاء ارتكبها، بالإضافة إلى عدم استغلاله الفرص التي أتيحت له للتخلص من خصمه فعاجله هذا وقضى عليه، وقضى على أحلام المسلمين في الأمن والأمان بين المغول والمماليك الإسلامية.

ويبدو أنّه بعد مقتل أحمد تكودار المسلم على يد أرغون غير المسلم، استيقضت حمية الخان القفجاقي المسلم تلابوقا (686-690هـ/1287-1291م) فأراد الثأر لأخيه في الدين فأرسل في 14 ربيع الآخر 688هـ/7 ماي 1289م جيشًا إلى المناطق الإيلخانيّة بالدربند وقام بأعمال التخريب هناك ونهب التجار ثمّ انسحب إلى بلاده، وبعدها عاود الهجوم على الدربند مرّة أخرى في جمادى الأولى 689هـ/ماي 1290م بجيش كثيف لكنه تصادم هذه المرة مع جيش أرغون فتكبّد الأول خسائر فادحة رجع على أثرها إلى بلاده(4).

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص112 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص26.

(2) الهمذاني: المصدر نفسه، مجلد 2، ج2، ص116 ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص348 ؛ ابن الفوطي، المصدر السابق، ص301 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص26 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 452.

(3) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص301 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص452.

(4) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part II, Div. I, p. 139.

## IV- الأوضاع في عهد إيلخانيّة أرغون ابن أبقا(683-690هـ/1284-1291م) وجهوده مع البابويّة لحصار المماليك :

### 1- اعتلاء أرغون(683-690هـ/1284-1291م) بن أباقا عرش الإيلخانيّة وعدائه للإسلام والمسلمين :

لم يزل الصراع على أشدّه والحرب سجالاً، بين المسلمين والمغول، خاصّة بعد معركة عين جالوت، إلاّ أنّ انتشار الإسلام بين صفوفهم، واعتناق مغول القبجاق والخزر وتركستان للإسلام، ساهم في تخفيف حدّة عداء المغول للإسلام تدريجيًا خاصة في عهد أحمد تكودار خان(1).

وعلى الرغم من أنّ إسلام تكودار كان له أثرا مرحلي إزاء الياسا الجينكينخانيّة وطغيان الشامانيّة والبوذيّة على معظم العناصر المغوليّة، إلاّ أنّ تأثيره كان قويّا وساهم في التمهيد لعصر جديد ولظهور قاعدة راسخة بين طوائف المغول في فارس، فيما بعد، وظهور جيل جديد من العناصر المغوليّة الراغبة في تحقيق مبادئ الإسلام، وإن تعرّضت هذه العناصر لضغط مستمر من قبل أرغون، الخان الجديد في فارس، الذي اشتدّ في إيذاء المسلمين فلاقوا الأمرّين من قبله ومن قبل البوذيين الناصرين له(2).

والواضح أنّ أرغون، حفيد هولاكو خان السفاح، كان له موقفا متشددا من الإسلام والمسلمين، يمكن إيضاحه من خلال خطابه الذي ألقاه على كبار رجاله في مرحلة صراعه مع أحمد تكودار، فما كاد أرغون يتلقى أنباء حركات أحمد تكودار ويعلم أنّه معسكر له بالجيش، حتّى اشتدّ به الغضب، ودعا كل نبلائه ومستشاريه، وخاطبهم على الوجه التالي : "أيها الإخوة والأصدقاء تعلمون كم كان أبي أبقا يحبّكم وكان يعتبركم كإخوته وأبنائه وكم حاربتم سويا واستوليته على هذه الأراضي ... وبعد أن علمتم هذه الحقائق فإنّه من العدالة والإنصاف أن تعينوني ضدّ هذا المغتصب للعرش العازم على طردنا وطرد أسرنا من أراضينا، وتعلمون أنه خرج على شريعتنا، بل قد نبذها وتخلّى عنها وأصبح مسلمًا يعبد محمّدًا(*) (صلّى الله عليه وسلّم) وكم سيسوؤنا أن نسمح للمسلمين بالسيادة على التتار، لكلّ هذه الأسباب ينبغي أن تثبت

---

(1) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 450.

(2) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص70.

(*) هذه العبارة لماركو بولو التي ذكر فيها قول أرغون خان بأنّ : أحمد تكودار يعبد محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم من العبارات الخاطئة التي كثيرًا ما تتردّد في كتابات المؤرخين الأوروبيّين لجهلهم وحقدهم المعلن صراحة والدفين أحيانا أخرى، والحقيقة التي يعرفونها ويخشون تسربها إلى شعوبهم المضلّلة والمغرّرة أنّ المسلمين لا يعبدون رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكن يعبدون رب محمّد صلّى الله عليه وسلّم وهو الله الخالق البارئ المصوّر الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. أنظر : Marco-Polo, op. cit., chapitre CCVI, p. 311.

قلوبكم وتجددوا عزائمكم لمنع حدوث هذه المصيبة... حتّى تكون السيادة لنا وليس للمسلمين، وثقتي بالله أن يقتل عدوّنا(أحمد تكودار)"(1).

وبعد هزيمة الإيلخان أحمد تكودار والقضاء عليه، اتفق المتآمرون عليه وولوا أرغون المنتصر الظافر إيلخانا جديدا في إيران، بعدعقد القوريلتاي يوم الجمعة 27 جمادى الأوّل 683هـ/11 أوت 1284م لانتخابه رسميًا (2)، وفور استلامه السلطة على جثّة عمّه أحمد تكودار، الذي كان مسلمًا هو ومعظم قوّاده، شرع هذا الشاب المتحمّس البوذي، في توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات، فأصدر فرمانًا دعا فيه الناس إلى المسالمة وأمّنهم على حياتهم، ومنع التعرض للفارين من أتباع الإيلخان السابق أحمد تكودار، وفي مقدّمتهم صاحب الديوان شمس الدين محمّد الجويني، وولّى الأمير بايدو، حفيد هولاكو خان، حُكم بغداد، وعهد بحكومة بلاد الروم إلى الأمير هولاجو والأمير كيغاتو (أو كيخاتو)، وولّى ابنه غازان إدارة خراسان ومناطق الري ومازندران وقومس، وعيّن الأمير نوروز بن أرغون آقا، الحاكم من قبل المغول على إيران، نائبًا له، وكرّم الأمير بوقا ورفع قدره بسبب مواقفه السابقة في تأييده ضدّ عدوّه أحمد تكودار، فقلّده منصب الوزارة بدلا من شمس الدين محمّد الجويني، وهكذا بسبب عدائه للمماليك وغيرهم من أقطار المسلمين، فإنّه شرع بإبعاد رعاياه المسلمين عن المناصب الهامّة في الدولة والبلاط، وتودّد حُبًا للمسيحيين واليهود، أعداء المسلمين، على السواء، فكان عهده محنة للمسلمين الذين لاقوا الأمرّين على أيدي البوذيّين المنتصّرين وجعلهم يتعرّضون للضغط والظلم الذي لم يشهدوه حتّى في عهد أباقا الراحل(3)، فتعرّضوا للاضطهاد في عهده بسبب تحزبهم والتفافهم حول منافسه أحمد تكودار، وبسبب انتصارات قوّات المماليك المسلمين المتكرّرة على جيوش والده عدّة مرّات، وكذلك لتأثير الحاشية المسيحيّة واليهوديّة المسيطرة على بلاطه ودفعها إيّاه للانتقام من رعاياه المسلمين، خاصّة وقد أرسل هذا الإيلخان أربع سفارات للغرب الأوروبي لطلب عون قادته ضدّ المسلمين(4)، وسرعان ما قصّر الوزير

---

(1) أنظر : Marco-Polo, op. cit., chapitre CCVI, p. 311.

(2) الهمذاني : جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص126.

(3) الهمذاني : جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، تعريب محمد صادق نشأت و فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960م، مجلد 2، ج2، ص128 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 682هـ، ص 239 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 452 ؛ الصيّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1980م، ج1، ص 153،152 ؛ عادل هلال : المرجع السابق، ص119 ؛ فهمي (عبد السلام) : تاريخ الدولة المغوليّة في إيران، مصر، دار المعارف، 1981م، ص172- 174 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص70.

(4) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص173.

اليهودي سعد الدولة(*) أيدي العمال والموظفين المسلمين عن أعمالهم وكان ينيب عنه في كلّ مكان من اليهود والمسيحيين وظلّت خراسان والروم وحدهما بمنجى من شرور استيلاء اليهود لأنّهما كانتا بيد غازان وكيخاتو، وجهر بظلم الأقاليم إلى درجة كبيرة وعيّن أقاربه حُكّامًا ووُلاّة في كلّ مكان، وكان أرغون يشعر بعدم الثقة تجاه المسلمين من شعبه، لذلك أطلق لوزيره العنان، بينما عمد هو إلى الانقطاع عن الاتصال بالعالم الخارجي تاركًا الأمور تجري على هوى وزيره ورجالاته، وكانت النتيجة أن نشبت عدّة ثورات قاسى اليهود خلالها في بعض المدن من الانتقام الذي قام به المسلمون نتيجة لسياسة الوزير الخرقاء، وهكذا اضطرت الدولة إلى الاعتماد على ثقة كلّ من اليهود والمسيحيّين تعويضًا عن سخط المسلمين(1).

وعلى الصعيد الخارجي دفع حرص أرغون على قتال المماليك وانتزاع بلاد الشام منهم إلى السعي في تكوين حلف مغولي - صليبي يكون له من القوّة ما يحقق أحلامه، ذلك أنّ قُدرة الإيلخانيّين في مواجهة المماليك قد تراجعت بعد وفاة أباقا، بينما أضحت الدولة المملوكيّة أكبر قوّة ضاربة في الشرق الأدني، أمّا الغرب الأوروبي فكان هو الآخر بحاجة ماسّة لمثل هذا التعاون ضدّ المماليك الذين باتوا يُسقطون مواقع الصليبيين في الشام بصفة ممنهجة ويهددون مصالحها التجاريّة في المنطقة، في الوقت الذي انهمك ملوك أوربا وباباواتها في حروبهم الإقليميّة ومشكلاتهم الداخليّة، وقضت خطة الإيلخان أن يقوم الطرفان بهجوم مشترك في وقت واحد، فيغير المغول على بلاد الشام، وينزل الصليبيّون في عكا أو دمياط، على أن يقتسما أملاك المماليك في بلاد الشام، فتكون حلب ودمشق من نصيب المغول، ويستأثر النصارى ببيت المقدس، والواضح للعيان أنّ الاتصالات التي كانت تتكرّر بين المغول بعامّة وملوك أوروبّا والبابويّة، تتمحور حول التحالف ضدّ المسلمين ومساعدة الأرمن والسعي إلى استعادة بيت المقدس، ولتحقيق هذا الهدف، شرع أرغون بإرسال الرسائل، وبعث السفراء إلى ملوك أوربّا والبابويّة، وفي المقابل كانت الوفود الأوربيّة تأتي إلى الشرق الأدنى من أجل وضع خطّة التحرك المناسبة والاتفاق على سياسة موحّدة لمحاربة المماليك(2).

---

(*) سعد الدولة (سعد الموصلي اليهودي) : كان أصله من الموصل وكان في أوّل أمره دلاّلا في سوق الصاغة بها فانتقل إلى العراق واشتغل بالطب وعلوم الحكمة وتميّز وانتقل إلى أن ترشّح للوزارة. أنظر : المنصوري ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 682هـ، ص 239.

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص70-71 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 453.

(2) العريني (السيّد الباز) : المغول، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت، 1981م، ص 305، 306.

ولعلّه من الأهميّة بمكان قبل الحديث عن علاقة أرغون بالمماليك والغرب الأوربي أن نبرز وضع الإيلخانيّة والمسلمين فيها عبر سياسة وزيره سعد الدولة تجاه الإسلام والمسلمين بعد أن تولى الوزارة، وان نوضح موقف أرغون خان نفسه، كأعلى سلطة في الدولة، من الإسلام والمسلمين، لأنّ موقفه هو الذي ساعد سعد الدولة على تنفيذ سياسته اليهوديّة.

**2- استبعاد سعد الدولة اليهودي للمسلمين من الوظائف الحكوميّة :**

كان عداء أرغون خان للإسلام والمسلمين محفزا لسعد الدولة اليهودي في تنفيذ سياسة حاقدة بغيضة ضدّ الرعايا المسلمين، فبدء بعزلهم من الوظائف الحكوميّة، فاستحق بعض العرب بشدّة(1)، واستخدم يهود تفليس(*)، فاستطالوا على المسلمين، فكانت جُرءته تلك دليلاً على تراجع كفاءة مسؤولي الدولة من المسلمين وتخاذلهم(2).

كان هذا الطبيب اليهودي الطموح وأرغون نفسه يبغضان المسلمين فشرعا بتقليص دورهم في شؤون الدولة، وتعيين بدلهم في شؤون الماليّة وجمع الضرائب والنفقات في الممالك الإيلخانيّة إلاّ المسيحيّين واليهود، وقام سعد الدولة بزرع قومه من اليهود في الشؤون الملكيّة المهمّة، وقسّم بينهم عراق العرب والجزيرة وأذربيجان، ولولا أنّ خراسان وبلاد الروم كانت في يد غازان بن أرغون وأخيه كيخاتو، لوقعتا في قبضة عمّال الدولة من اليهود أيضًا... وكان أرغون يكن الحقد للمسلمين، فأمر بعدم تدخلهم في شؤون الدولة، وبعدم انضمامهم إلى الجيش، إذ لم يكن أرغون بن اباقا خان أقل من أسلافه عطفًا على المسيحيّين أيضًا، فقد انتزع من أيدي المسلمين كلّ المراكز التي كانت لهم في إدارات القضاء والماليّة، ومنعهم من الظهور في بلاطه بتأثير وزيره اليهودي سعد الدولة(3).

**3- جرءة سعد الدولة اليهودي على مقدّسات المسلمين :**

كان سعد الدولة رجلاً ماكرا، فسعى أوّل الأمر لاستمالته قلوب العامّة بأمره الفصل في الدعاوي القضائيّة وفق الشريعة الإسلاميّة والانتصار للمظلومين وإعانة العجزة، ثمّ أجرى

---

(1) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص359 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 176.

(*) تفليس : بلد بأرمينية الأولى(الكبرى) وهي مدينة قديمة أزليّة قرب باب الأبواب وهي مدينة لا إسلام وراءها.
أنظر : ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م، ج2، ص35- 36.

(2) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p.331, 332.
وانظر أيضا : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 453 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 176.

(3) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 332; d'Ohsson(C.), op. cit.,T.IV, p. 34.
وانظر أيضا : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 176.

الصدقات، فذاعت شهرته ورضيه الناس إلى أن نظم الشعراء العرب والعجم المدائح باسمه(1)، وبعد أن اطمأنّ لمركزه انقلب على عقبه وأظهر حقده الدفين نحو الإسلام والمسلمين، وقرّر بتصديق من أرغون أن يحيل الكعبة المشرّفة إلى معبد بوذي، فبدأ بمراسلة عرب الجزيرة العربيّة من اليهود، وأمر بحشد القوّات، وجهّز سفنا في بغداد لإرسالها إلى الجزيرة، وأوفد أحد أعوانه من اليهود، يُدعى خوجه نجيب الدين الكحال، إلى خراسان بقائمة تشمل أسماء مئتي مسلم من أعيانها الأثرياء لقتلهم، وأرسل إلى أحد أعوانه في شيراز وهو شمس الدولة اليهودي أيضًا، بأسماء سبعة عشر مسلما من النقباء والأمراء في شيراز لقتلهم وتهيئة المناخ لنهج جديد فكّر في فرضه على أهالي البلاد(2)، ثمّ انتقل للتشكيك في الإسلام، فبينما كان نوّابه في العراق يقومون بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام أحجارها في بناء قصورهم، تشجّع بعض أهل الذمّة المتستّرين في الإسلام على التأليف للطعن في الإسلام حيث قام ابن كمونه اليهودي بتأليف كتابه في العلل الثلاثة(3) وهاجم فيه الدين الإسلامي، لكنّ أرغون مرض في تلك الآونة وعجز الأطبّاء عن مداواته، فأدرك سعد الدولة حرج موقفه، وهو الذي أظهر النيّة للقضاء على الإسلام وجعل مكّة مركزًا لعبادة الأوثان وحاول تحويل المسلمين إلى عبادة الفرد بإقناع أرغون خان بنبوّة جنكيز خان وبوراثة أرغون لهذه النبوّة، فوجبت الطاعة لأوامره وعبادة الناس له وتوجيههم نحو الإخلاص للإيلخانيّة، ولم يُخلّص المسلمين منه سوى موت أرغون وموته هو بعد ذلك بقليل(4)، ويبدو أنّ سعد الدولة فكّر في ذلك عندما وجد أنّ العديد من الأمراء والعلماء المسلمين قد عزموا على قتله هو وأعوانه من اليهود، فشرع في استغلال ثقة أرغون فيه لكي يُصدر أمرًا بضرب عنق كلّ من يرفض اعتناق دينه الجديد، وقد ذكر هووُرث Howorth أنّ سعد الدولة كان يحاول جاهدا أن يُقنع أرغون خان بتغيير دينه(5).

---

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 37- 38.
Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p.333.
وانظر أيضا : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 176.

(2) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 454 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 176.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 52.

(3) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p.331.

(4) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 50-51.
وانظر أيضا : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 454 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 176- 177 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 174.

(5) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 333, 343.

وهناك شواهد أوربيّة تُؤكد أنّ سعد الدولة لم يَقم بمحاولة إقناع أرغون خان بإظهار دينا جديدا اخترعه بنفسه فحسب، كي يتخلّص من الإسلام والأغلبيّة المسلمة القاطنة في بلاد الرافدين، بل يبدو أنّه حاول من قبل أن يُقنعه باعتناق اليهوديّة، لكنّه فشل في ذلك، ومن هذه الشواهد أنّ رايمون لول Raimon (Rémon, Raymon) Lull (1232-1316م)(*) قدّم في الفترة (1294-1295م) عدّة مذكّرات للبابويّة يشرح فيها كيفيّة وأهميّة جذب المغول للمسيحيّة خشية اعتناقهم الإسلام أو اليهوديّة فيكونون خطرًا على المسيحيّين(1)، وقد كان تقديم هذه المذكرات إلى البابويّة بعد سقوط سعد الدولة وسقوط وزارته بوقت قليل، وهذه المذكرات تفيد أنّ ثمّة محاولات لأسلمة أو تهويد المغول وهو ما يُؤكد على أنّ سعد الدولة ربّما قام بهذه المحاولات بالفعل، ويمكن ان نعزي فشل سعد الدولة في تهويد أرغون إلى سبب قوي هو تمسّك أرغون الشديد بدين أسلافه فقد "كان يدين بدين البخشيّة، وهم الطائفة المشهورة بعبادة الأصنام والسحر، ويعظم طريقتهم خصوصًا الطائفة المنتسبة منهم إلى بَرَاهِمَة الهند وكان يجلس في السنة أربعين يومًا في خلوة يتحنث بها ويتجنّب أكل لحوم الحيوان"(2).

ومن أجل زعزعة عقيدة الإسلام أكثر ومحوها من جذورها في كلّ من إيران والعراق وما جاورها، لم يكتفي سعد الدولة اليهودي بمحاولة إظهار الدين الجديد الذي اخترعه فحسب، بل كان يقوم بحماية الحملات التبشيريّة القادمة من أوربّا حينذاك إلى المسلمين في المدن العراقيّة،

---

(*) رايمون لول من أبرز الرهبان الفرونسيسكان في العصور الوسطى، وقد كان له نشاطا في مجال التبشير بالمسيحية، ومساهمة في توجيه أوروبا إلى دراسة العلوم واللغات الشرقية، وهو الذي يجيد ما لايقل عن أربعة لغات أجنبية ومنها اللغة العربية التي تعلمها في شمال إفريقيا وترجم إليها بعضا من مؤلفاته بغرض شرح العقيدة المسيحية للسكان العرب بلغتهم، كما قام بتأليف العديد من الكتب في اللاهوت والفلسفة ومقارنة الأديان، وكان كل همه من ذلك هو تحويل المسلمين والمغول إلى المسيحية الكاثولوكية، وكان يرى أنّ ذلك أكثر إفادة للغرب الأوروبي من قتالهم، فقدم في الفترة ما بين 1294م و1295م عدة مذكرات إلى البابوية يشرح فيها أهمية وكيفية تمسيح المغول قبل أن يسبقهم إليهم الإسلام فتحل المصائب على المسيحيين في العالم أجمع، وكان صاحب فكرة تدريس اللغات للرهبان وذلك للتبشير بلغة السكان المحليين، وهذا الاقتراح أخذ به مجمع فيينا المسكوني عام 1312م وفضلا عن ذلك كان له عددا من الخطط والمشاريع لإحياء الحملات الصليبية فدوّنها في مذكرات وقام بتسليمها بنفسه إلى البابا وإلى ملوك وأمراء الغرب الأوروبي في أوائل القرن الرابع عشر الإفرنجي، وفي سعيه لتحويل المسلمين في شمال إفريقيا إلى المسيحية سافر إليهم ثلاث مرات، فوصل إلى تونس أوّل مرة في عام 1292م فقبض عليه العامة وقذفوه بالحجارة ولولا أن انتشله قارب جنوي في الميناء لكان في عداد الموتى، ورغم ذلك رجع مرّة ثانية إلى المنطقة فوصل إلى مدينة بجاية ببلاد الجزائر في عام 1307م وبينما هو في محاورات مع المسلمين قصد تمسيحهم إذ قبض عليه قاضي المدينة وأمر بحبسه ستة أشهر، لطعنه في الإسلام، وبعدها رجع رايمون لول إلى تونس عام 1315م حاملا خطابات توصية من ملك أرجون الإسباني إلى الخليفة الحفصي، فسمح له بالإقامة شريطة عدم إثارة المسلمين، ولكنه لم يلتزم بذلك، وأمر مفتي البلاد بإقصائه خارجها، فرحل رامون إلى مدينة بجاية الجزائرية مرّة أخرى، وبمجرّد أن تفطّنت له العامة وتعرفت عليه حتى رموه بالحجارة حتى لقي حتفه على الشاطئ بداية عام 1316م، ونقل جثته تاجر من البندقية إلى جزيرة "بالما" الإيطالية حيث قبر هناك.

أنظر : Atiya(Aziz.S.), The Crusade in the later middle ages, pp. 74- 94.

(1) أنظر : Atiya(Aziz.S.), op. cit., p. 76.

(2) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 284.

فتذكر الحوليّة السيريانية لابن العبري أنّه في شهر جويليا من عام 1290م قدم أحد الرهبان لإحدى المدن العراقيّة للتبشير بين سكانها، ولمّا ذاع أمره فإنّ جموعًا من المصلين قد تعقّبوه والمسيحيّين الشرقيّين بذات المدينة حتّى قتلوه ومن قام بحمايته ودمّروا الكثير من ممتلكات المسيحيّين بالمدينة حتى لم يستطع أي من الآخيرين الخروج إلى أسواق المدينة لمدة شهر كامل. وقد حدث ذلك في نهاية عهد أرغون رغم كلّ أساليب القهر والضغط التي تعرّض لها المسلمون هناك، ورغم الحماية التي أعطاها الإيلخان وقوّاده ونوّابه المسيحيّون واليهود للمسيحيّين عامّة والكاثوليك منهم خاصّة(1).

ومع أنّ الدين الجديد الذي أراد أن يُظهره سعد الدولة بين المسلمين وكذلك حملات التبشير المسيحيّة، لم تكن لتعود على سعد الدولة أو على يهوديّته بأيّ فائدة، إلاّ أنّ بغضه للإسلام ورغبته الجامحة في تدميره وتدمير أهله، جعلته على استعداد تام لأن يتحالف حتّى مع الشيطان في سبيل تحقيق ذلك...ولكن هيهات.

**4- <u>دور سعد الدولة في سياسة أرغون الخارجيّة ضدّ المسلمين</u> :**

كان أرغون شغوفا بجمع المال ومهتما برعاية المسيحيّين واليهود ومنشغلا بالكيمياء فترك إدارة دولته لوزيره سعد الدولة اليهودي، وفي هذه الفترة كان ملوك المسلمين منشغلين بأمور أخرى مثلما كان حال قلاوون منهمكا، في ذلك الوقت، بالصراع ضدّ أنصار الملك الظاهر بيبرس والصليبيّين والأرمن فلم يتمكّن من نجدة المسلمين الذين كانوا يعيشون في عبوديّة للمسيحيّين في بلاد الإيلخان، فلذلك لم تنشب في عهد أرغون حروب، ذات أهميّة كبرى تُذكر، بين ملوك مصر والشام والإيلخانيّة في إيران (2).

فقد كان أرغون يميل إلى المسيحيّة وإلى ترميم الكنائس التي تهدمت في عصر السلطان أحمد تكودار، وانتزاع بيت المقدس من المسلمين وإعادتها إليهم(3)، لذا فقد دخل في مراسلات مع البابا وملوك أوروبا المسيحيّة، إلاّ أنّ هذه المراسلات لم تنفذ المخطط الذي رسمه كلا من

---

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص188.
وانظر أيضا : Bar-Hebraei (Gregorii), Chronicon Syriacum, trans. by Paul Iacobus Bruns, Lipsic, 1789, pp. 617- 618; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 41.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص157- 158، 166 حاشية 1 ؛ الصيّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، ج1، ص 199، 200.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 49, 59, 66; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 344, 347.

(3) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXVI, p. 847; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 348.

البابا وأرغون لشن حملة مشتركة على المسلمين، ولم تؤد إلاّ إلى توثيق الصلات بين بلاد الإيلخان والبابا وملوك أوروبّا، ويمكن القول بأنّ سعد الدولة كان سببًا أساسيًا في نشأة علاقات دبلوماسيّة بين أرغون وأوروبّا، فقد تحكّم سعد الدولة في أرغون وراح ينقض على ما للإسلام من مكانة وينتهج سياسة أسلافه، المتمثّلة في محاولة الاتفاق مع الصليبيّين في حلف لتحطيم قوّة المماليك، ولم يكتف أرغون بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين، بل ذهب أبعد من هذا بأن راسل ملوك الغرب المسيحي والبابا، وعرض على البابا حق الاتجار والتنقل في دولته، ومن الواضح هنا أنّ القصد من هذا إضعاف تجارة المماليك والقضاء على قوّتهم في الشام، إلاّ أنّ محاولاته كلّها باءت بالفشل(1).

**5- <u>علاقة أرغون خان (1283-1291م) بالصليبيين وأباطرة أوربّا</u> :**

يمتاز عهد الإيلخان أرغون عن غيره بذروة الاتصال والتقرب من أباطرة وملوك الغرب الأوربي إذْ أرسل ما عدده أربعة سفارات مستمرّة بدون انقطاع ولا ملل في سنوات متتالية، رغم ما ظهر له من نفاق أوروبي، وذلك في الأعوام 1285، 1287، 1290، 1291م، لإحياء مشروع تعمّد أحمد تكودار في إخماده، وهو التحالف العسكري مع الغرب ودراسة تفاصيله وتحديد موعد التقاء القوات المتحالفة، ومن جانبها قامت البابوية وملكا انجلترا وفرنسا بإرسال مبعوثين من قبلهم سواء برفقة سفراء المغول أو بدونهم للرد على عروض أرغون خان(2).

وتشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ أرغون كان هو صاحب السبق والمبادرة في طلب التحالف ضد المماليك للحقد الذي ورثه تجاه الإسلام والمسلمين جرّاء الهزائم المتكرّرة التي مُني بها والده أبقا خان، وبخاصّة في موقعة حمص الشهيرة في 30 أكتوبر عام 1281م والتي أدّت في آخر المطاف إلى موته كمدا وحسرة، تلك الهزيمة التي شجعت المنتصرين على الانتقام من أرمينيا الصغرى مرة أخرى، بل وتحريض أمراء العراق للتمرد على الحكم المغولي ومراسلة رجال الصفوة المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المغول للتمرد واللجوء إلي مصر والشام، فكا ذلك كلّه مدعاة لتحالف أرغون خان مع القوى المعادية للمسلمين والتعامل مع أي جهة تتعاطف معه، فوجد ضالته في المسحيين، فعرض عليهم صداقته وتحالقه، بل وتعاطفه وميله للمسيحية

---

(1) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى، طبعة دار المعارف، 1974م، ص126-127.

(2) أنظر : Runciman Steven, "The Crusader States 1243-1291", in Setton (Kenneth M.), A History., 1969, vol. II, pp. 589- 594; Denis Sinor, the Mongols and western europe, in Setton (Kenneth M.), A History., 1975, T.III, pp. 531- 534.

وتقريبه للمسيحيين من رعاياه، حتى عُدّ عصره بحق عصر الصداقة والتحالف المغولي مع البابا في روما وملوك أوروبا، وحتى يظهر أمام الغرب المسيحي بعدائه للمماليك، حكام مصر والشام، والمسلمين عامة كانت سياسته الخارجية تفيض حماسة واندفاعا لخدمة المسيحية والمسيحيين، وكان أول اتفاق وقعه، ذلك الذي تم مع ملك دولة أرمينيا الصغرى ويتضمن استرداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وأرسل أربع سفارات المقر البابوي في السنوات 1285م و1287م و1289م و1290م يقترح فيها جميعا استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي لحرب المماليك، على أن يقوم الغرب المسيحي بغزو مصر في الوقت الذي يقوم هو فيه بغزو الشام(1)، ولا عجب أن تُصبح مدينة تبريز، في عهد أرغون، تعج بالأوربيين العاملين في خدمة المغول كمستشارين أو مترجمين أو سفراء لهم أو كأعضاء في الجماعات التبشيرية الكاثوليكية من الفرنسسكان والدومنيكان أو من التجار الايطاليين(2).

وفي الوقت نفسه كان الغرب الأوروبي، أيضا، بحاجة ماسة لتعاون عسكري مع المغول لأن قوات المماليك كانت تُسقط عاما بعد آخر موقعا من مواقع الصليبيين الهامة في بلاد الشام منتهزين فرصة انشغل ملوك أوربا، عن ما بقي من الإمارات الصليبيّة، بحروبهم الإقليمية ومشاكلهم الداخلية(3).

**أ- سفارة أرغون خان الأولى عام 684هـ/1285م، لعرض التحالف العسكري :**

لم يكتفي أرغون بالضغط على المسلمين في داخل فارس بل إنه لجأ إلى سياسة التحالف مع الصليبيين لضرب دولة المماليك، وقد امتاز عهده بقمّة العلاقات بين المغول والغرب الأوربي، و كانت أوّل سفارة له إلى البابا هونوريوس الرابع(684-686هـ/1285-1287م) في مايو من سنة 684هـ/ 1285م، وأشار في خطابه ذاك، باللغة اللاتينيّة، إلى المزايا المشتركة بينه وبين المسيحيّين، وقد أيّد تلك الرسالة بعض الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان الذين عادوا فيما بعد إلى بلاد الشام(4).

يخبرنا المؤرّخ الأرمني هيثوم أنّ الإيلخان أرغون كان يحبّ ويكرم المسيحيين، كما أنّه أعاد بناء الكنائس، التي كان أحمد تكودار قد دمّرها من قبل، ولذالك جاءه ملكا أرمينيا وجورجيا

---

(1) أنظر : Runciman Steven, "The Crusader States., pp. 589- 594.
(2) هلال : المرجع السابق، ص119.
(3) هلال : المرجع السابق، ص118.
(4) أنظر: Sinor(Denis), op, cit., pp. 531- 532.

ومسيحيي الشرق الآخرين، فور اعتلائه العرش، يطلبون منه استرداد بيت المقدس، فأكرمهم ووعدهم بالعمل من أجل ذلك، وكان يصبو إلى نشر السلام بينه وبين جيرانه ليتفرّغ لقتال سلطان مصر والشام(1).

وكان أرغون يتطلّع إلى مشروع أجداده في توسيع الامبراطوريّة بكسر شوكة المسلمين، ويرى مثل أسلافه في الإيلخانيّة أنّ تحقيق ذلك الأمل لا يتأتّى إلاّ بعون الفرنج الذين كانوا لا يزالون في تلك الفترة، سنة 1284م، يحتفضون ببعض القوّة في المنطقة، فلذلك بادر فور اعتلائه عرش الإلخانيّة وتخلصه من عمه ومن ناصره، إلى إرسال سفارة إلى الغرب الأوربي وإلى البابا هونوريوس الرابع Honorius IV (684-686هـ/1285-1287م) تحمل رسالة وُجدت ترجمتها اللاتينيّة محفوظة في أرشيفات الفاتيكان ومؤرخ في 15 ماي من عام 1285م، وهذه السفارة هي الوحيدة التي لا يعرف عنها الباحثون تفاصيلها، سوى ما جاء في خطابها اليتيم إلى البابا، إذ اقترح فيها الإيلخان القيام بشن حملة مشتركة ضد المسلمين بمصر والشام لتدمير قواتهم العسكرية، غير أنه في النهاية لم يتلق أيّ رد على ذلك(2).

وفي هذا الخطاب يوضح أرغون، بعد ذكره لكل من جنكيز خان وقوبلاي خان، امبراطور المغول في الصين، والعلاقة التي تربط المسيحيّة بسلالتة ونصرتهم لها إذ أنّ أُمّه مسيحيّة بينما اشتهر جدُّه هولاكو وأبوه أبقا بحمايتهما للمسيحيّة، أنه تلقى أوامر الخاقات الأعظم قوبيلاى خان (ت. 1294م) بوضع أراضى المسيحيين القريبة تحت حمايته ورعايته، إشارة إلى الأراضي المقدسة، ويقترح على البابوية أن تقوم جيوشه بمهاجمة الشام في الوقت الذي تقوم فيه قوات البابوية و«الفرنجة» بمهاجمة مصر لتمزيق المسلمين. وعند وصول سفارة أرغون الأولى عام 1285م كان البابا هنريوس الرابع (1285- 1287م) رجلا طاعنا في السن، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا، خاصة بعد اندلاع الثورة الصقلية في محرّم 681هـ/آذار- مارس 1282م، التي تمرد أهالها على حاكمهم الفرنسي شارل الأنجوي، وتأييد بيزنطة وأراجون

---

(1) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXVI, p. 847.

(2) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 710- 711; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 146; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 568; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 348.

وقد نشر الباحث الفرنسي شابو Chabot الأصل اللاتيني لهذا الخطاب مع بقية الخطابات المتبادلة بين أرغون خان والغرب الأروبي.

أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 570-571.

لتلك الثورة جعلت أوروبا منقسمة لعدة معسكرات متصارعة، منها ما أرغم الملك الفرنسي فيليب الثالث Philippe III إلى الذهاب في حملة صليبيّة ضدّ ملك أرجون في (مايو- سبتمبر) 1285م كان آخرها موت الملك الفرنسي في مدينة بيربينيون الفرنسية Perpignan يوم 5 أكتوبر 1285م، فخلفه ابنه فيليب الجميل Philippe le Bel في السابعة عشر من العمر الذي أخذ على عاتقه إنهاء تلك الحرب التي قسّمت أوربّا، فكانت الهدنة بوساطة ملك انجلترا إيدوارد الأوّل Edouard I[er] في جويليا 1286م، ثمّ تلاها مؤتمر الصلح في 1291م، ولاكنّ السلام لم يتحقق نهائيا إلاّ سنة 1295م في حين كانت سوريا الإفرنجيّة قضت من عدّة سنوات على يد المماليك المصريّة (1). ويبدو أنّ إنهاء الصراع الأوربي الداخلي كان يشكّل أولويّة البابويّة في تلك الفترة أمام مصالحها في المشرق الإسلامي بالتحالف مع المغول، فلذلك لا نجد أي ذكر لاتصال تلك السفرة المغولية بملوك أوربا ولا أثر لرد بابوي على الرسالة.

**ب- <u>سفارة أرغون خان الثانية برئاسة القس النسطوري «رابان صاوما» عام(686هـ/1287-1288م) :</u>**

كان لانتصارات السلطان المملوكي قلاوون على المغول نتائج وخيمة على حلفائهم، فقد ازداد وضع الأرمن والصليبيين سواء في الفترة من عام 1285م حتى 1287م بسبب الغارات المملوكيّة المتتالية عليها، ففي صفر من عام 682هـ/مايو1283م أرسل قلاوون قواته فأغارت على الحدود الجنوبية لأرمينيا الصغرى أحدثت فيها الخراب وقتلت وأسرت كثيرا من فرسانها، عقابا على ما فعلوه ببلاد الشام مع حافائهم الاسبتارية والمغول إبان غزو هؤلاء المغول لها عامي 1280م و1281م، والذين اغتنموا فرصة انشغال السلطان قلاوون بقتال سنقر الأشقر المنشق عن الطاعة، فاحتلوا عين تاب وبغراس ودربسعك وحلب في الفترة (18- 20) أكتوبر 1280م وأفحشوا فيها بالقتل والسلب والنهب وتخريب المساجد والمدارس ودور العبادة، وقضوا آخر شهر أكتوبر على من كان يتابعهم من فرسان المماليك، ثمّ في 30 أكتوبر من سنة 1281م كانت الحملة المغولية على حمص يساندهم في ذلك الأرمن والكرج الجورجيين

(1) أنظر : Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, pp. 134-143, 146 ;
Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 711, 714 ;
Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 571- 573 ;
Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 348.

والفرنج (1)، ونتيجة لازدياد الضغط على الأرمن مال ليون الثالث(1270-1289م)، ملك أرمينيا الصغرى، إلى المهادنة، فراسل السلطان المملوكي، بشأن تحقيق صلح بين الطرفين، ولكن قلاوون قذف بمبعوثيه في غياهب السجن ولم يفرج عنهم إلا بعد توسّط مقدم الداوية في عكا وقبول ليو الثالث لمعاهدة مع المماليك من شروطها أن يدفع جزية سنوية للسلطان قدرها مليون درهم وإطلاق سراح وحرية التجار المسلمين في بلاده وألا يعتدي أو يساعد أحدًا ضدهم على المسلمين(2).

و كان مصير الصليبيّين الاسبتارية أشد سوءًا، فقد استعاد المماليك حصن المرقب الكبير التابع لهم في ربيع الأوّل 684هـ/ماي 1285م، بعد أن حاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما، وأخرجوا من كان فيه إلى طرابلس، كما فتحوا اللاذقيّة في عام 686هـ/1287م وحصون صهيون وبرذية وكانتا، ومن دون أن يتدخّل أحد من الصليبيّين، في المعاقل الأخرى، لنجدتهم، ولهذا أرسل أرغون سفارته الثانية للغرب الأوربي علّها تنجح في إقناع قادته بمديد العون للمغول ضد المماليك(3).

لم يتلقّى أرغون أية إشارة من قبل الغرب الأوربي تشير إلى تعاون عسكري في وجه مسلمي مصر والشام رغم إيفاده سفارة سنة 1285م، وأمام الوضع المزري والمتدهور لحلفائه الصليبيين وخطر نشاط السلطان قلاوون في المنطقة، قرّر الإيلخان سنة 1287م إرسال سفارة ثانية إلى البابا وملوك الغرب لتجديد إقتراحه في تحالف فرنجي مغولي ضدّ المماليك، فطلب من الجاثليق الصيني النسطوري "مريا بهالا" أو "مارجبالاها" Le Patriarche Mar Jabalaha الجالس على كرسي البابوية في العراق للمسيحيين النساطرة منذ سنة 680هـ/1281م، أن يعيّن

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص174 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 22، 23 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 682هـ، ص 231.
وانظر أيضا : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 697, 699;
Gestes des Chiprois, op. cit., p. 209- 210;
Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXII, pp. 844- 845;
d'Ohsson(C.), op. cit., T.III, pp. 522- 524.

(2) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص92-103 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 120.

(3) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 189 ؛ المنصور، بيبرس الدوادار : التحفة المملوكيّة في لدولة التركيّة، تحقيق أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، (1391هـ/1971م)، ج1، قسم8، أحداث سنة (684هـ/1285م)، ص 268، أحداث سنة(686هـ/1287م)، ص 280.

له سفيرا لائقا، فاختار للمهمّة صديقه ومثيله في العرق والمذهب، رابان صوما Rabban Çauma(*) وثلاثة مرافقين له هم سابادينوس Sabadinus وتوماس الأنفوزيسي Thomas de Anfusis ومترجم اسمه أوجيتوس Uguetus، ومن الممكن أن يكون أرغون قد قصد باستخدامه مسيحيي الشرق في مثل هذه المهام لكسب ثقة الغرب المسيحي وتحقيق أهدافه السياسيّة(1) خاصّة إذا ما استمعوا من سفير مسيحي عن حسن معاملة المغول لرعاياهم المسيحيين، ويبدو أن أرغون في اختياره صاوما الصيني أراد التلميح أيضا إلى أن سيده الأعلى قوبيلاي خان في بكين الصينيّة يبارك تلك الخطوة.

بدأ رابان صاوما رحلته سفيرا رسميا من قبل أرغون في أوائل سنة 686هـ/1287م، فأبحر من طرابيزون على البحر الأسود إلى القسطنطينية أين استقبله الإمبراطور البيزنطي "أندرونيقوس الثاني (681-729هـ/1282- 1328م) Andronicus II بالترحاب، ثم قام بزيارة كنيسة القديسة صوفية وسائر المشاهد الكبيرة بالعاصمة القسطنطينية، فقد كان العاهل البيزنطي على علاقات طيبة مع المغول، وكان مستعدا لأن يبذل لهم ما يمكنه من المساعدة، وبعد أن مكث بضعة أيّام توجه صاوما من القسطنطينية إلى مدينة نابولي في جنوب إيطاليا فبلغها بعد شهرين في أواخر شهر جوان من نفس العام،17 جمادى الأولى 686هـ/1287م، وفيها شهد يوم 23 جوان 1287م معركة بحريّة في الميناء بين أسطولي أراجون ونابولي، دلّته على أنّ أجزاءا من غرب أوربا تتخبّط في صراع داخلي كفيل بتشتيت القوى الأوربيّة بأكملها، ثم واصل سيره إلى روما لمقابلة البابا وإبلاغه عرض سيّده أرغون للتحالف العسكري(2).

---

(*) هو راهب نسطوري(ت. 694هـ/1294م) تركي الأصل(من قبائل الإيجور Uighur)، سكن بلاد الصين، وكان من السفراء المتجوّلين للكنيسة النسطوريّة في المقاطعات المغوليّة، وكانت علاقته بحكامها طيّبة، فاختاره أرغون كسفير له إلى أوربا.

أنظر : Rubens (Duval M.), Le Patriarche Mar Jabalaha II et les Princes Mongols de L'Adherbaidjan, dans journal asiatique, (Avril-Mai-Juin) 1889, pp.314-317.

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 714; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 146; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 577; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 81, 81 note 1; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Paris, 1895, p. 2 note 2, 11 note 5; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p.67; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 348.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 82- 88, 88 note 5; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 714; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 146.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 673.

وعندما وصل رابان صوما إلى روما وجد البابا "هونوريوس الرابع" قد مات يوم 3 أفريل 1287م، أي قبل قدومه، ووجد كرسي البابوية شاغرا لأنّ هيئة الكرادلة المسؤولة لاختيار خلفا له لم تجتمع حتى وقتذاك بعد، فاستقبله الكردالة الإثني عشر المقيمين بروما، ويذكر السفير رابان صاوما في تقاريره إلى الإيلخان أرغون خان أن المعلومات التي وصلت الكرادلة والمقر البابوي، بصفة عامة، عن المغول كانت هزيلة، إذ لم يكونوا يعلمون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول، بينما صُدم القوم لمّا علموا أنّ رابان صاوما كان يخدم سيدا وثنيا، وبعدها ترك رابان صاوما روما مُدركا فشل خطوته الأولى من المهمة التي وُكّلت إليه، بل ووصل الأمر إلى أنه لم يتمكن من التفاهم مع الكرادلة، من ذلك أنه عندما كان يناقشهم في الأمور السياسية كانوا يستجوبونه حول إيمانه وعقيدته، وانتقدوا انحرافات إيمانه عن عقيدتهم، وكاد آخر الأمر يفقد أعصابه، لقد ضاق بهم ذرعًا، و أوضح لهم بأنّه لم يأت للبحث في العقائد الدينيّة وإنّما ليُؤدّي احترامه للبابا و يُسلّمه رسالة الإيلخان والجاثليق، ويرسم الخطط للمستقبل، كان من المفترض على الكرادلة في تلك المقابلة أن يضعوا جانبا المسائل الدينيّة والالتفات جدّيا إلى ما يهمّ ما تبقّى للغرب الأوربي الصليبي من مصالح وموطئ قدم في الشرق والمتمثّل في الإمارات الصليبيّة، فنحن الآن في سنة 1287م بينما فُقد بيت المقدس من أيدي الفرنجة منذ سنة 1244م، وأنطاكية منذ 1268م، فلم يتبقّى سوى طرابلس وصور وعكّا، وإن لم تصل هذه الأخيرة نجدة فرنسية مغوليّة عاجلة فإنّ الدور يكون على طرابلس بعد سنتين، أي 1289م، وتليها كلّ من عكا وصور بعد أربعة سنوات، أي 1291م، بينما العرض الإيلخاني هنا في عقر دار المسيحيّة بروما على طبق من ذهب ومن ورائه مباركة وتأييد قوبيلاي الخان المغولي في الصين، والمطلوب هو تنسيق الجهود المشتركة والمنسّقة وتفادي تكرار التجربة الفرديّة الكارثيّة التي مني بها لويس التاسع بالمنصورة سنة 1250م وكتبوغا في عين جالوت سنة 1260م، وبالتالي الثأر لكلا الجانبين بتنسيق محكم متزامن(1).

---

(1) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 575;
Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 91; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p.67; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 714- 716; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 147.
وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 674.

تفطّن صاوما بعد لقائه الكرادلة أنّ هؤلاء لا يعلمون شيئًا عن انتشار المسيحيّة بين المغول واعتقد أنّه يُضيّع وقته في تلك البلاد، فقرّر بعد لقائه المحبط ذاك، وفي انتظار تعيين بابا جديد، الانتقال مع رفاقه إلى منطقة توسكاني Tuscani الإيطاليّة ثمّ إلى جنوة، التي وصلها في النصف الأوّل من شهر أوت 1287م، فاستقبله الجنويون في احتفال كبير، بعد أن علموا بمُهمّته في التحالف للقضاء على المماليك في مصر والشام، وما يترتّب على ذلك من نتائج تجاريّة كانت في صدارة اهتمامات الجنويّين، إذ أنّ التحالف مع المغول كان أمرا بالغ الأهمية عندهم بحكم أن التجار الجنوية هم الذين كانت لهم اليد الطولى والمكانة المرموقة حينئذ في إيلخانية فارس ومنهم اختار المغول مستشاريهم وسفرائهم (1). وفي نهاية شهر أوت من نفس العام عبر "رابان صاوما" إلى فرنسا، فبلغ باريس في سنة 686هـ/10 سبتمبر 1287م، ولقي استقبالا حافلا من الملك فيليب الرابع (684-714هـ/1285-1314م) المعروف باسم فيليب الجميل Philippe Le Bel وأصغى إلى رسالته في احترام عميق، وأنهى مباحثاته بأن وعده ملك فرنسا بأنه سوف يتولى بنفسه قيادة جيش صليبي لتخليص بيت المقدس(2)، ولما عزم السفير المغولي مغادرة باريس عيّن الملك فيليب الرابع الملقّب بالجميل سفيرا من قبله اسمه "جوبيرت دي هيلفيل" Gobert de Helleville، وهو أحد فرسانه، يصحبه ثلاثة رفقاء هم روبيرت دي سانليس Robert de Senlis وغليوم دي بروييرس Guillaume de Bruyeres وأودارد أو أودين دي بورجس Odard ou Odin de Bourges ليلحقوا بربان صاوما يوم 2 فيفري 1288م في روما الإيطاليّة ويرافقوه في عودته إلى بلاط الإيلخان، وليُعدوا معه تفاصيل التحالف مع المغول(3). غادر رابان صوما باريس يوم 10 أكتوبر1287م فعبر الحدود

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 716- 717; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p.67; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 147; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 103- 104.

وانظر أيضا : ستيفن ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 674.

(2) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 717; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 147; Chabot(J.b.), op. cit., p. 106, 111 note 2.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 674.

(3) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 718; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 575, 592; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 109, 109 note 1.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 675.

الفرنسية لمقابلة الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل(1272- 1307م) Edouard I$^{er}$ في غرب مدينة بوردو Bordeaux، الفرنسية على شاطئ المحيط، التابعة لمقاطعة جاسكونيا La Gascogne، والتي كانت ضمن الأملاك الانجليزيّة آنذاك، فوصلها في أوائل نوفمبر(686هـ/1287م)، فقابله فيها، وكان هذا الملك من أشدّ المتحمّسين لمبدأ تحالف الغرب المسيحي والمغول الوثنيين ضد المسلمين والقضاء على دولة المماليك، فقد سبق له أن اتجه بحملة صليبيّة سنة (670هـ/1271م) إلى عكّا عندما كان لا يزال أميرا، وهو بذلك أقرب إلى فهم ضرورة التحالف مع المغول من الملك الفرنسي فيليب الجميل لإنقاذ عكا وغيرها من خطر دولة المماليك الإسلاميّة، ولكن بعد تسلُّمه خطابات وهدايا أرغون خان ورغبة السفير المغولي وضع جدول زمني للحرب ضد المسلمين راوغه ملك انجلترا قائلا أنه يحمل الصليب على صدره، وأنه لا يفكر إلا في أمر الأراضي المقدسة وأنه سعيد أنّ أرغون يفكر في نفس الأمر الذي يشغله، ثمّ صرفه لزيارة المقاطعة الإنجليزية وكنائسها وسلّمه الهدايا والخطابات لأرغون، والحقيقة أنّه لم يكن الملكان الإنجليزي والفرنسي مستعدان للقيام بالحملة الصليبية أو يحددا لها أجلا، فعاد صاوما إلى روما قلق الفكر ولم يتمكّن من تحديد موعد للقيام بحملة صليبيّة جديدة(1).

ورغم حسن استقبال ملكي فرنسا وإنجلترا لصاوما ورفاقه، إلاّ أنّ هذا الأخير يقرّر أن ردودهما على عرض أرغون خان كانت سلبية على غير المتوقع، ويخبرنا صاوما في مذكراته أنه أبلغ أحد كرادلة روما أثناء مقابلته بمدينة البندقية ما هو ترجمته : " ماذا استطيع أن أقول لك أيها الرجل المحبوب والنبيل، إنني قد قدمت في سفارة من الملك أرغون وبطريق الشرق بخصوص مدينة المقدس، وهل تصدق أنني هنا في أوروبا منذ عام ولم يتم اختيار بابا بعد، وعندما سأرجع إلى بلادي مادا سأقول، وما هي الإجابة التي سأعطيها للمغول، فهؤلاء المغول الذين لهم قلوب أكثر قسوة من الحجارة يريدون الاستيلاء على المدينة المقدسة، ولكن هؤلاء

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 718- 719;
Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 147;
Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 575;
Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 109- 111.
وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 675.

الأوروبيون الذين هم أولى أن يهمهم أمرها لا يلقون لهذا الأمر بالا في أذهانهم، وفضلا عن ذلك فإنهم لا يعطونه أهمية على الإطلاق، فماذا أقول لهم" (1).

لم يجد رابان أمام تلك المواقف المخيّبة سوى العودة من حيث أتى، فمرّ بجنوة في منتصف شهر ديسمبر 686ه/1287م وتوقف فيها حتى موعد عيد الميلاد لعلّه يحضى بمقابلة البابا الجديد الذي لم يتم تعيينه بعد، فصادف أن التقى أثناء ذلك بالمندوب البابوي وهو الكاردينال يوحنا دي توسكلوم Jean de Tusculum(*)، الذي جاء لزيارته أثناء مروره من هناك، فأنهى إليه صاوما بمخاوفه، إذ كان المماليك يستعدون في تلك الفترة لاسئصال آخر ما تبقى للصليبيين من إمارات في سوريا واسترجاعها إلى البيت الإسلامي، وما من أحد في الغرب سوف يعير التهديد شيئا من الاهتمام، وفي 20 فبراير سنة 687ه/1288م تم اختيار الكاردينال جيروم Jerome لعرش البابويّة في روما وتلقّب باسم نيقولا الرابع Nicolas IV (687-692ه/1288-1292م)، فكان من أول أعماله أن أستقبل السفير المغولي، وتسلّم خطابات أرغون(**) وبطريق النساطرة وهداياهم، وكذا رسالة أسقف اليعاقبة في الإلخانيّة والمسمّى دونيس التوريزي Denis de Tauriz والتي حملها رابان صاوما إليه، وخاطب رابان صاوما البابا على أنّه رأس أساقفة العالم المسيحي، وبالمقابل بعث البابا نيقولا الرابع ببركاته إلى جاثليق النساطرة واعترف به بطريركاً في الشرق، وأخيرا غادر السفير رابان صاوما مدينة

---

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 121.

(*) كان هذا المندوب متواجدا في ألمانيا حين وصلته أخبار موت البابا، فقد أرسل البابا هونوريوس الرابع أواخر سنة 1286م إلى ألمانيا لترتيب تتويج الامبراطور رودولف دي هابسبورج Rodolphe de Habsbourg والذي حدد ليوم 2 فيفري 1287م، ولحلّ بعض المشاكل في ذالك البلد، كما ترأّس مجمّعا في مدينة وورسبورج الألمانيّة Wurzbourg اختلف فيها مع بعض المسؤولين الألمان حول الإسهامات المطلوبة منهم من أجل حملة صليبيّة جديدة، ولمّا سمع بموت البابا غادر لمانيا على عجل قبل أن يكمل مهمّته.

أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 111 note 3.

(**) طلب فيها أرغون المساعدات العسكريّة من الغرب الأوربي ومن البابا نفسه ضد المماليك،ويفهم من خلال رسالة البابا إلى أرغون أنّ هذا الأخير، ولتحفيز هؤلاء، رفع شعار تحرير بيت المقدس من الكفرة لإلهاب حماسهم، خاصة أنّه يعلم أنهم أرسلوا العديد من الحملات الصليبية من قبل تحت هذا الشعار البراق، وكانت تعليماته، كما يقرر "صاوما" في مذكراته، لسفرائه "أنه يريد أن يخضع أراضي فلسطين وسوريا، ولكن لو أن ملوك الغرب المسيحيين لم يساعدونني فإن رغبتي هذه لن تتحقق"، وزيادة في تحفيز الأوربيين، فإنّ سفراءه أعلنوا في العواصم الأوربية أنه بعد استرداد هذه المدينة المقدسة، فإن أرغون سيعلن تنصره فيها، رغم أنّ رسالة أرغون تنفي ذلك تماما إذ جاء لفضها المؤرخ في 14 مايو سنة 689ه/1290م كالتالي :"... ليس مستعدًا لاعتناق المسيحية وأنّ رعاياه أحرار في اختيار ديانتهم..." .

أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 581, 584; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 722; Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes, Harvard Journal of Asiatic Studies, vol. XV, Decembre 1952, pp. 450- 452; Sinor(Denis), op, cit., p. 532.

روما وبصحبته السفير الفرنسي جوبيرت دي هيلفي، ورفاقه، في ربيع شهر أفريل سنة 1288م، يحمل من البابا الهدايا وكثيرا من المخلفات الدينية القيمة للإيلخان أرغون والجاثليق "مريا بهالا" (مارجبالاها)، وتسعة رسائل(*) موجّهة إليهما، والى أميرتين مغوليتين مسيحيتين وإلى دونيس Denys، Denis de Tauriz، أسقف اليعاقبة في تبريز ولبعثات الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان بإيلخانية فارس وللتجار الإيطاليين في تبريز ولصاوما نفسه، غير أن تلك الرسائل التي تحمل تاريخ 7 أفريل 1288م/27 صفر 687هـ كانت تتسم بالغموض ولا تخدم التحالف، من ذلك أن البابا نيقولا الرابع لم يقم باتخاذ إجراء واضح المعالم في سبيل إنجاد صليبيي بيت المقدس أو التحالف مع المغول ضد المسلمين في الشرق، ويتّضح من خلالها أنّ البابا اعتقد أنّ أرغون سيعتنق المسيحيّة في القدس عندما يستولي عليها الصليبيُّون(1).

ويبدو من مجريات الأمور أنّ رابان صاوما أدرك آخر الأمر أنّ لدى أباطرة الغرب من الأمور ما يشغلهم ويلهيهم عمّا يجري في الشرق، فقد كانت البابويّة منشغلة بحرب على أبوابها، مما يمنع قيام حملة صليبية على الشرق، ذلك أنّ البابا سبق أن منح صقلية للأنجويين الذين يمثلهم الفرنسي شارل الأنجوي، لكن الصقليون ما لبثوا أن انقلبوا على أولائك بمباركة جنوية وأراجونيّة، ما دفع البابوية وفرنسا لتقاتلا الدولتين البحريّتين الكبيرتين في البحر المتوسط، جنوة وأراجون، لاسترداد جزيرة صقلية، وعلى هذا لم يكن كل من البابا نقولا الرابع وملك فرنسا فيليب الرابع مستعدان بتاتا في التفكير لحملة صليبية ضدّ المماليك المصريّة إلاّ بعد تسوية مشكلة صقلية، وقد أدرك إدوارد ملك انجلترا الخطر المحدق شرقا وغربا فسعى في سنة 1286م إلى عقد هدنة بين فرنسا وأراجون، غير أنّها كانت هدنة قلقة محفوفة بالمخاطر، طالما كان القتال مستمرا في إيطاليا وعلى البحر، يضاف إلى ذلك أنّ لدى ادوارد مشاكله الخاصّة، إذ أنّ ما هو أكثر أهميّة من المصالح وأدعى إلى التعجيل بها هو الاستيلاء على منطقة ويلز

---

(*) وقد نشر J.B.Chabot جميع هذه الخطابات التسعة نقلا عن السجلات البابوية .
أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 575- 592.

(1) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p.67- 69; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 349; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 720, 721, 722; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 575, 586- 587, 589- 590; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 111- 112, 120; Denis Sinor, op. cit., p. 533; Setton (K.), The Papacy., op. cit., Vol. I, p. 147.
وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 675-676 ؛ الباز العريني: المرجع السابق، ص 308.

ومحاولة فتح اسكتلندا، إذ تحوّل نظره صوب الشمال بعد وفاة اسكندر الثالث ملك اسكتلندا سنة 685ھ/1286م، نظرا لأنّه كان يدبّر أمر السيطرة على المملكة المجاورة، عن طريق وليّة عهده، مرجريت النرويجيّة، ولا بدّ للشرق أن ينتظر، ولم يكن للرأي العام من القوّة ما يفرضها على الملوك، كما دلّت أبحاث البابا جريجوري العاشر على أنّ الروح الصليبيّة أوشكت على الفناء(1).

وفي حقيقة الأمر أنّ البابا لم يكن يعوّل كثيرا على ملوك أوربا في إرسال حملة صليبيّة جديدة كما طلب أرغون، بيد أنّه رأى في سفارة رابان صاوما للغرب الأوربي، وهو الرجل الثاني في الكنيسة النسطورية ببغداد التي يدين لها النساطرة في كثير من ربوع آسيا بالولاء الديني، فرصة للتقارب الديني بين المسيحيين الشرقيين وبين البابوية، باعتبارها ممثلة للعالم الكاثوليكى، في حركة لضمان ولاء الكنيسة النسطورية لها وهو هدف طالما سعت البابوية لتحقيقه، فقد كان الكاثوليك، ولا يزالون، يرون أنّ ما عدى مذهبهم هرطقة، وبالتلي أصبح البابا يتعامل مع السفير على أنه حضر لتقديم فروض الولاء والطاعة من الكنيسة النسطورية نيابة عن بطريقها جبلاها الثالث JABALAHA III (1281-1317م)، ويؤكد ذلك خطابات نيقولا الرابع لصاوما ولبطريق النساطرة وللأسقف ديونيسيوس(دونيس Denys)( Denis de Tauriz) أسقف اليعاقبة في تبريز والتي حملها صاوما معه حين عاد لبلاده، ففي هذه الخطابات يطلب البابا من الأسقفين أن يُعلما شعوبهم العقيدة المسيحة "الصحيحة" طبقا لممارسات الكنيسة الأم في روما، بل ويذيل البابا خطاباته لأساقفة الشرق بصيغة الأيمان المسيحي من وجهة النضر الكاثوليكي. ورغم أن الإيلخان المغولي أرسل هذا الراهب النسطوي لأهداف سياسية بحتة لم يكن يهمه من قريب أو بعيد أن يكون رعاياه المسيحيون يعتقدون المذهب النسطوري أو الكاثوليكي أو غيرهما، فكل ما يشغله هو نجاح سفيره في مهمته السياسية، وبالرغم من ذلك إلاّ أنّ الباب الذي كان مقدما لجماعة الرهبان الفرنسسكان قبل ان يعتلي الكرسي البابوي، لم يكن يهمّه سوى نشر العقيدة المسيحية بين المغول، ولهذا فقد أرسل مع صاوما خطابين لارغون خان بهذا الشأن دون الإشارة للهدف الأساسي لسفارة أرغون فقد ركّز في خطابه الأوّل على دعوة

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 711, 714, 719- 720, 722.
وانظر أيضا : ستيفن ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 676- 677.

الأخير لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي قائلا :"....وقد فرحنا كثيرا وابتهجنا للرب الذي يملك قلوب ملوك الأرض بين يديه لأنه سبق وأنعم عليك راحما بانعاماته، وأضرم فؤادك بمحبته حتى نشأت في قلبك رغبة ملحة في توسيع تخوم البلاد المسيحية كما اتضح من نص الرسالة وأقوال المندوبين أنفسهم، حتى أخذت تعامل باللطف والحسنى جميع النصارى المقيمين في البلاد الخاضعة لك... ونحن نقدم لجلالتكم أجمل آيات الشكر... ونحن نحب أن يعيش المسيحيون حسب مذهبهم السامي (أى الكاثوليكي) ويتخلى غير المسيحين عن الضلال ويتنصروا لأن هذا هو الدين الحق الذي به النجاح والخلاص. وأنت أيها الملك حسنا تفعل لو قررت أن تتنصر، وكم تكون فرحة الكنيسة والشعب عظيمة لو تم ذلك ... فهيّا فكر في الأمر مليا ولا تنس الموت الذي يأتي كاللص في كل مكان وزمان واعتنق الدين المسيحي ونتصر واعمل على انتشار هذا الدين في بلادك فتنال عند وفاتك أعظم ثواب" (1).

ثم كتب البابا خطابا ثانيا قصيرا في نفس يوم كتابة الخطاب السابق، أي 7 أفريل 1288م، أعاد ما ذكره مفصلا في الرسالة الأولى وبإلحاح، فيقول : "...علمنا من المندوبين أنه إذا ما تم تحرير مملكة بيت المقدس من أيادي الكفرة فإنك تحب أن تولد مجددا في هذه المدينة بغسل المعمودية، أما نحن فنأمل أن تحرير المملكة المذكورة سيكون أسهل بغوثه تعالى إذا ما تنصرت أنت ... فنرجو جلالتكم من صميم الفؤاد أن تسرع إلى المعمودية ولا تتأخر في قبولها لتمجيد الرب ولنيل الخلاص" (2).

وفي محاولة أخرى من البابا للتاثير على أرغون لاعتناق الكاثوليكية فإنه أرسل خطابات مماثلة، مؤرّخة في 10 أبريل 1288م، لعديد من الشخصيات المؤثرة قي بلاطه، ففي خطاب لوالدة أرغون خان وأميرتان مغوليّتان هما إيلجاج Elegag وتوكتان Touktan، زوجتا أرغون، يهنئهنّ لاعتناقهنّ المسيحية ويحثهن على نشرها بين المغول ويطلب منهن أن تكنّ قدوة في كل تصرفاتهنّ حتى تنتشر الكاثوليكيّة، وبالإضافة إلى ذلك، فان نيقولا الرابع أرسل خطابا قصيرا موجها الى تسعة من العلمانيين الأوربيين، وأغلبيتهم من الإيطالين، الذين في

(1) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 576- 583, 586- 587; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 68; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 349.
وانظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 179.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., 1894, p. 584; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 69; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 349.

خدمة الإيلخان، يشكرهم على تمسكهم بالمسيحيّة ويطلب منهم أن "يكونوا قدوة لغيرهم وأن يساعدوا الأخرين على النجاة بأرواحهم باعتناق الكاثوليكية"، وخطابا آخر إلى الراهب الإغريق في الإلخانيّة والمسمّى دونيس التوريزي Denis de Tauriz ردا على رسالته التي حملها إليه رابان صاوما من قبل(1). وهكذا تجاهل البابا تماما الهدف الأساسي، لسفارة أرغون، فباتت أولويات البابوية منصبّة على مسألة اعتناق أرغون ورعيته للمسيحية على المذهب الكاثوايكي، ولم تول الهدف السياسي لسفارة صاوما الاهتمام اللازم، وفشلت سفارة أرغون الثانية في تحقيق هدفها السياسي.

سلك صاوما، أثناء عودته، الطريق نفسه الذي أوصله إلى أوربا، عن طريق البحر إلى القسطنطينيّة ثم البحر الأسود، فوصل عاصمة الإيلخانية ببلاد فارس نهاية شهر أوت 1288م يحمل هدايا وخطابات أباطرة الغرب، وعندما لقيه أظهر له أرغون، ولجوبيرت دي هيلفيل" Gobert de Helleville ومن معه، عبارات المودّة والابتهاج لما سمع من أحواله، وأقام حفلا كبيرا لمدّة ثلاثة أيّام تكريما له ولسفراء أوربا والبابا حضره جمع كبير من المسحيين، فضلا أنه أمر بنصب خيمة على هيئة كنيسة بالقرب من خيمته، لحد أنّ حبال هذه اشتبكت بحبال تلك، يقوم على أمرها صاوما نفسه(2). ورغم ما أظهره الإيلخان من عبارات الفرح إلاّ أنّ حقيقة الأمر غبر ذلك لأمرين اثنين هما أنّ خطابات البابا وملوك فرنسا لا تشير من قريب أو من بعيد إلى أيّ تحالف فعلي بين الطرفين، وأنّ السفراء الأوربيين تجرّؤوا بمخالفة التقاليد المغوليّة برفضهم الإنحناء أمام الإيلخان، ولا بدّ أنّ هذا الأخير قد انزعج كثيرا لهذا الحدث الديبلوماسي، ولكن العاهل المغولي التزم الهدوء والتريّث لاعتبارات سياسيّة(3).

لقد كان أمل المغول كبيرا في هذه السفارة لإقامة التحالف، الذي عُقر في الرحم، خاصّة

---

(1) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p.102; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 584- 586, 589- 591; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 69; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 349.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 109 note 1, 121- 123; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 722.

(3) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 723, note 1; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 76.

وأنّ الجاليات الأوربيّة عديدة في تبريز وتشتغل بالتجارة، وكانت جماعات الفرنسيسكان والدومنكان تقوم بعملها التبشيري من خلالها، إلاّ أنّ قدوم السفارة الأوربيّة في هذا الوقت العصيب بالذات واتصالهم بجالياتهم في الإيلخانيّة كان كفيلا بتحريك مشاعر الأوربيين لتحريك جيوشها نحو الشرق، رغم أنّ الخان اقتنع بأنّ أقوال الغرب ليست في المستوى الذي كان يرجو، ذلك أنّ هذه الرسائل لم تُحدث الأثر المطلوب، ولم تُخرج مشروع إعداد حملة مشتركة بين المغول والنصارى الأوربيّين، إلى حيّز التنفيذ، ولكنّها أسفرت في المقابل زيادة الارتباط بين ملوك أوروبّا والباباويّة من جهة، وبين مغول إيران من جهة أخرى، و نتيجة لهذا الارتباط اشتدّ نفوذ رجال الدين النصارى، ونشط التبشير بهذا الدين أكثر في ممالك الإيلخانيّين.

**ج- سقوط اللاذقية سنة 1287م، وطرابلس سنة 1289م :**

كانت اللاذقية آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية في يد الصليبيين، وبينما كانت البحريّة الجنويّة تقاتل اختها البيزيّة للسيطرة على التجارة في مياه المتوسّط، قرّر السلطان قلاوون فتح تلك المدينة، وقد تمّ ذلك بسهولة يوم 20 أبريل 1287م/686هـ(1).

ويبدو في تلك الأثناء أنّ الشرق الفرنجي لم يكن يقدّر المسؤوليّة الملقاة عليه بكونه الثغر الذي يحمي أوربا من تمدّد الإسلام إليها، ولم يزدد إلاّ ضعفا، ذلك أنّه لم يكد الملك هنري يعود إلى قبرص بعد أن شهد المهرجانات في عكا وما حضي به من استقبال حار، حتّى اندلعت الحرب على الساحل السوري بين البيازنة والجنويّين، إذ أنّ الجنويين أرسلوا في ربيع سنة 1287م أسطولا بقيادة أميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري إلى شرق البحر المتوسّط، فتوجّه سبينولا إلى الاسكندريّة كي يطلب حياد السلطان المملوكي في مصر، قلاوون، بينما أخذ أورلاندو أشيري يجول في الساحل السوري من أقصاه إلى أقصاه، يهاجم سفن البيازنة والفرنج المنحدرين من أصل بيزاني، ولم يمنعه من بيع الملاّحين الذين وقعوا في أسره إلاّ تدخّل الداوية، ثمّ لجأ أشيري إلى مدينة صور ليعدّ هجوما على ميناء عكّا، وأشرك البنادقة أسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء، فلم يستطع أشيري أن يتجاوز حاجز

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 230; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 734; Runciman Steven, "The Crusader States., pp. 590- 591.

وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 31.

الأمواج في 31 مايو سنة 1287م ولم ينفذ إلى داخل الميناء. ولمّا قدم سبينولا بما معه من الاسكندريّة، استطاع الجنويون أن يفرضوا الحصار على كلّ الساحل، ولكن مقدمي الداوية والاسبتاريّة ومن معهما من ممثلي النبلاء المحليين، نجحوا آخر الأمر في إقناع الجنويين بأن يبحروا عائدين إلى صور، وأن يفسحوا الطريق لحركة الشحن(1).

وحدث، في طرابلس، سنة 1288م أن اعتلت الكونتيّة لوسيا، أخت بوهموند السابع سيّد طرابلس السابق، الذي توفي يوم 19 أكتوبر 1287م، فمنحت هذه الجنويين امتيازات سخيّة في طرالس، ما أغاض البنادقة الذين أرسلوا مبعوثين من الفرنج إلى السلطان قلاوون في القاهرة يطلبون منه التدخّل للاستيلاء على طرابلس، نكاية في منافسيهم الجنوية، وقام المبعوثان بتحذير السلطان بأنّه إذا سيطرت جنوة على طرابلس فسوف تفرض سلطانها على كلّ شرق البحر المتوسّط، وسوف تصير تجارة الاسكندريّة تحت رحمتها(2)، وورد كتاب نائب الشام بأنّ الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنة وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم، وصار بأيديهم عدّة أسرى، وكانوا لمّا ملك السلطان قلعة المرقب قد بعثوا إليه هديّة وصالحوه على ألاّ يتركوا عندهم أسيرا ولا يتعرّضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر(3)، وابتهج السلطان قلاوون لأنّه تلقّى دعوى التدخل، إذ برّرت له نقض الهدنة لتي سبق أن عقدها مع طرابلس، ففي فبراير 1289م تحرّك بكلّ الجيش المصري إلى سوريا، دون أن يميط اللثام عن هدفه، بينما كانت المشاجرات السياسيّة على أشدّها بين مختلف الأحزاب داخل طرابلس، إلى أن اجتاز جيش السلطان الضخم، المكون من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة عشرة منجنيقا وألف وخمسمائة من الحجارين، البقيعة حوالي نهاية مارس واحتشد أمام أسوار مدينة طرابلس(4)، فحاصرها

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 220- 230 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 732- 733.

وانظر أيضا : ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 680.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 234 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 735, 736, 739, 740, 741 ; Runciman(Sir Steven), The crusader states., pp. 591- 592.

وانظر أيضا : ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص272 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 336.

(3) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 208.

(4) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 234-235 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 741, 743 ; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 592.

وانظر أيضا : ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص272.

إلى أن جاء يوم 20 أبريل 1289م/ ربيع الآخر 688هـ، الذي أمر فيه السلطان بشنّ الهجوم العام، فتدفّقت جموع المماليك إلى داخل المدينة بعد أن اجتازت السور الذي يقع إلى الجنوب الشرقي، والذي تعرّض للانهيار، وبذلك سقطت المدينة بعد أربعة وثلاثين يوما فقط من الحصار(1). ولم ينجح ملك قبرص ومملكة بيت المقدس، هنري الثاني (1285- 1324م)، من فك ذلك الحصار عنها رغم أنّه أرسل أخاه أموري على رأس أربعة شواني محمّلة بالفرسان لنجدتها(2)، كما أنّه لم يستطع الاقامة ببلاد الشام في ذلك الوقت بسبب معارضة فرسان الفرنجة له من جهة وضعفه وتردده من جهة أخرى، فقنع بالبقاء في قبرص مكتفيا بإرسال النجدات بين حين وآخر إلى الصليبيين كلما دعت الحاجة إلى ذلك(3).

ولمّا انتهى القتل والسلب، أمر السلطان قلاوون بتدمير المدينة وتسويتها بالأرض، حتّى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد، بفضل سيطرتهم على البحر، وأصدر الأوامر لوضع أساس لمدينة جديدة في سفح تلّ الحجاج، على مسافة أميال إلى الداخل(4)، ومضت العساكر المملوكية فاحتلّت البترون ونيفين، ولم تجر محاولة للدفاع عنها، وعرض بطرس أمبرياكو سيّد جبيل على السلطان إذعانه وخضوعه، فسمح له السلطان بأن يحتفظ بمدينته لمدّة عشر سنوات أخرى في ظلّ مراقبة بالغة الصرامة(5)، وهكذا لم يبقى للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى إلاّ عكا مركز مملكة بيت المقدس، والتي أصبحت بعد فتوحات بيبرس وقلاوون آخر مفر وملاذ لجميع الصليبيين من اسبتاريّة وداوية وبيازنة وجنوية وبنادقة وإنجليز(6).

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 235-237 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 744 ; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 592.

وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 32 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص272 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 211 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 688هـ، ص 266- 267.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 211 ؛ إديوري بيتر و.: قبرص والحروب الصليبيّة، دار الملتقى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان،1997م، ص 94- 95.

وانظر أيضا : Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 592.

(3) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 731-732.

(4) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 237-238; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 744, 745.

وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 33 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 211 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 688هـ، ص 267 ؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص 687.

(5) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 745, n. 3; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 593.

(6) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبيّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 2002م، ص 51.

أمّا مملكة أرمينيا الصغرى فإنّه لمّا اعتلى هيثوم الثالث (1289- 1297م)، أرسل إليه السلطان قلاوون يُطالبه بتسليم مدن بهسنا ومرعش ملقيا بعرض الحائط اتفاقيته مع خلفه ليون الثاني سنة 1285م، فما كان من هيثوم الثالث إلاّ أن طلب النجدة من البابا نيكولاس الرابع ومن الملك الفرنسي فيليب الرابع، ولكن استغاثاته بقيت دون رد، في حين كان السلطان قلاوون يعقد اتفاقيات وتحالف تجاري مع قُوى أوربية مثل ألفونسو الثالث ملك أراجون (1285-1291م) وشقيقه جيمي الثاني ملك صقلية (1285-1295م)، وجمهورية جنوة(1)، ما كان كافيا لتثبيط أي جهد صليبيي لنجدة الأرمن أو تحالف جاد مع المغول.

**د- سفارة أرغون خان الثالثة برئاسة بوسكاريل جيزولف Buscarel de Gisolf إلى أوربا وباباها عام (1289- 1290م) :**

كان أرغون يعد لإرسال سفارة اخرى إلى وروبا بخطط محددة لمشروع التعاون العسكري المشترك ضد المماليك، ومن أجل ذلك الغرض أحضر إبنه، خدابنده (الخان اولجايتو فيما بعد)، في عام 1289م وطلب من كبير الرهبان الكاثوليك تعميده(2)، وذلك، لا شكّ، بغرض الإيحاء إلى الرعايا الأوربيين المتواجدين في الإيلخانيّة والذين تتألف منهم سفارته الجديدة إلى أوربا، بحبه للمسيحية ورعاياها وأنه مستعد لاعتناق المسيحية لو استجاب الغربيون للتعاون معه ضد المماليك.

ويبدو أنّ أرغون لم يقتنع تفاصيل السفير الفرنسي جوبرت دي هيلفي، ولم يكن ليتصوّر إمكانيّة استخفاف المسيحيين في الغرب بمصير الأراضي المقدّسة التعيس والخطير، وهم الذين كانوا من قبل يتظاهرون بالعواطف الدينيّة الجياشة والمتعصّبة نحو تلك القضيّة. لقد كان الإيلخان يريد من الحزم والسرعة والدقّة والتحديد ما لم يكن بوسع أوربا أو جوبيرت دي هيلفيل أن يقدّموه، لاكنه رغم ذلك لم ييأس، فانتهز فرصة سقوط طرابلس في أيدي المماليك المصرية سنة (688هـ/1289م) لإرسال سفارته الثالثة للغرب الأوربي، وقرّر هذه المرّة إنفاذ على رأسها راهبا كاثوليكيا أوربيا، بدلا من الرهبان الشرقيين، لتفادي مشاكل الترجمة ولإضفاء مصداقيّة أكبر لكسب ثقة الغرب، خلاف ما اعتادته السفارات المغوليّة السابقة من تمثيل مشرقي، فوجّهه عقب عيد القيامة يوم 10 أبريل سنة 688هـ/1289م رسولا جنوي الأصل يُقيمُ ببلاد فارس

(1) أنظر : Jacques de Morgan, op. cit., p. 210.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 123; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 355.

ويدعى بوسكاريل جيزولف Buscarel de Gisolf برسائل إلى البابا نيقولاس الرابع وملكي فرنسا فيليب الرابع وانجلترا إدوارد الأوّل(1)، لتحديد التاريخ الفعلي لانطلاق عمليات التحالف المغولي الأوربي ولمناقشة تفاصيل العمليات الحربية المقترحة بين المغول والأوربيين والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة، باعتباره فارسا وخبيرا عسكريا خدم في البقاع الصليبية في الشام منذ زمن طويل، فضلا عن تمرّسه في التاجرة الجنويّة، فاستخدمه أرغون لمواهبه العسكرية لحراصة قصره. ويبدو للوهلة الأولى أن أرغون اختار سفيرا جنويا لينوب عنه في هذه السفارة لأن الجنويين هم أكثر المتضررين بضياع طرابلس وأعلم من غيرهم بحرج الموقف في الشرق، وربما قصد أرغون من هذا الاختيار أيضا قطع الطريق على البابا المتغاضي عن الأهداف الحقيقية للسفارة والمسترسل بالحديث في الدين واللاهوت، فالإيلخان المغولي كان حينئذ بحاجة لقوات الأوربيين أكثر من حاجته للكتب والقرابين المقدسة عندهم(2).

وصل بوسكاريل إلى روما ما بين 15 جويليا و30 سبتمبر 1289م فاستقبله البابا نيقولا الرابع Nicolas IV، وسلّمه رسائل أرغون التي تؤكّد استعداده المسير لنجدة عكا بمجرّد نزول الحملة الصليبيّة على الساحل، ثمّ غادر بوسكاريل المقر البابوي في أول أكتوبر سنة 1289م إلى باريس حاملا رسائل تزكية وتوصية وتشجيع من البابا نيقولا الرابع لملكي انجلترا وفرنسا، وقد ورد في تلك التي عثر عليها في الأرشيفات الانجليزية والموجّهة إلى إدوارد الأوّل والمؤرّخة في 30 سبتمبر 1289م، ما هو ترجمته :

"...لقد وصل إلينا حديثا ابننا العزيز النبيل بوسكاريللو جيزولفو وهو مواطن من جنوا وسفير أرغون ملك التتر العظيم، وسلمنا خطابا من هذا الملك، وضمن ما يحتويه أن أرغون سوف يخرج بنفسه، طاعة لنداء الكنيسة، بعزيمة وقوة للانضمام لحملة صليبية عامة لحماية الأراضي المقدسة..."، وفي نهاية رسالته، يطلب نيقولا الرابع من الملك الانجليزي أن يقابل سفير أرغون بنفسه بترحاب وأن يستمع إليه والى المقترحات التي سيقدمها في هذا الشأن وأن يرد عليها حتى يحملها للملك المغولي عند عودته إليه، والمهم أنّ سفير المغول قضى في فرنسا شهري نوفمبر وديسمبر 1289م، وقد سلّم رسالة الإيلخان المؤرّخة في (10- 11) ماي 1289م، مكتوبة باللغة

---

(1) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 592- 593, 593 note 11; Sinor Denis, op.cit., p. 534; Runciman (Steven), A History of crusades, T. III, p. 401.

(2) أنظر : Sinor Denis, op, cit., p. 534.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 124، 158 هامش115.

المغولية والحروف الإيغوريّة uigur، إلى ملكها فيليب الجميل Philippe Le Bel، وكانت تبدأ باسم خان الصين الكبير "قوبيلاي قاآن"، أنهى فيها أرغون خان إلى ملك فرنسا أنه سوف يتوجه إلى سوريا في الشهر الأخير من فصل الشتاء من سنة الفهد، أي في محرّم 690هـ/جانفي سنة 1291م، وأنه سوف يصل إلى دمشق حوالي منتصف أول شهور الربيع، أي حوالي 20 فبراير سنة 1291م، فإذا أرسل الملك فيليب قوات إضافية واستولى المغول على بيت المقدس، فسوف يجعلها له، أما إذا لم يتعاون ملك فرنسا في تعزيز وتمويل الحملة ضد المسلمين فسوف يتبدد ذلك الحلم(*)، وعمد بوسكاريل جيزولف، حتّى يشجّع الدول الغربيّة على تلبية نداء المساعدة والاشتراك مع المغول في حملة صليبيّة، إلى إضافة حاشية كتبها باللغة الفرنسيّة، تنطوي على تحيات لبقة موجهة إلى الملك الفرنسي، ويضيف السفير أن الإيلخان أرغون سوف يصحب معه الملكين المسيحيين ببلاد الكرج وأرمينيا الصغرى ونحو عشرين أو ثلاثين ألفا من الفرسان، وأنّه سوف يتكفل بما يكفي رجال الغرب من مؤن طوال فترة الحرب(1)، ويبدو أنّ رسالة مماثلة، لا تزال مفقودة، قد وجّهت إلى الملك إدوارد لأنّ السفير المغولي وصل إلى لندن الإنجليزيّة يوم 22 ذي الحجّة 688هـ/5 يناير(جانفي) 1290م فقضى فيها ثلاثة أسابيع بعد تسليم

---

(*) جاء في نصها ما ترجمته : " ونعلمك الآن أننا وبمقتضى صدق كلامك سنبعث جيوشنا، في الموعد المتفق عليه (الزمان والمكان)، فإذا أخضعنا بقدرة السماء تلك الشعوب، فإننا سنعطيكم القدس، أما إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة، وقد يكون ممكنا، فسوف تندمون، وحتى إذا ندمتم، فسوف لا ينفعكم الندم".

أنظر : Mostaert(A. & F.W. Cleaves), Les Lettres de 1289 et de 1305., op. cit., pp. 17-18; Boyle(John Andrew), The Il-Khans of Persia and the prince of Europe, central Asiatic journal, 1976, Vol. 20, No.1/2, p. 35.

وفي هذه المذكرة يقول أرغون أنه ينوي أن يصطحب معه في حملته على الشام، لاسترداد مدينة بيت المقدس من المسلمين، ملكي جورجيا وأرمينيا الصغرى اللذان يمكنهما حشد عشرين ألفا من الفرسان، ولأنه من غير المناسب أو من المكلف لملك فرنسا أن يصطحب معه خيولا لأرض المعركة، فإن أرغون أبدى تعهده بامداده بعشرين أو ثلاثين ألفا من الخيول وبسعر رمزي، بل ويمكنه أيضا أن يأمر رعاياه سلاجقة الروم بأن يوفروا للقوات الفرنسية ما تحتاجه من تموين من أبقار وجمال ودقيق وعلف للخيول وغير ذلك من إمدادات تحتاجها القوات، وتعبيرا عن حسن نيته تجاه الأوربيين، فإن أرغون أعلن أن مذبحة طرابلس قد أحزنته وأنه أعدم أربعة من الأمراء المسلمين في العراق أبدوا سرورهم لانتصار المماليك، وأنه رفض أن تدفن جثتهم بل وأمر أن تلقى للكلاب ! وأشار أرغون أن شقيقته تزوجت من ملك جورجيا المسيحية وأنها اعتنقت الدين المسيحي مثل كثير من رجال بلاطه، وشكى أرغون من تصرفات سفراء الملك الفرنسي الذين أرسلهم بصحبة رابان صوما، وطلب من الأخير أن يأمر سفراءه بتقديم التحية لأرغون طبقا للتقاليد المعمول بها في هذا الشأن لدى المغول.

انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب كاملا عند : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 283- 284.

(1) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., pp. 172- 174.

الرسالة، وبينما لم يصل إلينا ردّ فليب، إلاّ أنّ رد إدوارد(*) قد أضحى معروفا وتضمّن بذل التهنئة للإيلخان على جهوده لتهيئة حملة لمحاربة المماليك المصريّة ومساعدة الصليبيين في بيت المقدس، ويزجي إليه التحيات الوديّة، غير أنّه لم يرد فيه شيئ عن التاريخ الفعلي، ولم ينطوي على وعود، إنما جرت الإشارة إلى إلتجاء الإيلخان إلى البابا الذي لن يفعل شيئا دون تعاون الملكين الفرنسي والانجليزي(1).

ولاشكّ أنّ الملك الفرنسي كان يرغب أيضا في التخلي عن الأراضي المقدّسة، ذلك أنه لمّا بعث إليه البابا يحثه في نصرة الفرنجة الصليبيين في الشرق، ردّ عليه فليب الرابع برسالة، مخيّبة للآمال، يحملها إليه مبعوثه يوحنا دي ساموَا Jean de Samois يطلب فيها إعفائه من الذهاب للأراضي المقدسة، ما يوحي أن هذا الملك غير مهتم البَتّة في إرسال نجدات للصلبيين، ذلك أن بلاده لم تجني من تلك المغامرات إلا المتاعب، ويكفي إلى هذا الحد ما خسرته من قبل على الحملات الصليبية، وفي محاولة يائسة أرسل البابا يوم 9 ديسمبر عام 1290م إلى ممثليه في فرنسا للضغط على الملك لثنيه عن قراره ذاك، لاكن هيهاة(2).

وبعد سقوط عكا يوم 18 ماي 1291م، أرسل البابا نيقولا الرابع إلى فيليب الرابع، جيراردو بيكالوتي Gerardo Picalotti أسقف مدينة سبوليت Spolète الإيطالية، لحثه في حمل الصليب والتوجه إلى الشام، وإلا فعلى الملك إعادة ما سُلّم إلي جدّه فيليب الثالث

---

(*) بدأ إدوارد الأول في رسالته بتهنئة الإيلخان أرغون باقتفاء خطوات والده أبغا خان في سعيه لإزالة قوة المماليك المصريّة ثمّ التوجه إلى الأراضي المقدسة بالشام لنجدة الصليبيين هناك، ويشكره على عرضه بتقديم الخيول والامدادات اللازمة للقوات الأوربية فور وصولها للشرق، وأعلن الملك الانجليزي عن ترحيبه بالانضمام لقوات أرغون، وأنّه سوف يتحرّك بجيشه صوب الشرق حالما يأذن البابا بذلك، وأنه سيرسل سفيرا إلى الإيلخان لإبلاغه بمواعيد إنطلاقه وصوله إلى الأراضي المقدسة، وأن هذا السفير سيحمل معه الهدايا والأشياء الثمينة التي طلبها أرغون من ملك إنجلترا.

أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., 1894, pp. 615- 616 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 353.

(1) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 593- 594, 604- 616; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 26, note 24; Mostaert(A. & F.W. Cleaves), Les Lettres de., pp. 17-18; Abel-Remusat(J.), Mémoire., pp.104-105, 105 note1, 106, 108, 112, 116- 117, 121, 182-183; Turner(H. Hudson), Unpublished Notices of the Times of Edward I., Especially of his Relations with the Moghul Sovereigns of Persia, in the Archealogical Journal, London , 1851, vol. VIII, pp. 48-49;Grousset(René), Histoire des croisades.,T. III, pp. 723- 726; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 70- 75;Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 351- 353; Sinor Denis, op, cit., p. 534.

(2) أنظر : Xavier Hélary, Les Rois de France et la Terre Sainte de La croisade de Tunis à la chute d'Acre (1270-1291), in Annuaire-Bulletin de la Société de l'histoire de France, 2005, p. 75 ; Stevenson(W.B.), op. cit., p. 351 ; Langlois(Ernest M.), Les Registres de Nicolas IV : Recueil des Bulles de ce Pape, Paris, 1886, Fascicule 1, pp. 642- 643, n° 4409- 4410, 4411.
وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 125.

Philippe III من قبل من مال من أجل الحملة الصليبيّة، ولكن هذه الحركة أيضا لم تلقى إلاّ آذانا صما(1)، ولم تطأ قدما فيليب الرابع أرض المشرق ولا قواته حتى مات في نوفمبر 1314م(2).

أمّا رد إدوارد الأوّل على أرغون فقد عثر عليه Hudson Turner في الأرشيفات الانجليزية ونشره سنة 1851م، ولا يحمل في طيّاته إلاّ خطابا لبقا وموفقا لحسن استقبال سفير أرغون والوعد لدراسة مقترحاته(3).

وأخيرا قرّر " بوسكاريل جيزولف " العودة إلى الديار، فعرج على روما لاستلام رد البابا نيقولا الرابع على رسالة أرغون خان، والحقيقة أن البابا كان أعجز من أن يحرك ملوك الغرب الأوربي وأمراءه لحشد الجيوش للتحالف مع الايلخانا المغولي حتى لو كان هذا الأمر يعني أيضا النجدة الحاسمة للصلبيين في الشرق بعد سقوط طرابلس، والاستثناء الوحيد كان من البنادقة، الذين كانت لهم اليد الطولى في عكا وخافوا ضياعها، ولهذا قدموا عشرين مركبا لنقل الصلبيين الذين استطاع أعوان البابوية تجنيدهم لنجدة اللاتين في بلاد الشام، ولم يجد الأخرون سوى تأجير أربعون وخمسة مائة وثلاثة آلاف (3540) مرتزقا من لومباردية و توسكانية وبقية شمال إيطاليا (4) للدفاع عن ما بقي من موروث صليبي في الشرق، وعلى هذا من غير المتوقع أن يحمل سفير المغول ما يشفي غليل أرغون خان.

وفي الوقت الذي كان بوسكاريل جيزولف يتجوّل في أنحاء أوربا لجمع الدعم وشحد العزائم في محاولة لتحقيق التحالف العسكري المغولي الأوربي المسيحي، كان السلطان المملوكي قلاوون الألفي يثبط ذلك المجهود بعقد معاهدة وحلف تجاري مع أهم طرف أوربي، كان العاهل المغولي يعوّل عليه لتحقيق مآربه، وهو الطرف الجنوي، لكسب حياد هذه القوة البحرية الهامّة، فأبرم مع الجنوية معاهدة تحمل تاريخ 9 ماي 1289م، تجلّى فيها رغبته الصادقة لتحقيق رغبة التجار الأجانب، ويبدو منها أنّه تكفّل بأن يجذب إلى بلده تجار الجمهوريات الإيطالية، كما منح

---

(1) أنظر : Xavier Hélary, op. cit., p. 75 ; Langlois(Ernest M.), op. ct., Fascicule 1, pp. 642- 643, n° 4409- 4410, 4411, 4412, Fascicule 2, pp. 899- 900, n° 6778, 6779.

(2) أنظر : Xavier Hélary, op. cit., p. 75.

(3) أنظر : Turner (H. Hudson), op. cit., vol. VIII, p. 48 note 6 ; Paviot(Jacques), op. cit., p. 314 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 26.

(4) أنظر : Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution of the eastern missionary effort, Archivum Historiæ Pontificiæ , 1981, Vol. 19, p. 82-83 ; Saint-Marc(M. de), op. cit., Volume 6, p. 530.

البنادقة عدّة امتيازات تعهّد لهم فيها بحماية رعاياهم وأموالهم، ما سهّل عليهم سُبل المتاجرة مع مصر(1)، ولعلّ هذا ما يفسّل إحجام الجنوية عن الإصغاء لإغراءات المغول والبابوية.

وفيما يخص رجوع " بوسكاريل جيزولف " إلى تبريز فإنّ المصادر بقيت صامتة، إلاّ أنّ هناك قرائن تشير إلى أنّه لم يغادر أوربا، وفي ذلك يقول المؤرخ دونيس سينور Sinor Denis أنّه لا أثر على ما إذا كان السفير الجنوي " بوسكاريل جيزولف " رجع إلى "تبريز" لإبلاغ الإيلخان أرغون بنتائج مفاوضاته مع ملوك الغرب الأوربي والبابوية على مشروعه بالتحرك ضد المماليك في ديسمبر 1290م، والتقاء الجيشين المغولي والأوربي في فبراير 1291م ببلاد الشام، أم أنه بقي في أوربا، إلاّ أنّه من المؤكّد أنّ " بوسكاريل جيزولف " كان موجودا فعلا في إيطاليا شهر ديسمبر 1290م، لظهور اسمه في توصية الرسالة البابويّة إلى الملك الإنجليزي إيدوارد الأوّل، ذلك أن سفارة مغولية رابعة من لدن أراغون ظهرت في البلاط البابوي في نهاية ذلك العام (1290م) وكان "بوسكاريل جيزولف " ضمن أفرادها، وأنه بعمليّة حسابيّة بسيطة يتّظح أنّ الوقت المتاح بين السفارتين، الثالثة والرابعة، الذي هو حوالي ثمانية شهور ضيّق لعودة الأخير إلى "تبريز" والرجوع إلى أوربا مرة ثانية، وعلى هذا يكون منطقيا أن السفراء الجدد لأرغون قد التقوا مع " بوسكاريل جيزولف " في إيطاليا في ديسمبر عام 1290م(2).

**هـ - <u>مشروع آخر لتحالف فرنجي - أرميني – مغولي :</u>**

ومن الملاحظ أنّ مشروع حملة أرغون وبوسكاريل جيزولف مشابه جدا لما تصوّره في نفس تلك الفترة، قريب من 26 أبريل 1289م، فرنجي آخر مجهول الهويّة يقيم في الشرق، فقد أصدر هذا الأخير رسالة موجّهة إلى البلاط الأوربي عامّة يوضّح فيها ويبيّن أنّه من اليسير إنزال قوّة غربيّة صليبيّة على البرّ عند إيّاس في أرمينيا بمساعدة الملك الأرميني وحلفائه المغول، لأنّ ملكها يعتبر من أكثر الناس ميلا إلى المساعدة، ومن ثمّ تستطيع هذه القوّة أن تلتقي بالمغول، وعلاوة على ذلك فإنّ مملكة أرمينيا محاطة من عدّة جوانب بجبال عالية فلا يستطيع أحد النفوذ إليها إلاّ من بعض المسالك المحروسة والمحصّنة بالقلاع، ويعتبر ميناؤها من أحسن موانئ العالم ويمكنه استيعاب كلّ سفن العالم، وسهل جدا لملك قبرص القدوم إليه لقرب المسافة

---

(1) نص الهدن المعقودة مع الجنوية موجودة عند ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 165- 169 وانظرها أيضا عند محمود ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص 480- 485.

(2) أنظر : Sinor(Denis), op, cit., p. 534 ; Chabot(J.b.), Notes sur les relations., pp. 617- 618.

بين القطرين، غير أنّه لم يحفل أحد ممن وجه إليه الخطاب باقتراحه العبقري ونصيحته(1).

**6- جهد البابوية في نشر الكاثوليكية بين المغول وغيرهم :**

**أ- بعثة يوحنا دي مونت كورفينو John of Monte Corvino الفرنسيسكاني إلى المغول عام 688هـ/1289م، وجهوده لتنصير الصين المغولية :**

انتشرت في أوربا أواخر القرن الثالث عشر إشاعات وأخبار غريبة عن معتقدات المغول الذين كانوا لا يتحرّجون في حظور طقوس الأديان المختلفة سواء كانت بوذيّة أو مسيحيّة أو مسلمة، وقد فنّد تلك الأقوال وصول، في سنة 1276م أثناء عهدة البابا يوحنا الواحد والعشرين Jean XXI، أنباء عن طريق يوحنا فاسالي Jean Vassali وجاك فاسالي Jacques Vassali، بأنّ خان الصين المغولي قوبلاي كان نصرانيا، ولكنه لم يمر وقت طويل حتّى تحقق بأنّه خلاف ذلك وحقيقة الأمر أنّه كان بوذيّا، وفي مسعى البابويّة ألى تنصير قوبلاي أو على الأقل إقناعه على قبول تعميده قرر خليفة البابا يوحنا الواحد والعشرين، وهو نيكولاس الثالث Nicolas III(1277- 1280م)، إلى إرسال بعثة إليه مكوّنة من الفرنسيسكانيين جيرهالد دي براتو Gerhard de Prato، وأونتوان دي بارةAntoine de Parme ، وجان دي سانت أقات Jean de Ste Agathe، وأندري دي فلارانس André de Florence، وماتيو دي أريتيو Mathieu d'Aretio ولكن في الحقيقة كان صاحب مشروع التبشير بالمسيحيّة في الصين هو يوحنا (جون) مونت كورفينو John of Monte Corvino، فقد أرسله البابا نيكولاس الرابع Nicolas IV(1288- 1292م) في سنة 1289م برسائل إلى أرغون خان إيران، وإلى قوبلاي خان الصين التي وصلها سنة 1292م(2).

يعد يوحنّا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino (*) أب الحملات التبشيرية اللاتينية في الشرق الأقصى، ومن أهم الرهبان الفرتسيسكان النشطين والمبشرين بالعقيدة المسيحية بين المغول لما أحرزه من نجاح تبشيري في الأوساط

---

(1) أنظر : Kohler(Charles), « deux projets de croisade en terre Sainte », XIII$^{e}$- XIV$^{e}$ siecles, Revue de L'orient latin, Paris, 1903- 1904, p. 428- 430 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 726- 727.

(2) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., pp. XVII- XVIII .

(*) ولد يوحنا أف مونت كورفينو حوالي سنة 1247م، وهو من بين أشهر الفرنسيسكان الذين ساهموا في مجهود تنصير الشرق الأقصى في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد أنشأ أسقفيّة اللاتين في مدينة بكين الصينيّة، وبعد أن تعرّض لاظطهادات عديدة توفي في حوالي 1328م، وفي رسالة موجّهة من بكين إلى أحد قادته يذكر يوحنا أف مونت كورفينو أنّه غادر مدينة توريس Tauris الإيرانيّة سنة 1291م.

أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 594 note 2 ; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 3.

المغولية والصينية على السواء، وقد قضى هو ورفاقه عشرة سنين، منذ سنة 1280م، في مهمة التبشير في بلاد الشرق وفارس خاصة، ليرجعوا في سنة 1289م إلى روما بطلب من ملك أرمينيا الصغرى ليصفوا للبابا ما تعرضت له بلاده من خراب وتدمير على يد المماليك المسلمين ويطلب منه نجدة الأرمن، ولكن يبدو أنّ البابا تجاهل مطالب الأرمن ليعيد إرسال يوحنا إلى الشرق للتبشير بالعقيدة المسيحية، والمهم أنّ مونت كورفينو أخبر البابا نيكولا الرابع Nicholas IV (687-692هـ/1288-1292م)، أيضا، بأنّ أرغون خان والأمراء وحتّى الرعايا المغول كانوا مستعدين لاعتناق المسيحيّة، مؤكّدا أقوال مبعوثي أرغون، فكانت تلك المعلومات والتفاصيل التي قدّمها عن الحالة التي يعيشُها المغول، بلا ريب، هي السبب التي دفعت البابا نيقولاس الرابع على العزم بإرسله مرّة أُخرى إلى الخان أرغون، الذي لم يكن مبعوثه بوسكاريل جيزولف قد وصل بعد إلى البابا، وكانت الرسالة التي حملها كورفينو إلى أرغون خان مؤرّخة في منطقة ريات Réate (أو Réati) الإيطاليّة يوم 15 جويليا 1289م يُخبره البابا فيها أنّه علم من يوحنا أف مونت كورفينو أنّ الإيلخان يتعاطف مع البابا والكنيسة الرومانيّة والكنائس المسيحيّة الأخرى، وأنّه عامل يوحنا أف مونت كورفينو ورُفقاءه بسخاء كبير أثناء إقامتهم في الشرق، وأنّه يحبّ ويحمي المسيحيين، كما لم يغب عن البابا تكرار دعوة الإيلخان إلى اعتناق المسيحيّة والتعميد للخلاص يوم القيامة من عذاب النار مثلما ذكر، منذ سنة، في الرسالة التي حملها رابان صاوما، ويوصيه بحماية ونصرة يوحنا أف مونت كورفينو ومرافقيه المسيحيين(1).

ولم يقتصر البابا برسالة إلى إيلخان فارس فحسب بل كانت هناك رسائل أخرى يحملها مونت كورفينو وهي موجّهة إلى مسيحيين من أصول أوربيّة متواجدين في البلاط المغولي، من بينهم شخص يُدعى إيزول البيزوي Ozolo (Izol, Izoli, Ozolo, Iolo) de Pise استقرّ في الصين منذ زمن بعيد وحصّل ثروة كبيرة ومكانة معتبرة في الأوساط

(1) أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 594; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 69-70 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 350 ; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 3, 210 ; Dawson (Christopher), op. cit., p.XXXI ; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p. 52 ; Denis Sinor, op, cit., p. 541 ; Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 248, 249, 250.

المغوليّة وكان يتفان في مساعدة ومساندة المبشرين المسيحيين بما أوتي من مال ومكانة، ويوحنّا دي بوناسترا Jean de Bonastra، وإلى أحد أمراء المغول في التركستان اسمه كايدو Kaïdo وإلى قوبلاي خان Khoublaï-Khan الصين وإلى مار جبلاها أسقف النساطرة في تبريز(1).

كانت البعثة تحمل أيضا عددا كبيرا من الخطابات موجّهة إلى كلّ من أسقف اليعافبة، وإلى أساقفة الأرمن والجيورجيين، وإلى مارجبالاها" Mar Jabalaha أسقف النساطرة، وعددا كبيرا من القساوسة منهم دونيس Denys، Denis de Tauriz، أسقف اليعاقبة في تبريز، وإلى الملك الأرميني هيثوم الأوّل وأخاه توروس Thoros وعددا من أمراء وأميرات الأرمن(2)، وقد بقي يوحنا أف مونت كورفينو في تبريز حتّى سنة 1291م، ثّم اتجه نحو الصين لإيصال رسالة البابا إلى قوبلاي(3).

أمّا البعثة بحد ذاتها فكانت مكوّنة من ستة من الإخوان الرماديّين Friars Minor المنتمين إلى الكاثوليك الفرنسيسكان وهم على التوالي جيرار أف براتو Gerard of Prato وأونتوني أف بالما Antony of Parma ويوحنا أف سانت أجات John of St Agatha وأوندرو أف فلورانس Andrew of Florence ومتى أف أزيرو Matthew of Arezzo ويوحنا أف مونت كورفينوJohn of Monte Corvino، إلى منغوليا للتبشير بالمسيحيّة، يرأسها هذا الأخير، الذي سيحضى فيما بعد بمنصب أسقف في خان بليك Khan-Balikh (بكين)، ويبدو أنّه ليس للبعثة هدفا سياسيا واضحا بأتمّ معنى الكلمة ولكن يمكن تسميتها بحملة تبشيرية استباقية لأهداف سياسية مستقبلية هدفها نمسيح أكبر عددا ممكنا من المغول والصينيين معا تحضيرا لدعاية رهيبة ضد المسلمين، وممّا يُلاحظ من تزامن هذه البعثة أنّ مبعوث أرغون وهو بوسكاريل جيزولف لم يكن قد وصل بعد إلى البابا نيكولا الرابع في روما حين كان

---

(1) أنظر: Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., pp. 596- 597, 596 note 1 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 350 ; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 4 ; Dawson (Christopher), op. cit., p.XXXI ; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, p. 89 ; Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 249 ; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p.86 ; Denis Sinor, op, cit., p. 541.

(2) أنظر: Chabot(J.b.), « Notes sur les relations., p. 598 ; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, p. 89 ; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p.86.

(3) أنظر: Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 4 ; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXXI.

مونت كورفينو يغادرها إلى الشرق فلم يحدث بذلك أي تنسيق سياسي مسبق بين الرجلين، والشاهد أنّ رسالتا البابا إلى قوبلاي وأرغون لا تشيران إلاّ للسنة الماضية وإلى رسائله التي حملها رابان صاوما إلى أرغون(1).

وأمّا مونت كورفينو فقد استقر لعدة شهور في تبريز في الدير المسمى للقديس توماس St. Thomas يضم الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان معا لممارسة دوره التبشيري هناك بعد أن قام بتسليم رسائل البابا للمرسل إليهم في إيلخانية فارس، ثمّ ترك بلاد فارس عام 1291م لتسليم رسالة البابا لقوبيلاى خان، وبصحبته راهبا دومنيكاني يدعى نيقولا أوف بستويا Nicolas Of Pistoia وتاجر إيطالي يدعى بيتر لوكالونجو Peter of Lucalongo، ووصل يوحنا، جون، الى خان بالق (أو بكين الحالية) عام 1294م فوجد أنّ قوبيلاي خان قد توفي منذ شهور قليلة فقام بتسليم رسالة البابا لخليفة قوبيلاي وهو حفيده واسمه تيمور أولجايتور (1294-1307م)، في مايو من ذلك العام وسمح له ببناء أول كنيسة كاثوليكية بمنغوليا والتبشير بالمسحية الكاثوليكية بين المغول والصينيين وحتّى بين الأرمن والجورجيين في جميع أنحاء الحكم المغولي تحت حماية الخاقان الجديد(2).

وقد كان للتاجر الإيطالي بيتر لوكالونجو Peter of Lucalongo دورا هاما وفعالا في وضع اللبنة الأولى للكاثوليكية بالصين وذلك أنّه ساهم بماله في شراء الراهب مونت كورفينو لمائة وخمسين طفلا من الأرقاء الصينيين بين عمر السابعة والحادية عشر، فتمّ تعميدهم وتنشئتهم وفقا للتربية المسيحية وذلك في الكنيستين اللتين قام ببنائهما في بكين، وهؤلاء كانوا خير عون له في التبشير لحوالي ستة الاف من السكان، ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين القاطنين في الصين(3).

---

(1) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, pp.103-104 ; Denis Sinor, op, cit., p. 541; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 5 note 1 ; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p. 103.

(2) أنظر : Rachewiltz(Igor de), Papal Envoys to the Great Khans ,London, 1970, pp. 160-164 ; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 4, 5, 6, 5 note 1 ; Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 250 ; Dawson (Christopher), op. cit., p. XXXI, XXXII; Marshall(Baldwint w.), Missions to the East in the thirteenth and fourteenth centuries, in Setton(K.), A History of the crusades, Wisconsin University Press, 1985, T.V, pp. 493- 494.

وانظر أيضا : هلال، المرجع السابق، ص 184، 185.

(3) أنظر : Rachewiltz(Igor de), Papal Envoys., p. 169; Dawson(Christopher), op. cit., p. XXXII.

وانظر أيضا : هلال، المرجع السابق، ص 185.

ونستنتج من خلال رسائله التي أرسلها من الصين إلى البابويّة سنة 1305م أنّه استقرّ بالصين وحده مدّة إحدى عشر سنة يدع فيها إلى المسيحيّة دون كلل، وأنّه التحق به أحد الرهبان المسيحيين يعينه في مهمّة للتمسيخ، سنتين قبل هذه الرسالة واسمه أرنولد ديك ولوني Arnold de Cologne، والحقيقة أنّ قصد مونت كورفينو من وراء إرساله لتلك الرسالتين إلى مقدم الفرنسسكان في أوربا وللبابوية هو الإلحاح في الطالب منهما إرسال عددا من الرهبان والكتب الدينية وترسيم رجال دين لشؤون الكنائس في الصين. وقد وصلت هتان الرسالتان للغرب عام 1307م، ويبدو أنّ إرساليّة مونت كورفينو لقيت نجاحا مبهرا واستحسانا في نظر البابويّة ولذلك قام البابا كليمونت الخامس (1305-1314م) Clement V ، سنة 1307م، باصدار مراسيم باباوية بتقليد جون منصب رئيس أساقفة خان باليق (أو خان باليك) (بكين ) ومنحه صلاحيات البطريرك في كل الامبراطورية المغولية (1)، وأرسل إليه سبعة من الرهبان الفرنسسكان لمعونته في مهمة التبشير بالمسيحية وبناء الكنائس والأبرشيات والأسقفيات وليُنصّبوه كرئيس للأساقفة في الشرق الأقصى وبلاد الصين، وهم جيرارد Gerard وبيريجرن أف كاستيلو Peregrine of Castello أو (Pietro de Castello) وأندرو أف بيروجيا Andrew of Perugia(de Pérouse) ونيكولاس أف بانتراس (أو أف أبوليا) Nicholas of Bantra or of Apulia وأنتروتيوس أف أسيزي Andrutius of Assisi (Andruzio d'Assise) وأولريش سافوستورد Ulrich Sayfustordt وويليم أف فيلنوف William of Villeneuve، ولكن لم يصل من هذه البعثة إلى مدينة الزيتون zeton (zaitun, zayton)، وهي أشهر ميناء تجاري في جنوب الصين حينئذ في مواجهة جزيرة تايوان (فرموزا) الحالية، إلاّ الثلاثة الأوائل في القائمة لمقابلة مونت كورفينو سنة 1308م، فتداولوا على الأسقفيّة هناك، أمّا الثلاثة التوالي فكانوا قد ماتواعند مرورهم بالهند، وأمّا ويليم أف فيلنوف William of Villeneuve فيبدو أنّه لم يُسافر أصلا أو أنّه رجع إلى أوربا من منتصف الطريق لأنّه سوف يظهر بعد ست عشرة سنة في أسقفيّة بأوربا، ثمّ عاود ذات البابا في سنة 1312م أو سنة1313م إرسال ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكان الآخرين إلى مونت كورفينو في العاصمة بكين

---

(1) أنظر : Atiya: The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 250-251; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, p. 8-9; Cordier (Henry), op. cit., p. XVIII, XIX ; Dawson (Christopher), op. cit., pp. XXXII, XXXIII, 224- 231 ; Marshall(Baldwint w.), op. cit., p. 494.
وانظر أيضا : هلال، المرجع السابق، ص 185.

لمعاونته وهم الفلورنسيين توماس وجيروم ومرقس Thomas et Jérôme et Piérre de Florence ، وعلى الفور تمخّض عن تلك التحركات إنشاء مونت كورفينو لأبرشية أو لأسقفية سنة 1313م في منطقة الزيتون (Zaitoun, zeton, zaitun, zayton) بالصين وترأسها هؤلاء الرهبان الثلاثة على التوالي، كما أسّس أديرة وكنائس في مناطق شيكيانج Checkiang وهانجشو Hangchow ويانجشو Yangchow وعندما توفي جون مونت كورفينو عام 1328م وسنه يُناهز الثمانين عاما كان قد ترك عدة ألاف من الكاثوليك في الصين والعديد من الأساقفة والرهبان الفرنسسكان يعملون في جد ودأب في مجال التبشير بالمسيحية في الشرق الأقصى مدى عقود من الزمان(1).

وبعد موت كورفينو ظل منصب رئيس أسقفية بكين، المغولية الحكم، شاغرا فترة من الوقت، ولكن بمجرّد أن وصل الخبر إلى أفينيون الفرنسيّة، فى عام 1333م، بادر البابا في يوم 18 سبتمبر من تلك السنة بترسيم راهبا فرنسيسكاني فرنسيا مكانه يدعى نيكولاس أف بوتراس Nicolas of Botras، كان أستاذا للاهوت في جامعة باريس، وجعل في صحبته ستة وعشرون مُبشّرا في رحلته إلى الصين، فيما يذكر المؤرخ كورديي Cordier أنّ عددهم كان اثنان وثلاثين مسيحيا، ولكن هذا الأخير توفي هو الآخر قبل وصوله إليها، دون أثر لوصول رفقائه، وبالمقابل أظهر الخان المغولي الجديد في الصين حركة غريبة عن التقاليد المغوليو المعهودة إذ أنّه بادر في عام 1338م بإرسل سفارة، تضم خمسة عشر نسطوريا من قبيلة اللان وعلى رأسها أحد الرهبان الفرنسيسكان، إلى البابا بونوا الثاني عشر Benoit XII (1334-1342م) لطلب المزيد من الرهبان الكاثوليك وسرعة تعيين رئيس أساقفة لبكين فضلا عن طلبات أخرى، ولا شك أنّ هذا التصرف يشير على الأقل إمّا إلى مدى توغل النفوذ المسيحي في البلاط المغولي أو على الأقل إلى تعاطف الخان المفرط تجاه ذالك المعتقد، وقد سر البابا كثيرا لتطوّر الأحداث بذلك الشكل، فأرسل في نوفمبر سنة 1338م أربعة من الفرنسيسكان إلى الصين هم نيكولاس بونيت Nicolas Bonnet، ونيكولاس دي مولانو Nicolas de Molano، ويوحنا دي فلورانس Jean de Florence، وجرجوارالهنغاري Gregoire de Hongrie، تحت إمرة الراهب جون المارجونولي John of Marignoli فوصلوها سنة

(1) أنظر : Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, pp. 9- 10, 11; Marshall(Baldwint w.), op.cit., p. 495.
وانظر أيضا : هلال، المرجع السابق، ص 186.

1342م، واستقر هذا الأخير في بكين عدة أعوام في رعاية الحاكم المغولي وحمايته حتى رجع لأفينيون التي وصلها عام 1352م، وقد ترك مذكراته عن تجربته في جنوب آسيا وشرقها، أما عن أسقف الزيتون فإن آخر مرة ورد له ذكر كان في خطاب من الصين عام 1326م، وأن هذه الأسقفية قد حولت إلى مطرانية ولكن جيمي الفلورنسي James of Florense، وهو أول من عُيّن عليها، لم يصل إلى الصين قط لأنه قتل في آسيا الصغرى عام 1362م، أمّا البابا أوربان الخامس Urbain V (1362-1370م) فقد بعث سنة 1370م إرساليّة على رأسها غليوم دي براتو Guillaume de Prato أو (وليم أوف براتو William of Prato) وعيّنه رئيسا للأساقفة في بكين الصينيّة، ولم يمر وقت طويل حتّى أُردفت هذه الإرساليّة بنحو ستين راهبا آخرا إلي الصين، ولكن غليوم دي براتو لم يصل أبدا هو الآخر إلى الصين، في حين كانت أسرة يوان yuan المغولية قد طردت من الصين قبل ذلك بعامين، وقضي على كل الأجانب الباقيين على قيد الحياة بما فيهم أصحاب الديانات السماوية(1)، فقد خلفت المغول أسرة مينج Mingues الصينيّة فتوقّفت الإرساليّت التبشيريّة إلى هناك نحو المائتي سنة، ذلك أنّ هذه الأسرة الحاكمة الجديدة كانت معادية لكلّ ما هو مغولي أو متّصلا به، فدمّرت كلّ الأسقفيّان والأبرشيات والكنائس في الصين إلاّ ما ندر، بينما تعرّض الرهبان والأساقفة للقتل والتنكيل بهم مثلما حدث سنة 1362م لخامس أساقفة منطقة الويتون وهو جاك الفلورنسي Jacques de Florence إذ قتله الصينيون شرّ قتلة، ورغم تقلّب الحكم في الصين والأخطار الجديّة المحدقة بالرهبان هناك إلاّ أنّ ذلك لم يكن ليثني البابوية عن مشروعها التبشيري، وأرسل البابا جريجوار الحادي عشر Gregoire XI (1370-1378م) سنة 1371م فرانسوا دي بوديو Francois de Podio إلى الصين برفقة اثنتا عشرة راهبا(2)، لاكن ذلك لم يكن إلا إهدارا للوقت والمال والرجال وبذلك قضي على جميع آمال البابوية الصليبية ومن دار في فلكها في تجسيد التحالف المسيحي المغولي.

(1) أنظر : Rachewiltz(Igor de), op. cit., pp. 160-213; Marshall(Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 498 et suite ; Yule(Sir Henry), Cathay., Vol. III, pp. 11- 13 ; Richard(Jean), La Papauté., op.cit., p. 114 ; Cordier (Henry), op. cit., p. XX- XXI.

وانظر أيضا : هلال، المرجع السابق، ص 209 هامش 75.

(2) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXI.

## ب- جهد الدومنيكان في نشر الكاوليكية ببلاد فارس :

ويبدو أنّ فرقة الدومنيكان لم توفّر هي الأخرى جهدا في بلاد فارس فكانت الثمرة أن تحوّل سنة 1304م رئيس أساقفة النساطرة المدعو "مارجبالاها" Le Patriarche Mar Jabalaha إلى المذهب الكاثوليكي الذي كتب في ذات السنة إلى البابا بونوا الحادي عشر(1303- 1304م) Benoit XI يُعلمه انطوائه تحت سلطة البابويّة، وعندما اطلع البابا يوحنا الثاني والعشرين Jean XXII على أهميّة الإرساليّت التمسيخيّة في بلاد فارس أمر بإنشاء أسقفيّة في مدينة سلطانيّة Sulthanyeh، في الشمال الغربي لإيران، يترأسها الأسقف فرانسوا دي بيروز François de Pérouse ويساعده في مهمّته التمسيخيّة في بلاد فارس كل من جرار دي كالفين Gerard de calvie، وبالثيليمي دي بوديو Barthélemy de Podio، وبيرناردين دي بليزانس Bernardin de Plaisance، وبيرنارد موريتي Bernard Moreti، وبارثيليمي أبالياتي Barthelimy Abaliati، وغليوم آدم Guillaume Adam الذي عوّض فيما بعد يوم 1 جوان 1323م فرانسوا دي بيروز François de Pérouse(1).

ولعلّ الراهب الدومنيكاتى ريكولد أف مونت كروس من أبرز الشخصيات الدومنيكية التي لعبت دورا بارزا في مجال التنصير في الأوساط الأسيوية بين المغول والمسلمين والمسيحيين الشرقيين أيضا، والمتأثرين بـ يوحنا دي مونت كورفينو، فقد ولد ريكولد في منطقة مونت كروس بجوار فلورنسا عام 1267م، ولمّا بلغ سنة خمسة وعشرين سنة دخل في حياة الرهبنة في دير القديسة مريم الجديدة Santa Maria Novella الدومنيكاني في منطقة توسكان Tuscan، وفي سنة 1272م صار أستاذا في الفنون ودرس في دير القديسة كاترين St. Catherine في مدينة بيزا Pisa، وفيها ترقى حتى صار لاهوتيا بارعا، وفي عام 1301م رجع ريكولد إلى فلورنسا الإيطالية ليستقر فيها إلى موته في 31 أكتوبر عام 1320م عن عمر يناهز الثمانين عاما بعد أن تجول في آسيا الصغرى والعراق وفارس والأراضي المقدسة لعدّة سنوات في مهام تبشيريّة بين المسلمين والمغول والنساطرة، وقد قضى الفترة من عام 1288م حتى عام 1301م بإيلخانية فارس كراهب دومنيكاني، ويبدو أنّ ريكولد بدأ في تدوين مذكراته، حول أسفاره وتجوله وما أدّى من مهام وما شاهده وجرّبه، سنة 1288 أو 1289م أي حينما بلغ

---

(1) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XVIII, XIX ; Dawson (Christopher), op. cit., p. 224.

عمره الستة والأربعين أو السبعة والأربعين سنة بعد أن قضى الواحد والعشرين أو الإثنة والعشرين سنة في مهمّة التبشير، وقد ترك مؤلفات متميزة تصف أحوال هذه البلاد وسكانها وكيفية ممارستهم لشؤون العقيدة، خاصة وأنه كان يتقن اللغة العربية التي ساعدته على دراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكثيرا من كتب الفقه وذلك ليتمكن من مجادلة رجال الدين المسلمين والرد عليهم ، ويعتبر ريكولد أف مونت كروس رائدا للمستشرقين الأوربيين في دراساته عن الشرق الإسلامي(1)، ورغم أنّه لم يترك لنا معلومات عن مشواره التبشيري ونتائجه في إيلخانية فارس فيما بين 1288م و1301م، إلا أنّ مسار تنقله صار واضحا، فقد وصل إلى مدينة تبريز سنة 1288م واستقر بها عدة شهور ثم انتقل منها إلى كثير من المدن العراقية وأهمها الموصل وبغداد وتكريت، وقد قام بالتبشير بالكاثوليكية بين اليعاقبة والمارونيين وقد سمح له حاكم الموصل ـ وكان نسطوريا ـ بالتبشير علانية بين النساطرةوشجعه على ذلك أن أرغون في سنواته الأخيرة قد أطلق العنان للرهبان الكاثوليك للتحرك بين رعاياه بحرية تامة وتحت حمايته، وفضلا عن ذلك فإن بطريق النساطرة نفسه كان يدين بالولاء ـ نظريا على الأقل ـ لكنيسة روما، ولهذا قدّم لريكولد ولغيره من الدومنيكان كثيرا من المساعدات رغم أن الأخير يقرر أن نساطرة بغداد قاموا بطرد الرهبان الكاثوليك منها وكادوا يفتكون بهم (2).

ويذكر ريكولد أف مونت كروس أنّه أمام الأوضاع الكارثية التي كانت تمر بها ما بقي من معاقل صليبية في الشرق، طلب هو من البابا أن يأذن له بالتوجه إلى الشرق للتبشير بالكاثوليكية فوصل إلى مدينة عكا سنة 1286م أو 1287م، وفي شوارع بغداد وعلى طريق التجارة الكبير في الجنوب الغربي منها لم يتوانا هذا الدومنيكاني في التبشير بالمسيحية والتعرّض للقرءان(3).

وقد برز نشاط ريكولد بإيلخانية فارس عن طريق شراء الرهبان الدومنيكان، بمساعدة من

---

(1) أنظر : Beazley (Raymond C.): The Dawn of Modern Geography, Oxford, carendon press, 1906, III, p. 191, 198.

(2) أنظر : Beazley, op. cit., pp. 192-196,198, 200; Marshall(Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 483.

(3) أنظر : Beazley (Raymond C.):The Dawn of Modern Geography, Oxford, carendon press, 1906, III, p. 191, 192.

التجار الايطاليين، بأسواق العراق، والذين كانوا بين الأسرى الذين جلبهم تجار الرقيق من عكا وغيرها بالشام، في الفترة التي كانت آخر مواقع الصليبيين تتهاوى الواحدة تلوى الأخرى مابين سنتي 1289م و1291م، فاستعان بهم لإنشاء أديرة ومراكز كاثوليكية بالايلخانية(1).

وبهر ريكولد بما رءاه في بغداد من رقي حضارة المسلمين وسماحتهم، ولكن رغم ذلك بات يهاجم العقيدة الإسلامية في القاضايا الهامشية التى دأب المستشرقون الأوربيون فيما بعد على طعن الاسلام بها، وبعد محاولاته العديدة الفاشلة لتنصير المسلمين إبان حكم غازان خان الذي بات المسيحيون فيه مضطهدين، تيقن أنّه من العسير أن تثبت البعثات التبشيرية بينهم(2).

وحقيقة أنّ البابوية كانت دائمة تحلم بتحويل كل العالم، بما فيه المسلمين، للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، وظهر للوجود في بداية القرن الثالث عشر جماعة الرهبان الفرنسسكان وتبعهم الدومينيكان لتبشير بالانجيل بين غير الكاثوليك، ويبدو أن الرهبان الكاثوليك لم يتوانوا عن هذه المحاولة في إيران والعراق اللتان كانت البيئة فيها إسلامية قلبا وقالبا، وتعامل المسلمون بحساسية شديدة مع الذين حاولوا اثنائهم عن عقيدتهم أو إقناعهم بقبول ديانة أخرى، ولهذا تعرض إثنان من الرهبان الفرنسيسكان للقتل في تبريز عام 1284م، وتبعهما عدد اخر من نفس المدينة في أوائل القرن الرابع عشر لأنهم أثاروا المسلمين بالتبشير بينهم، وفي عام 1323م قتل ثلاثة رهبان فرنسسسكان في مدينة تانا Tana الهندية بأمر من القاضي المسلم بعد ان قاموا بسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) علانية، وفي عام 1339م قتل سبعة رهبان في إقليم التركستان لإثارتهم عامة المسلمين، بل أنّ الإشارة الوحيدة لوجود بعثات تبشيرية في الوثائق الشرقية كانت في الحوليّة السيريانية لابن العبري إذ يقرر هذا الكتاب أنه في شهر يوليه من عام 1290م قدم أحد الرهبان لإحدى المدن العراقية للتبشير بين سكانها، ولما ذاع أمره فإن جموعا من المصلين قد تعقبوه والمسيحيين الشرقيين بذات المدينة حتى قتلوه ومن قام بحمايته ودمروا الكثير من ممتلكات المسحيين بالمدينة حتى لم يستطع أي من الآخيرين الخروج إلى

---

(1) أنظر : Beazley (Raymond C.), op. cit., p. 199.

(2)أرنولد (سير توماس):الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة)، ترجمه إلى العربيّة وعلّق عليه حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصريّة، ط2، القاهرة ،1957م، ص354، 355.

وأنظر أيضا : Beazley, op. cit., pp. 201-203.

أسواق المدينة لمدة شهر كامل(1)، وقد حدث ذلك في نهاية عهد أرغون رغم كل أساليب القهر والضغط التي تعرض لها المسلمون هناك ورغم الحماية التى أعطاها الإيلخان وقواده ونوابه، المسيحيون واليهود، للمسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة.

ويبدو ان البعثات التبشيرية لم تكن منبوذة فقط في إيلخانية فارس بل تعدتها إلى جميع الأمة الإسلامية، وقد لقي الفرنسسكاني الشهير رايمون لول Ramon Lull حتفه على يد جموع المسلمين الغاضبين في الجزائر عام 1316م بينما كان فيه لمهمة تمسيحية، وأمّا الأسقف الفرنسسكاني لمدينة الزيتون الصينية 1323م فيؤكد أنه وزملاءه لم يستطيعوا تحويل أي مسلم للمسيحية(2) هذا بالرغم أن هؤلاء كانوا أقليات ضئيلة في الصين ، وفوق هذا وذاك فإنّ تقرير الراهب الدومينيكاني جوردان قطلاني أف سيفيراك Jordan Catalani of Sévérac عام 1328م يوضح أنّ كل الذين نجح المبشرون الكاثوليك في تحويلهم لمذهبهم كانوا من المسحين المنشقين(3)، أي النساطرة واليعاقبة، وهذا يوضح أنّ الرهبان الكاثوليك كانوا يحاولون جاهدين لاكتساب المغول إلى صفهم، ومهما يكن من أمر، ففي عام 1295م طرأت أحداث سياسية هامة في العاصمة المغولية الفارسية لم تكن في حسبان الغرب الأوربي وكان لها أثرها المباشر سواء على حركة التبشير بالكاثوليكية في إيلخانية فارس أو على وضع المسيحيين الشرقيين في الدولة، ومنها وصول غازان خان إلى كرسي الحكم في ذلك العام.

**7- آخر أيّام الصليبيين بالمشرق الإسلامي :**

صُدم سكان عكا لسقوط طرابلس سنة 1289م، وهم الذين كانوا يعتقدون أنّهم في مأمن من خطر المماليك وأنّ السلطان لن يتعرّض للمدن الصليبيّة الساحلية، رغم ما تشكله قلاعهم والطوائف الدينيّة العسكريّة الصليبيّة من خطر، ما داموا مسالمين ومحايدين، في حين كان المسلمون والمسيحيون هم من يموّل الصليبيين، بينما خلد البارونات المحليون في الشرق الفرنجي إلى حياة الترف، ولم يبتغي التجار وأرباب الحوانيت بالميناء إلاّ السلام، فهيّئت عكا

---

(1) أنظر : Bar-Hebraei (Gregorii), Chronicon Syriacum, pp. 617- 618; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 41; Marshall(Baldwint w.), Missions to the East in the thirteenth and fourteenth centuries, in Setton(K.), A History of the crusades, Wisconsin University Press, 1985, T.V, p. 482

وانظر : هلال، المرجع السابق، ص 187، 188.

(2) أنظر : Rachewiltz(Igor de), op. cit., p.174.

(3) أنظر : Marshall(Baldwint w.), op. cit., T.V, p. 507-508.

وأمثالها من الموانئ أسباب الراحة للمسلمين والمسيحيين على سواء في ممارسة التجارة، وأظهر سكانها صادق النيّة في رفضهم التحالف مع المغول، وما حدث من الاعتداء على طرابلس دون أن تسبقه إثارة أثبت لهم أنّ تقديراتهم كانت كاذبة، وكان لزاما عليهم أن يدركوا أنّ الدَور عليهم. وبعد مضي ثلاثة أيام على سقوط طرابلس وصل إلى عكا الملك قبرص هنري الثاني (1285- 1324م)، فصادف بها رسولا من قبل قلاوون، يحمل سُخطا من سيّده لأنّ هنري الثاني والطوائف الدينيّة العسكريّة نقضوا الهدنة بأن نهضوا لمساعدة طرابلس، فردّ هنري بأنّ الهدنة لا تنطبق إلاّ على مملكة بيت المقدس، فلو أنّ طرابلس كانت داخلة في الهدنة، لما أقدم السلطان على الاعتداء عليها، فقبل المسلمون هذا العذر، وتجدّدت الهدنة لمدّة عشر سنوات أخرى وعشرة شهور، وعشرة أيّام، على أن تدخل فيها مملكتا بيت المقدس وقبرص، ثمّ بادر كل من ملك أرمينة وسيّدة صور إلى احتذاء هذا المثال(1).

غير أنّ الملك هنري الثاني لم يثق في عهود السلطان قلاوون، ولم يعد بوسعه أن يغامر، فيستنجد بالمغول، لأنّ ذلك يعتبر خرقا للهدنة مع المماليك، لذلك وقبل أن يعود إلى قبرص في سبتمبر 1289م، جعل أخاه نائبا عنه في عكا، وأرسل بقائد الحامية الفرنسيّة في عكا، يحنّا جرايللي Jean de Grailly، إلى ملوك أوربا يخبرهم بالأوضاع المزرية في عكا، ويستغيث بهم(2)، وحينما وصلهم النبأ انزعجوا كثيرا، لكنّ مسألة صقليّة كانت لا تزال تملأ عقول أغلبيّتهم ما عدا إدوارد ملك أنجلترا المنشغل بمشكلته الاسكتلنديّة، أمّا البابا نقولا الرابع فقد استمع لتقرير يوحنا جرايللي ثمّ كتب إلى ملوك الغرب يحثهم بإرسال المساعدات، لكنّ البابا نفسه كان متورّطا في مسألة صقليّة فلم يكن بوسعه إلاّ أن يكتب الرسائل ويحثّ رجال الدين على الدعوة إلى حرب صليبيّة، على أنّ السادة الذين توسّل إليهم آثروا الانتظار حتّى يتحرّك

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 238; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 747; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 593.

وانظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبيّة، ص 51 ؛ بيتر و. إديوري : قبرص والحروب الصليبيّة، ص 95.

(2) أنظر : Raynaldus(OD.), Annales Ecclesiastici, Paris, 1871, T. 23, année 1288, p. 41, n° 43, année 1289, n° 72, p. 69; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 746; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 593.

وانظر أيضا : بيتر و. إديوري : قبرص والحروب الصليبيّة، ص 95.

الملك إدوارد، فالمعروف أنّه سبق أن وعد بالاشتراك في حملة صليبيّة، وأنّه كان له تجربة في الشرق(1)، وخلافا للآمال المرجوّة لم يتحرّك هو الآخر لهذا النداء. أمّا جمهوريّة جنوة التي ألحق بها ضياع طرابلس خسارة فادحة، فإنّ قائد أسطولها، بينيديتو زكريا Benedetto Zaccaria، شنّ حملات انتقاميّة سنة 1289م، بأن استولت على سفينة تجاريّة مصريّة كبيرة في ميناء جنوب الأناضول كانت محمّلة بالسكر والتوابل، بينما أغار بحّار جنوي آخر اسمه بيرانجير بانزانو Béranger Panzano على ميناء التينة Tineh غرب الدلتا، المجرّد من أسباب الدفاع. ولمّا أغلق قلاوون ميناء الاسكندريّة في وجه الجنويّة أرسل الحاكم الجنوى في ديسمبر 1289م ألبرتو سبينولا Alberto Spinola للتفاوض وإرجاع البضائع المنهوبة للمصريين، وتُوّج بعقد الصلح يوم 13 مايو 1290م(*)، فلمّا وصلت رسلهم إلى القاهرة، التقوا بسفارتين من قبل لامبراطور البيزنطي والامبراطور الألماني،تقفان على خدمة السلطان(2)، ولم تسجّل في تلك الفترة أيّ حملة، ذات أهميّة، تجاه فلسطين إلاّ ما كان من فرق معزولة مثل التي كانت في شهر جويليا 1290م يقودها الفارس السويسري خادم العرش الانجليزي والمدعو أوتون دي جراندسون Otton de Grandson يصحبه ابن أخيه، بطرس دي إيستافايير Pierre d'Estavayer، وفرقة من الفرسان للمشاركة في الدفاع عن عكا(3).

### 8- حملة صليبيّة شعبية سنة 1290م، محاربون من شمال إيطاليا :

فشل البابا في مسعاه لتحريك ملوك أوربا لنجدة ما تبقى من موطئ قدم في الشرق، إلاّ أنّ

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 746.

(*) خاف أهل جنوة من انتقام السلطان المصري قلاوون فأعادوا ما نُهب وتبرّؤوا من القراصنة، وطلبوا هدنة وألحوا في ذلك حتى عقد معهم السلطان هدنة على يد رسلهم في القاهرة، وارجع إلى نص الهدنة بين أهل جنوة والسلطان المنصور قلاوون في :
ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام، ص 165-169 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1403هـ/1983م، ص480- 485.وانظر أيضا النص نفسه باللغة العربية واللغة اللاتينية وترجمته بالفرنسيّة عند :
Silvestre De Sasy, Piéces diplomatiques tirées des archives de la république de Génes, dans Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliotheque du Roi et autres bibliotheques, l'institut royale de France, Paris, 1827, T. XI, pp. 34- 52.

(2) أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. I, pp. 415- 418 ; Grousset(René), Histoire des Croisades., T. III, p. 746 ; Runciman (Sir Steven), The crusader states., p. 593.

(3) أنظر : Kohler(Charles), « deux projets de croisade en terre Sainte », p. 418 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 746.

نداءه لقي أسماعا صاغية في شمال إيطاليا، فبينما لم يردّ عليه البارونات استجاب له رعاع القوم من فلاحين والعاطلين وعامّة سكان المدن الإيطاليّة الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا، فجعلهم البابا تحت قيادة أسقف طرابلس، الذي قدم إلى روما لاجئا، أمّا البنادقة الذين لم يحزنوا من قبل لما فقدته جنوة من قاعدة في طرابلس، والذين أحسوا بشعور مختلف حول عكا، حيث كانت لهم السيطرة التجاريّة، فإنّهم بذلوا عشرين سفينة بقيادة نقولو تييبولو Nicolo Tiepolo ابن الدوج ويساعده بناء على طلب البابا كلا من الفرنسي يوحنا جرايللي وروسللي، وحاز كل من هؤلاء القادة الثلاثة ألف قطعة من الذهب من خزانة البابويّة، غير أنّهم افتقروا إلى المؤن، فلما أبحر الأسطول صوب الشرق، انحاز إليه خمس سفن أخرى أرسلها جيمس الأرجوني Jacque d'Aragon، ملك صقلية، للمشاركة في الحملة(1). أمّا في مدينة عكا فقد أعادت الهدنة المعقودة بين الملك هنري الثاني والسلطان قلاوون بعض الثقة لسكانها، إذ جرى استئناف التجارة من جديد، ففي صيف سنة 1290م أخذ تجار دمشق يعيدون إرسال قوافلهم إلى الساحل، وتوافر المحصول في تلك السنة في الجليل، وتزاحم الفلاحون المسلمون بمنتجاتهم على أسواق عكا، ولم تكن المدينة من الحيويّة والنشاط مثلما كانت عليه في تلك السنة، إلاّ أنّ وصول الصليبيّين الإيطاليين في شهر أغسطس أزعج السلطان، فقد اظهروا الفجور والسكر والاخلال بالأمن، وأخذوا يهاجمون بين الحين والآخر التجار والفلاحين المسلمين الأبرياء، وحدث ذات يوم، حوالي نهاية شهر أغسطس 689هـ، أن اندلعت الفتنة، قال جماعة من الناس أنّ الثورة بدأت في خان، حيث اجتمع بها المسلمون والمسيحيون، وأشار آخرون أنّ تاجرا مسلما اغتصب سيّدة مسيحيّة، واستغاث زوجها بالجيران للانتقام له، فانطلق الصليبيون الرعاع فجأة يجوبون شوارع المدينة، ثمّ خرجوا إلى الضواحي، وأخذوا يذبحون كل من صادفهم من المسلمين، وإذ اعتقدوا أنّ كلّ ذي لحية مسلم، هلك أيضا إثر ذلك عدد كبير من المسيحيين المحليين. واستبدّ الرعب ببارونات المدينة وفرسان الطوائف الدينيّة العسكريّة، ولم يتمكنوا من إنقاذ إلاّ عددا قليلا من المسلمين فنقلوهم إلى حيث يتوافّر لهم الأمن بالقلعة، فضلا عن إلقاء القبض على بعض

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 238 ; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 747; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, p. 82; Runciman(Sir Steven), The crusader states., pp. 593- 594.

المحرّضين المعروفين(1).

بلغت السلطان أنباء المذبحة، فقرّر أنّ الهدنة قد انتقضت وحان الوقت لاستأصال الصليبيين الفرنج من أرض سوريا، وبعثت إليه حكومة عكا باعتذاراتها، إلاّ أنّ رسله قدموا عكا وأصرّوا على تسليم الرجال الذين ارتكبوا الجرائم، إلى السلطان وإلاّ نزل بهم العقاب، فدعا الكوندسطبل أملريك إلى عقد مجلس، وفي هذا المجلس نهض مقدّم الداوية، وبذل النصح بأنّ كلّ المذنبين المسيحيين المعتقلين وقتئذ في سجون عكا، لا بدّ من تسليمهم لممثّلي السلطان على أنّهم هم الذين ارتكبوا الجريمة، غير أنّ الرأي العام كان يرى أنّه لا يجوز إرسال مسيحيين ليُلقتلوا على أيدي الكفار، وجرت محاولة تجريم بعض التجار المسلمين بإلقاء اللوم عليهم وإثبات التُهمة على أنّهم هم من بدأ الفتنة (2).

أبقى السلطان قلاوون خططه في طيّ الكتمان. وبينما كان يعبّئ الجيش المصري، صدرت الأوامر إلى الجيش السوري بقيادة ركن الدين طقسو Rukn al-Din Toqsu نائب دمشق، بالسير إلى ساحل فلسطين، قرب قيساريّة، وبإعداد أدوات الحصار، وتردّد الخبر بأنّ الحملة تقصد جهة في إفريقية(3). على أنّ أحد أمراء المماليك وهو فخر الدين بكتاش أنذر الداوية بنوايا السلطان الحقيقيّة، فأذاعوا الخبر في عكا، ولكنّ ما من أحد من سكانها أراد التصديق، في انتظار القدر المحتوم (4).

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 238; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.594; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 748- 749; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, pp. 83- 84.

وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 216 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 689هـ، ص 270.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 239- 240; Runciman(Sir Steven), The crusader States., p.594; Grousset(René), Histoire des croisades., 1936, T. III, p. 749; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, p. 84.

وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 216 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، ج42، أحداث سنة 689هـ، ص 270.

(3) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 240; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.595; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 749.

وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 216.

(4) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 240; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 749- 750.

**9- وفاة السلطان قلاوون سنة 1290م وقيام الأشرف خليل:**

ازداد ارتياح سكان عكا في نهاية السنة، حينما وردت الانباء من القاهرة بأنّ قلاوون قضى نحبه، فقد كان قد تخلّى أخيرا عن محاولة إخفاء ما نواه من الزحف على عكا، إذ أنّه في رسالته إلى ملك أرمينية أشار إلى أنّه أقسم بألا يترك في المدينة مسيحيا على قيد الحياة، وخرج في 4 نوفمبر سنة 1290م من القاهرة على رأس جيشه، فلم يكد يشرع في المسير حتّى خرّ مريضا، ولم تنقضي ستّة أيّام حتّى مات شهيدا بمرضه في مرجة الطين يوم 10 نوفمبر، على مسافة خمسة أميال من عاصمته، بعد أن استأمن إبنه الأشرف خليل على العرش ومواصل الحملة بالجهاد والفتح(1)، وعقب وفاة السلطان لاحت مؤامرة بالبلاط، إلاّ أنّ الأشرف لم يُؤخذ على غرّة، فقد استطاع أن يلقي القبض، يوم الجمعة 12 ذي القعدة 689هـ، على الأمير طرنطاي الذي كان على رأسها، ثمّ قتله في الشهر نفسه، فوطد مركزه على العرش، في حين انقضى من السنة ما يجعل الوقت متأخّرا للزحف على عكا، فتأجّلت الحملة إلى الربيع(2).

وفي شهر محرم سنة 690هـ قدمت رسل حكومة عكا إلى القاهرة يسألون العفو، وعلى رأسهم أحد أعيان وفرسان الصليبيين في عكا اسمه فيليبماينبيف Philippe Mainebeuf، الذي يعتبر من الثقاة في دراسة اللغة العربيّة. وصحبه إلى القاهرة فارس من الداوية، بارثولوميو بيزان Barthélemy Pizan، وهو ذات أصول صقيليّة، وآخر من الاسبتاريّة، وكاتب اسمه جورج. ورفض السلطان الملك الاشرف خليل أن يلقاهم ولم يقبل اعتذارهم، ثمّ أودعوا السجن حيث لم يبقوا طويلا على قيد الحياة(3).

شرع الجيش الإسلامي في التحرك سنة 690هـ/مارس 1291م، يحمل آلات الحصار من جميع ممتلكاته، وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماه من الثقل ما جعله يستغرق شهرا،

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 240- 241; Runciman(Sir Steven), The crusader States., p.595; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 750.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 217 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 33 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة689هـ، ص 270.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 241; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.595; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 750.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 218- 219 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 34 .

(3) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 241- 243; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.595; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 750.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 222.

تعرّض فيه لطقس ممطر، وخاض تربة تراكم فيها الطين، للمسير من حصن الأكراد حيث توقّف فترة من الزمن لينقل عرّادة ضخمة اسمها المنصورة، إلى عكا، وما يقارب من مائة من الآلات الأخرى، تمّ تشييدها في دمشق ومصر، وكان مع الجيش أيضا عرّادة كبيرة أخرى اسمها الغاضبة، ومناجيق اشتهرت بالثيران السوداء، كانت أخفّ وزنا، ولكنها من طراز بالغ القوّة والتأثير. وفي 6 مارس سنة 1291م غادر الأشرف القاهرة قاصدا دمشق، حيث أودع حريمه وعياله. ثمّ وصل أمام عكا، في 4ربيع الثاني/ 5 أبريل، بكلّ قواته الكثيفة، وتحدّث الناس أنّ جيشه تألّف من ستين ألف فارس، ومائة وستين ألف راجل، ومع أنّ هذه الأرقام لا تخلو من مبالغة، فإنّ جيشه فاق كلّ ما استطاع المسيحيون أن يحشدوه من القوّات(1).

**10- الدفاع عن عكا سنة 690هـ/1291م :**

كان لسقوط طرابلس سنة 688هـ/1289م في يدي المماليك المصرية كافية لإزعاج بقايا وشتاة الصليبيين في المنطقة، وأدركوا أنّ الدور عليهم عن قريب، فبادرت عكا بتجديد الهدنة مع المماليك لمدة عشر سنوات وتبعتها قبرص وأرمينيا وصور، وأرسلوا إلى أوروبا طالبين النجدة التي وصلتهم سنة 1290م، ولكن هذه الجحافل تورّطت في مذبحة المسلمين في عكا نهاية شهر أغسطس 689هـ/1290م فقرر السلطان قلاوون النية في غزو واسترداد هذه المدينة لكنّ المنيّة حالت دون ذلك(2)، ولمّا وصلت أنباء استعدادات السلطان، الأشرف خليل بن قلاوون، إلى سكان عكا وجهوا استغاثات عاجلة إلى أوربا أثناء فصل الشتاء، غير أنّها لم تؤد إلا إلى نتيجة ضئيلة، فقد وصل في الخريف السابق جماعة قليلة من الفرسان، جاءوا متفرّقين، ومن بينهم كان أوتو جراندسن Otto of Grandison السويسري، في جماعة من الانجليز أرسلهم إدوارد الأوّل ملك انجلترا، وحشد الداوية والاسبتاريّة كلّ من في متناول أيديهم من رجالهم، أمّا مقدّم طائفة فرسان التيتون، بورشارد Burkhard de Schwanden، فقد ترك

---

(1) أنظر : Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.595; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 751.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 223؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص34؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 8، ص 4- 5؛ المنصور، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 278.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 238; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.594; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 748- 749; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, pp. 83- 84.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 216 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار: زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 689هـ، ص 270 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 337.

أثرا سيّئا بأن اختار هذه اللحظة الحرجة ليستقيل من منصبه، فخلفه في تقدم التيتون كنراد فويختفانجن Conrad of Feuchtwangen والذي استدعى من أوربا جماعة من رفاقه، وأرسل هنري ملك قبرص عساكره القبارصة، وعهد إلى أخيه أملريك Amalric بأن يتولّى قيادة الدفاع عن عكا، ووعد بإرسال المدد على أثرهم، وتقرّر تجنيد كلّ قادر على حمل السلاح من سكان عكا ليقوم بدوره في الدفاع، ومع ذلك فإنّ الأعداد كانت قليلة، إذ أنّ كلّ سكان عكا من المدنيين، يتراوح عددهم بين ثلاثين ألف وأربعين ألف نسمة فقط، يضاف إلى ذلك أنّه كان بعكا نحوا من ألف فارس، وإثني عشرة ألف إلى أربعة عشر ألف راجل(1). وتقرّرت الخطة بأن يتولّى الدفاع عساكر الملك هنري الثاني بقيادة أخيه أملريك، وعن يمينه اتخذ مواقعهم الفرسان الفرنسيون والانجليز بقيادة يوحنا جرايللي، وأوتو جراندسن، ثمّ تليهم قوات البنادقة والبيازنة، فضلا عن جند قومون عكا، وعلى يسار أملريك أقامت الاسبتاريّة على أسوار مونتموسارت، ثمّ يليهم الداوية، ويتولّى مقدّم كل منها قيادة طائفته، أمّا الفرسان التيتون فعزّزوا الكتيبة الملكيّة عند البرج الملعون. ومن جانب المسلمين اتخذ جيش حماه، الذي كان المؤرّخ أبو الفداء ضمنه ومن المجاهدين وأميرا لعشرة، موضعه عند البحر تجاه الداوية، وامتدّ الجيش المصري من نهاية سور مونتموسارت حتّى خليج عكا، وجرى نصب خيمة السلطان على مسافة ليست بعيدة من شاطئ البحر قبالة برج المندوب البابوي(2).

بدأ حصار مدينة عكا في690هـ/5- 6 أبريل 1291م، وبعد ستة أيّام بدأت منجنيقات السلطان تقصفها يوميا بالأحجار الضخمة، والقدور المليئة بالمتفجّرات، بينما تجهّز مهندسوه لنقب مواضع الضعف فيأسوارها، ويبدو أنّ كثيرا من رجال الصليبيين الذين يصلحون للقتال فروا مع أوّل فرصة ظهرت لهم، في شحنات النساء والشيوخ والأطفال الذين صرفتهم السفن إلى قبرص، عند بدء الحصار، بل من التجار الإيطاليّين من كان همّه الوحيد هو الحفاظ على أمتعته، والواقع أنّ الجنويّة لم يشتركوا في القتال ذلك أنّه سبق للبنادقة أن طردوهم من عكا

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 241; Runciman(Sir Steven), The crusader states., pp.595- 596; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 752.
وانظر أيضا : ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 8، ص 5 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 278- 279 ؛ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1292م)، ص 339.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 243; Runciman(Sir Steven), The crusader states, p. 596; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 752- 753.
وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص34.

فعقدت جنوة معاهدة مع السلطان، وبينما استبسل البنادقة والبيازنة في القتال، كانت المؤن ترد عليهم بانتظام من قبرص القريبة، غير أنّهم افتقروا إلى الاسلحة، وأخذوا يدركون أنّه لا طاقة لهم إزاء الأعداد الضخمة التي تُقابلهم. وفي ليلة 15 أبريل سنة 690هـ/1291م، وبينما القمر يتلألأ في كبد السماء، قام الداوية، برئاسة غليوم البوجوي Guillaume de Beaujeu يساندهم أوتو جراندسن، بشنّ هجوم مباشر على معسكر جيش حماه، فأخذوا المسلمين على غرّة، غير أنّ عددا كبيرا من الداوية وقعوا في الأسر، وارتدّ الآخرون على أعقابهم إلى داخل المدينة بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة. وما قام به الاسبتاريّة من هجوم بعد بضعة ليال في الظلام الدامس لم يلق إلاّ الفشل الذريع، نظرا لأنّ المسلمين بادروا على الفور، فأوقدوا المشاعل، وأشعلوا النيران. وقد تبيّن بعد الهزيمة الثانية أنّ الهجومين كلّف الصليبيين ضحايا ضخمة، من قوتهم البشريّة، وتولّد بينهم شعور اليأس. وفي 4 مايو سنة 1291م، أي بعد مضي نحو شهر من بدأ الحصار، وصل الملك هنري الثاني قادما من قبرص بكلّ ما استطاع أن يحشده من العساكر، الذين لم يتجاوز عددهم مائتي فارس وحمسمائة راجل(*)، أقلّتهم أربعون سفينة، ورافق الملك، رئيس أساقفة نيقوسيا يوحنّا توركو انكونا John Turco ، فلم يكد يهبط إلى الارض حتى تولّى القيادة، إلاّ أنّه لم يلبث أن اتضح له عجزه عن دفع المسلمين(1).

ولما تيقّن الملك هنري أن لاجدوى من المقاومة، أنفذ فارسين من الداوية، وهما : الفارس وليم كافران Guillaume de Cafran، والفارس الداوية وليم فيلييه Guillaume de Villiers، إلى السلطان، في حركة سياسيّة للتفاوض وكسب الوقت لعله تصل أثناء ذلك نجدات من أوربا، ويعدان بإنصاف كلّ شكوى، فاستقبلهما السلطان الأشرف خارج خيمته، غير أنّه قبل أن يسلماه رسالتهما، سألهما في إيجاز ما إذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة. فلمّا أنكرا، قال لهما أنّ ذلك هو الموضع الذي يطلبه، ولا يهمه مصير سكان المدينة، غير انّه تقديرا منه لشجاعة الملك بقدومه للقتال، وهو لا زال حدثا، فضلا عن مرضه، سوف يبقي على حياتهم إذا استسلموا له، ولم يكد الرسولان يجابان بأنّهما سوف يعتبران خائنين إذا وعدا بالاذعان، حتّى قذفت

---

(*) وخلافا للعدد الذي ذكره جروسي Grousset(René)، يذكر رانسيمان Runciman(Sir Steven) أنّ عددهم كان مائة فارس وألفي راجل.

أنظر : Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 596.

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 243- 246; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 596; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 751, 754- 755.

وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 223؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص35؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 8، ص 5.

عرادة، الخيانة، من الأسوار حجرا سقط قرب الجماعة في محاولة لاغتيال السلطان، غير مبالين بمصير مبعوثيهم، فاستشاط الأشرف غضبا، وسلّ سيفه ليقتل الرسولين، ولكن الأمير الشجاعي منعه من ذلك، بأن قال لا يصح أن تدنّس سيفك بدماء الخنازير، ثمّ سمح للفارسين بالعودة إلى ملكهما(1).

وفي يوم 8 مايو سنة 1291م، قرّر رجال الملك أنّ البرج الذي أقامه الملك هيو لم يعد قادرا على الصمود، فأشعلوا النار به وتركوه ينهار، وفي خلال الأسبوع التالي، أسقط المماليك المسلمون أبراج أخرى، بينما ظلّ البرج الجديد المعروف باسم برج هيو الثالث، يقاوم حتّى 15 مايو، حين انهار شطر من سوره الخارجي. وفي صبيحة اليوم التالي شقّ المماليك طريقهم إلى داخل الخرائب، وأجبروا المدافعين على التقهقر إلى الخط الداخلي من الأسوار، وفي صبيحة يوم الجمعة 18 مايو سنة 1291م أصدر السلطان الأمر بشن الهجوم العام، واندفعت كتائب العسكر، الواحدة تلوى الأخرى بقيادة أمراء يلبسون عمائم بيضاء لمهاجمة استحكامات المدينة، ولم يمض وقت طويل حتّى اجتاز المسلمون الأسوار المنهارة واستقرّوا بداخل المدينة(2).

شهدت شوارع عكا قتالا شديدا، وتعرّض مقدّم الداوية، ويليم بوجيه Guillaume de Beaujeu، لإصابة قاتلة عند قيامه بهجوم معاكس غير مثمر، فحمله أتباعه إلى دار الداوية حيث قضى نحبه، أمّا الملك هنري الثاني وأخوه أملريك فقد أبحرا فارين إلى قبرص، ثمّ حشد أوتو جراندس Otto of Grandisone ما استطاع من سفن البنادقة ونقل إليها يوحنا جرايلي الجريح وسائر من استطاع أن ينقذهم من العساكر، وشاعت الفوضى على أرصفة الميناء (3)، وفي ليلة 18 مايو 1291م أضحت كلّ مدينة عكا في قبضة السلطان، فيما عدا دار الداوية الضخمة البارزة في داخل البحر، في الجهة الشماليّة الغربيّة، وهي التي لجأ إليها من بقي على قيد الحياة من الداوية والسكان(4)، وفي 19 مايو، وبعد أن أصبح معظم عكا في يدي السلطان

---

(1) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 246- 247; Runciman(Sir Steven), The crusader States., pp. 596- 597; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 755.

(2) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 247- 249; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 597; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 756.

(3) أنظر : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 249; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 597; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 756.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 223؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص35؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 8، ص 5.

(4) أنظر : Runciman(Sir Steven), The crusader states., pp. 597- 598.

الأشرف، أرسل جيشا إلى صور، ثمّ صيدا التي سقطت أواخر شهر جوان 1291م، ثم إلى بيروت فكان دورها في الرجوع إلى بيت الإسلام يوم 31 جويليا 1291م، ثمّ إلى حيفا(1).

والعجب أنّ الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكّا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنجة فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة في الساعة الثالثة من النهار، وأمّنوا من كان بها من المسلمين ثمّ قتلوهم غدرا، وقدّر الله تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرّة في يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأوّل، جمادى الآخر عند أبي الفدا، وأمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم(2)، وظلّت جيوش السلطان تسيح ببلاد الساحل من أقصاه إلى أقصاه بضعة شهور، تدمّر كل ذي قيمة للفرنج الذين كانوا قد حاولوا مرّة أخرى النزول إلى البر، فتقرّر اجتثاث أشجار الحدائق، وتعطيل أدوات الري، ولم تسلم القلاع من التدمير، سوى تلك التي تقع في ظهير الساحل، أمثال جبل الحاج في طرابلس، والمرقب الرابض بأعلى الجبل بطرابلس(3).

**11- سفارة أرغون خان الرابعة برئاسة بوسكاريل جيزولف Buscarel de Gisolf مرّة ثانية إلى أوربا وباباها عام(1290 – 1291م) :**

على الرغم من أنّ سفارة الجونوي "بوسكاريل جيزولف" لم تبشّر بتعاون قريب مثمر وفعّال، إلاّ أن أرغون خان أرسل مرة أخرى اثنين من المغول المسيحيين هما أندري شاكان أو زاكان André Chagan ou Zagan وسهادين أو سبادين Sabadin ليلتحقا ببوسكاريل، الذي كان قد بقي في روما على الأغلب ولم يرجع إلى أرغون، ما يدُلُّ عن حرج وشدة الضعف التي آلت إليه دولة الإلخانات في فارس، ومدى خوفها من هزائم جديدة مُقبلة أمام دولة مصر والشام المملوكيّة، فقد أصاب دولتهم تلك الوهن على إثر النزاعات الداخليّة والحروب الطويلة بينها وبين جيرانهم مغول القبجاق، وفي غياب أية وثائق لسفارة أرغون الرابعة، فإنّه يُعتقد أن هذه البعثة ذهبت إلى الغرب خصّيصا للتحقّق من نيّة الأوربيين وجديّة وصول جيوشهم في

---

(1) أنظر : Runciman(Sir Steven), The crusader states., p. 598.
وانظر أيضا : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص35؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 224.

(2) أنظر : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص35؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 8، ص 7 ؛ المنصور، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 280.

(3) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق،المجلد3، القسم 2، ص 713.

المواعيد والأماكن المحددة من قبل، وقد وُجّهت هذه الرسائل إلى البابا وإلى ملك إنجلترا وربّما أيضا إلى ملك فرنسا رغم أنّه لا أثر عند المؤرخين الأوربيين المعاصرين لتعريج البعثة على باريس، فتوجهوا ثلاثتهم أول الأمر إلى روما حيث استقبلهم البابا نيقولا الرابع في ذي الحجّة 689هـ/ديسمبر 1290م فاطلع على الرسائل الموجهة إليه، وتزامن مع ذلك وصول البابا أنباء المذبحة التي ارتكبها الصليبيون والمرتزقة الايطاليون في عكا شهر أوت 689هـ/1290م، فقد اعتدوا على التجار المسلمين وقتلوا كل من قابلوه من المسلمين أو يرتدي زيهم في شوارع عكا، فأقسم السلطان قلاوون على الانتقام من صليبيي عكا، ولهذا وصلت الأنباء إلى البلاط البابوي لطلب النجدة العاجلة، ثم استأنفت البعثة طريقها إلى ملك انجلترا إدوارد الأوّل، برسالة مشابهة في المضمون موجهة إليه من قبل الخان، بعد أن تزوّدوا برسائل بابوية عاجلة إلى الملك الانجليزي مؤرّخة في 2 و31 ديسمبر 1290م، ويبدوا أنّ البابا اعتبر الملك الإنجليزي إدوارد يفوق فيليب ملك فرنسا في الميل إلى الحرب الصليبيّة، ومهما يكن فإنّ سفراء المغول وصلوا إلى الملك الانجليزي في زمن مبكّر من سنة 1291م، غير أنّ الأخير كان لا يزال منغمسا في مشاكله الداخلية باسكتلندا ومنهمكا في الاستيلاء عليها، بعد وفات ملكتها مرجريت في السنة السابقة، فلم يكن لإدوارد الأول ما يمكنه قوله لسفراء أرغون إلاّ، ربما، إخبارهم شفويا أنه سيخطر ملكهم فيما بعد بموعد توجّهه إلى الشرق، وكذلك فعل البابا نيقولا الرابع لأنه لم يرد كتابه على الخان أرغون إلا في أواخر أوت سنة 1291م، أي في يومي 21 و23 أوت 1291م، فعاد الرسل الثلاثة إلى البابا في روما مرة ثانية في طريق عودتهم إلى بلدهم، ليُبلغاه عن فشل السفارة إلى ملك إنجلترا، وقد اشتد الضيق بهم، فمكثوا بها فصل الصيف، لكن هيهات لأنّ الوقت كان قد فات عندئذ، إذ أنّ مصير الشرق الفرنجي كان قد تقرّر، كما أنّ سيدهم الإيلخان أرغون كان قد مات يوم 7 ربيع الأوّل 690هـ/10 مارس 1291م(*)، أي قبل خمسة أشهر من

(*)مرض أرغون في أواخر حياته وتوفي في 6 ربيع الأوّل 690هـ/9 مارس 1291م، في ما يذكر عباس إقبال، أي بعد مقتل وزير دولته اليهودي سعد الدولة بأيّام. و تجري الرواية بأنه أحبّ دين البراهمة، وعبادة الأصنام وانتحال السحر، فوفد عليه بعض سحرة الهند فركبوا له دواء لحفظ صحّته وإطالة عمره، ما تسبّب في اشتداد مرضه وإصابته بالفالج ثُمّ وفاته، أو أنّه أصابه منه صرع، فمات.

أنظر : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص454 ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص364 ؛ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد: العبر في ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2001م، ج5، ص617.

و قارن بابن كثير الذي يذكر أنّه مات من شراب مسموم، وأنّ المغول اتهموا سعد الدولة بقتله.

أنظر : ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 17، ص 640.

كتابة الردّ البابوي المذكور آنفا(1).

ولا نعرف على وجه التحديد المدّة التي مكثتها البعثة في إنجلترا، إلاّ أنّه من المؤكّد أنّه قد طال بها المقام في غرب أوربا، وربّما يرجع ذلك إلى أملهم في ردّة فعل إيجابيّة من قبل ملوك أوربا، بشنّ حملة صليبيّة تجاه الشرق، على ما وصلهم من خبر سقوط عكا في 4 مارس 1291م، وما أحدثته من استنكار وغضب في الأوساط الأوربية، ومهما يكن فإنّ البعثة المغوليّة لم تغادر روما الإيطاليّة قبل نهاية شهر أوت 1291م ويدلّ عليه ردّ البابا لأرغون المؤرّخة في شعبان 690هـ/21 أوت 1291م ويحملها راهبان فرنسيسكانيان أوربيّان هما غليوم دي شيريو Guillaume de Cherio وماتيو دي سيفيتات ثياتينا Mathieu de civitate Theatina على أثر سقوط عكا في أيدي المماليك، فأعلمه بأن إدوارد الأول، ملك إنكلترا، على استعداد الآن لركوب البحر إلى الشرق، و توَسَّلَ إليه أن يستعيد عكا (2)، ولكن هيهات أن يكون ذلك فقد خارت عزائم الملك الإنكليزي عندما سمع بهذه الأنباء، واستمرّ في التركيز على مشكلاته الداخليّة وبخاصّة الحرب ضدّ أسكتلندا، كما أنّ الوضع السياسي في إيلخانيّة إيران كان قد تغيّر.

وكان من حركة الملك الأرميني هيثوم الثاني Hethoum II، الذي خلف أباه ليون الثالث Léon III على العرش سنة 1289م، أن أرسل، بعد سقوط عكا في 1291م، إلى البابا نيكولاس الرابع وإلى أهم ملوك الغرب الأوربي يترجّاهم في غوثه وما يمكن إنجاده من ممتلكات الصليبيين في الشرق، ولكن ندائاته لم تجد أي استجابة، وبعد أربعة سنوات من الحكم ترك هيثوم الثاني العرش لأخيه ثوروس ودخل هو في حياة الرهبنة في دير الفرنسيسكان واتخذ اسم يوحنا Jean، ليرجع فيما بعد إلى الحكم سنة 1295م(3).

---

(1)أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 614 note 1, 617- 619; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 76- 77; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 353; Sinor(Denis), op, cit., p. 534; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, pp. 84- 85 , 90; Gestes des Chiprois, op. cit., p. 238; Runciman(Sir Steven), The crusader states., p.594; Runciman (Steven), A History of crusades, T. III, p. 401; Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 727, 748- 749.

وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 216 ؛ الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص162.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 618- 620; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 353- 354.

(3) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 162-163.

وفيما يتعلق بخطابي البابا الموجّهين إلى الملك الإنجليزي فأوّلهما يبلغ البابا فيه الأخير بأن سفراء أرغون وهم أندري شاكان أو (زاكان) وسهادين أو (سبادين) وبوسكاريل قد وصلوا إليه بخطابات الإيلخان أرغون، ويوصيه بحسن استقبالهم والإستماع لمقترحات الخان أرغون والرد عليها، ثمّ يختم خطابه بقوله "ونحن قاصدون إيفاد رسول خاص إلى الملك المذكور مع المندوبين أنفسهم لدى عودتهم إلينا"(1).

أما الخطاب الثاني المؤرخ في 31 ديسمبر 1290م، أي بعد شهر واحد من الخطاب السابق فيعتبر نسخة مكررة من الخطاب الأول عدا أسماء سفراء أرغون، ففي هذا الخطاب، يقابل نيقولا الرابع سفيرا جديدا لأرغون وهو Saabedin Archoon للملك الإنجليزي، ويطلب منه "أن تحسنوا استقباله إكراما للكرسي الرسولي ... وتنظر حالا بتلبية طلبه لمجد الرب والمسيحية وفخرا لجلالتكم الملكية"(2).

ومهما يكن من أمر فإنّه لا يخفى على ذي بال أنّه كل ما كان يأمله أرغون من التحالف مع الصليبيّين شرقا وغربا ووصول قوّاتهم، هو محاولة الإبقاء على بقايا الإمارات الصليبيّة في المنطقة، ولو مؤقّة، وسحق قوّة المماليك وضمّ بلادهم إلى إيلخانيّة إيران، ولو كتب لهذه الأمنيات التحقيق، وأخلص الغرب الأوربي في إنجازها، فإنّه يكاد يكون من المحقق أن يطول أمد الوجود الصليبي في الشرق الأدنى، وأن يُقضى على قوّة المماليك أو يتمّ تدمير دولتهم، وأن يكون لإيلخانيّة إيران صداقة مُصطنعة للنصرى وللغرب، على أنّ ما حدث فعلاً هو أنّ دولة المماليك ظلّت قائمة نحو ثلاثة قرون وتحوّل مغول إيران إلى الإسلام بعد حوالي أربعة أعوام على وفاة أرغون، لذلك كان على العلاقات المغوليّة – الأوروبيّة أن تتّخذ مسارًا جديدًا بعد عام 690ه/1291م على ضوء التطورات السياسيّة الجديدة، ومن جانب آخر فإنّ أرغون لم يبقى مكتوف الأيدي ينتظر وصول قوّات أوربا، بل اهتدى إلى محاصرة المماليك اقتصاديا من البحر الأحمر وذلك بضرب سفنهم التجارية من المحيط الهندي إلى طريق البحر الأحمر، فطبقا للحولية السريانية لابن العبري تحت حوادث عام 1290م أنّ : " حوالي مائتين من الفرنجة

---

(1) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 617; Turner (H. Hudson), op. cit., vol. VIII, p. 48; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 352.

(2) أنظر : Chabot(J.b.), op. cit., p. 618.

جاؤا عبر نهر دجلة إلى الموصل بأوامر من ملك الملوك (أرغون)، كما لو كانوا ذاهبين إلى بابل (بغداد)، لبناء سفن هناك لكي يذهبوا إلى بحر بونت (البحر الأحمر) ليهاجموا المصريين، وبعضًا آخر من الفرنجة، حوالي سبعمائة رجل، ذهبوا عن طريق البر ومكثوا في بغداد طوال فصل الشتاء حتى تكتمل خطتهم ..."(1).

وينقل المؤرخ الفرنسي جون ريشارد J. Richard عن روايتين لراهبين كانا حينئذ في بغداد قول الأول، وهو يوحنا دي وينترثور Jean de Winterthur، أن هؤلاء "الفرنجة" كانوا جنوية، وكان عددهم تسع مائة بحّارا، وأنهم قضوا الشتاء فعلا في بغداد وقاموا ببناء سفينتين، وأن أحد الجنوية استخدم واحدة منها في تدمير أحد المساجد في بغداد مما سبب استنكارا لعامة المسلمين بالمدينة، ويروي ريتشاد عن الثاني، وهو الدمنيكاني غليوم أدم Guillaume Adam، أن البحارة الجنوبية ساروا بالسفن حتى ميناء البصرة، ولكنهم انقسموا إلى فريقين متنازعين، وأن الفريقين اقتتلا(2)، وهكذا فشل مشروع الحصار التجاري على المصريين وضرب تجارة المماليك في المحيط الهندي، وذلك راجع إمّا بسبب القائمين على تنفيذه من الجنوبية أنفسهم أو لأن المشروع أكبر من إمكانيات مغول فارس والجنوية معا، إذ ماذا يفعل مركبين في الخليج العربي أمام المماليك الذين كانت لهم السيطرة الكاملة على موانئ البحر الأحمر؟ خاصة وأن التجار المسلمين كانوا القوة الضاربة في المحيط الهندي من ميناء الزيتون بالصين شرقا حتى ميناء عدن غربا.

ورغم تلك الانتكاسة الجنويّة إلاّ أنّ تلك الحركة تركت انطباعا حسنا على كلّ اللاتين الذين كانوا يرتادون تلك السواحل التي كانت تموّن دولة المماليك المصريّة ومن يتبع لها، وقد كتب الدومنيكاني الفرنسي (ت. 1330م) جوردان يد سيفيراك Jourdain de Sèverac في سنة 1324م قائلا :"لو أعدّ البابا وهيّئ سفينتان لذلك البحر الأحمر لكانت كارثة تحلّ قريبا بسلطان مصر، ولكن من يُخبر البابا بذلك"(3)، ويقصد الحصار الاقتصادي على المماليك.

---

(1) أنظر : Bar-Hebraei (Gregorii), Chronicon Syriacum, pp. 618- 620 ; Richard(Jean), European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th-15 th Centruries), iran Journal of Persian Studies, 1968, vol. 6, p. 49 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 333 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 34- 36 note 1.

(2) أنظر : Richard(Jean), European Voyages in., vol. 6, p. 49.

(3) أنظر : Loc. cit.

والحقيقة أنّ فكرة عزل المماليك اقتصاديا لم تكون وليدة جوردان يد سيفيراك، ولكن سبقه إلى ذلك غليوم أدم Guillaume Adam بمشروعه المُحكم للحصار، وفكّر في جعل قرار البابويّة سنة 1291م، القاضي بمقاطعة الموانئ المصريّة، عمليا وأكثر جدية، فرغم خطر الحرمان الكنسي إلاّ أنّ العديد من التجار الأوربيين كانوا يضربون عرض الحائط بقانون المقاطعة، فبينما كان تموين مصر بالمواد الأوّليّة والطرق التجاريّة منها وإليها كانت تمرّ أساسا عن طريق البحر الأحمر وخليج عدن فقد فكّر غليوم أدم أنّه بالإمكان حراصة وإغلاق هذين المنفذين بثلاثة أو أربعة سفن وألفا ومائتي بحّار جنوي، خاصة، لكفاءتهم وحرصهم على الكسب المادي، وبهذه الطريقة يكون سهلا عليهم الإستحواذ على تجارة الآلاف من المسلمين والهنود في المنطقة والتعامل معهم مباشرة، ويعني ذلك قطع الطريق أمام التجارة المصريّة، ومن جهة أخرى كانت السواحل الهنديّة وجزر المحيط الهمدي مليئة بالقراصنة أعداء المسلمين، ولا بدّ لجهود هؤلاء في عدن والمدن الساحليّة الأخرى أن تُثمر، إذ من الممكن أن يجتمع لهؤلاء القراصنة أربعون أو خمسون سفينة تحمل كلّ واحدة منها خمس مائة أو ست مائة رجل، وقد نصح غليوم أدم أيضا احتلال الجزر المحاذية للسواحل العربيّة لتسهيل غلق خليج عدن(1).

وبالرغم من أنّ المشروع كان واعدا وخطيرا إلاّ أنّه لم يُكتب له التجسيد، لأنّه بموت الإيلخان أولجايتو سنة 1316م، توطّدت العلاقات بين إيلخانيّة فارس والمماليك المصريّة، وبعد 1330م نُسجت علاقات ديبلوماسيّة بين البابويّة والمماليك، أمّا البحارة الجنويّة فقد انصرفوا إلى فضائات أخرى من أشغالهم(2).

وفيما يتعلّق بردّ البابا على بعثة أرغون فإنّه كان قد قرر، وقبل أن تصله أخبار سقوط عكا، توجيه بعثة لحكام غرب أسيا عامة مثل جورجيا وأرمينيا الصغرى وبيزنطة ولمغول فارس خاصة، للتبشير بالدين المسيحي ودعوتهم للانضواء تحت لواء البابوية، وقد تميّزت خطابات البابا المؤرّخة في يوم 21 أوت 1291م لهؤلاء الحكام باحتوائها على مواضيع عقدية وخالية تماما من أيّ نيّة صادقة في تحالف مشترك ضد المماليك، إذ يحضّ البابا الإيلخان، كما فعل في خطاباته الأولى إليه، بالاسراع في اعتناق المسيحيّة، لأنّها على حدّ قول البابا " ... فخرا لكم

(1) أنظر : Richard(Jean), European Voyages in., vol. 6, pp. 49- 50.
(2) أنظر : Richard(Jean), op. cit., p. 50.

وازدهارا لمملكتكم وانتشارا لاسمكم في الأمّة المسيحيّة... "، وأن يُبدي استعدادا أكبر في التعميد، بما أنّه سبق له تعميد ابنه وسمّاه نيكولاس Nicolas، ويختم رسالته راجيا من الخان أن يعتني ويحمي جميع المسيحيين في مملكته وخاصّة مبعوثيه الفرنسيسكانيان متيو دي سيفيتات ثياتينا Mathieu de civitate Theatina وغليوم دي شيريو Guillaume de cherio، ويبدو من رسالة البابا نيكولاس الرابع الأولى هذه أنّه لايُعوّل كثيرا على مساهمة ملك إنجلترا في تحالف مع المغول بقدر ما هو حريص على جلب الخان إلى براثن المسيحيّة (1)، ويذكر المؤرّخ أبال ريموزا Abel Remusat أنّه لو كُتب التحقيق لهذه الحملة المهمّة لكان ممكنا جدا استرداد بيت المقدس، وأنّ تنصّر المغول والعلاقات المتميّزة التي تتوَلّد على أثره، بعد كل تلك الحملات الصليبيّة، يكون الحدث الأهم لحملات أوربا وراء البحار، ولكن ولسوء الحظ كان المغول متردّدين بين المسيحيّة والإسلام علاوة على أنّ معظم رعاياهم من مسلمين وكان من الظرووي للسياسة المغوليّة مهادنتهم، ويبدو بعد كل هذا العرض أنّه من العسير تحويل إلخانية إيران إلى المسيحيّة(2).

ويبدو أن البابا كان يأمل عبثا من الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل توجيه حملة صليبيّة إلى بلاد الشام تنطلق يوم 24 جوان 1293م، بينما أعدّ، في انتظار ذلك، سفيريه متى دي سيفيتات ثياتينا Mathieu de civitate Theatina وغليوم دي شيريو Guillaume de cherio باثني عشر خطابا لأرغون خان وقادته، مؤرّخة في 21 أوت 1291م، في بعثة تبشيرية الغرض منها تحويلهم إلى المسيحية، في حين كان الأسوء ينتظر الصليبيين في بلاد الشام، أمّا أنباء سقوط عكا فلم تصل البابا إلا في يوم 23 أوت أي بعد يومين فقط من كتابة خطابه لأرغون، فلمّا وصلته أنباء عكا سارع بكتابة خطاب آخر إلى الإيلخان يوم 23 أوت 1291م، دون أن يعلم فيما يبدو أنّ أرغون كان قد توفي يوم (8- 9) مارس 1291م، وأمر سفيره

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 353; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 619- 620 ; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West, History Today, XXIII, 8, 1973, p. 561.

(2) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 123; Chabot(J.b.), op. cit.,pp. 620- 621.

بالذهاب الى تبريز على الفور دون المرور على بيزنطية أو أرمنية كما كان مقررا من قبل، وجاء في سطور هذه الرسالة :

" ...لا شك أنه قد بلغ مسامعكم عن طريق الرسائل والمندوبين ما جرى للأماكن المقدسة الربانية من سقوط في أيد غريبة، وقد سقطت أيضا مدينة عكا بالرغم من الجهود التي بذلتها كنيسة روما، كأم، كي تصدم ريثما تصلها النجدة من سفن وأموال ومحاربين بناء على طلبها، إلا أن هذه المدينة الحصينة، بعد حصار طويل مرير ليل نهار، وإحاطة الآلات الحربية بها ودكها لها بلا رحمة، وتوالي الهجمات عليها وعلى أسوارها، قد سقطت في يد العدو وأسلمت للنار ونكل بالنصارى الموجودين في داخلها شر تنكيل، والباقون اقتيدوا أسرى كما سمعنا وعندئذ ارتعشت مدينة صور خوفا واستسلمت حال، ولذلك نبهنا جميع الملوك والأمراء المسحيين أن يسرعوا لإزالة هذا العار، وقد هرع إدوارد الأول ملك أنجلترا واتخذ الصليب، وهو مستعد الآن لركوب البحر، ونحن واثقون كل الثقة أنكم إذا أديتم هذه القضية بذراعكم القوية سرعان ما ستجد الحل المنشود، ولذلك فإننا نرجو جلالتكم ونتوسل إليكم وندعوكم بثقة أخوية أن تتنصر خاشعا راضيا وتعمل بأوامره تعالى وتسرع إلى استعادة البلاد المذكورة، وتذل كبرياء أعدائها ومكرهم، وتستخدموا ما اعطيتم من قوة، وبما تحليتم به من عزم وحكمه وتتحرك مع شعبك وباقي ملوك النصارى لاستعادة تلك الأمطار. وسندعو الرب أن يكافئكم خير مكافأة، ونشكركم على ما تبدون من حسن معاملة للمسيحيين المقيمين في مملكتكم، كما نرجو أن تحسنوا استقبال مندوبينا متى دي سيفيتات ثياتينا Mathieu de civitate Theatina وغليوم دي شيريو Guillaume de cherio " (1).

وهكذا لم يقع أي قتال في عهد أرغون مع المماليك، ولم يتحقق أي تحالف مغولي مع الغرب، ربما كان ذلك راجعا لانشغال جيوشه في ميادين أخرى، بينما انصرفت أوروبا إلى المخاصمات والعداوات، فلم يجد أرغون خان استجابة من بابا وملوك الغرب، ولم يتعدى

---

(1) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p p. 126; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 621- 623; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 353- 354; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West, p. 561; Ryan(James Daniel), Nicolas IV and the evolution., Vol. 19, pp. 90-93; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., pp. 424- 425.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 131- 132.

الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها، رغم أنّ سفارة أرغون الأخيرة تزامنت بوضع جلل له وقع في أوربا بأكملها هو سقوط عكا، آخر البقايَا الصليبية الكبرى بالشام، في أيدي المماليك(1)، وكان ردّ البابا هذا هو الوحيدة على مقترحات أرغون، بعد سقوط آخر القلاع الصليبية في بلاد الشام، لكنّ الأخير لم يعمّر ليستقبل سفراء البابويّة إذا أنه مات في أوئل شهر مارس من ذلك العام، أي قبل كتابة الخطاب بستة أشهر، أمّا الملك إدوارد الأول المذكور في رسالة البابا فقد اضمحلّت عزائمه بعد سماعه أخبار عكّا ونهاية أرغون في حين بقي امتلاك اسكتلندا هي شغله الشاغل(2)، أما النتائج الحاصلة عن اتصال أرغون خان بالغرب المسيحي فإن من بينها انفتاح إيران للتبشير بالمسيحية لنشرها بين المغول وبذلك اطلعت أوربا على ثقافة وأسرار إيران بينما كان ذلك من المستحيلات زمن الخلافة العبّاسيّة.

ويقول المستشرق ستيفن رنسيمان أنّه لو كان تحالفا مع المغول قد تحقق، وأخلص الغرب في إنجازه، فإنّه كاد أن يكون من المحقق أن يطول أجل الشرق الفرنجي الصليبي، وأن يتجرّد المماليك من القوّة، أو يتمّ تدميرهم، وأن تعيش إيلخانيّة فارس دولة صديقة للمسيحيّة والغرب، على أنّ ما حدث فعلا، هو أنّ دولة المماليك المصريّة ظلّت قائمة ثلاثة قرون، وتحوّل مغول فارس إلى الاسلام، ولم يمض على وفاة أرغون إلا أربع سنوات. ولم يكن فرنج الشرق الأدنى وحدهم هم الذين ضاعوا بسبب أعمال الغرب، بل شاركهم في ذلك الجماهير التعيسة التي تنتمي إلى العالم المسيحي الشرقي، وهذا الإهمال يرجع أساسا إلى الحرب الصقليّة، التي نبعت من حقد البابويّة والغزو الفرنسي(3)، ولكنّ الحقيقة الماثلة أنّه تكن لدى الغزات المغول عبر تاريخهم المليئ بسفك الدماء أيّ نيّة في التخلي عن حكم العالم فكيف يكون لمن كانت هكذا نيّته أن يكون صادقا أو صديقا لمن هم دونه ؟

كانت وفاة أرغون خان في اليوم السادس من ربيع الأول سنة 690هـ/10 مارس 1291م اثر تناوله بعض العقاقير التي كان يتعاطاها بغرض إطالة عمره بعد أن حكم سبع سنوات، يقول الحافظ الذهبي في أحداث سنة 690هـ ما يلي : " وأرغون بن أبغا بن هولاوو ... هلك في هذا العام فيقال أنه سُمّ فاتهمت المغل وزيره سعد الدولة اليهودي بقتله. فمالوا على اليهود قتلا ونهبا

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, pp. 727.

(2) أنظر : Turner (H. Hudson), op. cit., vol. VIII, p. 49.

(3) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، المجلد3، القسم 2، ص679.

وسبيا"(1)، ويذكره المؤرّخ الباحث فؤاد عبد المعطي الصياد بقوله :

" - حاول أرغون التقرّب من القوى النصرانيّة الشرقيّة والغربيّة، إلاّ أنّه لم يتلق منهم سوى الوعود.

- كان أرغون منهمكًا في جمع المال و تكديسه، وهي غريزة اتصف بها، ورعاية العنصرين النصراني و اليهودي، والاشتغال بالكيمياء وغيرها.

- انقطع أرغون عن الاتصال بالعالم الخارجي، تاركًا الأمور تجري على هوى وزيره سعد الدولة اليهودي"(2).

**12- الطرق التجارية الخاضعة للمغول في ظل المنافسة المماليكية :**

كان لسياسة الامبراطورية المغولية، المغلّفة بالتسامح الديني، دورا هاما في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، فقد سمح هذا العنصر الدخيل، بفتح الطرق التجارية القديمة للجميع ولمن كانت محرّمة عليهم في عصر الخلافة الاسلامية، وقام بتأمين التجار وضمان سلامتهم وممتلكاتهم إبان وجودهم بين ظهرانيهم فترة سيطرتهم على معظم قارة آسيا في الفترة التي سميت بالسلام المغولي Pax Mongolica منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف الرابع عشر الميلادى(3).

على أنّ امتداد الامبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر، غيّر الطرق التجارية الأساسية القادمة من الشرق الأقصى، فلم يكد المغول يقتحمون جوف آسيا، حتّى شجّعوا التاجر على أن يسلك الطريق البري القادم من الصين، ويجتاز التركستان، ثمّ يمضي إمّا إلى شمال بحر قزوين باتجاه الموانئ الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، مثل كفا، وإمّا إلى جنوب بحر قزوين، ويخترق إيران إلى طرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، أو إلى إياس في مملكة قليقية بأرمينيا الصغرى، فانتعشت التجارة مع مواني البحر الأسود، التي كانت قد تأثرت بغزو السلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى، مرة أخرى بسبب إحياء طريق التجارة عبر

---

(1) الذهبي(شمس الدين الذهبي، ت748هـ) : العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، الكتب العلمية، بيروت، (1405هـ/1985م)، ج3، ص 372 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص36.

(2) الصيّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، ج1، ص 199، 200.

(3) أنظر : Labib(Sobhi), “Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area, “Recueils de la Société Jean Bodin pour l'Histoire Comparative des Institutions, XXXII, Première partie, Bruxelle, 1974, p. 231.

إيران وأذربيجان، خاصة وأن بلاد سلاجقة الروم وجورجيا الصغرى قد خضعوا لسلطة المغول أيضا، وقد جعل ما أقرّه المغول من الأمن والنظام التام في هذا الطريق أن تُفضل عن طريق البحر، عبر المحيط الهندي المليئ بالأخاطر (1)، وفي القرن الثاني عشر درجت السفن الصينية على أن تبحر من غرب سيلان إلى موانئ بلاد العرب، ولم يكن ثمّة من يدعوها وقتذاك إلى أن تتجاوز في سيرها الشاطئ الشرقي للهند (*)، وترتّب على استيلاء المغول على العراق أنّ جانبا من التجارة الهندية وصل إلي الغرب بحرا عن طربق الخليج العربي، كما أنّ شطرا منها اجتاز دمشق أو حلب إلى موانئ الفرنج على ساحل البحر المتوسط، غير أنّ معظم التجار كانوا يؤثرون البقاء في داخل الممتلكات المغولية، ومنها يجتازون طريقا مباشرا إلى البحر المتوسط، عند إياس، بينما جرى نقل معظم التجارة الهندية برا عن طريق أفغانستان(2)، و(في فترة الحصار الذي فرضته أوربا على التجارة مع مصر عرف ميناء إياس الأرميني نشاطا مبهرا فيما بين سنتي 1320م و 1345م، ذالك أنّ التجار الإيطاليين كانوا يضربون موعدا للتجارة المملوكية في هذا الميناء، عوضا من الموانئ المصرية أو الشامية المحرمة عليهم باباويا، ليتزوّدوا بالحرير والتوابل والقطن التي يجلبها لهم المصريون(3).

وقد سيطر إيلخانات فارس على طريق التجارة المار عبر المحيط الهندي ثمّ الخليج العربي، ثمّ هرمز، ثمّ البصرة، ليصل إلى بغداد، ومنها إلى أسواق دمشق وحلب أو إياس حيث تباع سلع الشرق الآسيوي للتجار الإيطاليين في أسواق المسلمين أو أسواق الصلبيين في الشام على حد سواء، (ولكن بغداد فقدت الكثير من مكانتها التجارية نتية لهجرة الكثير من التجار عنها وعن البصرة أيضا فرارا من المذابح التي ارتكبها المغول في النصف الأوّل من القرن الثالث عشر للميلادإلى ساحل الملبار بالهند، حيث منحهم حكّام هذه المدينة من الهنود امتيازات عديدة، وبفضل هؤلاء التجار أصبح هذا الميناء المتواضع خلال فترة قصيرة أهم ميناء لتجار الشرق

---

(1) أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 70- 73.

(*) ويشير الادريسي إلى أنّ السفن الصليبيّة مضت في طريقها في القرن الثاني عشر حتّى بلغت دبيل الواقعة على مصب نهر السند، غير أنّها في القرن الثالث عشر لم تتجاوز سوماطرا في سيرها، وعندئذ تحكمت السفن العربية في تجارة المحيط الهندي، التي ما زالت مدرّة للربح والرخاء.
أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. I, pp. 164- 165.

(2) أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. I, pp. 73 et suite.

(3) أنظر : Lane(Frédéric C.), Venice: A Maritime Republic, John Hopkins University Press, Baltimore and London , 1973, p. 130.
وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 222.

في مياه المحيط الهندي، ولهذا قام مغول فارس فور استقرارهم في البلاد بالاهتمام بمدينة بتريز، وجعلها أبغا خان عاصمة له لوقوعها على الطريق التجاري البري بين الشمال والجنوب وربطوها بميناء إياس الأرمني على البحر المتوسط بعدة محطات تجارية وشجعوا التجار الأرمن والسريان والمسلمين أيضا على مزاولة أنشطتهم التجارية، ولما كان ملك أرمينيا الصغرى تابعا للخان المغولي فإنه رحب بهذه الخطوة الهامة ومنح البنادقة امتيازات تجارية عديدة في هذا الميناء، ومنحهم إعفاءات ضريبية كثيرة، بل وضايق التجار المسلمين في بلاده نكاية في المماليك الذين انتصروا على المغول وتوابعهم من الأرمن والجورجانيين في موقعة عين جالوت، وكانت هذه التصرفات من قبل الأرمن سببا في انتقام الظاهر بيبرس منهم بعد ذلك بقليل (1)، وعلى الرغم من أنّ مصر لم تزل تعتبر سوقا نافعة للمتاجر الشرقية، إلاّ أنّها لم تعد تقع على أرخص طريق للتجارة من الشرق الأقصى إلى أوربا، خاصة وأنّ مصر قد فرضت مكوسا باهضا على التجار(2).

وفي تلك الأثناء أخذت البندقية وجنوة، وقد تأخّرت عنهما بيزا، تزيدان باستمرار في تجارتهما، فاشتدّ التنافس بينهما، وما حدث من تحوّل الطرق التجارية زاد في المنافسة بينهما، إذ سيطرت البندقية في أوّل الامر على البحر الأسود، نظرا لما كان لها من سيادة على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، ولذا لم تعارض في قيام دولة المغول، وقد تزامن استقرار المغول في إيران والعراق باستعاد البيزنطيين لعاصمتهم سنة 1261م بفضل مساعدة جنوة القوية، فقد سقطت مدينة القسطنطينية في يد آل باليولوجس البيزنطيين في جويليا 1261م، وبسقوط القسنطنية في يد البيزنطيين وجهت ضربة شديدة للبنادقة الذين أبعدوا على أثرها من البحر الأسود، وقام آل باليولوجس بالقبض على تجارهم في هذه المدينة وفي موانئ البيرة Pera وتانا Tana وكافا Kaffa على البحر الأسود وقتلهم باعتبارهم من القراصنة، وقد كانت هناك معاهدة بين البيزنطيين وبين التجار الجنوية تحصل جنوة بمقتضاها على نفس امتيازات البنادقة في تلك العاصمة وضواحيها، في الفترة من 1204م حتى 1261م، وموانئ البحر الأسود في حالة مساعدتهم عسكريا لميخائيل باليولوجس في طرد اللاتينيين والتجار البنادقة منها، وحدث

---

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 220، 221.

(2) أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. I, p. 78.

ما تم الاتفاق عليه، وحافض الجنوية على احتكار تجارة آسيا الوسطى، وتجارة الرقيق، باعتبارها تجارة ثانوية مربحة، بين سهوب روسيا ومصر، وإذ استندت الحكومة المملوكية على ما يرد باستمرار من مقادير الرقيق من قبائل القفجاق وما يجاورها من القبائل التركية، كان مستحيلا على البنادقة أن يطردوا جنوة من الاسكندرية، ومع أنّ ملك أرمنيا الصغرى سمح للبنادقة أن يشاركوا في تجارة المغول التي ترد على إياس، فإنّه أضحى من الأمور الجوهرية عند البندقية أن تحاول طرد الجنويين من موانئ الفرنج، فأحرز البنادقة نجاحا باهرا فيما يتعلق بعكا، أمّا مدينة صور التي لجأ إليها الجنوييون فلم يكن وضعها ليرقا إلى مكانة عكا في الأهمية، وأضحى من سياسة البندقية العامة في تنافسه وعدائها لجنوة أن تقاوم المغول الذين بفضلهم جنت جنوة أرباحا طائلة من امبراطوريتهم، ولذلك وضّف البنادقة نفوذهم في عكا لحث الحكومة بها على أن تساند المماليك المصرية على المغول(1).

وفضّل التجار الإيطاليون في تعاملاتهم في المنطقة جعل مدينة طرابازون الساحلية الواقعة على الحافة الجنوبية الشرقية للبحر الأسود مركز عبور لتجارتهم منذ سنة 1262م فأصبح طريق تبريز- طرابيزون الأكثر استخداما لنقل تجارة العبور الواردة من المحيط الهندي إلى تبريز إلى البحر الأسود وذلك لأن الطريق البديل وهو تبريز- إياس لم يكن مأمون ابسبب الحروب بين مغول فارس والمماليك التي اتخذت من منطقة شرق العراق وشمال الشام مسرحا لها حتى نهاية عهد الإيلخان غازان، وبسبب الأخطار المستمرّة التي كانت تُحيط بميناء إياس الأرميني المنافس للموانئ المصرية والذي تعرّض لضربات المماليك المتكررة، فبقي الطريق الواصل بين تبريز والبحر المتوسط مغلوقا للتجارة لسنوات عديدة ولهذا كان الطريق الشمالي الواصل بين تبريز وطرابيزون الأنسب للتجار الإيطاليين لنقل بضائعهم برا ثمّ بحرا إلى أسواق أوربا (2)، على أنّ ما حدث من تطور في إياس الذي هو المنفذ الرئيسي لتجارة المغول على

---

(1) أنظر : Bratianu(G.I.), Recherche sur le commerce Génois dans la mer noire au XIII[e] Siecle, Paris, 1929, pp. 79 et suite ; Lane(Frédéric C.), Venice: A Maritime Republic, London, 1973, pp. 75-77.

وانظر أيضا : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 221.

(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 222.

البحر المتوسط، جعل من الطبيعي أن تقل أهمية موانئ الفرنج الأخرى، إلاّ أنّ ما حدث من ازدياد التجارة في آسيا في ظل الحكم المغولي، جعل تجارا من الموصل يقومون بزيارة عكا بانتظام أثناء الشطر الثاني من القرن الثالث عشر لإيجاد منافذ أخرى على البحر، وأما ما نشب من حروب بين المماليك والمغول فإنّه لم يعرقل كثيرا سير القوافل من العراق وإيران إلى فلسطين، وظلّت عكا حتّى سنواتها الأخيرة، باعتبارها الحاضرة المسيحية، حافلة بالنشاط التجاري، على حين أنّ اللاذقية التي تقع في أقصى الشمال كانت تمارس من التجارة القادمة من حلب، ما جعل تجار حلب بصفة خاصة يتوسلون إلى السلطان المملوكي بأن يستولي على ميناء اللاذقية، فلا ينبغي أن يكون هذا الموضع الثمين في أيدي الكفار المسيحيين(1)، وفي المقابل أدى انتشار الجنوية في حوض البحر الأسود، الذي يسيطر عليه حينئذ مغول القفجاق، أن تقربوا من بركة خان الذي منحهم امتيازات واسعة وأحياء كاملة في هذه الموانئ، ما أدى إلى انفراد الجنوية تقريبا، ولفترة طويلة، بنقل الرقيق من جنوب روسيا ومنطقة القوقاز إلى أسواق البحر المتوسط عامة وإلى موانئ المماليك خاصة مما أدى إلى تقوية الجندية في مصر(2).

**13- استراتيجية الحصار الاقتصادي الأوربي على دولة المماليك المصريّة وتبيعاتها :**

يعتبر القرن الرابع عشر حقا عصر الدعاية والتبشير للحروب الصليبية، خاصة في العشر سنين الأولى منه، وكان ذلك ردة فعل الأوربيين تجاه الحالة الميؤوس منها التي آل إليها الشرق الصليبي، إذ كان إخفاق الصليبيين في إنقاذ مملكة بيت المقدس بفلسطين والدفاع عن مدينة عكا من أهم الصفات المميّزة لذلك العهد، فكان على أوربا أن تبحث عن بديل لإخفاقاتها المتكررة في مواجهة الاسلام، بيد أنّه ظهر في أوربا في تلك الفترة بين أصحاب الرأي من باباوات وملوك وأدباء ووزراء وأساقفة من كان لا يفكر فقط في الاستيلاء، فقط، مرّة أخرى على فلسطين بل في كيفية إبقاء هذه المنطقة بين أيديهم إلى الأبد بعد أن طردوا منها نهائيا سنة 1291م، وممّن بدأ هذه الحركة أحد شهود عيان من نابولي الإيطالية اسمه "ثاديو"، تطرّق في كتابه الذي سماه "التاريخ" "Historia" إلى وصف مصير آخر قلعة من قلاع المسيحية

---

(1) أنظر : Bratianu(G.I.), Recherche sur le commerce Génois dans la mer noire au XIII[e] Siecle, Paris, 1929, pp. 158- 162 ; Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 62- 64.

(2) هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 222.

اللاتينية على شواطئ فلسطين، وكانت دعوته لاتحاد كل أمراء المسيحية تحت قيادة البابا لاسترداد بلاد الشام، بينما اقترح معاصره، البابا نيقولاس الرابع (1288-1292م)، "حجا جماعيا" بمعاونة الملك الفرنسي شارل الثاني، يبتدأ نحو سنة 1309م، وحتّى قبل سقوط عكا نصح أحد الفرانسيسكان، واسمه "فيد نزيو"، البابا ذاته بما يُتبع في خطة المعركة المفتوحة وذلك في كتاب عنوانه "تحرير الأرض المقدّسة" Liber Recuperationis Terre Sancta وقد ناقش المؤلف التحصينات العسكرية على ساحل الامبراطورية المسلمة، وناقش مشكلة القواعد العسكرية في أرمينيا وبلاد الشام والقرى البحرية والبرية والطرق المؤدية إلى الشرق وموضوعات أخرى هامّة، وذلك بافتراض أنّ عكا ما تزال في أيدي الصليبيين، ولكن تقديمه ذاك لم يؤخذ على محمل الجد، ومهما يكن فإنّ إرشادات البابا نيقولاس الرابع كانت شاهدا على مولد فترة جديدى من الدعاية الأدبية والديبلوماسية من أجل الحروب الصليبية(1).

والواقع أنّ الغرب الأوربي لم يكد يسمع نبأ استيلاء المسلمين عل عكا سنة 1291م وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام حتى أخذ يفكر في فرص حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام ليحرم دولة المماليك من نشاطها التجاري الواسع الذي هو أساس قوتها ومصدر ثروتها(2)، والمعروف أنّ غزوات المغول في القرن الثالث عشر أدّت إلى تعطيل طرق التجارة الاسيوية بين الشرق والغرب، ولم يبقى آمنا من هذه الطرق سوى طريق مصر والبحر الأحمر، مما مكّن المماليك من احتكار الشرق الأقصى والحصول على ثروة طائلة مكّنتهم من بناء قوّة حربية ضخمة، وقد دأبت مصر في عصر الحروب الصليبية على استيراد الكثير من المواد الأساسية اللازمة لصناعة السفن مثل الحديد والخشب والكبريت والقار، فضلا عن بعض المواد الغذائية مثل القمح والزيوت وغيرها، بالاضافة إلى الرقيق الأبيض الذي كان الدعامة الكبرى التي قام عليها نظام المماليك في مصر، والذي كان يُستورد من بلدان غرب آسيا وجنوب أوربا، وبالمقابل كانت متاجر دولة المماليك هي المكان الوحيد الذي يستقبل عطارة الشرق وتجار الفلفل، التي كانت القوى البحرية في جنوب أوربا تسعى بكل حماس للحصول عليها، إذ كانوا يدفعون ضرائب كثيرة لأعداء الصليب من أجل الحصول على تلك العطارة، وعلاوة على

---

(1) عطية، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيراتها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة الأستاذ أحمد خاكي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.، ص 82، 83.

(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 49.
وانظر أيضا: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 23, 25.

شراء خزائن السلطان من تلك الضرائب فإنّ جنوة وغيرها من البلاد الايطالية كانت تمدّه، كجزء من التبادل التجاري بينهما، بأدوات الحرب والعبيد من أسواق كافا وغيرها من البلاد التي كانت تمد كتائب المماليك بالعبيد(1).

وفي تلك الأحوال الحالكة ظهرت حركة أدبية صليبية أنتجها المبشرين للدعوة الصليبية، وكانت هائلة في أبعادها، ولعلّ أحدث شرح لهذا الموضوع هو ما نسب إلى الراهب رايمون لول Raimon (Rémon, Raymon) Lull (1232-1316م) الكتلوني، وهو الذي قتله المسلمون سنة 1316م على شواطئ شمال إفريقيا، وقد فكّر أنّه قد يكون من الأفضل أن يحاول كسب المسلمين باعتناقهم المسيحية، وأنّه عن طريق إنقاذ أرواحهم، مما حسبه كفرا وضلالا، سوف يكسب فلسطين مستقبلا ومعها العالم المسلم بأكمله إلى المسيحية، فيما كانت الروح التقليدية الصليبية تلقى الرعاية والاهتمام الكبيرين في بلاط فرنسا حيث كان ملكُها فيليب الرابع (1285-1314م)، الذي أهان البابا بونيفاس الثالث (1294-1303م) في روما ونقل مقرّ البابوية إلى مدينة أفينيون الفرنسية ليكون في نطاق مملكته، يريد أن يمدّ سلطانه إلى جميع العام، وقد شاءت الأقدار أن يوجد في عصر هذا الملك مفكرا آخر غير "رايمون لول"، وهو من أبرز المفكرين وأصحاب الدعاية الصليبية في أوربا اسمه "مارينو سانودو" الأكبر Marino Sanudo (1274- 1343م)، البندقي الأصل، وقد قضى معظم حياته في الشرق فكان بذلك عظيم المعرفة والخبرة بتلك المنطقة، ومن خلال تجواله استطاع أن يجمع كمية من المعلومات الصحيحة عن دول الشرق الأدنى مزوّدة بأوصاف دقيقة وإحصائيات، وكانت مناقشاته مبنية على اعتبارات اقتصادية، وقد ذهب إلى أنّه إذا أمكن تجريد سلطان مصر من المصدر الأساسي لميزانيته، وهو التجارة، فإنّه بلا شك سوف يقع في إفلاس مادي وعسكري، ونتيجة لهذا يمكن، للصليبيين أن يتغلّبوا على جيوشه ويستردوا فلسطين بدون مشقّة كبيرة(2).

والواقع أنّ الملك الأرميني هيثوم الأوّل كان من السباقين في اقتراح استراتيجية الحصار الاقتصادي، التي هي في الحقيقة قديمة قدم التاريخ ونذكر منها حصار كفار قريش للنبي صلى

(1) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 50- 51 ؛ عطية، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيراتها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة الأستاذ أحمد خاكي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.، ص 86.
وانظر أيضا: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 24, 25.

(2) عطية، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيراتها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة الأستاذ أحمد خاكي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.، ص 83، 84، 85، 86.

الله عليه وسلم ومن آمن معه في شعاب مكّة، فعندما خاب ظنه في مغول فارس الذين انشغلوا بمحاربة مغول القفجاق متناسين دولة المماليك ولو مؤقّة، لجأ إلى فكرة شن حرب اقتصادية على مصر لإنهاكها ونخر قواها من الداخل(1)، ومن المعلوم أنّ مصر لا تملك حديدا ولا خشبا، فلمّا كانت مصر في حاجة ماسّة لتلك المادّتان لصناعة السفن وآلات الحصار، فإنّهم اعتادوا على استيراد هذه المواد إمّا من جبال لبنان وإمّا من إقليم قيليقية، وهي الجهات التي كانت تابعة لهيثوم ملك أرمينيا الصغرى وحليفه بوهموند السادس أمير طرابلس، لذلك أصدر هيثوم ملك أرمينيا أوامره المشددة سنة 1260م إلى أهالي قيليقيا بمنع الاتجار مع المماليك منعا باتا ومنع تزويد سفنهم بما يلزمهم من حاجيات وبضائع، هذا في الوقت الذي كان مغول فارس قد استولوا على العراق، وقطعوا طريق الفرات التجاري، كما كانت الموانئ الرئيسية على ساحل الشام مثل طرابلس وبيروت لاتزال في أيدي الصليبيين(2).

ولم يمضي على ذلك سنوات قليلة حتى وصل في ماي سنة 1271م الأمير إدوارد الإنجليزي إلى عكا، على رأس حملته الصليبية الصغيرة، كما سبق أن أشرنا، فأخذ يفكّر في وسيلة ناجحة قليلة التكاليف لمحاربة المماليك، لا سيما وأنّه لم يحضر معه سوى قوّة صغيرة لا تتجاوز ألف رجل، وكان أن صُدم الأمير إدورد عندما رأى تجار المسيحيين، وبخاصّة من البنادقة، دائبين على إمداد الدولة المملوكية بكل ما تحتاج إليه، ليس فقط بالخشب والحديد اللازمين لصناعة السفن وآلات الحرب والحصار، بل أيضا بالرقيق الأبيض وبالمماليك أنفسهم الذين هم دعامة النظام المماليكي، والقوة البشريّة التي اعتمد عليها جهازهم في الحرب والسلم(3)، ورغم احتجاج الصليبيين على تلك المعاملات، ورغم تهديد الكنيسة الغربية بالحرمان الكنسي للتجار الإيطاليين، إلاّ أنّ ذلك كله كان عبثا، إذ مضت أكبر قوتان بحريتان مسيحيتان هما البندقية وجنوة بوجه خاص في سياستهما، واستمرتى حريصتان على بقاء علاقاتهن التجارية مع الاسكندرية بوجه خاص، واستمرتى في تموين وتسليح المماليك وهم أكبر عدو للمسيحية والصليبيين المغتصبين، ولمّا كان الصليبيون في الشام لا يستطيعون الاستغناء عن الأساطيل البندقية والجنوية التي تربطهم بالغرب الأوربي، فإنّهم اضطروا إلى

---

(1) أنظر : Grousset, op. cit., T. III, p. 632.

(2) أنظر : Mas Latrie(M. L. de), Histoire de l’ile de Chypre sous le regne des princes de la maison de Lusignan, Paris, 1851, T. I, p. 412; Grousset, op. cit., T. III, p. 632.

(3) أنظر : Heyd, op. cit., T. II, p. 560 ; Grousset, op. cit., T. III, p. 659.

قبول ذلك الوضع، رغم ما فيه من أضرار تعود عليهم وعلى كيانهم بالشام(1).

وفي الوقت الذي سقطت طرابلس في يد المماليك، وأخذت عكا تعد الأيام الباقية من عمرها في قبضة الصليبيين، استولى الجنوية سنة 1289م على سفينة للمماليك محملة بالسكر والتوابل قرب شاطئ الأناضول، كما مرّ بنا أيضا، ولمّا سمع السلطان قلاوون بذلك الخبر، استاء وتوعّد الجنوية بالويل والثبور، وعندئذ خشي هؤلاء على مصالحهم التجارية في مصر، وهي تفوق كثيرا في نظرهم الصالح الصليبي العام من حيث الأهمية، فأسرعوا إلى استرضاء السلطان قلاوون وسلموه بضائع السفينة المنهوبة، بل عقدوا معه معاهدة صداقة واتفاق تجارية حققت لهم كثيرا من المكاسب في 13 ماي سنة 1290م، أي قبل سقوط عكا بعام واحد تقريبا(2).

ومهما يُقال عن الصليبيين أنهم أخذوا يحاولون تطبيق سياسة الحصار الاقتصادي على مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر، فإنّه من الواضح أنّ غرب أوربا لم يتخذ خطوات فعّالة في هذا الصدد إلاّ بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة 1291م، ذلك أنّ البابا نيقولاس الرابع Nicolas IV أراد عقب ضياع عكا من بين يديه أن يستشير الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية كبرى جديدة، ولما وجد تراخيا وعدم استجابة لمشروعه، أصدر قرارا سنة 1292م يحظر على جميع المدن والجمهوريات والدول المسيحية التي كانت تتعامل مع مصر تجاريا تصدير الرقيق أوالسلاح أو الخيل أو الحديد أو الخشب أو الكبريت أو القار أو المواد الغذائية أو غيرها إليها، وجميعها كانت خامات أساسية في الحرب وصناعة السفن، وكل من يخالف يتعرّض للحرمان الكنسي أوّلا، ثمّ يفقد كلّ حقوقه المدنيّة ويسقط من الارث، كما جدّد البابا هذا الحظر على الجنويّة خاصة، وذكر أنّ هذا الاجراء يهدف إلى إضعاف سلطنة المماليك المصريّة، فيما اعتبره الجنويّة إجراءا مُجحفا أُرغم البابا على إثر تخفيظ مدّة الحظر إلى عشرة سناوات فقط، بيد أنّ ذلك الاجراء لم يُضعف المماليك شيئا، وحين اعتلى البابا الجديد بونيفاس الثامن (1294- 1303م) Boniface VIII أضاف سنة 1299م القمح والزيت والنبيذ إلى الحرمان ، وكانت مصر تستوردها جميعا(3)، ومدّ الحظر إلى عشر سنوات أخرى، ثمّ إلى

---

(1) أنظر : Grousset, op. cit., T. III, p. 659.

(2) عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج2، ص 403.

وأنظر أيضا : Heyd(W.), Histoire du commerce., T. I, pp. 415- 418 ; Grousset(René), Histoire des Croisades., T. III, p. 746 ; Runciman (Sir Steven), The crusader states., p. 593.

(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 51.

وانظر أيضا: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 25- 26.

الأبد، فأصبح الوضع خانقا للتجارة الأوربيّة في الشرق بما أنّ منع تصدير الخمور والزيت والقمح، وغيرها كثير من المواد الغذائيّة الأخرى حرما أوربا أرباحا، وقد استمرّ الحظر بكلّ حزم وبأوسع أشكاله في عهد البابا بونيفاس الثامن ثمّ البابا بونوا الحادي عشر (1303-1306م) Benoit XI ، إلاّ أنّ هذان البابا وان تراجعا جُزئيا في أواخر عهديهما، فحصر الأوّل المنع على تصدير المواد والآلات الحربيّة، فقط، إلى مصر، بينما سمح الثاني للبنادقة بتصدير بعض المواد كالقماش Les draps والملابس فقط، وعلى أثر تلك التناقضات فيما هو محرّم التصدير أو مباح إلى مصر، ظهر أنّ الكثير من التجار الأوربيين كانوا يرون أنّ التحريم واقع على تصدير السلاح فحسب، وأنّ الأصل في المتاجرة مع مصر هو الحلّ، وفيما بعد وعندما شرع البابا كليمنت الخامس Clement V في التحضير لحملة صليبيّة جديدة، نشر في خريف 1308م مراسيم تؤكّد تحريم تصدير أيّ سلع إلى مصر، وأنّ المخالفين يتعرّضون إلى حجز ممتلكاتهم، وفقدان حريّتهم، وتعرّضهم للحرمان الكنسي الذي لن يُرفع عنهم إلاّ إذا تخلّوا عن جميع أرباحهم من تلك التعاملات التجاريّة لصالح الحملة الصليبيّة وبإذن خاص من البابا نفسه(1).

تلك التحريمات فرضت على المتعاملين مع المماليك عقوبات متنوعة، منها دفع غرامة مالية ومعيّنة للبابوية، والتحريم الكنسي، الأمر الذي أدّى إلى انتشار القرصنة في المتوسط باسم البابوية، والبعض الآخر من القراصنة انتحل اسم البابوية وعمل لحسابه الخاص، في حين كانت البابوية تمارس هي الأخرى القرصنة اعتمادا على فرسان الهيكل في قبرص، وفرسان القديس يوحنا في رودس، وكانت أعمال القرصنة الأوربية هذه تُشن على السفن المملوكية وحتّى على سفن بعضهم البعض خاصة بين جنوا والبندقية(2)، وفي سنة 1388م أسر الجنويون سفينة كانت تقل أقارب السلطان المملوكي الظاهر برقوق، القادمون من بلاد الجراكسة إلى القاهرة، فردّ السلطان بالقبض على من وجد من جاليتهم في الاسكندرية وأودعها السجن وختم على أموالهم، فلم يلبث الجنويون أن ارسلوا أقاربه ومعهم هدية فقبلها وأفرج عن جاليتهم(3).

وإزاء استفحال ظاهرة القرصنة تلك وخطورة خوض غمار تلك النواحي، عمد التجار

---

(1) أنظر: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 26- 27.

(2) أنظر : Wiet(Gaston M.), L'Egypte Arabe, de la conquête arabe á la conquête Ottoman (642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937, T. IV, p. 490.

(3) المقريزي : السلوك، ج4، أحداث سنة 790هـ، ص 210

الأجانب إلى التفتيش عن مراكز تجارية في غير البلاد المملوكية، بخاصة وأنّ البابوية فرضت على من كان يرغب بالاتجار مع المماليك ترتيبات قاسية، فلكي يسمح للسفن بالابحار إلى الموانئ المملوكية، كانت تخضع لتفتيش من قبل أسقف البابوية لمصادرة المواد المحرمة الاتجار بها(1)، لكن بعض الدول الأوربية لم تكن تتقيّد كثيرا بتلك التحريمات، فيما كان البعض الآخر مثل برشلونة وجنوا، تنظر إليها باستخفاف، وآثروا الاتجار والربح على التعلق بالتحريض البابوي الديني، خاصّة وأنّ الجمهوريات الايطالية أضحت المستودع الرئيسي للسلع المشرقية التي تُزوّد الغرب منها(2).

ويبدو أنّ هذه القرارات كانت الجانب العلمي لتوصيات البندقي مارينو سانوتو Marino Sanuto الملقّب بـ "تورسيلو" Torsello، في فصله الأوّل من كتابه المُؤلّف بين شهري مارس 1306م وجانفي 1307م، والذي قُدّم للبابا كليمنت الخامس، فقد سجّل "مارينو سانودو" انفعالاته الشخصية إزاء تلك الأحوال، وسجّل أفكاره من أجل إيجاد الحل لأحوال الغرب السيّئة، كلّ ذلك في كتابه "سر الصليبيّة المخلص" Secreta Fidelium Crucis وأهدى الطبعة الأولى منه للبابا كليمن الخامس سنة 1309م وأهدى الطبعة الثانية لملك الفرنسي شارل الرابع، وبعد استفسارات دقيقة اقترح حضر التجارة مع حدود المسلمين بالرغم من أنّ هذا يؤدي إلى قطع الصلات بينهما، وعلاوة على ذلك أشار إلى أنّه لا بدّ من إقامة مناطق حصار ساحلية عسكرية تحت قيادة البابا، وذلك لمراقبة حظر التجارة مع المسلمين وحتّى تمتص كل مواد مصر ويصبح جيشها في أمسّ الحاجة إلى الجنود والعتاد الحربي، ولقد قدّر لهذا العمل ثلاث سنوات ليأتي بالنتائج المنشودة(3)، كما أنّ البابا نفسه استشار في الموضوع، في تلك الفترة تقريبا، سيّد ومقدّم هيئة الداوية، جاك دي مولي Jacques De Molay، الذي أعدّ بدوره توصية وتقريرا مختصرا ينصّ على ظرورة منع جميع البلاد النصرانيّة من المتاجرة مع المسلمين، أمّا رايمون لول Raymond Lulle فيعرض أفكارا مماثلة تُفيد بأنّه يكفي على البلدان المسيحيّة الامتناع عن شراء التوابل من مصر لمدّة ستّ سنوات وعدم المتاجرة مع

---

(1) أنظر: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 47- 50.

(2) أنظر: Wiet(Gaston M.), L'Egypte Arabe, de la conquête arabe á la conquête Ottoman (642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937, T. IV, p. 490; Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 50.

(3) عطية، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيراتها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة الأستاذ أحمد خاكي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.، ص 86.

وانظر أيضا: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 27.

مصر أو الشام بتاة، وذلك من أجل إفلاس سلطان المماليك وبلاده، وبالتالي تكون الحملة الصليبيّة الجديدة أسهل بكثير، وعلاوة على ذلك، فإنّه لا شكّ أنّ البابا نفسه اطلع على كتاب المؤرخ الأرميني هايتون Hayton، تاريخ الشرق، الذي أُلّف سنة 1307م، والذي أوصى فيه هو الآخر، باتخاذ إجراءات صارمة لإيقاف التصدير إلى بلاد مصر من أجل إنجاح الحمل الصليبيّة، وفي البعض السنوات التالية وحينما عُرض مشروع حملة صليبيّة جديدة إلى الشرق، في مؤتمر فيينا Concile de Vienne في شهر أكتوبر من سنة 1311م وماي 1312م، طلب البابا كليمنت الخامس رأي الملك القبرصي هانري الثاني Henry II حول الاستعدادات الواجب إجراؤها لإنجاح الحملة الصليبيّة، فقدّم إليه مبعوثي هذا الأخير تقريرا مُفصّلا، أثناء ذلك المؤتمر، عن انتهاكات التجار الأوربيين للحظر المفروض على المتاجرة مع مصر، ونعت المخالفين بالمتنكّرين للمسيحيّة "Les faux Chrétiens"، وبيّن فيه مدى مُساهمة هؤلاء التجار في تقوية دفاعات سلطان المماليك من خلال إمداده بالسلاح وبضائع أخرى، فخرج المؤتمرون على أثرها بقرار تحريم كلّ تعامل تجاري مع مصر(1).

ولكن بالرغم من أنّ رئيس الأساقفة قد دعم هذه الخطط في الحال إلاّ أنّها فشلت فشلا ذريعا وذلك لسببين رئيسيّين أوّلهما سماح البابا لبعض السفن البندقية بمعاودة التجارة مع العدو، وثانيهما خيانة أهل جنوة الذين أخذوا يُهرّبُون عتاد الحرب والصبية إلى الأسواق المصرية مقابل الضروريات القيّمة وبعض المزايا التجارية(2)، ويبدو أنّ تراجع البابوية أحيانا عن مشروعها راجع إلى الظغط المستمر المهدد للتجارة الأوربيّة، وذلك أنّ الدول الأوربية كانت تسعى جاهدة في منتصف القرن الثالث عشر وفي القرن الرابع عشر استغلال العلاقة الطيبة مع المغول من أجل فتح طريق الخليج العربي ووسط آسيا أمام التجارة الأوربية، إذ كانت طرق البحر الأحمر محظورة عليهم، فعمدت البابوية مرغمة إلى تخفيف وطأة التحريمات البابوية، نظرا لإقبال التجار الأوربيين على البلاد المملوكيّة بإعطائهم تصاريح بعد تفتيش السفن ومصادرة السلع المحرم الاتجار بها، ورغم ذلك لم تعر الجاليات الأوربية التحريمات أهمية كبيرة بعد فشل البابوية جمع كلمة الدول الأوربية، لذلك تنافست تلك الجاليات للحصول على صداقة السلطان المملوكي لعقد الاتفاقيات التجارية والدليل على ذلك تنوع الجاليات الأوربية

---

(1) أنظر: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, p. 27, 28.

(2) عطية، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيراتها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة الأستاذ أحمد خاكي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.، ص 86.

التي تمركزت في الاسكندرية ودمياط والرشيد وبيروت، حيث كان يوجد مكاتب تجارية للقتلونيين ولأهل مرسيليا وجنوا وبيزا والبندقية(1)، على أنّ قرارات الباباوات التي قصدوا بها فرض حصارا اقتصاديا كاملا على مصر كان من الصعب تنفيذها ما دامت البابوية لا تمتلك قواعد صليبية في شرق بحر الأبيض المتوسط تمكنها من مراقبة شواطئ مصر والشام فيتخذها الغرب الأوربي مراكز ثابتة يهدد من خلالها مصالح المسلمين، هذا فضلا عن ضرورة وجود قوّة عسكرية بحرية تمكن البابوية من مراقبة سواحل مصر والشام للتأكد من أنّ الجمهوريات الإيطالية ذات المصالح الاقتصادية الكبرى مع مصر قد احترمت قرار المقاطعة(2).

وهكذا لم تكن تهديدات البابويّة، وحدها، لتكفي لردع المخالفين، كما لاحظ المؤتمرون، وعلى هذا الأساس جاءت توصيات المستشارين، في الموضوع، بتجهيز عشرة سفن حربيّة، مُستقلّة، بما عليها من بحّارة، كل الاستقلال عن الجمهوريّات التجاريّة، تُرابط دون انقطاع في البحر المتوسّط وبخاصّة قُبالة السواحل المصريّة لمطاردة ومهاجمة السفن التجاريّة المسيحيّة والاسلاميّة، المتعاملة مع مصر والشام، في عرض البحر وحتّى داخل الموانئ إن لزم الأمر، على أنّ كلّ ما يحصل عليه هذا الأسطول الصغير من غنائم في قرصنته تلك يُقسّم على طواقمه بالكامل، ويبدو أنّ تدابير مماثلة كانت قد اقترحت من ذي قبل في عهد البابا نيكولاس الرابع الذي كان قد أعطى أوامره، قبل موته بقليل، لفرسان القديس يوحنا Chevaliers de Saint Jean وإلى الداوية بتجهيز عشرين سفينة لحماية جزيرة قبرص وكذا مملكة أرمينيا الصغرى، ومحاربة المسلمين ومهاجمة كلّ سفينة تُحاول الوصول إلى بلاد السلطان المملوكي، وبعد موت هذا البابا، سنة 1292م، اجتمع الكرادلة من أجل تنفيذ وصيّته تلك، وكلّفوا الجنوي مانويل زكاريا Manuele Zaccaria بتشكيل أسطول صغير يتكوّن من اثنتا عشر سفينة، ويُسانده في ذلك مواطنه الجنوي تيديزيو دوريا Tedisio Doria بثمانية سفن، ونتيجته أن تحرّك الأسطول المؤلف من عشرين قطعة، وعند وصوله إلى قبرص ساندهم ملكها بخمسة عشر سفينة وتوجّه الجمع في محاولة أولى إلى قبالة مدينة الاسكندريّة ولكن دون نتيجة تذكر، وفيما يخص القاعدة العسكرية لانطلاق السفن الصليبية في عملية الحصار على مصر فقد لاحظت البابوية أنّ أسرة لوسينيان الحاكمة في جزيرة قبرص قد أخذت على عاتقها مهمة مساندة الصليبيين بالشام طوال

---

(1) أنظر : Wiet(Gaston M.), L'Egypte Arabe, de la conquête arabe á la conquête Ottoman (642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937, T. IV, p. 491.

(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 51، 52.

القرن الثالث عشر، ولما طرد الصليبيون سنة 1291م من الشام إليها غدت هذه الجزيرة أكبر تمركز للصليبيين في الشرق، وهو مُطلٌ مباشرة على شواطئ مصر والشام وآسيا الصغرى، فكانت هذه الجزيرة هي التي حضيت لتستمر ذيول الحركة الصليبية في الشرق الأدنى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر(1).

وفي الخطوة الثانية الخاصة بضرورة إنشاء قوّة عسكرية بحرية تُمكّن البابوية من مراقبة شواطئ مصر، فإنّ ملك قبرص هنري الثاني لوسينيان تقدّم في أوائل القرن الرابع عشر بمشروع صليبي إلى الباب كليمنت الخامس(704-714هـ/1305-1314م)، طالب فيه بإنشاء قوة صليبية دولية تقوم بفرض حصار بحري على شواطئ مصر والشام لمدة عامين أو ثلاثة، بشرط أن تكون هذه القوّة مستقلّة تماما عن الجمهوريات الايطالية التي تشكك هنري الثاني في ولائها للصالح الصليبي، ورأى أنّ ذلك الحصار كفيل بإضعاف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بأرض مصر نفسها، حتى إذا ما تمّ ذلك أصبح فتح الشام والاستيلاء على بيت المقدس أمرا هيّنا، وقد كان العاهل القبرصي محقا في شأن البندقية التي لم تكن تستطيع قطع علاقاتها التجارية مع مصر، وقد أرسلت إلى البابا كليمنت السادس تشرح له أنّ حياتها متوقفة على نشاطها التجاري وأنّ منعها من التجارة مع مصر بالذات عاد عليها بالخسارة والضعف، الأمر الذي جعلها تلتمس من البابا السماح لها باستأناف علاقتها التجارية مع دولة المماليك، فاستجاب البابا لطلبها وسمح للبنادقة بالتجارة في غير البضائع المحظوة وذلك لمدّة خمس سنوات تبدأ من سنة 1344م(2).

وبعد الحملة الأولى الفاشلة لحصار الاسكندرية، جاءت الثانية بهدف حماية جزيرة قبرص، قامت بها ستة سفن بندقيّة سنة 1293م على نفقة هيئة الداوية، وأمّا في سنة 1308م فقد كلّف البابا كليمنت الخامس Clement V هيئة القديس يوحنا Saint Jean بحراسة الجهة الشرقيّة للبحر المتوسط ومطاردة السفن التجاريّة المسيحيّة المتعاملة مع مصر(3).

ولكن ذلك لم يُجدي نفعا إذ كان التجار الأوربيين لا يزالون يتوافدون على الديار المملوكية، ولم تكن البابوية لتقنط من العثور على ملك أوربي يجدد الحروب الصليبية، فوجد البابا أوربان الخامس Urbain V ضالّته في شخصية الملك القبرصي بطرس الأوّل Pierre Ier لوسينيان

(1) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 52.
وانظر أيضا: Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 28- 29.
(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 53، 54.
(3) أنظر: Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 29.

الذي قام بحملة صليبية كبرى على الاسكندرية يوم 23 محرم سنة 767هـ/10 أكتوبر 1365م، وقد مهّد الملك بطرس لحملته بالقيام برحلة طويلة لمدة ثلاث ستوات، من 1362م إلى 1365م، في غرب أوربا وبخاصة إلى البندقية وجنوا، وبإرسال الرسائل والمبعوثين Petrus Thomae والقنصل القبرصي Philippe de Maizieres ، طلبا للمال والرجال والسلاح، جمع فيها ما استطاع جمعه من السفن، وكان عددها ماية وخمس وستون سفينة، والرجال والمال والعتاد واشتركت معه البنادقة والجنوية والفرنسيس وأهل جزيرة رودس بالإضافة إلى الجنود القبارصة، حتّى إذا ما اكتملت استعداداته أبحر يوم 27 جوان 1365م من البندقية، ليداهم الاسكندرية في يوم جمعة 10 أكتوبر 1365م والمسلمون في المسجد، فاستطاع الصليبيون اقتحامها دون صعوبة ودمّروا البيوت والمساجد والخانات، ونهبوا الاسواق والمتاجر، واعتدوا على النساء والبنات، حتّى بلغت وحشيتهم أنهم كانوا يقتلون الطفل على صدر أمه ثمّ يذبحونها بعد ذلك، وكل ذلك من ضحوة يوم الجمعة إلى بكرة نهار الأحد، وأحرقوا عدة فنادق فيها، منها فندق القطلونيين وفندق الجنويين وفندق مرسيليا، وأعلن الفرنج بدينهم وانظمّ إليهم من كان بالثغر من النصارى ودلوهم على دور الأغنياء، في حين كانت مصر حينذاك تعيش حالة فوضى واضطراب بين الأمراء والجند، والسلطان ناصر الدين الأشرف شعبان بن حسين(1363- 1376م) لم يتجاوز الحادي عشرة من العمر، وبعد ثلاثة أيام فروا من الاسكندرية، لخوفهم من جيش القاهرة القادم نحوهم، آخذين معهم البضائع المنهوبة وخمسة آلاف أسير إلى سفنهم وأقاموا بها إلى يوم الخميس 28 محرم ثمّ أقلعوا، فكانت إقامتهم ثمانية أيام (1).

ولم يكتفي ملوك قبرص بمهاجمة الاسكندرية وغيرها من الموانئ الإسلامية، بل شنوا حربا على التجار الأوربيين الذين لم يقطعوا تجارتهم مع مصر والشام، فكانت سفن قبرص تتربّص لهم في عرض البحر في طريقهم إلى مصر ومنها، وتفتك بهم أشدّ الفتك، وتقطع الطريق التجاري إلى دمياط أو الاسكندرية(2).

---

(1) المقريزي : السلوك، ج4، أحداث سنة 767هـ، ص 284 ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج 11، أحداث سنة 767هـ، ص 24- 25 ؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 54.

وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 51; Wiet(Gaston M.), op. cit., T. IV, p. 506 ; Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, pp. 351- 352.

(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 55.

وقد نتج من ذلك الهجوم الصليبي آثار سيّئة على الصعيد التجاري، فقد تتبّع السلطان النصارى وقبض على جميع التجار الأوربيين في ديار مصر والشام وغيرهما ومنهم البنادقة والقناصل وأودعهم السجون، وقد تعرض البنادقة لانتقام مضاعف بنهب متاجرهم وأموال تجارهم المقيمين بالثغر على يد اللاتين من ناحية، وانتقام السلطان المملوكي من المسيحيين الغربيين عامّة والبنادقة بصفة خاصة من جهة أخرى، إذ حرم عليهم دخول البلاد والمتاجرة فيها، فانقطعت طريق وصول سلع الشرق إلى البندقية (1)، ثمّ غرم السلطان شعبان النصارى بما فيهم بطريركهم ما معهم من أموال وأواني ذهبية وحلي(2)، وضعف المركز التجاري لكل من البنادقية وجنوا، وانقطعت سفنهما عن الاسكندرية، وقد لُمست آثار ذلك في الغرب الأوربي بندرة التوابل والمتاجر الشرقية عامة في أسواقها، ما أدّى إلى ارتفاع أسعار السلع المشرقية فيها، وبدأت البندقية تعاني الكثير فأخذت تبحث عن منطقة بديلة تعوضها خسارتها للسلع في أسواق مصر والشام، فالتجأت إلى بغداد، لكن حاكمها المغولي "أويس بن الشيخ" رفض السماح لهم بالدخول إلى بلاده متاجرين إلاّ بعد مصالحة سلطان مصر، رغم الهدايا التي حملوها إليه لإغرائه على الموافقة، ولما كانت مصر تسيطر على أحد أهم طريقين تجاريين بين الشرق والغرب، بينما هيمن العراق على الطريق الثاني، فقد تأثّر اقتصاد أوربا ببالغ الخسائر، وحين قاست البندقية من الضربات المتلاحقة وفداحة الخسائر المادية، اضطرّت مرغمة إلى السعي لدى ملك قبرص وكذا سلطان مصر لإتمام الصلح بينهما، مُعربة للسلطان المملوكي في سفارتها إليه عام 768هـ/1366م عن أسفها لما حدث من خراب ونهب للاسكندرية، مؤكدة أنّ السفن المغيرة على المدينةلا تمت بصلة إلى البندقية، وأنّ البنادقة لم يُساهموا في هذه الحملة، وسعى البنادقة للتوصل إلى صلح يرضي الطرفين، خاصة وأنّ سلطان مصر رفض أن يسمح لهم أو لغيرهم بالمتاجرة في بلاده إلاّ إذا صفى حسابه أوّلا مع ملك قبرص، كما اشتدّ، في مصر والشام أيضا، الطلب على السلع الأوربية التي ندرت فيها، فبادر السلطان المملوكي، بعد فترة، بإرسال سفارة إلى البندقية وجنوا يدعوهما إلى الاسكندرية لعقد بعض المحادثات التجارية، فخاف البابا من نجاح السلطان في استمالة التجار الأوربيين، فأرسل إلى جنوا والبندقية

(1) المقريزي : السلوك، ج4، أحداث سنة 767هـ، ص 284- 285 ؛ النويري السكندري، محمد بن قاسم بن محمد : الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، 1393هـ/ 1973م، ج5، ص231.
وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 52- 53.

(2) المقريزي : السلوك، ج4، أحداث سنة 767هـ، ص 284- 285.

يحذرهما إذا هما عادا إلى المتاجرة مع المماليك، ولكنهما لم يلتفتا لتهديده، ذلك أنّه قبل وصول تحذيره إلى البندقية كان الدوق البندقي ماركو كورنارو Marco Cornaro قد كتب منذ فترة إلى السلطان المملوكي ناصر الدين شعبان يشكره على دعوته تلك ويعلمه بإرساله لمبعوثين هما فرانسيسكو بيمبو Francesco Bembo وبييترو سورنزو Pietro Soranzo، ولمّا وصلا إلي السلطان استقبلهما وأكرمهما(1).

ومن جهتها تحرّكت البندقية بالاشتراك مع جنوة، ووصل رسلها إلى ملك قبرص الذي كان يستعد للقيام بحملة جديدة على سواحل الشام بعد أن نجحت حملته الأولى ماديا، فتمكّن الرسل من إقناعه بالعدول عن تلك الغزوة، وتعهّدوا بأن يدفعوا له الأموال التي أنفقها في تجهيزات حملته على السواحل الشامية(2)، ولكن كل تلك الجهود لإحلال السلام مع المماليك وإعادة الحركة التجارية إلى سابق عهدها وجدت الباب مسدودا في وجهها، ذلك أنّ السلطان المملوكي سجن عددا لا بأس به من التجار البنادقة والجنوية وغيرهم من المسيحيين ورفض إطلاق سراحهم، فقررت كل من البندقية وجنوا في 28 جويليا 1369م قطع علاقتها التجارية بمصر نهائيا وتجهيز أسطول حربي يرابط قبالة الاسكندرية تمهيدا للحرب وأرسلتا دعوة إلى حكام قبرص وجزيرة رودس للانظمام إليها، بينما شجّع البابا تلك الحركة وعمّم تحريم التعامل مع مصر تجاريا لكل دول أوربا في السنة نفسها، وفعلا رابطت ثمانية سفن حربية قبالة الاسكندرية مهددة وآمرة السلطان إطلاق سراح السجناء المسيحيين، الذي قوبل بالرفض، وبعد طول انتظار انسحبت تلك القطع في ديسمبر 1369م مولية الأدبار، ورغم ذلك الفشل إلاّ أنّ الجمهوريّتان لم تيأسا من إعادة التجارة مع المماليك إلى سابق عهدها الباهر، وأشاعتا في غرب أوربا كله وحتّى لدى البابوية في آفينيون الفرنسية أنّ الصلح بين السلطان المملوكي وملك قبرص على وشك أن يتم، وقد جاءت تلك الدعاية في وقت مناسب لكل من مصر والجمهوريتان، ذلك أنّ الغرب كان يستعد آن ذاك لتجهيز حملة صليبية جديدة ضدّ المماليك، وبمجرّد سماع نبأ عقد الصلح، انفض كل من رغب في المشاركة في تلك الحملة من حول ملك قبرص، وبذلك نجحت الجمهوريتان في خطتهما، واستطاعت البندقية الحصول من البابا "أوربان الخامس(1362-

---

(1) النويري السكندري : الإلمام بالأعلام، ج5، ص231 ؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : قبرص والحروب الصليبيّة، القاهرة، 1957م، ص 71.
وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 53, 54.
(2) عاشور سعيد عبد الفتاح : قبرص والحروب الصليبيّة، القاهرة، 1957م، ص 71.

1370م)" على تصريح بالاتجار مع مصر في أضيق الحدود، على ألاّ تتعرّض لأيّ حملة صليبيّة جديدة ضدّ مصر والشام، وعادت العىقات الودية بين مصر والبندقية، وتمسّكت الأخيرة بها إلى حدّ أنّها رفضت مرور القوات الصليبية عبر أراضيها استعدادا لحملة جديدة، غير مُكترثة لما قد يقع عليها من عقوبات من قبل الكنيسة، وظلّت مساعي البندقية، ومعها جنوة، نشطة لعقد صلح بين سلطان مصر والوصي على عرش قبرص بعد موت ملكها بطرس الأوّل لوزينيان إلى أن قامت كل من البندقية وجنوا وقبرص ورودس بإرسال بعثة إلى السلطان لطلب صلح دائم، فحلفوا ألاّ يغدروا، ووافق عليه الأخير، ثمّ سافروا ومعهم من يُحلفُ ملكهم، وأخذت منهم رهائن بالقلعة، ثمّ تمّ توقيع الصلح بين الطرفين في جمادى الآخرة 772هـ/ ديسمبر 1370م، فعادت بذلك العلاقات المصرية البندقية إلى سابق صفائها(1).

وهكذا فإنّ التحريمات البابوية وإن نجحت نسبيا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، والنصف الأول من القرن الرابع عشر، فإنّها لم تعد تجدي نفعا اثر التطورات السياسية والاقتصادية التي حصلت في الشرق في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، لسيطرة المماليك على حميع المواني بالشام ومصر وأرمينيا الصغرى، وهذه الأخيرة بالذات أرغمت السلطان المملوكي للقضاء عليها آخرا بسبب سياستها التجارية والعسكرية المعادية، ومخافة إقامتها حلف مسيحي مع أوربا يشكل خطرا على سلطنة المماليك(2)، خاصة وأنّه سبق لها عقد حلف مع المغول واشتركت معهم في محاربة المماليك، إلاّ أنّها ومنذ سنة 1320م بلغت من الضعف ما أرغمها على طلب وعقد الصلح مع المماليك، وأضحت هي الدولة المسيحية الوحيدة ومعزولة تماما في المنطقة بعد أن دخل مغول فارس الاسلام، وزاد من ضعفها انتشار الطاعون فيها في منتصف القرن الرابع عشر، فتردّت أوضاعها الاقتصادية(3)، وازدادت أحوالها الاقتصادية سوءا عقب انهيار دويلات الإيلخانات في فارس والعراق سنة 1335م، فعمّت الفوضى والاضطرابات تلك المنطقة وانقطع الطريق التجاري المار بتبريز، ففقد ميناء إياس أهميته ولم يعد يستقطب التجار الأوربيين(4)، ثمّ ركّز المماليك والسلاجقة كل من جهته

---

(1) المقريزي : السلوك، ج4، أحداث سنة 772هـ، ص 339؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : قبرص والحروب الصليبيّة، القاهرة، 1957م، ص 82.
وانظر أيضا : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 57.
(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحدب البحيري، بيروت، 1977م، ص 253.
(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح : العصر المملوكي في مصر والشام، النهضة العربيّة، القاهرة، ط1، 1965م، ص 126.
(4) عاشور، سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 274- 275.

الغارات على أرمينيا الصغرى إلى أن غزاها المماليك نهائيا ودخلوا عاصمتها سيس وتمّ أسر ملكها ليو السادس سنة 776هـ/1375م، وبذلك أصبحت تابعة لدولة الماليك(1)، وبذلك لم يعد للأوربيين أي ميناء على المتوسط لاستيلاء المماليك عليها.

وعلى أثر اضمحلال مملكة أرمينيا الصغرى وتملك المماليك لتلك المنطقة تقهقر ميناؤها إياس الذي أصبح هو الآخر ضمن قائمة الموانئ المحرم على التجار الأوربيين ارتيادها، وبعد ذلك بفترة وجيزة دخل تيمورلنك (1336- 1405م) الساحة فاشتعلت الحروب بين المغول بقيادة تيمورلنك وبين البلدان المجاورة، فتأثرت الطرق التجارية البرية في المنطقة وأصبحت غير آمنة، فقد تعطّلت القوافل الداخلية القادمة من آسيا الصغرى ومن الخليج العربي، ولذلك عدل التجار عن سلوكها، مما أضعف المراكز التجارية التالية مثل تانا وتبريز والسلطانية، وهذا يعني ندرة وصول السلع المشرقية إلى موانئ البحر الأسود، وباستيلاء الجنوية في تلك الفترة على ميناء فماغوسطا Famagouste في قبرص ورفضهم نزول التجارالايطاليين وغيرهم من التجار الأوربيين فيها، دفع السفن الأوربية بالتوجه مباشرة إلى بيروت(2).

ورغم أنّ تيمورلنك واصل صلة الصداقة التي كانت تربط بين المغول والفرنسيين في القرن الثالث عشر الميلادي، إذ أثناء وجوده في آسيا الصغرى راسل ملك فرنسا شارل السادس Charle VI (1368- 1422م) مُجدّدا هذه الصداقة(3)، طالبا منه إرسال تجارة إلى بلاد المغول حيث سيحسن استقبالهم، وردّ عليه الملك الفرنسي مبديا اغتباطه لهذه الصداقة، وهنأه على انتصاره على السلطان العثماني بايزيد الأول (1345-1403م) في شهر جويليا سنة 1402م(4)، ولكن لم يكتب لهذه العلاقة أن تدوم لتباعد الطرفين من جهة، ولموت تيمورلنك من جهة أخرى، وهو الذي تبنى إحياء هذه العلاقة، وبموته ماتت تلك العلاقة، كما انشغل الغرب الأوربي بحروبه الطويلة، خارجيا وداخليا، فضلا عن فتور الروح الصليبية لدى الغرب بعد أن تشكك في جدواها وقيمتها، وبعد ما جرته عليه من ويلات ونكبات، ولذا لم يتم أي تقارب بين الطرفين.

---

(1)ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج 11، أحداث سنة 776هـ، ص 54، 105.

(2) أنظر : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 456.

(3) أنظر : Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, pp. 256- 257.

(4) أنظر : Cahun(L.), Formation territoriale de l’Asie, dans Histoire generale, T. III, Paris 1894, p. 961.

# الفصل الثالث

**مظاهر العلاقات بين الأطراف الثلاث منذ سقوط عكا وتحكم الاسلام في خانية فارس إلى وفاة تيمورلنك.**

1- الأوضاع في عهد كيخاتو Caikhatu بن أباقا وبايدو بن طغراي(690-694هـ/ 1291-1295م)

أ- اعتلاء كيخاتو عرش الإيلخانيّة

ب- الجاو (التشاو) كعملة متداولة في عهد كيخانو خان

ج- نهاية كيغاتو

2 - الأوضاع في عهد بايدو(المسيحي) بن طغراي بن هولاكو(694هـ/1295م)

أ- اعتلاء بايدو عرش الإيلخانيّة وأهمّ أعماله

ب- نهاية بايدو

ج- علاقة كيخاتو وبايدو بأوربا

3- الأوضاع في عهد غازان ابن أرغون(694-703هـ/1295-1304م)

أ- اعتناق غازان بن أرغون الإسلام والتعقيب عليه

ب- الحالة السياسية لمملكة أرمينيا الصغرى في تلك المرحلة

ج- عداء غازان للمماليك والتماطل الأوربي

د- انتعاش الطريق التجارية القديمة في عهد غازان

4- الأوضاع في عهد أولجياتو(أولغايتو) محمّد خدابنده(خربندا)(703-716هـ/ 1304-1316م)

أ- اعتلاء أولجايتو عرش خانيّة فارس وعلاقته بالمماليك ابتداء

ب- تحوّل أولجايتو إلى الدين الشيعي ثمّ عودته عنه قبل موته

ج- وفاة أولجايتو :

د- استمرار عداء المغول للإسلام في شخص أولجايتو

هـ- ردة فعل المماليك على اعتداء أولجايتو

و- اتصالات أولجياتو(أولغايتو) محمّد خدابنده(703-716هـ/1304-1316م) بأباطرة أوربا الغربية

- سفارة الإيطالي تماس أوجي دي سينا من قبل أولجياتو إلى فليب الرابع لوبل Philip le bel سنة 705هـ/1305م

- سفارة توماس أوجي دي سينا من قبَل أولجياتو سنة 707هـ/1307م إلى الملك الإنجليزي إدوارد الثاني

- وصول أوجي دي سينا إلى البابا كليمنت الخامس (704-714هـ/1305-1314م)

ز- استمرار علاقات مصر بأوربا في شخص ملك أرجون جيمس الثاني

5- اعتلاء أبي سعيد بهادور (716-736هـ/1316-1335م) عرش الإيلخانيّة

أ- موقع أبي سعيد من علاقة المماليك بالخان القفجاقي أوزبك

ب- عقد اتفاقية الصلح بين المغول الإيلخانيين والمماليك سنة 723هـ/1323م وتبعاته على الصليبيين

ج- علاقات مصر بأوربا زمن أبي سعيد

د- علاقات مصر بملك أرجون جيمس الثاني زمن الخان أبي سعيد

هـ- سفارة أودريك دي بوردينون Odoric de Pordénone

و- وفاة أبي سعيد واضمحلال خانية فارس

6- آخر الاتصالات المغولية الأوربية، أوائل القرن الخامس عشر

أ- علاقة تيمورلنك بأباطرة أوربا

## 1- الأوضاع في عهد كيخاتو Caikhatu بن أباقا وبايدو بن طغراي(690-694هـ/ 1291-1295م) :

### أ- اعتلاء كيخاتو عرش الإيلخانيّة :

توفي أرغون خان بعد أن حكم سبع سنوات، ولم يفكر، خلال مدة مرضه، في تعيين من يخلفه على عرش الإيلخانية، ويبدو أنّه كان هناك أكثر من طامع في اعتلاء العرش، لذلك ما إن توفي حتّى عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه عام 680هـ/1281م، في ظلّ اختلاف الأمراء في هذا الشأن، فمنهم من كان يرى في تنصيب كيخاتو وهو أحد إخوته، ومنهم من رأى في بايدو بن طوغان، حفيد هولاكو، الشخص المناسب، وفي آخر المطاف اختير الأوّل واعتلى العرش يوم الأحد 23 رجب 690هـ/1291م(1).

امتازت فترة حكم كيخاتو بكثرة الفتن الداخلية إضافة إلى ما أصاب إيران من قحط شديد امتدّ لسنوات، أنهك كل ذلك خزينة الدولة وكرّس الانشقاق بين مغول إيران، لكن الإيلخان استطاع تدارك الأمر وتمكّن من ضبط الأمور بعد جهد كبير فعادت البلاد إلى سابق عهدها من استقرار وانتعاش، لكن كيخاتو كان رجلا مسرفا يقضي أوقاته في الشرب واللهو والمجون، فأنفق على ملذاته كل الأموال التي جمعها الإيلخان أرغون من قبل في خزينة الدولة، من الضرائب المجحفة، حتّى ضجّ الناس بالشكوى من الإيلخان وبيّتوا الثورة عليه وعلى وزارته، وكان من الظروري بمكان تدارك الأمر وإخماد الفتنة(2).

### ب- الجاو (التشاو) كعملة متداولة في عهد كيخاتو خان :

وفي محاولة من الإيلخان لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد الوقوع في الأزمة الماليّة الخانقة التي خلفها له الإيلخان أرغون قبله ثمّ ازدادت في عهده جرّاء الاضطراب المالي وتذمّر الشعب الإيراني من ذالك، عمد إلى اتباع ما صنعه الصينيون قبله وهو وضع عملة ورقية اسمها الجاو، ابتكرت في الصين عهد قوبلاي خان المغول، وذكرها ماركو بولو قائلا أنّ ورقها يصنع من لحاء ورق التوت، وأنّه كان عددا من الموظفين متخصصين بختمها بأختامهم ثم تختم بعد ذلك بالخاتم الملكي، وطبعا لم يتجرأ أحد على رفض قبولها كعملة للدفع وإلا كان مصيره الإعدام،

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص169؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص365، 366، وقد ذكر أنّ التولية تمّت في 29 حزيران(جوان) 1292م ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 285 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 71؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص182 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 454، وقد ذكر أنّ التولية تمّت في 23 رجب 690هـ/ 22 جويليا 1291م.

(2) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 455؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 182، 183.

وكانت الرعية والتجار الأجانب يستبدلون ما معهم من ذهب وفضة بما يعادله من هذه العملة الورقية، وعندما تبلى الجاو فما كان على صاحبها إلاّ أن يحملها إلى دار الضرب ليستطيع استبدالها بأوراق جديدة ولكن مقابل دفع ثلاثة في المائة كنوع من الربا، وبالمقابل كان الذهب والفضة كلّه بحوزة الخاقان المغولي وحده، ومن ثم اعتبر ماركو بولو أن الأخير أغنى ملوك العالم، ومن أسباب ذلك الحدث في فارس أنّه قدم إيران أحدهم، من الصين، ويُدعى "عز الدين محمد بن مظفر بن عميد"، وكان عارفا بالأحوال السياسية الخانقة بالصين ومنغوليا، فعرض على إيلخان فارس باستبدال العملة الذهبية والفضية المتداولة بعملة ورقيّة سمّيت بالجاو حتّى تتحسن الأوضاع الماليّة في البلاد، فأمر كيخاتو بتداولها ابتداء من تاريخ 19 شوال 693هـ/1294م، وسحب العملات الذهبيّة والفضيّة، وكانت الأوامر تقضي بقتل كل من لا يتعامل به في الحال، نظير أن يقوم السكان والتجار بتسليم ما معهم من ذهب وفضة لمندوبي إيلخان فارس، لقاء ما يعادلها من هذه العملة الورقية، وصار الناس يتعاملون بها أسبوعا واحدا خشية السيف، ولكن أغلب الأهالي لم يقبلوها وامتنعوا عن التداول به وأقفل أغلب التجار محلاتهم، فكسدت التجارة وقلّ البيع والشراء، وعندما أجبرهم عمّال كيخاتو على التعامل بالعملة الورقيّة هاجرت جماعة كبيرة إلى بلاد أخرى لا تتعامل بالجاو، بينما استعدّ آخرون للثورة ضدّ الحكومة، وترتب على ذلك أضرار اقتصادية بالغة وتوقفت الحياة العادية تماما،وقد تناولها مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني في فصل كامل بعنوان "وضع الجاو المشئوم والاضطرابات التي ظهرت في البلاد بسببه"، وتعرّض نظام كيخاتو إلى ضربات في القوقاز، ولا عجب إذا رأينا عام 1295م ابتداء العصيان العام الذي جسّد الغضب ضدّ تخاذل السلطة والاحتجاج لانقسام آراء الأمّة، وفي أثناء العقد الماضي بدأ الاسلام بالانتشار بصورة واسعة بين المغول، وحتّى بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقد أصبح عدد من الأمراء يميلون إلى تعاليم الاسلام ويعطفون عليه، وهكذا أصبحت الميول القديمة والحديثة تتصارع وجها لوجه ولكنها اتحدت جميعها ضدّ حكومة كيخاتو، وأمام التهديد اضطرّ الإيلخان للتراجع وإعادة التداول بالذهب والفضة والتخلي عن الجاو بعد ستة أشهر فقط من تداوله(1)، وأمّا في المقاطعة

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو، مجلد 2، ج2، ص 181- 184. برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 71، 72 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 183- 185 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 455.

وانظر أيضا : Marco-Polo, op. cit., chapitre XCVII, p. 137- 139 ; Browne(Edward Granville.), A History of Persian Literature under Tartar dominion (A.D. 1265- 1502), Cambridge University Press, London, 1920, pp. 37- 39.

الشمالية الشرقية، وهي خراسان، حيث كان الحاكم غازان بن أرغون، فلم تدخلها "الجاو" ولم يحاول التعامل بها، فكانت بذالك في منأ من الفتنة(1).

ج- **نهاية كيغاتو :**

كان كيخاتو فاسقا مصابا بالشذوذ الجنسي واللواط حتّى أنّه كان يفسق بصبيان المغول، فكرهه شعبه والأمراء، وأحد أقوى الأمراء من أحفاد هولاكو، واسمه بايدو بن طرغاي بن هولاكو، حاكم بغداد والعراق، وكان من بين المرشّحين البارزين لمنصب الإيلخانية، فاغتنم ذلك الوضع وجهّز جيشا قاده ضدّ كيخاتو الذي انهزم في آخر المطاف وأُعدم خنقا في يوم 6 جمادى الأوّل 692هـ/21 أبريل 1295م(2).

## 2 – الأوضاع في عهد بايدو(المسيحى) بن طغراي بن هولاكو(694هـ/1295م) :

### أ- اعتلاء بايدو عرش الإيلخانيّة وأهمّ أعماله :

على اثر مقتل كيخاتو رفعت المغول بايدو بن طرغاي بن هولاكو على العرش يوم 16 جمادى الأول 694هـ/أبريل 1295م، أي بعد عشرة أيام من إعدام كيخاتو، فشرع في التخلّص من بعض الأمراء الذين ساندوا كيخاتو(3)، ثمّ أرسل الفرمانات إلى أطراف الممالك، يُعلمهم بمقتل كيخاتو الذي كان يسلك طريق الغفلة في إدارة المملكة، ويعرض عن آداب الحكم، ويُهمل الياسا التي وضعها جنكيزخان، وتوليه السلطة خلفًا له، ووعدهم بتطبيق أحكام الياسا، والمحافظة على أرواح أرباب المذاهب المختلفة، وإعفاء الأوقاف الإسلاميّة من الضرائب، وإعطاء الخيرات والأموال إلى مستحقيها(4).

وشرع بايدو، بعد ذلك، في توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات، فكافأ طغاجار وعيّنه أميرًا للأمراء، وعهد إليه الإشراف على الشؤون العسكريّة، واختار جمال الدين الدسترجداني

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 72.

(2) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص368،367 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 186 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 455.
وانظر أيضا : Browne(Edward Granville.), A History of Persian Literature., p. 39.

(3) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 694هـ، ص 307 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 456 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص186، 187.
وانظر أيضًا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 116 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 378.

(4) فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 187.
وانظر أيضًا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 116-117 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 378.

صاحبًا للديوان ومسؤولاً عن الشؤون الماليّة، وقد فضّل هذا لقب وزير بدلاً من لقب صاحب الديوان. وقسّم المملكة إلى عدّة أقسام، ونصّب على كل قسم أميرًا من الأمراء ومنحه حريّة التصرف في إدارة قسمه على نحو ما كان متبعًا في عهد أباقا، وولّى توداغو حكم بغداد وتوابعها، وعيّن طولاداي إيداجي واليًا على العراق العجمي ولورستان وملحقاتها، وقونجقبال حاكمًا على شيراز وشبانكاره، ووضع بلاد الروم وديار بكر وملحقاتها تحت سيطرة طغاجار نوين، على أن يكون صدر الدين الزنجاني نائبًا له(1).

**ب- <u>نهاية بايدو</u> :**

قضى بايدو نحبه خلال الصراع على السلطة مع غازان بن أرغون، والمعروف أنّ الثاني كان طامعًا في العرش الإيلخاني، إلاّ أنّه كان بعيدًا عن مقرّ الحكم عندما توفي والده، فاتفق الأمراء على انتخاب بايدو منعًا لوقوع الفتن والقلاقل عقب وفاة الإيلخان، فغضب غازان، وشجّعه الأمير نوروز على انتزاع حقه في الحكم بالقوّة، وكان يده اليمنى في تحقيق ذلك، وكانت القرائن تشير إلى عجز بايدو وضعفه، وأنّ حكمه بات وشيك السقوط، فراح أمراؤه ينفضون من حوله بعد أن أدركوا أنّ كفّة غازان هي الراجحة، وبعد انهزام جيش بايدو أمام غازان فرّ الأوّل فتعقّبه نوروز وقبض عليه ثمّ قتله يوم الأربعاء 23 ذي القعدة 694هـ/4 أكتوبر 1295م، ودخل غازان العاصمة تبريز وسط ابتهاج السكان، واختاره الأمراء إيلخانًا يوم الأحد 23 ذي الحجّة/22 أكتوبروأجلسوه على العرش(2).

لقد كان السبب الأساسي في هزيمة بايدو ضعف شخصيّته وقلّة خبرته وانقياده للأمير طغاجار الذي خانه في آخر المطاف كما فعل بسابقه، وإطلاقه الحريّة لأمرائه فأساؤوا استعمالها، ولم يستطع أن يميّز المخلصين منهم من الانتهازيين الذين يخدمون مآربهم الشخصيّة، رغم أنّ بايدو كان متّزنا، إلاّ أنّه كان متحمّسا للمسيحيّة مقبلا عليها فعمل على إحياء الدين المسيحي، ويذكر المؤرخ الأرميني هيثوم أنّ بايدو كان مسيحيا وقد أعاد بناء الكثير من

---

(1) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 456 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 187.
و انظر أيضًا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 115- 118 ; Browne(Edward Granville.), A History of Persian Literature., p. 39.

(2) المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 694هـ، ص 307- 308 ؛ ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 328، 329 ؛ الهمداني : جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، ص 125-129 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 187- 188 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 456، 457.
وانظر أيضًا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 137-140 ; Browne(Edward Granville.), A History of Persian Literature., p. 40.

الكنائس، غير أنّه في الوقت نفسه لم يكن يظهر عداء للاسلام، لكثرة من أسلم من المغول، حتّى أنّه كان له ولد مال إلى الاسلام واعتنقه، وكان بايدو يحثه على الصلاة جماعة مع المسلمين، غير أنّ حبّه الشديد للمسيحيّين ورهبانهم أسخط عليه المسلمين، خاصّة وأنّه كان يمنع دعوة المغول للاسلام(1).

**ج- علاقة كيخاتو وبايدو بأوربا :**

كان البابا نيكولاس الرابع قد بعث إلى الإيلخان أرغون رسالتان يحثه فيها بالتحول إلى المسيحيّة لتكريس التحالف الصليبي المغولي ضدّ المماليك المصريّة، وكانت إحداها بتاريخ 21 أوت 1291م والثانية بتاريخ 23 أوت 1291م، لكنّ أرغون كان قد ووري التراب منذ 9 مارس 1291م دون علم البابويّة، وبالتالي لم يكن لتلك الرسائل ردودا أو تبعات، أمّا كيخاتو وبايدو الذان خلفا أرغون، على التوالي، على الإيلخانيّة، فقد استقبل أحدهما مبعوثي الملك الانجليزي دون الردّ على ذلك الاتصال، وتوقف ذلك النوع من التواصل المغولي الأوربي لمدّة عشر سنوات لتستأنف في عهد غازان بينما تحوّل مغول إيران إلى الاسلام(2)، فأمّا بالنسبة للإيلخان كيخاتو فيبدو أنّه رغم عجز الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل الوفاء بتعهداته للبابا نيكولاس الرابع بتجهيز حملة صليبيّة إلى الشرق، إلاّ أنّه لم يوفّر جهدا في معاودة الاتصال بمغول إيران في عهد كيخاتو، فأرسل بعثة مكوّنة من بضع وعشرة رجلا على رأسهم جيفري دي لانجلي Geffrey de Langley ونيكولاس دي شارتريس Nicholas de Chartres، فغادروا أنجليترا في صيف أو بداية خريف سنة 1291م باتجاه جنوة Gênes ليلحقوا بها ببوسكاريل جيزولف وأخيه بيرسيفال Percivalle وابن هذا الأخير المدعو كورادين Corradin، في صحبة إلى إيلخانية إيران، وأقل ما يمكن به وصف هذه البعثة هو أنّها كانت محضوضة لأمرين اثنين هما أنّ لبوسكاريل جيزولف احتراما خاصا في البلاط المغولي إلى جانب معرفته بلغة المغول، إضافة إلى ما للجنويّة من مكانة في البلدان التي سوف تجتازها البعثة إلى إيران وذالك أنهم والبيزويّة كانوا يمتلكون امتيازا خاصا للتجارة في منطقة البحر الأسود أُبرم مع الطرف البيزنطي سنة 1261م بما يسمى باتفاقية نيمفي Traité de Nymphée، ومهما يكن من أمر

---

(1) فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 188- 189.
وانظر أيضًا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXVIII, p. 848 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 117-118 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 126.

(2) أنظر : Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 425.

فإنّه ربّما كان استئناف السفارة طريقها من جنوة في ديسمبر 1291م عن طريق البحر لتصل في أبريل 1292م إلى تريبيزون Trébizonde، ثمّ واصلت المجموعة سفرها لتصل تبريز الإيرانيّة وتقابل الإيلخان كيخاتو في صيف 691هـ/1292م، ورغم أنّه لا أثر لنص أو لوثيقة تشير من قريب أو من بعيد لطبيعة هذا الاتصال أو لفحواه الحقيقي إلاّ أنّه يمكن وصف استقبال كيخاتو للسفراء بحفاوة بأنّه كان إيجابي، ذلك أنّه أهداهم فهدًا في قفص كرد على الطائرين الجارحين الذان جلبهما جيفري دي لانجلي من إنجلترا كهديّة من قبل الملك الانجليزي، ثمّ غادرت البعثة يوم 22 سبتمبر 1292م لتصل يوم 18 أكتوبر 1292م إلى تريبيزون Trébizonde ثمّ القسطنطينيّة وأخيرا جنوة يوم 11 جانفي 1293م ومنها إلى إنجلترا(1)، وهكذا فشلت البابويّة مرّة أخرى في إحراز أيّ تقدّم في مسعاها لإعادة احتلال أراضي الإسلام، وتوفي كيخاتو في أبريل 1295م دون أن يلتفت ولو للحضة لمشروع تحالف قديم مع القوى الصليبيّة شرقا أو غربا لأنه كان مغموسا في ملذاته ومشغولا بالثورات حوله.

وأمّا بالنسبة لبايدو فلا أثر لاتصال بالقوى الصليبيّة شرقا وغربا إلاّ ما كان من هيثوم الثان ملك أرمينيا الذي التقى به سنة 1295م من أجل تقديم الولاء، ولكنّ الإيلخان صرفه إلى مراغة حالما تتحسّن أوضاعه لأنّه كان مهددا من طرف نوروز قائد غازان(2).

## 3- **الأوضاع في عهد غازان ابن أرغون(694-703هـ/1295-1304م)**

### أ- **اعتناق غازان بن أرغون الإسلام والتعقيب عليه :**

رأينا فيما سبق أنّ بداية تغلغل الإسلام بين المغول كان في عهد بركة خان حاكم القبيلة الذهبية في روسيا (1256-1267م)، وأنّ في إيلخانيّة فارس كان تكودار أحمد أوّل من اعتنقه، ورغم مقتل هذا الأخير بسبب محاولة التحالف مع المسلمين وحرصه على نشر الاسلام في بلاده، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع انتشاره بخطى حثيثة في عهد خلفائه، فبعد مرور عشرة أعوام على ذلك، تزايد خلالها عدد المسلمين ووصلوا إلى المراكز الهامّة في الدولة، وحملوا الكثير من المغول على اعتناق الإسلام، وقد تقبّل هؤلاء الدين الجديد بفعل تفكّك الروابط التي كانت تربطهم بالصين، بلد الخان الأعظم، في الوقت الذي شهدت فيه الأسر المغوليّة الأخرى حالة

---

(1) أنظر : Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, pp. 27- 29 ; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West., History Today, XXIII, 8, 1973, p.560, 561; Paviot(Jacques), England and the Mongols (c. 1260-1330), Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3 (Nov., 2000), p. 315.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 162, 163-164.

من التنازع الداخلي، بالإضافة إلى اندماجهم في المجتمع الإسلامي وتشرّبهم بالحضارة الإسلاميّة، وإذا كان كيخاتو قد حاول إرضاء رعاياه المسلمين بإعفاء علمائهم وذرية النبي صلى الله عليه وسلم من دفع جميع الضرائب على اختلافها وإصدار العملة الورقية المسمّاة بالجاو (التشاو) التي تحمل الشهادتين، فإن خليفته بايدو كان يرسل ابنه علي للصلاة مع المسلمين مداراة لانحيازه الواضح للمسيحيين، وقد اعتنق كثير من المغول الإسلام في عهد بايدو وأصبحوا يؤدون فرائضه، أمّا غازان فقد رأى في التحوّل إلى الاسلام أمرا ضروريًا لاستمرار الحكم المغولي وسط محيط إسلامي(1)، كما قدّم له المخرج الأمثل من المأزق الذي شعر الجميع بثقل وطأته على أثر التطورات السياسيّة والاقتصاديّة السلبيّة، إذ أنّه عندما اعتلى العرش كانت علائم الانهيار واضحة في جسم الدولة، وكان الانهيار الاقتصادي قد دفع الإيلخانيّين إلى إصدار نقود ورقيّة تبعًا للنموذج الصيني، فأدّى ذلك إلى جمود كامل في الأسواق، كما رأينا في عهد كيختو، ما أرغم الدولة على التراجع عن هذه الخطوة، علاوة على تفاقم واستمرار التشرذم في بنية الجيش المغولي بفعل تعدد مراكز القوى والانقسامات حول الصراع على السلطة وانتقالها.

يُعدّ غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو (694-703هـ/1295-1304م) من بين أقوى الحكام المغول في إيران، وهو من طراز أجداده هولاكو وأباقا في التخطيط والحزم، وقد نشأ غازان في أوّل أمره بوذيًا ثمّ اعتنق الإسلام قبل أن يتولّى عرش إيران بعد انتصاره على بايدو، فبدأت مرحلة هامّة ونهائيّة في انتشار الاسلام بين مغول إيران والعراق وآسيا الصغرى بتغلغله داخل الأسر الحاكمة واصطباغها بالصبغة الاسلاميّة، وقد أظهر غازان جرأة باستقلاله التام عن الخانية الأم ببلاد الصين والخطا وقطع علاقته بالخوانين العظام، وخاصّة بعد موت قوبيلاي خان في 694هـ/1294م، الذي كانت إيذانا لنهاية وحدة الامبراطوريّة المغوليّة، فأصبح عرش غازان ومنذ عهده يلقّب بالخانيّة عوضا عن الإيلخانيّة الذي كان يعبّر عن تبعيّته للامبراطوريّة المغول الكبرى، وأصبح حاكم إيران يُسمّى بلغة المغول خانا عوضا عن إيلخان الذي يعني نائب الخان الأعظم، ورفض غازان أن ينقش اسم خان الصين على عملة خانية إيران لأنّه كافر وغير مسلم، وأصدر عملة إسلاميّة نقش عليها عبارة "لا إله إلاّ الله محمد

---

(1) أنظر : Grousset(René), Histoire des croisades., T. III, p. 404.

رسول الله"، وخص نفسه بالذكر على العملة وفي الخطبة دون خان الصين، وطرد نائبه من بلاده، وفي نفس الوقت أعطى لنفسه اسما إسلاميا هو السلطان محمود، وهكذا تحوَّل مغول إيران إلى مدافعين أقوياء عن الدين الإسلامي، وأضحت ذريّة هولاكو تدفع به إلى الأمام وتعمل جاهدة لتعويضه عمّا لحق به من خسارة(1).

ومهما يكن من حقيقة إسلامه، فإنّ محمود غازان بذل ما في وسعه لتحطيم كل ما هو وثني، فابتدأ بمعبد أبيه الفخم الذي كان مثالا لمعابد البوذية، ودمره تدميرا، وممّا أصدره من مراسيم فور اعتلائه العرش المغولي في فارس، أنّ الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، وأنّه يجب أن تُجرى الآداب والرسوم وفقًا للشريعة الإسلاميّة، وأنّ على الأمراء والمسؤولين في الدولة أن يتوخّوا العدالة التامّة، ويمتنعوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعيّة، فغيّر المغول، على أثر ذلك، زيّهم ولبسوا العمامة كشارة ملموسة لهذا التحوّل، ويبدو أنّ غازان كان شديدا في معاملته لأهل الذمة في مملكته، ذلك أنّه أوجب تدمير الكنائس النصرانيّة واليهوديّة والمعابد البوذيّة، وتحطيم الهياكل والاصنام البوذيّة، ومجموعات الصور النصرانيّة، وضمّ حطامها بعضه إلى بعض، وهدد بالموت كل من بنى معبدا للأصنام أو النيران، وأصرّ في عام 700هـ/1300م على أن يتحوّل كلّ المغول إلى الاسلام، فتحولت الكثير من الكنائس والمعابد إلى مساجد، واستردّ الدور والقصور والأربطة التي كان المسيحيون قد استولوا عليها عقب استيلاء المغول على بغداد، وأزال ما بها من تماثيل وخطوط سريانيّة وجعل بعضها مجالس للوعظ والإرشاد الإسلامي، وأعيدت الأوقاف والأملاك الاسلاميّة السابقة إلى أصحابها، وأمر هو ووزيره نوروز بحرق الأيقونات المسيحيّة أو بتحطيمها وإلقائها في شوارع تبريز، كما حطّم الكاتدرائيّة النسطوريّة وقصر المطران في مراغة، ونفى مطران هذه المدينة بعد أن ضُرب وعُذّب بشدّة، كما صدرت الأوامر بتخريب كل كنائس جورجيا، وقتل بعض قسيسيها وقدّم بعض سكانها المسيحيين إلى الموت، أمّا الذين هربوا من مثل هذا المصير، فقد سلبت أمتعتهم وبيعت

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 259، 375 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، سنة 694هـ، ص 60؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق سالم الكرنكوي الألماني، دار الجيل، بيروت، 1414هـ/1993م، ج3، ص 212 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام (716- 736هـ/1316-1335م)، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001م، ص33 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 187- 188، 193- 194 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص457، 459.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 147- 148, 463 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 384, 399, 486, 525.

زوجاتهم وأولادهم في سوق الرقيق، وأمر كهنة المغول من البوذيين والشامانيين بالتحول إلى الاسلام أو المغادرة إلى مواطن هاتين الديانتين في التبت وكشمير ومنغوليا، وأنذر من فضّل البقاء منهم في إيران بالقتل إن لم يعتنقوا الاسلام، وجُرّد الكهنة البوذيون الذين لم يبقى منهم إلاّ القليل في البلاد من امتيازاتهم السابقة، ونفّذ سياسته تلك بكلّ شدّة وعنف حتّى أنّه لم يتورّع عن قتل خمسة من أقاربه الأمراء وثمانية وثلاثين أميرا آخرين لمناوئتهم للإسلام، ولم يعد باستطاعة النصارى واليهود أن يظهروا أمام الناس إلاّ في ثياب متميّزة، لأنّ الخان الجديد ألزمهم الغيار، فكان علامة النصارى شدّ الزنار(*) في أوساطهم وعلامة اليهود خرقة صفراء في عمائمهم، وقاسى المسيحيون في عهده كثيرا من الاضطهاد في بغداد والموصل وحمص وتبريز ومراغة وبلاد الروم حتّى أصبح من المتعذر عليهم السير في الشوارع، وصارت نساؤهم يذهبن إلى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لصعوبة التمييز بينهن وبين نساء المسلمين(1)، والواقع أنّ هذه التصرّفات كانت ردّ فعل طبيعي نظرًا لما لاقاه المسلمون من صنوف المهانة والذلة على يد هؤلاء فترة الاحتلال المغولي المجوسي، ونتيجة لسياسة التفرقة الدينيّة، وبذلك انتصر الاسلام في معركته مع المسيحيّة البوذية والشامانية انتصارا نهائيا، وضاع الحاجز الذي كان يحول دون التفاهم بين الحكام والمحكومين في إيران منذ ذلك الحين.

أمّا المسيحيون فقد نالهم قسطا من العذاب إذ كان عليهم أن يُكفّروا عما جنت أيديهم من الانتهاكات والتجاوزات ضد المسلمين، وقد ازدادت حدّة هذه التحرشات، منذ اعتلاء غازان العرش حتّى سنة 1298م وهي السنة التي تزوّج فيها غازان بابنة الملك الأرميني هيثوم الثاني وتمّ الاتفاق بين الطرفين لمهاجمة المماليك المصريّة، وتدخّل غازان بنفسه لمنع أيّة مضايقات ضدّ المسيحيين، بينما كان قد انتهى ملك ونفوذ البطريق النسطوري يابهالاها الثالث في البلاط، وأودع هذا البطريق في السجن ردحا من الزمن، فأخذت النسطوريّة بالذبول والخمود في خانيّة غازان، وتحوّل بعض الأفراد النساطرة إلى الاسلام وانسحب بعضهم وسكنوا في الجبال

---

(*) الزنار جمع زنايِر، وهو حزام، أو وشاح تميّز بلبسه أهل الذمّة في العصور الوسطى. أنظر : عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 198.

(1) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 328 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 194، 198 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 73 ؛ براون : المرجع السابق، ص 566.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 421- 422, 427 ; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 135, 135 note 1 ; Gestes des Chiprois, op. cit., p. 297 ; Luisetto (frederic), Armeniens et autres chretiens d'Orient sous la domination Mongole, L'Ilkhanat de Ghasan (1295- 1304), edition Geuthner, Paris, 2007, p. 71.

الجرداء شمال الفرات الأعلى، وقد ساعد على ذلك أنّ السلطان محمود غازان أخذ في صبغ إدارات الدولة بالصبغة الاسلاميّة، فجعل أعوانه من الوزراء والقواد والكتاب والموظفين من المسلمين خاصّة، مثال ذلك الأمير نوروز الذي عهد إليه بمنصب أمير الأمراء وجعله قائدا عاما للجيش، وصدر الدين أحمد الزنجاني الذي عهد إليه بمنصب الوزارة ولقّبه صدر جهان(1)، ورشيد الدين فضل الله الهمذاني مؤلف كتاب جامع التواريخ الذي اتخذ منه مستشارا ووزيرا(2)، رغم أنّه يهودي الأصل متحوّل إلى الدين الشيعي، واستمرّ هذا الوزير وأولاده من بعده في تولي منصب الوزارة في عهد السلطان محمد خدا بنده وعهد ابنه السلطان أبو سعيد، وظلوا يسيرون على سياسة أبيهم في تحبيب المغول في الاسلام حتى قال أبو الفدا عن أحدهم وهو تاج الدين علي شاه وزير السلطان أبو سعيد أنّه "هو الذي نسج المودّة بين الاسلام والتتر"(3).

ومن الواضح أن حالة من الاضطهاد العام قد لحقت بالمسيحيين وممتلكاتهم من قبل المسلمين الذين شعروا بالتخلص من الضغط الذي دام عليهم عشرات السنين منذ دخول جحافل المغول للبلاد الإسلامية، وقد بلغت العقوبة والانتقام على غير المسلمين درجة اضطر فيها غازان إلى وضع حد لها، وفي هذه الأثناء حضر هيثوم الثاني ملك أرمينيا لتقديم الولاء للإيلخان المغولي، وفي تلك المقابلة طلب الملك الأرمني من غازان التدخل لوقف هدم الكنائس المسيحية، أما المعابد البوذية فقد سمح بالاستمرار في حرقها(4).

وتذكر حوليات جبلاها الثالث، أنّه سرعان ما رجعت العلاقات بين مغول فارس ورؤساء المسيحيّة الشرقيّة إلى سالف عهدها، وبخاصّة مع البطريق النسطوري، فأعطاه غازان

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 73 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 195.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 151- 152 ; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp.136- 137 ; Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXIX, p. 848 ; Luisetto (frederic), op. cit., p. 75 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, pp. 126- 127 ; Howorth (Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 399 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 29.

(2) عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص195.
أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 427.

(3) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 17، ص 154، 249- 250 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 195.
وانظر أيضا : Luisetto (frederic), op. cit., p. 96- 97.

(4) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 164 ; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 139 note 2 ; Luisetto (frederic), op. cit., pp. 75, 76-77.

الترتيبات الكافية ومنحه تقليدا باعفاء رجال الدين المسيحيين الشرقيين من الضرائب وحرية ممارس عقيدتهم، وأرسل منشورات لقواده بالكف عن نهب ممتلكات المسيحيين وتقديم الحماية الكافية لهم والضرب بشدة على من يجرؤ على التعرض لهم، وتؤكد هذه الحولية السريانية أيضا على لسان بطريق النساطرة أنه بالرغم من أنّ غازان قد تحول عن دين آبائه فإنه كان يعطي الاحترام والتقدير الكاملين للبطريق والمسيحيين، وأن البطريق زاره عدة مرات وأن غازان قد قضى ليلة كاملة في دير الأخير بمراغة قبيل رحيله للشام للمرة الثانية، فضلا عن أنّ غازان سمح له وأمدّه بالأموال اللازمة لبناء كنيسة ضخمة في مدينة مراغة حيث حضر عدد كبير من رجال الدين من كل الطوائف والأديان حفل افتتاحها(1).

ويرى بعض المستشرقين، من أمثال الإنجليزي توماس أرنولد، أنّ غازان كان يتّصف بالتسامح الديني لأنّه "عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه، حينما خربت معابدهم، ولم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا، سمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين، ويتبعون ديانتهم القديمة"(2).

وفضلا عن ذلك فإنه عندما ظن بعض العامة في عام 1297م أنهم يستطيعون نهب الكنائس في تبريز أصدر غازان أوامره بإنزال العقوبات بهم، وعندما احتلت قوات المغول دمشق عام 1300/1299م فإن السلطان أصدر أوامره القائلة بأن المسحيين واليهود الذين يدفعون الجزية لا يجوز مضايقتهم(3)، وفوق هذا وذاك فإنه بعد قتل نوروز أصبح المسيحيون واليهود يتمتعون بنصيب كبير من الحرية الدينية، وأوقفت الاضطهادات التي كانت تنزل بهم وإن لم يعودوا إلى المركز الذي كانوا يتمتعون به في عهد الإيلخانيين البوذيين، ولا ندري عن أيّ تسامح يُحدثنا هؤلاء أو في أيّ عالم من السخافات هم هائمون، وهل الذي يدّعي انتماؤه للإسلم والمسلمين ثمّ يدخل بلاد الشام فيستحلّها ستة أشهر فيذبح ويغتصب وينهب ويحرق، يعرف حقوق الإنسان ويُنعت بالتسامح ؟ .

---

(1) أنظر : Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 236 ; Luisetto (frederic), op. cit., p. 100.

(2) أرنولد، المرجع السابق، ص 463.

وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp.281- 282.

(3) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p.248.

لقد كان اعتلاء غازان للعرش نقطة فاصلة في تاريخ دولة المغول في إيران لأنّه حالما اعتلى العرش أعلن اعتناقه الإسلام رسميا على المذهب الحنفي السني، يوم الجمعة 4 شعبان 694هـ/19 جوان 1295م، بتأثير قائد جيشه الأمير نوروز Nawruz المغولي الأصل والمسلم الديانة، الذي وعده بمساعدته ضدّ بايدو مقابل اعتناقه الإسلام، فأعلن غازان إسلامه على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين حموية الجويني، وتسمّى باسم محمود وسمّى أخاه أولجايتو باسم محمّد، وأرسل نبأ إسلامه إلى العراق وخراسان، "وفشا الإسلام بذلك في التتار"(1)، واقتدى به معظم أمرائه وضباطه وجنده بإعلان إسلامهم، وقد بقي معظم حكام إيران الذين تلوه مخلصين لهذا الدين(2).

ويذكر المستشرق الفرنسي دوسن (.d'Ohsson(C أنّ غازان رأى النبي صلى الله عليه وسلّم، في المنام، مصطحبا عليا والحسن والحسين، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلّم آخى بينه وبين الآخرين، ولهذا فإنّ دوسن يقرر أنّه كان شيعيا(3)، رغم أنّه لا وجود لدليل مقنع في المصادر الاسلاميّة على ذلك الادعاء، ويبدو أنّه، إن صحّت رواية الحلم، أنّ غازان أراد بكذبته تلك أن يفضي على نفسه هالة ومكانة عليا بنتسب نفسه لأهل البيت بتلك الطريقة الملتوية ليحصل على تأييد السذج من هذه الأمّة. ومهما يكن من أمر فإنّه لمّا أصبح غازان مسلما كان عليه أن يختار إمّا أن يكون مسلما سنيًا أو أن يكون شيعيا رافضيا، فاختار السنّة، فيما أظهر، لأنّه الدين الذي اعتنقه السواد الأعظم من شعبه، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح لافة للنظر، والحقيقة أننا لا نعدو عن جادة الصواب إذا قلنا أنّ غازان كان في داخله يضمر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلان إسلامه، فقد كان يؤيد بنشاط كثيرا من المؤسسات الشيعية ويزور أصنام كربلاء(4)، وقد ذكر ابن أيبك الدوداري على لسان الخان أولجيتو أخو غازان متبرّءا منه ومن

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 374، 375 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، سنة 694هـ، ص 60 حاشية 1 ؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج3، ص 212 ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ط1، مطبعة الفقير عثمان عبد الرازق، القاهرة، 1302هـ، ج2، ص425 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 188، 189 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص72.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 384, 421.

(2) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، سنة 694هـ، ص 60، وحاشية 1 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 189 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص72.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 384.

(3) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 281; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 453- 454 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 29.

(4) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص72- 73.

أفعاله في المسلمين قوله : "إنّ أخي غازان ما كان له عقل في خراب البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن، وما دخوله الشام برضائي ولا برضا أمراء المغول، فلذلك قتله الله تعالى "(1).

وعلى أية حال تمكّن غازان بدهائه وبفضل هذه القوّة الاسلاميّة النامية، وتأييد الأئمّة والفقهاء الذين وقفوا معه في دعواه ضدّ بايدو من أن يزحف من خراسان وينتصر عل بايدو الذي انتهى أمره بالفرار ثمّ قتله، وبذلك انتقل العرش المغولي في إيران رسميا إلى محمود غازان في ذي الحجّة عام 694هـ/أكتوبر 1295م، ومنذ ذلك التاريخ لم يحكم هذه البلاد أيّ حاكم مغولي غير مسلم حتى نهاية حكم المغول في إيران سنة 756هـ(2).

لقد قضى إسلام غازان وخلفائه بفارس، من بعده، على الهوة السحيقة التي كانت تفصل الحكام والمحكومين بسبب الاختلاف الديني، ونَعِمَ الجميع بأخوّة الإسلام، وبدلاً من المقاومة السلبيّة التي ظلّ المسلمون يواجهون بها حكّامهم الوثنيّين، حلّ تعاون إيجابي من جانب الرعيّة، فأُزيلت الحواجز الجنسيّة والطبقيّة الفاصلة بينهما، ما ساعد على فقدان الطبقة الحاكمة لمميزاتها، واندمجوا أكثر فأكثر في الحضارة الإسلاميّة(3). ووضع هذا التحول حدا لسياسة تفضيل الأقليات المسيحية واليهودية في مقابل تجاهل الأغلبية المسلمة وبهذا تحددت مكانتهم وفُرضت الجزية عليهم وصاروا يعاملون كأهل ذمة.

ويبدو أنّ هناك شكوكا عند بعض المؤرخين حول جديّة إسلام غازان، فهناك من أشار إلى أنّه اعتنق الاسلام ظاهرا وبدافع المصلحة السياسية، وأنّه لم يكن مخلصا في إسلامه(4)، ذلك أنّه شاب هذا التحول شائبتين، أولاها أنّه عزم على الارتداد عندما أخبره بعض الفقهاء بأنّ "دين الاسلام يُحرم نكاح نساء الآباء"، وكان غازان قد استحوذ على نساء أبيه حسب عادة المغول وحظيت إحداهن عنده، وكان اسمها خاتون وأراد أن يتزوّجها، ولكنّه لم يفعل بتأثير بعض خواصه الذين قالوا له "إنّ أباك كان كافرا، ولم تكن خاتون معه في عقد صحيح، إنّما كان

---

(1) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر وجامع الغرر (المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1379هـ/1960م، ج9، ص 127.

(2) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، مصر، الجيزة، 1419هـ/1998م، ج 17، ص 676 ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 420 ؛ أرنولد، المرجع السابق، ص 264 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص33 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 189.

(3) أنظر : Grousset(R.), Histoire des croisades., T. III, p. 457.
وانظر أيضا : الصيّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، ج1، ص261.

(4) عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 189- 190.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 384.

مسافحا بها، فاعقد أنت عليها، فإنّها تصلح لك"، فاستحسنه واستنكحها لنفسه(1)، أمّا الأمر الثاني فيتمثل في غزوه لبلاد الشام مرارا واستحلالها فارتكب فيها من الآثام والمنكرات مثلما فعل أسلافه هولاكو وجنكيزخان الوثنيّين، وحربه وعدائي لسلاطين المماليك في مصر والشام المسلمين، الذين يعتبرون حماة الاسلام ضدّ صليبيّة العالم المسيحي، ووثنيّة المغول في ذلك الحين، كما أنّه أظهر تقاربه مع البابوية وملوك أوربا واستعداده للتحالف معهم في حرب المسلمين في مصر والشام(2).

ولكنّ سياسة غازان الخارجيّة لم تكن تطابق سياسته الإسلامية الداخلية، وكانت تبدو وكأنّها تتناقض تماما مع عقيدته الجديدة التي اعتنقها وأظهر الإخلاص لها، فرغم إعلان غازان الإسلام إلاّ أنّه قضى فترة طويلة من حكمه في محاربة سلاطين المماليك المسلمين مثلما فعل أجداده الوثنيين، بينما كان الأحرى به، إن كان مسلما، أن يحمي ظهر المماليك من هجمات الصليبيين التي بدأت تقصد مصر ذاتها، ولكنه تقارب مع البابويّة وحاول التحالف مع ملوك أوربا المسيحيّة والحصول على مساعدات تلك الدول الأوربية الصليبيّة، فأرسل سفارات إلى ملكي إنجليترا وفرنسا لمؤازرته(3)، واستعان بالنصارى والكرج والأرمن، واستنجد بكل من ركب فرسا من فصيح وألكن(4)، تماما كما فعل هولاكو من قبل، وغزا بلاد الشام أكثر من مرّة وارتكب جنده أثناء هذا الغزو من ضروب التدمير والقتل والفساد وارتكاب المنكرات والاعتداء على الحرمات واتخاذ بعض المساجد اصطبلات، واتخذوا الجامع حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه(5)، وهو السلطان المسلم الذي كان لا يحل له ولا لجنده أن يفعلوا ذلك أو يأتوه.

---

(1) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج3، ص 213 ؛ الشوكاني، محمد بن على بن محمد(1172- 1250م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق محمد حسن خلاق، ط 1، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1427هـ/2006م، ج1، ص 559 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : انتشار الإسلام بين المغول، ص 190.

(2) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 28، 29 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 322، 323 ؛ عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 190.

(3) عبد الحليم، محمّد رجب : المرجع السابق، ص 196- 197.

(4) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 21، 67، 69 .

(5) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 28، 29، 31، 46 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص323- 325 ؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج3، ص 214 ؛ الشوكاني، المصدر السابق، ج1، ص 560.

**ب- الحالة السياسية لمملكة أرمينيا الصغرى في تلك المرحلة :**

حدث في سنة 691هـ/1292م أن دخل جيش السطان المملوكي الأشرف خليل إلى الفرات وحاصر الرملة أين كان يُقيم الأسقف الأرميني، وبعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما اقتحمها فقتل وأسر وسبى وأسر الأسقف، ولتفادي سقوط جميع بلاده في يد المماليك اضطر هيثوم الثاني(1289- 1297م)، ملك أرمنيا الصغرى، إلى التنازل للسلطان الأشرف خليل(689-692هـ/1290- 1293م) عن مُدن بهسنا ومرعش وتل حمدون في رجب سنة 692هـ/1293م، وجدّدوا الولاء والطاعة للمماليك، وأرسلوا إليهم الجزية(1)، ثمّ تخلّ هيثوم الثاني عن العرش لأخيه ثوروس (1293- 1295م) Thoros، إلاّ أنّ هذا الأخير وأصحاب الرأي في أرمينيا الصغرى أرغموا الأوّل على الرجوع لسدّة الحكم، وجدّد هذا الحلف مع الإيلخان كيخاتو Caikhatu في فارس، وزوّج أخته ريثا (Margueritte) Ritha بالامبراطور البيزنطي ميكال التاسع باليوجيوس (1295- 1320م) Michel IX Paléologue، ثمّ تسمّت كسيني (مريم) (Marie) Xéné، وكل ذلك لتقوية ساعده وتأمين خطر المماليك، ولذلك سافر الملك هيثوم الثاني إلى بيزنطة لترسيخ متانة تلك العلاقة، وفي أثناء غيابه استولى أخاه سامباد Sempad على العرش (1296- 1298م)، فسجن أخاه هيثوم الثاي وقتل أخاه الثاني ثوروس Thoros، لكن أخا آخر وهو قسطنطين Constantin (1298- 1299م) ثار عليع وحرّر هيثوم الثاني ثمّ نصّب نفسه ملك على أرمينيا الصغرى مكانه، والمهم أنّه بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون والاضطرابات التي حدثت بسبب ذلك، حاول الأرمن استعادة تلك المدن التي أخذها المماليك منهم، ولمّا علم السلطان المملوكي الجديد حسام الدين لاجين (1296- 1298م) انهماك الإيلخان محمود غازان، حليف الأرمن، في الحرب في الشرق والخلافات الداخلية بين المغول، جهّز حملة لتأديب سمباد ملك أرمينيا الصغرى، فلمّا علم الأخير بالأمر سارع إلى طلب العفو من السلطان لكن الأخير لم يجبه لما طلب، ودخل جند السلطان مدينة سيس في 4 رجب 697هـ/17 أبريل 1297م، فقتلوا وغنموا، ثمّ فتحوا مدينة تل حمدون، ومرعش، وعددا من القلاع الهامّة(2).

---

(1) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 692هـ، ص 240.
وانظر أيضا : Jacques de Morgan, op. cit., p. 210.
(2) المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 697هـ، ص 287 - 289؛ أبو الفدا عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر، ج 4، ص 46- 47 ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 31، ص 213- 215 ؛ موير، السير وليم : تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م، ص 74.
وانظر أيضا : Jacques de Morgan, op. cit., pp. 211- 212, 219.

وعلى أثر تلك الهزائم عزل الأرمن ملكهم سمباد، الذي فرّ إلى القسطنطينية البيزنطيّة، ونصّبوا مكانه أخاه قسطنطين في عام 697هـ/1298م، فدخل هذا في مفاوضات مع المماليك تمخض عنها أن تعهّد العاهل الأرمني بالاستمرار في دفع الجزية للسلطان المملوكي، ويمتنع من التحالف مع المغول ضد المماليك(1).

ولما اعتلى هيثوم الثاني مرّة أخرى عرش أرمينيا الصغرى سنة 699هـ/1299م، أسرع إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للخان محمود غازان، وهو لا يزال يأمل ويسعى في مساعدة المغول للانتقام من المماليك، وبذلك يكون قد تنكّر للاتفاقية التي أبرمت مع المماليك سنة 697هـ/1298م، ويبدو أنّه نجح في سعيه لاحتكاك الطرفين، ولمّا علم بحركة غازان نحو الشام، قصد حلب، وقد نجح هيثوم الثاني في التقدم نحو دمشق، وقد عزم على نهبها وتدميرها مقابل ما فعله المماليك بعاصمته سنة 696هـ/1297م، لكن الأمير قبجق لم يمكّنه من ذلك، واقتصر دخوله إلى بلدة الصالحية، فنهبها وأحرق مساجدها ومدارسها بعد أن أخذ بسطها وقناديلها ونبش الخبايا، وقتل وسبى كثيرا من سكّانها(2).

وهكذا تنكّر الأرمن لتلك الاتفاقية التي وقّعت بينهم وبين المماليك، وشجعهم علي ذلك تحركات التتار بقيادة غازان للهجوم علي الشام 1299م، وعندئذ اضطرت دولة المماليك إلي الانسحاب من المدن الأرمنية التي في حوزتهم، وكان الغرب الأوربي والبابوية قد شرعوا في فرض الحصار الاقتصادي علي المماليك، فشاركت معهم مملكة أرمينيا الصغرى وفتحت موانيها، وبخاصة ميناء إياس، للسفن الغربية، وخفّض الأرمن الضرائب علي البضائع المارة عبرها، فأقبال الكثير من التجار الأوربيين علي الطرق والمواني الأرمينية، وبطبيعة الحال غضب المماليك علي ذلك الوضع، وخصوصاً بعد أن ظهر جليا التحالف بين الغرب الأوربي والمغول والأرمن وقبرص الصليبية، وذلك بهدف احكام الحرب الاقتصادية ضد المماليك في مصر والشام.

**ج- <u>عداء غازان للمماليك والتماطل الأوربي</u> :**

رغم أن غازان أظهر الإسلام منذ بداية عهده، وقطع علاقة التبعية بالخاقان المغولي البوذي في بكين الصينيّة، وانتهج عدة إصلاحات في بلاده على النمط الإسلامي، إلا أن العلاقات العدائية مع المماليك لم تتوقف في عهده مثلما توقفت في عهد تكودار أحمد (1282- 1284م)،

---

(1) أبو الفدا عماد الدين إسماعيل : ج 4، ص 48.

(2) ابن كثير : البداية والنهاية، ج 17، ص 721 ؛ المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 699هـ، ص 323.

أول إيلخان مغولي مسلم في فارس، بل ازدادت سوءا لدرجة أن غازان (694-703هـ/1295-1304م) قام بغزو الشام ثلاث مرات وهزم المماليك لأول مرة في ديسمبر عام 1299م، واحتل الشام لعدة شهور حتى مايو عام 1300م، ولا غرو أن استمرت اتصالاته ببقايا الصليبيين في الشرق، وهم فرسان الداوية والإسبتارية في قبرص وملك قبرص نفسه فضلا عن أتباعه الأرمن، وبالغرب الأوربي، على حد سواء، وإذا كان غازان قد قرر انتهاج السياسة التقليدية لأسلافه بمحاولة ضم بلاد الشام لسيطرته، فلقد شجعه على ذلك فترة عدم الاستقرار في السلطنة المملوكية بحيث أن أربعة سلاطين اعتلوا العرش في أقل من عشرة أعوام (1290-1299م) وقتل اثنان منهم، وطرد الثالث، ونفي الرابع مؤقتا لإمارة الكرك، فقد تولى الأشرف خليل السلطنة من نوفمبر 1290م حتى قتله بيدرا ولاجين في ديسمبر عام 1293م، ثم تولى شقيقه الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، وكان طفلا صغيرا، بالاسم فقط من 1293م حتى 1294م، ثم نفاه قادة المماليك إلى إمارة الكرك سنة (696هـ/1296م)، وتولى كتبغا من ديسمبر 1294م حتى نوفمبر 1296م، ثم دبّر بعض قادة المماليك مؤامرة لاقصائه إلى الشام، وتولى حسام الدين لاجين من نوفمبر 1296م حتى قتله بعض المماليك في شهر جانفي/يناير 1299م، واستدعوا الناصر محمد من منفاه الاختياري لتسلم السلطنة في شهر فبراير 1299م(1).

كانت حملة الخان غازان الأولى على بلاد الشام في ديسمبر سنة 1299م(*) مدعوما بملك أرمينيا الصغرى هيثوم الثاني Hethoum II على رأس خمسة آلاف مقاتل أرميني، فقد غادر عاصمته تبريز في 19 محرّم 699هـ/16 أكتوبر 1299م على رأس جيش كثيف وعلى مقدمته قتلغ شاه (أو قطلوشاه )، وعبر نهر الفرات في 12 ربيع الأوّل/7 ديسمبر، ثم وصل قبالة حلب يوم 17 ربيع الأوّل/12 ديسمبر، وكان السلطان المملوكي الناصر محمد قد خرج من القاهرة يوم 22 سبتمبر 1299م على رأس جيش بلغ بضعة وعشرين ألف مقاتل، حينما وصلته أنباء استعدادات عازان، بينما كان الأخير في نحو مائة ألف، ويبدو أنّ الأمراء الذين خرجوا مع

---

(1) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحريّة، مكتبة النهضة المصريّة، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1967م، ص 61- 69.
وانظر أيضا : Ziada(Mustafa M.), the Mamluk Sultans(1291- 1517), in Setton (Kenneth M.), A History., 1975, T.III, p. 487 .

(*) قد يبدو ثمّة تساؤل عن الأسباب التي دفعت غازان بعد اعتناقه الاسلام إلى مهاجمة بلاد الشام، ومعاداة سلاطين المماليك، والحقيقة أنّ أقوال المؤرّخين قد تضاربت عند ذكر تلك الأسباب، فقد قيل أنّ الفتنة التي دبّت بين الجانبين نشأت على أثر هروب أعداد من المغول الأويراتيّة بزعامة "طرغاي"، الذي تآمر من قبل مع الخان السابق بايدو على اغتيال عم غازان وهو كيخاتو ابن أباقا، ففرّ طرغاي هذا إلى مصر سنة 695هـ خوفا من ثأر غازان لعمّه منه، ووجد ومن معه ترحيبا بالغا من السلطان المملوكي العادل كتبغا صاحب مصر.
أنظر : ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، سنة 695هـ، ص 51. =

السلطان لم يكونوا على وفاق وساد بينهم التباغض بدليل أنّه لم يكد السلطان يصل إلى غزة حتى اكتشف مؤامرة دبّرها زعماء الطائفة العويراتية Ouirates المغوليّة وانضمّ إليهم الأمراء الناقمون على سياسة السلطان وحاشيته فنتج عن ذلك فوضى وارتباك في صفوف الجيش المملوكي وفي النهاية أحبطت المؤامرة ولقي المتآمرون جزاء فعلتهم وقُتل من العويراتية نحو خمسين رجلا بينما فرّ الباقون إلى غازان، أمّا غازان فقد احتلّ حلب ثمّ هزم الجيش المملوكي المصري في موضع على أميال قليلة شمال حمص يوم 27 ربيع الأوّل 699هـ/22- 23 ديسمبر 1299م، وسمّيت الواقعة بمعركة مجمع المروج، ثمّ دخل دمشق يوم 10 ربيع الثانية/6 جانفي 1300م بعد أن أعطى أهلها الأمان(*)، لكنّ المغول ومن معهم من الأرمن غدروا بهم وأعملوا السيف في الصالحيّة والمزّة وداريّة وهي قرى كبيرة تابعة لدمشق، فقتلوا وسبوا وأحرقوا المساجد والمدارس، وكان غازان بعد دخوله بلاد الشام وقُبيل التحامه مع المماليك، ومن موضع بين حلب ودمشق، قد أرسل رسالة مؤرخة في 21 أكتوبر 1299م إلى ملك قبرص وإلى مقدمي هيأتي الداوية (فرسان المعبد) والاسبتاريّة يدعوهم للانظمام إلى حملته على الشام، ووصلت تلك الرسالة إلى قبرص في 3 نوفمبر 1299م، لكن ملكها ومن معه لم يتّفقوا على خطّة موحّدة، وبعد طول انتظار أرسل إليهم غازان رسالة أخرى أواخر نوفمبر 1299م(1)، لكن هيهات.

---

= وحينما ثار سلامش بن أفال نائب غازان ببلاد الروم وأعلن خروجه عن طاعة غازان سنة 698هـ/1288م وجاء إلى مصريطلب مساعدة السلطان المملوكي له، وجد هو الآخر ترحيبا كبيرا.

أنظر : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 698هـ، ص 313.

ومعنى ذلك أنّ مصر صارت مأمنا لكلّ راغب في الخروج على سلطان المغول في إيران، مما جعل غازان يتّخذ موقفا عدائيا تجاه المماليك، ويستقبل هو الآخر الخارجين عن طاعة المماليك، فاستقبل الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق السابق وأصحابه الذين خرجوا على السلطان المملوكي حسام الدين لاجين.

أنظر : عاشور فايد حامد : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص 145.

وقيل أيضا أنّ سلاطين المماليك كانوا يحاولون إخراج بغداد من قبضة المغول بعد أن استولوا بالتدريج على جميع الشام وسواحل البحر المتوسط من الصليبيين، وبلغوا شاطئ الفرات الأعلى، وكانوا يرغبون في إحياء الخلافة العباسيّة في بغداد فقام غازان مدافعا عن أملاكه.

أنظر : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص462.

وقيل أنّ غازان أراد بعد اعتناقه الاسلام السيطرة على دار الاسلام عن طريق إسقاط المماليك في مصر والشام وبعدها يكون البديل الأفضل بعدهم، لأنّ المماليك في حقيقة أمرهم أرقّاء لا يشرع لهم حكم من فوقهم.

أنظر : صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 35.

(*) أنظر نص فرمان الأمان عند النويري : المصدر السابق، ج31، سنة 699هـ، ص 244- 246.

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 320- 324 ؛ الهمداني : جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، ص 160 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 690هـ، ص 330- 331، 332- 333 ؛ النويري : المصدر السابق، ج31، سنة698هـ، ص 222، 240، سنة699هـ، ص 240- 242، 247، 248.

وانظر أيضا : Gestes des Chiprois, op. cit., p. 300; Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XXXIX, p. 848-849 ; Schein (Sylvia), op. cit., pp. 810 ; Denis Sinor, op, cit., p. 535 ; Knobler (Adam), Pseudo-Conversions and Patchwork Pedigrees: The Christianization of Muslim Princes and the Diplomacy of Holy War, Journal of World History, Vol. 7, No. 2 (Fall, 1996), p. 187; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 228- 239, 245- 249, 253.

ويبدو أنّ غازان كان محيطا بالأوضاع السياسية في المنطقة ومطّلعا على قوّة أعدائه المماليك الاسلاميّة المصرية، ولا بدّ أنّه كان يشعر باستحالة مواجهة أعدائه بمفرده، فلم يشأ أن يغامر بجيشه دون استنفار جميع الحلفاء، ولذلك فانه بعد دخوله إلى بلاد الشام وقبيل التحامه مع المماليك أرسل رسالة في صفر 699هـ/نوفمبر 1299م عن طريق سفيره، الإيطالي الجنسيّة من مدينة بيزا، وهو زولوس بوفيتي Zolus Bofeti المعروف تحت اسم إيسول البيزي Isol of piza، إلى ملك قبرص هنري الثاني (684-725هـ/1285-1324م) Henry II ومقدمي الإسبتارية والداوية هناك يُبلغهم بأنه سيغزو الشام في الشتاء التالي ويطلب منهم مقابلته في أرمينيا للانضمام إليه في حملته تلك، نظير إعطائهم بيت المقدس في فلسطين، فاجتمع الثلاثة وهم هنري الثاني، وجامس دي مولاي James de Molay (أو Jacques de Molay) مقدم الداوية، ومقدّم فرقة الاسبتاريّة ويليام دي فيلاريت William de Villaret (أو Guillaume)، في نوفمبر عام 1299م، للتشاور في الأمر فكانت حصيلته رفض مقترح التحالف، ورغم أن غازان أرسل إليهم رسالة ثانية في نهاية ذلك الشهر إلاّ أنّ ذلك لم يغيّر من الموقف شيء(1)، ومن ثم اضطر الخان المغولي للاعتماد على قواته وقوّات أرمينيا الصغرى، واستطاع هزيمة المماليك في 22- 23 ديسمبر عام 1299م وطردهم مؤقّة من الشام، ثمّ أناب غازان على دمشق الأمير سيف الدين قبجق(*)، وأناب على حلب وحماة وحمص الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، وفي نيابة صفد وطرابلس والساحل الأمير فارس الدين الألبكي (أو البكي)، وكلّهم من حلفائه وأتباعه المتمردين على إخوانهم المماليك في مصر، وجعل على كل واحد عدة من المغول، وأقام أحد قواده المغول وهو قتلغ شاه (أو قطلوشاه) مقدمًا عليهم لحماية

---

(1)أنظر : Riley(Smith Jonathan), The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (1050- 1310), London, 1967, pp. 198-199; Denis Sinor, op, cit., pp. 533-536 ; Knobler (Adam), op. cit., p. 187.

(*) كان قبجق من بين أمراء المماليك الذين فرُّوا إلى بلاط غزان، خوفًا على أنفسهم بعد مقتل السلطان المملوكي لاجين، وكان قبجق حاكما لدمشق قبل ذلك، ومن الطبيعي أن يستقبلهم غازان ويحيطهم بالرعاية والإحسان ليصل بواسطتهم إلى معرفة معلومات عسكريّة وسياسيّة جديدة تفيده في تحقيق انتصارات جديدة على المماليك، وقد ساعدت غازان الظروف السياسيّة المضطربة التي ألمّت بالمماليك إثر مقتل السلطان لاجين وعودة الناصر محمّد إلى الحكم، فبعد المعلومات التي وصلته عن ذلك، قدم غازان إلى بلاد الشام سنة 699هـ/1299م بجموع عظيمة من قوميّات مختلفة كرج، وأرمن، وغيرهم، وجلب معه هؤلاء الأمراء الهاربين وذلك للتخطيط ولمساعدته ضدّ إخوانهم، والتقى الجميع في مجمع المروج، وحلّت الهزيمة في البداية بغازان نتيجة ارتفاع الروح المعنويّة للعساكر المصريّة، وحظيّتهم بدعم الرعيّة لهم من العامّة والفقهاء والعلماء وانضمام البدو والتركمان إليهم، وامتلاك المماليك لطاقات حربيّة هائلة وخطط جديدة يجهلها المغول، وكاد غازان أن يترك أرض المعركة لكن قبجق منعه، وحثّه على القتال، ومنّاه بالظفر حتّى تغلّب، وقد برّر قبجق فعلته فيما بعد بأنّ قصده كان القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه.

أنظر : النويري : المصدر السابق، ج31، ص 241- 242 ؛ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد: العبر، ج5، ص618.

الشام، وجرّد عشرين ألفا من عسكره وعين أربعة من المغول بالأغوار، واستعاد هيثوم الثاني من المماليك المناطق التي أخذت منه من قبل(1).

وفي يوم الجمعة 12 جمادى الأوّل/4 فبراير 1300م اضطر غازان على الانسحاب من الشام بسبب هجوم مغول الجغطاي بقيادة بايدو Baidu على الحدود الشرقية لإيران، وأثناء ذلك كتب سلطان مصر إلى المماليك الذين خرجوا عن الجماعة وناصروا غازان يدعوهم إلى الرجوع والطاعة، فعادت أجوبتهم بالامتثال واتحدوا مع أقرانهم في مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام في مايو عام 1300م بعد فترة احتلال مغولي لها قاربت ستة شهور(2).

وبعد تردد وتريّث وفوات الأوان تشجّع هنري الثاني لوسينيان(أو لوزجنان) Lusignan ملك قبرص وهيّأ حملة بحريّة تعدادها ست عشرة سفينة كبيرة وبضعة سفن صغيرة انطلقت في شهر شوال 699هـ/20 جويليا 1300م من ميناء فاماجوست Famagouste شرق جزيرة قبرص بمشاركة الاسبتاريّة والداوية، واتجهت نحو مصر فنهبت مدينة الرشيد Rosetta الساحلية والمواقع الساحلية الأخرى حتى مدينة الاسكندرية وأُسرت سفينة مغربيّة، ثمّ قاموا بغارات فاشلة ضد عكا وطرسوسة وجزيرة إرواد Island of Ruad، التي كانت في البحر أمام طرسوسة، وعندما وصلوا أمام ميناء مرقبة Maracleas نزل فيه الاسبتاريّة ثمّ لم يلبثوا أن طُردوا منه فرجعوا صحبة أسطولهم مع الداوية والقبارصة إلى جزيرة قبرص بعد أن أرسلوا قوة صغيرة إلى أرمينيا الصغرى، على أنّ الاسطول نفسه أعاد الكرّة على الساحل الشامي في شهر ربيع الأوّل عام 700هـ/نوفمبر 1300م بعد أن أرسل إليهم الخان غازان رسوله ووعدهم بملاقاتهم هناك في حملة مشتركة، ذلك أنّ غازان كان لا يزال مصمّما على غزو بلاد الشام مرّة ثانية لضمّها هي ومصر إلى أملاكه، ورأى في محرّم 700هـ/سبتمبر 1300م أنّ الفرصة أضحت مواتية لذلك فأرسل إلى الأمراء الفرنج يدعوهم للالتحاق به في أرمينيا الصغرى، وكان الفصل شتاء، فخرج من تبريز متوجها إلى حلب عن طريق الموصل،

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 325 ؛ النويري : المصدر السابق، ج31، سنة699هـ، ص 248- 249.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 256; Jacques de Morgan, op. cit., p. 213.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 325، 328 ؛ النويري : المصدر السابق، ج31، سنة699هـ، ص 248- 249 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص463.
وانظر أيضا : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XLI, p. 851; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 256, 263.

وفي هذه المرّة كانت استجابة ملك قبرص Chypre إيجابيّة، وبلغ عدد جند هذه الحملة الفرنجيّة الجديدة ثلاثمائة فارس قبرصي بقيادة عمروي (أو أماليك) Amalric أو Amaury لوسينيان (أو لوزجنان) أخو ملك قبرص هنري الثاني وزوج إزابيلا Isabelle أخت هيثوم الثاني ملك أرمينيا، ومثلهم من فرسان الداوية والاسبتاريّة، فاحتلوا في البداية مدينة طرسوسة Tortosa، وقد التحق كل من جي الإبليني Guy d'Ibelin وهو أحد الشخصيات القبرصية ويوحنا الأنطاكي Jean d'Antioche وهو أحد مقدمي الاسبتاريّة في قبرص، وقوّاتهما بملك أرمينيا الصغرى هيثوم الثاني في قيليقيا، فلمّا تأخّر قدوم المغول انسحبوا منها وتحصّنوا في جزيرة أرواد في مواجهتها، ثمّ انسحبوا منها إلى قبرص بعد أن علموا أنّ الجيش المغولي الذي أرسله غازان إلى شمال الشام بقيادة قطلوشاه لم يصل إلى المنطقة إلاّ في شهر فبراير التالي ثمّ رجع إلى بلاده بعد مناوشات قليلة قام بها بين حلب وحمص، وحقيقة الأمر أنّ غازان خان كان مجبرا هذه المرّة للرجوع على أعقابه قبل وصوله إلى حلب بسبب الأحوال الجويّة السيئة، فقد هطلت الأمطار والثلوج بغزارة وكثر الوحل واشتدّت البرودة فهلك كثير من جند المغول كما نفق أكثر خيلهم ودوابهم وكان غازان قد وصل في غضون ذلك إلى أنطاكية فتفطّن لعجزه عن الاستمرار في الزحف واضطر للعودة إلى إيران في جمادى الأولى 700هـ/جانفي 1301م بعد أن نهبت قواته أنطاكية وجبل السماق القريب من حلب فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار شيئا كثيرا وسبوا من النساء والصبيان وأسروا من الرجال خلقا كثيرا واشترى الأرمن منهم ما لا يُحصى وسيّروا في المراكب إلى بلاد الفرنج(*)، وهكذا لم يحقق التحالف الفرنجي المغولي مرّة أخرى أيّ تجسيدا فعليا لعمليّة عسكريّة مشتركة (1)، أمّا الداوية فقد شيّدوا قلعة في جزيرة أرواد عام

---

(*) وقد استنكر وفضح شيخ الاسلام ابن تيميّة هذا التحالف بين غازان وملوك أرمينيا وصقلية، وطالب ملك صقليّة بتحرير الأسرى المسلمين عنده في رسالة مطولة إليه اشتهرت في التاريخ بالرسالة القبرصيّة.
أنظر : أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة : كتاب شيخ الاسلام ابن تيميّة إلى سُرجوان ملك النصارى الشهيرة ب "الرسالة القبرصية"، مكتبة الحفظ الذهبي، ط1، باب الوادي، الجزائر، (1429هـ/2008م)، ص 54 وما بعدها.

(1) أنظر : Hayton, La Fleur des Histoires., chapitre XLI, p. 852; Gestes des Chiprois, op. cit., pp. 303- 306, 309; Riley(Smith Jonathan), The Knights., p. 199; Denis Sinor, op, cit., p. 535 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 426 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 282- 285, 285 note 1.
وانظر أيضا : المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص336- 337، 348 ؛ المنصوري، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة700هـ، ص 349، 350، 351 ؛ النويري : المصدر السابق، ج31، سنة700هـ، ص 257، 258؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، سنة 700هـ، ص 107.

701هـ/1301م(1)، لكن الأسطول المملوكي الصغير الذي خرج من مصر وصل الجزيرة في شهر محرّم عام 702هـ/أوت 1302م وتمكّن من إلحاق الهزيمة بهم في شهر ربيع الأول/ أكتوبر بعد صمود طويل، حيث قتل وأسر جميع سكانها، ورجع الأسطول الإسلامي محمّلا بالأسرى والغنائم إلى الديار المصريّة، وعادت الجزيرة إلى أهلها الشرعيين(2)، وبذلك لم تثمر جهود واتصالات غازان بالغرب المسيحي، في هذه الفترة، من أجل التعاون على كسر المماليك الاسلاميّة في مصر والشام بشيئ.

والحقيقة أنّ غازان كان يأمل حقا في مساعدة جيرانه وملوك أوروبّا في انتزاع بلاد الشام من المماليك، ولمّا راسل كل من ملكي إنجليترا وفرنسا بشأن ذلك لم يلق التأييد المرتجى، فعندئذ عوّل على التحايل بمهادنة المماليك فأرسل إلى الناصر محمّد رسالة سنة 700هـ/1300م حملها وفد مؤلّف من عشرين رجلاً أُنزلوا بقلعة دمشق وعلى رأس هذا الوفد الأمير ناصر الدين علي خواجا، والقاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل، وقد سلّم هؤلاء الكتاب للناصر محمّد، وفيه عاب غازان على الناصر محمّد مهاجمة بلاد الروم دون سبب، وأنذره بالقتال إذا لم يرتد عن أفعاله، وأمره أن يعدّ له الهدايا والتحف، وهكذا كانت رسالة غازان تحمل المهادنة التي ضمّت بين طيّاتها التهديد والوعيد وكأنّها صادرة من حاكم إلى من هو دونه، كما أنّها شملت بعض الآيات القرآنيّة والمواعظ الإسلاميّة(3).

لقد كان غازان، من خلال رسالته تلك، يسعى إلى تبرير غزوته إسلاميًا، فاحتجّ إلى سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون بأنّها جاءت ردًا على "إغارة عسكر مصر على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم... فطرقوا البلاد، وهتكوا محارم الله عزّ وجلّ... وأكلوا الحرام، وركبوا الآثام، وفعلوا ما لم تفعله عبّاد الأصنام : فأتانا أهل ماردين وبلادها مستصرخين... فوقفوا بأبوابنا ولاذوا بجنباتنا، فهزّتنا نخوة الكرام، وحرّكتنا حميّة الإسلام..."، ويُؤكد في رسالته، التي أرسلها إلى السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون في عام 700هـ/1301م، أنّ السبب الذي حمله على غزو بلاد الشام هو أخذ القصاص لأهل ماردين

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 348.

(2) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 354 ؛ المنصوري ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج42، أحداث سنة 702هـ، ص 366.

(3) فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 207.
وانظر نص الرسالة عند : القلقشندي : المصدر السابق، الجزء 8، ص 69-71.

وديار بكر وفقًا للنصوص الشرعيّة(1)، هذا و قد اعترف الناصر محمد بن قلاوون بهجوم قام به بعض الجند ضدّ أهل ماردين، وارتكابهم ما أشار إليه غازان في رسالته، لكنه برّر بأن ذلك لم يكن عن رأيه ولا بأمره(2)، كما أسند تلك الغارة لسبب آخر وهو عدم وجود الصلح أو موادعة بين الطرفين(3).

واستند غازان إلى سبب آخر حين اتهم سلاطين مصر بالعدوان والفساد وأشار إلى ظلمهم وخروجهم عن الإيمان الصحيح، وأنّ في غزوه إنقاذًا للبلاد من هؤلاء الحكام الظلمة والفاسدين(4)، وهو حريص على إقامة العدل بين الرعيّة.

وممّا لا شكّ فيه بأنّ بعض أمراء المماليك الذين فرُّوا إلى بلاط غزان، خوفًا على أنفسهم بعد مقتل السلطان المملوكي لاجين، وعلى رأسهم قبجق – قنجاق – أعطوا الخان المغولي صورة سيّئة عن سياسة سلاطينهم في بلاد الشام، وحثوه على القيام بغزو تلك البلاد، لإنقاذها من ظلمهم، ولإقامة الحق والعدل، وإعادة الإسلام إلى قلوب أهلها(5).

ولكن كيف يتفق ذلك مع عبث جنده في النواحي، وما قاموا به من فساد وإفساد وارتكاب أشنع الجرائم والمنكرات بحق السكان(6)، وما هو موقفه من تلك الأفعال التي جعلت البعض يشكك في إخلاصه للإسلام، والجواب على ذلك أنّ هؤلاء القوم اتخذوا كلمة الاسلام وإصدار العهود والوعود مطيّة لخداع الأمّة، فهي كلمة حق أريد بها باطل، ليأتي السمّ من العسل على العامّة من الرعاع والسذّج من حيث لا تحتسبون، وذلك فعلهم الذي عهدناه منذ أوّلهم، جنكيز خان، إلى أواخرهم.

وقد ذكر ابن أيبك الدواداري على لسان الخان أولجايتو أخو غازان متبرّءا منه ومن أفعاله في المسلمين قوله : "إنّ أخي غازان ما كان له عقل في خراب البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر

---

(1) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر، ج9، ص 53-55.
(2) المصدر نفسه، ج9، ص 66، 67.
(3) القلقشندي : المصدر السابق، الجزء 8، ص 69-71.
(4) يُفهم ذلك من نصّ الأمان الذي أعطاه غازان لأهل دمشق في عام 699هـ/1300م.
أنظر : ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر، ج9، ص 21.
(5) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 338 ؛ النويري : المصدر السابق، ج31، ص 241- 242 ؛ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد: العبر، ج5، ص618.
(6) ابن أيبك الدواداري : المصدر السابق، ج9، ص 28، 29، 31، 46.

الباطن، وما دخوله الشام برضائي ولا برضا أمرا المغل، فلذلك قتله الله تعالى "(1).

والحال أنّه لم يعطي كل من كيخاتو وبايدو، وغازان، أوّل حكمه، أيّ أهميّة للغرب الأوربي، وقد انقطعت الاتصالات المغولية الأوربيّة منذ عشريّة، ولكنّ الأطماع الأوربيّة في حملة مشتركة مع المغول من أجل استرداد الأراضي المقدّسة في فلسطين لم تزل حيّة تُدغدغ أحلامهم، وقد أشارت تقارير الحوليات الأوربيّة لفترة 1298- 1300م والمسماة "الرب يتدخّل من خلال المغول Gesta Dei per Mongolos " في مادّتها إلى مسألة غزو بلاد الشام من طرف المغول وتسليمهم الأماكن المقدّسة للمسيحيين(2).

وقد تناقلت أنباء غزو غازان لبلاد الشام في ديسمبر عام 1999م، في أوربا، بكثير من التضخيم والتشويه للأحداث التاريخيّة الحقيقيّة إلى حدّ الأساطير والنبوؤات، وتواطأ وتوافق المؤرخون الأوربيون المعاصرون لغازان على نقلها، ومفادها أنّ غازان استولى على بيت المقدس من المماليك المصريّة وسلّمه للاتين، ذلك أنّه وصلت الغرب الأوربي عدة أخبار ورسائل ما بين شهر فيفري 1300م وسبتمبر من نفس السنة تبشّر باستيلاء غازان على فلسطين وبلاد مصر وتسليمها للمسيحيين وتسليم هيأتا الاسبتاريّة والداوية أملاكهما، وأنّه ضرب عملة نقديّة مكتوب على إحدى جهاتها العبارة المسيحيّة "باسم الأب والإبن وروح القدس In nomine Patris, Filii, et Sancti Spiritus"، بينما كانت الحقيقة غير ذلك تماما، وقد أسندت معظم تلك الروايات استرجاع بيت المقدس لتحالف تمّ بين خان إيران وملكا كل من أرمينيا الصغرى وجورجيا، وبعضها أضاف إليهم هنري الثاني لوسينيان Lusignan ملك قبرص Chypre، وملك صقليا Grèce، وفي بعض الروايات الأخرى المتداولة أنّ الخان غازان غيّر عقيدته وصار نصرانيا، ويجب أن نُذكّر أنّ هذه التقارير وصلت في سنة 1300م وهي قريبة جدا من تاريخ سقوط عكا وإجلاء الصليبيين من الشام نهائيا، وأنّه لا أحد من أباطرة أوربا كان مستعدا لتحمل حملة صليبيّة إلى الشرق، وكما بيّنت الباحثة سيلفيا شين Sylvia Schein فإنّ التفاؤل كان حقيقيا وجدّ منتشرا، وكان القس رايمون لول Ramon Lull جدّ مقتنع بتحول الخان إلى المسيحيّة، وأنّه لما سمع بأنّ غازان قد زحف على بلاد الشام في سنة

(1) ابن أيبك الدوداري : المصدر السابق، ج9، ص 127.

(2) أنظر : Paviot(Jacques), op. cit., p. 315.

1299م بجيش يقدر بمائة ألف جندي، سارع للسفر إلى الشرق وأبحر إلى قبرص في أمل لقائه شخصيا والمساهمة في تنصير مغول إيران كافّة، ولكنه عندما وصل إلى الشام وجد أنّ الخان قفل عائدا إلى بلاد فارس، ولم يحدث شيء ممّا خطط له هذا الأخير، مما جعل "لول" يشعر بخيبة مسعاه، ومع ذلك فقد حاول إقناع ملك قبرص هانري الثاني لوسينيان Henri II de Lusignan بمساعدته في سفر إلى العراق ومصر وآسيا الصغرى وبلاد الشام للعمل على كثلكة المسيحيين الشرقيين، لكنه فشل في ذلك أيضا، مما جعله يعود إلى باريس بهدف التفاهم مع أساتذة جامعتها فيما يتعلّق بخططه التنصيرية، ومناظرة المسلمين لدرء خطرهم، الذي استفحل في تلك الآونة، على المعتقدات المسيحية، ومهما يكن فإنّه يبدو أنّ الصراع القائم بين انجلترا وسكتلندا l'Angleterre et l'Ecosse وبين فرنسا والفلندرس France et la Flandre قد شغلت ملوك أوربا كليّة وجعلت قيام حملة صليبيّة إلى الشرق من المستحيلات، بينما كان غازان جادا في سعيه ومثله جاك دي مولي مقدم الداوية Jacques de Molay, le maître des Templiers الذي كتب إلى ملك انجلترا إدوارد الأوّل Edward I وإلى جيمي الثاني ملك أراجون (690-728هـ/1291-1326م) (Jaume II ou James II ou Roi d'Aragon Jacques II) للانظمام إلى حملة غازان، لكنّ هؤلاء لم يصدر منهم جواب، ورغم أنّ أوربا أعطت كلّ الأهميّة اللازمة لمسألة التعاون مع غازان ونوقشت بكلّ وضوح، ويدلّ على ذلك سلسلة من رسائل البابا Boniface VIII إلى الاستقراطيّة في جنوة، إلاّ أنّه في النهاية ذهب كل جُهد وتشجيع غازان للغرب أدراج الرياح، ومن هذا المنطلق نلاحظ أنّ كلّ جهود أوربا لتنصير المغول قد تُركت جانبا ليقوم مقامها محاولات بسيطة لتحالف عسكري، ولمّا مات غازان سنة 1304م لم يذكره الغرب إلاّ قليلا، وهو الذي أحيطت حوله من ذي قبل، حين غزا الشام، هالة من الأساطير وبأنّه مخلّص بيت المقدس(1)، وممّا لا شكّ فيه أنّه يبدو أنّ انتشار تلك الإشاعات لم يكن إلاّ ردّة فعل عاطفيّة لظروف استثنائيّة ونوع من التعويض النفسي لدى هذه الشعوب التي رفضت أن تعترف بهزيمتها من المسلميين وضياع القدس من بين أيديها إلى الأبد.

لقد صوّرت الحوليات الأوربية المعاصرة شخصية الخان غازان بإرادة الله Gesta Dei

(1) أنظر : Knobler (Adam), op. cit., p. 188 ; Schein (Sylvia), op. cit., pp. 805; Denis Sinor, op, cit., p. 535 ; Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, pp. 90- 91 ; Hillgarth(J.N.), Raymon Lull and Lullism in fourteenth centry, Oxford, 1971, p. 73- 74.

per العليا لرجوع المسيحيين إلى أرض فلسطين المقدّسة، وأنّ الله أراد تخليصها من الشقاء الذي عانته على أيدي المسلمين والانتقام لدماء الصليبيين التي سالت فيها على أيدي المماليك المصرية، وبما أنّه لم يجد بين أبناء الكنيسة من يستحق هذه المهمة اختار خان المغول، الكافر Païen، لذلك، ورغم أنّ معظم هذه الحوليات بقيت سامتة حول ديانته إلاّ أنّ بعضها ذهب، جهلا، إلى تقديمه كمسيحي وأنّ باعتناقه المسيحية تحوّل كلّ المغول إليها أيضا، وتمادت أخرى بذكرها أنّ المسيح ظهر للخان وأمره بنفسه بالانتقام من أعدائه المسلمين، وأنّ أباه أراغون أمره أيضا وهو على فراش الموت بمحاربتهم، وأنّ الأنبياء قد نبّؤوا بقرب زوال الإسلام، وأنّ الخان لم يكتفي باسترجاع فلسطين بل واحتلّ أيضا مصر وأنّه حرّر جميع الأسرى المسيحيين في مصر والشام وأرسل إلى البابا بونيفاس الثامن يطلب منه حثّ رعاياه بالقدوم لاستوطان كل تلك الأراضي المحرّرة، وقد ظهر إسم غازان في رسالة رسميّة مؤرّخة في 7 أبريل عام 1300م بعثها البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (1294-1303م) إلى إدوارد الأول يخبره بأنباء الشرق السارّة(1).

وفي 22 فبراير 1300م أعلن البابا أنّه سيمنح امتيازات الغفران لكلّ المسيحيين الذين سيحجون إلى كنيسة القديسين بروما la basilique des saints- apôtres فكانت استجابة الشعوب الأوربية عارمة وتعدّت كل التصوّرات البابويّة، ذلك أن عام 1300م كان سنة الغفران Jubillee Year بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرنا على مولد المسيح "عليه السلام"، ولهذا حمل آلاف الحجاج، الذين كانوا في روما، أخبار هذه السفارة المغولية والإشاعات التي سبقتها إلى بلدانهم في مختلف أنحاء أوربا(2).

ويبدو أنّ الأخبار الأولى عن استرجاع بيت المقدس قد جاءت من قبرص لتصل إلى البندقيّة وتنتشر من هناك في إيطاليا فتصل روما ولومبارديا وبعدها ألمانيا، وكانت أولى تلك الرسائل قد وصلت من قبَل دوج البنادقة Venise بييترو جرادينيجو Pietro Gradenigo (1289- 1311م) الذي كتب في 19 مارس عام 1300م إلى البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII يبلغه بالأنباء التى حملها له تجارا بنادقة من قبرص، التي غادروها في 3 فبراير 1300م باتجاه أوربا أي قبل انسحاب غازان من الشام بقليل، ومفادها أن المغول قد استولوا على كل الأراضي المقدسة وأنّ هيثوم الثاني ملك الأرمن كان قائدهم، واعترافا بجميله، فان المغول قد

---

(1) أنظر : Schein (Sylvia), op. cit., pp. 806- 807, 813.

(2)أنظر : Schein (Sylvia), op. cit., pp. 808.

أرجعوا تلك البقاع لحوزة المسحيين، وينهي الدوج خطابه بتهنئة البابا بأنّ فترة باباويته قد عاصرت استعادة الأراضي المقدسة، ويقدم الدوج خدماته للبابا بقوله أنه مستعد كأسلافه لتقديم العون لتلك البقاع، وأنه منتظر تعليماته في هذا الشأن، وفي 14 فبراير عام 1300م أيضا كتب أحد الرهبان الفرنسسكان، واسمه جامس دي فيراريا James de Ferraria، من نيقوسيا بقبرص خطابا لزملائه في انجليترا ويروي لهم تفاصيل استعادة الأراضي المقدسة، وفي روايته أنّ دوافع غازان لذلك كانت للانتقام من دماء المسحيين في عكا عام 1291م وأنّ العديد من أفراد الجماعات والهيئات الدينية والعسكرية في قبرص سيرجعون لمراكزهم الأصلية في سوريا(1).

وعلى أثر ذلك سارع البابا بونيفاس الثامن (693- 702هـ/1294-1303م) بإرسال خطابات للملوك وأمراء الغرب الأوربي، ومنهم ملك فرنسا فليب الرابع Philippe IV وملك إنجلترا إدوارد الأول، في 7 أبريل عام 1300م، يبلغهم فيها بالأخبار السارة عن استعادة الأراضي المقدسة بواسطة غازان وإعادتها للمسيحيين، وفي هذه الخطابات يطلب من هؤلاء الملوك حث رعاياهم على الرحيل للأراضي المقدسة حيث منحهم البابا امتيازات الغفران الكامل، وفي 20 سبتمبر 1300م أرسل الأخير خطابات لقادة رجال الدين اللذين كانوا في الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا، ومن بينهم أسقف نيقوسيا L’Archeveque de Nicosie، يحثهم على العودة لكنائسهم في تلك البقاع (2). وقد ساعد على تصديق إشاعة هزم غازان للمماليك لصالح المسحيين، وصول سفارة من غازان في ذلك الصيف عام(699-700هـ/1300م) إلى روما حيث استقبلهم البابا في كنيسة القديس يوحنّا في اللاتيران Saint-Jean de Latran وكان على رأسها مبعوثًا من أصل فلورنسي هو جويسكارد بوستاري Guiscard Bastari في صُحبة حاشية من مائة رجل و كلهم في زيّ المغول، تعرض التحالف مع الأوربيين، ولا بدّ أنّ غازان كان يشعر في هذه المرّة أيضا باستحالة مواجهة أعدائه بمفرده فبذل جهده، ابتداء، في إقناع أوربا للانظمام للحملته المستقبليّة على الشام، وقدّم كل ما بوسعه للمحافظة على العلاقات الوديّة والسياسيّة التي ربطها من سبقه من الايلخانات مع الغرب (3)، ولهذا فلا عجب أن العديد من الحوليات الأوربية المعاصرة قد تناقلت هذه الأنباء وأضافت عليها الكثير، وهذا يعني أنّ

---

(1) أنظر : Schein (Sylvia), op. cit., pp. 814-816; Knobler (Adam), op. cit., p. 187.

(2) أنظر : Schein (Sylvia), op. cit., p. 815.

(3) أنظر : Schein (Sylvia), op. cit., p. 815 ; Denis Sinor, op. cit., p. 536.

الأوربيين كانوا يعيشون في الفترة من فبراي حتى أكتوبر عام 1300م تحت وهم أو أمل أنّ الرب قد أرسل المغول نيابة عنهم للانتقام من أعدائهم، وأنهم استعادوا الأرضي المقدسة لهم ولكن هذه المرة بلا حملات صلبية، ولكن فرحة البابا لم تدم طويلا بعد أنّ اطلع على حقيقة الأمور في بلاد الشام وأنّ الأخبار التي كانت ترده كانت تحمل في معظمها زيف مُفرط.

وبعد الدعاية البابويّة الحماسيّة تلك، وعلى عكس توقعات المغول وصلت غازان أولى النماذج العملية للانتهازيّة والجرأة والجشع الأوربي في شخص جيمي الثاني ملك أراجون (690- 728هـ/1291- 1326م) James II، الذي أرسل خطابا إلى الإيلخان في 27 شعبان 699هـ أو 700هـ/ 18 مايو 1300م من منطقة ليريدا Lerida القتلونية في إسبانيا، قبيل رحيل المغول من الشام، يحمله أحد أثرياء برشلونة Barcelone اسمه بطرس سوليبيرو Pierre (Peter) Solivero، يصفه بأنّه "أعظم وأقوى ملوك المغول، وملك كل الشرق" أي بأمبراطور الشرق وبأنّه أقدر وأكبر سلاطين المغول، وفيه يعبّر جيمي الثاني عن فرحته ويبلغ الخان المغولي كيفية تلقيه الأنباء السارة "بإنجازات المغول ضد أعداء الرب"، واعتبر أنّ ما قدّمه غازان كرم كبير منه في مساعدة أوربا لقتال المسلمين واستعادة الفرنج لمدينة بيت المقدس، ولا شكّ أنّ جيمي الثاني لم يكن يعلم بعد بإسلام غازان وإلاّ لما كانت هذه الرسالة بهذا الشكل المبغض للإسلام والمسلمين، وأعلن استعداده بتقديم السفن والبحارة والفرسان وكل مواد التموين اللازمة لجيش المغول، وطلب من غازان أن يبلغه بما يريده منه في هذا الشأن، ويمضي قائلا : "وقد أمرنا أن كل رعايانا الراغبين في الذهاب لهذه البلاد لتمجيد الرب ولتقوية جيشكم أن يذهبوا فورا بدون تأخير"، وفي مقابل ذلك طلب جيمي الثاني من غازان إعطائه خمس الأراضي المقدسة التي استولى عليها وتلك التي سيحتلها غازان فيما بعد، والتصريح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أية ضرائب أو رسوم (1)، ولم تمر فترة طويلة حتّى وصلت جيمي الثاني ملك أراجون أخبار انهزام غازان في غزوته الثانية لبلاد الشام، وبعدها لم تمر فترة طويلة أخرى حتى وصلت أوربا أخبار استعداداته للحملة الثالثة فألهبت مرّة أخرى مشاعر وآمال المسيحيين(2).

ولا غرابة في نهج ملك أراجون لهذا المسلك الأناني الذي هو في الحقيقة يعبّر عن

---

(1) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., pp. 128- 129 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 322 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 488 ; Denis Sinor, op. cit., p. 537 ; Schein (Sylvia), op. cit., pp. 818-819.

(2) أنظر : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 322- 323.

المصالح الآنيّة الأنانيّة للمجتمعات الأوربيّة، في تلك الآونة وفي كلّ زمان، المتوازية مع الأهداف الإيديولوجيّة والهمجية الصليبيّة والراجع إلى تفكك الروابط الأوربيّة واتساع الهوّة بين ملوكها الذين فضّلوا تقديم مصالحهم الخاصّة الشخصيّة عن المصالح العامّة، وفيما يخصّ ملك أراجون، جيمس الثاني، فقد ضرب عرض الحائط بجميع الأعراف، ذلك أنّه في حين يواعد المغول ويمنيهم في تحالف تاريخي ضدّ المسلمين، نجده يراسل، بالموازاة، السلطان الناصر محمّد بن قلاوون سنة 699هـ/1300م ويسترضيه من أجل توثيق عرى الصداقة بين المماليك المصريّة ومملكة أراجون، والتأمين على حياة التجار الأرغونيّين وبضائعهم حين ترددهم على بلاده، وتسهيل السبل لحجاج أرغون عند زيارتهم لفلسطين، وما كان من الناصر محمّد إلاّ أن ردّ في تاريخ 13 شوال 699هـ/2 جويليا 1300م بالموافقة برسالة تحمل في طيّتها قبول تلك المقترحات، وكانت مناسبة سانحة لإظهار قوة الدولة أمام الدول الغربية، كما أشار إلى اعتداءات وغارات المغول على الأراضي المملوكيّة وما أكرمه الله من نصر عليهم، فيما يفهم منه بتحذير للعاهل الأرجوني من مغبّة التعاون مع المغول في عداوتهم للمسلمين في مصر والشام، ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه إلى أخلاق وحنكة الناصر السياسيّة العاليتان اللتان ساعدتا على تقريب وجهة النظر بين مملكة أرجون ومصر على الرغم من عداوة المصريين التقليدية للجنس اللاتيني منذ قيام الحملات الصليبيّة الأولى، هذا وقد كان الناصر ملكا يميل إلى المسالمة التي لا تنقص من هيبته أو تخفض من مكانته، فلم يرفض توثيق العلاقات الوديّة بينه وبين الممالك الشرقية أو الغربية، الإسلاميّة والمسيحيّة على السواء، ومن ثمّ نرى الناصر يشجع إيفاد بعثات من تلك الأمم إلى بلاده حتى أصبح بلاطه مركزا للسفراء، وهكذا فإنّ البعثات التي أوفدها جيمي الثاني إلى بلاط الناصر قد ضمنت لسلطان مصر حليفا لم يكن ليُتوقّع، ساعده على فض التحالف الذي عقده البابوات وأنصارهم لإقامة العراقيل في سبيل تجارة المماليك والحيلولة دون وصول المواد الحربية والعبيد البيض الجدد إلى مصر(1).

على أنّ العلاقات السياسيّة التي توطّدت بين يعقوب (جيمي الثاني) ملك أراجون وبين السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون، كانت أهم تلك العلاقات التي ربطت مصر بأوربا، فقد كان للمراسلات التي دارت بين هذين الطرفين أثرا ملموسا في عطف سلطان مصر على

---

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص135.
وانظر أيضا : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon : Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 A.D., Leipzig, 1938, pp. 11- 12, 17-19, 22.

المسيحيين في الشرق، وإذا دقّقنا النظر في هذه المراسلات تبيّن لنا أنّهما تبادلا الهدايا ووثّقا عُرا الصداقة في كلّ المناسبات وحرصا على تنمية علاقات المودة والصفاء، وقد تبلورت هذه المراسلات في الفترة التي تقع بين سنتي 703هـ/1303م و728هـ/1327م، وبعث يعقوب ثمانية من هذه الرسائل وردّ الناصر على ست منها(1)، ويبدو أنّ ذلك النهج المسيحي الجديد تجاه ألدّ أعدائها المتمثل في المماليك المصرية كان متوقع الحصول، ذلك أنّ تنامي قوّة الدولة المملوكية واتساع نفوذها، في عصر الناصر بالذات، وسيادتها على فلسطين جلب إليها اهتمام مملكة أراجون وغيرها، فتوطدت علاقتها السياسية والاقتصادية بـ "جيمس الثاني"، ثمّ تبلورت المراسلات بين العهلين في الفترة الممتدّة من سنة 699هـ/1300م إلى سنة 728هـ/1328م، وتمحورت حول خلق صدقة وثقة وتفاهم بين المماليك في مصر ومملكة أرجون، للحصول على امتيازات تجارية لتجار أرجون في بلاد الشام المملوكية، وفرصة تسهيل زيارة الرعايا الأرجونيين للأراضي المقدّسة في فلسطين، وأخيرا إطلاق سراح جميع السجناء المسيحيين في مصر، وبخاصة الأرجونيين منهم.

وعلاوة على ذلك فإنه رغم أنّ الكنيسة فرضت الحصار الاقتصادي على مصر، إلاّ أنّ الغرب الأوربي كان يسعى جاهدا إلى ربط علاقات تجاريّة مع المماليك البحريّة، رغم الحقد والعداء الذي كان يكنّه ويحمله المسيحيّون تجاه المسلمين، وذلك تحت غطاء اضطرار المصلحة، ويذكر المؤرح دوبينج (Depping(G.B. أنّه "بينما لم نعثر على وثائق تدل على علاقات تجارية بين مصر والغرب الأوربي في الفترة قبل القرن الثالث عشر الميلادي إلاّ أنّ هذا القرن واللذان من بعده شهدوا علاقات دبلوماسيّة نشطة، وقد أكّد الكُتّاب المُحدثين، رغم غياب أيّ وثيقة يستند عليها، أنّ الملك الفرنسي لويس التاسع كان قد عقد اتفاقيّة تجاريّة مع السلطان المصري بعد مغادرته لمصر، وهو يجر أذيال الهزيمة وذلّ الأسر، تنص على منح فرنسا امتيازات تجاريّة"،(2)، وإنّ أقدم وثيقة واتفاقية دبلوماسيّة وتجارية، بين مملكة أرجون ومصر، وصلتنا هي بين ألفونسو الثالث ملك أراجون (1285-1291م) وشقيقه جيمي الثاني نفسه باعتباره ملكا لصقلية (1285-1295م) من ناحية وبين المنصور قلاوون من ناحية أخرى مؤرخة قي 13 ربيع الآخر 689هـ/أبريل 1289م تنص على " استقرار المودّة والصداقة من

(1) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحريّة، مكتبة النهضة المصريّة، ط 2، القاهرة، 1967م، ص 184.
(2) أنظر : Depping(G.B.), Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amerique, Paris, 1830, T. II, pp. 108- 109.

التاريخ المقدّم ذكره على ممر السنين والأعوام وتعاقب الليالي والأيام،... أنه متى طلب البابا برومية وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته أو من بلاده إنجادا أو معاونة أو خيّالة أو رجّالة أومال أو مراكب أو شواني أو سلاح لا يوافق على شيء من ذلك لا في سر ولا جهر، ولا يُعينُ أحدا منهم ولا يوافقه على ذلك، ومتى اطلع على أنّ أحدا منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة أو بمضرة يسير من يُعرّف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم ... وعلى أنّه متى كانت بين تجار المسلمين وتجار بلاد الريدراغون معاملة في بضائعهم وهم في بلاد مولانا السلطان كان أمرهم محمولا على موجب الشرع الشريف، وعلى أنّه متى ركب أحد من المسلمين في مراكب الملك الريدراغون وحمل بضاعته معهم وعدمت البضاعة كان على الملك الريدراغو ردّها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة..."، وعلى هذا يتعاهد الطرفان على عدم تعدي أحدهما على الآخر على طول سواحل البحر المتوسط من طرابلس الشرق والقسطنطينية ومصر إلى بلاد المغرب الاسلامي، وبصيغة أخرى تُترجم هذه المعاهدة بأنّ الأمر يُدندنُ حول تحالف دفاعي – هجومي بين الطرفين، يستمر في عقبيهما، بهدف الحصول على إمدادات بالرجال والأموال، بعد أن تعهد فيها العاهل الأراجوني للسلطن قلاوون بالمساعدة ضد أيّ حرب صليبية، وضدّ الصليبيين في بلاد الشام إذا ما نقضوا الهدنة التي أبرموها معه(1)، ومن الأهميّة بمكان أن نشير إلى أنّ الأطراف المسيحيّة في الاتفاقيّة كانت حريصة في طلبها بأن تكون البنود مشابهة لتلك التي عُقدت من قبل بين الإمبراطور فريدريك الثاني والسلطان الملك الكامل الأيوبي(2). وهذا يعنى أن بنود هذه المعاهدة، التي مازالت سارية المفعول، تشمل التتار أيضا من ضمن أعداء المماليك الذين يخطر على جيمي الثاني مساعدتهم.

وعلى أيّ حال فإنّه يبدو من ردّ السلطان الناصر محمّد بن قلاوون أن لا وجود لدليل على أنّ الملك الأرجوني فاتحه في معاملة النصارى واليهود في مصر، وإنّما يدلّ ردّه على أنّ الناصر قد أجاب على طلب توثيق عرا الصداقة بينهما مما عُدّ تمهيدا لإرسال رسائل أخرى،

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام، ص 156-164 ؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)، ص 341- 352 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، ص 485- 492 ؛ هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 135.

وانظر أيضا : Depping(G.B.), op. cit., T. II, p. 109 ; Heyd(W.), Histoire du commerce., T. II, pp. 423- 424.

(2) أنظر : Reinaud(M.), Extraits des Histoires Arabes relatifs aux guerres des croisades, Imprimerie Royale, Paris, 1829, p. 564.

ويقول الناصر في هذا الصدد "وعلمنا من مضمون كتابه ومشافهته ما قصده في معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع وما سأله من أن يكونوا يترددون من بلاده إلى بلادنا آمنين مطمئنين وأجبناه إلى ما قصده في ذلك ... وفي معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة بيت المقدس الشريف وما سأله من تمكينهم من ذلك وأن يكونوا آمنين مطمئنين، فقد علمنا بذلك وأجبناه إلى قصده من هذا الأمر ... وإنّا قد أجبنا سؤاله إلى ما طلبه في الصحبة والمودّة فنحيط علمه ونواصل بكتبه وأخباره"(1).

وطمع ملك أرجون جيمس الثاني(1267- 1327م) في الحصول على امتيازات أوسع من السلطان الناصر مما حصل عليه سنة 699ھ/1300م، فأرسل في أوّل جوان 1303م/702ھ بعثة تحمل رسالة إلى الناصر يرجو منه فيها إعادة فتح الكنائس، مقابل حريّة العبادة لجميع الطوائف في إسبانيا المسيحيّة، وإطلاق سراح المسجونين من أهل أرجون، وقد رد السلطان الناصر على رسالة الملك الأرجوني في 13 شوال 703ھ/19 مايو 1304م، أي بعد تاريخ وفاة الخان الإيراني غازان بيومين، وقد خصص معظم كتابه، هذه المرّة، للرد على مسألة معاملة الأقباط وإعادة فتح بعض الكنائس، وهذا نصه :"فأمّا ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية، وأنّه بلغه أنّه أغلقت أبوابها ومنع النصارى من الصلاة فيها، وما ذكره في هذا الفصل وما يتعلّق به، وكذلك حديث الأسرى الذي قصد قبول شفاعته في الإفراج عنهم وإطلاقهم، فقد أحطنا على جميع ما ذكره في هذه الأمور سيرنا الآن رسولنا الأمير فخر الدين عثمان الناصري فيشافه الاعتماد على ذلك، ولأجل منزلته ومودّته الأكيدة عندنا أجبنا سؤاله في أمر الكنائس ورسمنا بفتح كنيستين بمدينة القاهرة المحروسة، مع أنّ أمر الكنائس الرجوع فيه إلى الشرع الشريف، ومقتضى الشرع الشريف أن لا يبقى منها شيئ مفتوحا إلاّ ما هو من العهد العمري، وكلّما تجدّدت بعد العهد العمري يقتضي شرعنا وديننا ألاّ يفتح، واتفق أنّه تجددت بعد العهد العمري كنائس كثيرة، والملك يعلم أنّكم كما يجب عليكم الوقوف عند شرعكم وأحكام دينكم، كذلك نحن أيضا يجب علينا أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا، وقد سيّرنا له الهديّة"(2)، وعلى أثر هذه المراسلات التي تبودلت بين الملكين، أمر الناصر بإعادة فتح كنيستين هما كنيسة اليعقوبيين في حارة زويلة، وكنيسة القديس نقولا الملكانيّة التي تتبع مذهب الدولة الرومانيّة

---

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 18- 19.

(2) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., p. 22 ; Ibid, The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 510, 512.

الأرثوذكسيّة الشرقيّة والتي تعتقد بازدواجيّة طبيعة المسيح، ومنح الأقباط حريّة العبادة(1).

وبعد هذا العرض المتواضع، يمكن القول بأنّ الغرض من تلك الاتصالات المصرية الأوربيّة كان ينحصر في إيجاد علاقات صداقة وحسن تفاهم بين مصر وأرجون، والحصول على ميزات تجاريّة لتجار أرجون في المملكة المصريّة، وتسهيل سبيل الحج إلى الأراضي المقدّسة لأهالي الغرب، وإطلاق سراح المسجونين المسيحيين في مصر وخاصّة اللذين ينتمون إلى أصل أرجوني، وأهم من هذا هو المحور الذي تدور عليه هذه البعثات ضمان حسن معاملة الأقباط ومسيحيي الشرق(2).

ومن جهة أخرى أرسل البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (1294- 1303م) في 26 فبراير 1301م رسالة إلى غازان يحملها بوسكاريللو جيزولفو(3)، فردّ غازان عليه بمكتوب مؤرّخ في سنة 702هـ/12 أبريل 1302م، وهي سفارته الثانية للغرب الأوربي عامة وإلى البابا بونيفاس الثامن خاصّة، يقودها بوسكاريللو جيزولفو، السفير السابق لأرغون، ويصحبه مغوليان هما كوكداي Kokedei وتومين Tumen وثلاثة آخرين يحملون أسماء اسلاميّة هم صلاح الدين وسينان الدين وشمس الدين، عام 1302م، من أجل التعاون والتعبأة العسكرية لحملته الثالة على الشام المترقّبة في ربيع سنة 1303م(*)، ويُروى أنّ أعضاء هذه السفارة من المغول قد تنصروا في روما، وأنّ البابا أرسل معهم تاجا من الذهب ليقدموه إلى غازان "لغفران ذنوبه، ولأنه أعاد إقامة الشعائر والتراتيل المسيحية في الأراضي المقدسة بفلسطين"(4)، وكان غازان قد أشار للبابا في رسالته المؤرخة في 12 أبريل 1302م لمراسلات أسلافه بالغرب الأوربي، وحث بونيفاس الثامن على إعداد قوات لمهاجمة المماليك معا، بعد أن أعلمه، ابتداء، اطلاعه على رسالة البابا سنة 1301م والتي حملها إليه الجنوي

---

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، ص 339.

(2) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 67- 68.

(3) أنظر : Paviot(Jacques), op. cit., p. 316; Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes, Harvard Journal of Asiatic Studies, vol. XV, Decembre 1952, p. 471; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 428 note 193.

(*) الرسالة موجودة عند : Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), op. cit., vol. XV, pp. 470- 471.

(4) أنظر : Turner (H. Hudson), op. cit., vol. VIII, pp 50-51 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 489 ; Denis Sinor, op. cit., p. 536 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 426, et note 179 ; Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), op. cit., vol. XV, pp. 470, 471, 476- 477.

بوسكاريللو جيزولفو(1)، وقد كان ظهر السفراء المغول في مدينة باريس في عيد القيامة عام 1303م كخطوة ثانية بعد روما، ثمّ ظهروا في لندن في مارس عام 1303م وبلّغوا ملوكها الفرنسي فيليب الرابع الملقب بالجميل Philippe le Bel والانجليزي إدوارد الأوّل رسائلة مشابهة(2). والواقع أنّ ازدواجيّة غازان في معاملاته للمسيحيين لم تكن لتحرجه، ذلك أنّه رغم كونه شديدًا في معاملة لأهل الذمّة داخل مملكته، إلاّ أنّه لم يرى في ذلك تناقضا مع سياسته الخارجيّة فيما يتعلّق بتقرّبه من البابويّة وملوك أوروبا الغربيّة، من وجهة نظره، ذلك أنّ هذا الاتصال كان يخدم سياسته في بلاد الشام، وهي تتوافق في بعض جوانبها مع سياسة البابويّة، فالبابا كان يسعى هو الآخر إلى محالفة المغول بعد أن نجح السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون في استعادة آخر حصن صليبي في عام 690هـ/1291م، فدعا إلى حرب صليبيّة ضدّ المماليك في عام 699هـ/1300م للانتقام من هؤلاء واستعادة بيت المقدس، أمّا غازان فقد أراد أن يُحقق حلم آبائه وأجداده في السيطرة على بلاد الشام ويحطّم التحالف الذي كان يربط المماليك بأعدائه، مغول القبيلة الذهبيّة، غير أنّ التحالف بين الطرفين لم يتحقّق، ولم يصل غازان في استعانته بغير المسلمين في غزوه لبلاد الشام، لأكثر من ضم جنود من الأرمن والكرج، الذين كانوا تحت حكمه، إلى جيشه.

وإذا كان خطاب الخان المغولي غازان إلى الملك الإنجليزي لم يُعثر عليه بعد، إلاّ أنّ رد إدوارد الأول، في 22 رجب 702هـ/12 مارس 1303م من مدينة واستمانستار Westminster والذي اجتهد هذا الأخير من خلاله في توضيح الموقف والاعتذار، يوضح تماما محتوياته، ورغم أنّنا لا ندري كيف كان اتصال بوسكال(أو بوسكاريل جيزولف أو بوسكاريللو جيزولفو) بالملك الإنجليزي، ولا أين، إن حدث ذلك، إلاّ أنّ اسم بوسكاريللو جيزولفو الذي ظهر في

---

(1) أنظر : Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), op. cit., vol. XV, p. 468, 470 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 428; Paviot(Jacques), op. cit., p. 316.

(2) أنظر : Paviot(Jacques), op. cit., p. 316 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., p. 130, et note 1; Chroniques de Saint-Denis depuis 1285 jusqu'en 1328, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, p. 673 ; Chabot(J.b.), Documents concernant Mar Jabalaha, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 638 ; Denis Sinor, op. cit., p. 537 ; Guillaume de Nangis, Chronique., T. I, Chapitre MCCCIII, p. 335 ; Guillelmi De Nangiaco, continuatio Chronici Guillelmi De Nangiaco, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, chapitre MCCCIII, p. 588 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 29 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 428; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 344.

الرسالة التي كتبها الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل إلى غازان تؤكّد هذا الاتصال، ومهما يكن من أمر فإنّ الرسالة حُملت إلى البلاط المغولي من طرف مبعوث ملك انجلترا المُسمّى جيوفروي دي لونجليس Geoffroy de Langles، أو جيفري دي لانجلي Geffrey de Langley، مصحوبا بشخصين أحدهما معروف باسم نيكولاس الشرتري Nicolas de Chartres، والتحقت الجماعة ببوسكاريللو جيزولفو في جنوة ليترافق الجميع إلى الخان غازان، ويبدو أنّ غازان قد اشتكى في خطابه إلى الملك الانجليزي من طول الفترة التي لم يحاول فيها "الفرنجة" لاتصال بالمغول للتعاون معهم لاسترداد الأراضي المقدسة، وذلك لأن الملك الإنجليزي يبلغ غازان بأن ملوك أوربا كانوا في حالة حرب داخليّة وأن السلام بدأ يعود إلى أوروبا وأن هذه الممالك سوف تتحد مرة ثانية لاسترداد الأراضي المقدسة، وعدا ذلك فلم يحمل السفراء المغول وسفراء إدوارد الأول المرافقين لهم لغازان خان أية ردود عملية، لأن الملك الانجليزي كان مشغولا بمشكلة اسكتلندا، والملك الفرنسي كان في نزاع مرير مع البابا بونيفاس الثامن من جهة ومع الفلندر Flanders من جهة أخرى(1)، وتعود أسباب هذا النزاع إلى الجهود التي بذلتها البابويّة منذ أيّام البابا جريجوري السابع لإنشاء دولة عالميّة أوروبيّة بإخضاع الملوك للبابويّة، ذلك النزاع الذي نتج عنه نقل البابوية من روما إلى مدينة أفنيون الفرنسية بعد ذلك بأقل من عامين.

وتشير المصادر الأوربيّة أنّ بوسكاريللو جيزولفو كان حاملا لرسالة ثانية، مطابقة تماما للتي حملها إلى غازان، من طرف الملك الإنجليزي إدوارد الأوّل مؤرخة هي الأخرى في 12 مارس 1303م و موجّهة إلى الجاثليق النسطوري مارجبالاها Mar Jabalaha III (2)، ذلك أنّ الجاثليق كانت له مكانته المرموقة بصفته مقرّبا من بلاط غازان وشهرته في الدفاع عن المسيحيّة كانت قد بلغت أوربا من قبل، فلعلّه يؤثر على غازان فيستدرجه إلى اعتناق المسيحيّة.

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 489 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 345- 346 ; Chabot(J.b.), Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p.262 note 1 ; Lockhart(L.), op. cit., Vol. 6, p. 29 ; Paviot(Jacques), op.cit., p. 316 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire., p. 130 ; Denis Sinor, op. cit., pp. 536- 537 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 429 ; Knobler (Adam), op. cit., p. 188 ; Sykes (Sir Percy), A History of Persia, London, 1915, Volume II, p. 191.

(2) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 130 ; Chabot(J.b.), Documents concernant Mar Jabalaha, p. 637- 638 ; d'Ohsson(C.),op. cit., T.IV, pp. 345- 346 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 429; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 489.

ويبدو أنّ غازان، ورغم ادعائه الإسلام، لم يتخلّى عن سياسة وإيديولوجيّة أجداده بادعائه مفوّضا من السماء، وبغض النظر عن تحالفه مع ملك أرمينيا والقُوى المسيحيّة الشرقية الأخرى ومحافضته على علاقة طيّبة برعاياه المسيحيين، فإنّه جعل كلاً من الجاثليق النسطوري مارجبالاها Mar Jabalaha III وخاصّة مسيحيي مراقا Maraga الذين تعرّضوا لاضطهاد نوروز أحد قوّاد جيوش غازان، تحت حمايته، وأمّا البابا بونيفاس الثامن فإنّه ورغم هذا الانفتاح من قبل غازان، إلاّ أنّه لم يكن راغبا هذه المرّة في استنفار ملوك أوربا والقُوى الصليبيّة لمساعدة غازان في حربه ضدّ المماليك المصريّة بعد أن بلغته أخبار إسلامه رغم أنّ الخان حرص على أن لا تبتدأ رسالاته إليه بالبسملة لأنّها تفضح انتماءه العقدي في أوربا، وعلاوة على ذلك فإنّنا لا ندري إن كان البابا قد رد على هذا العرظ أم أنّه امتنع، وذلك لسكوت المصادر(1).

وبعد طول انتظار وردّ أوربا المخيّب لآمال الخان، قرّر غازان الشروع في حملته الثالثة على بلاد الشام فأرسل جيشه ومعه حلفائه من الأرمن والجورجيين المسيحيين، واسطدم بقوات المماليك المصريّة في موقعة مرج الصفر Marg al-Suffar (شقحب) بجوار حمص في رمضان 703هـ/13 أبريل 1303م وحلت الهزيمة الفادحة بالمغول وحلفائهم وقضي على أغلب جيشهم في هذه الموقعة قتلا وأسرا(2)، ثمّ توفى غازان في سنة 703هـ/17 مايو عام 1304م، فحزنت مدينة القسطنطينيّة وأسفت كثيرا لموته، وهي التي كانت ترى في شخصه حاميا لها، ذلك أنّ اضطراب حال الامبراطوريّة البيزنطيّة بسبب التهديد السلجوقي بالغزو والحروب المنهكة التي تخوضها باستمرار ضدّهم، قاد الامبراطور أندرونيقوس الثاني (681-738هـ/ 1282-1337م) إلى التحالف مع المغول عن طريق قوّة المصاهرة التي تولّد المودّة والصداقة، فكلّلت جهوده بزواج الخان غازان من ابنة الإمبراطور الغير شرعيّة ولكن ذلك الارتباط لم يُثمر لأنّ خان إيران ما لبث أن مات بعد زمن قصير(3)، وبموته انتهت أيضا آخر جولة في

(1) أنظر : Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 429.

(2) أنظر : Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), Trois documents Mongols., p. 468; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 331- 334 ; Paviot(Jacques), op. cit., p. 316- 317 ; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 429.

(3) أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire., 1824, p. 149 ; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 350, et note 1 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 485 ; Denis Sinor, op. cit., p. 537 ; Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), Les Lettres de 1289 et de 1305", dans Harvard Yenching Inslitute Scripta Mongolica, Sériés I, Cambride, Mass., 1962, pp. 55- 85 ; Sykes (Sir Percy), A History of Persia, London, 1915, Volume II, pp.190- 191.

الصراع بين مغول فارس والمماليك بهزيمة المغول، ولم يحاول مغول فارس بعد ذلك خوض هذه التجربة المريرة، فتأكدت السيادة المملوكية في شرق البحر المتوسط بصفة نهائية لمدة قرنين من الزمان تقريبا.

والواقع أنّ تبادل السفراء والرسائل لم يُسفر عن نتائج إيجابيّة، و بخاصّة أن غازان قد اعتنق الإسلام واتخذه دينًا رسميًا للدولة، وأضحى أحد المدافعين عنه، على أنّه قد يكون لهذه الاتصالات السياسيّة فائدة، لكن لم يتحقّق شيئ من هذا القبيل، وضاعت الفرصة عن الغرب الأوروبي للتقارب مع المغول بعد هزيمة هؤلاء في معركة مرج الصُفَّر، ولم تعرض أيّة دولة أوروبيّة التحالف مع الإيلخان، وعلى الرغم من أنّ البابا بونيفاس الثامن والملك الفرنسي فيليب الرابع كانا يجهران آنذاك بالإعلان عن حملتهما الصليبيّة المرتقبة، إلاّ أنّ الغرب الأوروبي بعامّته لم يُبادر إلى التفاوض مع المغول، في حين أضحت قبرص بالغة الضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين الملك هنري وأخيه(1)، ومهما يكن من أمر، فإنّ المحاولات التي بذلها النصارى الغربيّين والشرقيّين لاستقطاب المغول، سياسيًا ودينيًا، أخذت تتضاءل شيئًا فشيئًا ولم تؤدي في النهاية إلى النتيجة المرجوّة منها.

أمّا الأرمن فلم يغفر سلطان المماليك الناصر محمّد بن قلاوون لهم نقضهم للمواثيق وتحالفهم مع المغول لضرب المسلمن، وإحجامهم عن دفع الجزية المقرّرة عليهم، وما فعلوه بالصالحية من تخريب وسفك للدماء البريئة، وفيما انسحب التحالف المغولي- الأرميني – الكرجي من الشام، أعاد المماليك السيطرة على شماليها، وأضحى الطريق إلى قيليقيا الأرمينيّة مفتوحا أمام جيش مصر مرّة أخرى، فجهّز السلطان حملة لمعاقبة هيثوم الثاني(2)، وخرجت الحملة في عام (701هـ/1301م) متجهة إلى العاصمة الأرمينية سيس فغزتها ثمّ رجعت إلى دمشق بالغنائم انتقاما لغزو التحالف المغولي الصليبي سنة، ثمّ أعاد السلطان الناصر محمّد غزو سيس مرّة أخرى سنة 703هـ/1303م انتقاما لتحالف الأرمن مع المغول في موقعة شقحب لرمضان 703هـ/13 أبريل 1303م، فنهب وأحرق المزارع وأسر أهلها وأعاد فتح تل حمدون(3)، ثمّ شهدت أرمينيا الصغرى اضطرابات داخلية بفعل النزاع على العرش، ودمار كثير في المدن والمزارع نتيجة الحروب المستمرة مع المماليك فساءت أحوالها، وكان وطأ ذلك

(1) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ق2، ص736، 737.
(2) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج 4، ص 59- 60.
(3) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج 4، ص 64. المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 703هـ، ص 369.

كلّه شديدا على هيثوم الثاني فلم يتحمّل تلك المرارة فقرّر التنازل عن العرش لابن أخيه، ليون الرابع، ابن ثوروس الثالث وماجريت دي لوسينيون، في عام 705هـ/1305م، وكان عمره لا يتجاوز ستة عشر سنة، فلم يتمكّن هذا من إعادة الاستقرار لبلاده ثُمّ قُتل هو وعمه هيثوم الثاني وعشرون من النبلاء على يد أحد أمراء المغول سنة 707هـ/1307م بوشاية من طرف نبلاء أرمن آخرين لم يكونوا راضين عن تقرّب الملك الشاب وسلفه من البابويّة في روما، ولمّا سمع أوشين (1308- 1320م)، وهو الأخ الرابع لهيثوم الثاني، بالفاجعة أسرع في طرد المغول من قيليقيا وطاردهم إلي خارج حدود المملكة، ما عكّر صفوة العلاقة بين الطرفين، ثمّ نصّب ملك خلفا لليون الرابع، وممّا زاد من ضعف المملكة فقدانها بعد ذلك لحليفها الطبيعي مغول فارس الذين أخذوا يتحوّلون أكثر فأكثر إلى الاسلام ويصطلحون مع المماليك، فأصبح الأرمن يقفون بين سندام المغول المسلمين وبين مطرقة المماليك، ولعلّ ذلك ما دفع الملك أوشين إلى مهادنة المماليك وإعادة إرسال الجزية بانتظام(1).

**د- انتعاش الطريق التجارية القديمة في عهد غازان :**

اهتم غازان بالطرق التجارية عقب تنبهه إلى أهميتها، فعمد إلى تأمين الطرق، ولاحق قُطاعَها، وخفّف الضرائب على السلع التجارية، فنشطت التجارة على الطرق البريّة التقليدية بين الهند وبلاد فارس، ولم يكتف بذلك بل أمّن وصول السلع بانتظام إلى تبريز والسلطانية حيث يلتقي تجار من مختلف الجنسيات(2)، فانتعشت الطرق التجارية التقليدية، ممّا جعل ملوك أرمينيا الصغرى يعملون على ازدهار التجارة في بلادهم، فخفّضوا الضرائب الجمركية من أربعة إلى اثنين بالمائة، فعرف ميناؤهم الواقع على البحر المتوسط حركة تجارية واسعة(3)، ما جعل الأوربيين يهرعون إليه ليشتروا حاجاتهم من السلع الهندية والصينية(4)، وزاد من نشاط ميناء إياس، والسلطانية، وتبريز وموانئ البحر الأسود على الأخص القسطنطينية، خاصة بعد تحريم البابوية تعامل التجار الأوربيين مع المسلمين أعداء الكنيسة، وعدم تزويدهم على

---

(1) أنظر : Jacques de Morgan, op. cit., pp. 213- 214.
وانظر أيضا : المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 707هـ، ص 417، أحداث سنة 708هـ، 421.

(2)عاشور(سعيد عبد الفتاح) : دراسات وبحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، دار الأحدب البحيري، 1977م، ص 246- 247.

(3) أنظر : Heyd(W.), Histoire du commerce du Levant au Moyen-Âge, Paris, 1885, T. II, p. 86.

(4) عاشور(سعيد عبد الفتاح) : دراسات وبحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، دار الأحدب البحيري، 1977م، ص 247.

الأقل بالرقيق والأخشاب والمعادن والسلاح الضروري للحرب(1).

## 4- الأوضاع في عهد أولجياتو(أولغايتو) محمّد خدابنده(خربندا)(703-716هـ/ 1304-1316م)

**أ- اعتلاء أولجايتو عرش خانيّة فارس وعلاقته بالمماليك ابتداء :**

لم يتمكن غازان أبدا أن يتغلب على المماليك بعد هزيمته في موقعة مرج الصفر سنة 702هـ/مايو 1302م ثمّ مات في بلاد قزوين يوم الأحد 11 شوال 703هـ/17 ماي 1304م(2)، وكان قد أوصى قبل موته بولاية العهد لأخيه أولجايتو بن أرغون، بينما كانت مملكة مغول إيران في زمنه تشمل إقليم خراسان وعاصمته نيسابور، وعراق العجم وعاصمته أصفهان، وعراق العرب وعاصمته بغداد، وإقليم أذربيجان وعاصمته تبريز، وإقليم خورسان وعاصمته تستر، وإقليم فارس وعلصمته شيراز، وإقليم ديار بكر وعاصمته الموصل، وإقليم الروم (آسيا الصغرى) وعاصمته قونية(3)، أمّا أولجايتو فقد كان عند وفاة غازان واليا في خراسان، فأطلعه الأمير مولاي، سرًا على أوضاع البلاط، وما يُراود الأمير آلافرنك بن كيغاتو من طموح وتطلُّع نحو السلطة بمساعدة الأمير هرقداق، قائد جيش خراسان، ونصحه بالتخلص منهما، فعهد إلى ثلاثة من أمرائه فقتلوهما مع أبناء هرقداق الثلاثة، وهكذا تمهّد الطريق أمام أولجايتو لاعتلاء العرش من دون منافس، فغادر خراسان قاصدًا تبريز يرافقه الكثير من الجند ومن أتباعه وعدد من كبار الأمراء، أمثال مولاي و سونغ وأيسن قتلغ وعلي القوشجي، ولمّا وصل إلى مدينة أوجان جلس على عرش الخانيّة، وذلك يوم الإثنين 15 ذي الحجّة 703هـ/19 تموز(جويليا) 1304م، وعمره ثلاثة وعشرين عامًا، وتسمّى السلطان أولجايتو، أي المغفور له، وسمّاه الشيعة، فيما بعد، خدابنده، أي عبد الله، لتعلّقه بدين الشيعة، إلاّ أنّ أهل السنة المسلمين لقّبوه لارتداده عن الاسلام بـ "خربنده" الذي يعني المكار والحمار(4)، والمعروف أنّه عُمّد على

---

(1) أنظر : Heyd(W.), op. cit., T. II, p. 25- 26 ; Wiet(Gaston M.), L'Egypte Arabe, de la conquête arabe á la conquête Ottoman (642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937, T. IV, p. 490.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج 2، أحداث سنة 702هـ، ص 355 - 358، أحداث سنة 703هـ، ص 373 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، أحداث سنة703هـ، ص 167.

(3) عاشور فايد حامد : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص 174 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 37.

(4) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 475- 476.

المسيحيّة، في صباه، وسمّي نيكولاس Nicolas بفعل تاثير والدته أوروك خاتون المنتمية لقبيلة كريت المسيحيّة، واستمر على هذا الدين إلى أن توفيت، فاختار زوجة مسلمة حثّته على اعتناق الإسلام، فاعتنقه على المذهب الحنفي متاثرًا بعلماء الحنفيّة في خراسان، وذلك قبل أن يتولّى العرش(1).

وقد ادّعى أولجايتو في بداية عهده أنّه حريص على توثيق عُرى الصداقة مع سلطان مصر المملوكي الناصر محمّد، وتأكيد حسن نيّته نحوه، فأرسل إليه رسالة خاطبه فيها بالأخوّة، وطلب منه التعاون على إخماد الفتنة والحرب بين الطرفين، وسلوك منهج الصلح على قاعدة "عفا الله عمّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه"، وبذلك تُفتح الطرق والمعابر أمام الرسل والتجار بين الدولتين، ودعّم ذلك الخطاب بهديّة بعثها إليه، لكنّه لم يتورّع عن اللجوء إلى التهديد والوعيد بكلمات عنيفة قاسية قال في نهايتها : "فإذا لم تلق هذه النصائح أذنًا مصغية فدونهم السيف"(2)، أمّا السلطان المملوكي فقد استقبل رسله بحفاوة ولبّى طلبه، ثمّ أعادهم إلى تبريز وجهّز له هديّة مع بعض الرسل يصحبونهم إليها، وسيّر معهم علاء الدين علي بن الأمير سيف الدين بلبان القلنجقي، وسليمان المالكي المرتقى وساروا في أوّل ذي القعدة سنة 704هـ/مايو1305م لتوطيد أواصر الصداقة ثمّ عادوا في رمضان سنة 705هـ/مارس 1306م(3).

**ب- تحوّل أولجايتو إلى الدين الشيعي ثمّ عودته عنه قبل موته :**

كان النزاع والخلاف قائما بين المذاهب الإسلاميّة السنيّة في خانيّة فارس، وبخاصّة بين الحنفيّة والشافعيّة، فانتهز الكهنة البوذيون ذلك النزاع وأشاروا على أولجايتو بالتخلي عن عقيدة الإسلام والارتداد إلى دين آبائه مرّة أخرى، لكنّه رفض ذلك، ثمّ لم يطل به الصبر حتّى استجاب لدعوة أحد أمرائه، المدعو طرمطاز بن بايجو بخشي، بأن يتحوّل إلى دين الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة الرافضة، والمعروف أنّ هذا الأمير تربّى في بلاط غازان، ونشأ بين الشيعة في

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 76 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 479 .
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 535, 580 ; Lockhart(L.), "The Relations Between Edward I and Edward II., p. 29 ; Sykes (Sir Percy), A History of Persia, London, 1915, Volume II, p. 193.

(2) المنصوري، بيبرس الدوادار : التحفة المملوكيّة في الدولة التركيّة، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربيّة اللبنانيّة، القاهرة، ط 1، 1987م، ص 176؛ عاشور فايد حامد : المرجع نفسه، ص 174-175 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع نفسه، ص37.

(3) المنصوري، بيبرس الدوادار : المصدر السابق، ص 176؛ ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص128 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج 2، أحداث سنة 704هـ، ص 378- 379؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 38.

الري، فاعتنق عقيدتهم وأضحى من أبرز الداعين إليها والمدافعين عنها، لكن أولجايتو رفض، في بادئ الأمر، أن يصبح شيعيًا رافضيا يخالف أهل السنة والجماعة، المسلمين، غير أنّ تدخل بعض أئمة الشيعة، وبخاصة تاج الدين الآوجي وجمال الدين بن مطهر الحلي، الذين ضربوا على وتر نظام الوراثة عند كل من الشيعة والمغول، المستند على حصر الحكم في البيت الحاكم، بيت النبوة وبيت جنكيز خان، وأنّ أهل السنة المسلمين يُخالفون ذلك ويجيزون للناس، من غير بيت الحاكم، أن يتولوا الحكم، وهو ما يتناقض مع قوانين المغول في وراثة الحكم، فاقتنع الخان، وتحوّل إلى الإثني عشريّة، وأظهر الرفض، وغلا فيه، فسبّ الصحابة رضوان الله عليهم، وأمر الخطباء بجميع ممالكه إسقاط اسم الخلفاء الراشدين من الخطبة، وذلك في عام 709هـ/1310م، وتأكيدًا لتحوله هذا ضرب نقودًا نقش عليها أسماء علي وأبنائه وبقيّة الائمة الإثني عشرة، وهو أوّل خان مغولي تُؤكد اعتناقه لدين الشيعة وسعد به(1).

واقتدى أمراء المغول وعظماؤهم بإيلخانهم باستثناء الأميرين جوبان وأيسن قتلغ، اللذين ثبتا على السُنّة، ولم يستطع أئمة الشيعة التأثير عليهما، وأمر الخان أولجايتو بحمل الناس على التحول إلى التشيع، وعمل على نشره في المناطق الغربيّة من بلاده، إذ كتب بذلك إلى العراقَ وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان، وبعث الرسل إلى البلاد، فكان أوّل بلد وصلوا إليه بغداد وشيراز وأصفهان، فأمّا أهل بغداد فقد امتنع أهل باب الأزج منهم، وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقالوا "لا سمع ولا طاعة"، وأتوا المسجد يوم الجمعة وهدّدوا الخطيب إن هو غيّر الخطبة المعتادة، وكان الخان أمر بتغيير صيغة خطبة الجمعة لتتفق مع تشيعه، بإسقاط أسماء الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة من الخطبة، وذكر اسم علي ومن تبعه، كعمار، فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد، فرجعت الرسل إلى السلطان، وأخبروه بما جرى في ذلك، ويذكر ابن بطوطة أنّ الخان أمر باستدعاء قضاة هذه البلاد كي يُحاسبهم ويُعاقبهم على عصيان أوامره، فكان أوّل من أتي به منهم القاضي مجد الدين، قاضي شيراز، وكان أولجايتو في مصيفه بقراباغ، فأمر بإلقائه طعمة لكلاب شرسة ليأكل لحمه، كان يقتنيها لمثل هذه الأمور،

---

(1) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 206 ؛ ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمّد بن عبد الله اللواتي الطنجي) : رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفت النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكادمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط، 1417هـ/1997م، ج2،ص 37- 38.
و أنظر أيضًا : Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 557, 558, 580.

فلمّا أُطلقت على القاضي "بصبصت إليه وحرّكت اذنيها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء"، ولم تنله بسوء، ولمّا علم الخان بذلك خرج حافي القدمين، فأكبّ على رجلي القاضي يقبلهما، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من ثياب"، وهي عادة عند المغول كانوا يفعلونها مع من يودون المبالغة في تكريمه ورفع شأنه وهي من أعظم كرامات السلطان عندهم، ثُمّ قام الخان وأدخله إلى داره، وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به، ويقال أنّه قبل موته بقليل تراجع عن دين الشيعة الإماميّة وأنّه كتب بذلك إلى جميع أنحاء دولته، وأمر الناس أن يسيروا على دين الإسلام ومذهب أهل السنة والجماعة، وأمر بتجديد ذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة، وقد أجزل العطاء لذلك القاضي وأعاده إلى بلاده معزّزًا مكرّمًا، وأعطاه، ضمن ما أعطاه، مائة قرية من قرى جمكان(*)، وألزم نفسه بزيارة قبر الإمام أحمد بن حنبل في بغداد أثناء الليل، فكان يذهب إلى هناك حيث يجلس ويبكي عند القبر ويستغفر ربّه من الذنوب ويعود من دون أن يشعر به أحد(1)، وهكذا عاد المغول وسلطانهم في آخر عهده إلى السُنّة مرّة اخرى.

ج- **وفاة أولجايتو :**

مات أولجايتو يوم الأربعاء في 27 رمضان 716هـ/13 ديسمبر 1316م، بسبب إفراطه في اللهو والشراب وتناول الأغذية الدسمة (2)، حسب ما ذكره بعض المؤرّخين، أمّا الدوداري فيذكر موته يوم 6 ذي الحجّة 716هـ، وأنّ سبب موته زوجته قطلوشاه خاتون باتفاق مع الوزير رشيد الدين الهمذاني اليهودي الشيعي، والحكيم جلال الدين، سقوه دواء مسهلا مسموما، فتوفّى من ليلته(3)، ولا غرابة في أن يقدم هؤلاء بهذه الخيانة فهي طبيعتهم لحقدهم الدفين المتجدد ضد

---

(*) قال ابن بطوطة في موضع جمكان : هو خندق بين جبلين، طوله أربعة وعشرون فرسخًا، يشقه نهر، والقرى منتظمة بجانبيه، وهو أحسن موضع بشيراز.
أنظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ج2، ص 39.
إلاّ أنّ الذي حقق لابن بطوطة يقول : "يضع مستوفي، جمكان، على بعد خمسة فراسخ جنوب كَوَر(CAVAR) وعلى ستة فراسخ شمال ميمند على مقربة من زنجيران الحالية. ويظهر أن ابن بطوطة قد اختلط عليه إسم جمكان باسم شيمكان (SHIM-KAN) التي على منتصف الطريق بين ميمن وكارزي، ابن بطوطة عند عودته عام 747هـ/1347م وضع جمكان بين هاذين المكانين، ميمند التي تقع شرق فيروز أباد هي ميمن ابن بطوطة، ونذكر أنّ لتقسيم ابن بطوطة الإقليم إلى منطقتين أصلا في تاريخ البلاد... وحسب المعلومات التي يقدمها دليل شيراز فإنّ دائرة ميمند كانت أسست من لدن خاتون كوقف على مسجد به قبر يدعى شاه شيراغ ...".
أنظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ج2، ص 39، هامش 136.
(1) ابن بطوطة : المصدر السابق، ج2، ص 37- 39 ، عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 485.
وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, Part I, p. 450, 451.
(2) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 18، ص 153-154.
(3) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 288.

كل ما له صلة بالاسلام والسنّة الصحيحة الغرّاء.

**د- استمرار عداء المغول للإسلام في شخص أولجايتو :**

يبدو أنّ أولجايتو لم يكن مخلصًا في تودُّده ولذلك لم تدم العلاقات الوديّة بين أولجايتو والسلطان المملوكي طويلا، ولم تسر سيرها الطبيعي لعدّة أسباب منها قدوم جماعة من التتار فروا من وجه أولجايتو ولجؤوا إلى مصر مستأمنين، وكانوا نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم وفيهم جماعة من أقارب غازان، فكتب السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون إلى نوّابه بالشام باستقبال الوافدين حتّى وصلوا إلى القاهرة في جمادى الأوّل 704هـ/ديسمبر 1304م فرتّبت لهم الرواتب وأُقطعوا الإقطاعات(1).

وكما فتحت دولة المماليك في مصر أبوابها لأمراء المغول الفارين من أولجايتو، فتح هذا الأخير هو أيضا أبواب بلاده للمماليك الفارين من بلاد الشام مستغلا خلافهم مع الناصر محمّد بن قلاوون، ففي سنة 711هـ/1311م بادر كل من قرا سنقر(*)، حاكم دمشق، وجمال الدين الأفرم(**)، نائب حلب، ومهنا ابن عيسى(***)، بالفرار إلى بلاد المغول، وكتبوا إلى خدابنده يُخبرونه فيه بقدومهم، ويطلبون منه السماح لهم بالدخول إلى بلاده، فأذن لهم وأمر نوابه باستقبالهم، ولمّا اقتربوا من المعسكر التي يقيم فيه مخيّمه ركب لاستقبالهم وبالغ في إكرامهم ورتّب لهم الرواتب السنيّة بعد أن انفرد بكلّ واحد منهم، وحسّنوا له جميعا العبور إلى الشام والسيطرة عليها، وهوّنوا عليه أمرها(2)، فكافأ أولجايتو الأمراء على المعلومات التي أدلوا بها إليه عن حالة دولة المماليك فمنح قرا سنقر ولاية مراغة من عراق العجم، وأقطع همدان الأمير

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 704هـ، ص 378 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 38.

(*) هو الأمير شمس الدين قرا سنقر كان من كبار الأمراء وممن شاركوا في قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون فلمّا تولّى الملك الناصر محمّد بن قلاوون الحكم أخذ يتتبّع قتلة أخيه ويثأر منهم، فلمّا علم سنقر أنّ الناصر محمد يدبر القبض عليه خشي على نفسه وخرج في ثمانمائة مملوكا قاصدا بلاد المغول.
أنظر : ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج9، أحداث سنة711هـ، ص 26- 29.

(**) هو الأمير جمال الدين آقوش الدواداري الأفرم، كان يلي نيابة طرابلس فلمّا ورد له الرسم بنيابة حلب وطُلب إلى مصر ليلبس التشريف ويأخذ التقليد، خشي على نفسه بعد أن أتاه مملوك صهره أيدمر الزردكاشي وأخبره بأنّه مأخوذ وحرّضه على الفرار فسار من وقته إلى قرا سنقر. أنظر : المقريزي : المقفّى الكبير، تحقيق محمّد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م، ج2، ص 243 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 80- 81.

(***) هو حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة، أمير أعراب آل فضل، اختلف مع الناصر محمّد فأصدر كتابا بالقبض عليه، وأطلعه قرا سنقر على الكتاب فقرّر الذهاب معه إلى بلاد المغول لكنّه عاد إلى مصر سنة 723هـ/1323م فعفا عنه السلطان. أنظر : ابن حبيب، الحسن بن عمر : المصدر السابق، ج2، ص 75 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج9، أحداث سنة711هـ، ص 27، 28، 29.

(2) صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 40.

جمال الدين الأفرم(1)، وأعطى بن عيسى العراق فيما يذكر بن بطوطة(2).

ثمّ بدأت بوادر الشقاق والنزاع تظهر، بين المماليك وخانية فارس، حينما أرسل السلطان الناصر محمد الجيش المملوكي سنة 705هـ/1305م في حملة بقيادة الأمير سيف الدين قشتمر، أحد مقدمي حلب، لتأديب صاحب بلاد سيس الملك هيثوم الثاني لامتناعه مُجدّدا عن دفع الضريبة السنويّة للماليك وخروجه عن طاعتهم، فعلم المغول بأخبار غزو الجيش المملوكي لبلاد سيس، فساروا لنجدة صاحبها، وحليفهم، فتمكّنوا من هزيمة الجيش المملوكي وقتلوا عددا منهم وأسروا عددا آخر وذهبوا بالأسرى إلى الخان أولجياتو محمّد خدابنده(3).

وهكذا لم يتوقف صراع مغول إيران مع المماليك المصرية بعد موت غازان، وواصل خليفته أولجايتو العمليات العدوانية، علاوة على أنّ هذا الحاكم الجديد الذي كان قد أعلن من قبل ذلك انضمامه لأهل السنّة والجماعة المسلمين، مع أخيه غازان، عمد فيما بعد إلى دمج مذهبين من مذاهب السنّة والجماعة بعضهما مع بعض، ثُمّ عاد وتحوّل هو بنفسه إلى الدين الشيعي سنة 709هـ/1310م، بتأثير عدد من الشيعة من بينهم وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذاني الشيعي الديانة، اليهودي الأصل، الذي كان يعتنق ذلك الدين ويعمل على نشره، واستطاع أن يقنعه بتعيين أحد الأئمة الشافعية، ويُدعى نظام الدين عبد الملك المراغي، قاضيًا للقضاة في جميع أنحاء إيران على أن يأتمر بأمره جميع أنصار المذاهب الأخرى، وإصدر أولجايتو أمره بترك أسماء الخلفاء الثلاثة في السكة والخطبة، وإحلال أسماء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولديه محلّهم في الخطبة والاقتصار في السكة على اسم علي بن إبي طالب، ومحاولة فرض التشيّع على الشعب في الإيلخانيّة، وفي هذا الوقت كان عدد الشيعة قد ازداد في بلاد إيران وما بين النهرين، وسرعان ما تحسّن وضعهم واستقرّ لهم الأمر نهائيا، وقد أغضب هذا الموقف المماليك، الذين كانوا يعتنقون مذهب السنة والجماعة ويعتبرون أنفسهم حماة الإسلام، وعاد الرهبان البوذيون وحاولوا استمالة الخان إلى ديانتهم، إلاّ أنّ محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح، بل تسبب ذلك في طردهم نهائيا من البلاد، وقد سبب اعتناق أمراء أولخايتو للديانة الشيعيّة كثيرا

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، 1418هـ/1997م، ج2، أحداث سنة 712هـ، ص 479 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 41.

(2) ابن بطوطة : المصدر السابق، ج2، ص 93 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 41.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 705هـ، ص 390 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 65.

من الاضطرابات لأنّ ذلك الاعتناق سبب انقلاب موازين القوى بين المجتمعات الدينيّة، وأثّر على العلاقات مع مصر تأثيرا خطيرا، هذه العلاقات التي كانت دائما متوتّرة لأنّ معاملة أولجايتو لأهل السنّة كانت قاسية جدا، بينما أحسن إلى المسيحيين فتحسّنت أوضاعهم مؤقّتا، وقد كان أولجايتو فرض الجزية كاملة على أهل الذمة سنة 1306م، ولكنه في سنة 1308م استثنى القساوسة منها وأعفى الأديرة في بعض الأحيان من الضريبة، بل واعتبر الضريبة مخصصات لها، وقد بعث بايرادات مدينة إربيل العراقية إلى البطريق، ووقف الإيلخان ضد محاولات المسلمين تحويل كنيسة مسيحية في مدينة تبريز إلى مسجد، ولكنه تغاضى عن ذلك في عامي 1307م و1308م بسبب أحداث الضغط التي وقعت على الأهالي في أرمينيا وجورجيا الصغرى للدخول في الدين الإسلامي، وعلى هذا أضحى الصراع الداخلي مهدّدا بالانفجار لولا موت الخان في 9 ديسمبر عام 1316م(1).

ومن جهة أخرى كان لتوتر العلاقات بين مغول القبيلة الذهبية بروسيا، حلفاء المماليك، وبين إيلخانية فارس، نصيبه في ترسيخ الهوّة والشقاق بين مصر وبين أولجايتو، وقد بعث الخان القفجاقي طقطاي بن منكوتمر (1291- 1312م) في عام 704-705هـ/1305م إلى الناصر محمد بن قلاوون بطلب منه التحالف ضد إيلخان مغول فارس الذي أساء إلى المماليك المصرية الذين هم حماة الخلافة العباسية السنية بالقاهرة(2)، وقد دفعت هذه الأسباب الخان المغولي إلى البحث عن حلفاء جدد ضد المماليك وهم الأوروبيين جريا علي سياسة أسلافه.

بعد كل هذا الانحراف، توتّرت العلاقات بين خانية إيران وبين المماليك في مصر والشام، خاصة وأنّه طمع في الاستيلاء على الشام ومصر، وهي السياسة التقليديّة لمغول إيران منذ عهد هولاكو، فاتظح بذلك موقفه العدائي تجاه المماليك، وبدأ أولجايتو يفكّر مجدّدا في مهاجمة الدولة المملوكية بغزو شامل لبلاد الشام بعد أن أطلعه الأميران المملوكان المتمردان على سلطان مصر، قراسنقر وجمال الدين آقوش الأفرم، على حالة البلاد وقوّيا عزمه للدخول إلى الشام، لذلك سعى لتحسين علاقاته مع البابا وسلاطين أوربا المسيحيين والروم الشرقيين وأرسل مبعوثيه إلى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، بينما كان بعض المسيحيين في جزيرة قبرص وأرمينيا

---

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 75، 75 حاشية 1، 77- 78 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 480 ؛ عاشور فايد حامد : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص 175.
وانظر أيضا : Bartold (Spuler), Die Mongolen in Iran, Liepzig, 1939, p. 220.
(2) عاشور فايد حامد : العلاقات السياسية، ص 176، 177، 212.

يحرّضونه، هم أيضا، على الهجوم على بلاد الشام ومصر، ونتيجة لحقد خدابنده على المماليك المدافعين عن الإسلام، واقتناعه بكلام الأمراء الفارّين من بلاد الشام، قرر تجريد حملة عسكريّة إلى بلاد الشام دون انتظار مدد الحلفاء، وفي أوّل رمضان سنة 712هـ/آخر ديسمبر 1312م وصلت التجريدة المغولية إلى قلعة الرحبة، وكانت تعد من أولى القلاع المملوكيّة على الحدود الشاميّة، فحوصرت ثلاثة وعشرين يوما وأقام حولها سبع حلقات من القوات لإحكام حصارها ونصب حولها المجانيق، ثمّ اصطدمت قوات المغول بها، وحضر عسكر الكرج، وصاحب سيس ومعهم الصلبان يرفعونها، وقاتلهم سكانها ونائبها الأمير بدر الدين موسى الأزدكشي خمسة أيّام قتالا عظيما ومنعهم من دخولها، فأخفق خدابندا في إخضاعها، وضاق من مواصلة الحصار بسبب نقص المؤن وصعوبة الأمر، فأشار رشيد الدولة المسلماني على الخان بفك الحصار عن أهلها على شرط أن ينزل جماعة من الرحبة إلى خدابندا ويقدمون له هدية ويطلبون منه العفو، فنزل القاضي نجم الدين إسحاق ومعه جماعة وقدّموا لخدابندا خمسة جياد وعشرة أكداس سكر فقبل ذلك وعاد بقوّته إلى بلاده يجُر أذيال الفشل بعد فناء جيشه، وكان قد تمخّض عن قدوم الغزاة إلى البلاد نزوح معظم سكان المدن وغلاء الأسعار، ولمّا علم السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون بخبر الهجوم على الرحبة خرج بنفسه لملاقاة المغول فلمّا وصل إلى غزّة جاءت الأخبار بأنّ المغول تسامعوا بمجيء السلطان فرفعوا الحصار عن الرحبة ورحلوا تاركين المجانيق وآلات الحصار على حالها، فنزل أهل الرحبة واستولوا عليها(1)، وهكذا فشل أولجايتو في الاستيلاء على أوّل قلاع الشام من ناحية العراق في أوّل هجوم عسكري له وعاد إلى إيران وقد تخلّى عن فكرة غزو الشام.

وكانت نتيجة محاولة أولجايتو جمع الأنصار لغزو بلاد الشام ومصر أن وجّه، فعلا، سفارة إلى ممالك الغرب المسيحي تحمل رسائل، إلى البابا كليمنت الخامس وإلى الملك الانجليزي

---

(1) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 245، 251، 252، 253، 254، 255 ؛ الذهبي: كتاب دول الإسلام، تحقيق فهيم محمّد شلتوت ومحمّد مصطفى ابراهيم، نشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1408هـ/1988م، ج2، ص 218 ؛ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 18، ص 124 ؛ العيني (بدر الدين محمود) : عقد الجمان، ج5، ص 359- 369 ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج9، أحداث 712هـ، ص29، 30، 31 ؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 712هـ، ص 482 ؛ أبو الفداء: المختصر، ج4، ص 84- 85 ؛ عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 483، 485 ؛ صبحي عبد المنعم محمد : سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام (716- 736هـ/1316-1335م)، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،2001م، ص 41، 42 ؛ فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 219.

إدوارد الثاني وإلى الملك الفرنسي فليب الجميل، يطلب منهم التحالف معه لاحتلال مصر وبلاد الشام، لكنّ هذه السفارة لم تتعدّى حدود التعارف، إذ أنّ الأجوبة التي أرسلها هؤلاء الملوك كان فيها قدرا كبيرا من التحفظ، ولم يكن في نيّة هؤلاء الملوك القيام بأيّ تعاون حقيقي، ولم تنته بإرسال مدد عسكري، ذلك أنّه لم تكن الأحوال الداخليّة لدى ملوك أوربا تسمح لهم بخوض غمار الحرب ضدّ المسلمين وبخاصّة بعد سقوط الأمارات الصليبيّة في فلسطين، وهي التي كانت تعد بمثابة ثغور وقواعد أماميّة لهم، وكانت النتيجة الطبيعيّة لهذا الوضع أن فقدت إيران المغوليّة الاهتمام الأوربي وندر بعوث الإرساليّات التبشيريّة إليها، إذ تحوّلت هذه الأخيرة باتجاه أراضي القبيلة الذهبيّة، ولم يبق فيها إلاّ الوكالات التجاريّة للمدن الأيطالية التي استمرّت في التعامل مع بلاد إيران ردحًا من الزمان(1).

**هـ- <u>ردة فعل المماليك على اعتداء أولجايتو</u> :**

وكان لا بدّ للمماليك من الردّ على ما فعله أولجايتو فقرر السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون تجريد حملة عسكريّة سنة 715هـ/1315م إلى ملطيّة(*) للاستيلاء عليها وتخليصها من "جوبان"، نائب أولجايتو، الذي أناب بها رجلا كرديا تعدى على أهلها، وأساء إليهم وظلمهم(2)، فوصل الجيش المملوكي في 23 محرّم 715هـ/30 أبريل 1315م إلى ملطيّة بقيادة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وحاصر المدينة لمدّة ثلاثة أيّام حتّى خرج إليه نائب ماطية وأعيانها واتفقوا مع تنكز على تسليمها فأمّنهم وألبسهم التشاريف السلطانيّة المجهّزة من القاهرة، وأعطى نائب ملطيّة سنجقا سلطانيا ثمّ عاد راجعا إلى الشام بعد أن ترك خلفه نائب حلب ليقوم بهدم أسوار المدينة(3).

على أنّ المغول ما لبثوا أن اشتبكوا مع المماليك في معركة أخرى وذلك في سنة 715هـ/ 1315م في ماردين، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ نائب حلب المملوكي، كان قد عهد إلى الأمير شهاب الدين قرطاي بالذهاب إلى ماردين لإخضاع واليها الذي خالف أوامر السلطان

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 78 ؛ عاشور فايد حامد : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص 175.
(*) ملطيّة : هي من الثغور الجزريّة بالشام، وموقعها الحالي في الجمهوريّة التركيّة.
أنظر : المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 715هـ، ص 501، حاشية 1.
(2) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 18، ص 142.
(3) المقريزي: المصدر السابق، ج2،أحداث سنة 715هـ، ص 501، 502.

الناصر، وكان للمغول أموال سنويّة يحصلون عليها من هذه الجهة فتصادف وجودهم مع وجود قرطاي، ومن ثمّ رأى هذا الأمير أن يحاربهم، فاشتبك معهم في حرب، انتهى الامر فيها بقتل وأسر فريق منهم، ثمّ سيق الجميع إلى حلب، ولمّا علم السلطان بذلك سرّ سرورا عظيما وأرسل الخلع والهدايا لنائب حلب وقرطاي(1).

واشتدّ غضب الخان أولجايتو لذلك، فقرّر أن يضرب المماليك ضربة شديدة في اتجاه آخر، وهو السيطرة على الحرمين الشريفين، وأخذ يسعى لاستمالة الأشراف العلويين ببلاد الحجاز إلى جانبه، وواتته الفرصة حين حضر إليه الأمير حميضة، وسببه أنّه جرى في سنة 715هـ/ 1315م أن تقاتل هذا الأخير مع أخيه رميثة الذي هو حاكم مكّة لينتزعها منه، فسارت عساكر من مصر لتأديبه، وبعد قتال مع حميضة وانهزامه وقتل عدد من أصحابه، سار هذا الأخير يريد الدخول في بلاد المغول، فتلقّاه أولجايتو وأكرمه، وأقام حميضة عنده مدّة شهر، ثمّ اقترح على أولجايتو أن يمدّه بجيش من المغول ليسير إلى بلاد الحجاز فيملكها ويخطب له على منابرها، وكانت هذه الفكرة لا تزال تراود خيال أولجايتو، فوافق على ذلك وعزم على تنفيذها، فجهّز جيشا كبيرا يضمّ أربعة آلاف فارس وجعل على قيادته الأمير طالب الدلقندي، نائب السلطنة بالبصرة، فسار بهم في شهر رجب من السنة نفسها يريد مكّة، بينما أخذ خدابندا يجمع جيوشه للعبور مرّة أخرى إلى بلاد الشام، ولكنّه مات، في ذي القعدة سنة 716هـ، قبل تحقيق هذا الغرض، ولمّا بلغ جيش حميضة ظاهر القطيف وصله الخبر بموت أولجايتو محمّد خدابندا، في حين أرسل الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني إلى قادة الجند، وأمرهم بعدم الطاعة للأمير طالب الدلقندي، ومخالفته، لعداوة كانت بين الوزير وهذا الأمير، فآل الأمر إلى أن هرب عسكر المغول عن حميضة، ولم يثبت معه سوى الأمير طالب الدلقندي في نفر من خواصه، فلمّا علم محمّد بن عيسى أخو مهنا بما آل إليه أمر حميضة وأعوانه هاجمهم ليلا في جماعة من أعراب آل فضل وقتل منهم عددا كثيرا ووقع في الأسر من المغول أربعمائة فارس، ونهب ما كان معهم من الأموال، وفرّ حميضة والدلقندي وبعض أعوانهم، ثمّ كتب محمّد بن عيسى بذلك إلى السلطان الناصر، فسرّ سرورا كثيرا واستدعى محمّد بن عيسى أمير العرب فوصل مصر وأنعم

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 715هـ، ص 505 ؛ عاشور فايد حامد : المرجع السابق، ص 185.

عليه (1)، واستمرّت العلاقات متوتّرة بين المماليك والمغول حتّى تولّى أبو سعيد بن أولجايتو محمّد خدابنده بعد موت والده سنة 716هـ/1316م(2).

ويبدو أنّ السلطان المملوكي لم يكتفي بذلك النصر على خميضة الخائن ومن معه من المغول، بل أرسل حملة أخرى في السنة نفسها، 715هـ/1315م، بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي على رأس ستمائة فارس، وخرجت هذه الحملة من حلب في العام نفسه لتأديب صاحب ماردين لتعاونه مع المغول، وشنّ الجيش المملوكي هجوما شديدا على ماردين لمدّة يومين، والتقوا بجماعة من المغول حضروا إلى ماردين لجباية المال أو أخذ القطيعة السنويّة المقرّرة فحاربهم قرطاي وقتل منهم ستمائة رجل وأسر مائتين وستين وقدم بالرؤوس والأسرى إلى حلب(3).

و- **<u>اتصالات أولجياتو(أولغايتو) محمّد خدابنده(703-716هـ/1304-1316م) بأباطرة أوربا الغربية</u>**(*) :

لقد تميّزت الفترة الأولى من حكم أولجايتو بالهدوء المؤقت، نسبيا، بعد حروب دامت نصف القرن، قادها المغول في جميع الأنحاء ما أدى إلى إضعاف الإمبراطوريّة المغوليّة، ولكن أمام الوضع المتأزم الذي كان يحيط إيلخانية فارس كان على الإيلخان الجديد الخروج من كهف المسالمة والدعى إلى إعادة مجد الغزو المغولي، ولاكن أمام الضعف الذي آلت إليه الإيلخانية التفت إلى الأوروبيين في طلب المساعدة جريًا على عادة أسلافه، فحاول قبل الإقدام على غزو بلاد الشام، التحالف مع الغرب الأوروبي، العدو التقليدي للمماليك، لتطويق هؤلاء، والحصول على مساعدة عسكريّة، فوجّه من أجل ذلك رسائل عدّة إلى أباطرة الغرب الأوروبي، إلى البابا كليمنت الخامس، وإدوارد الأوّل (1272- 1307م) ملك إنكلترا، وفيليب الرابع لوبلPhilip le bel ملك فرنسا، حملها له السفيران الإيطاليان تماس أوجي دي سينا الدوتشي، ومالغ، ويُؤكد فيها الاستمرار في الاحتفاظ بالعلاقات الطيّبة التي اتبعها أسلافه معهم،

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 715هـ، ص 505 ؛ ابن فهد، عز الدين بن عبد العزيز بن عمر بن محمّد بن فهد الهاشمي القرشي (850- 922هـ) : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط 1، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، 1409هـ/1988م، ج2، ص53، 76- 77 ؛ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا : البداية والنهاية، ج 18، ص153 ؛ أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 95، 96 ؛ عاشور فايد حامد : المرجع السابق، ص 158، 185؛ صبحي عبد المنعم محمد : المرجع السابق، ص 43، 44.

(2) أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4، ص 96.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 715هـ، ص 505.

(*) هي آخر بعثات خانية فارس إلى الغرب الأوربي.

ويُعرب عن استعداده للتحالف معهم، ومن الأهمية بمكان التأكيد على أنّه كان للتجار الإيطاليّين، الذين كانوا متواجدين بوفرة في إيلخانية فارس، الدور البارز في إقناع الإيلخان على تلك الحركة، بأن الأوضاع السياسيّة في أوروبا باتت مستقرّة، وأنّ فرصة نجاح إقامة تحالف مغولي – أوروبي، مواتية جدا، ولكن يبدو أنّ تبادل الرسائل لم يُؤدي إلى نتيجة إيجابيّة على الرغم من اعتقاد البابا وملوك أوروبّا بأنّ أولجايتو كان يميل إلى الدين النصراني، وقد كوّنوا هذا الانطباع نتيجة إخفاء مبعوثه إليهم نبأ اعتناقه الإسلام حتّى يضمن مساعدتهم(1).

**- سفارة الإيطالي تماس أوجي دي سينا من قبل أولجيانو إلى فليب الرابع لوبل Philip le bel سنة 705هـ/1305م :**

لم يجد أولجايتو (704-716هـ/1304-1316م) أمام الوضع السياسي الجديد إلا أن يسير على سياسة أخيه غازان التودّديّة مع الغرب الأوربي، وفي صيف عام 705هـ/1305م أرسل خطابًا إلى ملك فرنسا، فليب الرابع، للتأكيد على العلاقات الوديّة، وكذا عرض مشروعًا للتحالف ضدّ المماليك في مصر والشام، وبذلك تكون الرسالة قد حملت فكرة السلام العام مع الغرب الأوربي(2).

ويتضح من خطاب أولجايتو لملوك غرب أوروبا أن التجار الايطاليين في فارس قد اقنعوه أن الأحوال السياسية في أوروبا مستقرة، فتشجع لتلك الأنباء وأرسل سفارته الأولى، المتكونة من تومان (أي توماس) ومالغ (Thomas Ugy of siena) Mamalak etTouman ، عام 704هـ/1305م تحمل رسالة مؤرّخة في صيف عام 1305م يُذكّر أولجايتو فيها ملك فرنسا، فيليب الرابع، بالعلاقات الودية التي كانت بين أسلافهما وأنّه عازم على المحافضة عليها، وأنّه يُقر ويحترم الاتفاقات التي أبرمها أسلافه والتزم بها أخوه الأكبر غازان، ويخبره بالتفاهم الحاصل بين أحفاد جنكيز خان وأنّ هؤلاء ليس بينهم حروب ولكن السلام والتفاهم، ووجود حلف بينهم في كل أنحاء البلاد التي يسيطرون عليها، وأنّ سبب الحروب الماضية بينهم كانت

---

(1) أنظر: Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, p. 450, 451, 574, 575; Lockhart(L.), "The Relations Between Edward I and Edward II., p. 29; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 430.

(2) أنظر : Denis Sinor, the Mongols and western europe, in Setton (Kenneth M.), A History., T.III, p. 537; Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 256; Lockhart(L.), "The Relations Between., p. 30; Paviot(Jacques), England and the Mongols (c. 1260-1330), Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3 (Nov., 2000), p. 317; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 431.

نتيجة مؤامرات الرَعَايَا وافتراءاتهم، لم تكن من مسؤولية الخانات أو حرصهم على الكسب المادي، وقد فُتحت الطرق كلها للتواصل السياسي والحضاري، ويطلب من الملك الفرنسي تبادل السفراء وتكثيف الاتصالات بين الطرفين لأنه نما إلى علمه "أنكم يا سلاطين الفرنجة متفاهمون جميعا مع بعضكم، وليس هناك أفضل من التفاهم، فسنقف، بقدرة السماء، صفا واحدا في وجوههم، والسماء شاهدة على ما نقوله"، ثمّ أنها أولجايتو رسالته بتهديد للملك الفرنسي في حالة رفضه لإرسال ما طلب منه وأمره بتقديم ولاء الطاعة(1)، وبالرغم من أنّ هذه الرسالة لم تحمل في طيّاتها أيّة إشارة إلى طلب التحالف أو التعاون ضد المسلمين السنة في مصر والشام، إلاّ أنّ لسان حالها يحمل ذلك المعنى، ويعتقد المؤرخ الباحث دونيس سينور Denis Sinor أنّ السفيرين توماس ومالغ كانا مكلّفين بشرح للمرسَل إليهم كثيرا من التفاصيل شفاهة، ذلك أنّ رسالة أولجايتو الأصلية كانت تحمل على ظهرها عبارات باللغة الإيطالية توحي بأنها من تدوين السفير الإيطالي كتذكرة له لينقلها شفويا(2)، أمّا الملك الفرسي فإنّه يبدو أن لا أثر لرده على الإقترتح المغولي بتاتا(3) لأنّ أمور الشرق بعامة والأراضي المقدّسة بخاصّة لم تعد تعنيه في شيء، وهو في غنا عن حرب جانبيّة لم تجلب لخزينة الدولة إلا المزيد من الإفلاس ولشعبه إلا المزيد من الأيتام والأياما والآلام في زمان تخلت ملوك أوربا أو فترت فيهم روح المغامرة الصليبيّة.

**- سفارة توماس أوجي دي سينا من قبَل أولجياتو سنة 707هـ/1307م إلى الملك الإنجليزي إدوارد الثاني :**

لم تلقى رسالة أولجايتو إلى الملك الفرنسي الرد المرجو، فتابع المبعوث أوجي دي سينا مع رفيقه طريقه صوب إنجلترا في زيارة إلى ملكها إدوارد الأوّل، فلمّا وصلا في أكتوبر من عام707هـ/ 1307م، وجدا أنّ إدوارد الأول قد مات في محرّم 707هـ/7 جويليا 1307م واعتلا

(1) أنظر : Mostaert(A. & F.W. Cleaves), Les Lettres de 1289 et de 1305., op. cit, pp. 56-57; Pauthier(G.), Histoire des Relations politiques de la chine avec les Puissances occidentales depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, Paris, 1859, pp. 236- 238; d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 587- 589; Howorth (H.), History of the Mongols, London, 1888, Vol. III, pp. 574- 575; Lockhart(L.), The relations between., p. 29; Paviot(Jacques), England and., p. 317; Denise Aigle, De la « Non-Négociation »., p. 430- 431.

(2) أنظر : Denis Sinor, op. cit., p. 537; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West., History Today, 1973, p. 563. Lockhart(L.), The relations between., p. 30.

(3) أنظر : Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, p. 256; Lockhart(L.), "The Relations Between., p. 29.

ابنه إدوارد الثاني العرش الانجليزي (1307-1327م)، فاستقبلهما هذا الأخير بحفاوة، وردّ على الخطاب المغولي، الذي كان بأدنى تقدير مماثل للذي وجّه إلى الملك الفرنسي من قبل، في رسالتين إلى الإيلخان، الأولى مؤرّخة في 17 ربيع الآخر/16 أكتوبر 1307م من مدينة ساوثميتون الانجليزية أعرب فيها رغبته في الاستمرار في علاقات الصداقة مع الإيلخان أولجايتو، لكنّه لم يُلزم نفسه بتعهدات جديدة(1).

ويبدو أنّ السفير أوجي دي سينا قد تعمّد إخفاء عقيدة أولجايتو عن جميع من لقيه في أوربا، ولم يتطرّق في ناقاشه مع الملك الإنجليزي ومستشاريه وغيرهم من الأباطرة إلاّ إلى الأوضاع الداخليّة لإيلخانيّة فارس، ولا شكّ أنّ هذا الأمر كان بتعليمات من الإيلخان نفسه، بدليل أنّ عبارات رسائله إلى ملوك الغرب الأوروبي تخفي ذلك(2).

وعلى ذلك فإن إدوارد الثاني اعتقد أنّ أوجايتو يميل إلى النصرانيّة، ويبرز بوضوح في رسالته الثانية المؤرّخة في 30 جمادى الآخرة/30 نوفمبر 1307م، إذ قدح من خلالها في العقيدة الإسلاميّة ووصف النبي محمّد صلّى الله عليه و سلّم بصفات نابية، وطلب من أولغايتو التخلص من أتباعه المسلمين وكتابهم القرآن الكريم، وأبلغه أنه لولا بعد المسافة بينهما، بالإضافة إلى عوائق أخرى، لما تأخّر عن مساعدته في تخليص وجه الأرض منهم، كما أبلغه بأنّ جماعة من رهبان هيئة الفرانسيسكان ستصل إلى بلاده قريبا برفقة سفارته كي تنشر العقيدة النصرانيّة الكاثوليكيّة في بلاده "وبدونها لن ينجي أحدا من الهلاك"، وطلب منه أن يحسن استقبالهم ورعايتهم وحمايتهم، مبرهنًا بذلك عن جهل مطبق بحقيقة الأوضاع في إيلخانيّة إيران، وهو الوحيد الذي كانت تعتمد عليه البابويّة لاسترداد الأراضي المقدّسة، ولم يعلم أنّ عكس ما يريد من تغيير ديني بتحويل المغول والمسلمين معًا إلى النصرانيّة، قد حدث في إيلخانيّة إيران(3).

ولأهمية الموضوع رأى إدوارد الثاني أن يكتب إلى البابا وإلى ملك أرمينيا الصغرى يستنفرهما لإرسال البعثات التبشيرية إلى خانية بلاد فارس ظانا منه أنّ هناك بين المغول نواة

---

(1) أنظر : Howorth (H.), op. cit., Vol. III, p. 575; D'Ohsson(Constantine), op. cit., T. IV, p. 591, 592; Denis Sinor, op. cit., p. 538; Lockhart(L.), The relations between., p. 30; Browne(Edward Granville.), A Literary History of Persia, p. 441.

(2) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, p. 577; Browne(Edward Granville.), A Literary History of Persia, p. 49; Lockhart(L.), The relations between., p. 30.

(3) أنظر : Lockhart(L.), The relations between., p. 30; Denis Sinor, op. cit., p. 538; Paviot(Jacques), England and., p. 317.

مسيحية صلبة تستحق التشجيع، ويبدو أنّ هذا التصرف الإنجليزي بهذا الشكل وفي هذا التوقيت لا يدل إلاّ على إفلاس الملك الانجليزي، في حين لا أثر لذهاب أية بعثة من قبل إدوارد الثاني لمقابلة أولجايتو أو بعدها، بينما كانت البابوية تعوّل على هذا الملك لاسترداد الأراضى المقدسة، فأراد تعويض ذلك بمحاولة تحويل المغول والمسلمين معا للمسيحية، ولم يعلم أن عكس ما يريد قد حدث في إيلخانية فارس، ولحرص البابا كليمنت الخامس (704-714هـ/1305-1314م) على عقد حلف عسكري مع المغول استدعى في تلك الأثناء هيتون Hayton أبن أخي الملك الأرميني هيثوم الأول، الذي كان موجودا في فرنسا حينئذ، وكان من أشد المدافعين عن التحالف المغولي الأوربي والمشجعين لتواجد الصليبيين في الشرق، فطلب منه كتابة تقريرا مفصلا عن مميزات ومخاطر التعاون مع المغول باعتبار أنه قد شارك بالفعل مع جنوده الأرمن في بعض المعارك ضد المماليك، التي كان المغول طرفا فيها، ومن ثم فإنه على دراية كاملة بالظروف والملابسات السياسية في الشرق الأدنى، وقد سلم هيتون تقريره المعنون ب "زهرة تواريخ الشرق" la flor des estoires de la terre d'orient ، باللغة الفرنسية القديمة، للبابا في شهر أوت من عام 1307م، واقترح في تقريره تنفيذ خطة عسكريّة بالتفاهم مع المغول تقضي بمهاجمة الصليبيّين والأرمن للسواحل الشاميّة بحرًا، في الوقت الذي يهاجم فيه المغول المماليك برًا من جهة الشرق(1).

**- وصول أوجي دي سينا إلى البابا كليمنت الخامس (704-714هـ/1305-1314م) :**

وعندما أحسّ أعضاء البعثة المغوليّة أنّه طال بهم الزمان وأن لا فائدة ترجى من ملك انجلترا ولّت على أدراجها لتصلت إلى روما في أواخر عام 707هـ/أوائل عام 1308م، فقابلت البابا الذي ارتأ إلى كتابة رسالة إلى الخان المغولي مؤرخة في 6 رمضان/ الأوّل من مارس 1308م(2)، أعرب فيها عن سروره وسعادته باستلام رسالته التي تتضمّن معلومات قيّمة تفيد بأنّه سيجهّز مائتي ألف حصان، و مائتي ألف كيس من القمح و يضعها تحت تصرف مملكة أرمينيا الصغرى لإمداد الجيوش الصليبيّة حين قدومها لتخليص الأراضي المقدّسة، بالإضافة إلى أنّه – أي الإيلخان – سيقود مائة ألف فارس لتدعيم هذه القوّة لطرد المسلمين من الأراضي

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, pp. 579- 580; Denis Sinor, op. cit., pp. 538-539; Lockhart(L.), The relations between., p. 30.

(2) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, pp. 576- 577.

المقدّسة، وأنّ هذا العرض السخي "قد قوى عضدنا مثل الغذاء الروحي تماما"، وابلغ البابا السفيرين بأنّه متى يأتي موسم مناسب لعبور البحر، فإنه سيبلغه عن طريق سفارة من جانبه بموعد و كيفيّة وصول القوات إلى الشرق، وألحّ على الخان المغولي بأن يواصل مساعيه وجهوده من ناحيته لتخليص الأراضي المقدسة "من أعداء الرب الذين دنسوها"، وفي نهاية رسالته يقول البابا للخان أنه والكنيسة الرسولية سوف يسعدوا بنجاحه ومجده في الدنيا والأخيرة(1).

والراجح أنّ هناك مبالغة وتظخيما للأرقام من قبل سفير أولجايتو بخصوص التموين والتمويل المغولي المتقدم ذكره آنفا، ولا شك أنّ ذلك من إفترائات السفراء لتوريط ودفع أوربا إلى حرب صليبية هي في غنا عنها، والواقع أنّ التجار الأوروبيّين في البلاد المغوليّة، وغالبيّتهم من الإيطاليّين، ومنهم السفير أوجي دي سينا، هم الذين وراء إقناع إيلخانات إيران بإرسال العديد من السفارات إلى أوروبّا وذلك لهدف :

- تأمين تنقلهم مع تجارتهم بحريًا بين الشرق والغرب.

- كما حرصت المدن التجاريّة الإيطاليّة على أن يتم التحالف بين الطرفين، لأنّ نقل آلاف الفرسان والمشاة من أوروبا إلى الشرق سيتم على سفن تابعة لها مع ما يتطلّب ذلك من نفقات تموينهم وإمدادهم بضرورات الحياة، فضلاً عن حصولهم على امتيازات تجاريّة واسعة في الموانئ الشاميّة.

- والسيطرة على تجارة الشرق الأقصى المارّة بإيران والخليج العربي، وحرمان التجار المسلمين من دور الوسيط في نقل السلع الشرقيّة إلى الغرب الأوروبي، ولا عجب أن يكون التجار الأوروبيّين سبب الكثير من الحروب الدائرة في العالم عامّة والمنطقة خاصّة في القديم والحاضر، وهم الآن يُسيطرون على منابع التجارة في العالم حتّي بعد استقلال البلدان التي احتلوها بالحديد والنار في العصر الحديث، و تعويض خسائرهم الفادحة في هذا المجال بعد أن استعاد المسلمون تلك الموانئ من أيدي الصليبيّين سنة 1291م وقبلها، والمعروف أنّ المدن الإيطاليّة، البندقيّة وجنوة وبيزا، كانت الرابح الوحيد، تقريبًا في أوروبا من الحملات الصليبيّة

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, pp. 576- 577; Boyle(J. A.), The IL-Khans of Persia and the Christian West, p. 563; Denis Sinor, op. cit., p. 538.

السابقة، وإنّ ازدهارها يرجع إلى هذا الأمر(1).

ويبدو أنّه رغم تلك العروض الخياليّة المغرية، لم يقم التحالف العسكري بين الطرفين، ولم ترسل حملة صليبيّة أوربية جديدة إلى الشرق، وذلك لانهماك أوربا بمشكلاتها الإقليميّة وانكباب رجالاتها على دراسة أسباب فشل الصليبيّين في الاحتفاظ بمواقعهم في الأراضي المقدّسة، والبحث عن أنجع السبل لاسترداد هذه البقاع، و المعروف أنّ تلك التقارير لم تُثمر بسبب صعوبة تطبيقها على أرض الواقع في ظل تغيُّر ظروف كل من الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، فمنهم من اقتراح ضرورة القضاء على المماليك بحصارهم اقتصاديا، واقترح فريق ثان تنصير المغول والمسلمين معا لكسبهم إلى جانب الأوروبيين تحت لواء البابوية، وطالب فريق أخر بتوحيد كافة القوى السياسية في أوروبا وكذلك المدن التجارية الإيطالية والهيئات الدينية والعسكرية تحت لواء البابوية وتحت راية الصليب(2)، وفي النهاية لم يكن لمشروع الحلف أن يتحقق وسط ظروف سياسية واقتصادية واجماعية كانت تنخر أوربا من داخلها وتحول تدريجي مطرد لمغول فارس إلى الاسلام ولصعود قوة المماليك اقتصاديا وعسكريا رغم الحصار الاقتصادي الذي فرظته البابوية.

**ز- <u>استمرار علاقات مصر بأوربا في شخص ملك أرجون جيمس الثاني :</u>**

كنّا قد ذكرنا من قبل الاتصالات بين السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وبين ملك أرجون جيمس الثاني بين سنتي 702هـ/1303م و703هـ/1304م وما تمخّض عنها، ولم تمضي عن ردّ الناصر سنة واحدة حتّى أرسل الملك يعقوب (جيمس الثاني) في السنة التالية أي في أوّل سبتمبر 1305م رسولا يُدعى (Eymerich) Neymerich في بعثة أخرى إلى السلطان الناصر، وافتتح العاهل الأرجوني كتابه بإعلان سروره بوصول الأمير المصري فخر الدين إلى برشلونة، وكان الناصر قد أرسله إلى بلاد أرجون يحمل إليه الهدايا من السلطان ومؤكّدا أنّه أجاب مطالب أرجون، ما أدّى إلى إيجاد علاقات وديّة متينة بينه وبين الملك الأرجوني، ثمّ تقدّم الملك الأرجوني في تلك الرسالة راجيا هذه المرّة من سلطان مصر حماية المسيحيين المقيمين في المملكة المصريّة، وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين في مصر، وبخاصة الرعايا الأرجونيين أمثال جيوفاني بيريز Giovanni Perez وفاسكو بيريز فاجردو

---

(1) هلال، عادل إسماعيل محمّد : المرجع السابق، ص 141.

(2) أنظر : Atiya(Aziz S.), The Crusade in the Fourteenth Century,in Setton (Kenneth M.), A History., 1975, T.III, p. 5- 6.

Vasco Periz Fajardo وألفونسو بيريز Alfonso Peris وفيرديناند الرابع أف كاستي Ferdinand IV of Castille وبيرتراندو دي بوبيا Bertrando de la Popia، وحمايتهم، والعناية بأمر زوّار أرض فلسطين الذين يحملون رسائل ملكية، والسماح لهم بالدخول إلى الأماكن المقدسة بفلسطين، وأخيرا أن يمنح لرعايا الملك الأرجوني جوازا يبيح لهم التجول في الأراضي الخاضعة لدولة المماليك دون أن يدفعوا رسوما، فردّ الناصر على تلك الرسالة في أوّل شعبان سنة 705هـ/16 فبراير 1306م، وكان ردّه من أقوى الأدلّة على توثيق علاقات الود بين المماليك المصريّة وبين أرجون، ذلك أنّ الناصر سمح للمسيحيين بالسفر إلى الأراضي المقدّسة للحج المعروف عندهم، في أمن وطمأنينة، وأمّن حياة التجار ورعايا مملكة أرجون المقيمين في الاسكندرية، وابلغ الملك الأرجوني أنّه أطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين في مصر، وقد أشار السلطان في مرسلته أنّه لم يكن بين هؤلاء الأسرى المحرّرين أحد من أهل أرجون، ما يدلّ على حسن حال أهل الذمة الأرجونيين في مصر تلك الآونة، وقد أثّر هذا التصرف أيّما تأثير في نفس يعقوب (جيمس الثاني) ملك أرجون وفي نفوس الأقباط أيضا وهم من رعايا السلطان المملوكي(1).

وانتهز الملك الأرجوني يعقوب (جيمس الثاني) فرصة ذلك الارتخاء المصري والعلاقة الوطيدة، فاستأنف العلاقات مجدّدا بإرساله إلى السلطان الناصر بعثة ثالثة بتاريخ 8 ديسمبر 1314م/714هـ تضُمّ رسولين، هما جوجليلمو دي كازاندال Gugliemo de Casandal وأرنالدو دي باستيدا Arnaldo de Bastida، يحملان كتابا يعتذر فيه للسلطان الناصر عن حادثة سفيره الأمير فخر الدين الذي أهين في أراجونة، ويطلب فيه إطلاق الحرية الدينية، ليس فقط للرعايا لأرجونيين بل لجميع المسيحيين في أراضي السلطان، وحماية الحجاج الذاهبين إلى الأراضي المقدّسة، وإطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين في مصر، واستقبل الناصر تلك السفارة بتاريخ 10 ذي الحجة 714هـ/17 مارس 1315م، بحفاوة في القاهرة، ثمّ بعث إليه ردا لم يجبه فيه بوضوح إلى طلبيه الأوّلين الخاصّين بمنح الحريّة الدينيّة للمسيحيين وحماية الزوار المسيحيين إلى بيت المقدس، لكنّه تناول مسألة الأسرى المسيحيين بشيئ من التفصيل والإيضاح، وخصّ بالذكر اثنين من هؤلاء الأسرى هما إفرير كليام Ifrir Killiam وإفرير

---

(1) أنظر: Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 26- 28; Ibid, The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 511, 512.

دالماط Ifrir Dalmat، ولكن يتفرّس من خلال اللهجة التي كتبت بها الرسالة أنّ السلطان لم يكن معارضا على منح حريّة المعتقد للمسيحين أو حماية الزوار اللاتين عند سفرهم إلى فلسطين، كما تدلنا على نمو علاقات الصداقة والمودّة بين العاهلين، ويدلّنا تبادل الهدايا بينهما وحسن استقبال الرسل من الجانبين عن سماحة السلطان الناصر تجاه رعاياه المسيحيين، وهذا رد الناصر على مطالب يعقوب (جينس الثاني) : "محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون . بسم الله الرحمان الرحيم : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم الخطير، الباسل الضرغام الزير (تقرأ الزائر)، يعقوب Jaime العالم في ملته، العادل في مملكته، عزّ الأمة المسيحيّة، نصرة الدين النصرانيّة، فخر الملّة العيسويّة، عمدة بني العمودية، صاحب أرغون وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقة وكومس، وبرجلونة، ومقدم البحر، وأمير علم كنيسة روما ... فأمّا ما ذكره من محبّته لنا، وتقربه إلى خواطرنا، وإثارة العمل بما تقتضيه آراؤنا الشريفة، فقد علمنا جميع ما ذكره من ذلك وأقبلنا على إخلاص محبته، وشكرنا هذا القصد الجميل والنية الصالحة، وتحققنا بذلك من نودّته وعمله على التقرب من خواطرنا وإن كان بعيدا عنا، وصار له بذلك عندنا المكانة الجيّدة والمحل الذي يسره، فيستمر على ما وضعه من موالاته وإخلاصه في المحبة لأيامنا الشريفة، ويواصل بكتبه إخبارنا، وما لعلّه يعرض له من المقصد والمطلب، وأمّا ما ذكره في مشافهته التي تحملها رسله عنه من أمر الأسرى الذين قصد إطلاقهم بمقتضى الورقة التي أحضروها صحبتهم، فقد علمنا بذلك، والذي نعلمه به أنّ هؤلاء الذين حصل طلبهم من المفسدين وممن كانوا يوافقون على الأذية في البلاد، وإنّما لأجل خاطر كلام حضرة الملك وإرساله بسببهم، وسؤاله في معناهم، أطلقنا الموجودين منهم في هذا الوقت، وهم الأكابر المعتبرين منهم الأعيان وهم : فرير كليام وأفرير دالماط ورفقتهم ستة نفر ... وأمّا ما جهّزه مع رسله من الهدية المباركة المسيّرة بذلك فقد وصل صحبة رسله، وعرض بين أيدينا، وقابلناه بالقبول وحسن موقعة من إقبالنا ... وقد سيّرنا لحضرة الملك من أبوابنا الشريفة على سبيل البركة ما تضمنه المسيرة ... مثالنا هذا من الخزائن العالية لما للملك أبقاه الله في خواطرنا من علو المكانة والمنزلة فيحيط علمه بذلك"(1).

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 36- 38; Ibid, The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 511, 512.

## 5- اعتلاء أبي سعيد بهادور (716-736هـ/1316-1335م) عرش الإيلخانيّة :

كان لأولجايتو ابنا قاصرا اسمه أبا سعيد، أو بوسعيد في رواية، فعيّنه في عام 713هـ/1313م لولاية العرش من بعده، ومن مصائب الاستئثار بالحكم أن ينصّب الصبية في مواقع هي أحوج أن يكون أصحابها من أولي النهى والأحلام، وقد بلغ بأولجايتو من حرصه على تهيئة الخان الجديد من بعده، لخوض غمار الحكم والسياسة، أن نصّبه حاكمًا على خراسان وهو لا يتجاوز التسعة سنين من العمر، وجعل الأمير سونغ، الذي كان يثق فيه، أتابكّه، وأمره بالتصدي لغارات المغول الجغتائيّين، حكام بلاد ما وراء النهر، المجاورين له(1)، وحينما أحسّ الأمراء والوزراء من حول أولجايتو بدنوّ أجله ارسلوا في استدعاء أبي سعيد إلى العاصمة "السلطانيّة" منعًا لنشوب صراع على السلطة، إلاّ أنّه لمّا توفي الخان كان أبو سعيد لا يزال في مازندران، والأمير سونغ في سرخس ومرو، وما إن سمع هذا الأخير بالنبأ حتّى سار إلى مازندران لإخبار أبي سعيد، ثمّ توجّها مسرعين إلى السلطانيّة، فرحّب الأمراء والقادة المغول فيها، وفي مقدّمتهم جوبان وقتلغ شاه خاتون زوجة الإيلخان المتوفّى، بتولي أبي سعيد الخانية في بلاد فارس، في أوائل صفر 717هـ/ منتصف أبريل 1317م وهو ابن ثلاثة عشر سنة إذ كانت ولادته في 15 شوال 703هـ/2 حزيران(جوان) 1304م (2).

ويبدو أنّ الخان الجديد كان يميل إلى تعيين أتابكته سونغ أميرًا للأمراء، غير أنّ هذا اعتذر وفضّل أن يبقى أتابكًا له ليمده بنصائحه، فاختار أميرا آخر لذلك هو جوبان، ونصّب تيمورتاش بن جوبان حاكمًا على بلاد الروم، واختار جلال الدين، الابن الأكبر لرشيد الدين، وزيرًا ومتصرّفًا بالشؤون الماليّة، وعهد إلى إيرنجين بحكومة ديار بكر، وعيّن سوتاي حاكمًا على ممالك الأرمن، واختار أيسن لحكومة خراسان، وأبقى الوزيرين رشيد الدين وعلي شاه في منصبيهما على نحو ما كان متبعًا في عهد والده، ولكنّه عهد إلى الثاني بالإشراف أيضًا على المباني العامّة والقصور السلطانيّة والاصطبلات والترسانات، وكان معنى ذلك الحط من شأن الأوّل، وعيّن قادة الفرق العسكريّة وأرسلهم إلى الأماكن المخصّصة لهم(3).

---

(1) أنظر : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, Part I, p. 587.

(2) أنظر : D'Ohsson(Constantine), op. cit., T. IV, pp. 599- 603 ; Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, Part I, p. 585, 586; Browne(Edward Granville.), A Literary History of Persia, Adelphi terrace, London, 1906, p. 51.

(3) انظر أيضًا: D'Ohsson(Constantine), op. cit., T. IV, pp. 599- 603; Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Vol. III, Part I, p. 587.

ورغم كلّ تلك الترتيبات والاحتياطات إلاّ أنّ موت أولجايتو سبّب فعلا الارتباك في الدولة المغوليّة، ذلك أنّ ابنه بوسعيد، وهو أوّل حاكم مغولي في بلاد إيران حمل إسما إسلاميا فقط ودون الحاجة إلى تغييره، كان ولدا قاصرا، فجعل ذلك الحال المجال مفتوحا أمام ظهور زعماء جدد كانت أوّل خطوة لهم أن عزلوا الوزير رشيد الدين الهمذاني، ثمّ أعدموه عام 1318م، فحلّ محلّه قائد من قادة الجيش يُدعى جوبان الذي بدأ في زيادة سلطته تدريجيا، فأعاد نفوذ أهل السنّة والجماعة وهو الدين الذي اعتنقه أبو سعيد، أصلا، وبقيّة أفراد البلاط، فقد عاد أبو سعيد إلى العدل وإقامة السنة فأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين أوّلا، ثمّ عثمان ثمّ علي، رضي الله عنهم أجمعين(*)، ففرح الناس بذلك، وقد كان هنالك وزيرا يدعى تاج الدين علي شاه، وهو الوزير الوحيد الذي كانت وفاته طبيعيّة، باعتبار أنّ كل من سبقه في هذا المنصب خلاف ذلك، وكان هذا على وفاق تام مع جوبان(1)، الذي قرّر تزويج ابنته لأمير متنفّذ يُدعى الشيخ حسن الكبير، ولكن الخان أبو سعيد كان ينوي هو الآخر اتخاذها زوجا لنفسه، وقد حدث أن ألقي القبض على أحد أبناء جوبان وهو يقتحم حريم الخان، فما كان من أبي سعيد إلاّ أن أمر بإبادة جوبان وعائلته عن بكرة أبيهم عام 1327م ثمّ استحوذ على بنة جوبان، موعودة الشيخ حسن الكبير(2).

وعلى أثر تلك الحوادث سخط النبلاء على الخان أبي سعيد وحاكوا ضدّه مؤامرة كان على رأسها الشيخ حسن الكبير، وتلا ذلك عدّة اصطدامات، ولم ينقذ الموقف من الانهيار إلاّ الوضع الجديد مع مصر، فقد عقد صلح مع مصر عام (723ﻫ/1323م) بعد سنوات من القتال المرير دون جدوى، ولكنّ الفوضى كانت قد استفحلت في خانيّة إيران حتّى حدث فجأة في 30 نوفمبر 1335م، بينما كانت حملة عسكريّة تسير ضدّ القبائل الذهبيّة في القوقاز، أن مات إبو سعيد فجأة دون أن يكون له وارث شرعي(3).

---

(*) كان للخان الجديد أبي سعيد الفضل في توجيه دفة دولة المغول في إيران إلى طريقها الصحيح المستوجب للشكر والإجلال والذي لا تحيد عنه دولة إلا وكان مستقبلها إلى الخراب والفتن والزوال لا محال، حيث شدّد قبضته على الشيعة الباطنية الرافضة، وأعلن عودة الدين الإسلامي إلى الحكم، والتزم بمذهب أبي حنيفة النعمان، وأحاط نفسه برجال الدين الأتقياء وبالمثقفين وبخاصة فقهاء الحنفية، واهتم بتعظيم القرآن والسنة.
أنظر : المقريزي : السلوك، ج2، أحداث سنة 715، ص 513، ج3، أحداث سنة 736ﻫ ﻫ، ص 207 ؛ رجب محمد عبد الحليم : انتشار الاسلام بين المغول، ص 15 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 78.

(1) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 78، 79.
وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 665; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 604.

(2) ابن كثير، الحافظ : المصدر السابق، ج 18، ص154 وما بعده ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 79.

(3) برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 79.

**أ- موقع أبي سعيد من علاقة المماليك بالخان القفجاقي أوزبك :**

توافق حكم أبي سعيد في خانيّة فارس بتملّك أوزبك خان Uzbeck Khan (1313-1340م) على القبيلة الذهبيّة في القفجاق، وكان هذا الأخير قد اشتهر بميله للاسلام، ولمّا تولى هذا العرش سنة 1313م عرض نائبه قطلتمر على رسل سلطان المماليك المصريّة، الناصر، مشروع زواج هذا الأخير من إحدى الأميرات المغوليات في القفجاق، وذلك لا شكّ كان للاستقواء بمصر ضدّ خانية مغول فارس، فظلّت الرسل والهدايا تتبادل من الجانبين ستة أعوام، حتّى حضرت أخيرا مخطوبته طلبناش القفجاقيّة في ربيع الأوّل 720هـ/أبريل 1320م، وهي بنت طغاي أخ الخان أوزبك من نسل بركة خان، مع وفد من كبار رجال تلك الدولة ومرّت في طريقها إلى مصر على القسطنطينيّة، فبالغ إمبراطورها في إكرامها هي ومن معها، ولمّا وصلت العروس إلى الاسكندريّة حملت إلى القاهرة على عجلة موشاة بالذهب ومزيّنة بالطنافس الثمينة، ووصل معها كتاب أزبك جاء فيه "أخوك أزبك، أنت سيّرت طلبت من عظم القان ابنتا، فلمّا لم يسيّرها لم يطب خاطرك، وقد سيّرنا لك من بيت كبير، فإن أعجبتك خذها بحيث لا تخلى عندك أكبر منها، وإن لم تعجبك فاعمل بقوله تعالى : "إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانة إلى أهلها"، فقال السلطان : "نحن ما نريد الحسن وإنّما نريد كبر البيت والقرب من أخي، ونكون نحن وإياه شيئا واحدا"، فتلقاها الناصر بالبشر والترحيب وأكرم الوفد الذي صحبها، وفي اليوم الثالث من وصولها عقد زواجها(1)، وبذلك توثّقت عرا الصداقة بين الدولتين، فانتهز أوزبك تلك الفرصة وطلب من الناصر العون على عدوّه أبي سعيد خان مغول فارس، فاستحسن ذلك الناصر محمد بن قلاوون إذ كان مماليك مصر في ذلك الحين على عداء مع مغول فارس، إلاّ أنّ أبا سعيد انتهج سياسة حكيمة بتودّده للناصر وتفضيله المهادنة، فنتج إبرام الصلح في عام (723هـ/1323م) وزوال ما كان بين مصر وفارس من عداء، وعلى أثرها رفض الناصر طلب أوزبك متذرعا بإسلام أبي سعيد وزوال أسباب العداء، تمخض من ذلك المسلك الجديد نشوء

(1) المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج3، أحداث سنة 720هـ، ص 26 ؛ النويري : المصدر السابق، ج 32، أحداث سنة 720هـ، ص 250 – 252 ؛ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد: العبر، ج5، ص 606 ؛
علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مطبعة النهضة المصرية، ط 1، القاهرة، 1947م، ص 168.

مفاوضات بين أوزبك وأبي سعيد أثمرت بعقد الصلح، وأرجع كل منهما ما كان قد أخذه من الآخر(1).

**ب- عقد اتفاقية الصلح بين المغول الإيلخانيين والمماليك سنة 723هـ/1323م وتبعاته على الصليبيين :**

بدأت مساعي الصلح بين الدولتين المغولية في إيران والمملوكية في مصر في عهد السلطان الإيلخاني أبي سعيد الذي تولّى الحكم سنة 716هـ/1316م، والذي لم يكن قد جاوز سن البلوغ عند توليه العرش، فناب عنه في الحكم وصيه جوبان متعاونا مع الوزير عليشاه، وبما أنّ أبو سعيد نشأ منذ ولادته في بيئة اسلامية فإنّه لم يتلوّث تكوينه العقلي باخلاق المغول المطبوعة بعقدة السيطرة العالمية والتي كانت قويّة عند عمّه غازان، وأجداده عامّة، والتي كانت سببا في إشعال الحرب والاستهانة بأرواح الخلق سبيلا للتعبير عن سلطانها، وأهم من هذا كلّه أنّ الحكم الإيلخاني الجديد كان في حالة من التفكك والانقسام بين أمرائه بحيث لا يستطيع مواجهة المماليك عسكريا، فضلا عن عودة أطماع مغول ما وراء النهر ومغول القفجاق في أملاك الدولة الايلخانيّة في فارس بسبب صغر الإيلخان(2)، ولذلك أخذت سياسة المغول تتغيّر إيجابيا تجاه المماليك نحو الصلح.

وحقيقة الأمر أنّ الوضع الحانق بين الطرفين وصل إلى حد أنّه لم يكن هناك، بعد، أمل في الصلح والوئام بين الطرفين لأنّ الخصام الذي كان يشتد أكثر فأكثر بين المغول والمماليك أثناء حكم أولجايتو محمد خدابندا لا يزال قائما حتّى بعد فترة من تولي الخان أبو سعيد مقاليد السلطة، ففي سنته الأولى، سنة 716هـ، أغار ألف فارس مغولي على أطراف حلب ونهبوا الأهالي، فخرج لهم التركان وقتلوا الكثير منهم وأسروا ستة وخمسين من أعيانهم وغنموا ما كان معهم وأرسلوا الأسرى إلى القاهرة في صفر سنة 717هـ(3).

وفي أواخر شعبان من العام نفسه، 716هـ، فرّ جماعة من المغول المنشقين على إبي سعيد وعبروا نهر الفرات إلى جهة الشام، فوصلوا دمشق في السادس عشر من رمضان، طالبين

---

(1) النويري : المصدر السابق، ج 33، أحداث سنة 720هـ، ص 47- 49 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج3، أحداث سنة 723هـ، ص 60، 61 ؛ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد: العبر، ج5، ص 606- 602 ؛ علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص 169.

(2) علي إبراهيم حسن : المرجع نفسه، ص 324 ؛ القزاز محمد صالح داود : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء، النجف، 1970م، ص 414، 415.

(3) النويري : نهاية الأرب، ج 32، ص 186 ؛ المقريزي (تقي الدين أحمد) : المصدر السابق، ج2، أحداث سنة 716هـ، ص 516.

اللجوء إلى السلطان المملوكي، وقد صارت مصر مأمنا لكل من خرج عن سلطة المغول في بلاد فارس، وكان على رأس هؤلاء الفارين مقدم ألف اسمه طاطى، ووصل صحبته نحو مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ثمّ تجهزوا من دمشق في الشهر المذكور فوصلوا إلى القاهرة في شوال من سنة 716هـ/1316م، فأحسن الملك استقبالهم(1)، وفي العام التالي، 717هـ، أغار الجيش الملوكي بقوّة عسكرية خرجت من حلب واتجهت إلى ولاية ديار بكر، فأغارت على مدينة آمد وغنمت وسبت ثمّ عادت سالمة(2).

وإزاء هذا الوضع الحرج أراد أبو سعيد أن يضع حدا لهذا الصراع وأن ينهج سياسة مخالفة لما كان عليه أباه في تعامله مع مصر وغيرها، حتى يضمن الاستقرار والأمن لدولته، ويوطد أقدامه في حكمها، خاصة وأنّ الأخطار التي ما فتأت تزداد وتحيط به قد بلغت ذروتها حينما انبعث الأمير يساور من بلاد جغتاي، وكان موضع إنعام أولجايتو في السابق، فأعلن التمرد والعصيان سنة 716هـ/1316م الذي أحكم سيطرته على خرسان وشرع يزحف نحو إقليم مازندران(3).

رأى الإيلخان أبو سعيد وأعوانه أنّهم عاجزون على الاستمرار في سياسة أسلافهم التقليديّة المعادية للمماليك في بلاد الشام ومصر، الذين صمدوا في وجههم وتغلّبوا عليهم في عدّة معارك حاسمة، فمال أبو سعيد إلى مُهادنة دولة المماليك المصريّة، وسعى فور اعتلاء العرش إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان الناصر محمّد بهدف عقد الصلح، عن طريق التاجر المسلم المصري مجد الدين السلامي، لأنّه لم يكن على استعداد للدخول في صراع مسلّح معه، وذلك فيما نرى أنّه بفعل ثلاثة دوافع على الأقل، منها ما هو داخلي، ويتمثّل باضطراب الأوضاع الداخليّة للإيلخانيّة نتيجة الصراع الدامي بين الأمراء، من أجل تحقيق مصالح شخصيّة، ومنها ما هو خارجي، ويتمثّل في التهديد المستمر لإيلخانيّة إيران من قبل أبناء أعمامه في بلاد ما وراء النهر والقبجاق، الذين يطمعون في الاستيلاء على مناطق نفوذه، وأخيرا وليس آخرا نذكر توالي الخسائر الماديّة نتيجة الاصطدامات المتكررة بالمماليك، لكنّ الناصر محمّد كان لا يزال يكنّ العداوة للمغول على الرغم من المفاوضات السلميّة التي ابتدأت بين الطرفين منذ عام

---

(1) النويري : نهاية الأرب، ج 32، ص 195.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية، ج 18، ص 165.
(3) إقبال عباس : تاريخ إيران، ص 490.

717هـ/1317م، حتّى أنّه أرسل في عام 720هـ/1320م ثلاثين رجلاً من الفداويّة، وهم طائفة الحشّاشين المعروفة، من أهل قلعة مصياب (أو مصياف) الواقعة بالساحل الشامي قرب طرابلس، إلى إيران لاغتيال قراسنقر، حاكم مراغة، الذي كان متّهما بالاشتراك في قتل أخيه الملك الأشرف، ولا شكّ أنّ هذا النوع من العمليات قد أرعب المغول إلى حد كبير، خاصة وأن الإشاعات التي سربت في تبريز مفادها وجود فرقة من الفدائيين قدمت خصيصا لاغتيال الخان أبي سعيد وجوبان والوزير علي شاه وقرا سنقر وأمراء مغول آخرين، أي قمّة هرم السلطة في بلاد فارس المغولية، فاحتجب الإيلخان مدّة أحد عشر يومًا في خيمته لشدّة ذعره(1).

ولا شكّ أنّ مثل هذا الوضع كان سيؤدي إلى أزمة سياسية وحرب بين المماليك ومغول فارس، غير أنّ العكس كان هو السائد، إذ أنّ الخوف الشديد الذي اعترى أبا سعيد ورجال دولته، كان دافعًا للتعجيل بطلب عقد الصلح، أما السياسة المملوكية فقد كان الصلح مفيدا لها أيضا، فضلا عن تأمين الاستقرار للبلاد الذي بدوره يوفر الرخاء الاقتصادي ويؤدي إلى إعمار البلاد، فإنّ شعار تحرير العراق وإعادة الخلافة إلى دار السلام قد ضعف تأثيره على الناس بعد اعتناق معظم المغول في إيلخانيّة إيران للاسلام وتلفظهم للشهادتين، فلم يعد ممكنا تحريض الناس باسمه ودفعهم إلى بذل الأموال أو التطوع لتحقيقه(2).

ومهما يكن من أمر فإنّ أولى مساعي الصلح بين الطرفين كانت فاتحتها في سنة (717هـ/ 1317م)، أي بعد جلوس أبي سعيد مباشرة، إذ أرسل مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي(*)، رسالة يخبر فيها السلطان برغبة أبي سعيد وجوبان والوزيرين رشيد الدين وعليشاه بعقد الصلح، وأرسل كذلك هديّة من جهة خواجا رشيد الدين، فجُهّزت إلى أبي سعيد هديّة جليلة من جملتها فرس وسيف وقرقل(3).

وبعد ثلاثة أعوام من المفاوضات المستمرّة، جنح الناصر محمّد إلى الصلح، بعد أن أشعره

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج3، ص27- 28، 27 حاشية 6.

(2) القزاز محمد صالح داود : المرجع السابق، ص 417.

(*) إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي مجد الدين بن الخواجا تاجر الخاص في الرقيق ولد سنة 671هـ وهو الذي سعى مع النوين جوبان في الصلح بين الملك الناصر وأبي سعيد ملك التتار وازدادت وجاهته بين الملكين وكان يصل إلى الأردو (أي المعسكر) مملكة التتار فيقيم به السنتين والثلاث والبريد لا ينقطع عنه وكان ذا عقل وخبرة بأخلاق الملوك ودرية ولم يزل في وجاهته إلى أن مات الناصر ثمّ مات بعده في جمادى الآخر سنة 743هـ.
أنظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 1، رقم 964، ص 381.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج2، سنة 717هـ، ص 525- 526.

أبو سعيد بطيب نواياه، ورغبته في قيام علاقات بينهما على أساس الاحترام المتبادل، وأوفد الإيلخان مبعوثه، مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، إلى القاهرة لمفاوضت الصلح بشروط محدّدة، ثُمّ قدمت الرسل بصحبة نصير الدين، قاضي القضاة، ومعهم كتاب الصلح الذي تضمّن شروطًا منها :

- الامتناع عن إرسال الفداوية الإسماعيليّين الحشاشين إلى البلاد التي يحكمها المغول.
- عدم المطالبة بتسليم أي شخص قدم إلى بلاد المغول من مصر.
- من يفد على مصر من المغول، لا يُعاد إلى بلاده إلاّ برضاه.
- لا يسمح سلطان مصر للأعراب من البدو، ولا للتركمان، بالإغارة على بلاد الإيلخان.
- أن مكون الطرق بين البلدين مفتوحة، وتسهيل التبادل التجاري بينهما، وتأمين انتقال التجار مع توفير الحريّة التامّة لهم.
- تسيير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعًا علمين : أحدهما باسم سلطان مصر، والآخر باسم إيلخان إيران.
- وقف مساعي السلطان الناصر محمّد في القبض على الأمير المملوكي الفار قراسنقر أو محاولة التخلّص منه.

فجمع السلطان الأمراء، واستشارهم في ذلك، بعد ما قرء عليهم الكتاب، فاتفق الرأي على إمضاء الصلح بهذه الشروط، وجُهّزت الهدايا لأبي سعيد بلغت قيمتها أربعين ألف دينار، وأعيد الرسل بالجواب(1).

وتمخّض عن هذا الصلح تحوّلاً في العلاقات بين لدولتين، وتوطّدت العلاقات الطيّبة بين المماليك وإيلخانيّة إيران، إذ هدأت المنطقة، ولم تعد تشهد حروبًا طاحنة من نوع الحروب التي شهدها القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي، وسادها جو من الهدوء والسلام(2).

وإذا كان الغرب الأوروبي قد تجاهل عروض ملوك مغول فارس السابقة بالتعاون المشترك معهم ضد المماليك، إلاّ أنّ بعض قادته قد أحسوا في عام 1320م، وهي السنة التي تنتهي فيها مدّة الهدنة بين المماليك المصريّة ومملكة أرمينيا الصغرى، بالحاجة الماسة لهذا التعاون، إلاّ أنّ

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج3، سنة 720، ص 28، 29- 30، 31.
(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح : العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربيّة، القاهرة، ط1، 1965م، ص 51.

أبا سعيد، وعلى أثر صلحه مع المماليك، صرف نظره عن التحالف مع الغرب الأوروبي رغم إلحاح البابا يوحنّا الثاني والعشرين Jean XXII (716-735ه/1316-1334م) للتعاون ضدّ المماليك المصريّة، ولا شكّ أنّ السر في ذلك الإلحاح كان استشراف الغرب الصليبي إلى إعادة الفرقة بين المماليك والإلخانيين، ذلك أنّه من غير المستبعد أنّ البابا كانت تصله التفاصيل السياسيّة في الشرق عبر عدّة قنوات، منها التجار الأوربيين والإرساليات التبشيريّة، وأنّ هذا السلم بين الدولتين الجارتين أزعج الغرب الأوروبي، فلذلك دارت الدائرة وأصبح الغرب الأوربي هو الذي يُلح على التحالف مع المغول بعدما كان يتماطل ويتملّص ويختلق الأعذار أمام بعثات وطلبات الإيلخان للتحاف ضدّ المسلمين، ولكن بعد فوات الأوان، ولعلّ لذلك علاقة، أيضا، بمدى ما كانت تتعرّض له أرمينيا الصغرى من هجمات المماليك(*)، ذلك أنّ ملك أرمينيا الصغرى أرسل ألى البابا، في جوان 1320م، مستغيثا فما كان من هذا الأخير إلاّ أن استغاث بأباطرة أوربا كافّة لنجدة الملك الأرميني ليون الخامس(1320-1341م)، ولكن هيهاة إذ لم يستجب له أحدا، فقد كان هؤلاء في شغل بحروبهم الداخلية عن إغاثة أرمينيا، هذا ولا شكّ أنّ الحميّة والنزعة الدينيّة المسيحيّة هي التي كانت تدفع بالبابويّة لاتخاذ مثل هذه القرارات، ولا عجب، فقد كانت لا تزال تطمع في استرداد ما فقدته من مستعمرات في بلاد الشام، وتخاف من ضياع موطأ أقدامها في أرمينيا على إثر الحملات المتكرّرة للمماليك المصريّة عليها والرامية بلا شك إلى إلحاقها بسالفاتها من الممالك الصليبيّة بإجلائها نهائيًا من بلاد الشرق، فقد أرسل هذا البابا رسالتين في جمادى الآخر 722ه/ 12 و13 جويليا 1322م إلى ابي سعيد يدعوه في الأولى إلى اعتناق النصرانيّة، ويُذكّره بالعلاقات الوديّة بين البابويّة وأسلافة، ويطلب منه إعادة سفرائه إلى روما والاتصال بالملك الفرنسي، ويُركّز في الثانية على القضيّة الأرمينيّة، فيُذكّره بأن الأرمن هم حلفاء سابقون لأسلافه ضدّ عدوّهم المشترك المتمثّل في الإسلام، في لفتة توحي بأنّ البابا لا يعلم بتحوّل ابي سعيد عن دين أجداده أو أنّه أخبر بأنّ ذلك التحوّل كان إلى الدين

---

(*) كانت هدنة العشر سنوات بين المماليك وأرمينيا قد شارفت سنة 1320م على الانتهاء زمن الملك الأرميني ليون، فطلب هذا الأخير من السلطان الناصر محمّد بن قلاوون تمديدها، ولكن هذا الأخير طلب منه إعادت كلّ المناطق التي استولوا عليها زمن حكم السلطان لاجين، وبعد رفض الإذعان هاجم الجيش المملوكي في 24 ماي من السنة نفسها، بقيادة الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، العاصمة قيليقيا فخرّبها وقتل وأسر، ومات على أثرها ملكها أوشين بن ليفون حزنا وكمدا.
أنظر : أبو الفداء(إسماعيل بن محمد)، المصدر السابق، ج4 ، ص103- 104، 105 ؛ النويري : المصدر السابق، ج 32، أحداث سنة 720ه، ص 249.
وانظر أيضا : d'Ohsson(C.), op. cit., T.IV, p. 660; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 602.

الشيعي المعادي والمخالف تماما لدين الإسلام، ويحثّه على تقديم المساعدة العاجلة لهم ضدّ المماليك، وأرسل إلى الملك الأرميني ثلاثين ألف قطعة ذهبية ليستعين بها على أعدائه(1).

غير أنّ أبا سعيد لم يردّ على سفارة البابا لأنّه لم يعد بحاجة له أو لغيره بعد عقد الصلح مع المماليك، ورغم أنّ العلاقات السياسيّة قد توقّفت بين إيلخانية إيران والغرب الأوروبي منذ ذلك الحين إلاّ أنّ البعثات التبشيريّة الكاثوليكيّة استمرّت ناشطة، وازدادت كثافة في عهد أبي سعيد، وقد نتج عنها قيام هيئة للأساقفة في مدينة السلطانيّة تحت زعامة رئيس لهم، كما استمرّت العلاقات التجاريّة قائمة، رغم أنّ فرص التحالف بين الجانبين قد تضاءلت، واستمر التجار الإيطاليون في الإيلخانية فترة من الزمن، حتى بعد وفاة أبو سعيد وانتهاء دولة الإيلخانية بموته دون وريث، وكانت لهم امتيازاتهم ومعاهداتهم المقررة مع مغول فارس(2)، ومن ناحية أخرى اتبع أبو سعيد سياسة مزدوجة مع المماليك، فيما يتعلّق بالقضيّة الأرمينيّة، كادت تعصف بالصلح الذي وقع بين أبي سعيد والمماليك المصرية، فقد استجاب لنداء البابا بحماية الأرمن من اعتداء المماليك، وبخاصّة بعد أن تلقّى طلبًا بالمساعدة من قبَل الملك الارميني ليون الخامس، فأرسل جيشًا تعداده عشرين ألف جندي من أجل هذه الغاية، متبعًا في ذلك سياسة أسلافه على الرغم من وجود معاهدة سلام مع المماليك، كما حثّ سلطان مصر على عقد صلح مع ملك أرمينيا، ولكن قبل أن يصل الجنود المغول إلى أرمينيا كانت العساكر المملوكيّة قد اجتاحتها، واضطرّ الملك الأرميني ليون الخامس إلى إرسال البطريرك الأرميني قسطنطين Constantin إلى مصر سنة 723هـ/1323م فعقد الصلح بين الطرفين مصر وأرمينيا لمدّة خمسة عشر سنة(3)، تعهّد فيها ليون الخامس بدفع جزية سنوية ضخمة قدرها مائة ألف درهم مع أصناف، بالإضافة إلى نصف دخل المكوس التي تُجمع من ميناء إياس من التجارة البحرية، ونصف ما يُجبى من ثمن الملح(4)، وتعهّد السلطان الناصر محمّد بإعادة بناء مدينة إياس وغيرها من

---

(1) أنظر : Henry de Sponde, Continuations des Annales Ecclesiastiques du Cardinal Baronius, mises en Français par Pierre Coppin, Paris, 1654, T. I (commençant depuis l’an 1198 jusqu’ à l’an 1377), pp. 501- 502; d’Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 659-663; Howorth (Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, pp. 602- 603; Denis Sinor, op. cit., p. 543.

وانظر أيضا : النويري : المصدر السابق، ج 33، ص 28، 29.

(2) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص737.

وانظر أيضا : d’Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 663- 664; Howorth(Sir Henry Hayle), op, cit., Part III, p. 603.

(3) أنظر : d’Ohsson(C.), op. cit., T.IV, pp. 664-665; Howorth(Sir Henry Hayle), op.cit., Part III, p. 604.

وانظر أيضا : النويري : المصدر السابق، ج 33، ص 46، 47.

(4) المقريزي : السلوك، ج3، أحداث سنة723هـ، ص 63 ؛ القلقشندي : صبح الأعشى، طبعة 1915م، ج8، ص 30.

الحصون التي هُدّمت، على نفقته الخاصّة، وحرص ليون الخامس بعد عقد الهدنة على تقديم الضريبة السنوية المفروضة على ملوك أرمينيا الصغرى، ومن جهته كان السلطان يُرسل سنويا أحد كبار الأمرء إلى أرمينيا الصغرى لاستلام الضرائب من متملك سيس، بدليل ما ذكره المقريزي في أنّه تمّ القبض على الأمير بكتوت القرماني في عام 726هـ/1326م لامتناعه عن التوجه لإحضار حمل سيس فسُجن بقلعة دمشق(1).

وفي عام 729هـ/1329م قبل ليون الخامس بأن يكون تابعا للسلطان الناصر محمد، وكان حريصا على استرضائه، ومن ذلك أنّه عندما شعر بازدياد نفوذ وصيّه أوشين، لأنّ ليون كان قاصرا فكان أوشين هذا هو الوصي عليه، دبّر مؤامرة لقتله متّهما إياه بإثارة الفتنة بين المماليك والأرمن،فقطع رأسه وأرسله إلى السلطان إظهارا لولائه، فسُرّ السلطان الناصر محمّد بذلك وأرسل إليه خلعة وسيفا وفرسا(2)، وبذلك تخلّص الأرمن من مضايقات المماليك بقبولهم التبعية.

ويبدو أنّ السياسة السلمية مع الأرمن لم تدم طويلا، فقد حاول ليون الخامس التخلص من التبعية المملوكية، وذلك بسبب محاولة البابا يوحنا الثاني والعشرين إحياء الحملات الصليبيّة ضدّ الشرق الاسلامي في عام 736هـ/1335م، بالدعاية لحملة صليبية، بقيادة الملك الفرنسي فيليب الرابع، لمساعدة مملكة أرمينيا الصغرى على أن يكون هدفها مصر أوّلا، فصُرّ العاهل الأرميني للخبر، وامتنع عن دفع الجزية للمماليك وأرسل جيشه لمهاجمة المناطق الحدودية مع بلاد الشام، لكن مشروع الحملة الصليبية لم يتحقق على الميدان عقب موت البابا، بينما هاجمت القوات المملوكية في عام 737هـ/1337م أرمينيا الصغرى انتقاما لتلك الحركة، فدخلت مدينة سيس وهدّمت إياس، فاضطرّ ليون الخامس إلى التسليم لمطالب السلطان، واستولى المماليك على القلاع الواقعة وراء نهر جيهان(3)، ومهما يكن من أمر فقد غدت مملكة أرمينيا الصغرى، منذ ذلك التاريخ، تابعة فعليا للمماليك، بدليل أنّ السلطان أقطع أراضي سيس لنائب حلب ونائب دمشق ولغيرهما من أمراء الشام، فاستعملوا الأرمن في الزراعة، وحطوا عنهم الخراج، فعمّت الضياع، وعُيّن في كل قلعة نائب، ورتّب فيها عسكرا(4).

---

(1) المقريزي : السلوك، ج3، ص 88.

(2) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 117.

وانظر أيضا : Howorth(Sir Henry Hayle), op. cit., Part III, p. 604.

(3) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 139.

(4) المقريزي : السلوك، طبعة 1997م، ج3، ص 218- 219.

وأمّا أبا سعيد فقد ركبه الخوف، من نقض الصلح من جهة مصر، نتيجة لما أحدثه تجاه أرمينيا الصغرى فبعث إلى السلكان ثلاثة رسل، في السنة التالية، علّه ينقذ الصلح مع المماليك، فوصلوا إلى قلعة الجبل في 14 جمادى الثانية 723هـ/ 1 جويليا 1322م فأحسن إليهم السلطان، وكان مضمون الرسالة تأكيد الصلح والحلف على ذلك، فحلف لهم مؤكدا على إتمام الصلح وعدم نقضه، ثمّ رجعوا بالهدايا إلى بلادهم(1)، وبعدها بقليل بعث السلطان المملوكي محمد بن قلاوون سفيرا، هو الأمير سيف الدين أيتمش المحمدي، إلى أبي سعيد لتأكيد الصلح من جهته(2)، وعندما أتمّ مهمّته رجع بالهدايا وبالنسخة التي حلف فيها الإيلخان ونائبه جوبان والوزير(3).

استمرّت المراسلة بين الطرفين المغولي والمملوكي لغرض عقد الصلح مدى عشرة أعوام من 713هـ/1313م إلى 723هـ/1323م والذي أصبح نافذا بعد توقيع من الطرفين(4)، وكذا تحققت أهداف الصلح الرئيسية في تأمين الاستقرار والسلام بين دولة المماليك وأقاليم المشرق الاسلامي الأخرى.

وعلاوة على ذلك فإنّ العلاقات التي قامت بين مصر السلطان الناصر محمد وبين كل من مغول إبي سعيد في فارس، وصاحب اليمن، وملكي أرمينيا والنوبة، جعلت بلاط الناصر يمتلأ برسل هؤلاء وغيرهم، حتّى إنّ هذه الظاهرة استوقفت نظر المؤرخ المقريزي الذي تصدّر لذكرها بعبارة واضحة نقف منها على عظم مركز مصر بين الدول في عصر المماليك عامّة وعصر الناصر خاصّة، فقال : "وفيه، أي 25 محرم سنة 725هـ، اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع مثلهم في الدولة التركيّة وهم رسل صاحب اليمن، ورسل صاحب اسطنبول، ورسل الأشكري، ورسل متملك سيس، ورسل أبي سعيد، ورسل ماردين، ورسل ابن قرمان، ورسل متملك النوبة، وكلهم يبذلون الطاعة"(5)، ويقول أبو المحاسن : "وكان ملوك البلاد الكبار يُهادنونه ويُراسلونه، وكانت ترد إليه رسل صاحب الهند وبلاد أزبك خان وملوك

---

(1) النويري : نهاية الأرب، ج 33، ص 31، أحداث سنة 723هـ، 47، 48؛ المقريزي : السلوك، ج3، أحداث سنة 723هـ، ص 63.
(2) النويري : نهاية الأرب، ج 33، أحداث سنة 723هـ، ص 48.
(3) المقريزي : السلوك، ج3، أحداث سنة 723هـ، ص 61.
(4) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر، ج9، ص 312- 313 ؛ النويري : المصدر السابق، ج 33، ص 47، 48.
(5) المقريزي: المصدر السابق، ج3، سنة 725، ص 79.

الحبشة وملوك الغرب والفرنج وبلاد الأشكري وصاحب اليمن، وأمّا بوسعيد (هذا هو أصل تسميته) ملك التتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر أخا وصارت الكلمتان واحدة ومراسيم السلطان منفذ في بلاد إبي سعيد، ورسله يتوجّهون بأطلابهم وطلخاناتهم بأعلامهم المنشورة وكلما بعد الإنسان عن بلاده وجد مهابة أعظم ومكانته في القلوب أعظم"(1).

وقد عدّد أبو المحاسن أسماء ملوك الغرب المعاصرين للسلطان الناصر محمّد وهم حسب الترتيب الذي أورده هذا المؤرّخ : كيخاتو بن هولاكو، المستنصر بالله يحي بن عبد الواحد صاحب إفريقية، الملك المظفر صاحب اليمن، الملك العتيد إيلغاري صاحب ماردين، المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه، المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، أبو عبد الله بن الأحمر، صاحب الأندلس، أبو نمي صاحب مكّة، العادل زين الدين كتبغا المنصوري، غازان بن أرغون ملك التتار، أبو يعقوب المريني صاحب المغرب، المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، أبو عبد الله محمّد بن محمد ابن صاحب الأندلس، أبو عصيدة صاحب تونس، المنصور غازي صاحب ماردين، طقطاي سلطان القبجاق وصاحب جيلان، علاء الدين محمود صاحب الهند، خدبندا بن أرغون ملك التتار، دون بدور الفرنجي، حميضة صاحب مكّة، المؤيّد داود صاحب اليمن، ابن الأحمر أبو الجيوش نصر بن محمّد اللحياني منصور ابن جماز صاحب المدينة، الطالب بالله صاحب الأندلس، أبو سعيد عثمان صاحب فاس وغيرها، المؤيّد إسماعيل صاحب حماه، ابن الأحمر محمّد بن أبي الوليد صاحب الأندلس ترمستين سلطان بلخ وسمرقند وبخارى ومرو، أبو سعيد ملك التتار، صاحب تلمسان أبو تاشفين عبد الرحمن، مهنا بن عيسى أمير العرب(2)، إلاّ أنّ هذه العظمة التي شهدتها مصر في عصر السلطان الناصر محمّد، ما لبثت أن زالت بدخول مصر في عصر حكم أولاده وأحفاده، ذلك أنّ عهد حكم السلاطين من أولاد الناصر محمّد وأحفاده، كان عهد ضعف وانحلال، اشتدّ فيه تنافس أمراء مصر على السيادة والنفوذ، لصغر سن هؤلاء السلاطين وعدم قدرتهم على ردع الأمراء المتنافسين وإيقاف تيار مشاحناتهم، ولذا فإنّ ملوك أوربا لم يعملوا على استئناف علاقاتهم

---

(1) ابن تغري بردي(يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، ت.874هـ) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمّد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (1423هـ/2003م)، ج 10، ص 282.

(2) ابن تغري بردي: المنهل، ص286.

بمصر، على النحو الذي كانت عليه في عهد سلاطين المماليك البحريّة أمثال بيبرس وقلاوون والناصر محمّد، وفي عهد دولة المماليك الثانية، المعروفة بالبحريّة، ظهرت علاقات بين مصر ودولة أخرى، هي دولة العثمانيين، ولكنّها علاقات عدائيّة، أدّت إلى قيام الحرب بين الفريقين، وفي تلك الحرب انتصر العثمانيون في موقعة مرج دابق قرب حلب شمالي الشام، وقتل الغوري سلطان المماليك، وتابع العثمانيون سيرهم إلى مصر والتحموا مع طومان باي ابن أخ الغوري في موقعة الريدانيّة، وحدث قتال عنيف في شوارع القاهرة نفسها، انتهى بهزيمة المماليك وهرب طومان باي عند أحد زعماء العرب في مديريّة البحريّة، وهذا سلّمه للعثمانيين الذين قتلوه شنقا على باب زويلة في أبريل سنة 1517م، وبقتله تنتهي سيادة المماليك على مصر، وتُصبح ولاية عثمانيّة(1).

ومهما يكن من أمر فإنّ الرسائل والهدايا قد تعددت بين أبي سعيد والسلطان الناصر محمد بن قلاوون بين سنتي 724هـ/1324م و736هـ/1336م، وقد ظلّ الصفاء قائما وسائدا بين دولتي المغول والمماليك حتّى توفي أبو سعيد سنة 736هـ/1336م، وكان هو آخر سلاطين الإيلخانيين الأقوياء، وتولّى بعده على التوالي ثمانية من الأمراء الضعفاء، ذلك أنّ أبا سعيد لم ينجب أولادا ذكورا، وكان غازان خان أثناء توليه العرش قد تخلص من أمراء أسرة هولاكو إمّا بقتلهم وإمّا بتجريدهم من امتيازاتهم(2).

ومن جهة أخرى فإنّه بعد هزيمة أولجايتو خدابنده ساد المنطقة استقرار أمني وسياسي، وكان ذلك حافزًا للأمراء والنواب في دولة المماليك بإعادة إعمار ما تهدّم، والنهوض الاقتصادي بالبلاد، وتتالى على حكم تلك البلاد أمراء أقوياء أحبوا الإصلاح فشرعوا في إعادة بناء الهيكل الاجتماعي والاقتصادي، وربما تكون الحروب الطاحنة التي قامت بين المغول أنفسهم قد ساعدتهم على إكمال الإعمار باعتبارها كفّت أنظارهم عن المنطقة، وباعتبارها خففت عنها العبأ العسكري الذي كانت تتحمّله الرعيّة نتيجة للغزوات المستمرّة، وممّا يُؤكد استقرار منطقة النفوذ المماليكي تفكير الناصر محمّد بضم ممتلكات الدولة الإيلخانيّة إلى مملكته وذلك بعد أنباء الاضطرابات التي وصلت مسامعه عقب موت السلطان المغولي أبي سعيد، فقد قدمت إليه بعثات من بلاد فارس من طرف بعض وجهائهم مثل شيخ حسن بزرك ومحمّد خان، سنة

(1) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحريّة، ص 193.
(2) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج9، أحداث سنة 736هـ، ص 226 هامش 2.

738هـ/1337م، تطلّب مساعدته فأرسل الناصر بعض قوّاته إلى حدود بلاد المغول، ومكثت هذه القوّات تنتظر ما تتمخض عنه المعارك بين الأطراف المتنازعة، لكنها لم تتدخّل نتيجة للمشاكل الكثيرة(1).

وخلاصة القول أنّ العلاقات بين الإيلخانيين والمماليك قد شهدت في تلك الفترة ازدهارا لم تحدث من قبل، وبدت فيها مظاهر الود والوئام واضحة للعيان نتيجة الوفاق السياسي والديني بينهما.

وممّا لا شك فيه أنّ ذلك الوفاق يعود إلى الظروف السياسية التي نشأت آنذاك والتي جعلت كلا منهما بحاجة إلى الإرتباط بالآخر، وقوّى هذا الارتباط العقيدة الإسلامية الصحيحة التي وجدت طريقا ميسورا بين الإيلخانيين بصورة جعلتها عقيدة ثابتة ومتينة يزداد أفرادها كل يوم، وقد أشاد المؤرخون المصريون بهذه العلاقات، فأمّا ابن تغري بردي فيذكر أنّ الرسل لم تكن تنقطع بينهما ويسمي كل منهما الآخر أخاه، وكانت الكلمتان ومراسيم الملك الناصر تنفذ في بلاد أبي سعيد ورسله يتوجهون إليه بأطلابهم وأعلامهم المنشورة(2).

وأمّا ابن أيبك فيشير إلى توارد الرسل بينهما طوال هذه الفترة بالهدايا والتحف لتوطيد أواصل الصداقة، وكانت الرسل تترى بينهما طوال عهديهما محملين بالهدايا الفخمة والتحف المتنوعة لتزيد من أواصل المودة والصداقة والأخوة الإسلامية التي جمعت بين هذين البيتين وذلك المصريين الإسلاميين (3).

ولعل ما أورده هذان المؤرخان يعد أبرز ليل على مدى الصفاء الذي كان سائدا بين الإيلخانيين والمماليك طوال فترة حكم أبي سعيد.

وهكذا وبكل بساطة، تذهبت كل جهود البابوية الصليبية ومن دار والتف بلحافها من أجل تنصير المغول وقهر الإسلام، أدراج الرياح.

ج- **علاقات مصر بأوربا زمن الإيخان أبى سعيد :**

يبدو أنّ بلاط الناصر محمد لم يكد يخلو من السفراء الأوربيين إليه، فقد كانت الحركة السياسية بين الطرفين جد نشيطة لأهمية مصر الاستراتيجة لملوك وأمراء وباباوات أوربا في

---

(1) فهمي (عبد السلام) : المرجع السابق، ص 240- 241.
(2) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج9، ص 211.
(3) ابن أيبك الدوداري : كنز الدرر وجامع الغرر (المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1379هـ/1960م، ج9، ص 381

المنطقة المشرقية، وقد كانت رسائلهم تلح على ظرورة إتمام عرى الصداقة بينهم وبين الناصر، في حين كان الغرض الأساسي من وراء إرسالها هو للاستنجاد بالسلطان الناصر أو رجاء عطفه على المسيحيين المقيمين في بلاده وحسن معاملته لهم، وفي هذا المنوال أرسل البابا يوحي الثاني والعشرين John XXII في سنة 727هـ/1326م إلى الناصر كتابا يطلب فيه معاملة مسيحي الشرق معاملة تنطوي على العدل والرعاية، في مقابل معاملة البابا للمسلمين بالمثل، فأجابه الناصر بالقبول، أمّا شارل الرابع Charles IV (1322- 1328م) ملك فرنسا فقد أرسل إلى الناصر في سنة (727هـ/ 1327م) رسالة يترجّاه فيها مراعات مصالح المسيحيين المقيمين في دولته وحمايتهم، فردّ عليه الناصر ردا جميلا ووعده بإجابة مطالبه، ومما يجب الاشارة إليه أنّه لم تصل إلى مصر من ملك فرنسا رسالة بهذا المعنى منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب (637- 647هـ/1240- 1249م) (1).

ومن ناحية أخرى سعى، في تلك الفترة أيضا، العاهل البيزنطي أندرونيق باليولوج Andronicus II Palaeologus إلى توطيد علاقته بالمماليك المصرية، فبعث إلى الناصر سفراء يحملون إليه الهدايا، ويطلبون معاملة المسيحيين المقيمين في مملكته، ولا سيما الملكانيين من بني نحلته، بالعطف والرعاية، وهؤلاء هم الذين يتبعون مذهب الدولة الرومانيّة الأرثوذكسيّة الشرقيّة ويعتقدون بازدواجيّة طبيعة المسيح(2)، فأجابه الناصر إلى طلبه وأعاد فتح بعض الكنائس المسيحيّة وسمح بإعادة فتح كنيسة بيت المقدس، وأبرمت بين إمبراطور القسطنطينية وبين السلطان الناصر وثيقة تحالف لصدّ الأتراك العثمانيين عن بلاده(3).

**د- <u>علاقات مصر بملك أرجون جيمس الثاني زمن الخان أبي سعيد</u> :**

لم يتأخر الملك الأرجوني يعقوب(جيمس الثاني)، هو الآخر، عن الاتصال بالمماليك من أجل حماية المسيحيين في بلادهم، إذ لم تمضي أربعة سنوات عن السفارة الأخيرة حتّى أرسل مرّة أخرى في يوم 27 أوت 1318م/718هـ بعثة برسالة خامسة إلى السلطان الناصر محمد،

---

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 54- 55; Muir(W.E.), The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1896, p. 73.

(2) أنظر : Atiya (Aziz S.), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, pp. 275- 276.

(3) أنظر : Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, J.M. Deut, London, 1925, p. 801; Wiet(Gaston M.), L'Egypte Arabe , de la conquête arabe á la conquête ottomane(642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937, T. IV, p. 473. Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 735- 743.

يحملها المبعوثان ف. دي فيلافرانكا F. de Villafranca وأرنالدو دي باستيدا Arnaldo de Bastida، يشكر فيها السلطان الناصر محمد على ما قدّمه من خدمات جليلة، خاصّة لإطلاقه ستة من رعاياه المسيحيين الأسرى، ويطلب منه تسريح ما تبقّى عنده من المسيحيين، وأشار يعقوب على رسله بأن يحاولوا استعطاف الناصر بإطلاق سراح المسيحيين من أهل أرجونة إذا حدث أنّه تردد في إطلاق سراح الأسرى المسيحيين كلهم، وليس لدينا الوثائق التاريخيّة التي نستطيع من خلالها أن نعرف نتيجة هذه السفارة معرفة دقيقة، ولكن الراجح أنّ الناصر لم يرد على تلك الرسالة كما كان يفعل قبل ذلك(1).

على أنّ هذه المفاوضات التي دارت بين يعقوب ملك أرجون وبين الناصر والاتفاقية المبرمة سنة 718هـ/1318م والتي كانت في صالح المسيحيين، شجّعت يعقوب بالإسراع في رمضان سنة 723هـ/سبتمبر 1322م إلى تجديدها، ذلك أنّ تطوّرت الحوادث في مصر ضدّ المسيحيين جعلت الناصر يجدد مرسوم سنة 700هـ/1300م بأن أصدر فرمانا سنة 721هـ/1321م ضدّ النصارى حين عمدوا إلى إشعال النيران في القاهرة ومصر انتقاما من المسلمين الذين هدموا بعض الكنائس، وقد نقل الدكتور علي إبراهيم حسن ذلك المرسوم عن بدر الدين محمود العيني، وفيه جاء بعد البسملة : " وبعد فإنّنا لمّا أقدمنا الله لنصرة الاسلام وأهله وصرفنا في كلّ عقد وحله، وأيدنا بنصره، وعصمنا بحبله لم يزل يعلى كلمة الإيمان، ويظهر شرائع الإسلام في كلّ مكان ونقف عند الأوامر الشرعيّة، لتكون كلمة الكفر هي السفلى، وكلمة الله هي العليا، وكانت جماعة من مفسدي النصارى قد تعدوا وطعنوا، وتمادوا في المخالفة إلى ما يقتضي نقض العهود، وبغوا ومكروا مكرا كبارا، فأدخلوا نارا ولم يجدوا لهم من دون الله أنصارا، اقتضى رأينا الشريف أن تأخذهم بالشرع الشريف، ونجدد عليهم عهود النبوّة، وأن نقرر على من شمله عفونا منهم أن يكونوا تحت سيوفنا مرتهنة، وأن يلبسوا العمائم الزرق والجباب الزرق، وأن يشدوا الزنانير، وأن يستخدم أحد منهم إلاّ بعد أن يثبت إسلامه ويصحّ إيمانه "(2).

جدد يعقوب (ملك أراجون جيمس الثاني) مساعيه لمصلحة المسيحيين كي يقلل من

---

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., p. 43; Ibid, The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, pp. 511- 512.

(2) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحريّة، مكتبة النهضة المصريّة، ط 2، القاهرة، 1967م، ص 457.

الشروط التي تحد من حريّة الأقباط، ووجد من السلطان الناصر قبولا لمطالبه، مما عدّه الناس فألا حسنا وبداية طيّبة لعهد وئام وسلام بين المسلمين والأقباط، ففي بعثته لسنة 723هـ/سبتمبر 1322م، طلب من الناصر جعل أمر حماية مقبرة المسيح عليه السلام (المزعومة كذبا) وإدارتها من اختصاص الإخوان الدومنيكان التابعين لمملكة أرجونة، وأن يكون مسكن البطريرك تابعا لتلك الإدارة لقربه من القبر المقدس (المزعوم)، كما رجا يعقوب السلطان الناصر أن يسلم رسله بعض البقايا والآثار المقدّسة في معتقد المسيحيين التي قيل أنّها في حوزة الناصر وتشمل بعض أجزاء من الصليب الأصلي (المزعوم)، وجسم القديسة (المزعومة) بربارة Barbara عربونا لهذه الصداقة المتبادلة بينهما، وتلك المطالب تبيّن لنا أنّ الملك يعقوب اعتبر نفسه حامي المسيحيّة في دولة المماليك، إلاّ أنّ الناصر ردّ عليه في 15 صفر سنة 723هـ/23 فبراير 1323م ردا غامضا غير صريح فيما يتعلق بهذين الطلبين، على الرغم من أنه أدخل في قلبه الطمأنينة من ناحية النصارى ووعد بحسن معاملتهم، وأهم ما ورد في ذلك الرد هو : " وأمّا النصارى فهم عندنا موقرو الجانب على ما يسره لأنّهم رعايانا ... وبحمد الله ما يكون أحد من رعايانا إلاّ موقر من جميع المكاره آمنا من كلّ ما يسوؤه أو يشوس عليه، فيكون مستقر الخاطر بهذا السبب ... ونحن نعرف أنّه بلغنا أنّ جماعة من المسلمين الذين في بلاده الذين استقروا بعد ما استقرّت عليه أحوالهم، لهم عوايد متقدّمة بالكرامة والرعاية وعدم المقارضة في المساجد المستقرين بها، وأنّهم الآن ربما تغيّرت عوايدهم في ذلك وصاروا لا يتمكنون من التأذين في مساجدهم وإقامة الصلاة بها، والمراد من محبته الصادقة أن يتقدّم بالوصية التامّة بجميع من في بلاده وإجرائهم على أكمل عوائدهم وأكمل فوائدهم، ولا يغير عليهم نغير في مساجدهم، والإعلان بصلاتهم، وكفّ الضر عنهم ورعاية جانبهم، فهو يعلم أنّنا قد ألقى الله علينا مقاليد سائر أهل الاسلام حيث كانوا وأين كانوا، فأي مكان وجد به أحد المسلمين كانوا متعلقين بنا ويتعيّن علينا رعايتهم، فيفعل في أمرهم واتخذ له به أكمل المودّة وأجمل الصحبة"(1).

وفي هذا الخطاب، اتضحت نيات الناصر إزاء النصارى، وكأنّه أراد أن يكون إكرام الأقالية من الجانبين، وألاّ تكون المعاملة الطيّبة لرعاياه من النصارى فحسب، بل أن تقابل

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., p. 44; Ibid, The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 512, 513.

بمثلها للرعايا المسلمين في أرجونة، وأن يبيّن أنّ مصر قد أصبحت في عهده مركز الجامعة الاسلاميّة وأنّ المسلمين سواء منهم المقيمون في مصر أو أرجونة أو في سائر أقاليم العالم يجب أن يعيشوا في أمن وطمأنينة ورضاء في كنف الناصر باعتباره حامي الاسلام في الشرق والغرب، وتثبيتا لهذه الفكرة حجّ الناصر في أثناء سلطنته ثلاث حجات أولها سنة 712هـ وثانيها سنة 719هـ وفيها كسا الكعبة كسوة حريريّة صنعت في الاسكندريّة ونظف مكان الطواف بيده وأنعم على فقراء مكة وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم ووزّع على فقراء المدينة المنوّرة خمسين ألف دينار(1)، والحجة الثالثة كانت سنة 732هـ وفيها صنع للكعبة بابا مصفّحا بالفضّة، أنفق عليه خمسة وثلاثين ألف درهم وأمر بتعبيد طريق الكعبة(2).

وكانت آخر بعثات ملك أرجون جيمس الثاني إلى الناصر محمد مؤرّخة من برشلونة Barcelona شهر شوال من سنة 727هـ/20 أوت سنة 1327م يحمل رسالته المدعو ميجافيلا( ب.) P. de migavilla ، طالبا فيها من السلطان المملوكي بإطلاق سراح المساجين المسيحيين عنده سيما كل من المدعو بنانات Bananat وهو قتلاني من مدينة برشلونا، وررودريق جوهان Rodrigue Johan من منطقة نافار Navarre ومترجم إنجليزي اسمه جاكيت، وآخرين سيذكرهم حامل الرسالة شفويا، وأن يمنح كنيسة Saint-Sépulcre للإخوان الرماديين frères Mineurs ويوفّر لهم بيت بجوارها(3)، وبإحلال الفرنسيسكان الأراغونيين محل الدومنيكان في القيام بخدمة القبر المقدس (المزعزوم كذبا) الذي حاول سابقا أن يُملّكه لهؤلاء، وقد صحب رسوله إلى القاهرة هذه المرّة، مندوب فرنسي من قبل ملك فرنسا شارل الرابع بعد توسّط البابا يوحنا الثاني والعشرين Jean XXII، للتباحث مع السلطان حول إمكانية منح فرنسا حق رعاية المسيحيين في الشرق، وقد دبّ الخلاف بين السفيرين حين تبيّن لسفير أراجون أنّ السلطان أكرم وفادة السفير الفرنسي، وأشيع أنّه بصدد منح ملك فرنسا حق تسلُّم القبر المقدس (المزعوم كذبا)، مما أثار حقد السفير الأراجوني، فدبّر مؤامرة ضدّ زميله الفرنسي، وأوعز إلى السلطان أنّ فرنسا تخفي نوايا سيّئة تجاه السلطنة المملوكية، وفعلا كانت

(1) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، أحداث سنة 712هـ وسنة 719هـ ، ص 228- 229.
(2) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، أحداث سنة 732هـ ، ص 229.
(3) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), The crusade in the later middle ages, second edition, New York, 1970, p. 512.

فرنسا بصدد تجهيز حملة بحريّة صليبيّة لمهاجمة السواحل المصرية(1)، وبطبيعة الحال غضب الناصر محمد من ما أخبر به فمنع كل مطالب فرنسا ووبّخ سفيرها بشدّة(2).

وردّ السلطان على هذه البعثة الأرجونيّة في 15 جمادي الأوّل من سنة 728هـ/مارس 1328م، ولم يعقّب فيها من بعيد أو قريب إلى مطالب جيمس الثاني، لكنه حاول أن يستغل تعصبه للمسيحيّة للحصول على صفقة رابحة سياسيا وتجاريا، وذلك باقتراح السماح له بنقل جثمان إحدى ما يعتبرونها قديسة عندهم واسمها بربارة إلى الكنيسة التي بنيت لها في أراجونة، لكن مبعوث السلطان حين وصل وجد جيمس الثاني قد مات(3).

### هـ- **سفارة أودريك دي بوردينون Odoric de Pordénone :**

ويبدو أنّ نجاحات الإرساليّت التبشيريّة على يد مونت كورفينو في أسيا قد حمّست البابويّة أكثر لاحتواء المغول فأرسلت أحد الرهبان الفرانسيسكان الراغبين في المشاركة في نجاحات مونت كورفينو وأعوانه، وهو أودريك دي بوردينون Odoric de Pordénone، فتوجّه هو الآخر إلى آسيا هو الآخر كأحد معاونيه في أعمال التبشير بالمسيحية(4).

كان يصحب أودريك دي بوردينون في أسفاره راهبا إرلنديا اسمه جاك Jacques، وكان هناك طريقان للوصول إلى شرق آسيا، إحداها كانت قصيرة المسافة عبر البر و لكنّها آمنة، والثانية عبر البر والبحر معا من خلال بلاد فارس والمحيط الهندي، ورغم طول هذه الأخيرة إلاّ أنّها كانت آمنة هي الأخرى ومناسبة تماما لنجاح حملات التنصير من خلالها(5).

بدأ أودريك دي بوردينون رحلته في شهر أبريل من سنة 1318م من مدينة بادو Padoue، الإيطالية القريبة من البندقيّة، فأبحر منها إلى القسطنطينيّة، ثمّ اجتاز البحر الأسود ليصل إلى مدينة تريبيزون Trébizonde الساحليّة، في تركيا الحاليّة، فاجتاز أرمينيا عن طريق إرزن الروم Erzeroum ليصل أخيرا إلى بلاد فارس ليجد أبو سعيد هو الخان فيها، ومن المهم الإشارة هنا أنّ طريق فارس كانت هي المفضّلة عند المسيحيين في تلك الآونة، بخلاف طريق مصر، لما وجدوه من تسهيل لهم من طرف المغول بعكس المماليك المسلمين في

---

(1) أنظر : Atiya(Aziz Suryal), Egypt and Aragon., pp. 53, 55- 56.

(2) أنظر : محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.، ص 273.

(3) أنظر : محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.، ص 274.

(4) أنظر : Cordier (Henry), Les Voyages en Asie au XVI[e] siecle du bien heureux frére Odoric de Pordenone religieux de Saint-François, Paris, 1891, p. XXI.

(5) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXII.

مصر الذين كانوا يضايقون الإرساليّات المسيحيّة التبشيريّة، خاصّة، بكلّ حزم، ومن المعروف أنّ المماليك في مصر كانوا هم الوسطاء، في السويس والقاهرة والاسكندريّة، بين التجار المسلمين الذين كانوا يجلبون البضائع من الهند والصين، وبين التجار البنادقة والجنويين والكتلانيين Catalans، الذين كانوا يستلمون تلك البضائع ويحملونها إلى متاجر أوربّا ومدن آسيا الصغرى، إلاّ أنّ هذه الأساطيل التجاريّة المسيحيّة كانت ترى أنّ جانبا كبيرا من هذه التجارة كان يُفلت منها، وفعلا وجد أودريك دي بوردينون مدينة سلطانيّة في إيران، والتي بدأ ببنائها أراغون ثمّ استكملها أولجايتو، مركزا كبيرا للتجارة يعج فيها التجار الأوربيين(1)، ومن ناحية أخرى كانت طريق فارس أسرع وأأمن لبعض التوابل السريعة التلف في عرض البحر، وأخيرا فإنّ اضطهاد الملك الناصر محمّد (1310- 1341م) للمسيحيين جعل الحجّاج والمسافرين والتجار الأوربيين يسلكون طريق توريس Tauris- سلطانية- يزد Yezd- هرمز ثمّ يُبحرون إلى الهند والشرق الأقصى(2)، ويبدو أنّ مهمّة أودريك دي بوردينون لم تقتصر فقط على التبشير بالمسيحيّة في الأوساط الأسياويّة فحسب بل تعدّت إلى ما يُسمّى في عصرنا هذا بالتجسس التجاري والعسكري، ولم يكن ذلك ليحدث في غياب العنصر المغولي على أرض الإسلام، فقد طاف هذا الفرنسيسكاني بسواحل الملبارMalabar، في الجنوب الغربي للهند، ووصفها جغرافيا، ووصف طريقة جني الفلفل الأسود Le Poivre هناك، ووصل إلى جزر سوماترا وجاوا Java و بورنيو Bornéo الأندنيسيّة حيث اطلع على بعض إماراتها، ثمّ إلى منطقة جنوب شرق الهند الصينيّة المعروفة بإمارة شامبا Royaume de Tchampa، ومنها إلى مدينة كانتون Canton الصينيّة فزار الموانئ التجاريّة الهامّة هناك مثل "الزيتون" Zaitoun و"التشي كيونج" Tche-Kiang ثمّ سلك طريق الأنهار ليصل أخيرا إلى العصمة بكين الصينيّة المغوليّة، التي مكث فيها ثلاث سنوات، والتي كان مونت كورفينو لا يزال رئيسا للأساقفة فيها في تلك الآونة(3)، في ظل الحكم المغولي الذي أدّى ظعف أواخر ملوكه إلى سقوط إمبراطوريّة يوهان Youen المغولية سنة 1368م، وطردهم إلى بلادهم الأصليّة، منغوليا، فقام مكانها إمبراطوريّة صينيّة جديدة تحت إسم مينج Ming، ومن هذه النقطة بالذات

---

(1) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXII- XXIII.
(2) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXIV.
(3) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXVII.

بدأ انهيار الإرساليّات المسيحيّة التبشيريّة والتجارة الأوربيّة في الصين والشرق الأقصى(1)، أمّا أودريك دي بوردينون فكان رجوعه إلى أوربا سنة 1330م(2).

**و - <u>وفاة أبي سعيد واضمحلال خانية فارس</u> :**

توفي الإيلخان أبو سعيد في قراباغ، من أعمال أرّان، في 13 ربيع الآخر 736هـ/30 نوفمبر 1335م، وهو في طريقه لمحاربة أوزبك خان القبيلة الذهبيّة الذي تحرّك في آخر عام 735هـ عن طريق الدربند لمهاجمة أران وأذربيجان، وكانت الأمراض والأوبئة قد انتشرت بين أفراد جيشه الزاحف إلى بلاد القبجاق وقضت على معظمه، وأصيب الإيلخان نفسه بمرض شديد توفّي على أثره، ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر دون أن يكون له وارث شرعي(3)، وهناك قرائن قويّة تدلّ على أنّ أبا سعيد توفي مسمومًا من قبَل زوجته بغداد خاتون لأسباب عائليّة، والمعروف أنّه تزوّج في أواخر حياته من ابنة أخيها دمشق خواجة، المسماة دلشاد خاتون، وفضّلها عليها، فحقدت عليه وصمّمت على الانتقام منه ثارًا لمقتل أبيها وإخوتها، ولمّا علم الأمراء بذلك حكموا عليها بالموت، فقتلها الأمير لؤلؤ بدبوسه في الحمّام بأمر من الإيلخان الجديد(4).

وقد أحدث موت الخان بوسعيد المفاجئ فوضى عارمة في خانية فارس إثر الصراع حول السلطة، ولكن الخطر المهدد من الشمال والمتمثل في القبيلة الذهبية اضطر الفرقاء على المهادنة مؤقة، وما أن زال خطر الشمال حتّى عادت النزاعات والحروب الداخلية بين الأمراء في خانية فارس إلى أن قتل أحد خاناتها سنة 745هـ/1344م، فنتج عن ذلك أن قطعت بعض الولايات علاقاتها مع بلاد إيران مثل أرمينيا الصغرى وجورجيا، وبعضها انفصل انفصالا نهائيا مثل سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى منذ عام 1317م، هذا وقد تعرضت بلاد إيران في تلك الآونة، القرن الرابع عشر للميلاد، للطاعون فأنهك قواها أكثر، ثمّ غزاها جاني بيك، خان القفجاق، منذ سنة 1342م فدخل تبريز سنة 1357م واستقبله أهلها كمخلّص لهم من الفتنة الداخلية، فنصّب عليها ابنه بردي بك، لاكن هذا الأخير ما فتئ أن تركها عائدا إلى سراي سنة

---

(1) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXVIII.

(2) أنظر : Cordier (Henry), op. cit., p. XXIX.

(3) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 495 ؛ برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1402هـ/1982م، ص 79.

(4) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي،مطبوعات أكادمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط، 1417هـ/1997م، ج2، ص 72، هامش 233 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 79.

761هـ/1359م ليستلم العرش بعد وفات أبيه، وترك لإيران تتخبط في الصراعات فانهار حكم القبائل الذهبية في أذربيجان، وهكذا تفتت الحكم المغولي تماما في بلاد فارس وانهار، وقد انتهزت بعض الولايات التابعة للحكم المغولي هذه الفرصة فبسطت نفوذها، وظهرت دويلات جديدة في المنطقة مثل الدولة المظفرية في كرمان وفارس التي بدأت سنة 1358م بالهجوم على القبائل الذهبية في تبريز، كما كان لها معارك مع دولة فتية أخرى في بغداد هي الدولة الجلائرية، ثمّ لم يدم حكم الدولة المظفرية طويلا على اثر موت أحد حكامها وهو شاه شجاع سنة 1384م فتسرّب إليها الوهن بسبب الحروب الأهلية، وأخيرا طغى عليه السيل المغولي الجارف تحت قيادة تيمورلنك سنة 1393م(1).

**6- آخر الاتصالات المغولية الأوربية، أوائل القرن الخامس عشر :**

**أ - علاقة تيمورلنك بأباطرة أوربا :**

كانت حياة تيمورلنك سلسلة من الحروب والغارات اللصوصية للسلب والنهب وهي لا تقل في ضراوتها عن حملات جنكيزخان، وكانت عوامل الهلع فيها ناجمة عن خلوها من أي غرض سام لتوحيد الشعوب والنهوض بالاقتصاد ونشر الأمن والأمان، فلم يكن أي عمل من أعماله يسهم في أي تطور أو تحسين أي وجه من وجوه الحضارة في آسيا، وقد أخضع تيمورلنك في الفترة الواقعة بين 1379م و1385م جميع منطقة بلاد إيران الشرقية وكسر شوكة مختلف الأمراء المحليين بما فيهم أمراء منطقة هراة المهيبين، وكان يخمد كل الثورات التي تنشب دوما ضدّه، وابتداء من سنة 1385م عاود تيمورلنك هجومه من أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وشمال ما بين النهرين ولكن هذه المرّة ضدّ أحد أمرائه وكان اسمه "تختمش"، الذي دأب على تنظيم دويلات آسيا الغربية في نظام من الأحلاف ضدّ سيده القديم وغزا تبريز، فأخذت فرق تيمورلنك في ذبح عشرات الآلاف من السكان ونهب أعداد لا تحصى من المدن الصغيرة والكبيرة منها أصفهان وشيراز، وقطع جميع أراضي آسيا الوسطى حتّى نهر الفولجا، وظلت معاركه الطاحنة حتّ هزم "تختمش" في معركة على ضفاف نهر كندورشا عام 1391م، وفي السنة التالية عاود زحفه من خلال بلاد إيران إلى مابين النهرين، وسوريا وقهر الملوك والأمراء المحليين حتّى قضى نهائيا سنة 1395م على قوة "تختمش"، وهكذا أصبح السيد بلا منازع لجميع المنطقة حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط وحدود آسيا الصغرى وبعدها قرر أن يغزو الهند ونهب

---

(1) عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 496- 505 ؛ برتولد شبولر : المرجع السابق، ص 79- 82.
وعن تفكك إلخانية فارس أنظر : عبّاس إقبال إشتياني : المرجع السابق، ص 507 وما بعدها.

مدينة دهلي في سنة 801هـ/1398م فأوقع فيها الخراب والدمار وذبح الكثير من الأسرى، ثمّ بدأ يفكر في حرب السلطان العثماني بايزيد الأول، الذي كانت رسائله تثير غضب تيمورلنك، فأخضع سوريا أوّلا فسقطت قلعة حلب وأصبحت مصر المماليك، المعارضين له، مكشوفة أمامه، لكنه أعرض عنها وأسرع إلى أنقرة لحرب بايزيد الأول الذي كان في تلك الآونة مشغولا بحصار القسطنطينية، والمهم أنّ المعركة انتهت سنة 805هـ/1402م بانتصار تيمورلنك وأسر السلطان العثماني بايزيد الأول وموته فيه بعد عام واحد(1)، وعلى أثر سيطرته على تلك الامبراطورية وصلت أخباره إلى كل أطراف العالم راسله كثير من الحكام من الخارج وطلبوا الدخول في علاقات سياسية معه، ومن أهم الحكام هؤلاء الملك الفرنسي شارل السادس(1368-1422م)، وحاكم قشتالة الإسباني الذي ترك لنا مبعوثه "كلافيجو" سجلا عن بعثته إليه.

والمعلوم أنّ ملوك أوربا عامة وفرنسا خاصة، كانوا جد متفائلين وراضين، عبر حقبات تاريخهم المتعلق بالمغول، باستقبال سفراء أولائك الأمراء الأسيويين، بسبب عدائهم المشترك للقوى الاسلامية شرقا وغربا، وكان من أواخر ما سجّل لنا التاريخ بكل أمانة تلك الحركة الديبلوماسية التي دغدغت الأحلام الصليبية لمعاصري القرن الخامس عشر الميلادي والمتمثلة في رسالة وردت على الملك الفرنسي شارل السادس Charle VI من قبل تيمورلنك، إذ حفظ لنا التاريخ ذلك الخطاب الأصلي المغولي الفارسي المؤرخ في الأول من محرم 805هـ/1 أوت 1402م، فيما لم تقصر الحوليات اللاتينية الأوربية، الخاصة بفترة حكم الملك الفرنسي شارل السادس، هي الأخرى في سرد مجريات تلك الأحداث، إذ ذكرت أنّه وصل باريس الفرنسية، بفترة قبل يوم 15 جوان 1403م(*)، في شهر ماي من السنة المذكورة(**)، أسقفا دومينيكانيا من الشرق، اسمه يوحنا (ت. 1412م) Jean de Nakhidjevan، حاملا رسالة إلى الملك من قبل تيمورلنك، تحمل بين طياتها نبأ انتصاره يوم الجمعة 19 أو 27 ذو الحجة 804هـ/21 أو

(1) برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1402هـ/1982م، ص 122- 124.

(*) كان رد الملك الفرنسي شارل السادس على رسالة تيمورلنك يوم 15 جوان 1403م.

أنظر : Silvestre de sacy(M. Le Baron), Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822, T. VI, p. 495, 498, 522.

(**) تم تحديد هذا الشهر بفضل إحدى الحوليات اللتينية.

أنظر : Chronographia regum Francorum, publiée par Moranville(H.), Paris, 1897, T. III (1380- 1405), ad. annum 1403, p. 205.

28 (جويليا/تموز/يوليو) سنة 1402م(*) في معركة قرب أنقرة Ancyre على بايزيد الأول سلطان العثمانيين الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة نكراء بجيوش الصليبيين في نيقوبوليس Nicopolis سنة 1396م، وتوصي الرسالة الملك الفرنسي بحسن استقبال التجار المغول القادمين إلى فرنسا للتجارة، فيما ذكرت حولية أخرى أنّ تيمورلنك بعث إلى الملك الفرنسي وإلى البندقية وإلى الجنويين، وإلى دوق مدينة ميلان Milan أسقفا شرقيا، لإحياء العلاقات التجارية بين الطرفين(1).

وفيما يبدو أنّ الرسول الأسقف التيموري كان حريصا، في حضرة الملك الفرنسي وبلاطه، على تبيين المنافع الجمة التي ستحصل عليها أوربا إن وافقت على التعامل مع العاهل المغولي، وعلى هذا كان رد الملك الفرنسي برسالة، مؤرخة في يوم 15 جوان 1403م، إلى تيمورلنك عبّر فيها أنّ التباين اللغوي والعقدي لم يعد حاجزا أمام إقامة علاقات تجارية بين الطرفين، إلاّ أنّه بمقابل حماية الملك للتجار المغول في فرنسا فعلى تيمورلنك أيضا ظمان حماية الرعية التجارية المسيحية عامة والفرنسية خاصة في مملكته(2).

وقد ذكر السفير، الذي كان يدّعي أنّه إيطالي الجنسية وأنّه رئيس أساقفة مدينة السلطانية، الذي كان البابا بونيفاس التاسع Boniface IX قد رسّمه فيها منذ سنة 1398م، سببين لبعثته إلى أوربا، كان أولهما تأكيد انتصار تيمورلنك على عدوهم بايزيد الأول العثماني، ووقوع هذا الأخير في الأسر، وأنّ تيمورلنك تفضل بإطلاق سراح جميع السجناء المسيحيين الذين كانوا

---

(*) بينما ذكر ابن عربشاه تارخ معركة أنقرة وانهزام بايزيد الأول في يوم الأربعاء 17 ذو الحجة 804هـ/18 (جويليا/تموز) سنة 1402م. أنظر : ابن عربشاه، أبو العبّاس شهاب الدين أحمد : عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986م، ص 330، 331.

(1) أنظر : Chronique du Religieux de Saint-Denys contenant le régne de Charles VI, de 1380 á 1422, ed. et traduction de Bellaguet(M. L.), Paris, 1861, T. III, p. 134, 135 ; Le Laboureur(Jean), Histoire de charles VI roy de France, Paris, 1663, T. I, Livre 23, chapitre 13, p. 480; Fontana(Vicentio Maria), Monumenta Dominicana, Romae, 1675, p. 271; Moranvillé(H.), Mémoire sur Tamerlan et sa cour par un dominicain, en 1403, dans Bibliothèque de l'École des chartes, 1894, Vol. 55, p. 433, 433 note 2, 434, 437, 438 ; Richard(Jean), La Papauté et les Missions d'Orient au Moyen Age(XIII$^{e}$-XV$^{e}$ siecle), collection de l'école Francaise de Rome, Paris (Palais Farnése), 1977, pp. 181- 182.

(2) أنظر : Chronique du Religieux de Saint-Denys contenant le régne de Charles VI, T. III, p. 136, 137; Silvestre de sacy(M. Le Baron), op. cit., p. 522 ; Moranvillé(H.), op. cit., p. 434 ; Cahun(Léon), Introduction á l'Histoire de l'Asie Turcs et Mongols des origines á 1405, Paris, 1896, p. 499.

لدى بايزيد الأول، وأنّه إن وجد سجناء آخرين فإنّه سيحررهم أيضا، وأمّا السبب الثاني فيذكر أنّه كان راغبا في التعرف على عظمة مملكة فرنسا، بنفسه، ليحمل أخبارها المبهرة إلى سيّده تيمورلنك، ويظيف السفير أيضا أنّ بعثته فرصة طيبة للمسيحية والمسيحيين لتجسيد حرية التجارة بين آسيا وأوربا، ويمكن بعد إذن الملك الفرنسي والدوقات les Ducs تفعيل تلك التعاملات بين الطرفين باتفاقية أو معاهدة(1)، على أنّ السفير الأسقف صبّ جلّ جهده في محاولة إقناع أوربا بضرورة التعامل التجاري مع تيمورلنك لأنّ ذلك كان أهم محور لبعثته، وأنّ فتح ذلك الطريق التجاري كفيل بتسهيل نفوذ ووصول المبشرين المسيحيين إلى تلك المناطق البعيدة والغير معروفة لدى البابوية بعد(2)، ولا شكّ أنّ الترجمة اللاتينية لرسالة تيمورلنك التي قام بها السفير نفسه فأضاف إليها الكثير مما لم يكن موجودا في الأصل الفارسي لدليل على مبادرته الشخصية ونيّته في إعادت بعث عملية التبشير الكاثوليكي في جميع آسيا.

ومهما يكن من أمر فإنّه من المرجّح أن يكون تيمورلنك قد فكّر قبل انتصاره على بايزيد الأول، لأبعاد سياسية، مثل من سبقه من أباطرة المغول في كسب مودّة وصداقة القوى الأوربية، وفي هذا المنوال يقول السفير الإسباني جونزاليس دي كلافيجو Goncales de Clavijo أنّ الامبراطور الإغريقي في القسطنطينية والجنوية بعثوا إلى تيمورانك، يُعلمونه أنّه في حالة عزمه على حرب العثمانيين فإنّهما على استعداد لإمداده بالجند والسفن، بمعنى أنّهما سيستعملان بعض سفنهم الحربية لمنع جنود العثمانيين المتواجدين في اليونان La Gréce من العبور إليه، ومن ثمّ ترجح الكفة إلى جانبه، كما وعدوه بمساعدة مادية تعينه في حملته العسكرية وجهده الحربي(3).

ويتابع السفير الإسباني جونزاليس دي كلافيجو Goncales de Clavijo قائلا أنّه حقيقة لم يفي كل من الامبراطور الإغريقي في القسطنطينية وجنوية بيرا Péra بوعديهما لتيمورلنك، وعلاوة على ذلك في حركة صريحة ومفضوحة لم يتوانوا في ترك الجند العثماني العبور من

---

(1) أنظر : Chronographia regum Francorum, op. cit., pp. 205- 206 ; Silvestre de sacy (M. Le Baron), op. cit., p. 509, 514 ; Moranvillé(H.), op. cit., p. 434 ; Cahun(Léon), op. cit., p. 499.

(2) أنظر : Moranvillé(H.), op. cit., p. 437.

(3) أنظر : Ruy Gonzalez De Clavijo, Vida del Gran Tamorlan, in Argote(de Molina G.), Historia del gran tamorlan, segunda impresion, Madrid, 1782, p. 98 ; Silvestre de sacy (M. Le Baron), op. cit., pp. 500- 501.

اليونان إلى الأناضول، ثمّ حمل الفارين منهم بعد الهزيمة أمام تيمورلنك إلى اليونان على متن سفنهم، ما كان أثره كارثيا على رعايا تيمورلنك المسيحيين بعد معركة أنقرة(1).

هذا وإذا ما دقّقنا النظر في رسالة تيمورلنك الفارسية الأصلية، التي كتبت بعد الانتصار في معركة أنقرة، يظهر لنا أنّها لم تعي أيّ اعتبار للملك الفرنسي وأنّها في الحقيقة ما هي إلاّ ردا على اتصالات ديبلوماسية بين العاهل المغولي والأباطرة الأوربيين قبل معركته الفاصلة مع بايزيد الأول، وذلك أنّ الرسالة بحد ذاتها تحمل إشارات دالّة على أنّها ردا على رسالة وصلته من لدن الملك الفرنسي يحملها أحد الرهبان الدومينيكان اسمه فرانسوا François(*)، ولكن الأمر الذي لم يتضح بعد للباحثين هو من كان السبّاق هذه المرة في تنفيذ البعوث والرسائل إلى الآخر، رغم أنّ القرائن توصلنا إلى الافتراض أنّ مستجدات الأحداث في آسيا التي كان سببها بروز قوّة تيمورلنك وكثرة حروبه واجتياحه لمناطق واسعة، بالاضافة إلى العداء الأوربي والمغولي المشترك للعثمانيين في تلك الآونة، في حين كانت الحرب بين بايزيد الأول، المنتصر في نيقوبوليس، وتيمورلنك مترقّبة ووشيكة، جعلت الملك الفرنسي شارل الثالث يبادر إلى الاتصال به، ويرى المؤرخ دي ساسي De Sacy أنّ تيمورلنك لم يراسل الملك الفرنسي إلاّ بعد إلحاح وطلب "السفير يوحنا" الذي هو أسقف السلطانية لإقامة تلك العلاقة(2).

وبعد انتصار تيمورلنك في معركة انقرة أمر برجوع المبعوثان(**) الإسبان، "بايو دي سوتو مايور" Payo de Sotomayor (Soto-Mayor) و "هيرنان سانشيز دي باراسويلو" Hernan Sanchez de Palazuelos (Paraçuelos) ، إلى مليكهم هنري الثالث Roi de Castille، وأردفهما بمبعوثه الخاص "الأميرا مغولي" محمّد حاجي Mohamed Hadji

---

(1) أنظر : Ruy Gonzalez De Clavijo, op. cit., p. 99 ; Silvestre de sacy(M. Le Baron), op. cit., p. 501.

(*) بقيت المصادر سامطة حول بعثة الراهب الدومينيكاني فرانسوا François من قبل الملك الفرنسي شارل السادس.

(2) أنظر : Silvestre de sacy(M. Le Baron), op. cit., p. 502, 519 ; Moranvillé(H.), op. cit., p. 440 ; Cahun(Léon), op. cit., p. 499.

(**) لا نعرف شيئا عن هذه السفارة التي لقيت تيمورلنك في شهر جوان من سنة 1402م لأنها لم تترك لنا أثرا، ولم يصلنا خبرها الهزيل إلاّ عن طريق ما كتبه السفير الإسباني رُوي جونزاليس دي كلافيجو.

أنظر : Kehren(Lucien), Temoignages d'Européens sur Tamerlan revisités Clavijo et Schiltberger, Dans la Civilta Timuride comefenomeno internazionale, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 15 (76), Nr. 2, 1996, Vol. I, p. 325 ; Sykes (Sir Lieut. Col. Percy M.), A History of Persia, London, 1915,V. II, p. 210.

(Mahomat Alcagi) حاملا رسائل وهدايا(1)، فلما وصل هذا المبعوث المغولي إلى الملك الاسباني وسلمه الرسائل قرر هذا الأخير الردّ بسفارة أخرى تُصاحب محمّد حاجي مكوّنة من الراهب "ألفون بائيز دي سانتا ماريا" Alfon Paëz de Santa-Maria و "رُوي جونزاليس دي كلافيجو" Ruy Goncales de Clavijo و "جوميز دي سالازار" Gomez de Salazar، وكان بداية رحيلهم من منطقة كاديكس الاسبانية في يوم 21 ماي 1403م(2)، وقد ذكر المؤرخ الفارسي شرف الدين يزدي وصول سفارة الملك الاسباني القشتالي هنري الثالث Henri III de Castille سنة 1404م بهدايا كثيرة، دون ذكر، صراحة، اسم الرسول أو المُرسل(3).

والحقيقة أنّ المصادر العربية والأجنبية بقيت سامطة حول فحوى الاتصالات التي دارت بين تيمورلنك والأوربيين، ولم يصلنا منها إلاّ صبابة لا تشفي الغليل، إلاّ انّه من مجريات الأمور في تلك الفترة يمكن القول أنّه يبدو أنّ الأوربيين كانوا يعولون على تحالف عسكري واقتصادي مع تيمورلنك لصد هجوم وتوسع الأتراك العثمانيين أكثر فأكثر باتجاه الغرب الأوربي، وكذلك إن أمكن التحالف فيما بعد للقضاء على ما تبقى من دولة المماليك واسترجاع أرض فلسطين، ولكن آمالهم تلك لم تتحق لأنّه فيما يبدو أنّ العاهل المغولي لم يكن يهتم بمثل تلك التحالفات، ثمّ لم تدم أيّامه طويلا إذ فارق الحياة في سنة 1404م أو 1405م، وعلاوة على ذلك فإنّ أوربا لم تكن قادرة على مثل هذا الجهد الحربي خارج حدودها، وهي المنهكة جراء حرب المائة سنة الداخلية، والأسر الكنسي في آفينيون الذي زاد أوربا أكثر فرقة، بالإضافة إلى نكسة الجيوش الأوربية، من عهد قريب، في نيقوبوليس أمام العثمانيين سنة 1396م، وهكذا لم تكن هذه الاتصالات إلاّ حلقة أخرى، عابثة، دون أي نتيجة ملموسة.

---

(1) أنظر : Ruy Gonzalez De Clavijo, op. cit., p. 3, 26 ; Silvestre de sacy(M. Le Baron), op. cit., pp. 501- 502 ; Moranvillé(H.), op. cit., p. 440.

(2) أنظر : Silvestre de sacy(M. Le Baron), op. cit., p. 502.

(3) أنظر : Ruy Gonzalez De Clavijo, op. cit., p. 7- 8 ; Cherefeddin Ali yazdi, Zafernamah, traduction de Pétis de la Croix(François), Histoire de Timur-Bec connu sous le nom du grand Tamerlan empereur des Mogols et Tartares, Paris, 1722, T. IV, p. 178 ; Moranvillé(H.),op. cit., p. 436.

# الخاتمة

## الخاتمة :

لاحظنا أنّ مفهوم السلام عند الخان الكبير في منغوليا هو تحقيق الشعوب لولاء الطاعة الغير مشروطة للمغول، وهي القاعدة التي نقلتها الأخبار الإسلامية والنصرانية على السواء، فقد ترسّخ في عقول المغول، منذ ظهور جنكيز خان، معتقد تكليف السماء لهم بغزو العالم، ومنه أنّ الخان الأعظم هو في الحقيقة ابن السماء، بمعنا أنّه مقدّس، وكل من يعارض هذه الفكرة فهو معرض للأبادة أو الاستعباد باعتباره عدو لأمر السماء.

ولكن فيما يخص إيلخانية إيران فقد طرء على هذه العقيدة الإستعلائية تغيرا طفيفا كان من أبرز أسبابها الضعف الذي أصابها جراء الهزائم المتكررة في مواجهة المماليك المصرية وإيلخانية القبيلة الذهبية، ما جرّها إلى المبادرة في طلب التحالف مع الصلبيين في الشرق وفي الغرب ضدّ عدوهم المشترك بعد أن كان الصليبيون هم الذين يغازلونهم من أجل ذلك، وإنّ العدد الهائل للسفارات والاتصالات التي قام بها المغول بالبابوية وملوك وأمراء الغرب الأوربي تؤكد ذلك، ولكن لماذا بقي هذا الإصرار وهذه الاتصالات الحثيثة بدون تجسيد ميداني لتحالف عسكري مغولي صليبي ؟.

والجواب على ذلك يكمن في أنّه رغم نزول حدّة الخطاب المغولي الإيلخاني المتكبّر تجاه غيرهم، إلاّ أنّ طلبهم للتحالف العسكري كان لا يزال يحمل في طيّاته أمر التبعية والانقياد، وأنّه حتّى بعد تحول بعضهم إلى الاسلام بقيت هذه العقيدة متجسدة حتى في طلب الصلح مع المماليك المصرية، وعلاوة على ذلك فإنّ البابوية الرومانية لم تكن بتاة لتثق بالإيلخانيين في فارس وذلك لعدّة أسباب، فمن جهة كان البابوات ينزعجون من التأثير النسطوري في البلاط المغولي لأنّ هؤلاء يعتبرون هراطقة منشقين ومتمردين عن الكنيسة الرومانية الأم في أوربا، ومن ناحية أخرى كانت البابوية على علم بأنّ معظم رعايا الإيلخان اعتنقوا الإسلام قبل تحول غازان إليه رسميا سنة 1295م بفترة ليست بالهينة، وهكذا لم يكن للبابوية ولا لأباطرة الصليبيين في أوربا أن يثقوا في حلفاء محاطين برعايا مسلمين من كل جانب، ولكل هذه الأسباب يضاف أنّ البابوية، في تلك الفترة، كانت قد انصرفت كليّة لتسخير جهد تبشيري كبير بالتجاه الشرقين الأدنى والأقصى على السواء في إشارة إلى تفضيل الحرب الناعمة التي كان قد نصح بها العديد من رجالاتها أمثال المؤرخ الأرميني هيثوم والراهب رايمون لول Raimon lull وغيرهما.

وأمّا البعثات التبشيرية إلى المغول فقد وجدت نفسها محصورة بين عقيدتين منافستين لها هي البوذية والاسلام وبالأصل كانت الأولى ديانة أغلب شعوب شرقي الامبراطورية المغولية، والثانية مستحكمة في غربي تلك الامبراطورية فلم يكن من الحكمة أن يعتنق حكام المغول غير ديانة الشعوب التي هم في كنفها، فاعتنق شرقها البوذية بينما كان الاسلام هو ما آمن به غربها.

وقد تبيّن لنا من خلال معظم الرسائل البابوية، أنّها تنص على استحالة أيّ تحالف عسكري أوربي مع المغول إلاّ بعد تنصر الإيلخان وتنصر رعاياه على المذهب الكاثوليكي اللاتيني، بينما شاهدنا أنّ المغول في إيران كانوا يتسمون في معظم الأحيان بالتسامح مع المسيحيين بجميع أطيافهم بل وبتفضيلهم عن المسلمين في أحيان كثيرة، وحتّى في عهد غازان الذي ادعى الإسلام فإنّه جعل الأسقف النسطوري مارجبالاها الثالث ومسيحيي مراغا تحت حمايته أثناء اضطهاد وزيره الأمير نوروز لهم، وعلاوة على ذلك وخلافا لنصوص التشريع الإسلامي فإنه أسقط عن أهل الذمة دفع الجزية، ورغم كل ذلك فإنه لم يشفع لهم بشيء عند البابا.

وفيما صخّر البابا نيكولاس الرابع جهودا تبشيرية جبارة باتجاه أرغون خان وحاشيته وأسرته من أجل تمسيحهم، إلاّ أنّ الإيلخان بقي غير مبال لذلك، وفي رسالة أرغون التي بعثها سنة 1290م إلى ذات البابا يصرح فيها أنّ رعيته حرّة في اختيار الدين الذي يناسبها، في إشارة إلى رفضه ومن معه ومن قبله من الملوك المغول لإرغام الرعية على اعتناق معتقد بعينه، ولم يكن ميل بعض أمراء المغول إلى المسيحية أو غيرها إلا أمرا شخصيا ولم يحملوا الناس على ما ذهبوا إليه، وكان موقف المغول الرسمي من الأديان وسياستهم العامة تجاه أصحابها يتلخص في أنهم وقفوا موقف الحياد بينها ولم ينحازوا إلى دين معين منها، وقد أعطت هذه السياسة تجاه الأديان وتجاه أصحابها والداعين لها الفرصة كاملة للمنافسة الحرة بين الاسلام دين الأغلبية في النصف الغربي من الامبراطورية وبين غيره من المعتقدات التي كانت تنافسه في اكتساب المغول، كما أنّها أتاحت الفرصة لإقامة المناظرات الدينية بين علماء الاسلام وبين رهبان المسيحيين في حضرة الخوانين والأمراء من المغول، وكان لهذه المناظرات تأثيرها في تحول الكثير من المغول إلى الاسلام.

وبالمقابل لم يكن المبشرين المسيحيين شرقا وغربا يدركون هذا البعد السياسي المغولي ويظنون خطأ أنّهم على وشك التحول إلى المسيحية فأخذوا يركزون نشاطهم على قراقورم وعلى الخاقان لاعتقادهم أنّه بمجرّد اعتناقه المسيحية يفرضها في جميع الامبراطورية، ثمّ لم

يكتب تنصير إلا شرذمة قليلة من المغول هنا وهناك رغم نجاحهم في تنصير بعض الوزراء والزيجات.

وأمّا المسيحيين في إيلخانية فارس وفي غيرها من أرمن وكرج وغيرهم من صليبيي الشرق، فإنهم كانوا جد متحمسين وطامعين في إمكانية تحالف بهذا الشكل بين مغول إيران والصليبيين في الغرب الأوربي، ولكن رغم نفوذهم ومكانتهم السياسية في الشرق وبين الكواليس الأوربية إلاّ أنّهم لم يتمكّنوا في إقناع الملوك الفرنسيين وباباوات أوربا لتقديم سند أو عون عسكري إلى مغول فارس لقهر الإسلام، وأمّا نشر الإشاعات عن تنصر الخانات وتركيزهم على ذكر حماية زيجات الخان، وبخاصة دوقوز خاتون زوجة هولاكو، للمسيحيين ومحاباتهم، ووعدهم بتسليم بيت المقدس وفلسطين إلى البابوية، فقد بقيت كلّها دون تأثير ملموس، حتّى وإن وُجد بين ملوك أوربا من أجاب بالموافقة على التحالف مع المغول، ولاكن أباطرة أوربا كانوا عامّتهم منشغلين في تلك الفترة بمشاكلهم وحروبهم الداخلية ولم تعد فلسطين من أولوياتهم السياسية، ورغم ذلك كلّه كادت تلك الجهود المستمرة لعقود طويلة أن تثمر لولا أنّ مغول فارس اعتنقوا الاسلام.

وفي حركة فريدة واستراتيجية حربية عبقرية، في خضم لهيب الشعور الصليبي البابوي وبعض نخبة المفكرين الصليبيين شرقا وغربا أمثال المؤرخ الأرميني هيثوم والراهب المتمرس رايمون لول والبندقي مارينو سانودو، لجأ هؤلاء إلى دعاية وتحريض عالمي لعزل الأمة الاسلامية اقتصاديا، لاستنفاذ طاقاتها أوّلا ثمّ الانقضاض عليها بعد ضعفها لقمة صائغة سهلة، ولكن هيهات أن يتحقق مرامهم، ألم يقل الله تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)، ذلك أنّ الخيانة بينهم داؤهم والغدر دأبهم، وحتّى البابوية التي سنّت الحرمان الكنسي على الشواذ، لم تفي هي بالتزاماتها مثلما كان تاريخها مع انحراف الحملة الصليبية الرابعة، بل وأذنت لبعض المدن التجارية بالتعامل مع المسلمين فيما منعت آخرين، وبذلك لم يكن المشروع إلاّ نكتة لا ترقى حتى إلى مصاف المهرجين، فيما كانت بعض الدول الأوربية أمثال أرجون الاسبانية لا تتوانى في عقد اتفاقيات تجارية معى المماليك المصرية علنا على مسمع ومرئى الجميع.

وخلاصة القول أنّ الصراع الذي كان قائما أصلا بين الإسلام والصليبية كاد يزداد لهيبا في القرنين السابع والثامن الهجري الموافق للثالث عشر والرابع عشر النصراني بظهور مبادرات التحالف الصليبي المغولي، لكن في الحقيقة ورغم طلب هؤلاء المغول بأنفسهم العون العسكري من أوربا في أواخر عهودهم، إلاّ أنّ صراعا آخر كان قائما بين هذان الطرفان أيضا وهو أنّ

المغول كانوا يسعون جديا في فرض سيطرتهم على جميع العالم بينما كانت البابوية تسعى هي الأخري لبسط سيطرتها على العالم عن طريق نشر عقيدتها المسيحية في أقاصي الدنيا، وبذلك لم يكن من الممكن أبدا أن يكون للعالم سيدان متفقان.

# الملاحق

## 1- الرسالة التي بعثها الخان المغولي إلى لويس التاسع وهو في قبرص(حملها مرقص وداوود) :

«Per potentium Dei excelsi, missi à rege terræ Cham verba Erchalthay, regi magno provinciarum multarurum, strenuo propugnatori orbis, gladio Christianitatis, Victoriæ religionis apostolis, defensori legis Evangelicæ, filio regi Franciæ. Augeat Deus dominium sun, et conservet ei regnum sun annis plurimis, et impleat voluntates Suas in lege et in mundo, nunc et in futurum per veritatem divinæ conductricis hominum et omnium prophetarum et apostolorum, amen. Centum millia benedictionum et salutum. Ex hoc rogo quod recipial salutes sive salutation esistas, ut sint grande apud ipsum. Faciat autem Deus ut videam hunc regem magnificum, qui applicuit. Creator autem excelsus sic occuesum nostrum in charitate fieri faciat, ut congregemur in unum. Post hanc autem salutationem, noverit quŏd in hac epistola non est intention nostra nisi utilitas Christianitatis, et corroboratio manûs regum Christanorum, Domino concedente. Et peto à Deo, ut det victoriam exercitibus regum Christianitatis, et triumphet eos de adversariis suis contemnentibus crusem. Ex parte autem regis sublimis sublimet eum Deus, videlicet de præsentia Kyocay augeat Deus magnificentiam suam. Volumus cum potestate et mandato, ut omnes Christiani sint liberi à servitute, et tributo, et angaria, et pedagiis et consimilibus, et sint in honore et reverentia, et nullus tangat possessiones eorum, et eccelesiæ destructæ recedificentur, et pulsentur tabulæ, et non audeat aliquis prophibere ut orent corde quieto et libenti pro regno nostro. Istâ autem horâ adhuc venimus pro utilitate Christianorum et custodia, dante Deo exelso. Misimus autem hæc per fidelem nostrum virum venerabilem Sabeldim Monffath David, et per Marchum, ut annuncient isto bonos rumores, et quæ sunt circa nos dicant ore ad os. Filius autem recipiat verba eorum, et credit eis, et literis suis. Rex terræ augeatur magnificentiâ suâ; ita præcepit quod in lege Dei non sit differentia inter Latinum et Græcum, Armenium, Nestorium, Jacobinum, et omnes qui adorant Crucem. Omnes enim sunt unum apud nos. Et sic petimus ut rex magnificus Non dividat inter ipsos, sed site jus pietas super omnes Christianos. Duret ejus pietas et clementia. Datum in Fruemercharram. Et erit bonum, concedente Domino.

Huic epistolæ consonabant et aliæ quædam literæ, quæ paulo anté regi Ludovico à rege Cypri et comite Joppensi fuerant præsentatæ, quarum etiam transcriptum unà cum transcript Literarum Erchalthay transmisit Odo venerabilis apostolic sedis legatus, domino papæ Innocentio quarto. Harum literarum exemplar talia continebat.». (1)

---

(1)أنظر : **Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, pp. 358-361.**

## 2- الرسالة التي بعثها الخان المغولي إلى لويس التاسع وهو في قبرص (حملها مرقص وداوود) مترجمة إلى الفرنسية القديمة عند الأمير المغولي الجيجيداي Algigidai :

**Vertion de cette même Lettre d'aprés la traduction Latin** :

« Par la puissance dou très haut Dieu, li messages dErchalthay[1] qui aporterent les paroles Dou grant roy Cham, roy[2] de moult de provinces, noble combateur du monde, glaive de crestienté, victorieus deffendeure de la religion des apotres et de la lois de lÉvangile, au roy de France : notre Sires croisse sa seigneurie et ton royaume gouverne par lonc temps, tes volenté acomplisse en la loy en cet monde, et maintenant et tous jourz, Diex te doint conduit[3] par verit divine, et tes gens vellie garder[4] par les prieres des apotres et des prophetes. Amen. Cent mile beneiçons et cent mile salus te mans[5]. Par ces lettres te prie que tu reçoivez ces salus et Diex[6] que je voie toi, qui grans roys est Li baus Creerres[7] du ciel et de la terre face que nous en charité puissons ci assambler que nous soions tuit un[8]. Aprés ces saluz, sachiés que par ceste espitre[9] que nostre entencion est de faire le profit de crestienté, et ce nous otroit Diex par layde des roys crestiens.

Je pri et requier Dieu que il doint victoire a lost des Crestiens, et Soumette a eulz leurs adversaires qui despisent la croys : par le[10] très haut roy, essance Diex le roy, et croisse sa hautesse si que chacuns le voie. Nous voulons, par nostre poeté[11] et nostre mandement, que tous cretiens soient franc et hors de servage, et soient quipte de treu[12], de corvee et de paage, et de toute autre constume; et soient en ennour et en reverence tenu, et nus notouche a leur possessions. Nous voulons que les églises soient reedifiees, et que len sonne les cloches et les tables, et que nus ne sa enhardisse a deveer leur a ce que il ne prient paysiblement, le cuer et volentiers pour nostre royaume. Et pour ce nous a Diex en cet temps envoié, que[13] nous façons et gardons le profit de cretienté quil nous otroit. Ces chouzes nous avons[14] envoiees par nostre loyal

---

(1) D'OHsson ecrit Iltchikadai.
(2) Ceux qui lisent regi et non rege dans le texte latin disent qu'il falait traduire au roy, et que toutes les qualifications qui suivent doivent se rapporter à Louis IX. Selon M. D'Ohsson, la verssion francaise de cette lettre n'est pas toujours exacte.
(3) sauvegarde.
(4) Veuille garder.
(5) Je t'envoie.
(6) Que tu receives ces salus, car ce est grans chose en vers lui ; et Diex face que je te voie qui grans royyes.
(7) Créateur.
(8) tout un.
(9) Saichés par cette epistre.
(10) De la part du.
(11) Puissance.
(12) Exempt de tribut.
(13) Nous à Dieu amené en ce temps en vie.
(14) Nous retablissons. Le mot avons omis dant le manuscri Colbert.

houme et hounourable Sabeladin Monfat David et par Mat[15], pource que il anoncent bouche a bouche comment les chouzes se portent envers nous. Reçoy nos lettres et nos paroles, car elles sont vrayes.

Cil qui est roys du ciel et de la terre accroisse si hautesse, que il commande que nule difference ait entre Latin et Grien, Ermenien, Nestorien, Jacobin, et tous ceus qui aourent la crois, et aussi requerront nous que Li grans Diex ne devise[16] par entreus, ains soient tout i, et sa pitiez et sa debonairetez soient et durent seur nous et seur tous les cretiens. Donné en la feurie Charam[17]. ce sera bonne choze, et Diex lottroies » (18)

---

(15) Sabedin Moriffat David, et Marc. Après la mort de Couyouk, on vit arriver à Nicosie, Capitale de l'ile de Chypre, et se préparait à passer en Egypte, lorsque David et Marc Qui se disaient envoyés par Iltchikadai, lui remirent des lettres de ce commandant des Forteresses mongoles en perse. Saint Louis acceillit avec trop de distinction ces pretendus messagers dont l'un (David) fut reconnu depuis pour un imposteur. Voyer M. d'Ohsson, Histoire des Mongols, tome II, page 235.

(16) Divise.

(17) Donné dans l'heureux mois de Fervardin ou Ferverdin.

**(18) أنظر: Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, pp. 359, 361.**

**3- رواية متى الباريزي لهذه الرسالة**، التي وصلت إلى لويس التاسع في قبرص ديسمبر سنة 1248م، تختلف تمامًا عن المقتطفات التي أوردها جوانفيل عن فحوى هذه الرسالة، فالنص الذي نشره المؤرخ الإنجايزي يتعلّق بكيفيّة معاملة التتار للمسيحيين والدعوة لعدم التفرقة بين مذاهبهم، وليس بها إلاّ التمني بنصرة المسيحيّة "فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب"، في حين يقول جوانفيل يقول صراحة "أنّ من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك (لويس التاسع) في غزو الأرضي المقدّسة وتخليص بيت المقدس من المسلمين"، رغم أنّ جوانفيل كان موجودًا مع مليكه إبان وصول رسل المغول ووداعهم، ويفترض فيه أن يكون أكثر أمانة وثقة وموضوعيّة من متى الباريسي.

## أ- مظمون ما أورده جوانفيل عن الرسالة المغولية التي وصلت إلى لويس التاسع وهو في قبرص (المفترضة أن تكون من قبل الجيجيداي) :

« En ce point que li roys sejournoit en Cypre, envoia li grans roys des Tartarins ses messaiges a li, et li manda mout de bonnes et honnestes paroles. Entreles autres, li manda que il astoit prêt de li aidier a conquerre la Terre-Sainte, et de delivrer Jherusalem de la main aus Sarrazins». (1)

(1) **أنظر: Joinville, Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en français moderne Par M. Natalis de Wailly, Paris, 1882, pp. 56-57.**

**ب- مظمون ما أورده متى الباريزي عن الرسالة المغول التي وصلت إلى لويس التاسع وهو في قبرص(المفترضة أن تكون من طرف الجيجيداي Algigidai) :**

**Lettre du Roi des Tartares traduite mot a mot du chaldéen au Roman**(1) :

« Par la poissance de Deu le haut, envoié del roy de la terre Chaam, Achatay, al roy grant de plusurs provinces, noble combatur, del mund glaive, de crestienté victoire, (de religiun baptismal cur une(2)), de genz ecclésiastres défensure de la loie évangiliste fiz, roy de France. Acroise dex sa seignurie, et gard sen régne par plusurs ans, e parface sa volunté enz la loi, e el mund el teur dores e en celui Kest à venir, par la vérité de la dame (3) Ki cunduit tuz hommes e tuz les prophétes e les apostres. Amens. C. M. saluz e bénéiçuns.

E io eo proi Ke il receive ces choses, et Ka lui soient agréables. A cestes, e face Dex Kei o voie tel roy noble Ki est arrivez; e li hautz créaturs face ferme nostre decurs : (ceo est à sanur nostre vie qui tuz jours décline ce est en décurs)(4); e face légérement Ke nus nus assemblosmes en une chose. En après cest salu, Sace il Ken cest epistle nest nostre entente el Ke le profit de la crestienté e forces de la main le roy crestien, par l'ottroi de nostre Seignur; e requer de nostre Seignur Ke il donist victoire de cus de la crestienté, et face à ceus avoir victoire sur ses aduersaires Ke despisent la croiz. En aprés de la part le roy haut hauce celui Dex ceo est, à sauur de la presence de conyot(5) Chaan : et acroise Dex sa grandure. « Nus somes venu(6) avokes poere mandement Ke tuit il cretien soient quite de seruitude e trenage, d'angarie, de paage e de choses semblables; e soient à honeur et à réuérence; e Ke nul ne toille leur

---

(1) Tel est, dans les additamenta, le titre de ce singulier document, qui, s'il était copié textuellement, nous reporterait pour l'orthographe et la ponctuation à une époque antérieure à Villehardouin. Il est probable que Matthew Paris avait transcrit fidelement cette traduction contemporaine, et que les copistes l'ont ensuite altérée. Quoi qu'il en soit nous avons cru devoir faire subir au texte plusieurs modifications en le comparant avec la traduction Latine rapportée par Raynaldi, d'après Vincent de Bauvais et Guillaume de Nangis.
Les deux vérsions s'expliquent ainsi l'une par l'autre, et nous nous sommes décidés à les mettre à la suite.

(2) Ce membre de phrase ne se trouve pas dans le texte Latin.

(3) cette phrase semblerait indiquer la sainte viérge; mais rien ne doit étonner de la part d'un peuple qui acceptait avec une égale insouciance les opinions religieuses de tous ceux avec lesquels il était en contact.

(4) Ce membre de phrase ne se trouve pas dans le texte Latin. Quant à ce qui précéde, les deux textes sont entiérement différents. Il est claire que dans la lettre en langue romane, le sens est celui-ci : Que le haut créateur maintienne fermement notre course, c'est à savoire notre vie qui toujours décline et en course.

(5) Conyot et Kyocay désignent également le grand Kan Gaiouk que des bruits officieux représentaient comme disposé à embrasser le chritianisme. on le disait aussi fils d'une fille de Prétre-jean.

(6) Le texte latin donne Volumus. Evidament Venimus.

possession; e Ke les iglises destruite soient réédiflées; e les tables soient restorées(7); e Ke nuls n'ose défendre ces choses Keo il prient de quer reposé e volentri, par nostre régne. En cest hure venime nus à ceste chose pur le profit de la créstienté et par la garde, par l'ottroi del haut Deu. A cestes, nu auom envoié ces choses par nostre total méssage honurable Saphadin(8) Davi e par Marc, Ki Vus anuncient cestes bones nuueles e Vus dient buche a buche les choses Ki sunt entur nus.

Li fiz receive les paroles de céaus, e les croie en lur lettres. Li rois de la terre soit à honeur et acroisement par sa grandur. En aprés il comande qu'en la loi de Crist ne soit nule différence entre les Latins e les Grius e les Hermins e les Nestorins e les Iacobinz, e tuz les autres Ki aurent la croiz; Kar cil sunt tuit une chose entre nus(9). Eusi requésens-nus Ki li haut rois ne mette dinuisiun entre aus. Ains sa pitié e sa déboaireté soit sor tuz les crestiens, e dure sa pitie e sa débonaireté. De la deske la fin de Maranatha(10). E sera bone chose, par l'ottroide nostre Seignur.».(11)

---

(7) On sait que s'était d'orient qu'était venu l'usage d'appeler les fidéles à la priére en faisant résonner des tablettes de bois. Le mot restorees est explique en Latin pa cilui de pulsentur.(Voy. Matthew Paris, op.cit. T.2, p.249).

(8) Le texte latin donne à cet envoyé le nom étrange de Sabeldim Monfat.

(9) Phrase remarquable qui indique deux faits : l'égale protection accordée par les tartares à toutes les sectes chrétiennes, et l'empressement des dissidents à ce placer sous ce puissant patronage.(Voy. La note dans Matthew Paris, op.cit. T.6, p. 453 et celle qui est relative à cette ambassade dans Matthew Paris, op.cit. T.6, p. 499.).

(10) Maramatha et Mercharram désignent évidament le mois Maharan شهر محرم dont il est question dans la lettre du Soudan du Caire. D'ailleurs Mercharram, du texte latin, n'est autre chose que Mucharrem, variante de Maharan. Ce mois répond à peu prés à notre mois de Septembre.

(11) أنظر: **Matthew Paris, La Grande chronique, tra. en français par A. Huillard-Breholles, Edition Paulin, Paris, 1840, T.6, Addition XII, pp. 565-567.**

**<u>Vertion de cette même Lettre d'aprés la traduction Latin</u> :**

« Par la puissance du Dieu tres haut, Ercalthaï envoyé du Khan, roi de la terre, au grand roi de plusieurs provinces, au vaillant combatant, au glaive du monde, à la victoire de la chrétienté, au défenseure des gents ecclésiastiques, au fils de la lois Évangélique, au roi de France. Que Dieu accroisse sa seigneurie, lui conserve son royaume plusieures années, remplisse ses volentés dans la loi, et (le conduise) dans le monde qui est maintenant et qui est à venir par la vérité de la divine conductrisse de tout les hommes, de tous les prophétes et des Apôtres. Ainsi soit-il. Cent mille Saluts et bénédictions. Je le prie qu'il reçoive ces choses et qu'elles lui soient agréables. A cause de cela fasse dieu que je voie ce noble roi qui est arrivé. Que le createur trés haut permette notre rencontre en charité et fasse gracieusement qu'il advienne que nous soyons réunis en un. Or, aprés cette salutation qu'il sache que dans cette épitre notre intention n'est pas autre que le profit de la chrétienté et que la corroboration de la main du roi chrétien par l'octroie du seigneur; et je demande à notre seigneur qu'il donne la victoire à ceux de la chrétieneté et qu'ils les fasse triompher de leurs adversaires qui méprisent la crois. Aprés cela, de la part du roi très-haut que Dieu l'exalte, a savoire par la présence de Kyocay(Khan) : et que Dieu accroisse sa grandeur.

Nous sommes venus avec pouvoire et mandement pour que tous les chrétiens soient exempts de servitude, de tribut, de véxation, de péage et choses semblables; qu'ils soient en honneur et révérence; que nul ne leur enléve leurs possessions; que les églises détruites soient réédifiées; que les tablettes soient (de nouveau) frappées; que nul n'ose défendre ces choses, et qu'ils prient d'un cœur tranquille et content dans notre royaume. Nous venons donc en ce moment pour le profit et la concérvation de la chretienté, par l'ordre du Dieu trés haut. A cause de cela, nous avons envoyé ces choses par notre loyal et honorable messager Saphadin David et par Marc pour qu'ils vous annoncent ces bonnes nouvelles, et qu'ils vous disent bouche à bouche les choses qui sont entre nous. Que le fils reçoive leurs paroles et les croie en leurs lettres. Que le roi de la terre soit en honneur et accroissement par sa grandeur. Aprés cela, il commande qu'en la loi du Christ il n'y ait point de difference entre les Latins, les Grecs, les Armeniens, les Nestoriens, les Jacobites et tous les autres qui adorent la croix; ca ils sont tout un devant nous. Aussi demandons-nous que le roi magnifique ne fasse pas de distinction entre eux, mais que sa piété et sa clémence soient sur tous les chrétiens, et que sa piété et sa clémence durent. Donné à la fin Mercharram. Et ce sera bonne chose pa l'octroi de notre seigneur. ». (1)

---

**(1) أنظر: Matthew Paris, La Grande chronique, tra. en français par A. Huillard-Breholles, Edition Paulin, Paris, 1840, T.6, Addition XII, pp. 567-569.**

## 4/ مظمون ما ورد في رسالة مانكو خان إلى لويس التاسع ويحملها وليم روبروك :

« Voici le precepte du Dieu eternel. Au ciel, il n`y a qu`un seul Dieu Eternel, et sur la terre il n`y a qu`un seul maitre, Chingis Chan.

Voici l`ordre du fils de Dieu (Mongou) qui vous est dit : Qui que vous soyez, ou Moal, ou Naïman, ou Merkit, ou Musseleman, et aussi loin que les oreilles peuvent entendre, aussi loin qu'un cheval peut aller, faitent entendre et comprendre ceci : Par la force du Dieu eternel, par le peuple des Grands Mongols, commandement est fait par Mangu-chan au segneur des Français, au roi Louis et a tous les autres seigneures et pretres et grand peuple des Français qu`ils puissent conprendre ces paroles. Le commandement du Dieu eternel fait par Chingis Chan n`est parvenu a vous ni venant de Chigis Chan lui-meme, ni venant d`autres après lui.

Un homme nommé David est venu vers vous comme ambassadeur des Mongols, mais c`etait un menteur, et vous avez envoyé vos ambassadeurs avec lui à Keu-chan. C'est après la mort de Keu-chan que vos ambassadeurs arrivèrent à sa cour. Caïmis, son épouse, vous envoya des étoffes de nasic et des lettres. Mais connaître les choses de la guerre et les affaires de la paix, veiller à assurer le repos et le bonheur d'un grand peuple, comment cette femme de rien, plus vile qu'un chien, en aurait-elle été capable ?.

Ces deux moines qui sont venus de votre part chez Sartach, Sartach les envoya à Batou et Batou nous les envoya, parce que Mangou-chan est le plus grand souverain du peuple des Moals.

Maintenant donc, pour que le monde entier ainsi que les prêtres et les moines, soient tous en paix, et se réjouissent dans leurs biens, et afin qu`ils entendent tous le commandement de Dieu, nous avions voulu vous envoyer par ecrit le commendement du Dieu eternel, par l'entremise de vos dits prêtres.

C'est le commandement du Dieu éternel que nous vous donnons à connaitre. Quand vous aurez entendu et que vous aurez cru, si vous voulez nous obéir, envoyez-nous vos ambassadeurs : ainsi nous saurons avec certitude si vous voulez la paix ou la guerre avec nous.

Lorsque, par la puissance du Dieu éternel, du lever du soleil jusqu`à son coucher, le monde entier sera uni dans la joie et la paix, alors apparaitra ce que nous aurons à faire.

Lorsque vous aurez entendu et compris le commandement du Dieu éternel, si vous refusez d`y prêter attention et d`y croire, en vous disant : « Notre terre est bien loin, nos montagnes sont fortes, notre mer est grande», et que dans cette assurance vous fassiez la guerre contre nous, dites-vous bien que nous savons ce que nous pouvons. Et le Dieu éternel, celui qui rend facile ce qui était difficile, et proche ce qui était lointain, le sait bien.». (1)

---

**(1) أنظر : Guillaume de Rubruk, Voyage dans l'Empire Mongol, traduction et commentaire de Claude et René Kappler, Payot, Paris, 1985, pp. 221, 222-225 ; Pauthier(G.), Histoire des Relations politiques de la chine avec les Puissances occidentales depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, , Paris, 1859, pp. 28-31; Roux(Jean-Paul), Histoire de l'Empire Mongol, librairie Arthem Fayard, Paris, 1993, p. 335.**

## 5/ مظمون ما ورد في رسالة سمباد التي بعثها إلى هنري ملك قبرص، زوج أخته ستيفانيه، وهو في طريقه إلى قراقورم، وهي مؤرّخة في عام 1243م (والمفروض أن تكون في 1248م)(*) :

**ترك لنا سمباد معلومات هامّة حول هدف زيارته للخان المغولي من خلال هذه الرسالة ومظمونها كما يلي :**

« A très haut et puissant houme monseigneur Henry[f], par la grace de Die[1] roy de chipre, et sa chiere suer Enmeline la royne, et a noble houme Jehan de Hibelin son frere, li connoitables de Ermenie salut et amour. Sachiés que aussi comme je me esmui[2] la ou vous savés pour Dieu et pour le profit de la foy crestiene, tout aussine nostre Sires ma conduit saint et sauf jusques a une ville que on appelle Sauteqant[3]; mout terres estranges ay veues en la voie. Yude lessames derrier nous; par la royaume de Baudas passames, et meimes ii. moys a passer toute la terre de ce royaume; moult de citez veimes que li Tartarin avoient gastees, desquels nus ne pourroit dire la grandesse ne la richesse dont eles estoient plainnes. Nous veimes aucunes villes grans par lespasse de iii. journrrs, et plus de c. monciaus[4] grans et meirvellieus des os de ceus que li Tartarins avoient ocis et tué; et se la grace de Dieu neust amené les Tartarins pour Ocivre les paiens, il eussent destruit, si comme nous pouons veoir, la terre toute deça la mer. Nous trespassames i. grant fleuve qui vient de paradis terrestre, ca non Gyon[g], duquel les arenes durent dune part et dautre par les passe dune grant journee. Si sachiés que des Tartarins est si grant plentez, que il ne pucent estre nombrez par homme; il sont bon archier, et ont laides faces et diverses; ne je ne vous pourroie dire ne descrire la manière dont il sont. Bien a passé viii. Moys que nous ne finames derrer pour nuit[5], et encore ne soumes pas ou milieu de la terre Cham le grant roi des Tartarins. Si avons entendu pour certaine choze, que puisque Cham[h] li roy des Tartarins, peres dicelui Cham qui regne maintenat, fut trespassez, que li baron et les chavaliers de Tartarins qui estoient par divers liens, mistrent bien par lespasse de v. ans a assambler pour couronner le roy Cham qui maintenant regne[6], et apainnes porent estre assamblé en i. lieu.

---

(*) صرّح سمباد في حولياته أنّ أخاه أرسله إلى ملاقاة الخان كيوك بداية من سنة 1248م، وعلى هذا فلا بدّ أنّ الرسالة التي بعثها إلى صهره هنري الأول أن تكون مؤرّخة في 7 فبراير سنة 1248م، وليس سنة 1243م كما في الحوليات مؤرخي الغال وفرنسا Receil des historiens des Gaules et de la France، من سمرقند.

أنظر : Sĕmpad le Connétable, Chronique du royaume de la petite Arménie, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. I, p. 651, 651 note 1.

1 : Dieu.
2 : Comme je partis pour aller.
3 : c'est peut-être Samsrkand.
4 : et plus de cent mille morceaus.
5 : Que nous ne cessâmes de marcher nuit et jour.
6 : selon d'autres Historiens, ce long délai n'a eu lieu que plus tard, avant l'éléction du successeur de Quaiou ou Kau-Khan .
f: Henri de Lusignan.
g: L'oxus des anciens.
h: qu'apres que Cham.

Aucuns de eulz estoient en Inde et en Chatha, et li autre en Roussie et en la terre de Cascat[7], qui est la terre dont li roy furent qui Vindrent en Jherusalem aourer Notre Seigneur; et sont les gens de celle terre cretiens. Je fui[a] en leur eglize, et vi la figure de Jhesu Criste paint, comment li troy roy li offrirent or, mirre et encens. Par ces trois roys tindrent et orent prumierement cil de Tangat la foy crestienne, et par aulz sont maintenant Cham li roys des Tartarins et sa gent. Devant leur portes sont les eglizes, la ou on sonne les cloches selonc les Latins[8], et tables selonc la manière des Griens; et va on premierement saluer Nostre Seigneur au matin, puis aprés Cham en son palais. Nous avons trouvé moult de crestiens dispers et espandus par la terre dOrient, et moult de eglizes hautes et beles, anciennes, qui ont esté gastees par les Tartarins avant quil feussent crestiens; dont il est avené que li cretien d'Orient, qui estoient espandu par divers liens, sont venu au roy Cham des Tartarins qui maintenant regne, et a painnes porent estre assamblé en un lieu, lesquels Il a reccu a grant honneur et leur a donné franchize, et fait crier partout que nulz ne soit si hardis qui les courouce, ne de fait, ne de paroles. Et pourceque Notre Sires Jhesus Crist navoit en ces parties qui prestast pour lui son non, il meismes par ces saintes vertus que il a demonstré et preschié en tele manière que les gens croient en lui. En la terre dInde que Saint Thoumas converti a la foy crestienne, avoit i. roy crestien entre les autres Sarrasins, que li Sarrasins[b] avoient moult de maus fays et de griés, jusques a tant que Tartarins vindrent qui pristrent sa terre en leur main, et en fu leur bons[c]; il assambla son ost avec lost de Tartarins, et entra en Indecontre les Sarrasins, et conquit tant que toute sa terre est plainne desclaves et de gens indes; et de ces esclaves je vis plus de v.c. mil, que li roys commanda a vendre. Si sachiés que li papes a envoié au roy Cham des Tartarins messages[9] pour savoire se il estoit crestiens, et pourquoy il avoit envoié sa gent pour ocirre et tuer ler crestiens et le peuple. A ce respondi li roys Cham, que notre Sires Diex avoit mandé a ses devanciers ayeulz et bezaieulz, quil envoiassent leur gens pour occirre et pour destruire les mauvaizes gens. Et a ce qui li papes li manda se il estoit crestiens, il respondit que ce savoit Diex; et se li papes le vouloit savoire, se venit en sa terre et veit et seut comment il est des Tartarins. ». (1)

---

7 : L'Inde, le Cathay ou la Chine septentrionale, la Russie, les royaumes de Caschgar et de Tangu.

8 : celon la coutume des Latins.

9 : deux freres mineurs, Jean de Plan-Carpin et Benoit de Pologne; deux freres precheurs, Asselin, Simon de Saint-Quentin, Alexandre, Albert (Bergeron, Receil des voyages, T. 1).

a: je fus.

b: à qui les Sarrasins.

c: leur vassal.

**(1) أنظر : Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XX, pp. 360-363.**

## 6/ رسالة بونس دي أوبون Ponce De Aubon أحد فرسان المعبد (التمبلار) chevalier du temple إلى لويس التاسع ملك فرنسا:

« A son très-haut seigneur le roys, par la grace de Dieu roi de France, Ponces de Aubon, mestres de la chevalerie du Temple de France, salus et appareilliés à faire vostre volenté en toutes choses, en reverence à henneur de seigneur. Les nouvèles des Tartarins, si comme nous les avons oïes de nos frères de Poulainne qui sont venu au chapitre. Nous faisons savoire à vostre Hautesce que Tartarin ont la terre qui fut Henri[1], le duc de Poulainne, destruite et escillié[a], et celui meismes ont, et avec, mout des barons et VI. de nos frères et III. chevaliers et II. Serganz et V.C. de nos hommes ont mort[b]; et III. de nos fréres, que nous bien connissonz, eschapèrent. De rechief toute la terre de Hengrie et de Bainne[c] ont dégastée; de rechief il ont fet III. oz, si les ont départies : dont l'une ost est en Hongrie, l'autre en Baienne, et l'autre en Ostreriche. Et si ont destruit II. des meillours tours et III. viles que nous avionz en Poulainne; et quanque nous avionz en Boonie et en Morainne[2] del tout en tot il ont destruit. Et cèle meismes chose doutouz-nous que ne viègment ès parties d'Alemaigne. Et sachiez que li rois de Hongrie et li rois de Booine et les II. fuiz au duc de Poulainne et le patriace d'Aquitaine[3], à mout grant multitude de genz, une seule de lor III. olz n'osèrent assaillir Et sachiez que touz les baronz d'Alemagne, et le roi meismes, et tout le clergié, et toutes les genz de religion, et moinnes et convers, ont prins la crois; Jacobins et frères meneurs, dèsques[d] en Hongrie, sont croisés à aller contre les Tartarinz. Et si comme noz out dit, s'il avient chose par la volenté de Dieu que cist soient vaincus, il ne trouveront qui lor puist contester jusqu'à vostre terre. Et sachiez qu'il n'espargnent nului, mès ils tuent touz povres et riches et petis et granz, fors que belles fames pour faire lor volenté d'elles;

1 : Il s'agit sans doute ici de Henri le Barbu, duc de Breslau, qui fut tuteur Boleslas V jusqu'en 1238, et qui possaidait lui-même en propre la basse Silésie et la grande Pologne : il fut vaincu par les Tartares le 9 avril 1241.(Ohssone, Hist. des Mongols, II, p.125.)

a : dévisée

b : tué

c : bohaime

2 : Au lieu de Morainne, il faut sans doute Moravie; quant au mot Boonie, il nous parait, ainsi que les mots Bainne, Booine et Bolame, avoir été mis pour Bohème plutôt que Bosnie, puisqu'il est quetion peu après du roi de Booine. Les formes Boonie et Bolame ne peuvent être que des erreurs de copiste.

3 : Au lieu d'Aquitainne, il faudrait d'Aquilée. Le patriarche d'Aquilée fut chargé, en 1243, par Innocent IV d'exorter les peuples d'Allemagne à se croiser contre les Tartares.

d : jusque

et quant il ont fait lor volentè d'elles, il les ocient pour ce qu'eles ne puissent riens dire de l'esta de leur ost. Et s'aucunz messagiers i est envoiés, les premerainz de l'ost le prennent et li bendent les yeuz, et lemainent à lor seignour, qui doit estre, si comme il dient, sire de tout le monde. Il n'asient ne chastiax ne fortes villes, mes il destruient tout. Il menjuent de toutes chars, fors que de char de pore. Il n'ardent nul vile, fors quant il se deffendent contre euz; lors, si font ardoir lez bienz en aucun haut lieu, que[e] on les puist veoir loing, en signe de victoire. Et s'aucunz d'eulz muert, si l'ardent; et se aucunz d'eulz est pris, jà puis ne mengera, ainz se lest morir de fain. Il n'ont nules armeures de fer, ne cure n'en ont, ne nules n'en retiennent; nemès[f] il ont armeures de cuir boilli. Et sachiez que nostre mestre en Bolame, en Hongrie, em Poulainne, en Alemaigne et en Morainne n'est pas venu à nostre chapitre; més il assamble tout de gent com il puet pour aller contre eus; et ce nous a il mandés par nos frères de nostre chapitre qu'il envoia à nous; et noz créonz que ce soit voirs. Il n'ont cure de nului acompaigner[g] avec eulz. Et sachiez que lor ost est si granz, si com nous avons apris de noz frères qui sont eschapez de lor ost, qu'il tient bien XVIII. liues de lonc et XII. de lé; et il chevauchent tant en une journée comme il a de Paris à Chartres la cité.». (4)

---

e : afin que
f : Seulement
g : associer

**(4) أنظر : Chronique Anonyme des Rois de France finissant en M. CC. LXXXVI, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840, T. XXI, pp. 81-82, et p.82 notes (1,2,3).**

## 7/ مظمون ما ورد في رسالة الخان كيوك من خلال بلانو كربيني إلى البابا :

### أ- النص الفارسي لرسالة الخان كيوك إلى البابا إينوسنت الرابع :

### A- Texte persan de la reponse de Guyuk a Innocent IV :

"منكو تنكرى كوچندا كور الغ اولوس ننك تالروى نونك خان يرلغمز اين مثاليست بنزديك پاپاء كلان فرستاده شد بداند و معلوم كند ما نبشت (؟) در زفان (؟) ولايتهاء كرل كنگاش كردست اوتكـء ايلى بندگى فرستاده از ايلچيان شما شنوده آمد و اگر (ﺩ) سخن خويش برسيد توكى پاپاء كلا نبا كرللان جمله بنفس خويش بخدمت ما بيابيد هر فرمان ياساء كى باشد آن وقت بشنوانيم ديگر گفته ايد كى مرا در شيلم دراى نيكو باشد خويشتن را دانا كردى اوتكـء فرستادى اين اوتكـء ترا معلوم نكرديم ديگر سخن فرستاديت (ولايتهاء ماجر وكرستان را جمله گرفتيت مرا عجب مى آيد ايشان را گناه چيست مارا بگويد) اين سخن ترا هم معلوم كرديم فرمان خداى را چنگيز خان وقاآن هر دو شنوانيدن را فرستاده فرمان خداى را اعتماد نكرده اند هم چنان كى سخون توا يشان نيز دل (؟) كلان داشته اند گردن كشى كرده اند و رسوللان ايلچييان مارا كوشتند آن ولايتها را مردمان را خداى قديم كوشت ونيست گردانيد جز از فرمان خداى كسى از قوت خويشتن چگونه كوشد چگونه گيرد مگر تو ممجنان مى گوئى كى من ترسايم خداى را مى پرستم وارى سى كنم مى باسم تو چى دانى كه خداى كى را مى آمورزد در حق كى مرحمت مى فرمايد تو چگونه دانى كه همچنان سخن مى گوئى بقوت خداى [از] افتاب بر آمدن وتا فرو رفتن جمله ولايتها را مارا مسلم كرد[ه] است مى داريم جز از فرمان خداى كسى چگونه تواند كرد اكنون شما بدل راستى بگوييت كى ايل شويم كوچ دهيم تو بنفس خويش بر سر كرللان همه جمله يكـء جاى بخدمت و بندگى ما بيايد ايلى شمارا آن وقت معلوم كنيم واگر فرمان خداى نگريد و فرمان مارا ديكر كند شمار ما ياغى دانيم هم چنان شما را معلوم مى كردانيم واگر ديگر كند آنوا ما چى دانيم خداى داند فى اواخر جمادى الاخر سنة اربعة اربعين وستمائة.".

---

(1) أنظر : Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1922, p. 17-18.

ب- **الترجمة اللاتينية للنص الفارسي لرسالة الخان كيوك إلى البابا إينوسنت الرابع** :

**B- Traduction en latin du Texte persan de la reponse de Guyuk a Innocent IV :**

« Dei fortitudo, omnium hominum imperator, magno pape litteras certissimas atque veras. Habito concilio pro pace habenda nobiscum, tu papa et omnes Christiani, nuntium tuum nobis transmisisti, sicut ab ipso audivimus, et in tuis litteris habebatur. Igitur si pacem nobiscum habere desideratis, tu papa et omnes reges et potentes, pro pace diffinienda ad me venire nullo modo postponatis, et tune nostram audietis responsionem pariter atque voluntatem. Tuarum continebat series litterarum quod debemus baptiçari et effici Christiani. Ad hoc tibi breviter respondemus, quod hoc non intelligimus, qualiter hoc facere debeamus. Ad aliud, quod etiam in tuis litteris habebatur, scilicet quod miraris de tanta occisione hominum et maxime Christianorum et potissime Pollonorum, Moravorum et Ungarorum, tibi taliter respondemus, quod etiam hoc intelligimus. Verumtamen ne hoc sub silentio omnimodo transire videamur, taliter tibi dicimus respondendum : quia littere Dei et precepto Cyngis Chan et Chan non obedierunt et magbum consilium habentes nuntios occiderunt, propterea Deus eos delere precepit et in manibus nostris tradidit. Alioquin, quod si Deus non fecisset, homo homini quid facere potuisset ? Set vos homines occidentissolo vos Christianos esse creditis, et alios despicitis. Sed quomodo scire potestis cui Deus suam gratiam conferre dignetur ? Nos autem Deum adorando in fortitudine Del ad oriente usque in occidentem delevimus omnem terram, et si hec Dei fortitudo non esset, homines quid facere potuissent ? Vos autem si pacem suscipitis et vestras nobis vultis tradere fortitudines, tu papa cum potentibus Christianis ad me venire pro pace facienda nullo modo differatis, et tunc sciemus, quod vultis pacem habere nobiscum. Si vero Dei et nostris litteris non credideritis et consilium non audieritis, ut ad nos veniatis, tunc pro certo sciemus, quod guerram habere vultis nobiscum. Post hec quid futurum sit, nos nescimus, solus Deus novit. Cyngis-Chan primus Imperator.

Secundus Ochoday-Chan. Tertius Cuiuch-Chan. – Non plus continebatur in litteris Domini Tattarorum Missis ad Papam.». (1)

---

**(1) أنظر : Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1922, p. 13-14.**

**ج- التر جمة الفرنسية للنص الفارسي لرسالة الخان كيوك إلى البابا إينوسنت الرابع :**

**C- Traduction en français du Texte persan de la reponse de Guyuk a Innocent IV :**

«Dans la force du Ciel éternel, (nous) le Khan océanique du grand peuple tout entier, notre ordre.

Ceci est un ordre envoyé au grand pape pour qu'il le connaisse et le comprenne. Après en avoir tenu conseil dans les … des territoires du Käräl, vous nous avez envoyé une requête de soumission, que nous avons entendue de vos ambassadeurs.

Et si vous agissez selon vos propres paroles, toi qui es le grand pape, avec les rois, venez ensemble en personne pour nous rendre hommage, et nous vous ferons entendre à ce moment-là les ordres (resultant) du yāsā.

Autre (chose). Vous avez dit que si je recevais le batême, ce serait bien, tu m'en as informé moi-même et tu m'as envoyé une requête. Cette tienne requête, nous ne l'avons pas comprise.

Autre (chose). Vous m'avez envoyé ces paroles : (Vous avez pris tous les territoires des Mājar et des Kiristān, je m'en étonne. Dites-nous quelle était la faute de ceux-la ?) Ces tiennes Paroles, nous ne les avons pas comprises non plus. L'ordre de Dieu,Čingiz-Khān et le Qā'ān l'on envoyé tous deux pour le faire entendre. Mais a l'ordre de Dieu (ces gens) n'ont pas cru. Ceux-là dont tu parles ont même tenu un grand conseil (?), ils se sont montrés arrogants et ont tué nos envoyés-ambassadeurs. Dans ces territoires, les hommes (c'est le) Dieu éternel qui les a tués et anéantis. Sauf par l'ordre de Dieu, quelqu'un, par sa seule force, comment tuerait-il, comment prendrait-il ?

Et si tu dis : (Je suis chretien, j'adore Dieu, je méprise et… (les autres)), comment sais-tu qui Dieu absout et en faveur de qui il octroie la miséricorde, comment le sais-tu pour que tu prononces de telles paroles ?

Dans la force de Dieu, depuis le soleil levant jusqu'à son occident, tous les territoires nous ont été octroyés. Sauf par l'ordre de Dieu, comment quelqu'un pourrait-il rien faire ? A présent, vous devez dire d'un cœur sincère : (Nous serons «vos» sujets, nous «vous» donnerons notre force). Toi en personne, à la tête des rois, tous ensemble, sans exception, venez nous offrir service et hommage. A ce moment-là nous connaîtrons votre soumission. Et si vous n'observez pas (?) l'ordre de Dieu et contrevenez à nos ordres, nous vous saurons (nos) ennemis.

Voilà ce que nous vous faisons savoir. Si vous (y) contrevenez, en quoi en connaitrions-nous ? Dieu en connaitra.

Dans les derniers jours de jumāda le second de l'année 644 (3-11 novembre 1246)».(1)

---

**(1) أنظر : Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1922, p. 18-23.**

## 8/ مظمون ما ورد في رسالة الوصية على العرش المغولي "أوغول قاميش" Oghul Qaimish (زوجة كيوك) إلى لويس التاسع يحملها أندرو دي لونجيمو :

**Lettre remise á André de Lonjumel sous la regence d'Ogoul- Gaïmisch:**

« Bonne chose est de pez (pais); quar en terre de pez manguent cil qui vont á quatre piez l'erbe pesiblement; cil qui vont a dues, labourent la terre don't les biens viennent passiblement. Et ceste chose te mandons nous pour toy aviser. Car tu ne peus avoir pez se tu ne l'as a nous. Et tel roy et tel (et moult en nommoient), et touz les avons mis a l'espée. Si te mandons que tu nous envoies tant de ton or et ton argent chascun an que tu nous retieignes a amis. Et se tu ne le fais, nous destruirons toy et ta gent, comme nous avons fait ceulz que nous avons devant nommez. ».(1)

---

**(1) أنظر : Joinville, Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en français moderne Par M. Natalis de Wailly, Paris, 1882, p. 206 ; Abel-Remusat(J.), Mémoire sur les relations politiques des Princes Chretiens, et Particulierement des Rois de France, avec les Empereurs Mongols, in Memoires de l'Istitut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, VII, Paris, 1824, p.166.**

## 9/ مظمون ما ورد في رسالتي بايجو، زمن كيوك خان المغول، إلى البابا إنوسنت الرابع عن طريق السفير البابوي اسكلين اللومباردي:

أ/ الرسالة الأولى، هي رسالة بايجو نفسه إلى البابا في فرنسا :

(De Literis que a principe Tartarorum ad papam misse sunt.)

Exemplum autem littere que a Baiothnoy ad dominum papam missa est, hoc est :

«Disposicione divina ipsius chaam transmissum, Baiothnoy verbum, papa ita scias. Tui nuncii venerunt et tuas litteras ad nos detulerunt. Tui nuncii magna verba dixerunt; nescimus utrum injunxeris eis ita loqui aut a semetipsis dixerunt. Et in litteris taliter scripseras : homines multos occiditis, interimitis et perditis. Preceptum Dei stabile et statutum ejus qui tocius faciem orbis continet ad nos sic est : quicumque statutum audierint, super propriam terram, aquam et patrimonium sedeant, et ei qui faciem tocius orbis continet virtutem tradant. Quicumque autem preceptum et statutum non audierint sed aliter fecerint, illi deleantur et perdantur. Nune super hoc istud statutum et preceptum ad vos transmittimus : si vultis super terram vestram, aquam et patrimonium seder, oportet ut tu papa ipse in propria persona ad nos venias et ad eum qui faciem tocius terre continet accedas; et si tu preceptum Dei stabile et illius qui faciem tocius terre continet non audieris, illud nos nescimus, Deus scit. Oportet ut antequam venias nuncios premittas et nobis significes si venis aut non, si velis nobiscum componere aut inimicus esse. Et responsionem precepti cito ad nos transmittas. Istud preceptum per manus Aybrg et Sargis misimus, mense julii, .xx. die lunacionis. In territorio Sitiens castri scripsimus.». (1)

ب/ الرسالة الثانية، هي رد الخان كيوك عن طريق باجو المسلّمة إلى أسكلين ليحملها إلى البابا في فرنسا :

(De literis ad imperatore ipsorum ad eundem principem missis)

Hoc autem est exemplar litterarum chaam ad Baiothnoy quasi psi Tartari vocant litteras Dei :

«Per preceptum Dei vivi, Cingischam filius Dei dulcis et venerabilis dicit quia Deus excelsus super omnia, ipse est Deus immortalis et super terram Cingischam solus dominus, Volumus istud ad audientiam omnium in omnem locum pervenire provinciis nobis obedientibus et provinciis nobis rebellantibus. Oportet igitur te, o Baiothnoy, ut excites cos et notifices eis quia hoc est mandatum Dei vivi et immortalis, Incessanter quoque innotescas eis super hoc perticionem tuam et innotescas in omni loco hoc meum mandatum ubicumque nuncius poterit devenire. Et quicumque contradixerit tibi venabitur et terra ipsius vastabitur. Et certifico te quod quicumque non audierit hoc meum mandatum erit surdus, et quicumque vederit hoc meum mandatum et non fecerit erit cecus, et quicumque fecerit secundum istud meum judicium, cognoscens pacem et non faciens eam erit claudus. Hec mea ordinacio perventiat ad noticiam cujuslibet ignorantis et scientis. Quicumque ergo audierit et observare neglexerit destruetur, perdetur et morietur. Manifestes igitur istud, o Baiothnoy. Et quicumque voluerit utilitatem domus sue et prosecutum istud fuerit et voluerit nobis servire, salvabitur et honorabitur. Et quicumque audire istud contradixerit, secundum voluntatem tuam faciens, eoc corripere studeas.».(1)

---

(1) أنظر : **Simon de Saint Quentin ,Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965, pp.113-117; d'Ohsson(C.), Histoire Des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.II, pp.229-231,( 231-233) note 1 ;**
للشرح أنظر : **Pelliot(Paul), "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, 1924, T. XXIV, pp. 314-327.**

## 10/ مظمون ما ورد في رسالة البابا أوربان الرابع إلى هولاكو:

**أ - كما وردت عند دوهسن d'Ohsson(C.)**

«O quelle joie, continue le pontife, se rèpand dans notre ame, quand nous considérons combien votre présence serait agréable à votre createur et rèdempteur, qui se livra, pour le salut du genre humain, au supplice de la croix, si vous vous prèsentiez devant lui, au terrible jour du jugement, avec la marque de batême et les autres insignes de christianisme, non-seulement vous, mais aussi vos sujets, qui suivraient sans doute, votre exemple; ce qui ajouterait à vos mérites, et augmenterait votre récompence éternelle. Environné de cette multitude, arraché au gosier de l'ennemi, comme vous attendriez avec bien plus de sécurité ce jugement si terrible ! Considerez, ô mon fils ! considerez combien est passagére l'existence dans ce monde; avec quelle vitesse, avec quelle facilité se dissout le corpt humain; et si vous avez pris une semblable résolution, exécutez la le plus promptement possible. Voyez quel accroissement recevrait votre puissance, pour subjuguer les Etats sarazins, si le bras de la milice Chrétiennevous assistait ouvertement et fortement, comme il le peut avec la grâce de Dieu; si, soutenu par la puissance divine, sous le bouclier de la chrétienté, vous étiez fortifié par l'aide des Chrétiens. Certes, en dirigeant vos actions selon les enseignements de la foi catholique, vous affermiriez votre puissance temporelle et vous parviendriez indubitablement à la gloire éternelle. Au reste, comme le susdit Jean ne vous a pas produit des preuves suffisantes de votre résolution, nous adressons nos lettres à notre vénérable frère, le patriarche de Jérusalem, en l'invitant de s'informer des intentions de votre Sérénité à cet égard, et de nous écrire ce qu'il en aura appris;c'est pourquoi, nous vous prions de confier à ce patriarche le secret de votre volenté, afin que recevant de lui certitude de ce qui nous a été annoncé, nous avisions, avec la promptitude convenable, à tout ce qui pourra être utile.».(1)

**ب - كما وردت عند هوورث Howorth(Sir Henry Hayle)**

«O what Joy, fills our heart when we consider how your presence will delight your Maker and Redeemer, who gave Himself up for the salvation of manking to the punishmen of the Cross, if you present your Self on the day of judjument with the mark of baptism and the other emblems of Christianity, not only you, but all your subject, who will no doubt follow your exemple, a fact which will increase your merit and your eternal recompense. Surrounded by this crowd, rescued from the very throat of the enemy, whith what safety will you await this terrible judjument. Consider, my son, consider how transitory is this life - how quickly and easily the body decays. If you have any such intention, therefore, it would be well to lose no time. See how it would enlarge your power in your contests with the Saracens if the Christian soldiery were to assist your openly and strongly, as it could, with the grace of God. You would thus increase your temporal power, and inevitably also secure eternal glory. For the rest, as the aforesaid John has not produced clear proofs of his commission, we have addressed our letters to our venerable brother, the Patriarch of Jerusalem, telling him to inform himself of your Serenity's Intentions, and them to write to us. This is why we request you to confide your wishes to the patriarch, so that we may make all the necessary arrangements.».(2)

---

**(1) أنظر: d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey : ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.III, pp. 410-412.**

**(2) أنظر: Howorth(Sir Henry Hayle), History of the Mongols from the 9th to the 19th centry, : Longmans Green and Co., London, 1880, Part III, p. 210.**

## 11/ مظمون ما ورد في رسالة الإيلخان هولاكو إلى لويس التاسع ملك فرنسا وملوك أوربا :

« Multifarie multisque modis olim deus loquens patribus in profetis nouissime Diebus istis locutus est auo nostro Chingischan per temptemgri (nomen quod interpretatur propheta dei) eiusdem cognatum futuros euentus miraculose temporum reuelans eidem per dictum Teptemgri nunciando significans : In excelsis ego sum deus omnipotens solus et te super gentes et regna constitui dominatorem et regem fieri tocius orbis, ut euellas et destruas, dissipes et disperdas, edifices et plantes. Annuncio igitur tibi ut mandatum meum cunctis generationibus et linguis et tribubus orientalibus, meridionalibus, septentrionalibus, occidentalibus notifices nunciesque singulis totius orbis partibus in quibus inperatores inperant uel reges regnant, presides presunt, dominia exercentur ubicumque equorum plante poterunt calcare, naues nauigare, nuncii peruenire, litere audiri, ut habentes aures audiant, audientes intellegant, intellegentes credant. Quicumque uero non crediderint in posterum considerent qualiter de meis mandatis increduli premantur.

Nos igitur per uirtutem Mengutengri (id est dei uiui) Huyleu cham, dux milicie Mungalorum, perfidarum gencium Sarracenorum cupidus deuastator, christiane fidei benignus sublimator, inimicancium strenuus expugnator, amicantium utique pius amator illustri regi Francorum Ludwico nec non principibus, ducibus, comitibus, baronibus, militibus ac ceteris, uniuersis et singulis tocius regni francie Barachmar (id est salutem). Nunciando predictam reuelationem notificamus ut nobis mandatum dei uiui exegentibus eo indubitancius acquiescere uelitis quo potestatem nostram ab ipso Mengutengri (id est deo uiuo) collatam diligencius consideretis. Sed ne frustra uobis forsan modo huiuscemodi scripsisse propalemur, que nostris temporibus nuper incredulis mandatis nostris – immo pocius dei uiui – contrariantibus contigerunt, pauca de multis compendiose dilucidamus.

Placuit enim maiestati nostre in exordium mandatum diuinum regibus ac principibus orientalibus denunciare, uidelicet regi Castinnorum, regi Naymanorum, regi Merchitorum, regi Chyrkizorum, regi Nangyazorum, regi Kytayorum, regi Tangutorum, regi ciuitates Teubetorum, regi Tubetorum, regi Wigucorum, regi Kamulorum, regi Uilperitorum, duci Chorasininorum, soldano Persicorum, ducibus Cumanorum nec non regibus et soldanis, principibus ac ducibus plage meridionalis, scilicet Yndis ac circumadiacentibus regionibus dominantibus, ceteris nec non et aliis dictorum respectu innumeris quorum nomina specificare literis fastidium generaret, qui ordinationi diuine contrarii dominationi nostre a deo nobis collate fastuose renitentes, in superbis fortitudinibus suis confisi contra nos acies suas preliando dirigere minime uerebantur. Quorum innumerabiles ut breuiter transeamus nece pestifera fecimus interire, eorumque regna, possessiones, ciuitates, castra, potenter inuasimus uniuersa et singula pro libito deuastando; quorum tamen aliqui maiorum gratia fulciti amicabiliter excellencie nostre adherentes salui cum uniuersis sibi spectantibus gratulationibus pocioribus potiti indubitanter permanserunt.

Annis autem aliquibus interiectif, dei uiui uirtute preuia, uersus orientalem plagam propositum dirigentes in primis soldano Hassasinorum, percussori scilicet curtorum, ut pretactis consideratis ditioni nostre festinancius subderetur significauimus. Qui, castrorum suorum sitibus in sublimium moncium cacuminibus applaudens, exercitum et sibi sufficientem habere credens, contra nos studuit temerarie preliari, cuius nomen Urcnedyn, cum totali generatione sua de terra deleuimus, nec non castra sua fortissima, castrum scilicet Baymundeu, castrum Alamunt et omnia et alia castra fere c.1 usque ad fundamenta prostrauimus. Quibus peractis, curtorum regibus ac principibus mandatum supra dictum destinauimus, quorum reges xiiii ac principes significatis a nobis inobedientes cum suis omnibus modo supradicto fecimus trucidari. Hiis uero completis, aliquanto temporis interuallo, placuit nobis Caliphe Baldachie uelut supra nominatis mandatum pristinum dirigere. Qui utique de genere Machometi nefandissimi pseudoprophete

Sarracenorum papam mundi caput se ipsum fuisse ridiculose gloriando creatorem omnipotentem pro dicto Machmeto et ejus genere tantum, celum et terram et cuncta in eis contenta creasse firmissime asserere nullatenus hesitauit. Unde de sublimitate sura magnifica et gazis innumeris, castris innumeris, exercituum multitudinibus ingentissime confisus, contra nos elegit pocius preliari quam mandato nostro benigne parere. Quem omnipotentis dei uirtute ut ceteros rebelles palam dimicando deuicimus et de suis computando duo millia milium pugnatorum necauimus, exeptis aliis quorum innumerabilis erat multitudo. Patriarcham quidem Nestorianorum in dicta ciuitate Baldacense commorantem cum suis episcopis, monachis, prespiteris, clericis et christianis uniuersis eosdem singillatim a Sarracenis segregando et eisdem bona maiora conferendo, in suis bonis quiete et salue iussimus residere.

Ista igitur perpendens soldanus Halapie et Damasci terrore concussus filium suum uolendo obedire nobis transmisit, cuius obedientia placente baiolos per terrarum suarum [?] f et priuilegia cum tabula aurea, que signum est plenioris honoris, eidem remisimus. Qui tamen post pauca instinctu fortune temptatus, sibi contrarius a sponsione sua resiliens, nobis contrarius est effectus. Quare ipso fugiente terras suas et castra potenter inuadendo, ciuitates Halapie et Damasci, Haman et Haniz, Baaldech, Aran et Baya destruximus ipsiusque fugientis apprehensi caput in exemplum fraudulentorum super portam ciuitatis Theuris iussimus suspendi.

Sclauos proculdubio latinos quos per Iohannem Ungarum pro sancta ciuitate Ierusalem, causa deuocionis contra infideles intelleximus uenisse, per eundem fecimus restitui pristine libertati, quod non credimus dominationem uestram latere. Ceterum noueritis excellentiam nostram non ignorare quod, licet quamplures fuerint reges christianorum occidentalium, uos tamen pre ceteris coruscationis industrie prerogatiua floruistis, eo quod, omnium qui christiano nomine censentur saluti diligencius inuigilantes, in signum amicitie specialioris ad honorem omnipotentis dei uiui, licet uobis nondum nuntios nostros destinaueramus, per fideles nuntios uestros predecessori nostro Crinizcham in refocilationem specialem capellam uestram, diuino monimi dedicatam, mittere curauistis. Quod si ex tunc nondum, ut diximus, quibuscumque a nobis significatis talibus inuigilastis, multo magis de cetero, cum non tantum litteris sed et fidelibus nuntiis nostris maiestatem uestram uisitare curauimus, amicitiam pretactam non discredimus uos uelle nobiscum renouando uinculo forciori innouare. Insuper dominationi uestre amicabiliter uolumus denudare nos primis summum pontificem papam Francorum regem uel imperatorem fuisse credidisse, sed postea dirigentiori inquisitione habita, intelleximus ipsum esse uirum sanctum deum iugiter orantem pro nationibus uniuersis ipsius Misicatengrin (id est filii dei uiui) locum in terris tenentem et caput omnium in Christo credentium et precantium. Quibus intellectis ei restitui iussimus sanctam ciuitatem Iherusalem a profanis iamdudum detentam, cum ceteris tocius regni pertinentiis,fidelem nostrum deuotum Iohannem predicum fidei christiane cultorem, quod proculdubio credimus auribus uestris aliquociens insonuisse.

Quia tamen nostri moris est caumatibus estiuis locis frigidis mantanis niueis lebencius adherere, supra dictis Halapensibus et Damaszenis deuastatis nec non uictualibus et herbariis pro maiore parte consumptis, placuit nobis uersus montana maioris Armenie paulisper redire, in dictis quidem locis paucos de nostris pro quorumdam residuorum castrorum Hassassenorum destructione dimittendo, quibus furtiue insidiantes eorum paucitatem considerantes canini mures Babilonici de cauernis suis egressi eosdem inuaserunt. Quidam uero meritis suis exigentibus precepta nostra preuaricando Francorum possessiones inuadendo a dictis muribus sunt corrosi. Quorum preuaricatorum uindicta licet non multum nobis displicuerit nec etiam nocumentum aliquod intulerit, intentionis tamen nostre est contra dictos canini generis infideles Babilonicos propositum nostrum funditus sicut et contra ceteros rebelles in breui conplere. Quia tamen per terram expugnati ad aquas marinas, prout accepimus, possunt habere refugium, potentiam uestram excitare curauimus quod uos qui ex parte opposita super ripas maris dominamini, per uestros caucionem diligentiam cum uasis armatis in mari adhibentes dictorum canum infidelium, inimicorum uestrorum pariter et nostrorum, refugium predictum

curetis inpedire, ne causa defectus muniminis marini de manibus nostris ullatenus queant euadere.

Manguttengri (id est in uiuo deo) eternaliter sine fine ualete. Uoluntate uestram super his et aliis, si placet, per nuncios uestros speciales una cum nostris matura festinatione nobis significate.».

Datum in ciuitate Maraga anno decimo, [anno] Nochoe, die decimal mensis Aprilis.
[Anno domini millesimo ccc.xliiii vi Kln Maii Nycolaus] (1)

---

**(1) أنظر: Paul Meyvaert, An unknown Letter of Hulagu, IL-khan, of Persia to king Louis IX of France, Viator, XI, 1980, pp. 252-259.**

**12/ مظمون ما ورد في التقرير الذي قرأه سفير ابغا خان أمام مجمع ليون الثاني (المجمع المسكوني الرابع عشرسنة 1274م) باللغة اللاتينيّة :**

( **1**,1)Nortum sit sanctissimo parti summo pontifici ac venerabilibus patribus dominis cardinalibus cunctisque prelatis sacrosancte ecclesie romane subiectis nec non et regibus ac dominis sancte christianitatis vniuersis, quod predecessores potentissimi regi Abaga gentis Mogalorum, quos vocatis Tartaros, per virtutem Dei viui et potenciam suam cunctas terras orientales dominio suo subiugauerunt, et omnia regna septemtrionalia et meridionalia sub tributo suo in exordio redegerunt usque ad magnum fluuium Gyon.

(**2**,1) Quorum quidam strenuissimus princeps ac potentissimus nomine Helau, pater videlicet serenissimi ac magnifici supranominati regis Abaga, cuius nuncii sumus, predictum fluuium transiens omnia regna Persarum per fortitudinem suam abstulit a Saracenis, et tandem perueniens vsque ad famosissimam ciuitatem Baldak per obsidionem et pugnam ipsam potentissime cepit et calipham, summum dominum Saracenorum, cuius sedes et residencia erat ibidem, gladio necauit nec non et infinitam multitudinem predicte gentis maledicte. Deinde procedens omnes Saracenos destruxit usque fluuium Tygrim. Et cum pertranssisset hoc flumen, Caldeam sibi subiugauit et regionem quondam Medorum usque magnum fluuium Eufraten.

Rigiones eciam omnes, que continentur in Turquia, redegit sub tributo a montibus Capsiis usque mare maius, et sic peruenerunt exercitus sui usque mare mediterraneum, ubi jacent iste prouuincie : Frygia, Pamfilia, Capadocia et Cylicia. Supradictis igitur regionibus sibisubiugatis transiuit supranominatum fluuium Eufraten et fugans soldanum Halapye et Damasci, qui tunc potentissimus habebatur, famosam ciuitatem Halapie cum castro eiusdem fortissimo potenter cepit et subditus ditruit ac destruxit. Damascus autem reddidit se, et pertransierunt exercitus sui totum regnum Ierusalem usque ultra petram deserti, que est in introitu solitudinis, per quam transierunt filii Israel.

(**3**,1) Cum igitur peruenissent nuncii legati summi pontificis, qui tunc in Acon prefuit et omnibus christianis Latinis et aliis in oriente, ad predictum serenissimum regem Helau, venerabiles videlicet patres fratres de ordine Predicatorum, quorum vnus erat frater Dauid, nuncius domini patriarche Ierusalem et domini regis regni eiusdem et Cypri, qui nos usque ad presens sacrum concilium incolumes laudabiliter conduxit, multa exposuerunt sibi de fide catholica et de sanctitate nec non et de excellencia sedis apostolice et potencia regum Latinorum, qui censentur nomine Francorum. Quibus allectus et diuinitus inspiratus pacem concessit omnibus christianis et omnes uiros ecclesiasticos in omnibus supranominatis regnis et prouinciis a tributo et vectigalibus liberos esse concessit,libertatem ecclesiis ubique concedendo. Tandem uolens concordiam cum Latinis et confederacionem contrahere specialem, omnes ciuitates eorum et castra, terras et possessiones quiescere precepit et ne lederentur a suis districtissime prohibuit et ordinauit. Insuper ciuitatem sanctissimam Ierusalem cum toto regno eiusdem contulit et in possessionem poni fecit, sicut nouerunt omnes christiani ultra mare et religiosus frater Dauid, qui omnia istorum vna cum aliis fratribus sui ordinis studiosius procurauit. Multa eciam secreta cordis sui isti fratri et socio suo familiarissime manifestauit, que nunquam aliis dixit, de conuersione sua videlicet ad fidem et recipiendo baptisimo.

Que omnia perfecisset, nisi peccatis nostris exigentibus ipsum Deus de medio tolli permisisset.

(**4**,1) Mortuo igitur tam excellentissimo principe et christianis tam fauorabili et deuoto, Vna cum exellentissima domina principali sua regina christianissima, videlicet filia potentissimi regis Indie Iohannis, successit in regno et dominio suo toto et vniuersali dominus noster serenissimus rex Abagachan, qui uestigia perpetue memorie patris sui – nominati nunc apud

Mongolos Seynegen, quod interpretatur sui ipsius possessor – sequens, omnes gracias, quas pius genitor suus christianis concesserat, confirmauit et in multis locis ampliauit. Quanta igitur beniuolencia prosequitur christianos et qualiter nuncios domini pape et regum ac dominorum christianorum ad eundem accedencium (accipit), nouerunt illi, qui suam iocundam erga eos faciem personaliter uisitauerunt. Non est eciam omittendum, quomodo pater suus et ipse, ubicumque captiuos sclauos vinctos ferro inuenirent, pristine reddebant libertati et de conductu securo usque ad mar mediterraneum prouidebant. Que omnia nouit religiosus frater Dauid de ordine fratrum Predicatorum, qui nobiscum presens est, qui bellis eorum frequenter interfuit et capcionibus multarum ciuitatum et castrorum.

(**5**,1) Misit eciam dominus rex Helau, nunc dictus Seynegen, nuncios suos sollempnissiomos ad dominum papam bone memorie Vrbanum et ad omnes reges et principles citra mare pro perpetua confederacione procuranda, quorum minimus eram ego Ricardus notarius dicti domini regis et principis ac interpres Latinorum, qui omnes impediti fuimus a domino Maymfredo, Frederici imperatoris filio, de progressu et per uiolenciam ultra mare remissi.

(**6**,1) Notum igitur facimus omnibus qui sub sol sunt, quod potentissimus rex noster Abagachan, confederacionem habere uolens et pacem firmam cum omnibus christianis sacrosancte ecclesie romane subiectis, nos nuncios suos sollempnes ad presenciam sancte sedis apostolice et presens concilium sanctissimum placuit destinare,prout in litteris Mogalicis et Latinis signis suis munitis, quas sanctissimo parti summo pontifici in presencia venerabilium dominorum cardinalium ac ceterorum prelatorum ibidem assistencium presentauimus, continetur. Ne tamen mirentur patres ac domini quibusdirigimur, quare tante potencie rex noster affectionem et zelum iam dudum erga christianos exercens contra infideles Babilionicos inimicos fidei christiane non processerit, questionibus talibus satisfacere volentes taliter respondemus.

(**7**,1) Debitum humane condicioni persoluente inclite memorie genitore ipsius supranominato, contra eundem inimici fortissimi in giro insurrexerunt, quorum quilibert maiori potencia in triplo quam soldanus Babilonie et Egipti fulciebatur. Ipse uero Dei uiui virtute preuia contra predictos singillatim ac diuersis temporibus procedens, eos dimicando deuicit, quorum quidam potestatem ipsius perpendentes pace firmissima eidem sunt confederati. Hiis autem peractis, cum anno pretorito contra predictos infideles Babilonicos procedure decreuisset exercitusque suos pro dicto processu congregasset, nuncio filiorum regum ad succursum suum accedencium precencie sue affluerunt, quibus intendens interim inmediate de presenti concilio sacrosanct celebrando a fidelibus Latinis ad eum accedentibus intelligens miro modo congratulabatur, propter quod, prout superius tactum est, ad sanctissimam presentem congregationem destinamur, prout manifeste litterie patentibus continetur. (1)

---

**(1) أنظر: Roberg(Burkhard), "Die Tartaren auf dem 2 Konzil von Lyon 1274", Annuarium Historiae Conciliorum, V, 1973, Helft 2, pp. 298-301.**
**وانظر أيضا :هلال :العلاقات بين المغول وأوربا، ص276- 282.**

## 13/ مظمون ما ورد في التقرير الذي قرأه سفير أبقا خان أمام مجمع ليون الثاني (المجمع المسكوني الرابع عشر، 1274م)، مترجم إلى اللغة العربية :

" ليعلم أقدس الآباء رئيس القساوسة الأعلى، (وليعلم) الآباء الأفاضل السادة الكرادلة وجميع السادة الأحبار الكثيرون القائمون على خدمة كنيسة روما المقدسة، وليعلم جميع ملوك المسيحية وأمراؤها : أنّ أسلاف الملك المعظم أبقا من شعب المغول الذين تسمونهم بالتتر، هؤلاء هم الذين أخضعوا، بعون الإله الحي، وبقوتهم كثيرا من بلدان الشرق وسيطروا ببطشهم على جميع ممالك الشمال وممالك الجنوب من البداية حتى نهر جيحون.

(ونود أن نبلغكم) بأنّ والد الملك المعظم أبقا المذكور آنفا هو واحد منكم، ووالده هو الأمير الهمام الشريف هولاكو، أمّا نحن : فمبعوثوا الملك أبقا.

(والملك هولاكو) هو الذي عبر النهر المذكور بعاليه، وأخذ بشجاعته جميع ممالك فارس من أيدي المسلمين، وتمكن أخيراً من التقدم حتى وصل إلى مدينة بغداد العظيمة واحتلها بعد حصار وقتال، وقتل الخليفة : الذي هو أكبر أمراء المسلمين، وكان قصره يحميه السيف ويدافع عنه قوة حرس كبيرة من المسلمين المذكورين وشعبهم الملعون، ثم استمر الملك بالتقدم وقتل المسلمين حتى وصل إلى نهر(بيرز؟) وبعد أن عبر هذا النهر استسلمت له خالدة ؟

وخضعت له منطقة المدر؟ التي تمتد حتى نهر الفرات العظيم، ثم أخضع بقوته جميع المناطق التي تقع في تركيا (أي سلاجقة الروم) وذلك من جبال الخزر (قزوين) حتى البحر، وهكذا استطاعت جيوشه في التقدم حتى البحر المتوسط حيث تقع المناطق التالية: فريجيا، بامفيلين، كابادوكيا، وكاليتانيا، وبعد أن سيطر على هذه المناطق عبر نهر الفرات وطارد وأجلى سلطان حلب ودمشق (الناصر يوسف): ذلك السلطان الذي كان يعد من أعظم السلاطين، ثم احتل مدينة حلب وحطم حصونها القوية تحطيما كليا، وبعد ذلك استسلمت له مدينة دمشق، وسارت جيوشه مخترقة مملكة القدس حتى وصلت إلى جبال الصحراء التي وطئتها أقدام بنى إسرائيل.

وبعد أن جاء مبعوثوا البطريق الذي كان سابقا في عكا، والذي كان على رأس جميع المسيحيين اللاتين والمسيحيين الآخريين في الشرق، وأعني بذلك الأب المقدس وهو (كما نعلم) كان أحد الرهبان الوعاظ الدومنيكان(1)، (بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون) إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثوه كثيرا عن عقيدة الدين المسيحي الكاثوليكي، وعن قداسة الكرسي الرسولي، وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج.

وكان أحد هؤلاء المبعوثون هو الراهب ديفيد (الأشبي) مبعوث بطريق مدينة القدس، وممثل ملك مملكة القدس وقبرص والذي رافقنا حتى مقر المجمع إلى هنا وحافظ بصورة تستحق المدح والثناء على سلامتنا.

وكان هولاكو (في الحقيقة) واحدا منهم (من المسيحيين) وهو الذي ضمن، وبوحي من الإله، للمسيحيين جميعا العيش في سلام، وأمر بإعفاء كل رجال الكنائس، وفي جميع المناطق المذكورة أنفا، من الضريبة والإتاوة، كما ضمن لجميع الكنائس حريتها في كل مكان.

وبقصد الوفاق مع اللاتين وبهدف الوصول إلى عقد تحالف معهم، أمر هولاكو أن تتمتع جميع مدن المسيحيين وحصونهم وأراضيهم وممتلكاتهم بالطمانينة وبالسلام، ومنع رجاله منعا باتا من أن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين وأصدر أوامره السلطانية بذلك. كما أنه استطاع توحيد مدينة بيت المقدس المقدسة مع مملكتها وجعلها تحت إمرته كما يعرف ذلك جميع المسيحيين في أقطار ما وراء البحار(2). وكما يشهد على ذلك الراهب التقي ديفيد (الأشبي).

وقد ساعد الراهب ديفيد في جميع القضايا، التي ذكرناها، بالاشتراك مع إخوانه الرهبان التابعين لنفس الكنيسة والذين كانوا معه. وكان (الملك المغولي) هولاكو يبيح بأسراره إلى هذا الراهب (ديفيد) وكأنه صديقه الحميم، ولم يكن يبيح بمثل ذلك لأي إنسان آخر، مثل اعتناقه للدين المسيحي، وحصوله على التعميد، كل ذلك حقيقة ولكن مشيئة الإله طالبتنا أن ندفع ثمن خطايانا فاختطفت يد المنون (هذا الملك) من بيتنا.

وبعد أن توفى هذا الملك الجليل (أي هولاكو) الذي كان عادلا مع المسيحيين ومنصفا لهم، وكذلك كانت عقيلته الأميرة (دوقوز خاتون) الملكة المسيحية، لأنها كانت بنت ملك الهند العظيم (الكاهن) يوحنا، (أقول بعد وفاة الملك) خلفه في جميع مملكته وفي جميع شؤون دولته سيدنا الملك المعظم الشريف (أبقا) الذي سار على خطى والده المذكور آنفا ولا يحيد عن طريقه ولا عن فكره، وهو الآن يعرف عند المغول بـ "سنجنيين؟" بمعنى صاحب الذات، وهو بدوره يؤيد جميع الامتيازات التي منحها

---

(1) إشارة إلى البابا أوربان الرابع (1261-1264م) الذي كان بطريقا لبيت المقدس (في عكا) إبان وجود قوات المغول في الشام (1259- 1260م) وهو الذي أوفد ديفيد الأشبي إلى هولاكو للتفاهم معه.

(2) لم يحدث أن استولت قوات هولاكو على المدينة المقدسة أو قامت بتوحيدها مع مملكتها الصليبيّة.

والده لصالح المسيحيين، كما أنه أصدر أوامره بزيادة بعض هذه الامتيازات.لقد كانت مساعدة هذا الملك لأولئك المسيحيين كبيرة جدا، ويشهد على ذلك مبعوثوا البابا ومبعوثوا ملوك المسيحيين (أي الأوروبيين) الذين حظوا بلقائه وتمتعوا بلطفه ومودته.

وما أشبه هذا الملك بوالده، فكلاهما رحيم، فقد وجد أسرى مكبلين بالحديد والأطواق فأمر بإطلاق سراحهم قبل المدة المعينة، ومنح إياهم الحرية وأمر بإيصالهم بسلام إلى البحر المتوسط، ويشهد على ما مر ذكره الراهب التقي ديفيد التابع للكنيسة الدومنيكية والذي يعيش الأن معنا. وقد شهد (هذا الراهب) بنفسه كثيرا من المعارك، كما شهد حصار كثير من المدن.

والملك هيلي (أي هولاكو) هو الذي بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا، قدس الله سره، كما بعث بهم إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم وأقل واحد من بين هؤلاء السفراء هو أنا... ريخالدوس : كاتب العدل عند الملك المعظم، والمترجم الخاص للغة اللاتينية (له)، وقد اعترض طريقنا نحن المبعثوين السيد مانفريد (ملك صقلية) وهوابن الامبراطور السابق فريدرك (الثاني) ومنع مواصلتنا للسفر وأجبرنا بالقوة على الرجوع.

ولهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين لكنيسة روما المقدسة.

وقد قرر إرسالنا، نحن المبعوثين الدائمين، إلى قداسة البابا وإلى المجمع المقدس الحالي لإبلاغهم (قرار الملك هذا) كما يؤيد ذلك ختم الملك على الرسائل (المكتوبة باللغة) المغولية واللاتينية، وقد عرضنا (هذه الرسائل) على الأب المقدس وعلى الأمراء (العلمانيين) بحضور السادة المحترمين الكرادلة والسادة الأحبار الأخرين.

ولربما يتعجب الآباء والسادة الحاضرون من شأن ملكنا وذلك أنه مع عظمته هذه يظهر الآن رغبته وحبه للمسيحيين (ولربما يتساءلون) لماذا لم يتحرك ضد البابلين (المصريين) أعداء العقيدة المسيحية حتى الآن؟ وللإجابة على مثل هذه الأسئلة نقول أنه بعد وفاة والد (ملكنا) المحمود السيرة، كما تقضي الطبيعة البشرية بذلك، أحاط بوجه ملكنا أشجع أعدائه الثائرين، فكان كل واحد من هؤلاء الأعداء معززا بثلاثة أمثال القوة المعزز بها سلطان بابل (أي ملك مصر)، فتقدم ملكنا معززا بروح الإله الحي تجاه هؤلاء الأعداء المذكورين واحدا فواحدا وفي أوقات مختلفة، وانتصر عليهم في القتال انتصارا حاسما(3). وقد أبدى قسم منهم حكمة وخضعوا لطاعته، وعقدوا صلحا وسلاما دائمين معه. وبعد أن قضى (أبقا) على هذه المشاكل في السنة الماضية، قرر أن يتقدم تجاه البابليين الكافرين المذكورين أنفا، فجمع جيوشه، فإذا برسل أولاد الملوك يتقاطرون عليه ليقدموا له العون في ظروفه الآتية.

وبينما كان (الملك أبقا) يتدبر هذه الأمور نما إلى علمه في هذه الأثناء معلومات مباشرة فحواها أن المؤمنين اللاتين بصدد عقد المجمع المقدس الحالي، مما دعاه إلى إرسال تهانيه إلى حبرنا الأعظم (البابا جرريجوري العاشر)، وقد عيننا الملك (أبقا) لهذا السبب ممثلين عنه لحضور الاجتماع المقدس الحالي وكما يؤيد ذلك بوضوح مضمون الرسالة المفتوحة".(4)

---

(3) ربما كانت الإشارة عن انشغال قوات أبقا في مواجهة أعدائه (مغول روسيا ومغول التركستان) في محاولة من سفير الخان المغولي تفسير عدم اشتراك قوات سيده مع قوات حملة إدوارد ضد المماليك.

**(4) أنظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 277- 282.**

## 14/ مظمون ما ورد في رسالة البابا كليمنت الرابع، الأولى، إلى أبقا خان عام 666هـ/1267م ردا على رسالة هذا الأخير:

«Vous vous réjouissez, assurez vous, de la victoire que nous avons remportée dans le royaume de Sicile, dont l'usurpateur téméraire, Manfred, fils naturel de Frédéric ex-empereur romain, tomba sur le champ de bataille, avec une multitude de perfides Chrétiens et Sarasins, privé de la vie, en même temps que du trône, par la main puissante de notre trés-cher fils en J.C., Charles, auquel nous avions accordé ce royaume. Voici que les rois de France et de Navarre, suivis d'un grand nombre de contes et de barons, d'une multitude de soldats et d'autres individus, prenant à cœur l'affaire de la lettre-Sainte, décorées du signe de la croix, se préparent à attaquer vaillament et puissament les ennemis de la foi. Déjà, dans d'autres contrées, beaucoup de seigneurs et d'hommes de la classe commune, sont animés par cet exemple, à exalter de tout leur pouvoir le nom du Christ, à détruire la puissance, et jusqu'à la secte, jusqu'au nom des Sarasins. Vous nous aviez l'intention de vous joindre à votre beau-pére pour assister les Latins; nous vous en rendons d'abondantes actions de grâce; mais nous ne pouvons pas vous faire savoir, avant de nous en être enquis auprés des souverains, quelle route les nôtres se proposent de suivre. Nous leur communiquerons votre conseil et celui de votre beau-pére, afin qu'ils puissent éclairer leurs délivrations et nous instruisons votre Magnificence, par un messager sûr, de ce qui aura été resolu. Perséverez donc, grand prince, dans votre dessein salutaire; car vous devez espérer en Dieu, que si vous le servez bien, il affermira votre trône et le rehaussera. A lui est la puissance; à lui la domination; il tient dans sa main les cœurs des rois, humilié qui il veut, éléve qui il veut, et régit à son gré l'univers; nul ne peut resister à sa volonté. ».(1)

---

**(1) أنظر: d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.III, pp. 540-542.**

## 15/ مظمون ما ورد في رسالة الأمير المغولي القفجاقي بيسو نوغاي سنة 669هـ/1271م إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، ورد السلطان عليها :

"صدر هذا الكتاب من بيسو نوغا إلى الملك الظاهر. أحمد الله تعالى على أن جعلني من جملة المسلمين، وصيّرني ممن يتبع الدين المستبين وأصلي على مختّم الرسالة، ومعلم الدلالة، إمام المرسلين، وقوام المتقين، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى إخوانه النبيين، وأصحابه المحبين، أرباب الحق، وأصحاب التمكين.

وبعد : فإنّ كتابنا هذا محتمل على معنيين، أحدهما : التحية والسلام، منا إليك، والثاني أنّا سمعنا من أربوغا أنّه لصدق عهده مع أبينا بركة خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومن أسلم منهم، فلمّا خَبَّر هذا الخبر أخلصنا المحبة للملك الظاهر، الوفي بالعهود، وقلنا ما استخباره عنا إلاّ لحميّته في الاسلام، وصدق نيّته في تجديد العهود.

وكتبنا هذا الكتاب على يد أريتموا وتوق بوغا، معلماً أنا دخلنا في الاسلام، وآمنا بالله، وبما جاء من عند الله، وبرسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، فيثق بما قلناه، وأنا نستن بسنّة أبينا بركة خان، ونتّبع الحق، ونجتنب البطلان، فلا تقطع إرسال المكاتبة عنا، فنحن معك بالأنامل لليد، نوافق من يوافقك، ونخالف من يخالفك ".

فكتب جوابه عن السلطان. ونسخته :

"صدرت هذه المكاتبة إلى سامي مجلس العزيز الأصيل المجاهد في سبيل ربه، المستضيئ بنور قلبه، ذخيرة المسلمين، وعون المؤمنين : بيسو نوغا عمّر الله قلبه بالإيمان، وجعله في أمر دنياه وأخراه في أمان، وعامله بما عامل به التابعين بإحسان.

نُعلم بورود كتاب منه سر السمع والقلب، وحكم للتوفيق بالغلب، ووجدناه مقصورا على أفهام ما هو عليه من صحة الاعتقاد، والاقتفاء لأثر الملك بركة خان، في اجتهاج في الدين وجهاد، وهنا كان عندنا منه أمر لا يترك مثله ولا يلغى، وقد تلونا قوله تعالى : (ذلك ما كنا نبغ). وحمدنا الله تعالى على أن كثر به حزب المؤمنين، وجعله في ذلك متبتلا لقتال الكافرين. وقد علم أنّ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- جاهد عشيرته الاقربين، وأنكر على من رضي أن يكون مع القاعدين، والقصد التذكار بذلك، وإبلاغ التحية لمن في الجانب المحروس، ممن نور الله بصيرته حتى اهتدى للحق، واقتدى بالملك بركة خان –رضي الله عنه- في جهاده، وداوم على الجهاد، الذي كتب الله لنا أجره في الغرب، ولم أجره في الشرق، حتى تنكسر شوكة الكفار، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار، ويخذل أنصار المشركين (وما للظالمين من انصار)".(1)

---

**(1) أنظر: ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1396هـ/1976م، ص371- 373.**

## 16/ مظمون ما ورد في رسالة إدوارد الأوّل إلى أبقا خان 26 جانفي 1274م :

«Le religieux frére David, de l'ordredes précheurs, chapelain et familier du frére Thomas, patriarche de Jerusalem, légat du siége apostolique, est arrivé à votre cour, et nous a présenté les lettres que vous avez adressées par vos envoyés, au trés-saint pére et aux autres rois chrétiens.

Nous y avons vu l'affection que vous portez à la religion chrétienne, et la résolution que vous avez prise de préter secours aux Chrétiens de la terre-Sainte contre les ennemis du christianisme, ce qui nous a été très agréable et nous vous en rendons grâce.

Nous prions votre Magnificence de vouloir exécuter ce saint projer.

Mais nous ne pouvons à cette heure vous rien mander de certain sur l'époque de notre arrivée dans la terre-Sainte et du passage des Chretiens, parce que, au moment où nous écrivons les présentes, il n'a encore été rien ordonné par le souverain pontife, relativement à l'époque dudit passage, mais, dés que nous pourrons savoire la dessous quelques chose de positif, ce qui aura lieu prochainement, nous aurons soin d'en instruire votre Excelence.

Nous recommandons à votre Puissance ladite affaire de la Terre-Sainte et de tous les chrétiens d'Orient. ». (1)

---

**(1) أنظر: d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.III, pp. 543-544.**

## 17/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الثالث (1277-1280م) المؤرّخة في 1 أفريل 1278م إلى أبقا خان ويحملها كل من Gerhard de Prato, Antoine de Parme, Jean de Ste Agathe, André de Florence, Mathieu d'Aretio.

«L'Eglise romaine éprouve une grande joie de la teneure des lettres apportées à notre prédécesseur par Jean et Jacque, fils du Vassal, vos envoyer.

Elles disent que si une armée chrétienne débarque en Terre-Sainte, vous promettez de pourvoir à ses besoins, et de l'assister en personne, avec toutes vos forces, contre les ennemis de la foi chretienne. Vous désirez à la fin de ces lettres, que nous ajoutions foi à tout ce que ces envoyés nous diront de votre part. Eh bien, ils nous ont rapporté une chose très agréable, c'est que vous, et votre oncle Coubilai, le grand Caan, vous souhaitez que l'Eglise romaine vous envoye quelques personnes capable de vous instruire, vous, vos fils, et vos peuples, dans la religion chretienne.

Devenus, quoique nous en soyons indigne, le Vicaire de J.-C. et de St. Pierre, nous nous empressons d'accomplire un devoire sacré, en travaillant à votre salut, ainsi qu'à celui de Caan, de vos fils et de vos peuples. C'est pourquoi nous vous envoyons les fréres … pour donner le baptéme à ceux d'entre vous qui ne l'ont pas encore reçu, ou aux-quels il n'a pas été administré selon la régle établie. Nous leur avons en outre, ordonné de se rendre, si vous le jugez convenable, auprés du Caan, pour le même objet. ».(1)

---

**(1) أنظر: d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.III, pp. 546-548.**

## 18/ مظمون ما ورد في رسالة أبقا خان إلى البابا نيكولا الثالث (1277-1280م) المؤرّخة في 21 نوفمبر 1279م(باللغة اللاتينية) :

"Littera tartarorum missa ad papam (nicolaum) christianorum"

«Per Virtutem dei immortali et gratiam Kam abagua. Sumo nostre pape. Anno praeterito per Iohanem archium universi reges France nuntios suos ad nos miserunt. Unde per alium et nuntii vostri non venerunt cum illis. Nunc autem ex prelatis vobiscum morantibus et ex vestris (hominis ? sis)(1) sociis qui venissent ad nos diximus : tunc, cum intellixistis litteras nostras, nobis misistis per istum episcopum et ad memoriam reduxistis quod nos multi Franci consilium fecimus et ordinavimus ut faceremus transire exercitus nostros ultra mare ad obsidendum Babillonem. Et, si nunc Kam voluerit facere gratiam, exercitus vostri erit ab ista parte et exercitus Kam erunt ab illa et obsidebimus Babillonem. Et nos faciemus navigare exercitus nostros ex una parte : tuorum quando facient velum et transibunt. Nos requiremus pro exercitibus nostris victualia. Unde vestram rememorationem et quod misistis remeomorando audivimus et acceptavimus. Qua propter, si nunc tenetis vostra verba et coadiuratis omnes et facitis transire exercitus et nunciare, faciemus eis dari victualia. In praeterito ad obsidendum Babillonem misimus exercitus. Sed vestri exercitus tardaverunt et non venerunt, propter quod nostri exercitus redierunt, sed nunc quando vestri exercitus iter arripient faciatis quod nos sciamus. Sicut pervenerint de uno loco ad alium ad hoc quod nos debeamus mitter exercitus ad obsedendum et mittamus ad preparandum victualia pro exercitibus. Et quando, per grantiam Dei, et Kam fortitudo crescet et vegeret, donabimus vobis Iehrusalin, istud dicimus. Et quod nostras terras christianorum recepimus gratiare et palvavimus plus fruit propter aviam nostram qui servavit legem et mandatam christianorum. Insuper credimus quod bene intelexistis quali terras christinorum nostras salvamus et custodimus gratiare. Et nunc quod hoc nobisad memoriam reduxistis si actenus eas gratiare recepimus et salvavimus. Deinceps gratiosius salvabimus et custodiemus ex quo avuus noster Gengis Kam acquisivit ab oriente usque ad occidentem et in quo noster Kam indiger robis christiaxis, nisi ponere terras fideles in pace et horationem et benedictionem vestram habere, hoc est sibi neccessarium. Litteram nostram in anno leporis XV primi mensis vemis apud sarah, quando ibi eramus, scripsimus ».(2)

---

**(1) كان هناك ثقب في هذا الموضع من الرسالة أعاق قراءة اللفظ الأصلي، ولكن مترجمها إلى الفرنسية عوّضه بما هو أقرب إلى الصحة في نظره.**

**(2) أنظر: Tanase(Thomas), Une lettre en latin Inedite de l'Ilkhane Abaca Au Pape Nicolas III :Croisade ou mission ?, Oriente moderno, nuova serie, Anno 88, Nr.2, Roma, 2008, pp. 334- 335.**

**19/ الترجمة الفرنسية لمظمون ما ورد في رسالة أبقا خان إلى البابا نيكولا الثالث (1277-1280م) المؤرّخة في 21 نوفمبر 1279م(الترجمة الفرنسية) :**

**"Lettre des Tartares envoyées au pape (Nicolas III) "**

«Par la vertu du Dieu immortel et la grâce du khan Abaca. A notre souverain pontife. L'an passé, tous les rois de France nous ont envoyé leur messagers par l'archaon Jean. Mais par Ailleurs, vos messagers, eux, ne les ont pas accompagné. Nous disons cependant â présent aux prélats qui demeurent avec vous et aux proches issus de vos hommes qui sont venus nous trouver : lorsque tu as pris connaissance de notre lettre, tu nous as répondu par cet évêque et tu nous as rappelé que nous, Francs, avons tenu une assemblée nombreuse et ordonné de faire traverser la mer a nos armées pour assiéger Babylone (L'Egypte). Et si à présent le khan veut en faire la grâce, votre armé sera de ce côté-ci, les armées du khan seront de ce côté-là, et nous assiégerons Babylone. Et nous ferons navigué nos armées d'un côté : les tiens, quand ils feront voile, eux aussi traverseront. Nous demanderons pour nos armées des vivres. Ainsi, nous avons écouté et accépté votre rappel et ce que vous nous avez envoyé pour nous rappeler.

C'est pouquoi, si à present vous tenez votre parole, si vous vous unissez tous et si vous faites traverser votre armée et la faites annoncer, nous leur ferons donner des vivres. Par le passé nous avons envoyé l'armée assiéger Babylone. Mais vos armées ont tardé et ne sont pas venues, c'est pourquoi nos armées sont rentrées, mais, à présent, quand vos armées se metterons en route, faite- le savoire . Ainsi, elle seront arrivées d'un lieu à l'autre au moment où nous devons envoyer l'armée pour le siége et où nous devons faire préparer les vivres pour les armées. Et lorsque, par la grâce de Dieu, la force du Khan croitra et sera en vigueur, nous vous donnerons Jerusalem, nous l'avons dit. Et le fait d'avoire bien voulu favoriser nos terres chrétiennes et de les avoire défendues est surtout dû â notre grande-mere qui a obsérvé la loi et les commendements des chrétiens. En outre, nous croyons que vous comprenez bien de quelle manière nous défendons nos terres chrétiennes et nous nous efforçons de les favoriser. Cela a présent car tu nous as rappelé, est-ce que nous les avons jusqu'ici favorisées et défendues ? De plus, nous défendons et favorisons ce que notre ancêtre Gengis Khan a acquis de l'orient à l'occident, où notre Khan a besoin de vous chrétiens, à moins que ce dont il ait besoin soit de garder en paix des terres fidéles et d'obtenir vos discours et votre bénédiction. Notre lettre, nous l'avons écrite l'année du liévre, le XV du premier mois de l'hiver, lorsque nous étions prés de Sarah.».(1)

---

**(1) أنظر: Tanase(Thomas), Une lettre en latin Inedite de l'Ilkhane Abaca Au Pape Nicolas III :Croisade ou mission ?, Oriente moderno, nuova serie, Anno 88, Nr.2, Roma, 2008, pp. 335- 336.**

## 20/ رسالة تكودار أحمد، جمادى الأولى 681هـ/أوت (1282-1283م)، بنبأ إسلامه إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوّة الله تعالى، بإقبال قان، فرمان أحمد، إلى سلطان مصر، أمّا بعد، فإنّ الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونورهدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا، وريعان الحداثة، إلى الإقرار بربوبيّته، والاعتراف بوحدانيّته، والشهادة لمحمّد، عليه أفضل الصلاة والسلام، بصدق نبوّته، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريّته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور الاسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل، وأخينا الكبير، نوبة الملك، فأضفى علينا من جلابيب أَلْطافه ولطائفه، ما حقّق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلّى هذه المملكة علينا، وأهدى عقيلتها إلينا، فاجتمع عندنا في قوريليان المبارك، وهو المجتمع الذي تُقدح به الآراء، جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار، ومقدّمو العساكر، وزعماء البلاد، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في إنفاذ لجمّ الغفير، من عساكرنا التي ضاقت الأرض برُحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها، وشديد بطشتها، إلى تلك الجهة بهمّة تخضع لها صُمُّ الأطواد، وعزيمة تلين لها الصمّ الصلاد، ففكّرنا فيما تمخّضت زُبُدُ عزائمهم عنه، واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلاّ ما يوجب حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رُخاءُ نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار، في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيما لأمر الله، وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتنة الثائره، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إيه : من تقديم ما يُرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأنّنا لا نُحبّ المسارعة إلى هزّ النصال للنّصال إلاّ بعد إيضاح المَحجّه، ولا نُبادر لها إلاّ بعد تبيين الحقّ وتركيب الحُجّه، وقوّى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، ومنفيذ ما ظهر لنا به وجهُ النجاح، إذ كان، الشيخُ قدوةُ العارفين "كمال الدين عبد الرحمن" الذي نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبّى) دُعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذنا أقضى القضاة قُطب الملّة والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذيْن هما من ثقات هذه الدولة الزهراء ليُعرّفوهم طريقتنا، ويتحقّق عندهم ما تنطوي عليه لعُمُوم المسلمين جميل نيّتنا، وبيّنّا لهم أنّا من الله تعالى على بصيرة، وأنّ الإسلام يجبّ ما قبله، وأنّه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتّبع الحقّ وأهلَه، ونُشاهد أنّ عظيم نعمة الله للكافّة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، أن لا يُحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكُلَّ يوم هو في شأن، فإن مطلّعت نفوسهم إلى دليل تستَحْكمُ بسببه دواعي الاعتماد، وحُجّة يثقُون بها من بلوغ المُراد، فلينظُروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبرُه، وعمّ أثرُه، فإنّا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كلّ أمر وإصداره، تقديما لناموس الشرع المحمّديّ، على مقتضى قانون العدل الأحمديّ، إجلالا وتعظيما، وأدخلنا السرور، على قلوب الجمهور، وعفونا على كلّ من اجترح سيّئة واقترفْن، وقابلناه بالصفح وقُلنا عفا الله عمّا سلف، وتقدّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط الدّوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مُستحقيها بشُروط واقفيها، ومنعنا أن يُلتمس شيئ ممّا استُحدث عليها، وأن لا يُغيّر أحدٌ شيئا ممّا قُرّر أوّلا، وأمرنا بتعظيم أمر الحُجّاج وتجهيز وَفْدها، وتأمين سُبُلها، وتسيير قوافلها، وإنّا أطلقنا سبيل التُجّار المُتردّدين إلى تلك البلاد ليُسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرّمنا على العساكر والقراغُولات والشحاني في الأطراف التعرُّض لهم في مصادرهم ومواردهم، وقد كان قراغُول صادف جاسُوسا في زيّ الفُقراء كان سبيلُه أن يُهلك، فلم نُهْرق دمه : لحُرمة ما حرّمه الله تعالى وأعذْناه إلى إليهم. ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإنّ عساكرنا طالما رأوهم في زيّ الفقراء والنُسّاك وأهل الصلاح، فساءتْ ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم من قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذنُنا به من فتح الطريق وتردّد التُجّار، فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنّها أخلاق جبلّيَّة طبيعيّة، وعن شوائب التكلُّف والتصنُّع عريّة. وإذا كان الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرّة التي كانت موجبة للمُخالفة، فإنّها إن كانت طريقا للذبّ والذود عن حوزة الإسلام، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين، وإن كانت لما سبق من الأسباب، فمَن يتحرّى الآن طريق الصواب، فإنّ له عندنا لزُلْفى وحُسْنَ مآب. وقد رفعنا الحجاب، وأتينا بفصل الخطاب، وعرّفناهم (طريقتنا و) ما عزمنا بنيّة خالصة لله تعالى على استأنافها، وحرّمنا على جميع العساكر بخلافها، لنُرضي اللهَ والرسول، ويلُوح على صفحاتنا آثارُ الإقبال والقَبُول، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأُمّة، وتنجلي بنور الإئتلاف، ظُلْمة الإختلاف، والغُمّة، ويشكُر سابغَ ظلّها البوادي والحواضر، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر. ويُعفى عن سالف الجرائر، فإن وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم، وانتظامُ أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسّك بالعُروة الوثقى، وسُلوك الطريقة المُثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الاخلاص بحيث تُعمر تلك الممالك وتيك البلاد، وتسكُنُ الفتنة الثائرة، وتُغمد السيوف الباترة، وتَحُلُّ العامّة أرض الهُوَيْنى وروْض الهُدُون، وتخلُص رقاب المسلمين من أغلال الذلّ والهَوَان. وإن غلب سُوءُ الظن بما تفضّل به واهب الرحمة، ومعرفة هذه النعمه، فقد شكر اللهُ مساعينا وأبلى عُذرنا، (وما كُنَّا مُعذّبين حتّى نبعث رسُولا) والله تعالى الموفّق للرشاد والسّداد، وهو المُهيْمن على البلاد والعباد، إن شاء الله تعالى.(1)

---

**(1) أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1334هـ/1915م، الجزء 8، ص 65- 68 ؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ج2، سنة 681هـ، ص 158 هامش 1 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 506- 510.**

## 21/ نسخة رد قلاوون سلطان المماليك في مصر، 1 رمضان 681هـ/3 ديسمبر 1282م-1283م، على رسالة تكودار أحمد :

" بسم الله الرحمن الرحيم، بقوّة الله تعالى، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور، كلام قلاوون إلى السلطان أحمد، أمّا بعد حمد الله الذي أوْضح بنا ولنا الحقّ منهاجا، وجاء فجاء نصر الله والفتحُ ودخل الناس في دين الله أفواجا، والصلاة على سيّدنا ونبيّنا محمّد الذي فضّله الله على كلّ نبيّ نجّى به أمّته وعلى كلّ نبيّ ناجا، صلاة تُنير ما دجا، فقد وصل الكتابُ الكريم، المُتَلَقّى بالتكريم، المُشتمل على النبإ العظيم، من دُخُله في الدين، وخروجه عمن سلف من العشيرة الأقربين، ولمّا فُتِحَ هذا الكتاب بهذا الخبر العَلَم المُعْلم، والحديث الذي صحّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحّ الحديث ما رُويَ عن مسلم، توجّهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في تثبيته على ذلك بالقول الثابت، وأن حَبَّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت، وحصل التأمّل للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه في أوّل عنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانيّة، ودخوله في الملّة المحمّديّة، بالقوْل والعمل والنيّة، فالحمد لله على أن شرح صدْره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، فحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المقال والمقام، وثبّت أقدامنا في كلّ موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام.

وأمّا إفضاء النّوبة في المُلك وميراثُه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه النعمة العظيمة عليه، وتوقُّله للأسرّة التي طهّرها الله بإيمانه، وأظهره بسُلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدّق المُبشّرات من كرامة أولياء الله وعُبّاده.

أمّا حكاية الإخوان والأُمراء الكبار ومُقدّمي العساكر وزُعماء البلاد في مجمع فوريلياي الذي ينقدح فيه زَنْدُ الآراء، وأنّ كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنّه قد فكّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهواؤهم، فوجده مخالفا لما في ضميره : إذْ قصْدُه الصلاح، ورأيُه الإصلاح، وأنّه أطفأ تلك النائرة، وسكّن تلك الثائرة، فهذا فعل الملك المتّقي، المُشفق من قومه على من بَقي، المُفكّرُ في العواقب، بالرأي الثاقب، وإلاّ فلو تُركوا وآراءَهُم حتّى تحملهم الغرّة، لكانت تكون هذه هي الكرّة، لكن هو كمن خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى، فلم يوافق قول من ضلّ ولا من غوى.

وأمّا القول منه إنّه ل يُحبُّ المسارعة، إلاّ بعد إيضاح المحجّة، وتركيب الحجّة فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجّتنا وحجّته متركّبة، على من عذر طواغيتُه عن سلوك هذه المحجّة مُتنكّبة، فإنّ اللهَ سبحانه وتعالى والناسَ كافّة قد علموا أنّ قيامنا إنّما لنُصرة هذه الملّة، وجهادُنا واجتهادُنا إنّما هو لله، وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدُّخُول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذُحول، وبارتفاع المُنافرة، تحصلُ المُظافرة، فالإيمانُ كالبُنيان يشُدُّ بعضُه ببعض، ومن أقام مناره فله أهلٌ بأهل في كُلّ مكان وجيرانٌ بجيران بكُل أرض.

وأمّا ترتيبُ هذه الفوائد الجمّة على إذكار شيخ الإسلام قُدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن، أعاد الله تعالى من بركته، فلم يُر لوليّ قبله كرامة كهذه الكرامه، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تُصبح كلّ دار الإسلام دار إقامه، حتّى تتمّ شرائطُ الإيمان، ويعود شمل الإسلام مُجتمعا كأحسن ما كان، ولا يُنكرُ لمن بكرامته ابتداءُ هذا التّمكين في الوُجود، أنّ كُلَّ حق ببركته إلى نصابه يعود.

وأمّا إنفاذُ أقضى القُضاة قُطبُ الملّة والدين، والأتابك بهاءُ الدين، الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضرا وأعادا كلَّ قول حسن من أحوال أحواله، وخطرات خاطره، ومُسطّرات ناظره، ومن كُلّ ما يُشكَرُ ويُحمدُ، ويُعنعنُ حديثُهما فيه عن مُسند أحمد.

وأمّا الإشارة إلى أنّ النفوس إن كانت تتطلّع في إقامة دليل، تستحكمُ (به) دواعي الودّ الجميل، فلينظُر إلى ما ظهر من مآثره، في موارد الأمر ومصادره : من العدل والإحسان بالقلب واللسان، والتقدّم بإصلاح الأوقات، فهذه صفات من يُريدُ لمُلكه الدوام، فلمّا ملك عدل، ولم يلتفت إلى لُوم مَنْ عدا ولا لوْم من عدل، على أنّها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي

تستنطقُ بالدُعاء الألسنَة، فهي واجباتٌ تُؤدّى، وهو أكبر من أنّه يُؤخّر غيره أو عليه يقتصر، أو لهُ يدّخر، إنّما يفتخرُ الملكُ العظيم بأنّه يُعطى ممالك وأقاليم وحصون، أو يبذُل في تشييد مُلكه أعزّ مصون.

وأمّا تحريمُه على العساكر والفراغولات والشحاني بالأطراف التعرّض إلى أحد بالأذى و(تحتيم) إصفاء موارد الواردين والصادرين من القذى، فمن حين بلغنا تقدُّمه بذلك تقدّمنا أيضا بمثله إلى سائر النوّاب، بالرّحبة وحلب وعيْنتاب، وتقدّمنا إلى مُقدّم العساكر بأطراف تلك الممالك، بمثل ذلك، وإذا اتحد الإيمان، وانعقدت الأيمان، تحتّم إحكام هذه الأحكام، وترتّب كليه جميع الأحكام.

وأمّا الجاسوس الفقير الذي أُمسك وأُطلق وأنّ بسبب من تزيّا من الجواسيس بزيّ الفقراء الصُلحاء رجمًا بالظنّ، فهذا باب من ذلك الجانب ستروه، وإلى الإطلاع على الأمور صوّروه، فظفر النوّاب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف، ولم يكشف ما غطّته خرقة الفقر ولا كيف.

وأمّا الإشارة إلى أنّ في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم، وينتظم شمل بني آدم، فلا رادّ لمن طرق باب الاتحاد، ومن جنح للسلم فما جار ولا حاد، ومن ثنى عنانه عن المكافحة، كمن يُريد المصافحة للمصالحة، والصلح وإن كان سيّد الأحكام فلا بُدّ من أمور تُبنى عليها قواعده، وتُعلم من مدلولها فوائده، فإنّ الأمور المسطورة في كتابه عن كليّات لازمة ينعم بها كلّ معنى معلوم إن تهيّأ صلح أو لم، وثمَّ أمورٌ لا بُدّ أن تُحكم، وفي سلكها عقود العهود تُنْظَم، قد تحمّلها لسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت من معنى دُحوله في الدين، وانتظام عقْده بسلك المؤمنين، وما بسط من عدل وإحسان، وسيرة مشهورة بكلّ لسان، فالمنّة لله في ذلك فلا يشيبُها منه بامتنان، وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم في حقّ من امتنّ بإسلامه : (قُل لا تَمنُّوا عليّ إسلامكم بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان).

ومن المشافهة أنّه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض ومال، فإن حصلت الرغبةُ في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل، فالجواب أنّ ثَمّ أمورا متى حصَلَتْ عليها الموافقة، تمّت المُصاحبة والمُصادقة، ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلالُ مُعادينا، وإعزازُ مُصافينا، فكم من صاحب وُجدَ حيثُ لا يُجدُ الأبُ والأخُ والقرابة، وما تمّ أمرُ الدين المُحمّدي واستحكم في صدر الإسلام إلاّ بمُظافرة الصحابة، فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتّحاد، وحُسن الوداد، وجميل الاعتضاد، وكَبْت الأعداء والأضداد، والاستناد إلى من يشتدّ به الأَزْر عند الاستناد، فقد فُهم المُراد.

ومن المشافهة إذا كانت رغبتُنا غير ممتدّة إلى ما في يده من أرض ومال، فلا حاجة إلى إنفاذ المُغيرين الذين يُؤذُون المسلمين بغير فائدة تعُود، فالجواب أنّه لو كُفّ كَفُّ العُدوان من هُنالك، وخُليّ لملوك المسلمين ما لهم من ممالك، سكنت الدهماء، وحُقنت الدماء، وما أحقّه بأن لا يَنهى عن خلق ويأتي مثله، ولا يأمر بشيئ وينى فعله، وقنغرطاب بالروم الآن، وبين بلاد في أيديكم خراجها يُجْبى إليكم، فقد سفك فيها وفتك، وسبى وهتك، وباع الأحرار، وأبى إلاّ التمادي على ذلك والإصرار.

ومن المشافعة أنّه إن حصل التصميم على أن لا تُبطل هذه الإغارات، ولا يُقتصر عن هذه الإثارات، فتُعيّنُ مكانا يكون فيه اللقاء، ويُعطي الله النصر لمن يشاء، فالجواب عن ذلك أنّ الأماكن التي اتّفق فيها ملتقى الجمعين مرّة ومرّة قد عاف مواردها من سلَفَ من أولائك القوم، وخاف أن يُعاودها فيُعاوده مصرَعُ ذلك اليوم، ووقتُ اللقاء علمه عند الله لا يُقدَر، وما النصر إلاّ من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر، وما نحن ممن ينتظر فلته، ولا ممن له إلى غير ذلك لفْته، وما أمر ساعة النصر إلاّ كالساعة التي لا تأتي إلاّ بغته، والله تعالى الموفق لما فيه صلاح هذه الأمّة، والقادر على إتمام كُلّ خير ونعمة، إن شاء الله تعالى. مستهلّ شهر رمضان المعظم قدره، سنة إحدى وثمانين وستمائة. الحمد لله وحده، وصلواته على سيّدنا محمد وآله وصحبه. حسبنا الله ونعم الوكيل. "(1)

**(1) أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1334هـ/1915م، الجزء 7، ص 237- 242 ؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ج2، سنة 681هـ، ص 160- 162 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م، ص 510- 518.**

## 22/ نسخة الوثيقة والاتفاقية الدبلوماسيّة، بين ألفونسو الثالث ملك أراجون (1285-1291م) وشقيقه جيمي الثاني باعتباره ملكا لصقلية (1285-1295م) من ناحية وبين سلطان مماليك مصر المنصور قلاوون وابنه السلطان الملك الأشرف بحضور والده من ناحية أخرى مؤرخة في 13 ربيع الآخر 689هـ/24 أبريل 1289م :

### أ- نص الهدنة التي عقدت بين الملك المنصور قلاوون وبين الريدراكون البرشلوني وأخيه صاحب صقلية :

التمس الريدراكون البرشلوني ملك أراغون وأخوه صاحب صقلية بواسطة رسلهما صلحا وهدنة مع السلطان الملك المنصور قلاوون فأجابهما إلى وعقدت بين الطرفين هدنة هذا نصها :

استقرّت المودة والمصافاة والمصادقة بين مولانا السلطان الملك المنصور السيد الأجل العالم العادل سيف الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وحلب، سلطان الملوك، ملك المشرق بأمره، سلطان النوبة- بلاد الملك داوود - سلطان البيت المقدس، سلطان البيت العالي الشريف بمكة، أعزّها الله، سلطان اليمن والحجاز، سلطان جميع العرب، سلطان الاسلام جميعهم، سيد الملوك والسلاطين، أبي الفتح قلاوون وولده، ولي عهده المولى الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل صلاح الدنيا والدين خليل، والملوك وأولاده وبين حضرة الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الضرغام المفخم المبجل دون ألفونش الريدراغون وأخيه الملك الجليل المكرم الخطير الأسد الضرغام الري دون جام صاحب صقلية وأخويهما دون فلدريك ودون بيدروا، من تاريخ يوم الثلاثاء المبارك ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية، صلوات الله وسلامه وتحياته على صاحبها، الموافق ذلك لسبع بقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين وتسعة وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام، وذلك بحضور رسل الملك الريدراغون، وهم : الزعيم الرسول ابن لنجيد ستفنس، وريمون الملمان قراري برشلونة، والحكيم داود بن حسداي الاسرائيلي- وزير حضرة الملك الريدريغون – وكتّابه بكتابه المختوم بختم الملك المذكور المقتضى معناه أن تصدقهم في جميع ما يقولونه ويقررونه من قواعد الصلح والمودّة والصداقة، وما يتكفلونه من الشروط التي يشترطها مولانا السلطان الملك المنصور على الملك الريدراغون، وأنّه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويحلف الملك المذكور عليها، هو وإخوته المذكورون، ووضع الرسل المذكورون خطوطهم بجميع الفصول الآتي ذكرها بأمره ومرسومه، وإنّ الملك الريدراغون وإخوته ملتزمون بها.

وهي :

استقرار المودّة والصداقة من التاريخ المقدّم ذكره على ممرّ السنين والأعوام وتعاقب الليالي والأيام، برا وبحرا، سهلا ووعرا، قربا وبعدا على أن تكون بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الأشرف والملوك أولاده وقلاعهم وحصونهم وثغورهم وممالكهم وكوانيهم، بلادهم وسواحلها وبرورها وجميع أقاليمها ومدنها وكل ما هو داخل في مملكتهم ومحسوب منها ومنسوب إليها من سائر الأقاليم الرومية والعراقية والمشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمنية والحجازية والديار المصرية والغرب، وحد هذه الأقاليم والبلاد وموانيها وسواحلها من البر الشرقي والشامي من القسطنطينية والبلاد الرومية والبلاد الساحلية واللاذقية وطرابلس الشام وجميع الموانى والبرور إلى ثغر دمياط وبحيرة تنيس، وحدُّها من البر الغربي من تونس وإقليم أفريقيا وبلادها وموانيها وطرابلس الغرب وثغورها وبلادها وموانيها إلى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة بني لبيس وسواحلها وبلادها وموانيها، وما تحويه هذه البلاد المذكورة والممالك التي لم تذكر والمدائن والثغور والسواحل والموانى والطرقات في البر والبحر والصدور والورود والمقام والسفر من عساكر وجنود وتركمان وأكراد وعربان ورعايا وتجار وشواني ومراكب وسفن وأموال وموانى على اختلاف الأديان والأنفار والأجناس، وما تحويه الأيدي من الأصناف والأموال والأسلحة والعُدد والأمتعة والبضائع والمتاجر، قليلا كان أو كثيرا، قريبا كان أو بعيدا، برا كان أو بحرا، آمنة على النفوس والأرواح والأموال والحريم والأولاد من الملك الريدراغون ومن إخوته المذكورين أعلاه ومن أولادهم وفرسانهم وخيالتهم ومعاهديهم وعمائرهم ورجالهم ومن كل ما يتعلق بهم، وكذلك كل ما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور وعلى يد أولاده وعساكره وجيوشه من القلاع والحصون والبلاد والأقاليم، وأنّه يجري عليه هذا الحكم، وعلى أن تكون بلاد الريدراغون وبلاد إخوته وأولاده وممالكه المذكورة وهي بلاد أرغن وثغورها وأعمالها، مارقة وأعمالها وبلادها، بلنسية وأعمالها وبلادها، إقليم برشلونة وأعمالها وبلادها، صقلية وجزيرتها وبلادها وأعمالها، برنوليه وأعمالها وبلادها، جزيرة مالطة وقوصرة وبلادها وأعمالها، وميرقة ومانسة وبلادها، وأربسوبات وأعمالها وما سيفتحه الملك الريدراغون من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم، آمنة من مولانا السلطان الملك المنصور وأولاده وعساكره وجنوده وشوانيه وعمائره، وهي ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا وأهل البلاد آمنين مطمئنين على الأنفس والأموال والحريم والأولاد في البر والبحر والصدور والورود، وعلى أن الملك الرايدراغون هذا وإخوته أصدقاء من يصادق مولانا الملك المنصور والملوك أولاده، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية.

وإن قصد الباب برومه أو ملك من ملوك الفرنج، متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان أو صغيرا، أو من الجنوية أو من البنادقة أو سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والروم، والبيوت بيوت الأخوة الديوية والاستبارية وجميع أصناف النصارى مضرة مولانا السلطان بمحاربة أو أذية يمنعهم الملك الريدراغون ويردهم ويعمر شوانيه ومراكبه هو وإخوته، ويقصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد مضرة بلاد مولانا السلطان وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة ويقاتلونهم فب البر والبحر، بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجالهم، وعلى أنّه متى خرق أحد من معاهديهم على مولانا السلطان

من الفرنج بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يعينهم الملك الريدراغون ولا إخوته ولا خيالته ولا فرسانه ولا أهل بلاده بخيل ولا خيالة ولا سلاح ولا مال ولا نجدة ولا مسيرة ولا مراكب ولا شواني ولا غير ذلك، وعلى أنّه متى طلب الباب بروميه وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الرايدراغون أو من إخوته أو من بلاده أنجادا أو معونة أو خيالة أو رجالة أو مال أو مراكب أو شواني أو سلاح لا يوافق على شيء من ذلك لا في سر ولا جهر، ولا يعين أحدا منهم ولا يوافقه على ذلك، ومتى اطلع على أنّ أحدا منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة أو بمضرة يسير من يعرف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئا من ذلك، وعلى أنّه متى انكسر مركب من المراكب الاسلامية في بلاد ملك الريدراغون وبلاد إخوته ومعاهديه يكون كل من فيها من التجار والبحارة والمال والمماليك والجوار أمنين على أنفسهم والأموال والبضائع، ويلزم الملك الريدراغون أن يحفظهم ويحفظ مراكبهم وأموالهم، ويساعدهم على عمارة مركبهم، ويجهزهم هم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد مولانا السلطان، وكذلك إذا انكسرت مراكب من بلاد الريدراغون وبلاد إخوته في بلاد مولانا السلطان يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد مولانا السلطان أو ذمة أهل بلاده في بلاد الريدراغون وبلاد إخوته وأولاده ومعاهديه لا يعارضونهم في أموالهم ولا في بضائعهم ويحمل مالهم وموجودهم إلى بلاد مولانا السلطان ليفعل فيه ما يختار، وكذلك من يموت في بلاد مولانا السلطان من أهل مملكة اليدراغون وبلاد إخوته ومعاهديه فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنه متى عبر على بلاد الريدراغون رسل من بلاد مولانا السلطان قاصدين جهة من الجهات البعيدة أو القريبة صادرين أو واردين، أو رماهم الريح في بلاده يكون الرسل وغلمانهم وأتباعهم، ومن فضل مهم من رسل الملوك وغيرهم آمنين محفوظين في الأنفس والأموال وتجهزهم إلى بلاد مولانا السلطان، وعلى أن الملك الريدراغون لا يُمكّن الحرامية ولا الكرسالية من التزود من بلاده ولا من حمل ماء، ومن ظفر به من الحرامية يمسكه ويفعل فيه الواجب، ويسير ما يجده معهم من الأسرى المسلمين، ومن البضائع والحريم والأولاد إلى بلاد مولانا السلطان وكذلك إن حضر أحد من الحرامية إلى بلاد مولانا السلطان يجري الحكم فيه لبلاد الريدراغون وعلى أنه متى جرى من واحد من بلاده قضية توجب فسخ هذه المهادنة، كان على الملك الريدراغون طلب من فعل ذلك وفعل الواجب فيه، وعلى أنّ الملك الرايدراغون يفسح لأهل بلاده وغيرهم من الفرنج في أنهم يجلبون إلى الثغور الاسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك، وعلى أنه متى أسر أحد من المسلمين فب البر أو البحر من مبدأ تاريخ هذه المحادثة من سائر البلاد شرقا وغربا أقصاها وأدناها، ووصلوا به إلى بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته ومعاهديه ليبيعوه فيلزم الملك الريدراغون فك أسرهم وحملهم إلى بلاد مولانا السلطان،وعلى أنّه متى كان بين تجار المسلمين وتجار بلاد الريدراغون معاملة في بضائعهم وهم في بلاد مولانا السلطان كان أمرهم محمولا على موجب الشرع الشريف، وعلى أنّه متى ركب أحد من المسلمين في مراكب الملك الريدراغون وحمل بضاعته معهم وعدمت البضاعة كان على الملك الريدراغون ردها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة، وعلى أنّه متى هرب أحد من بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه المعاهدة إلى بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته، أو توجه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد، كان على الريدراغون در الهارب والمال معه إلى بلاد مولانا السلطان ما دام المذكور مسلما وإن تنصر فيرد المال الذي معه خاصة ولمملكة الريدراغون ولمملكة أخيه فيمن هرب من بلادهم إلى بلاد مولانا السلطان، هذا الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنّه إذا وصل من بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته ومعاهديهم من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يد كتاب الملك الريدراغون وختمه إلى نائب مولانا السلطان بالقدس الشريف يفسح له الزيارة مسموحا بالحق ليقضي زيارته ويعود آمنا إلى بلاده مطمئنا في نفسه وماله، رجلا كان أو امرأة، بحيث أنّ الملك الريدراغون لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء مولانا السلطان في أمر الزيارة بشيئ، وأنّ الملك الريدراغون يحرس جميع بلاد مولانا السلطان من كل مضرّة، ويجتهد في أنّ أحدا من أعداء مولانا السلطان لا يصل إلى بلاد مولانا السلطان ولا ينجدهم على مضرة بلاد مولانا السلكان الملك المنصور ولا بلاد ولده السلطان الملك الأشرف ولا رعاياهم، وأن يساعد مولانا السلطان وولده الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهونه ويختارونه، وعلى أن الحقوق الواجب على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك الريدراغون إلى ثغري الاسكندرية ودمياط وإلى الثغور الاسلامية والممالك السلطانية وسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الدواوين المعمورة إلى آخر وقت، ولا يحدث عليهم فيها حادث، وكذلك يجري الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الريدراغون.

تستمرهذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه بين الجهتين على الدوام والاستمرار وتجري أحكامها وقواعدها أجمل الاستقرار، فإنّ المملكتين بها قد صارتا شيئا واحدا ومملكة واحدة لا تنتقض بموت أحد من الجانبين، ولا بعزل ولا بتولية غيره، بل تؤيد أحكامها وتدوم أيامها وشهورها وأعوامها، وعلى ذلك انتظمت واستقرت في التاريخ المذكور أعلاه، وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية، صلوات الله وسلامه على صاحبها، الموافق لسبع بقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين وتسعة وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام.(1)

---

**(1) أنظر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 156-162 ؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)، ص 342- 350 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، ص 485- 492.**

## ب- نسخة اليمين التى حلف السلطان الملك المنصور قلاوون عليها لملك الريدراغون البرشلونى وإخوته :

أقول وأنا قلاوون بن عبد الله الصالحي، والله والله والله وحق دين الاسلام، وحق القرآن العظيم الذي يعتقده المسلمون أنّ هذا الصلح والصداقة الذي تقرّر بيني وبين الملك الريدراغون لا أغيره ولا أخرج عنه ما دام الملك الريدراغون وافيا باليمين يحلفه رسلي بها هو وإخوته، عن نفسي وعن أولادي وعن أهل بلادي جميعهم، والله على ما أقول وكيل. (1)

## ج- نسخة اليمين التى حلف بها السلطان الملك الأشرف بحضور والده :

أقول وأنا خليل بن قلاوون، والله والله والله وحق دين الاسلام، وحق القرآن الذي يعتقده المسلمون أنّ هذا الصلح والصداقة الذي تقرّر بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين، سلطان الشرق والغرب، سيد الملوك والسلاطين والدي، نصره الله، وبيني وبين الملك الريدراغون، لا أغيره ولا أخرج عنه ولا أخلي أحدا يغيره ما دام الملك الريدراغون وافيا باليمين الذي تحلفه رسل مولانا السلطان، نصره الله، هو وإخوته عن نفسه وإخوته.(2)

## د- نسخة اليمين التى حلف عليها الملك الريدراغون :

أقول وأنا ذوفنش، والله والله والله، وحق الصليب وحق المسيح وحق الست مارية، أم النور، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقص ولوقا ويوحنا، وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره، وحق ديني ومعبودي واعتقادي، إنني من وقتي هذا وساعتي هذه، وما مد الله في عمري قد أخلصت نيتي ولافيت سريرتي وساويت بين ظاهري وباطني في مصادقة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، سلطان الديار المصرية والشام وحلب والروم والعراق والشرق والغرب، سلطان الاسلام جميعهم، سيد الملوك والسلاطين، أبي الفتح قلاوون الصالحي، ومصادقة ولده، ولي عهده المولى السلطان الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل، والملوك أولاده، ومودتهم والاستمرار على محبتهم، وإنّ مملكتي ومملكتهم تكون شيئا واحدا في الحفظ والصداقة والمودة ملكا واحدا، وإنني وحق المسيح والصليب، وحق الانجيل، صديق أصدقاء مولانا السلطان الملك المنصور وأصدقاء أولاده ومعادي معاديهم ومحارب من يقصد بلادهم من سائر الفرنجية وأجناس النصارى كائنا من كان، وأقاتلهم وأشغلهم بنفوسهم عن قصد بلاد مولانا السلطان الملك المنصور بحرب أو مضرة، وأعتمد في ذلك كله مقتضى شروط المهادنة والصداقة المؤرخة بيوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيه الآخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق لسبع بقين من شهر أبريل، التي انتظمت بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الأشرف والملوك وأولاده، وبين وبين إخوتي الثلاثة وهم الري حاكم صاحب صقلية وفلدريك ودون بيدروا بحضور رسلي المذكورين أسماؤهم في المهادنة المذكورة، وأمري لرسلي بأن يلتزموا عني وعن إخوتي بجميع ما فيها من الأحكام والشروط ما دامت الليالي والأيام والشهور والأعوام، بمقتضى كتابي إلى مولانا السلطان الملك المنصور وختمي عليه بذلك، ولا أنقض شيئا من شروطها، وأستمر بها أنا وإخوتي وأولادي ومملكتي، ما دامت الأيام والليالي لمملكة مولانا السلطان الملك المنصور ومملكة ولده السلطان الملك الأشرف وأولاده في غير تغيير ولا تبديل، وإنني والله العظيم أحفظ رعية بلاده المسلمين كلهم في بلادي وأتوصى بهم وأفعل معهم بشروط المهادنة المذكورة، ومتى خالفت شرطا منها فأكون محروما من ديني مخالفا لاعتقادي واعتقاد أهل ملتي، واليمين يميني أنا والنية فيها نية مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الأشرف، ونية أولاده الملوك ونية مستحلفي لهم بها، والإله على ما أقول وكيل.(3)

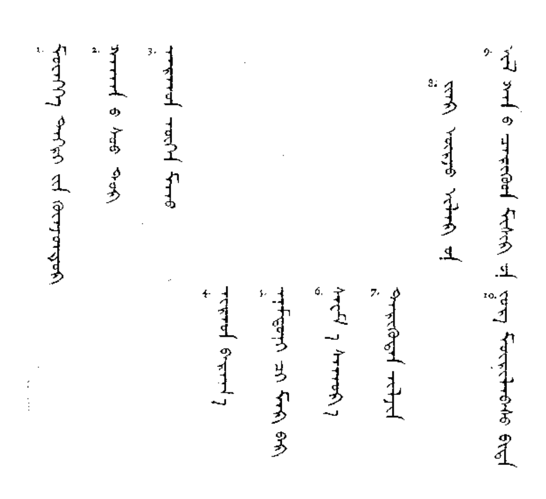
---

**(1) أنظر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 162 ؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)، ص 350 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، ص 492.**

**(2) أنظر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 163 ؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)، ص 350 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، ص 492.**

**(3) أنظر:ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م، ص 163- 164 ؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)، ص 350- 352 ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، ص 493- 494.**

## 23/ النسخة الأصلية للنص الإيغوري لرسالة الخان أرغون المؤرخة في 1289م يحملها بوسكاريل جيزولف إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع (الجميل) :



*Copié sur l'original conservé aux Archives royales, J. 776.*

أنظر : Abel-Remusat(J.), Mémoire sur les relations politiques des Princes Chretiens, et particulierement des Rois de France, avec les Empereurs Mongols, in Memoires de l'Istitut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, VII, Paris, 1824, pp. 170- 172.

## 24/ الترجمة الإيطالية لنص رسالة الخان أرغون المؤرخة في 1289م التي سلّمها بوسكاريل جيزولف إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع (الجميل) :

## buscarel remit a Philippe-le-belle une lettre du khan de perce Argoun datée 1289 (en Italien) :

« Con la forza del Cielo eterno, con la fortuna del qaġan, parola nostra, di Arġun. Al re di Francia. L'anno scorso, per mezzo degli ambasciatori che avevano a capo Mar Bar Sauma, il visitatore, ci hai mandato a dire : ''Se le truppe dell'ilkhan inizieranno la la campagna contro l'Egitto, anche noi partendo di qui in guerra attaccheremo congiuntamente''. Approvando quel che ci hai mandato a dire, abbiamo detto : ''Pregando il Cielo, iniziando la campagna nell' anno della tigre, l'ultimo mese dell'inverno, scenderemo a Damasco il 15 del primo mese di primavera. Ora, se dando seguito alla tua sincera parola tu invierai truppe alla data stabilita, e con l'assistenza della buona fortuna dal Cielo soggiogheremo quei popoli, vi daremo gerusalemme. Se tu iviassi le truppe ausiliarie in modo da farle giungere dopo la data stabilita, che vantaggio ne avresti ? Anche se poi te ne pentissi, di che utilità sarebbe ?''.

Ancora : se, aggiungendo le informazioni che vorrai, per mezzo dei tuoi ambasciatori, facendoli correre rapidamente, tu mi inviassi in dono oggetti meravigliosi, falchi da caccia, pietre[preziose] di ogni sorta di colore dal paese dei Franchi, che la forza del Cielo e la fortuna del qaġan decidano del modo in cui ti testimonieremo favore !.

Dicento questo abbiamo inviato il portafaretra Muskeril.

Nostra lettera, scrita nell'anno del bue, il 6 dei qaġuéid del primo mese dell'estate, quando ci trovavamo a Köndelen. ».

---

انظر : **Mostaert(A.) and Cleaves(F.W.), Les lettres de 1289 et de 1305 des Ilkhans Arghun et Öldjeitü á Philippe le Bel, Cambridge, Mass. 1962, p. 18.**

## 25/ الترجمة الفرنسية لنص رسالة الخان أرغون المؤرخة في 1289م التي سلّمها بوسكاريل جيزولف إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع (الجميل) :

## Traduction Française de la lettre du khan de perce Argoun Datée de 1289, remise par buscarel à Philippe-le-belle :

«Par la Puissance du Dieu eternel, Sous les auspices du Khagan, Argoun, notre parole : Roi de France, Par l'envoyé, Mar Bar Serma, Sakhora, Tu m'a mandé : Quand les troupes de l'Ilkhan marcheront contre l'Egipte, nous partirons d'ici pour nous joindre à lui. Ayant agrée ce message de ta part, j'ai dit que nous nous proposions, confiants en Dieu de partir dans le dernier mois d'hiver de l'année de la panthére(1) et de comper devant Damas, vers le 15 du premier mois du printemps(2). Si du tien parole et envoyes tes troupes à l'époque fixée, et que Dieu nous favorise, lorsque nous aurons pris à ce peuple Jérusalem, nous te la donnerons. Mais manquer au rendez-vous serait faire marcher inutilement les troupes, cela sierait-il ? Et ensuite on ne sait que faire, à quoi bon ? Je fait partir Mouskeril le Couroudji(3), qui te dira que si tu nous envoyes des ambassadeures, sachant parler plusieurs langues, et nous apportant des cadeaux, des raretés, des images de diverses couleurs du pays des Francs, nous t'en saurons bon gré, par la puissance de Dieu et la fortune du Khagan.

Notre lettre est écrite à Coundoulen(4), le sixiéme jour du premier mois d'été de l'annee du bœuf.».

(1) Janvier 1291.

(2)Vers le 20 de fevrié.

(3)Ce nom est écrit Mouskeril au lieu de Buscarell, parceque les Mongols et les Turcs substituaient souvent la lettre M á la lettre B. Couroudji signifie qui prend soin des armes (du prince).

(4)Nous ignorons où se situe Coundoulen, c'est un nom mongol.

---

**انظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, p. 71; Chabot, "Notes sur les Relations du Roi Argoun avec l'occident", dans la Revue de l'Orient Latin, Vol. II., Paris, 1894, p. 604; Pauthier(G.), Histoire des Relations politiques de la chine avec les Puissances occidentales depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, , Paris, 1859, pp. 235-236.**

## 26/ الترجمة العربية لنص خطاب الخان أرغون المؤرخة في 1289م والذي سلّمه بوسكاريل جيزولف إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع (الجميل) :

بقدرة السماء الأبدية، وفي ظل(وحماية) الملك

(فيما يلي) خطاب ملكنا أرغون :

إلى ملك فرنسا

(فيما يتعلق) باقتراحك الذي أرسلته في السنة الماضية بواسطة الوفد (السفارة) الذي كان على رأسه بار صاوما ساهورا (مضمونه) : "أنّه إذا غزت جيوش الإيلخانات (المغولى) مصر فإننا كذلك سنقوم من هنا بغزوها ونشترك في العمليات (الحربية) مباغتين العدو من الخلف"، فإننا وافقنا (على اقتراحكم) ولذلك قررنا، بمشيئة السماء، أننا سنركب خيولنا في آخر شهر من شتاء عام النمر(1) (يناير 1290م) وسننزل أمام دمشق في منتصف أول شهر من الربيع (15 فبراير 1291م).

ونعلمك الآن بأننا بمقتضى صدق كلامنا سنبعث جيوشنا في الموعد والمكان المتفق عليه، فإذا أخضعنا، بقدرة السماء، تلك الشعوب، فإننا سنعطيكم القدس، أمّا إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة، وقد يكون هذا ممكنا (وسوف تندمون)، وحتى إذا ندمتم عليه فسوف لا ينفعكم الندم، وإذا أرسلتم رسولا من قبلكم إلينا بمهمة ما وكفلتموه بحمل أشياء نفسية من أرض فرنسا مثل الصقور والجواهر المختلفة الألوان، فلتشهد قدرة السماء وجلالة الملك على أننا سنكافئكم على ذلك بطريقة ما.

هذا ما أردنا أن نقوله، ومرسل هذا الخطاب (بيد) حامل الكنانة موسكريل (أي بوسكاريلو).

كتب هذا الخطاب في اليوم السادس من الثلث الأخير للشهر الأول من صيف عام الثور (1289م) خلال إقامتنا في كوندلن**(2)**.

---

(1) اخترع المغول تقويما يناسب حياتهم الرعوية ويكون أقرب لعقولهم باعتبار أنّهم كانوا، أصلا، قبائل بدوية تعيش على الرعي وصيد الحيوانات، وكانوا لا يعرفون القراءة والكتابة، فرتّبوا السنوات في دورة قوامها اثني عشرة عاما، وكل عام يسمى باسم حيوان مألوف لديهم وهي بالترتيب : القط، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الحيّة، الحصان، الخروف، القرد، الديك، الكلب، الخنزير، وعلى سبيل المثال كان عام النمر موافقا للأعوام الآتية :

1254م، 1266م، 1278م، 1290م، 1302م، 1314م، وهكذا كل اثني عشر عاما. وترتّب على اعتناق غازان خان للإسلام أن بدأ مغول فارس يستخدمون التقويم الهجري الإسلامي في مراسلاتهم.

**(2) أنظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 283- 284.**

**27/ نص الحاشية، باللغة الفرنسية القديمة، التي أضافها بوسكاريل جيزولف، إلى رسالة الخان أرغون المؤرخة في 1289م، حتّى يشجّع الدول الغربيّة على تلبية نداء المساعدة والاشتراك مع المغول في حملة صليبيّة ضد المماليك المسلمين :**

Ci est la messagerie de Buscarel, message d'Argon, fete en l'an du buef, en Condelan. Premierement, Argon fest assavoir au roy de France comme a son frere, que en toutes les parties d'Oriant entre Tartars, Sarrazins et toute autre langue, est certainne renomée de la grandesse, puissance et loiauté du royaume de France, et que les Rois de France qui ont esté o leur barons, o leur chevaliers et leur puissance, sont venuz plusseurs foiz en l'aide et conqueste de la terre seinte, a l'oneur du fils de la vierge Marie et de tout le pueple crestien. Et fest assavoir le dit Argon au dit roy de France comme a son frere que son cors et son host est prest et appareillié d'aller au conqeust de ladite sainte terre, et de estre ensemble avec le roy de France en cest beneoit service.

Et je, Busquarel, devant dit message d'Argon, di que se vous rois de France, venez en persone en cest beneoit service, que Argon y amenra ij rois crestiens Jorgiens qui sont souz sa seignourie et qui, de nuit et de jour, prient Dieu d'estre en cest beneureus service et ont bien pooir d'amener avecques eus xx$^{m}$ homes de cheval et plus.

Encore di je que, porce que Argon a entendu que grieve chose est au roy de France et a ses barons de passer par mer tant de chevaus comme mestier est eus et a leur gen, le dit roy de France porra recouvrer d'Argon, se il en a mestier et il l'en requiert, xx$^{m}$ ou xxx$^{m}$ chevaux en don ou en convenable pris.

Item, se vous, monseigneur le roy de France, voulez, Argon vous fera appareillier por cest beneoit service par toyte la Turquie bestial menu et bues, vaches et chameus, grain et farine, et toute autre vitaille que l'en porra trouver a vostre volenté et mandement.

Item, ci pouez veoir bones entreseignes et grant presomption de la bonté d'Argon, car, si tost comme il entendy que Tripple fu prise de Sarrazin, et qu'il avoit grans barons Sarrazins de souz sa seignerie, qui liez estoient et fesoient joie du domage qui estoit avenu au crestiens, il fist amener devant ly quatre de touz les plus grans et les plus puissanz barons Sarrazins qui fussent en sa seignorie et fist taillier par mi, et ne souffri que les cors en fussent enterré, mais vous et commanda que l'en les lessast illecques mengier a chiens et as oisiaus.

Item, que tantost que le dit Argon ot sa suer mariée au filz le roy Davi de Jorgie, il

la fist tantost presentement crestienner et lever.

Item, que cesti jour de pasques, prochainnement passé, le dit Argon fist chanter messe en une chapelle que il fet porter o soi a Rabanata, evesque nectorin, que l'autre an, vous vint en message, et fist illecques presentement devant ly accomenier et recevoir le saint sacrement de l'autel plusseurs de ses barons Tartars.

Encore, sire, vous fet assavoir ledit Argon que les vos grans messages que vous anten li envoiastes ne li voudrent fere redevance ne honeur tele comme il est a coustume de fere de toutes manieres de genz, rois, princes et barons qui en sa court viennent. Car, si, comme il disoient, il ne feroient pas vostre honeur d'agenouillier soi devant li porce que il n'est mie baptisié ne levé crestien, et si les en fist il par trois foiz requerre par ses grans barons, et, quant il vit que il n'en vouloient autre chose fere, il les fist venir en la manière que il voudrent, et si leur fist grant joie et moult les honoura si comme il meismes sevent. Si vous fet assoir, sire, le dit Argon que, se li dit vostre message firent ce par vostre commandement, il en est tout liez, car tout ce qui vous plest li plest aussi, priant vous que se vous li envoiez jces ou autres messages, que vous vouilliez souffrir et commander leur que il facent tele reverence et honeur comme coustume et usage est en sa court, sanz passer feu.

Et je, Busquarel, devant dit message d'Argon offre mon cors, mes freres, mes enfans et tout mon avoir a mettre tout et jour ou service de vous monseigneur le roy de France, et vous promet que se vous voulez envoier messages au dit Argon, que je les menerei et conduirei a meins la moitié de despens, travail, peril et doute que il ni ont esté, quant a vous plera.

---

**أنظر: Abel-Remusat(J.), Mémoire sur les relations politiques des Princes Chretiens, et particulierement des Rois de France, avec les Empereurs Mongols, in Memoires de l'Istitut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, VII, Paris, 1824, pp. 172- 174 ;**
**Chabot, "Notes sur les Relations du Roi Argoun avec l'occident", dans la Revue de l'Orient Latin, Vol. II., Paris, 1894, pp. 610- 113.**

## 28/ رسالة البابا نيكولاس الرابع سنة 1289م إلى الإيلخان أرغون يحملها جون مونت كورفينو John of Monte Corvino :

**Argoni, regi Tartarorum illustri, gratiam in praesenti quae Perducat ad gloriam in futuro**

Inter caetera desideria cordis nostri, hoc novimus esse potissimum, hoc propensius affectamus ut cuncti reges et principes orbis terrarum, caeterique gentium populi sic salubriter dirigant gressus suos, sic provide suorum operum moderentur habenas, ut, post vitae praesentis exitum, quae nullius cetitudinem status habet, salus laeta proveniat animarum, ideoque uberibus perfundimur gaudiis, cum illos perpendimus fore dispositos ad complacendum altissimo per laudabilium exercitium actionum.

Dilectus filius frater Johannes de Monte Corvino, de ordine Minorum, lator praesentium, ad nostram, de orientalibus partibus, praesentiam veniens, attentae relationis officio, nostro apostolatui patefecit, quod tu, tanquam a Domino, in cujus manu corda sunt terrenorum principum, inspiratus et specialis gratiae dono praeventus, erga nos et Romanam ecclesiam ac alias etiam christianorum ecclesias magnae divotionis geris affectum. Adjecit etiam, dictus frater, quod sibi ejusque sociis, dum in tuis partibus morarentur, Christi prosequentes obsequia, humanitatem grandem et benignitatem exuberem tua clementer exhibuit magnitudo, quodquedegentibus in terries tuae ditionis subjectis imperio fidei cultorubus, te benignum et benevolum exhibes, eosque, non sine sonoro praeconio et dispositionis indciis ad salutem, quam de bono semper in melius deduci cupimus in augmentum, sedulae tuitionis auxilio confoves et favore prosequeris gratioso.

Nos autem,tam gratis et ecceptis rumoribus intellectis, laetati fuimus in immensum Cum tuae salutis augmentum sinceris affectibus cupiamus, celsitudini regiae tanto proinde Profusiores gratias referentes, quanto id uberioris benignitatis zelus exsequitur et ex Magnificentia proventit ampliori. Porro, princeps egregie, sicut magnificentiae regiae Per alias nostras litteras, tibi, per venerabilem fratrem nostrum Roban Barsamma, in partibus Orientis episcopum, et nonnulios tuos nuncios ad nos missos, duximus intimandum, nos, qui, quamvis insufficientibus meritis, vicarii Christi sumus et Petri Apostolorum principis successores, quamplurimum cupimus et ardenti desederio affectamus, ut quos baptismatis unda non diluit et fidei christianae religio non includit, erroris invio, per quod gressibus periculosis oberrant, omnino relicto, ad rectitudinis semitam revocentur et fidem servent fideliter supradictam.

Haec est etenim, sicut magneficentiae regiae, per jam dictas notificavimus literas, fides recta, fides vera, quae felicitatis sperandae fiduciam Repromittit, et sine cujus suffragio placere Domino nemo potest. Haec est, quae reatus expurgat, quae commoda salvationis impendit et per quam aeterna gaudia, bonis concurrentibus actibus, acquiruntur. Per hanc hoetis

antiquus de arce mentis expellitur. Haec corda purificat, et infidelitas nubilum suae radiis expiat claritatis. Haec est virtutum omnium fundamentum, sydus irradians, stella micans, solem justitiae intelligentiaeque praeveniens, per quam dies oritur gratiae, per quam dies gloriae subsequitur.

Excitamus itaque magnetudinem regiam et hortamur attente, tibique, cujus in hac parte salutem exquirium, sano et sincero consilio suademus, quatenus alta et sedula meditatione recogitans quam fragilis et caduca humanae naturae condicio, quam plena periculis, quam exposita casibus, quam sit instabilis status ejus, considerans etiam quod a lege mortis, qua nihil certius cernitur, nihil habetur incertius hora ejus, nullus excluditur, nullus effugit metas suas, nullus a Domino redditur exemptus illius, promptus exurgas, praesto te offeras, paratus accedas ad agnitionem christianae fidei, ac suscipiendum baptismatis sacramentum, ad laudem divini nominis, tuae salutis profectum et augmentum fidei supradictae, ut lucis suae radio illustratus, ejus triomphalis efficiaris athleta, illius fines amplificans, terminosque dilatans, ut post vitae praesentis ergastulum a porta inferi libereris, et, ejus diris cruciatibus poenisque gravissimis evitatis, aeternae beatitudinis praemia, quae omnem delectationem excedunt, tanquam princeps emeritus consequaris.

Caeterum praelibatum fratrem Johannem et ejus socios ad partes ipsas salubre prosequuturos negocium quod ceperunt fiducialiter Remittendos instanter exposcimus ut eos, intuitu Dei et ob reverentiam Apostolicae Sedis et nstram, benigne habeas commendatos, eis super hujusmodi exequutione negocii favorem regium impensurus, cujus fulti presidio utilius et efficacius se habere valeant in hac parte, quodque aliquos ex ipsis tecum jugiter teneas qui tibi tuoque proponant populo verbum Dei, et de salute tractare valeant animarum.

Dat. Reate, idibus julii, anno II.

---

**أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 595- 596.**

## 29/ رسالة البابا نيكولاس الرابع سنة 1289م إلى قوبلاي خان الصين يحملها جون مونت كورفينو John of Monte Corvino :

**Nicolaus, etc….. Cobla Chan,magno principi Tartarorum,**
**gratiam in praesenti quae perducat ad gloriam in future.**

Gaudemus in Domino, princeps egregie, tibique devotas et uberes Gratiarum referimus actiones, quod ipse in cujus manu corda sunt principum Terrenorum, te, prout laetanter audivimus, suae dono gratiae clementi pietate praeveniens, illo tui pertoris intima foecundavit affectu, quod ad christianitatis terminos ampliandos dirigitur desiderium mentis tuae. Dudum siquidem, post nostrae promotionis initia, certos nuncios ad nostrum praesentiam ex parte magnifici principis Argonis, regis Tartarorum illustris, transmissos, recepimus, nobis aperte referentes quod ad personam nostrum et Romanam Ecclesiam, et etiam gentem seu populum latinorum, grandis devotionis affectum magnificentia tua gerit, dictique nuncii ex parte regia cum instantia petierunt, ut aliquos religiosos latinos ad tuam praesentiam mitteremus. Nos autem, tam gratis et acceptis de tanto tamque sublimi principe rumoribus intellectis, exultavimus in domino vehementer, cum tuae salutis augmentum tuique nominis gloriam sinceris affectibus cupiamus, Patri luminum, a quo est omne datum optimum et omne donum perfectum, humiliter Supplicantes ut tui pectoris intima de bono semper in melius munere suae inspirationis Illuminet ac suae gratiae rore perfundat, ad laudem sui gloriosi nominis et honorem.

Volentes igitur votis regiis benigne annuere in hac parte, ac desiderantes admodum ut ad suscipiendam christianam fidem, quam praedicta Romana tenet et servat Ecclesia, promptus accedas, praesto te offeras, studiosus occurras, cum sine upsius comitante suffragio suffragio placere Altissimo nemo possit, ecce dilectum filium fratrem Johannem e Monte Corvino, cum ejus sociis de ordini Minorum, latorem praesentium, ad te duximus destinandum, cum instantia postulantes ut ipsum et socios supradictos benigne habeas commendatos, eis, quorum doctrinae, cum salutis commoda suggerat, te inseparabiliter cupimus adhaerere, super salubri commisso illis negocio, quod salute respicit animarum, regii favoris auxilium impensurus, ut, ejus fulti praesidio, utilius et efficacius habere se valeant in eodem, tuque a Domino, qui pro minimis grandia recompensat, aeternae beatitudinis praemia consequaris.

Datum Reate, iij idus julii, anno II.

---

**أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 597- 598.**

## 30/ رسالة البابا نيكولاس الرابع سنة 1289م إلى الأسقف النسطوري ماجبالاها يحملها جون مونت كورفينو John of Monte Corvino :

**Venerabili fracti.., patriarche Nestorianorum, salutem et apostolicam benedictionem.**

Disponente summi Regis arbitrio, cujus providentie magnetudo celestia simul et terrena disponit, ad apicem apostolice dignitatis assumpti, grandi desdero ducimur ut sic cunctorum gressus mortalium salubriter dirigantur, sic illi suorom operum moderentur habenas ut accepti reddantur Altissimo eisque salus proveniat animarum. Quid enim illa jocundius, quid desiderabilius, quid in terris pretiosius for dinoscitur, cum, si totius orbis quis sibi dominium vindicet, prout evangelica testatur auctoritas, nichil prosit, si detrimentum anime patiatur ?

Quamobrem multiplici reddimur attentione solliciti ut universi per mundum populi constituti, Christo domino. Sub christiane fidei religione commilitent, quam sacrosancta romana acclesia tenet firmiter et observant, que ut semitam preparat panditque aditum ad eterna gaudia promerenda. Speramus insuper ut et tu, cui multus, ut dicitur, subjectus est populus, magno desiderio ferveas et solerter exquiras, ut per laudabilium exercitium actionum sic suo creatori complaceat ut salutis commode mereatur, quod absque ipsius observatione fidei, que reatus expurgat, maculas diluit, nequit penitus pervenire. Ideoque fraternitatem tuam paternis exhortamur affectibus ut in filio Dei patris, tibi sinceris mentibus suademus suademus, quatenus ad observandam fidem catholicam, quam sicut premittitur tenet et servat romana ecclesia inconcusse, ac etiam ad ipsius ecclesie unionem, sublato cujuslibet tarditatis obstaculo et nexibus difficultatis effractis festinus acceleres, promptus advenias, occurras spontaneous, studiosus accedes, eo majoris restributionis premia proinde consecuturus a Domino quo plures ad id tuo exemplo laudabili evocabis, cum facile trahi soleat in exemplum a subditis quod agi conspicitur a prelatis.

Speramus etenim magnaque fiducia ducimur quod premissa libenter et efficaciter Adimplebis, subjectum tibi populum ad ea diligenter et sollicite inducendo, cum sicut dilectus filius frater Johannes de Montecorvino, de ordine fratrum minorum, lator presentium, multa bona multaque laudabilia opera, que letanter audivimus, de tuis studiis nobis duxerit referenda. Suscipe igitur reverenter exhortationem sinceram et salubrem devolus amplectere Christi vicarii suadelam, sic te laudabiliter gerere studeas ad honorem et gloriam omnium conditoris ut in conspectu ejus reddaris acceptior cumulo meritorum. Ceterum instanter expetimus ut eumdem fratrem et ejus socios spetialiter habeas commendatos, ipsosque benigne ac favorabiliter prosequaris, ut, tali et tanto muniti presidio, utilius et commodius in ministerio se gerere valeant quod exercent et ad laudem divini nominis opera efficatius prosequi Jesu Chrsti.

Ut autem in fide Christiana predicta plenius et melius valeas alios informare, dictam fidem et ejus formam presentibus fecimus anotari que tales sunt : Credimum Sanctam Trinitatem, Patrem et Filium et Spiritum Sanctum, etc., ut habetur regestrata in regestro primi anni litterarum curie ejusdem domini Nicolai, cap. XIII[e], usque Dat.

Dat. Reate, idibus julii, anno secundo.

---

أنظر : **Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, pp. 599- 600.**

**31/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الرابع (1288-1292م) الأولى المؤرّخة في 2 ديسمبر 1290م إلى إدوارد الأول Edward I ملك إنجلترا يوصيه بحسن استقبال بوسكارال buscarel مبعوث الخان المغولي أرغون (التي أوردها دوسن d'Ohsson(C.)):**

«Lorsque nos chers fils, et hommes nobles, André, appelé naguére Zagan, qui inspiré par Dieu, a reçu dernierement le baptême, a notre cour apostolique, des mains de l'évêque d'Ostie, avec son neveu Dominique, nommé auparavant Gorgi, et Barcarellus de Gisulf, citoyen génois, ainsi que Moracins, envoyés d'Argon, illustre roi dr Tartares, porteurs des présentes, arriveront à votre cour, nous vous prions de les bien recevoir, et d'écouter avec attention ce qu'ils ont à vous communiquer, et à les expédier aussi promptement que possible, car nous nous proposons, à leur retour auprés de nous, d'envoyer avec eux, notre légat special au dit roi.».

---

**انظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, pp. 76- 77.**

## 32/ الخطاب الأوّل للبابا نيقولا الرابع إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا في 2 ديسمبر 1290م (عند شابو (Chabot(J.b.) :

**Voici la premiere de ces lettres :**

**Nicolaus, episcopus servus servorum Dei charissimo in Christo filio Edwardo, regi Angliae illustri, salutem et apostolicam benedictionem.**

Cum dilecti filii, nobiles viri Andreas dudum dictus Zaganus (qui nuper a Domino inspiratus, una cum nepote suo Dominico pridem vocato Gorgi, apud Sedem Apostolicam per manus venerabilis fratris nostril L. Ostiensis episcope gratiam lavacri baptismalis accepit) et Bascarellus (sic) de Gisulfo, cives Januensis, ac Moracius, magnifici viris Argonis regis Tartarorum illustris nuncio, lators praeseutium, ad tuam praesentiam confidenter accedant : Celsitudinem regiam rogandam attente duximus et hortandam quatinus pro ejusdem sedis ac nostra reverential, nuncio ipsos benigne recipiens et pertractans, diligenter audias quae coram te duxerint proponenda : stadium prout commode poteris impendendo sollicitum ad expeditionem celerem eorumdem : sic te in hoc efficaciter habiturus ut devotionem regiam exinde non immerito commendemus. Nos enim ad praefatum regem, cum nuncios ipsis, in corum ad nos reditu, destinare proponimus nostrum nuncium specialem.

Dat. apud Urbem Veterem, iiij nonas decembris pontificatus nostri anno tertio.

**TRADUCTION de la premiere lettre** — **ترجمة الرسالة الأولى :**

**Nicolas, évêque, serviteur des serviteurs de Dieu, un fils le plus aimé dans le Christ, Edward, roi d'Angleterre, salutations et la bénédiction apostolique.**

Lorsque les fils bien-aimés, les nobles des hommes d'il ya longtemps Andrew Zagan (qui avait récemment été inspiré par le Seigneur, avec la longue appelé son petit-fils, gorges du Seigneur, au Siège apostolique, par les mains de notre vénérable frère la grâce de la cuve du baptême à l'évêque d'Ostie a nostry 50) et bascarellus (sic) de Gisulfo, les citoyens d'un Génois, et Morace, magnifique pour les hommes illustres de l'argon, comme des messagers du roi des Tartares, porteurs de ces cadeaux, la présence de la sécurité de votre propre approche, votre altesse royale, de diriger notre attention et demandent instamment que pour le même trône, et révérencieux, les messagers du bénéficiaire de leur bienveillance, et de traiter avec eux, ce qui est en face de vous avez écouté attentivement Chaque fois que le stade de proposer aussi bien être en mesure de faire campagne sur leur nom les soucis disparaissent rapidement, de sorte que vous avez à être efficace dans cette dévotion est pas sans raison que nous félicitons le tribunal a ensuite. Car nous, par l'au roi susdit, tandis que les messagers d'entre eux, nous sommes des hommes de revenir, je me propose de mettre de côté pour notre messager spécial.

Dat. la vieille ville, sur les nones quatrième de Décembre de la troisième année de notre pontificat.

---

أنظر : **Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 617.**

## 33/ الخطاب الثاني للبابا نيقولا الرابع إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا في 31 ديسمبر 1290م (عند شابو (Chabot(J.b.) :

**Voici la deuxieme de ces lettres :**

**Nicolaus, episcopus servus servorum Dei charissimo in Christo filio Edwardo, regi Angliae illustri, salutem et apostolicam benedictionem.**

Cum nobilis vir Saabedin Archaon, magnifici viri Argonis, regis Tartarorum illustris, nuncius has tibi litteras deferens, ad praesentiam regiam confidenter accedat : Celsitudinem regiam rogandam attente duximus et hortendam, quatenus pro nostra et Apostolicae Sedis reverential, nuncium ipsum benigne recipiens et affectuose pertractans, diligenter audias quae coram te pro parte Regis ejusdem duxerit proponenda, et, quantum cum Deo et fidei Christianae profectu, ac regiae dignitatis honore poteris, ejus honesties petitionibus condescendas.

Dat. apud Urbem Veterem, ij Kalendas januarii pontificatus nostri anno tertio.

**ترجمة الرسالة الثانية :** **TRADUCTION de la deuxieme lettre**

**Nicolas, évêque, serviteur des serviteurs de Dieu, à le fils bien-aimés dans le Christ, Edward, roi d'Angleterre, salutations et la bénédiction apostolique.**

Quand un noble Saabedin Archaon, hommes orgueilleux, argon, illustre roi des Tartares, portant nouvelle pour vous cette lettre, en présence d'approche de la sécurité royale, votre altesse royale, diriger l'attention et insister pour que notre respect pour le Siège Apostolique, le destinataire du message de bonté et affectueusement touchante, écoutant attentivement eux les conduira, qui doit être proposé dans la présence de vous, au nom du roi de la même chose, et, autant que avec Dieu et le progrès de la foi chrétienne, et d'être en mesure d'honorer la dignité du roi, par ses pétitions honnêtes et le confronter.

Dat. la vieille ville, ij des Calendes de Janvier, dans la troisième année de notre pontificat.

---

**أنظر : Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 618.**

**34/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الرابع (1288-1292م) المؤرّخة من روما في 21 أوت 1291م إلى الخان المغولي أرغون ويحملها الراهبان غليوم دي شيريو Guillaum de Cherio ومتى دي سيبيتات ثياتينا Mathieu de Civitate Theatina (باللغة اللاتينية):**

Aprés lui avoir recommandé tous les chretiens de son royaume, il ajoute :

«Au reste si nous ne vous envoyons pas ce que vous nous avez demendé par votre envoyé (c'est vraissemblablement des présents ), V.A.R. ne doit pas s'en étonner, parce que, en notre qualité d'éclésiastique, nous n'en avons pas l'usage ;», et il termine en lui reccomandant les freres Guillaume de Cheriot, penitentiaire, et Mathieu de Civitate Theatina, de l'ordre des mineurs, qui se rendent avec ces lettres a la cour d'Argoun. (1)

**(1) انظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, pp. 77- 78 ; Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 619.**

*Magnifico viro* ARGONI, *regi Tartarorum illustri, gratiam in praesenti, quae perducat ad gloriam in futuro.*

Solita benignitate recepimus litteras quas nobis per dilectum filium nobilem virum Chaganum, tuum nuncium, direxisti, et ea quae continebantur in ipsis pleno collegimus intellectu. Nos autem, celsitudinis regalis affectibus, quos in beneplacitum Domini dirigi cupimus, annuentes, super contentis in literis supradictis favorabiles et affectuosas litteras, prout a nobis instantius postulasti, carissimo in Christo filio nostro Eduardo, illustri regi Angliae, duximus dirigendas. Sane, princeps magnifice, salutem tuam sinceris affectibus diligentes, penes magnitudinem regiam, per alias nostras litteras, quas sincera charitas produxit in medium, duximus hactenus insistendum, ut sacrum baptisma reciperes, teque christianae fidei titulis insignires, ut in conspectu Regis altissimi, qui virtutum omnium operator, coelestia simul et terrena disponit,

gratus et acceptus occurreres, honor regius incrementa susciperet, et augeretur in populis gentium nomen tuum, tuque fama et viribus cresceres, laudando christianorum consortio copulatus.

Cum autem noster hujusmodi circa te tuamque salutem affectus exuberet, teque ipsis fidei aggregari cultoribus cupiamus, magnitudinem tuam, sicut iterum, sic attentius et instantius rogandam duximus et hortandam, tibi ex intimo cordis affectu nihilominus suadentes, quatenus, diligenter considerans et prudenter advertans, quod cum dilectum filium nobilem virum Nicolaum, natum tuum, quem affectione sincera diligimus et favore prosequimur speciali, feceris non sine laudum amplo preconio baptizari, dignum et decens fore dignoscitur, ut et ad tuae laudandae intentionis propositum apertius exprimendum praefatum baptisma sub mentis devotione recipias et christianam fidem, quae humana illuminat pectora, et sine qua placere Deo nemo potest, submotis quibusvis obstaculis, et impedimentis quibuslibet eminus relegatis, promptis assumas constantibus animis observandam, ac universos Christicolas in terris tui dominii consistentes habens favorabiliter commendatos, eisque te reddens in favore munificum et benignum, ipsos tuae potentiae brachio tuearis, ut per bonorum exercitium operum, post vitae praesentis excursum, quae nullius certitudinem status habet, ad supernae beatitudinis patriam perducaris, aeternis gaudiis cum electis caeteris potiturus.

Caeterum si ea que per eumdem nuncium tibi postulasti transmitti non mittimus, celsitudo regia non miretur, quoniam nos, personae uti ecclesiasticae, usum talem non habemus.

Ad haec dilectos filios fratres Guillemum de Cherio, poenitentiarium nostrum, et Matthaeum de civitate Theatina, ordinis Minorum, latores praesentium, quos ad praesentiam regiam pro tua tuaeque gentis salute destinamus, pro Apostolicae Sedis et nostra reverentia, benigne recipias et favorabiliter prosequaris, illosque diligenter audias et consiliis ipsorum salubribus efficaciter acquiescas.

Dat. apud Urbem Veterem, XII kal. sept., anno IIII.

---

أنظر: **Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 619- 620.**

**35/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الرابع (1288-1292م) المؤرّخة من روما في 23 أوت 1291م إلى الخان المغولي أرغون بمناسبة احتلال مدينتي عكا وصور Acre et de Tyr par les ennemis de la croix ويحملها الراهبان غليوم دي شيريو Guillaum de Cherio ومتى دي سيبيتات ثياتينا Mathieu de Civitate Theatina (باللغة اللاتينية):**

*Magnifico viro* Argoni, *regi Tartarorum illustri, gratiam in presenti que perducat ad gloriam in futuro.*

Precurrentis fame relatibus que litterarum et nuntiorum de more prevenit missionem, ad notitiam regiam credimus jam perductum, qualiter etiam non sine totius Christianitatis obprobrio Terra Sancta funiculus hereditatis dominice ac sacratissima, et alia loca ejus ad manus devenerunt alienas, inter que, proh dolor! Acconensis civitas venisse dinoscitur in ruinam quam etsi Romana ecclesia veluti pia mater sollicite vitare studuerit, ut expectare sufficeret adventum passagii generalis in galeis aliisque vasis maritimis, copiis bellatorum et pecuniariis subveniendo subsidiis, prout exinde necessitas nunciata suggessit et series super hoc oblate multotiens petitionis exegit; nichilominus tamen civitas eadem sic prompto talique ipsius ecclesie munita suffragio, sic diligenter instructa, post artissime obsidionis instantiam, quam contra eam in multitudine copiosa per temporis spatium hostilis continuavit impietas, die noctuque ipsam frequentibus machinarum ictibus atterendo et renovando infestos quasi continue sibi succedentes insultus et ipsius etiam menia arietando cuniculis, ante faciem persequentium cecidit occupata et voracibus flammis exposita, per eosdem, christicolis, qui tunc inhabitabant eandem, pro parte maxima crudeliter interemptis, reliquis, prout asseritur, in capturam deductis, ac civitate Tyrensi multo proinde terrore concussa quasi e vestigio ejus extitit deditio subsecuta.

Cum igitur ad recuperandam de manibus impii terram ipsam ferventibus studiis intendentes, cunctos orbis terrae catholicos reges et principes per nostras litteras excitemus, ut, ob reverentiam Jesu Christi, opem pro viribus impendant et operam ad hujus modi negocium celeriter et feliciter promovendum; et charissimus in Christo filius noster Eduardus, rex Anglorum illustris, prout ad tuam notitiam forsitan jam pervenit, vivificae crucis assumpto signaculo, in brevi, actore Domino, in manu potenti transfretare intendat; ac per universas Christianitatis provincias, contra nefandissimos Sarracenos ordinaverimus facere proponi sollicite verbum crucis; firmaque nobis credulitas suggerat, quod praetactum negocium, si tuae potentiae brachio fulciatur, votivum et festinum sortietur effectum; magnitudinem tuam rogamus et hortamur attente, instanter petimus et requirimus confidenter, quatenus, promptis et reverentibus animis sacrum baptisma recipiens et divinis placitis te coaptans, ad recuperationem celerem dictae terrae, ac etiam ad suorum hostium nequitiam et superbiam conterendam, tuae potentiae vires exerceas, prout utilius regiae magnitudo prudentiae viderit expedire; ad id subditos tibi populos sollicitis studiis inducendo, ut tuo et aliorum regum et principum ac aliorum fidelium auxilio suffragante, celerius recuperatio eadem valeat provenire; tuque ab illo, qui dat gratias et proemia elargitur, condignae retributionis impendia consequaris, et praeter humanae laudis sonora praeconia tibi exinde proventura, nos magnitudinem regiam non immerito commendemus.

Ad haec multae benignitatis affectum, quem christianis in partibus ipsis morantibus favorabiliter exhibes, uberibus gratiis prosequentes, petimus ut hujusmodi affectum regia celsitudo continuet circa illos. Caeterum dilectos filios fratres Guillelmum de Cherio, poenitentiarium nostrum, et Matthaeum de civitate Theatina, ordinis minorum, latores praesentium, quos ad tuam praesentiam destinamus, pro tua tuaeque gentis salute, pro Apostolicae Sedis et nostra reverentia, benigne recipias et favorabiliter prosequaris, illosque diligenter audias, et salubribus ipsorum consiliis efficaciter acquiescas.

Dat. apud Urbem Veterem, x kalend. septembris, anno IIII.

---

أنظر : **Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 621- 623.**

**36/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الرابع (1288-1292م) المؤرّخة من روما في 13 أوت 1291م إلى أوروك خاتون Ourouk Khatoune ويحملها الراهبان غليوم دي شيريو Guillaum de Cherio ومتى دي سيبيتات ثياتينا Mathieu de Civitate Theatina (باللغة اللاتينية):**

*Charissimae in Christo filiae* Anichohamini, *reginae Tartarorum illustri.*

Gaudemus in Domino, a quo universorum charismatum dona manant, quod tu, sicut habet fide digna relatio, christianae fidei radio illustrata, ipsam et intentis observas studiis, et, ad ejus agnitionem ac terminos ampliandos attenta et sollicita, exhibes opem et operam efficacem. Re vera, charissima filia, per hujusmodi laudanda opera et salubria studia in conspectu Regis aeterni grata, redderis et accepta, et dilatabuntur in saeculo sonora praeconia famae tuae. Excitamus igitur in Domino magnitudinem tuam et hortamur in Filio Dei Patris, quatenus, mentis tuae oculis erectis ad Dominum, cujus obsequiis salubriter adhaesisti, praemissa de bono semper in melius prosequaris, ut eo gratior et praemiis digna majoribus occurras Domino Deo tuo, quo uberiores bonorum operum in ejus horreum manipulos introduces.

Caeterum, cum nobiles viros Saronem et Cassianum, fratres, filios magnifici viri Argonis, regis Tartarorum illustris, ad assumendam fidem catholicam per nostras exhortatorias litteras excitemus, eos, ut precibus nostris animis promptis obtemperent, prudenter inducere studeas, prout tibi Dominus ministrabit.

Cum autem dilectos filios fratres Guillelmum de Cherio, poenitentiarium nostrum, et Matthaeum de civitate Theatina, ordinis Minorum, latores praesentium, ad partes ipsas pro salute gentis ipsarum fiducialiter destinemus, ipsos, pro nostra et Apostolicae Sedis reverentia, benigne recipias et favorabiliter prosequaris, eis super commissis sibi negociis tuum favorem et auxilium, cum ab eis requisita fueris, impensura. Nos enim benedictionem nostram tibi tenore praesentium in tuorum remissionem dirigimus peccatorum.

Dat. apud Urbem Veterem, idibus augusti, anno IIII.

---

**أنظر: Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 623- 624.**

**37/ مظمون ما ورد في رسالة البابا نيكولا الرابع (1288-1292م) المؤرّخة من روما في 12 سبتمبر 1291م إلى أولجايتو لتهنيئه على تنصره (باللغة اللاتينية):**

*Dilecto filio nobili viro* NICOLAO, *nato magnifici viri Argonis, regis Tartarorum illustris, salutem et apostolicam benedictionem.*

Exultat cor nostrum in Domino, a quo universorum dona manant quod, sicut fide dignis aperitur affatibus, tu, supernae claritatis radio illustratus, et coelestis gratiae benedictione praeventus, ad fontem baptismatis, non sine laudum sonoro praeconio, promptis animis convolasti. Quod eo acceptius et gratius nostris accidit affectibus, quo te sincerius gerimus in visceribus charitatis, tuaeque salutis et honoris augmentum votis ferventibus affectamus.

Rogamus nobilitatem tuam et hortamur in Filio Dei Patris, quatenus circa dona et laudabilia opera et virtutes, per quae coelorum regnum acquiritur, tanquam benedictionis filius, vigilantibus et continuis studiis te exercens, christianam fidem, cujus praecelsis insigniis te salubriter decorasti, sub mentis constantiae et sincerae devotionis affectu studeas observare, ut clara tuae professionis initia observationis continuae laudabilis commendet effectus, caeterique tuo salubri exemplo inducti, ad ejusdem assumptionem fidei propensius excitentur; tuque, post vitae praesentis curricula, quae nullius certitudinem status habent, aeternae beatitudinis premia, quae suis electis reservavit Altissimus, consequaris.

Caeterum tibi affectuose consulimus et attentius suademus, quod in habitu seu vestibus vel in victu, ne inde materia dissensionis aut scandali contra te forsitan in gente tua valeat suboriri, nullam mutationem facias; sed in eis consuetudinem illam serves quam ante baptismi lavacrum observasti.

Ut autem ipsius fidei series tibi plenius innotescat, eam tibi annotatam inferius destinamus, quae talis est : « *Credimus sanctam Trinitatem...* »

Caeterum dilectos filios fratres Guillelmum de Cherio, poenitentiarium nostrum, et Matthaeum de civitate Theatina, ordinis Minorum, latores praesentium, quos ad tuam praesentiam et ad partes tuas pro gentis tuae salute dirigimus, pro Apostolicae Sedis et nostra reverentia benigne recipias et favorabiliter prosequaris, impendendo eisdem super commissis sibi negociis, cum ab eis fueris requisitus, auxilium, consilium et favorem.

Dat. apud Urbem Veterem, XII kal. septembris, anno IIII.

---

**أنظر: Chabot(J.b.), « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 625- 626.**

## 38/ مظمون ما ورد في رسالة محمود غازان إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوّة الله تعالى

وميامين الملّة المحمّديّة

فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم السلطان الملك الناصر، أنّه في العام الماضي، بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاما شنيعة، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة، فأنفنا من تهجّمهم، وغرنا من تقحّمهم، وأخذتنا الحميّة الاسلاميّة فجذبتنا إلى دخول بلادهم، ومقابلتهم على فسادهم، فركبنا بما كان لدينا من العساكر، وتوجّهنا بمن اتفق منهم أنّه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنّا، سلكنا سنن سيّد المرسلين، واقتفينا آثار المتقدّمين واقتدينا بقوله تعالى "لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل" وأنفذنا صُحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة، والأئمّة الثقات، وقلنا "هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة" فقابلتم ذلك بالاصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالإضرار، وخالفتم سنن الملوك، وحسن السلوك، وصبرنا على تماديكم وغيّكم، وخلودكم إلى بغيكم، إلى أن نصرنا الله، وأراكم في أنفسكم قضاه "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله" وظننّا أنّهم حيث تحققوا كنه الحال، وآل بهم الأمر إلى ما آل، أنّهم تداركوا الفارطة من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، ووُجّه إلينا وجه عذرهم، فإنّهم ربّما سيّروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصريّة، رسلا لإصلاح تلك القضيّة، فبقينا بدمشق غير مثحثحين، وتثبّطنا تثبّط المتمكّنين، فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم الثواني، وعلّقوا نفوسهم عن اليقين بالأماني، ثمّ بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنّهم ألفوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنّهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراء، وأنّ عزمهم مُصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجّهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقبين ثُبوت دعواهم، وقلنا لعلّ وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ شارق، فقدمنا إلى أطراف حلب، وعجبنا من تبطّيهم غاية العجب، وفكّرنا في أنّه متى تقدّمنا بعساكرنا الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربّما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعمّ الضرر العباد، الخراب البلاد، فعدنا بُقيا عليها، ونظرة لطف من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومُشحدون غرار عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد الإنذار "وما كنّا معذبين حتّى نبعث رسولا". وقد سيّرنا حاملَيْ هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خوجا، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى ابن يوسف، وقد حمّلناهما كلاما شافهناهما به، فانتشقوا بما تقدّمنا به إليهما فإنّهما من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى "فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين" فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالُهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة عند الله في طول تقصيرهم.

فليُمعن السلطان لرعيّته النظر في أمره، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم "من ولاّه الله أمراً من أمور هذه الأمّة فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم، احتجب دون حاجته وخلّته وفقره"، وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، والسلام على من اتبع الهدى – في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة – بجبال الأكراد، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا (محمّد) المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرة.

---

**أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1334ه/1915م، الجزء 8، ص 69-71.**

## 39/ مظمون ما ورد في رسالة الخان غازان إلى البابا بونيفاس الثامن سنة 1302م :

[1] rasan uige manu.
[2] Bab-a Urida ber Bisqarun-iyar
[3] cinu ilegsen duradqal sayin iiges bicig
[4] bidandur kiirbe qariyu inu ber Kokedei kiiregen.
Bisqarun.
[5] Tiimen yurban-iyar.
[6] jrly ilelegei. Ediige ber biigesii mon kii yosuyar turbiju amui
[7] Ta ber cerigiid-iyen jasaju irgen irgen-ui sultad
[8] -tur ilejii boljal uiluiq ojidan.
[9] tngri-yi jalbariju yeke iiile-yi uyuyata nigen JUg
[10] bolyay-a kemen. ede Sadadin Sinanadin Samsadin-i ilebei.
Ta ber.
[11] tngri-yi jalbariju cerigiid-iyen jasadqun Bic'ig
[12] manu doluyan jayud nigen od-tur bars jil qabur-un
[13] ecuiiss ara-yin arban dorben-e Qos Qabuy-a bhikiii
[14] -diir bicibei

**La Traduction** — **الترجمة الفرنسية**

Parole de nous, rasan.
Au pape.
Tes suggestions, bonnes paroles et lettre qu'auparavant tu as
envoyees' par Bisqarun nous sont parvenues, et en reponse nous
avons envoye un ordre par le gendre Kokedei, Bisqarun et Tiimen,
tous les trois.
Et quant a maintenant, nous sommes en train de faire des preparatifs,
exactement de la maniere [mentionnee dans notre reponse].
Vous aussi preparez vos troupes, envoyez [avis] aux
sultans des diverses nations et ne manquez pas la date convenue.
Priant le Ciel, la grande oeuvre (= la guerre contre les Mamelouks)
nous (= Trasan) en ferons entierement l'unique but [de nos efforts].
Disant [cela] nous avons envoye ces Sadadin, Sinanadin et
Samsadin. Vous aussi, priant le Ciel, preparez vos troupes.
Notre lettre, nous [l']avons ecrite l'an sept cent un, l'anne
du tigre, le quatorze du dernier mois du printemps (= 12 avril 1302), quand nous etions a Qos
Qabuy.

---

أنظر : **Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman), Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes, Harvard Journal of Asiatic Studies, vol. XV, Decembre 1952, pp. 470- 471.**

## 40/ مظمون ما ورد في رسالة الملك الانجليزي إدوارد الأوّل إلى الجاثليق مارجبلاها الثالث مؤرحة في 12 مارس 1303م (باللغة اللاتينية):

**Lettre d'Edouard I[er] à Mar Jabalaha (12 mars 1303).**

**Magnae Sanctitatis viro, et in Christo sibi Karisimo Domino Dei gratia, Patrearchae Christianorum Orientis, Edwardus, eadem gratia rex Angliae etc., salutem in ro qui est omnium vera salus.**

Litteras, quas nobis per Buscarellum de Guissurfo, nuncium vestrum, latorem praesentium, transmisistis, recepimus, et ea quae eaedem litterae continebant, una cum credentia, (et) quae idem nuncius vester super aliquibus, negocium Terrae Sanctae tangentibus, nobis dixit ex parte vestra oraculo vivae vocis, intelleximus diligenter. Et quia terra christianorum, versus partes nostras, guerris multipliciter turbata extitit jam est diu, prout sanctitatem vestram credimus non latere, dictusque nuncius vester vobis sciet oretenus plenius aperire, tale consilium quale vellemus,hactenus apponere nequivimus in dicto negocio Terrae Sanctae. Set, cum dominus summus Potifex, cum Omnipotentis auxilio, nos posuerit in tali statu quod dicto negocio intendere valeamus, scire vos volumus quod libenter eidem negocio quod prae omnibus aliis negociis hujus mundi cupimus prosperari, quatenus poterimus intendimus.

Dat. Apud Westmonasterium, 12 die martii, anno ab Incarnatione Domini 1302[(1)].

**(1). C'est- a- dire le 12 mars 1303, et non 1302.**

---

**أنظر : Chabot(J.b.), Documents concernant Mar Jabalaha, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894, p. 637- 638.**

## 41/ مظمون ما ورد في رسالة الخان أولجايتو إلى ملك فرنسا Philippe-le-belle المؤرّخة في 13 أو 14 ماي 1305م (باللغة الفرنسية):

OEldjaïtou, Sultan, notre parole.

Roi de France, Sultan, il n'a pas pu vous échapper que vous, les sultans des Francs, tous, dès l'origine, vous avez été liés d'amitié avec nos bons bisaïeul, aïeul, père et frère aine, et que eux tous, quoique éloignés, se regardant l'un l'autre comme voisins, se sont mutuellement envoyé des exprès avec des présents d'amitié, dans le but de se faire diverses communications. Maintenant que, par la puissance de Dieu, nous sommes monté sur le grand trône, nous ne nous écarterons pas des commandements de nos prédécesseurs, notre bon aïeul, notre bon père, notre bon frère aîné ; nous suivrons leurs préceptes, et ce que ces bons aïeux vous ont promis, nous le tiendrons comme si leurs paroles étaient nos propres serments. Nous nous lierons d'amitié plus encore que par le passé; nous nous enverrons des ambassadeurs. Telles sont nos pensées.

Nous, frères aines et cadets, nous étions désunis, par l'effet de paroles calomnieuses de méchants vassaux ( karadjous ) ; maintenant Temour-Khagan, Toktogha, Tchabar, Togha et nous, principaux descendants de Tchinggis-Khan ; nous tous, aînés et cadets, nous sommes réconciliés par l'inspiration et avec l'aide de Dieu; en sorte que depuis le pays des Nangkiyas (la Chine méridionale), à l'orient jusqu'au lac de Tala , nos peuples sont unis et les chemins sont ouverts. Nous sommes convenus de tomber tous ensemble sur celui d'entre nous qui changerait de sentiments.

Ne pouvant oublier les liens d'amitié qui vous ont unis à notre bon aïeul, notre bon père, notre bon frère aine, je vous envoie deux messagers, Mamalak etTouman. Il m'a été rapporté que, vous, sultans des Francs, vous viviez dans la concorde ; et vraiment ! qui pourrait être meilleur que la concorde ? Chez nous aussi, nous tomberions tous ensemble, par la puissance de Dieu, sur celui qui troublerait notre union : Dieu le sait !

Notre lettre est écrite en l'an 704; le 8 e du premier
mois d'été de l'année du serpent ( 13 ou 14 mai 1305 ),
dans notre résidence d'Alidjan.

---

**أنظر : Pauthier(G.), Histoire des Relations politiques de la chine avec les Puissances occidentales depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, Paris, 1859, pp. 236- 238;**
**d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, pp. 587- 589.**

## 42/ مظمون نص خطاب أولجايتوخان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام 1305م (مترجم إلى العربية) :

هذا خطاب سلطاننا أولجايتو:

إلى ملك فرنسا

منذ القديم كان لكم يا سلاطين شعب فرنسا جميعا علاقات ودية مع أباء أجدادنا الكرام،ومع أجدادنا الكرام ،ومع أبينا الكريم، ومع أخينا الأكبر الكريم، وبالرغم من البعد بيننا كنا نجد(من خلال رسلكم إلينا) تقارباً في الراي، وذلك في إبلاغكم إيانا جميع أخباركم وفي تبادل البعثات وإرسال هدايا السلم.

فلماذ أهملتم الأن كل ذلك؟

وخصوصا الآن، وقد اعتلينا العرش العالي، بفضل قدرة السماء، وأبدينا الرغبة في الحفاظ بدقة على ما رسمه وما نظمه جدنا الكريم وأبونا الكريم وأخونا الكريم، وعلى ألاّ نتخلى عن الاتفاق (الذي وقعوه) مع رؤساء الأراضي القدامى الموزعة حسب النظام الجديد بل، إننا نعتبره واجباً مقدساً، ونريد الاتصالات أكثف مما كانت عليه في الماضي وذلك من خلال تبادل الرسل(المفوضين).

لقد أثرت افتراءات جلساء السوء على حبنا نحن الإخوان ولكن السماء وهبتنا الرأي(*) بأننا نحن وتيمور خان(1) وطقطاخان(2) وجابار وتوغا(3)، والأخيرين أحفاد جنكيز خان يجب علينا أن نضع حداً للإهانات المتادبلة التي شاعت بيننا منذ خمسة وأربعين عاما وحتى الآن وبفضل السماء(*)، فقد تصالحنا نحن الإخوان وجعلنا مراكز الحدود بين ولاياتنا ترتبط بعضها ببعض.

ونحن الآن نميل إلى الاعتقاد بأنكم كذلك تريدون استمرار العلاقات الودية (معنا) كما كانت مع أجدادنا الكرام وأبائنا الكرام وأخينا الاكبر الكريم، (ولهذا) نبعث لكم بالرسولين مالغ وتومان .

لقد وصل إلى علمنا أنكم با سلاطين الفرنسين جميعاً متفاهمون مع بعضهم، وليس هناك في الحقيقة أفضل من التفاهم، وإذا وجد بينكم أو بيننا أناس لا يريدون التفاهم فسنقف بقدرة السماء، صفا واحداً في وجوههم والسماء شاهدة على ما نقول(*).

كتب خطابنا هذا في عام 704 هجرية (1305م) في عام الحية في اليوم الثامن من الثلث الأخير لأول شهور الصيف خلال إقامتنا في أليمان**(4)**.

---

(1) خاقان الصين (1294- 1307م).

(2) حاكم القبيلة الذهبيّة (1291- 1312م).

(3) توغا خان التركستان (1282- 1307م).

(*) ربما قصد أولجايتو من كتابة هذه التعبيرات البوذيّة في خطابه إخفاء حقيقة اعتناقه للاسلام، عن ملوك الغرب الأوربي، حتى لا ييأسوا من التعاون معه ضد المماليك المصريّة.

**(4) أنظر : هلال، عادل إسماعيل محمّد : العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م، ص 285- 286.**

## 43/ مظمون ما ورد في رد إدوارد الثاني إلى الخان أولجايتو المؤرّخة في 16 أكتوبر 1307م

«Nous avons admis les méssagers que V. A. a envoyés avec ses lettres au seigneur Edward, de glorieuse mémoire, dernierément roi d'Angleterre, notre pére, qui avant leur arrivée avait terminé ses jours et nous avons pris connaissance de vos lettres, ainsi que de se que vos messagers ont rapporté de votre part, d'après la créance que vous leur avez donnée.

Nous rendons grâces á votre magnificence royale de la bienveillance et de l'amitie que vous et vos ancétres avez manifestés envers notre père, et que vous nous témoighez aujourd'hui ; de l'envoi de vos ambassadeurs du désir que vous montrez de voir l'union et l'affection saccroitre entre vous et nous, de la mémoire surtout que vous conservez de lamitié qui existait entre vos nobles prédécesseurs et notre père, comme l'a fait voir la série de vos lettres ; ainsi que les autres choses dont vous faites mention.

Nous nous réjouissons dans le seigneur de la paix faite entre vous, par la grâce de Dieu, depuis les bornes de l'Orient jusqu'á la mer.

D'ailleurs, quant á ce qu'on vous a fait savoir que la paix et la concorde renaissent parmi nous en deça de la mer, qui avons été désunis, nous voulons qu'il soit connu á votre exellence royale, que nous croyons et espérons fermement que la concorde et la paix succéderont enfin, dans peu de temps, avec l'aide de Dieu, á toutes les divisions et queurelles qui se sont élevées en diverses parts.». **(1)**

## 44/ مظمون ما ورد في رد إدوارد الثاني إلى الخان أولجايتو المؤرّخة في 30 نوفمبر 1307م :

«Nous emploierions bien volontiers tous nos efforts á extirper l'abominable secte de Mahomet, si la distance des lieux et d'autres difficultés nous le permettaient ; car le temps présent est favorable á un pareil dessein. Si nous sommes bien informés, les livres même de cette abominable secte prédisent sa destruction prochaine. Poursuivez donc votre louable dessein, et veuillez achever ce que vous avez entrepris pour exterminer cette vilaine secte.

Des religieux, gens honnêtes et instruits, se rendent á votre cour dans le but de convertir, avec l'aide de Dieu, votre peuple á la foi catholique, hors de laquelle personne ne peut étre sauvé ; de l'instruire dans cette religion, et de l'exorter á faire la guerre á la détestable secte de Mahomet ; c'est le vénérable frére Guillaume, de l'ordre des Prédicateurs, évêque de Lidd, avec sa vénérable suite, que nous vous recommandons, vous priant de les bien accueillir».**(2)**

---

**(1) أنظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, p. 592- 593.**

**(2) أنظر : d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, p. 593- 594.**

## 45/ مظمون ما ورد في رد إدوارد الثاني إلى الخان أولجايتو المؤرّخة في أوّل مارس 1308م

«Nous avons reçu, avec la bienveillance habituelle du Siége apostolique, votre envoyé Thomas Ildoutchi et les lettres qu'il nous a apportées de votre part, et nous avons pris soigneusement connaissance de leur contenu, de même que nous avons écouté avec attention ce que ce messager nous a dit et proposé de votre part. Nous avons vu avec plaisir, par ces lettres, et par les communications de votre envoyé, que , faisant un appel á notre sollicitude pour secourire et recouvrer la terre Sainte, vous nous avez offert deux cent mille cheveaux et deux cent mille charges de bled qui se trouveraient en Arménie a lépoque où l'Armée des chretiens y arriverait, et, en outre, de marcher en personne avec cent mille cavaliers pour seconder les efforts des chrétiens et expulser de cette terre sacrée les forces ennemies des Sarasins. Nous avons reçu cette offre avec satisfaction . Elle nous a fortifié, comme une nourriture spirituelle. Nous n'avons pas cru que cet ange vint de la part d'un autre que celui qui par son ange, engagea Abacuc á porter á Daniel, dans la fosse aux lions, une nourriture fortifiante. Certe, vous nous avez donné une douce nourriture, en nous offrant l'espoir d'une si magnifique assistance. Ayant mûrement délibéré avec nos fréres, sur cette offre de secours et l'affaire de la récupération désirée de la Terre sainte, bien que de tous nos voeux le plus ardent, celui qui exerce constamment notre méditation, est de voir rendue, par la grâce de Dieu, au culte de la religion chrétienne, la terre qu'ont touchée les piers du Seigneur, il nous a toutefois paru qu'il fallait considérer, qu'il fallait examiner avec la plus grande attention, par quels moyens un dessein si pieux, si saint, pourrait étre conduit á une heureuse issue. C'est pourquoi nous et nos fréres nous aurons soin de soumettre cet objet á une délibération sérieuse, et espérant dans la droite du Trés- Haut, qui fortifie ses serviteurs, nous exécuterons autant qu'il sera en nous, ce que Dieu nous aura inspiré, et lorsque sera arrivée la saison favorable pour passer la mer, nous aurons soin de vous en avertire, par nos lettres ou nos messagers, afin que vous soyez trouvé prêt á accomplir ce que Votre Magnificence a promis; mais vous, tournez vous de foi et d'oeuvre vers le Christ qui est la voie, la verité et la vie ; le servir c'est régner. Persévérez fermement dans votre louable résolution á l'égard de cette terre sacrée ; tâchez, par-lá et par d'autres choses, d'acquérir ainsi sur la terre l'approbation du christ rédempteur, afin que vous méritiez d'obtenir de lui une ample portion de ses délices dans les cieux et de gloire dans ce monde ; nous et le Siége apostolique, nous nous réjouirons de vos honneurs et de vos succés.».

---

أنظر : **d'Ohsson(C.), Histoire des Mongols depuis Tchinghiz-khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, les freres Van Cleef, La Hay et Amsterdam, 1834, T.IV, p. 595- 597.**

**46/ مظمون ما ورد في رسالة تيمورلنك إلى الملك الفرنسي شارل السادس Charles VI المؤرّخة في أوّل محرم سنة 805هـ/1 أوت 1403م باللغة الفارسية (تسعة أيام بعد انتصاره على بايزيد الأول في أنقرة):**

امیر کبیر تمر کوران زید عمره

ملك ری دفرنسا

صد هزار سلام وارزومندی ازین محب خود قبول فرماید
با جهان ارزمندی بسیار بعد از تبلیغ ادعیه بر رای عالی
آن امیر کبیر را نموده می شود که فری فرنسکس تعلیم ده
بدین طرف رسید ومکاتب ملکان را آورد ونیك نامی
وعظمت وبزرکواری آن امیر کبیر را عرضه کرد عظیم شادمان
شدیم ونیز تقریر کرد که با لشکر انبوه روانه شد بیاری باری
تعالی ودشمنان ما را وشما را قهر وزبون کرد من بعد فری جوان
مار جسیا سلطانیه بخدمت فرستاده شد وی بخدمت تقریر
کند هرچه واقع شد اکنون توقع از آن امیر کبیر داریم
که دایما مکاتیب همایون فرستاده شود وسلامتی آن امیر
کبیر باز نماید تا تسلی خاطر حاصل آید دیکر می باید که
بازرکانان شما را بدین طرف فرستاده شود که ایچنانکه
ایشانرا معزز ومکرم سازیم ونیز بازرکانان ما بدان طرف
جوع سازند ایشانرا نیز معزز ومکرم سازند وبر ایشان کسی
زور وزیادتی نکند زیرا دنیا ببازرکان ابادانست رسالت جه
ابرام نمایم دولت باد درکامرانی بسیار سال والسلام تحریر فی
غرة محرم المكرم سنة خمس وثمانماية الهجرية

---

أنظر : **silvestre de sacy(M. Le Baron), Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822, T. VI, pp. 473- 474.**

**47/ التّرجمة اللاتينية لرسالة تيمورلنك إلى الملك الفرنسي شارل السادس Charles VI المؤرّخة في أوّل محرم سنة 805هـ/1 أوت 1403م التي قام بها الرسول الأسقف (تسعة أيام بعد انتصاره على بايزيد الأول في أنقرة(*) وهي ترجمة للسفير وهي غير وفيّة للنص الأصلي الفارسي):**

*Emirus magnus Temir Couran, augeatur vita ejus !*

*Centies mille salutationum et votorum ab hoc suo amico accipere velit rex* REDIFRANSA, *cum multis hujus mundi desideriis (i. e. votis ad hujusce mundi felicitatem pertinentibus). Votis oblatis, notum fiat menti excelsæ hujus magni emiri, quod quo tempore frater Franciscus prædicator (i. e. è fratrum prædicatorum familia) ad has partes venit, litterasque regias attulit, et exposuit bonam famam, magnitudinem et potentiam hujus magni emiri, vehementer gavisi sumus. Nobis quoque narravit quòd (hic emirus) cum magno exercitu profectus fuerit, adjuvante Creatore excelso, et hostes nostros vestrosque vicerit et profligaverit. Postea frater Joannes,* MAR HASIA *(i. e. episcopus) Sultaniensis, ad vos missus fuit : ipse vobis exponet quæcumque evenerunt. Nunc autem ab illo magno emiro speramus, ipsum nobis indesinenter litteras augustas missurum, et de sua salute nos certiores facturum, ut inde solatium nostræ menti obveniat. Oportet præterea mercatores vestros ad has partes mitti, ut quemadmodum illis honorem haberi et reverentiam curabimus, ita quoque mercatores nostri ad illas partes commeent, et illis honor ac reverentia habeatur, nec quisquam vim aut augmentum (i. e. gravamen ultra id quod solvere tenentur) eis faciat, quia mundus per mercatores prosperatur. At quid juvat litteris me longioribus uti ! Celsitudo (vestra) per multos annos felicitate utatur ! Vale.*

*Scripta est (hæc epistola) initio mensis moharram venerandi, anno octingentesimo quinto hegiræ.*

---

(*)أنظر : silvestre de sacy(M. Le Baron), Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822, T. VI, p. 484.

**مصدر الرسالة المترجمة :**

**أنظر : silvestre de sacy(M. Le Baron), Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822, T. VI, p. 474.**

**48/ جواب الملك الفرنسي شارل السادس Charles VI المؤرّخة في 15 جوان 1403م باللغة اللاتينية على رسالة تيمورلنك (باللغة اللاتينية):**

*Carolus, Dei gratiâ, Francorum rex, serenissimo ac victoriosissimo principi Themyrbeo, salutem et pacem. Serenissime ac victoriosissime princeps, nec legi nec fidei repugnat, aut est dissonum rationi, quin potiùs utile censendum est, reges ac dominos temporales, etsi credulitate sermoneque discrepent, civilitatis benevolentiâ et amicitiæ nexu invicem fœderari, ubi per id maximè pax atque tranquillitas redundet ad subditos. Et hinc est, serenissime ac victoriosissime princeps, quòd, cùm litteras vestræ celsitudinis per fratrem Johannem archiepiscopum totius Orientis recepimus, quibus nobis salutis eulogium impertiri voluistis, ac de nostri statûs continentia et regni commoditatibus pariter informari, nichilominus intimare victoriam quam, Altissimo concedente, obtinuistis de Baazito, nobis ad complacentiam hoc cessisse noveritis non modicam, præcipuè coadjuncto quòd magnificentiæ vestræ gratum erat mercatores nostros et ceteros Xpanos cum subditis vestris posse commercia de cetero simul contrahere, et mercantias suas sine impedimento mutuò exercere et agere, necnon ad terras et ditiones vestras accessum amodo habere plenarium, veluti tempore bonorum prædecessorum nostrorum, ut verbis vestris utamur, fuit factum; de quo magnas vobis gratias rependimus atque grates, animo libenti consimiliter annuentes, ac vice volentes reciprocâ, ut vestri ad terras et dominia nostra securè venire ac mercari, sicuti nostri in partibus vestris, possint, quemadmodum hæc et alia quàm multa quæ præfatus archiepiscopus audivit cerneréque potuit in hoc regno, si libeat, referet vivâ voce, cui in præmissis credere ac recommissum habere, ob merita suæ fidelitatis precumque nostrarum interventu magnificentia vestra velit: quæ nobis de suis successibus ad nostram consolationem rescribat, per quotquot de vestris ad istas regiones continget declinare. Demum vestræ magnificentiæ regraciantes de civilitatibus et amicitiis multis, plurimis Xpanis per majestatem vestram factis et impensis, nos offerentes vestrorum opportunitatibus, ubi casus posceret, ad æqualia vel majora. Datum Parisiis, die junii quindecimo, anno Domini nostri Jhu Xpi millesimo quadringentesimo tertio.*

---

أنظر : silvestre de sacy(M. Le Baron), Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822, T. VI, pp. 521- 522.

# قائمة المصادر والمراجع

**أوّلاً – المصادر و المراجع العربيّة:**

**أ- المصادر العربيّة:**

**ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمّد بن عبد الله اللواتي الطنجي)** (ت. 779هـ/ 1377م).

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفت النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكادمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط، 1417هـ/1997م.

**ابن تغري بردي** :أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي(ت. 874هـ/1470م).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/1292م.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمّد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (1423هـ/2003م).

**ابن حبيب، الحسن بن عمر.**

- تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين وسعيد عبد الفتّاح عاشور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د. ت..

**ابن شداد** (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد) (684هـ/1285م).

- تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، المعهد الالماني للأبحاث الشرقية، بيروت، لبنان، 1430هـ/2009م.

**ابن عبد الظاهر (ت. 692هـ/1292م) القاضى محيى الدين أبو الفضل :**

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، حققه عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م.
- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م.

**ابن العبري** :غريغوريوس أبو الفرج أهرون بن توما الملطي الطبيب Bar-Hebræus (623-685هـ/1226- 1286م).

- تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، (1418هـ/1997م) ؛ وطبعة المطبعة الكاثوليكيّة،ط1، بيروت، آب1958م ؛ وطبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1890م.
- تاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة و قدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت، (1406هـ/1986م).

**ابن عماد الحنبلي** :أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي(1031- 1089هـ).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجاريّة، بيروت، دون تاريخ.

**ابن الفوطي** :كمال الدين عبد الرزّاق(ت. 723هـ/1323م).

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2003م.

**ابن كثير**، الحافظ عماد الدين أبو الفدا الدمشقي(ت. 774هـ/1372م).

- البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، مصر، الجيزة، 1419هـ/1998م.

**أبو الفداء** :عماد الدين إسماعيل بن محمد، صاحب حماه(ت. 732هـ/1331م).
- المختصر في أخبار البشر، دار المعارف ، القاهرة، 1999م.
**البكري الأندلسي** (ت487هـ).
- معجم ما الستعجم من أسماء البلاد و المواضع، حقّقه و ضبطه مصطفى السّقا، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، بيروت، (1403هـ/1983م).
**ابن حجر العسقلاني.**
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق سالم الكرنكوي الألماني، دار الجيل، بيروت، 1414هـ/1993م.
**ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمّد**.
- العبر في ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2001م.
**الدوادار المنصوري: ركن الدين بيبرس** (ت. 725هـ/ 1325م).
- زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس ريتشاردز، الشركة المتّحدة للتوزيع، ط1، بيروت، (1419هـ/1998م).
- التحفة المملوكيّة في الدولة التركيّة، تحقيق أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، (1391هـ/1971م).
- التحفة المملوكيّة في الدولة التركيّة، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربيّة اللبنانيّة، القاهرة، ط 1، 1987م.
**الدوداري، ابن أيبك.**
- كنز الدرر وجامع الغرر (المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1379هـ/1960م.
**الديار بكري** :حسين بن محمّد بن الحسن(ت. 990هـ/1582م).
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ط1، مطبعة الفقير عثمان عبد الرازق، القاهرة، 1302هـ.
**الذهبي** :الحافظ شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني(673-748هـ/ 1247-1374م).
- تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، (1418هـ/1998م).
- كتاب دول الإسلام، تحقيق فهيم محمّد شلتوت و محمّد مصطفى ابراهيم، نشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر،(1408هـ/1988م).
- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، (1405هـ/1985م).
**الرمزي:**
- تلفيق الأخبار و تلفيق الآثار في وقائع قزان و بلغار و ملوك التتار، المجلّد الأوّل، أوربورغ، ط1، دون تاريخ.

**السيوطي** :جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد(ت. 911هـ/1605م).
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، 1989م.
- حُسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.

**الشهرستاني** :أبي الفتح محمّد عبد الكريم ابن أبي بكر(479-548هـ).
- الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.

**الشوكاني، محمد بن على بن محمد(1172- 1250م).**
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق محمد حسن خلاق، ط 1، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1427هـ/2006م.

**ابن عربشاه** : أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمّد الدمشقي (ت. 854هـ).
- عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1407هـ/1986م.

**العيني : بدر الدين محمود**(ت. 855هـ/1451م).
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتاب والوثائق القوميّة، مصر، القاهرة، 1431هـ/2010م.
- منتخبات من كتاب عقد الجمان، في Recueil des Historiens des croisades, Documents Orientaux, publication de l’academie des inscriptions et Belles Letters, Paris, 1869-1906.

**ابن فهد: عز الدين بن عبد العزيز بن عمر بن محمّد بن فهد الهاشمي القرشي (850-922هـ).**
- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط 1، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، 1409هـ/1988م.

**القلقشندي** :أبي العبّاس أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي(ت. 821هـ/1418م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1334هـ/1915م.

**المقريزي** : أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العبّاس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (766-845هـ/1365-1441م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره وعلّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1956م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.
- المقفّى الكبير، تحقيق محمّد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م.

**النويري** :شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت 733هـ/1332م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى فوّاز و حكمت كشلي فوّاز، دار الكتاب العلميّة، ط1، بيروت، (1424هـ/2004م).

**النويري السكندري**، محمد بن قاسم بن محمد (ت. بعد 775هـ/1372م) :
- الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، 1393هـ/1973م.
**الهمذاني** : رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة (ت.716هـ/1316م)،
- جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة و ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، (1420هـ/2000م).
- جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ترجمة محمّد صادق نشأة، و محمّد موسى هنداوي، و فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو1960م.
- جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، تعريب فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1983م.
- جامع التواريخ، تاريخ المغول الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، تعريب فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د.ت.
**ياقوت الحموي الرومي** :شهاب الدين أبو عبد الله(ت.622هـ/1228م).
- معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، طبعة لبنان، (1397- 1399هـ/1977- 1979م).
**اليونيني : موسى بن محمّد البعلبكي.**
- ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف الإسلاميّة، الهند، 1954-1961م.

**بـ- المراجع العربيّة و المعرّبة:**

**إديوري بيتر( و.).**
- قبرص والحروب الصليبيّة، دار الملتقى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1997م.
**أربري.**
- تراث الفرس، ترجمة محمّد كفافي و أحمد الساداتي و السيّد يعقوب بكر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، 1959م.
**أرمسترونغ، كارين.**
- الحرب المقدّسة (الحملات الصليبيّة و أثرُها على العالم اليوم)، تعريب سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.
**أرنولد(سير توماس و.)Sir Thomas W. Arnold.**
- الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة)، ترجمه إلى العربيّة و علّق عليه حسن إبراهيم حسن و عبد المجيد عابدين و إسماعيل إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصريّة، ط2، القاهرة ،1957م.
**أماري ميخائيل.**
- المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، (ليبسك 1858م)
**الإنطاكي(داوود).**
- تزيين الأسواق في أخبار العشاق، دار أحمد و محيو، الطبعة الأولى، 1972م.

**بارتولد.**
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، (1378هـ/1958م) ؛ و طبعة سنة 1960م.
**باركر أرنست.**
- الحروب الصليبيّة، ترجمة الباز العريني، الطبعة الثانية، دار النهضة العربيّة، ط2، بيروت، (1386هـ/1967م).
**براون.**
- تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السّعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، مصر، 1373هـ/1954م.
**جمعة، أبو عبد الرحمن عبد المجيد.**
- كتاب شيخ الاسلام ابن تيميّة إلى سُرجوان ملك النصارى الشهيرة ب "الرسالة القبرصية"، مكتبة الحفظ الذهبي، ط1، باب الوادي، الجزائر، (1429هـ/2008م).
**جوزيف نسيم يوسف.**
- تاريخ العصور الوسطى الاوربيّة و حضارتها، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، ط2، بيروت، 1987م.
- لويس التاسع في الشرق الأوسط (1250-1254م)، القاهرة، 1956م.
**حسن إبراهيم حسن.**
- تاريخ الإسلام(السياسي، و الديني، و الثقافي، و الإجتماعي)، مكتبة النهضة المصريّة، ط1، القاهرة، 1967م.
**حمادة محمد ماهر.**
- الوثائق السياسيّة والاداريّة للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1403هـ/1983م.
**حمدي حافظ.**
- الدولة الخوارزميّة والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م.
**دياب حسن.**
- أرمينيا من الفتح الإسلامي إلى مستهلّ القرن الخامس الهجري، دون طبعة، مصر، 1978م.
**رجب عبد الحليم محمّد.**
- انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربيّة، القاهرة، د. ت.
**رستم أسد.**
- الروم وسياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، المكتبة البولسية، ط 2، لبنان، 1988م.
**رنسيمان(ستيفن).**
- تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة الدكتور الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (1417هـ/1997م).

**ستودارد الأمريكي(لوثروب).**
- حاضر العالم الإسلامي، تعريب الأستاذ عجّاج نويهض، دار الفكر العربي، القاهرة، 15 ذي القعدة 1351هـ.
**السيّد أديب.**
- أرمينيا في التاريخ العربي، المطبعة الحديثة، الطبعة الأولى، حلب، 1972م.
**سرور، محمد جمال الدين.**
- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
**شبولير(بيرتولد).**
- المغول في التاريخ، الترجمة العربيّة ليوسف سلب الشام، دار طلاس، ط1،دمشق، 1989م.
- العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربيّة الأستاذ خالد اسعد عيسى، راجعه وقدّم له الدكتور سهيل زكّار، دارُ حسّان، ط1،دمشق،1402هـ/1982م.
**شكيب أرسلان.**
- تاريخ الدولة العثمانيّة، تحقيق حسن السمّاحي سويدان، ط1، دار ابن كثير، دمشق،2001م.
**صالح زهر الدين.**
- الأرمن شعب و قضيّة، الدار التقدُّميّة، لبنان، الطبعة 1، نيسان(أفريل) 1988م.
**صبحي عبد المنعم محمد.**
- سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام (716- 736هـ/1316-1335م)، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001م.
**الصلابي علي محمّد.**
- الدولة العثمانيّة(عوامل النهوض و أسباب السقوط)، دار التوزيعوالنشر الإسلامي، القاهرة، (1421هـ/2001م).
**طقوش محمد سهيل.**
- تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، ط 1، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923هـ/1250- 1517م)، دار النفائس، القاهرة، 1418هـ/1998م.
**عاشور، سعيد عبد الفتّاح.**
- مصر و الشام في عصر الأيُّوبيّين والمماليك، دار النهضة العربيّة، بيروت، دون طبعة و دون تاريخ.
- العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربيّة، القاهرة، ط1، 1965م.
- دراسات وبحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، دار الأحدب البحيري، 1977م.
- قبرص والحروب الصليبيّة، القاهرة، 1957م.
- الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2، القاهرة، 1963م.
**عاشور فايد حامد.**
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر، 1974م.

**عبّاس إقبال إشتياني.**
تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205ه/820م-1343ه/1925م)، نقله عن الفارسيّة محمّد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.
**عبد السلام محمّد هارون.**
- معجم مقيّدات ابن خلكان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، (1407ه/1987م).
**عبد النعيم حسنين.**
- إيران و العراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى،لبنان،1982م .
- سلاجقة إيران و العراق، المكتبة التاريخيّة، القاهرة، 1959م.
**العريني السيّد الباز.**
- المغول، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت، 1981م.
**عفاف سيد صبره.**
العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100-1400م، القاهرة، 1983م.
**العقيد محمّد أسد الله صفا.**
- جنكيزخان، دار النفائس، ط1،بيروت، 1408ه/1988م.
**علي إبراهيم حسن.**
- دراسات في تاريخ المماليك البحريّة وفي عصر الناصر محمّد، ط2،القاهرة، 1948م.
- تاريخ المماليك البحريّة، مكتبة النهضة المصريّة، ط 2، القاهرة، 1967م.
- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مطبعة النهضة المصرية، ط 1، القاهرة، 1947م.
**عمران، سعيد محمود.**
-المغول وأوربّا، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1997م.
- المغول والأوربيّون والصليبيّون وقضيّة القدس، دار المعرفة الجامعية،2003م.
- تاريخ الحروب الصليبيّة(1095-1291م)، دار النهظة العربيّة، ط2، بيروت 1999م؛ وطبعة دار المعرفة الجامعيّة، مصر، 2000م.
**فامبري(أرمينيوس).**
- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتّى العصور الحاضرة، تعريب أحمد محمود الساداتي، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1965م.
**فؤاد عبد المعطي الصيّاد.**
- المغول في التاريخ، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1980م.
**فهمي (عبد السلام).**
-تاريخ الدولة المغوليّة في إيران، مصر، دار المعارف، 1981م
**القزاز محمد صالح داوود.**
- الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، بغداد، 1970م.

**كارين آمسترونغ.**

- الحرب المقدّسة : الحملات الصليبيّة و أثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

**كليرفورد(ا. بوزورث).**

- الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي(دراسة في التاريخ و الأنساب)، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة سليمان إبراهيم العسكري، مؤسّسة الشراع العربي، الطبعة الثانية، الكويت، 1995م.

**كي لسترنج Le Strange(Guy).**

- بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ/1985م.

**محمّد جمال الدين سرور.**

- دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1993م.

**محمّد الخضري.**

- تاريخ الأمم الإسلاميّة(الدولة العبّاسيّة)، دار المعرفة، ط6، بيروت،2001م.

**مختار محمّد باشا.**

- كتاب التوفيقات الإلهاميّة في مقارنة التواريخ الهجريّة بالسنين الإفرنكيّة والقبطيّة، دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمّد عمارة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1، القاهرة، 1400هـ/1980م.

**موير، السير وليم .**

- تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م.

**نسيم، جوزيف.**

- لويس التاسع في الشرق الأوسط، القاهرة، 1956م.

**هايد (ف.).**

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيأة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1991م

**هلال، عادل إسماعيل محمّد.**

- العلاقات بين المغول و أوروبّا و أثرُها على العالم الإسلامي، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 1997م.

## ثانيًا- المصادر و المراجع باللغة الأجنبيّة:

### أ- المصادر الأجنبيّة:

**1- Bar-Hebraei (Gregorii),**

- Chronicon Syriacum, trans. by Paul Iacobus Bruns, Lipsic, 1789.

**2- Baronii(caesaris cardinal),**

- Annales ecclesiastici, italie, 1870.

**3- Cherefeddin Ali yazdi,**

- Zafernamah, traduction de Pétis de la Croix(François), Histoire de Timur-Bec connu sous le nom du grand Tamerlan empereur des Mogols et Tartares, Paris, 1722.

**4 - Chronique Anonyme des Rois de France** finissant en M. CC. LXXXVI, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

5- **Chroniques de Saint-Denis** depuis 1285 jusqu'en 1328, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

6- **Chronique du Religieux de Saint-Denys** contenant le régne de Charles VI, de 1380 á 1422, ed. et traduction de Bellaguet(M. L.), Paris, 1861.

7- **Chronographia regum Francorum**, publiée par Moranville(H.), Paris, 1897.

8- **Eracles,**

- l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer, in R.H.C., H.O., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

9- **Guillaume de Nangis,**

- Chronique Latine de Guillaume de Nangis, preparée par M.H. Géraud, Chez Jules Renouard et C$^{ie}$, Librairie de la societée de l'Histoire de France, Paris, 1843.
- Vie de Saint Louis, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

10- **Guillelmi De Nangiaco,**

- Chronicon, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.
- listoire du roy Phelippe fils de monseigneur saint Loys, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.
- continuatio Chronici Guillelmi De Nangiaco, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

11- **Guillaume de Rubruk,**

- Voyage dans l'Empire Mongol, traduction et commentaire de Claude et René Kapler, Payot, Paris, 1985.

12- **Guillaume de Tyr,**

- Continuation de Guillaume de Tyr, de 1229 à 1261, dite du Manuscrit de Rothelin, Rec. Hist. Crois., Hist. Occidentaux, Paris, 1869-1906.

13- **Guiragos de Kantzag,**

- Histoire d'Arménie, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, octobre 1833, Avril-Mais 1858, juin 1858.

14- **Hayton,**

- La Fleur des Histoires de la terre d'orient, traduction de Christiane Deluz, dans: Regnier-Bohler, Croisades et Pèlerinages, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte (XII$^{e}$- XVI$^{e}$) Siècle, édition Robert Laffont, S.A., Paris 1997.
- La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

15- **Henry de Sponde,**

- Continuations des Annales Ecclesiastiques du Cardinal Baronius, mises en Français par Pierre Coppin, T. I (commençant depuis l'an 1198 jusqu' à l'an 1377), Paris, 1654.

16- **Jean de Plan Carpin,**

- Histoire des Mongols, Traduction de M. Édouard charton, Voyageurs anciens et modern, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855.

17- **Jean du Plan de Carpin,**

- Histoire des Mongoles, dans Forstetter(Michel), Voyageurs étrangers en Russie : textes choisis du X$^{e}$ au XX$^{e}$ siècle, Paris, la Table Ronde, 1947.

18- **John of Plano Carpini,**

- History of The Mongols, in Dawson(C.), The Mongol Mission, sheed and ward, London and New York, 1955.

**19- Joinville,**
- Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en français moderne Par M. Natalis de Wailly, Paris, 1882.

**20- Le Laboureur(Jean),**
- Histoire de charles VI roy de France, Paris, 1663.

**21- Marco-Polo,**
- La Description du monde, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1ere edition, Paris, 1955.

**22- Matthew Paris,**
- La Grande chronique, tra. en français par A. Huillard-Breholles, Edition Paulin, Paris, 1840.

**23- Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik),**
- Histoire des Orpélians, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

**24- Philippe de Navarre et Gerard de Montreal,**
- Chronique du Templier de Tyr (1241-1309), dans : les Géstes des Chiprois publié par Gaston Raynaud (Société de l'Orient Latin), Geneve, 1887.
- Les Géstes des Chiprois, in R.H.C., D.A., publication de l'A.I. B.L., Paris, 1869-1906.

**25- Primat (Le Moine),**
- Chronique de prima, traduction de Jean De Vignay, dans Receil des historiens des Gaules et de la France, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

**26- Raynaldus(OD.),**
- Annales Ecclesiastici, Paris, 1871.

**27- Receil des historiens des Gaules et de la France**, publier par MM. Daunou et Naudet, Paris, imprimerie royale, 1840.

**28- Ruy Gonzalez De Clavijo,**
- Vida del Gran Tamorlan, in Argote(de Molina G.), Historia del gran tamorlan, segunda impresion, Madrid, 1782.

**29- Sĕmpad le Connétable,**
- Chronique du royaume de la petite Arménie, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906.

**30- Simon de Saint Quentin,**
- Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris,1965.

**31- Tchamtchen,**
- Histoire Arménienne, Traduction Dulaurier, dans J.A., T.XII, Paris, septembre 1833.

**32- Vahram D'Edesse,**
- Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie, dans R.H.C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

**33- Vartan Le Grand,**
- Histoire universelle, traduction Dulaurier, dans J.A., (octobre-novembre) 1860.

**34- William of Rubruck,**
- The journey, in Dawson(C.), The Mongol Mission, sheed and ward, London and New York, 1955.

## ب- المراجع الأجنبيّة :


**1- Abel-Remusat(J.),**

- Mémoire sur les relations politiques des Princes Chretiens, et particulierement des Rois de France, avec les Empereurs Mongols, in Memoires de l'Istitut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, VII, Paris, 1824.

**2- Alem (Jean-Pierre),**

- L'Armenie, ed. Que Sais-je, numéro 851, Paris,1959.

**3- Antonin Debidour,**

- Les Chroniqueurs (Villehardouin- Joinville), Paris, 1892.

**4- Atiya(Aziz Suryal),**

- Egypt and Aragon : Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 A.D., Leipzig, 1938.
- "The Crusade in the Fourteenth Century", in Setton (Kenneth M.), A History of The Crusades, III, 1975.
- The Crusade in the Later Middle Ages, second edition, New York, 1970.

**5- Barthold(W.),**

- Histoire des Turcs d'Asie central, adaptation Francaise Par M[me] M. Douskis, Librairie d'Amerique et d'Orient (Adrien-Maison-neuve), Paris $6^0$, 1945.

**6- Bartold (Spuler),**

- Die Mongolen in Iran, Liepzig, 1939.

**7- Beazley (Raymond C.),**

- The Dawn of Modern Geography, Oxford, carendon press, 1906.

**8- Bernard de Vaulx,**

- Les Missions: leurs histoires des origines à Benoit XV(1914), Paris XIV, 1960.

**9- Boyle(John Andrew),**

- The IL-Khans of Persia and the Christian West, History Today, XXIII, 8, 1973.
- The Il-Khans of Persia and the prince of Europe, central Asiatic journal, Vol. 20, No.1/2, 1976.

**10- Bratianu(G.I.),**

- Recherche sur le commerce Génois dans la mer noire au XIII[e] Siecle, Paris, 1929.

**11- Browne(Edward Granville.),**

- A Literary History of Persia, Adelphi terrace, London, 1906.
- A History of Persian Literature under Tartar dominion (A.D. 1265- 1502), Cambridge University Press, London, 1920.

**12- Cahen(Claude),**

- Saint Louis et L'Islam, dans J.A., Paris, 1970.

**13- Cahun(Léon),**

- Introduction á l'Histoire de l'Asie Turcs et Mongols des origines á 1405, Paris, 1896.

**14- Chabot(J.b.),**

- « Notes sur les relations du roi Argun avec l'Occident, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894.
- Documents concernant Mar Jabalaha, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894.
- Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Revue de L'orient latin, II, Paris, 1894.
- Histoire de Mar Jabalaha III et du moine Rabban Çauma, Paris, 1895.

**15- Chardin(P. Pacifique),**

- Les Missions Franciscaines en Chine, Éd. Auguste Picard, Paris, 1915.

**16- Charton(M. Édouard),**

- Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855.

**17- Cordier (Henry),**
- Les Voyages en Asie au XVI$^{e}$ siecle du bien heureux frére Odoric de Pordenone religieux de Saint-François, Paris, 1891.

**18- Dardel(Jean),**
- Chronique D'Arménie, dans R. H. C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

**19- Dawson (Christopher),**
- The Mongol Mission, First Published by Shed and Ward LTD, London, 1955.

**20- Deguigne,**
- Histoire générale des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux, Paris,1756-1758.

**21- Delaborde (Francois, H.),**
- Lettre des Chretiens de Terre Sainte á Charles d'Anjou(22 Avril 1260), Revue de l'Orient Latin, Paris, 1894.

**22- Denise Aigle,**
- De la « Non-Négociation » a l'alliance inaboutie reflexions sur la diplomatie entre les Mongols et l'Occident Latin, in Oriente Moderno, Nuova serie, Nr. 2, 2008.
- The letters of Elgidei, Hulegu, and Abaqa : Mongol Overtures or Christian Ventriloquism?, Inner Asia, Brill, England, 2005, No. 2, Vol. 7.

**23- Denis Sinor,**
- The Mongols and western europe, in Setton (Kenneth M.), A History of the crusades, éd. Marshall W. Baldwin, Philadelphia, 1975.
- The Mongols in the west, in Journal of Asian History, Vol. 33, No. 1, 1999.

**24- Depping(G.B.),**
- Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amerique, Paris, 1830.

**25- D'Ohsonn (Constantine le Baron),**
- Histoire des Mogols depuis Tchinguiz Khan jusqu'a Timour Beyou Tamerlan, Paris, 1824, Amsterdam, 1834-1836.

**26- Fontana(Vicentio Maria),**
- Monumenta Dominicana, Romae, 1675.

**27- Gossipe(R.),**
- History of Russia, Glasgow and London, 1880.

**28- Grand Larousse Encyclopedique**, Paris VI$^{e}$, Librairie Larousse, 1968.

**29- Grousset(René),**
- Histoire des croisades et du royaum franc de Jerusalem, Paris, T. III, 1936.
- l'Empire des Steppes: Attiya, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, Paris (16, Boulevard S$^{t}$ Germain), 1939.
- l'Empire du Levant, Académie Française, Payot, Paris, 1946.

**30- Grekov(B.) et Iakoubovski(A.),**
- la Horde D'Or: la dominationtatare au XIII$^{e}$ et au XIV$^{e}$ siécles de la mer jaune à la mer noire, traduit du russe par François thuret, Payot, Paris, 1939.

**31- Guzman(Gregory G.),**
- The Encyclopediste Vincent of Beauvais and his Mongol extracts from John Of Plano Carpini and Simon of Saint-Quentin, in Speculum (a journal of medieval studies), the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, April 1974.
- Simon of Saint-Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju, in Speculum (a journal of medieval studies), the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, 1971.

**32- Hambis (Louis),**
- Saint Louis et les Mongols, dans J.A., T.CCLVII, Paris 1970.

**33- Heyd(W.),**
- Histoire du commerce du Levant au Moyen-Âge, Paris, 1885.

**34- Hillgarth(J.N.),**
- Raymon Lull and Lullism in fourteenth centry, Oxford, 1971.

**35- Howorth(Sir Henry Hayle),**
- History of the Mongols from the 9th to the 19th centry, Longmans Green and Co., London, 1876-1927.

**36- Jacques Boudet,**
- Chronologie Universelle d'Histoire, Paris, collection in extenso, aout 1997.

**37- Jacques de Morgan,**
- Histoire du peuple Arménien depuis les temps les plus reculés de ses annales jusqu'á nos jours, Paris, 1919.

**37- Karamazin(Nicolay Mikhailovich),**
- Histoire de l'Empire de Russie, traduction de MM. St. -Thomas et Gauffret, Paris, 1819.

**38- Kehren(Lucien),**
- Temoignages d'Européens sur Tamerlan revisités Clavijo et Schiltberger, Dans la Civilta Timuride comefenomeno internazionale, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 15 (76), Nr. 2, 1996.

**39- Klaproth,**
- Rapport sur les ouvrages du Professeur Hyacinthe Bitchonrinski, Relatifs à l'Histoire des Mongols, dans J.A., Paris, juillet 1830.

**40- Knobler (Adam),**
- Pseudo-Conversions and Patchwork Pedigrees: The Christianization of Muslim Princes and the Diplomacy of Holy War, Journal of World History, Vol. 7, No. 2 (Fall, 1996).

**41- Kohler(Charles),**
- « deux projets de croisade en terre Sainte », XIIIe- XIVe siecles, Revue de L'orient latin, Paris, 1903- 1904.

**42- Labib(Sobhi),**
- "Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area, "Recueils de la Société Jean Bodin pour l'Histoire Comparative des Institutions, Bruxelle, 1974.

**43- Lane(Frédéric C.),**
- Venice: A Maritime Republic, John Hopkins University Press, Baltimore and London , 1973.

**44- Lane-Pool,**
- A History of Egypt in the Middle Ages, J.M. Deut, London, 1925.

**45- Langlois charles-Victor et Kohler charles,**
- Lettres Inedites concernant les croisades (1275- 1307), Bibliotheque de l'ecole des Chartes, Tome 52, 1891.

**46- Langlois(Ernest M.),**
- Les Registres de Nicolas IV : Recueil des Bulles de ce Pape, Paris, 1886.

**47- Lecoy A. De la marche,**
- La France sous Saint Louis et sous Philippe le Hardi, Paris, 1803.

**48- Lemerle(Paul),**
- Saint Louis et Byzance, dans J.A., Paris, 1970.

**49- Lockhart (L.),**
- "Persia as Seen by the West", in A. J. Arberry(ed.): The Legacy of Persia, Oxford, 1953.
- "The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol II-Khans of Persia", Iran Journal of Persian Studies, VI, 1968.

50- **Luisetto (frederic),**
- Armeniens et autres chretiens d'Orient sous la domination Mongole, L'Ilkhanat de Ghasan (1295- 1304), edition Geuthner, Paris, 2007.

51- **Marshall(Baldwint w.),**
- Missions to the East in the thirteenth and fourteenth centuries, in Setton(K.), A History of the crusades, Wisconsin University Press, T.V, 1985,

52- **Michaud,**
- Histoire des croisades, cinquième édition, Paris, 1838- 1856.
- bibliographie des croisades, Paris, Libraire Palais royal, 1822.

53- **Moranvillé(H.),**
- Mémoire sur Tamerlan et sa cour par un dominicain, en 1403, dans Bibliothèque de l'École des chartes, 1894.

54- **Mostaert(Antoine) and Cleaves(Francis Woodman),**
- Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes, Harvard Journal of Asiatic Studies, vol. XV, Decembre 1952.
- Les Lettres de 1289 et de 1305 des Ilkhans Arghun et Öldjeitü a Philippe le Bel, dans Harvard Yenching institute Scripta-Mongolica: Series I, Cambridge, Mass.,1962.

55- **Muir(W.E.),**
- The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1896.

56- **Ostrogorsky(Georges),**
- Histoire de l'état Byzantin, Payot, Paris, 1977.

57- **Pasdermadjian (H.),**
- Histoire d'Armenie des origines jusqu'au traité de Lausanne, Paris, (Deuxiéme Edition revue),1964.

58- **Paul Meyvaert,**
- An unknown Letter of Hulagu, IL-khan, of Persia to king Louis IX of France, Viator, XI, 1980.

59- **Pauthier(G.),**
- Histoire des Relations politiques de la chine avec les Puissances occidentales depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, , Paris, 1859.

60- **Paviot(Jacques),**
- England and the Mongols (c. 1260-1330), Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3, November 2000.

61- **Pelliot(Paul),**
- "Les Mongols et la Papauté", Revue de L'Orient Chretien, 3rd Series, Paris, Imprimerie Nationale, (1922), (1924), (1931).

62- **Rachewiltz(Igor de),**
- Papal Envoys to the Great Khans, London, 1970.

63- **Reinaud (M.),**
- Lettre de Joseph de Cancy : Chevalier de l'Ordre de Saint-Jean-de-Jerusalem, à Edouard I$^{er}$, Roi d'Angleterre, contenant la relation de la bataille d'Emesse et des Événements qui se sont passés dans la Terre-Sainte vers la fin de l'année 1281, Bulletin de la Société de l'histoire de France, T. I, No. 2, 1834.
- Extraits des Histoires Arabes relatifs aux guerres des croisades, Imprimerie Royale, Paris, 1829.

64- **Rey(E.),**
- Les Dignitaires de la Principautè d'Antioche, Revue de l'Orient Latin, Tome VIII, Paris, 1900- 1901.

**65- Richard(Jean),**
- European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th-15 th Centruries), iran Journal of Persian Studies, vol. 6, 1968.
- La Papauté et les Missions d'Orient au Moyen Age(XIII$^{e}$-XV$^{e}$ siecle), collection de l'école Francaise de Rome, Paris (Palais Farnése), 1977.
- le début des relations entre la papauté et lesmongols de perse, journal asiatique, 1949.
- Les Missions chez les Mongols au XIII$^{e}$ et XIV$^{e}$ siècle, dans Histoire Universel des missions catholiques: les Missions des Origines au XVI$^{e}$ siécle, librairie Grund, Paris, 4$^{e}$ Trimestre 1956.
- Sur les pas de Plan Carpin et de Rubruck: La Lettre de Saint Louis à Sartaq, dans Journal des savants, Académie des inscriptions et belles lettres, Paris (Ed. Klincksséck), janvier-mars, 1977.
- The Mongols and the Franks, Journal of Asian History, Harrassowitz Verlag, V. 3, no.1, 1969.

**66- Riley(Smith Jonathan),**
- The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (1050- 1310), London, 1967.

**67- Roberg(Burkhard),**
- "Die Tartaren auf dem 2 Konzil von Lyon 1274", Annuarium Historiae Conciliorum, V, 1973, Helft 2.

**68- Roux(Jean-Paul),**
- Histoire de l'Empire Mongol, librairie Arthem Fayard, Paris, 1993.

**69- Rubens (Duval M.),**
- Le Patriarche Mar Jabalaha II et les Princes Mongols de L'Adherbaidjan, dans journal asiatique, (Avril-Mai-Juin) 1889.

**70- Runciman (Steven),**
- A History of crusades, First pub., Cambridge University Press, London, 1951.
- "The Crusader States 1243-1291", in Setton (Kenneth M.), A History., vol. II, 1969.

**71- Ryan(James Daniel),**
- Nicolas IV and the evolution of the eastern missionary effort, Archivum Historiæ Pontificiæ , 1981.

**72- Sanders(J.T.),**
- The History of the Mongol conquests, Cambridge University Press, London, 1871.

**73- Saint-Marc(M. de),**
- Abrégé chronologique de l'Histoire Generale d'Italie (depuis l'an 1220 jusqu'à 1314), Paris, 1770.

**74- Saint-Martin(J.),**
- Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

**75- Schein(Sylvia),**
- " Gesta Dei Per Mongolos 1300. The genesis of a non-event ", The English Historical Review, vol. 94, No. 373, October 1979.

**76- Setton (Kenneth M.),**
- The Papacy and The Levant, (1204- 1571), London, Vol. I, 1976.
- A History of the crusades, ed. Marshall W. Baldwin, 5 Vol., Philadelphia, 1955-1985.

**77- Silvestre de Sacy(M. Le Baron),**
- Mémoire sur le traité fait entre Philippe-Le Hardi et le Roi de Tunis en 1270, Paris, 1825.
- Piéces diplomatiques tirées des archives de la république de Génes, dans Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliotheque du Roi et autres bibliotheques, l'institut royale de France, Paris, 1827.

**78- Silvestre de sacy(M. Le Baron)**,
- Mémoire sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans Mémoires de l'institut royal de France, académie des inscriptions et belles lettres, Paris, 1822.

**79- Sirarpie(Der Nersessian),**
- The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton (Kenneth M.),A History of the Crusades, Vol. II: The Later Crusades 1189-1311, 1969.

**80- Stevenson(W.B.),**
- The Crusaders in the East (A brief History of the wars of Islam with the Latins in Syria during the twelfth and thirteenth century), Cambridge, University press, London, 1907.

**81- Strayer(Joseph R.),**
- "The Crusades of Louis IX", in Setton (Kenneth M.), A History of the Crusades, Vol. II., The Later Crusades 1189-1311, 1969.

**82- Sykes (Sir Lieut. Col. Percy M.),**
- A History of Persia, London, 1915.

**83- Tanase(Thomas),**
- Une Lettre Latine inédite de l'Ilkhan Abaqa au Pape Nicolas III : Croisade ou Mission ?, oriente Moderno, 2008, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2.

**84- Turner(H. Hudson),**
- "Unpublished Notices of the Times of Edward I, Especially of his Relations with the Monghul Sovereigns of Persia", in the Archaeological Journal, London, 1851.

**85- Vasilieve(A.A.),**
- Histoire de l'empire Byzantin, Traduction du Russe par P. Brodin et A.Bourguina, Édition Picard, Paris, 1932.

**86- Wiet(Gaston M.),**
- L'Egypte Arabe , de la conquête arabe á la conquête ottomane(642- 1517), Dans Hanotaux (G .), Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937.

**87- Xavier Hélary,**
- Les Rois de France et la Terre Sainte de La croisade de Tunis à la chute d'Acre (1270-1291), in Annuaire-Bulletin de la Société de l'histoire de France, 2005.

**88- Yule, Henry (ed.),**
- Cathay and the Way Thither, 3 vols, London, 1914.

**89- Ziada(Mustafa M.),**
- the Mamluk Sultans(1291- 1517), in Setton (Kenneth M.), A History of the crusades, 1975.

## ثالثًا- الرسائل الجامعيّة و الأطروحات :

**بوعماما(فاطمة).**
- العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة1375م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د. إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعيّة(1414-1415هـ/1993-1994م)، غير مطبوعة.

## رابعًا- الموسوعات و القواميس:

**دائرة المعارف الإسلاميّة.**
- تأليف بطرس البستاني، دائرة المعارف، دون طبعة، بيروت، دون تاريخ.

**الزركلي خير الدين.**

- الأعلام(قاموس التراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين)، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، مايو 1986م.

**الموسوعة العربيّة العامّة.**

- مؤسّسة أعمال المؤسّسة للنشر و التوزيع، ط2، الرياض، (1419هـ/1999م).

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |